

الروض الأنف

في تفسير السيرة النبوية لابن هشام

للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن
الخثعمي السهيلي
المتوفى سنة ٥٨١ هـ

ومعه

السيرة النبوية

للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري
المتوفى سنة ٢١٣ هـ

علق عليه ووضع حواشيه
مجدي بن منصور بن سيد الشورى

تنبيه

وضعنا نص السيرة النبوية لابن هشام في أعلى الصفحات
ووضعنا أسفل منها نص الروض الأنف
وفصلنا بينهما بخط

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



مبادأة رسول الله ﷺ قومه

قال ابن إسحٰق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحُدِّث به. ثم إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أمر رسولَه ـ ﷺ ـ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يباديَ الناسَ بأمره، وأن يدعوَ إليه، وكان بين ما أخفَى رسولُ الله ـ ﷺ ـ أمرَه، واستتَر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاثُ سنين ـ فيما بلغني ـ من مَبْعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ وأعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿وأنْذِرْ عَشِيرتَكَ الأقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وقُلْ إنّي أنا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[1] [الشعراء: ٢١٥ ـ ٢١٧].

قال ابن هشام: فاصدع: افرُق بين الحقّ والباطل. قال أبو ذُؤَيب الهذليّ، واسمه: خُويلد بن خالد، يصف أُتُن وَحْش وفَحْلَها:

وكأنهنَّ رِبابَةٌ، وكأنّه ... يَسَرٌ يَفِيض على القِداح ويَصْدَعُ

مبادأة رسول الله ﷺ قومه

أصل الصلاة لغة:

ذكر في الحديث: أن أبا طالب حَدِبَ على رسول الله ـ ﷺ ـ وقام دونه: أصل الْحَدَبِ: انحناءٌ في الظهر، ثم استُعِير فيمن عطف على غيره، ورقّ له كما قال النابغة:

حَدِبَتْ عليّ بطونُ ضَبَّة كلها ... إنْ ظالمًا فيهم، وإنْ مظلوما

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٩٩) والوفا (٢٤٠) والمنتظم لابن الجوزي (١/ ٣٦٤).

أي: يُفرّق على القِداح ويبيّن أنصباءها. وهذا البيت في قصيدة له. وقال رؤبة بن العجّاج:

أنتَ الحَليمُ، والأميرُ الْمُنْتَقم   تَصْدَعُ بالحقّ، وتنفِي مَن ظَلَمْ

وهذان البيتان في أُرجوزة له.

صلاة الرسول وأصحابه في الشعاب:

قال ابن إسحٰق: وكان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا صلَّوا، ذهبوا في الشِّعاب، فاسْتَخْفَوْا بصلاتهم من قومهم، فبينا سَعْد بن أبي وقّاص فِي نَفَرٍ من أصحاب رسول الله - ﷺ - في شِعْبٍ من شِعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين - وهم يصلُّون - فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدُ بن أبي وقّاصٍ يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْي بعير، فشجَّه، فكان أوّلَ دم هُريق في الإسلام[1].

عداوة الشرك للرسول ومساومته لعمّه:

قال ابن إسحٰق: فلما بادى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قَومه بالإسلام وصدَع به كما أمره الله، لم يبعد منه قَوْمُه، ولم يردّوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خِلافَه وعداوتَه، إلا مَنْ عَصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مُسْتخفُون، وحَدِب على رسول الله ﷺ عمُّه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسولُ الله - ﷺ - على أمر الله، مُظْهرًا لأمره، لا يردّه

ومثل ذلك الصلاة، أصلها: انحناء وانعطاف من الصَّلَوَيْن وهما: عرقان في الظهر إلى الفخذين، ثم قالوا: صَلَّى عليه، أي: انحنى عليه، ثم سمُّوا الرحمة حُنُوًّا وصلاة، إذا أرادوا المبالغة فيها، فقولك: صلّى الله على محمد، هو أرقّ وأبلغ من قولك: رحم الله محمدًا في الحنوّ والعطف. والصلاة أصلها في المحسوسات عُبِّر بها عن هذا المعنى مبالغة وتأكيدًا كما قال الشاعر:

فما زِلت في لِيني [له] وتعطُّفي   عليه، كما تحنو على الولد الأُمّ

ومنه قيل: صَلَّيت على الميت أي: دعوت له دعاء مَن يحنو عليه ويتعطّف عليه. ولذلك لا تكون الصلاة بمعنى الدعاء على الإطلاق: لا تقول: صَلَّيتُ على العدو، أي: دعوت عليه. إنما يقال: صَلَّيتُ عليه في معنى الْحُنُوّ والرحمة والعطف؛ لأنها في الأصل

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الوفا (٢٦٣) وذكره ابن الجوزي في المنتظم (١/ ٣٦٧) ونسبه لابن برير.

عنه شيء. فلما رأت قريش، أن رسول الله ﷺ لا يُعْتبهم مِنْ شيء، أنكروه عليه، مِن فراقهم وعَيْب آلهتهم، ورأوْا أن عمَّه أبا طالب قد حَدِب عليه، وقام دونه، فلم يُسْلمه لهم، مشى رجالٌ من أشراف قُريش إلى أبي طالب، عُتبةُ وشَيْبة ابْنا ربيعة بن عبد شَمْس بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لؤيّ بن غالب. وأبو سفيان بن حَرْب بن أُميَّة بن عبد شَمْس بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَيّ بن غالب بن فِهْر.

قال ابن هشام: واسم أبي سفيان: صَخْر.

قال ابن إسحٰق: وأبو البَخْتَرِيّ، واسمه: العاص بن هشام بن الحارث بن أسَد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بن كِلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لؤيّ.

انعطاف، ومن أجل ذلك عُدِّيت في اللفظ بعلَى، فتقول: صلّيت عليه، أي: حَنَوْتُ عليه، ولا تقول في الدعاء إلا: دعوتُ له، فتُعَدِّي الفعل باللام، إلاَّ أنْ تريد الشرَّ والدعاءَ على العدو، فهذا فرق ما بين الصلاة والدعاء، وأهْلُ اللغة لم يفرقوا، ولكن قالوا: الصلاة بمعنى الدعاء إطلاقًا، ولم يَفرقُوا بين حالٍ وحالٍ، ولا ذكروا التعدّي باللام، ولا بعلى، ولا بدّ من تقييد العبارة، لما ذكرناه، وقد يكون الْحَدَبُ أيضًا مستعملاً في معنى المخالفة إذا قُرن بالْقَعَسِ كقول الشاعر:

وإن حَدِبُوا، فأقعَس[1] وإن هم تقاعسوا   لينتزعوا ما خَلْفَ ظهرك فاحْدَب

وكقول الآخر:

ولن يُنَهْنِه[2] قومًا أنت خائِفَهم   كمثل وَقْمِك[3] جُهّالاً بِجُهَّال

فاقْعَسْ إذا حَدِبوا، واحدب إذا قَعِسوا   ووازن الشرَّ مِثْقَالاً بمثقال

أنشده الجاحظ في كتاب الحيوان له.

أبو البختري:

فصل: وذكر مجيء النفر من قريش إلى أبي طالب في أمر النبي ﷺ، وذكر أنسابهم،

---

(١) القعس: دخول الظهر وخروج الظهر. والقصيدة في كتاب الحيوان للجاحظ (٥/ ١٧٤) منسوبة لأبي الأسود الدؤلي. والقاف والعين والسين أصل صحيح يدل على ثبات وقوة، والأقعسان: جبلان طويلان، وليل أقعس: أي طويل ثابت. انظر مقاييس اللغة (٥/ ١٠٩).

(٢) نهنه: زجر.

(٣) وقم الرجل: أكرهه وأذله.

قال ابن هشام: أبو البَخْتَرِيّ: العاص بن هاشم.

قال ابن إسحٰق: والأسود بن المطَّلب بن أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصيّ بن كلاب بن مُرّة بن كَعْب بن لؤَيّ. وأبو جهل - واسمه عمرو، وكان يُكْنى أبا الحَكَم - ابن هشام بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم بن يقَظَة بن مُرّة بن كَعْب بن لُؤَيّ. والوليد بن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم بن يَقَظَة بن مرّة بن كعب بن لؤي، ونُبيه ومُنبِّه ابنا الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤَيّ. والعاص بن وائل.

قال ابن هشام: العاص بنُ وائل بن هاشم بن سُعَيد بن سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤَيّ.

قال ابن إسحٰق: أو مَنْ مشى منهم. فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإمَّا أن تُكفَّه عنَّا، وإما أن تُخلِّي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنَكْفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردّهم ردًّا جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسولُ الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهِر دينَ الله، ويدعو إليه، ثم شَرِيَ الأمرُ بينه وبينهم حتى تباعد الرجالُ، وتضاغنوا، وأكثرت قُرَيشٌ ذِكْرَ رسول الله - ﷺ - بينها، فتذامروا فيه، وحضَّ بعضُهم بعضًا عليه، ثم إنهم مَشَوْا إلى أبي طالب مرّة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنّا قد اسْتَنْهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهه عنَّا، وإنّا والله لا نَصْبر على هذا مِنْ شَتم آبائنا، وتَسْفيه أحلامنا، وعَيْب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا، أو نُنازله وإيَّاك في ذلك، حتى يَهْلِك أحدُ الفريقين، أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعَداوتهم، ولم يَطِبْ نفسًا بإسلام رسول الله - ﷺ - لهم ولا خِذْلانه[1].

وذكر فيهم أبا البَخْتَرِيّ بن هشام، قال: واسمُه: العاصي بن هشام، وقال ابن هشام: هو العاصي بن هاشم، والذي قاله ابن إسحٰق هو قول ابن الكلبي، والذي قاله ابن هشام هو قول الزبير بن أبي بكر وقول مُصْعَبٍ[2] وهكذا وجدت في حاشية كتاب الشيخ أبي بحر: سفيان بن العاصي.

---

(١) البيهقي في الدلائل (٢/ ١٨٧) وابن الجوزي المنتظم (١/ ٣٦٨) الكامل لابن الأثير (١/ ٥٨٥).
(٢) انظره في نسب قريش (٢٠٩).

مناصرة أبي طالب للرسول ﷺ

قال ابن إسحٰق: وحدّثني يعقوب بن عُتْبة بن المُغيرة بن الأخْنس أنه حُدِّث: أنَّ قُريشًا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: يا بن أخي، إنّ قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبْقِ عليّ، وعلى نفسك، ولا تُحَمّلني من الأمر ما لا أُطيق: فظنّ رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قد بدَا لعمه فيه أنه خاذِلُه ومُسْلمه، وأنه قد ضعُف عن نصرته والقيَام معه. قال: رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يَميني، والقمرَ في يَساري على أن أترك هذا الأمر

لو وضعوا الشمس في يميني

فصل: وذكر قول النبي ـ ﷺ ـ «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أدعَ هذا الذي جئت به ما تركته»، أو كما قال[1]. خَصَّ الشمسَ باليمين؛ لأنها الآية الْمُبْصِرةُ، وخصّ القمر بالشمال لأنها الآية الْمَمْحُوّة، وقد قال عمر ـ رحمه الله ـ لرجل، قال له: إني رأيت في المنام كأن الشمسَ والقمر يقتتلان، ومع كل واحد منهما نُجُومٌ، فقال عمر: مع أيّهما كنت؟ فقال: مع القمر، قال: كنت مع الآية الْمَمْحُوَّة، اذهب، فلا تعمل لي عملاً، وكان عاملاً له، فعزَلَه، فقُتل الرجل في صِفِّينَ مع معاوية، واسمه: حابس بن سعد، وخصّ رسول الله ـ ﷺ ـ النَّيِّرين[2] حين ضَرب المثل بهما؛ لأن نورَهما محسوسٌ، والنورُ الذي جاء به من عند الله ـ وهو الذي أرادوه على تركه ـ هو لا مَحَالَة أشرفُ من النور المخلوقِ، قال الله سبحانه: ﴿يُريدون أنْ يُطْفِئوا نُورَ الله بأفواهِهِم ويأبى اللّهُ إلاّ أن يُتِمّ نورَه﴾ [التوبة: ٣٣]. فاقتضت بلاغة النبوة ـ لما أرادوه على ترك النور الأعلى ـ أن يقابله بالنور الأدنى، وأن يخصّ أعلى النيِّرين، وهي الآية المبصِرة بأشرف اليدين، وهي اليمنى بلاغةً لا مثلها، وحكمة لا يَجهل اللبيبُ فضلها[3].

البـداء:

وقول ابن إسحٰق: ظنّ رسول الله ـ ﷺ ـ أن قد بَدَا لعمّه بَداء، أي: ظهر له رأي،

---

(١) «ضعيف». أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٤٥) والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٨٧) وابن إسحٰق في المغازي (١/ ٢٨٤). وهو معضل.

(٢) النيرين: الشمس والقمر.

(٣) تقدم تخريج الحديث وبيان ضعفه وبين السهيلي على بعض الأحاديث الضعاف كلام كثير وإن كان حسنًا وتأويل وتفسير مقبول، ولكنه يزداد حُسنًا إذا كان الحديث صحيح. فرحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه الله عنّا كل خير.

حتى يُظهره الله، أو أهْلِكَ فيه، ما تركتُه». قال: ثم اسْتَعْبَرَ رسول الله - ﷺ - فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقْبِل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله - ﷺ - فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببتَ، فوالله لا أُسْلِمك لشيء أبدًا.

قال ابن إسحٰق: ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبَى خذلان رسول الله - ﷺ - وإسلامه وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم، مشَوْا إليه بعُمارة بن

فسمّى الرأي بَداء، لأنه شيء يبدو بعد ما خفي، والمصدر البَدْء والبُدُوّ والاسم: البَدَاء، ولا يقال في المصدر: بَدا له بُدُوٌّ، كما لا يقال: ظهر له ظهورٌ بالرفع؛ لأن الذي يظهر، ويبدو هاهنا هو الاسم: نحو الْبَدَاء وأنشد أبو علي:

لعلك والموعودُ حَقٌّ وَفاؤُه بدا لك في تلك الْقَلُوصِ[1] بَدَاء

ومن أجل أن البُدُو هو الظهور، كان البَداء في وصف الباري - سبحانه - مُحالاً؛ لأنه لا يبدو له شيء كان غائبًا عنه، والنَّسْخُ للحكم ليس ببَدَاء كما توهمت الجَهَلَة من الرافضة واليهود، إنما هو تبديل حكم بحكم بقَدَر قدَّره، وعلم عِلمه، وقد يجوز أن يقال: بَدَا له أن يفعل كذا، ويكون معناه: أراد. وهذا من المجاز الذي لا سبيل إلى إطلاقه إلا بإذن من صاحب الشرع، وقد صحّ في ذلك ما خرّجه البخاري في حديث الثلاثة: الأعمى والأقرع والأبرص، وأنه عليه السلام قال: بدا لله أن يبتلِهم[2]، فبدا هنا بمعنى: أراد، وذكرنا الرَّافضة، لأن ابن أعين، ومَن اتبعه منهم، يُجيزون البَدَاء على الله تعالى، ويجعلونه والنسخَ شيئًا واحدًا، واليهود لا تُجيز النسخ يحسبونه بَدَاءً، ومنهم مَن أجاز البَدَاء كالرافضة، ويُروَى أن عليًا - رحمه الله - صلّى يومًا، ثم ضحك فَسُئِل عن ضَحِكه فقال: تذكرت أبا طالب حين فرضت الصلاة، ورآني أُصلّي مع رسول الله - ﷺ - بنخلة فقال: «ما هذا الفعل الذي أرى»؟ فلما أخبرناه، قال: «هذا حسن، ولكنْ لا أفعله أبدًا، لا أُحبّ أنْ تعلُوني اسْتِي» فتذكرت الآن قوله، فضحكت[3].

عرض قريش على أبي طالب:

فصل: وذكر قول الْمَلأ من قريش لأبي طالب: هذا عُمَارة بن الوليد أنْهَد فتًى في قريش، وأجمله، فخذه مكان ابن أخيك. أنهدُ. أي: أقوى وأجلد، ويقال: فرسٌ نَهْدٌ للذي يتقدّم الخيل، وأصل هذه الكلمة: التقدم، ومنه يقال: نَهدَ ثديُ الجارية، أي: برز قُدُمًا.

---

(١) القلوص من الإبل: الشابة. (٢) «صحيح». أخرجه البخاري (٣/ ١٣٧).
(٣) أخرجه ابن الجوزي في المنتظم (١/ ٣٥٩).

الوليد بن الْمُغِيرة، فقالوا له ـ فيما بلغني ـ: يا أبا طالب، هذا عُمَارَةُ بن الوليد، أنْهَدُ فَتى في قريش وأجملُه، فخذْه فلك عَقْله ونَصْرُه، واتخذْه ولدًا فهو لك، وأسْلِمْ إلينا ابنَ أخيك هذا، الذي قد خالف دينَك ودينَ آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفَّه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل، فقال: والله لبئس ما تَسُومونني! أتُعطونني ابنَكم أغذوه لكم، وأُعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا. قال: فقال الْمُطْعِم بن عَدِيّ بن نوفل بن عبد مناف بن قُصَيّ: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومُك، وجهدوا على التخلّص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال أبو طالب للمُطعم: والله ما أنصفوني، ولكنَّك قد أجمعتَ خذلاني ومُظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بَدَا لك، أو كما قال. قال: فحَقِبَ الأمر، وحَميت الحربُ، وتنابذ القومُ، وبادى بعضُهم بعضًا.

فقال أبو طالب عند ذلك ـ يُعَرّض بالمُطْعِم بن عديّ ـ ويَعُمُّ مَن خذَله من بني عَبْد مناف، ومَنْ عاداه من قبائل قُرَيش، ويذكر ما سألوه، وما تباعد من أمرهم:

وعمارة بن الوليد هذا المذكور هو: الذي أرسلته قريش مع عمرو بن العاص إلى أرض الحبشة فسُحر هناك، وجُنّ، وسنزيد في خبره شيئًا بعد هذا إن شاء الله.

وذكَروا أن أبا طالب قال لهم حين سألوه أن يأخذ عُمارة بدلاً من محمد ﷺ: أرأيتم ناقة تحنّ إلى غير فصيلها وتَرْأَمُه[1] لا أُعطيكم ابني تقتُلونه أبدًا، وآخذ ابنَكم أكفله، وأغذوه، وهو معنى ما ذكر ابن إسحٰق قال ابن إسحٰق فَحقِب الأمرُ عند ذلك، يريد: اشتد، وهو من قولك: حِقب البعير إذا راغ عنه الحَقَب من شدة الجهد والنصب، وإذا عسر عليه البول أيضًا لشدّ الْحَقَبِ[2] على ذلك الموضع، فيقال منه: حَقِب البعير، ثم يستعمل في الأمر إذا عَسِرَ، وكذلك قوله: فشَرِي الأمر عند ذلك، أي: انتشر الشرّ، ومنه الشَّرَى، وهي قُروح تنتشر على البدن[3]، يقال منه: شَرِي جلدُ الرجل، يَشْرَى شَرًى[4].

شعر أبي طالب:

فصل: وذكر شعر أبي طالب:

---

(١) ترأُمه: تحبه وتحنو عليه.
(٢) الحقب: الحزام يلي حقو البعير.
(٣) كالبثور الصغار.
(٤) انظر مزيد إيضاح للقصة في تاريخ الطبري (١/ ٥٤٥) ط. دار الكتب العلمية. وكذا المنتظم لابن الجوزي (١/ ٣٦٧).

ألا قُلْ لِعَمْرو والوليد ومُطْعِمٍ	ألا ليتَ حظِّي من حِيَاطَتِكم بَكْرُ
من الْخُور حَبْحابٌ كثيرٌ رُغاؤه	يُرَشّ على الساقين من بَوْله قَطْرُ
تخَلَّف خَلْف الوِرْد ليس بلاحق	إذا ما عَلا الفَيْفَاءَ قيل له: وَبْر
أرَى أخَوَيْنا من أبِينا وأُمِّنا	إذا سُئلا قالا: إلى غيْرنا الأمْر
بَلى لهما أمْرٌ، وَلَكِنْ تَجَرجُمَا	كما جَرْجَمَتْ من رأس ذي عَلَقٍ صَخر

ألا قُلْ لعمرو والوليد. إلى آخر الشعر.

وفيه:

ألا ليت حَظِّي من حِياطتكم بَكْر

أي: إن بكرًا من الإبل أنفع لي منكم، فليته لي بدلاً من حياطتكم كما قال طرفة في عَمْرو بن هند:

فَلَيت لنا مكان الْمَلْكِ عَمْرو رَغُوثًا[1] حولَ قُبَّتِنا تَخُور

وقوله: من الخُوُر حَبْحَابُ. الخُور: الضِّعَاف، والحَبْحَابُ بالحاء: الصغير. وفي حاشية كتاب الشيخ أبي بحر: جَبْجَاب بالجيم، وفسّره فقال: هو الكثير الْهَذْر، وفي الشعر:

إذا ما علا الفيفَاء قيل له: وَبْرُ

أي يُشبَّه بالْوَبْر لصغره، ويحتمل أن يكون أراد: يَصْغُرَ في العين لعلو المكان وبعده، والفَيْفاء فَعْلاء، ولولا قولهم: الفيْف، لكان حمله على باب القَضْقَاضِ[2] والجَرْجَارِ[3] أوْلَى، ولكن سُمع الْفَيْفُ، فعلم أن الألفين زائدتان، وأنه من باب قَلِقَ وسَلِسَ الذي ضوعفتِ فيه فاء الفعل دون عَيْنه، وهي ألفاظ يسيرة نحو قَلَقٍ وسَلسٍ وثُلُثٍ وسُدُسٍ، وقد اعتنينا بجمعها من الكلام، ولعل لها موضعًا تذكر فيه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ولا تكون ألف فَيْفَاء للإلحاق فيصرف؛ لأنه ليس في الكلام: فعْلال، فإن قيل: يكون ملحقًا بقَضْقَاض وبابه، قلنا: قَضْقَاض ثنائي مضاعف، فلا يُلْحق به الثلاثي، كما لا يلحق الرُّباعي بالثلاثي، ولا الأكبر بالأقل، وقد حكي فيفاة بالقصر وليست ألفها للتأنيث، إذ لا يجمع بين علامتي تأنيث، فهي إذا من باب أرطاة ونحوها، كأنها ملحقةٌ بسَلْهَبة[4]. وفي الشعر:

كما جَرْجَمَتْ من رأس ذِي عَلَق صَخْرُ

---

(١) الرغوث: هي كل مرضعة.

(٢) القضقاض: شجر من الحمض.

(٣) الجرجار: ضرب من النبات.

(٤) السلهبة: الجسيمة من النساء.

أخُصّ خُصُوصًا عبد شَمس ونَوْفلاً ... هُمَا نَبَذانا مِثْلَ ما يُنبَذُ الجمر
هُمَا أغْمَزَا للقَوْمِ في أخوَيْهما ... فقد أصْبحا منهم أكفُّهما صِفْر
وتَيْمٌ وَمَخْزوم وزُهرة منهُمُ ... وكانوا لنا مولى إذا بُغِي النَّصْر
فوالله لا تنفكّ منَّا عَداوَةٌ ... لا منهم ما كان من نَسْلنا شَفْر
فقَدْ سَفُهَتْ أحلامُهم وعُقولُهُمْ ... وَكانوا كَجَفْرٍ بئس ما صنعت جَفْر

قال ابن هشام: تركنا منها بيتين أقذع فيهما.

قال ابن إسحٰق: ثم إن قريشًا تذامروا بينهم على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ الذين أسلموا معه، فوثبتْ كلُّ قبيلة على مَنْ فيهم من المسلمين يعذّبونَهم، ويفْتِنُونهمْ عن دينهم، ومَنَع الله رسولَه ـ ﷺ ـ منهم بعمِّه أبي طالب، وقد قام أبو طالب، حين رأى قريشًا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، مِنْ مَنْع رسول الله ـ ﷺ ـ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب، عدوّ الله الملعون.

وترك صَرْف عَلَق، إما لأنَّه جعله اسم بقعة، وإما لأنه اسمٌ علم، وترْك صرف الاسم العلم سائغٌ في الشعر، وإن لم يكن مُؤنثًا ولا عَجَميًا نحو قول عبَّاس بن مِرْداس:

وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مِرْداسَ في المَجْمعِ

ونحو قول الآخر:

يا مَن جَفاني ومَلاً ... نسيتَ أهْلاً وسَهْلاَ
وماتَ مَرْحَبُ لما ... رأيتَ مَا لِيَ قَلاً

فلم يصرف مَرْحَبًا، وسيأتي في هذا الكتاب شواهدُ كثيرة على هذا، ونشرح العِلَّة فيه إن شاء الله تعالى[1]، ولو رُوِيَ: من رأس ذي عَلَق الصخر بحذف التنوين لالتقاء الساكنين، لكان حَسَنًا، كما قُرىء: ﴿قل هو الله أحدُ الله الصَّمَدُ﴾ بحذف التنوين من أحد، وهي رواية ابن أبي عمرو بن العلاء، وقال الشاعر:

حميد الذي أمج داره

(١) انظر ألفية الإمام مالك (٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٨).

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه في جَهْدهم معه، وحَدَبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمَهم، ويذكر فضلَ رسول الله ـ ﷺ ـ فيهم ومكانَه منهم، ليشُدّ لهم رأيَهم، وليَحْدَبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجتمعَتْ يوْمًا قُرَيشٌ لِمَفخَرٍ   فعَبْدُ مناف سِرُّها وصَميمُها
فإن حُصّلت أشرافُ عبْدِ مَنافها   ففِي هاشم أشْرَافُها وقَديمُها
تَداعَتْ قُرَيش غَثُّها وسَمِينُها   علَينا فلم تَظْفَر وطاشتْ حلومُها
وكُنَّا قَديمًا لا نُقِرُّ ظُلامَةً   إذا ما ثَنَوْا صُعْر الْخُدود نُقيمها
ونحمي حِماها كلَّ يَوْمِ كَرِيهة   ونَضْرِبُ عن أجحارها مَن يَرُومُها
بنا انْتَعَش العود الذَّوَاء، وإنما   بأكْنافنا تندَيَ وتَنْمِي أرُومُها

موقف الوليد بن المغيرة من القرآن[1]

ثم إن الوليدَ بن المُغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قُرَيش ـ وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضَر

وقال آخر:

ولا ذاكر الله إلا قليلا

وأنشد قول أبي طالب:

إذا اجتمعت يومًا قُريش لِمَفْخَر   فعبْدُ مَناف سِرُّها وصَمِيمُهَا

قوله: سرّها، أي: وَسَطُها، وسرّ الوادي وَسِرَارتهُ: وَسَطه، وقد تقدّم متى يكون الوسط مدحًا، وأن ذلك في موضعَين: في وصف الشهود، وفي النسب، وبيَّنَّا السرّ في ذلك.

وقال في القصيدة: ونضرب عن أحجارها مَنْ يرُومها. أي ندفع عن حصونها ومعاقلها، وإن كانت الرواية: أجحارها بتقديم الجيم، فهو جمع جُحْر والْجُحْر هنا مُستعار، وإنما يريد عن بيوتها ومساكنها.

موقف الوليد من القرآن

وذكر خبر الوليد بن المغيرة وقوله: فيما جاء به النبي ـ ﷺ ـ من الوحي والقرآن: قد سمعنا الشعر فما هو بهَزَجِه، ولا رَجَزَه. والهَزجُ من أعاريض الشِّعر معروفٌ عند

---

(١) انظر الكامل (١/٥٩٢).

الموسمُ، فقال لهم: يا معشَر قرَيْش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سَمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمِعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا، فيكذِّب بعضُكم بعضًا، ويردّ قولُكم بعضُه بعضًا، قالوا: فأنتَ يا أبا عبد شمس، فقُلْ، وأقِمْ لنا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم، فقولوا أسْمَعْ، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّان، فما هو بزَمْزَمة الكاهن ولا سَجْعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجُنون وعرفناه، فما هو بخنْقه، ولا تَخالِجُه، ولا وَسْوستِه، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشِّعر كلَّه: رجزَه وهَزجه وقَريضَه ومَقْبوضه ومَبْسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسِحْرَهم، فما هو بنَفْثهم ولا عَقْدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لِقوله لحلاوةً، وإن أصلَه لَعَذْق، وإن فَرْعه لجَناة ـ قال ابن هشام: ويقال لغَدَق ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرِف أنه باطل، وإن أقرب القول

العَروضيين، ولا أعرِفُ له اشتقاقًا إلا أن يكون من قولهم في وصف الذباب: هَزِجٌ، أي: مُتَرَنم[1]، وأما الرَّجَزُ[2] فيحتمل أن يكون من رجزت الحمل إذا عدلته بالرِّجازة، وهو شيء يعدل به الحمل، وكذلك الرَّجَزُ في الشعر أشطار مُعَدَّلة، ويجوز أن يكون من رَجَزَتْ الناقةُ إذا أصابتها رِعْدَةٌ عند قيامها، كما قال الشاعر: حتى تَقومَ تَكَلُّفَ الرَّجْزَاء فالْمُرْتَجِزُ كأنه مُرْتَعِدٌ عند إنشادِهِ لِقِصَرِ الأبيات.

وقوله: قد سمعنا الكهان، فما هو بزَمْزَمَةِ الكاهِنِ ولا سَجْعه: الزَّمْزَمَةُ صوت ضعيف كنحو ما كانت الفُرْسُ تفعله عند شربها الماءَ، ويقال أيضًا: زَمْزَم الرَّعْد، وهو صوت له قبل الْهَدْرِ، وكذلك الْكُهَّان، كانت لهم زَمْزَمَةٌ الله أعلم بكيْفِيَّتها، وأما زَمْزَمَةُ الْفُرْس، فكانت من أُنوفهم.

وقول الوليد: إن أصله لَعَذْقٌ، وإن فَرْعَه لَجَناة. استعارة من النَّخْلة التي ثبَتَ أصلُها،

---

(١) هزج: الهاء والزاء والجيم: أصل صحيح يدل على صوت. يقولون الهزج: صوت الرعد، وبه شُبِّه الهَزَج من الأغاني. قال: كأنها جارية تهزج. انظر مقاييس اللغة (٦/ ٥٢). وفي اللسان (٢/ ٣٩٠). الهزج: صوت مطرب، والهزج: نوع من أعاريض الشعر، وهو مفاعيلن مفاعيلن، على هذا البناء كله أربعة أجزاء سُمِّي بذلك لتقارب أجزائه.

(٢) رجز: الراء والجيم والزاء أصل يدل على اضطراب، من ذلك الرجز داء يصيب الإبل في أعجازها، فإذا ثارت الناقة ارتعشت فَخِذاها، ومن هذا اشتقاق الرجز من الشعر؛ لأنه مقطوع مضطرب. مقاييس اللغة (٢/ ٤٨٩). وفي اللسان (٥/ ٣٥٠): قال ابن سيدة: «الرجز شعر ابتداء أجزائه سيان ثم وتد، وهو وزن يسهل من السمع ويقع في النفس...».

فيه لأنْ تقولوا: ساحر، جاء بقولٍ هو سحر يُفَرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بِسُبُل النَّاس حين قَدِموا الموْسِمَ، لا يمرّ بهم أحدٌ إلا حذَّروه إياه، وذكروا لهم أمرَه.

ما نزل في حق الوليد من القرآن

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المُغيرة، وفي ذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمدُودًا وبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلاً إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦] أي خَصيمًا.

قال ابن هشام: عنيدًا: معاند مخالف. قال رؤبةُ بن العجَّاج:

ونـحـن ضَـرَّابـون رأس الـعُـنَّـدِ

وقوي وطاب فرعها إذا جنى[١]، والنخلة هي: الْعَذْقُ بفتح العين، ورواية ابن إسحٰق أفصح من رواية ابن هشام؛ لأنها استعارة تامّة يشبه آخرُ الكلام أولَه، ورواية ابن هشام: إن أصله لَغدقٌ، وهو الماء الكثير، ومنه يقال: غَيْدَق الرجلُ إذا كثر بصاقُه، وأحدُ أعمام النبي ـ ﷺ ـ كان يُسَمّىٰ: الْغَيْداق لكثرة عطائه، والْغَيْدقُ أيضًا ولدُ الضَّبِّ، وهو أكبر من الْحِسْلِ قاله قُطْرُبٌ في كتاب الأفعال والأسماء له[٢].

﴿ذرني ومَن خلقت وحيدًا﴾

فصل: وذكر ابن إسحٰق قول الله تعالى: ﴿ذَرْنِي ومَنْ خَلَقْتُ وحيدًا﴾ الآيات التي نزلت في الوليد، وفيها له تهديد ووعيد شديد، لأن مَعْنى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خلقتُ﴾ أي دَعْني وإياه، فسترى ما أصنع به، كما قال: ﴿فَذَرْني ومَنْ يُكَذِّبُ بهذا الحديث﴾ [القلم: ٤٤] وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبُه، وكرِه أن يُشْفَعَ لمَن اغتاظ عليه، فمعنى الكلام: أي: لا شفاعةَ تنفع لهذا الكافرِ، ولا استغفار يا محمدُ منك، ولا من غيرك[٣] وقوله: ﴿وبنين شهودًا﴾ أي: مقيمين معه غير محتاجين إلى الأسفار والغيبة عنه، لأن ماله ممدودًا والمالُ الممدود عندهم: اثنا عشر ألف دينار، فصاعدًا ﴿وَمَهَّدْتُ له تمهيدًا﴾ أي: هَيَّأْتُ له، وقدّمت له مقدمات اسْتِدْراجًا له، وقوله تعالى: ﴿سأُرْهِقُه صَعُودًا﴾ هي عَقَبَةٌ في جهنم، يقال لها: الصَّعُود مسيرُها سبعين سنةً، يكلَّفُ الكافر أن يَصْعَدَها، فإذا صعدها بعد

---

(١) جنى: أي طاب.
(٢) انظر نواد أبي زيد (ص ٩٢).
(٣) قوله: «وهي كلمة يقولها المغتاظ إذا اشتد غيظه وغضبه» لا تليق وصفًا لغضب الله تعالى وتفسيرًا لقوله.

وهذا البيت في أُرجوزة له:

﴿سأُرْهِقُهُ صَعُودًا إنَّهُ فكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ﴾ [المدثر: ١٧ ـ ٢٢].

قال ابن هشام: بسر: كره وَجْهه. قال العجَّاج:

مُضَبَّرِ اللَّحْيَيْنِ بَسْرًا مِنْهَا

يصف كراهية وجهه. وهذا البيت في أُرجوزة له:

﴿ثُمَّ أدْبَرَ واسْتَكْبَرَ فقال إن هذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إنْ هَذَا إلاَّ قَوْلُ البَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٣ ـ ٢٥].

قال ابن إسحٰق: وأنزل الله تعالى: في رسوله ـ ﷺ ـ وفيما جاء به من الله تعالى، وفي النفر الذين كانوا معه يُصنِّفون القول في رسول الله ﷺ، وفيما جاء به من الله تعالى: ﴿كما أنزلْنا على الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا القُرآنَ عِضِينَ فوَرَبِّك لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُون﴾ [الحجر: ٩٠ ـ ٩٣].

قال ابن هشام: واحدة العِضين: عِضَة، يقول: عَضَّوْه: فرقوه[1]. قال رؤبة بن العجَّاج:

ولـيـس ديـنُ الـلَّـهِ بـالـمُـعَـضَّـى

عذاب طويل صُبَّ من أعلاها، ولا يتنفس، ثم لا يزال كذلك أبدًا، كذلك جاء في التفسير[2].

وقوله سبحانه: ﴿فَقُتِلَ كيف قَدَّر﴾ أي: لُعِن كيفما كان تقديرُه فكيف هاهنا من حروف الشرط، وقيل معنى قتل: أي هو: أهل أن يُدْعى عليه بالقتل، وقد فسّر ابنُ هشام: بَسَر والْبَسْرُ أيضًا: القهر، والْبَسْر حمل الفحل على الناقة قبل وقت الضِّراب. وفسّر عِضين،

---

(١) وقد وقع في هذا بعض الرعاة الذين جعلوا القرآن مناسبات ومواسم، فإذا جاء الحج أخذوا بعضه وإذا جاء رمضان أخذوا بعضه وإذا جاء الإسراء أخذوا بعضه وهكذا...، ثم لا تجدوا أكثرهم يأخذ قوله تعالى: ﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ فلا تكاد تسمعها أو تسمع لها تفسيرًا وكأنها ليست من كتاب الله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾، فأظهروا وبينوا بعض الكتاب وأضعفوا البعض الآخر، فلا مناسبة لذكره!!!.

(٢) «ضعيف الإسناد». أخرجه الترمذي (٣٣٢٦). وفيه ابن لهيعة: ضعيف. ودراج: ضعيف الرواية عن أبي الهيثم.

وهذا البيت في أُرجوزة له.

قال ابن إسحٰق: فجعل أولئك النفرُ يقولون ذلك في رسول الله ـ ﷺ ـ لِمَنْ لَقُوا من الناس، وصدرت العربُ من ذلك الموْسِم بأمر رسول الله ـ ﷺ ـ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلِّها.

أبو طالب يفخر بنسبه وابن أخيه

فلما خَشي أبو طالب دَهْماءَ العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تَعَوَّذَ فيها بحَرَم مكة وبمكانه منها، وتودَّد فيها أشرافُ قومه، وهو على ذلك يُخبرهم وغيرَهم في ذلك من شعره أنه غير مُسْلِمٍ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ولا تاركه لشيء أبدًا حتى يهلِك دونه، فقال:

ولمَّا رأيتُ القَوْمَ لا وُدّ فيهمُ ... وقد قطعوا كلّ العُرَى والوَسائل
وقد صارَحُونا بالعَدَاوَةِ والأذَى ... وقد طاوَعُوا أمْرَ العَدوّ المُزايل
وقد حالَفوا قَوْمًا عَلَيْنا أظِنَّةً ... يَعَضُّونَ غَيْظًا خَلْفنا بالأنامل
صَبَرْتُ لهم نَفْسي بسَمْراء سَمْحةٍ ... وأبيضَ عَضْب من تُراث المَقَاول

وجعله من عَضَّيت أي فَرَّقت، وفي الحديث: «لا تَعْضِيَةَ في ميراث إلا ما احتمله الْقَسَمُ»(١) ومعنى هذا الحديث موافقٌ لمذهب ابن القاسم ورأيه في كل ما لا ينتفع به إذا قسم أو كان فيه ضرر على الشريكين ألاّ يقسم، وهو خلاف رأي مالك، وحجة مالك قول الله تعالى: ﴿مِمَّا قلّ منه أو كَثُر نصيبًا مَفْروضًا﴾ [النساء: ٧]. وقد قيل في عِضِين إنه جمع عِضَة، وهي السِّحر وأنشدوا:

أعوذ بربي من النافثا ... ت في العقَد العاضِه الْمُعْضِه

ومنه قولهم:

يا لِلْعَضِيهَةِ ويا لِلأَفيكَة [ويا لِلْبَهيتة]

شرح لامية أبي طالب

فصل: وذكر قصيدة أبي طالب إلى آخرها، وفيها: وأبيض عَضْبٍ من تُراث الْمَقاول.

---

(١) «ضعيف». أخرجه البيهقي في الكبرى (١/١٣٣) والدارقطني (٤/٢١٩) بتحقيقي. فيه صديق بن موسى بن عبد الله: ليس بحجة.

وأحضرتُ عند البيت رَهْطي وإخوتي | وأمسكت من أثْوَابِهِ بالوَصَائل
قِيامًا مَعًا مُسْتقبلينَ رِتاجَه | لديّ حيثُ يُقْضى حَلْفَه كلُّ نافل
وحيثُ يُنيخ الأشْعَرون رِكَابهم | بمُفضى السُّيولِ من إسافَ ونائل
مُوَسَّمةُ الأعْضَادِ، أوْ قَصِرَاتها | مُخَيَّسةٌ بينَ السَّديس وبازل

قد شرحنا الأقيال والمقاول، فيما تقدم، وتراث أصله: وُراث من وَرثت، ولكن لا تبدل هذه الواو تاء إلا فيِ مواضع محفوظة، وعِلتها كثرة وجود التاء في تصاريف الكلمة، فالتراث مال قد تُوورث. وتَوارثه قوم عن قوم، فالتاء مستعملة في التوريث والتوارث، وكذلك تجاه البيت، التاء مستعملة في التَّوَجُّهِ والتَّوْجيه ونحوه، فلما ألفَوْها في تصاريف الكلمة لم ينكروا قلبَ الواو إليها، كما فعلوا في ريحان وهو من الرَّوْح لكثرة الياء في تصاريف الكلمة، كما قدّمنا قبل، وهي في تراث وبابه أبعد؛ لأن الياء المألوفة في مادة الكلمة زائدة، وياء ريحان ليست كذلك، وكذلك التُّكَأة من توكأت وتَتْرَى من التَّواتر، والتَّوْلَج من التَّوَلُّج والْمُتَّلِج، لأنهم يقولون: اتَّلَجَ بالتشديد، فتصير الواو تاءً للإدغام، حتى يقولوا: مُتَّلِج فيجعلونها تاء دون الإدغام، وهذا أشبه بقياس رَيْحان وبابه؛ فإن التاء الأولى من مُتَّلِج أصلية وهي في مُتَّلج إذا ضُعِّفت أصلية أيضًا، فهي هي، فقف على هذا الأصل؛ فإنه سرّ الباب[1]. وأراد بالمقاول: آباءه، شبّههم بالملوك، ولم يكونوا ملوكًا، ولا كان فيهم مِنْ ملكٍ بدليل حديث أبي سفيان حين قال له هرقل: هل كان في آبائه من ملك؟ فقال: لا. ويحتمل أن يكون هذا السيف الذي ذكر أبو طالب من هِبَات الملوك لأبيه، فقد وهب ابنُ ذي يزن لعبد المطلب هباتٍ جَزْلة حين وفد عليه مع قريش، يهنئونه بظفره بالحبشة، وذلك بعد مولد رسول الله - ﷺ - بعامين.

وقوله:

مُوسَّمة الأعضاد أو قَصَراتها

يعني [مُعَلَّمَة] بسمة في أعضادها، ويقال لذلك الوسم السِّطَاع والخِبَاط في الفخذ والرُّقْمَة أيضًا في الْعُضُد، ويقال للوسم في الْكَشْحِ: الكِشاح ولما في قَصَره العُنُق: العِلاط، والْعَلْطَتَانِ والشِّعْب أيضًا في العنق، وهو كالمِحْجَن، وفي الْعُنُقِ وسم آخر أيضًا يقال له قَيْدُ الفَرَس. قال الراجز:

كُومٌ على أعناقها قَيْدُ الْفَرَسْ | تنجو إذا الليل تدانى، والْتَبَسْ

---

(١) انظر شرح الشافية للرضي (٣/ ٨٠).

....

ولوسُوم الإبل أسماء كثيرة وباب طويل، ذكر أبو عبيد أكثره في كتاب الإبل، فمنها الْمُشَيْطَنَةُ والْمُفَعَّاة والقُرْمَة وهي في الأنف، وكذلك الْجُرْف والخُطَّاف وهي في العنق، والدَّلْو وَالْمُشْط وَالْفِرْتاج والثُّؤْثُور والدِّمَاع في موضع الدمع، والصِّداغ في موضع الصُّدْغ واللِّجَام من الخدّ إلى العين، يقال منه: بعير مَلْجوم، والهِلال والخِرَاش وهو من الصُّدغِ إلى الذقن.

وقوله: أو قَصَراتها جمع قَصَرَة، وهي أصل العنق، وخفضها بالعطف على الأعضاد، ولا يجوز أن تكون في موضع نصب كما تقول: هو ضارب الرجل وزيدًا في باب اسم الفاعل؛ لأن قوله: موَسَّمة الأعضاد من باب الصفة المشبهة، وهي لا تعمل إلا مُضمرة، واسم الفاعل يُضْمر إذا عطف على المخفوض، وذلك أن الصفة لا تعمل بالمعنى، وإنما تعمل بشَبَهٍ لفظي بينها، وبين اسم الفاعل، فإذا زال اللفظ، ورجع إلى الإضمار لم تعمل، وتخالف اسم الفاعل أيضًا؛ لأن معمولها لا يتقدم عليها، كما يتقدم المفعول على اسم الفاعل، وذلك أن منصوبها فاعل في المعنى، والفاعلُ لا يتقدم، والصفة لا يُفصل بينها وبين منصوبها بالظرف، ويجوز ذلك في اسم الفاعل، والصفة لا تعمل إلا بمعنى الحال، واسمُ الفاعل يعمل بمعنى الحال والاستقبال، نعم ويعمل بمعنى الماضي إذا دخلت عليه الألف واللام، ولو رُوِيَ: موسمة الأعضادَ بنَصب الدال على معنى: موسمةٌ الأعضادَ بالتنوين، وحذفه لالتقاء الساكنين، لجاز كما رُوِيَ في شعر حُنْدُجٍ:

كَـبِـكْـرِ مُـقَـانَـاة الـبـيـاضَ

بالنصبِ وبالرفع أيضًا، أي: البياض منهم على نيّة التنوين في مقاناة، وحذفه لالتقاء الساكنين، وأما الخفض فلا خفاء به. وإذا كانت القَصَراتُ مخفوضةً بالعطف على الأعضاد، ففيه شاهد لمَن قال: هو حسن وَجْهِهِ كما روى سيبويه حين أنشد:

كُمَيْتا[1] الأعالي[2] جَوْنَتا[3] مُصْطَلاهُما[4]

وفي حديث أم زرع: صُفْرُ ردائِها، ومِلْءُ كسائها[5] مثل حسنةُ وجهِها، وفي الأمالي

---

(١) كميتًا: مثنى كميت وهي الحمرة الشديدة المائلة إلى السواد.

(٢) أعالي: الجارتين. (٣) الجونة: السوداء.

(٤) مصطلي: أي محترق بالنار.

(٥) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/ ٣٥) ومسلم في فضائل الصحابة (٩٢) وابن أبي عاصم (٩/ ١٧١).

تـرى الـوَدْع فـيـهـا، والـرُّخـامَ وزبـنـةً ... بِـأعْـنـاقِـهـا مَـعْـقُـودَةً كـالْـعَـثـاكـل
أعُـوذُ بـرَبِّ الـنَّـاسِ مِـن كـلِّ طـاعـنٍ ... عـلَـيْـنـا بـسُـوءٍ، أوْ مُـلِـحٌ بـبـاطـل
ومِـنْ كـاشِـحٍ يَـسْـعَـى لـنـا بِـمَـعِـيـبَـةٍ ... ومن مُلْحِقٍ في الدين ما لم نُحاول

من صفة النبي ﷺ: شَثْنُ الكفّين طويلُ أصابعِه[1]، أعني: مثل صِفْر ردائها.

وقوله: ترى الودع فيه. الْوَدَع، والْوَدْع بالسكون والفتح: خرزات تنظم، ويتحلى بها النساء والصّبيان كما قال:

[السِّنُّ من جَلْنَزِيزٍ[2] عَوْزَمٍ[3] خَلَقٍ] ... والْحِلْمِ حلْم صبي يَمرُس[4] الوَدَعه

وقال الشاعرُ:

إن الـرُّواة بـلا فَـهْـمٍ لـمـا حـفـظـوا ... مثل الـجـمـال عـلـيـهـا يُـحْـمَـل الْـوَدَعُ
لا الـوَدْعُ يـنـفـعـه حـملُ الـجِـمـال لـه ... ولا الـجِـمَـالُ بـحـمـل الْـوَدْع تَـنـتـفـع

ويقال: إن هذه الخرزات يقذفها البحر، وأنها حيوان في جوف البحر، فإذا قذفها ماتت، ولها بريق ولون حسن، وتصلب صلابة الحجر، فتثقب، ويتخذ منها القلائد، واسمها مشتق من وَدَعْته أي: تركته، لأن البحر ينضب عنها ويدعها، فهي وَدَع مثل قَبَض[5] ونفَض[6]، وإذا قلت الْوَدْع بالسكون فهي من باب ما سُمِّي بالمصدر.

وقوله: والرُّخام أي: ما قطع من الرُّخام، فنظم وهو حجر أبيض ناصع: والعثاكل: أراد العثاكيل[7]، فحذف الياء ضرورة كما قال ابن مُضَاض: وفيها العصافر، أراد: العصافير، وفي أول القصيدة: وقد حالفوا قومًا علينا أظِنَّة [جمع ظَنِين] أي مُتّهم، ولو كان بالضاد مع قوله، علينا، لعاد معناه مَدْحًا لهم، كأنه قال: أشِحَّةً علينا، كما أنشد عمرو بن بَحْر [الجاحظ][8]:

لـو كـنـت فـي قـوم عـلـيـك أشِـحَّـةً ... عـلـيـك ألا إن مَـنْ طـاح[9] طـائـحُ

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/١٣٣).
(٢) الجلنز: الغليظ الشديد.
(٣) العزوم: الناقة السمينة وفيها بقية شباب، كنّى بها عن النساء كما كنّى عنهنّ بالقوارير.
(٤) المرسة: الحبل لتمرّس الأيدي به.
(٥) قبض: بمعنى مقبوض.
(٦) نفض: مصدر نفضت الثوب.
(٧) العثاكيل: جمع عثكال وهو: العِذْق. اللسان (١١/٤٢٥).
(٨) انظر (١/٥٠). مع اختلاف يسير في الألفاظ.
(٩) الطح: البَسْطُ. اللسان (٢/٥٢٨).

وثَـوْرٍ، وَمَـنْ أرْسَـى ثَـبِـيـرًا مـكـانَـه	وراقٍ لِـيَـرْقـى فـي حِـرَاءَ ونـازل
وبالبيت، حَقَّ البيت، من بطن مكة	وبـالـلَّـهِ إنَّ الـلَّـهَ لـيـسَ بـغـافِـل
وبـالـحَـجـر الـمُـسْوَدّ إذ يـمْـسَحُـونـه	إذا اكْـتَـنَـفُـوه بـالـضُّـحـى والأصـائـل[1]

يودون لو خاطوا عليك جُلودهم	وهل يدفع الموتَ النفوسُ الشحائحُ

وفيـهـا:

وثَـوْرٍ ومَـن أرسـى ثَـبِـيـرًا مـكـانَـه	وراقٍ لـيـرقَـى فـي حِـرَاء ونـازلِ

ثور: جبل بمكة، وثَبير: جبل من جبالها ذكروا أن ثبيرًا كان رجلاً من هُذيل مات في ذلك الجبل، فعرف الجبل به، كما عرف أبو قبيس[2] بقُبَيْس بن شَالح رجل من جُرْهم، كان قد وشى بين عمرو بن مُضاض، وبين ابنة عمّه مَيَّة، فنذرت ألا تكلمه، وكان شديد الكَلَف بها، فحلف ليقتلَنّ قُبَيْسًا، فهرب منه في الجبل المعروف به، وانقطع خبرُه فإمَّا مات، وإما تردَّى منه، فسمى الجبل: أبا قبيس وهو خبر طويل ذكره ابن هشام في غير هذا الكتاب.

وقوله: وراق ليرقى قد تقدم القول فيه، وأصحّ الروايتين فيه: وراق لبِرٍّقي حراء ونازل. قال الْبَرْقِيُّ: هكذا رواه ابن إسحٰق وغيره، وهو الصواب. قال المؤلف: فالوهم فيه إذًا من ابن هشام، أو من البكائي، والله أعلم.

وقوله: وبالحجر الأسود، فيه زحاف يسمى: الكَفّ، وهو حذف النون من مفاعيلن وهو بعد الواو من الأسود ونحوه قول حُنْدُجٍ:

ألا رُبَّ يـوم لـك مـنـهـنّ صـالـح

وموضع الزحاف بعد اللام من ذلك.

وقـولـه:

إذا اكـتـنـفـوه بـالـضُّـحـى والأصـائـل

الأصائل: جمع أصيلة، والأُصُل جمع أصيل، وذلك أن فعائل جمع فعيلة، والأصيلة: لغة معروفة في الأصيل، وظن بعضهم أن أصائل: جمع آصال على وزن أفعال، وآصال: جمع أُصُل نحو أطناب وطُنُب، وأُصُل: جمع أصيل مثل رُغُفٍ: جمع رغيف، فأصائل على قولهم: جَمْعُ جَمْعِ الْجَمْعِ، وهذا خطأ بيِّن من وجوه منها: أن جمعَ جمعِ الجمعِ لم يوجد

---

(١) الأصائل: جمع أصيلة، والأُصُل: جمع أصيل.
(٢) جبل مشرف على مكة. وفي التهذيب: جبل مشرف على مسجد مكة.

قطّ في الكلام، فيكون هذا نظيره، وعن جهة القياس إذ كانوا لا يجمعون الجمع الذي ليس لأدنى العدد، فأحْرَى ألا يجمعوا جمع الجمع، وأبين خطأ في هذا القول غفلتُهم عن الهمزة التي هي فاء الفعل التي في أصيل وأُصُل، وكذلك هي فاء الفعل في أصائل، لأنها فعائل، وتوهّموها زائدة كالتي في أقاويل، ولو كانت كذلك كانت الصاد فاء الفعل، وإنما هي عينه، كما هي في أصيل وأصل، فلو كانت أصائل جمع آصال، مثل أقوال وأقاويل لاجتمعت همزة الجمع مع همزة الأصل ولقالوا فيه: أواصيل بتسهيل الهمزة الثانية، ووجه آخر من الخطأ بيِّنٌ أيضًا، وهو أن أفاعيل جمع أفعال، لا بُدَّ من ياءٍ قبل آخره، كما قالوا في أقاويل، فكان يكون أواصيل، وليس في أصائل حرف مَدٍّ ولِينٍ قبل آخره إنما هي همزة فعائِل، ومن الخطأ في قولهم أيضًا: أن جعلوا أُصُلاً جمعًا كثيرًا مثل رُغُف، ثم زعموا أن آصالاً جمعٌ له، فهم بمنزلة مَن قال في رُغُفٍ جمع أرغاف، فإن قيل: فجمع أي شيء هي آصال؟ قلنا: جمع أصُل الذي هو اسم مُفْرد في معنى الأصائل لا جمع أُصُل الذي هو جمع، فإن قيل: فهل يقال أُصُلٌ واحد، كما يقال أصيلٌ واحد؟ قلنا: قد قال بعضُ أرباب اللغة ذلك، واستشهدوا بقول الأعشى:

يومًا بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ … ولا بأحْسَنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ

أي: دنا الأصيل، فإن صحّ أن الأصلُ بمعنى الأصيل، وإلا فآصال جمع أصيل على حذف الياء الزائدة مثل طَوِيٍّ[1] وأطْواء، ولا أعرف أحدًا قال هذا القول، أعني: جَمْعَ جَمْعِ الْجَمْعِ غير الزَّجَّاجِيِّ وابن عزيز.

وقوله:

ومَوطىء إبراهيم في الصخر رطبة

يعني موضع قدميه حين غسلت كَنَّتُه[2] رأسَه، وهو راكب، فاعتمد بقدمه على الصخرة حين أمال رأسَه ليُغسلَ، وكانت سارة قد أخذت عليه عهدًا حين استأذنها في أن يطالع تَرِكَتَه[3] بمكة، فحلف لها أنه لا ينزل عن دابّته، ولا يزيد على السلام، واستطلاع الحال غَيْرَةً من سارة عليه من هاجر، فحين اعتمد على الصخرة أبقى الله فيها أثر قدمه آيةً. قال الله سبحانه: ﴿فيه آياتٌ بَيِّناتٌ مَقَامُ إبراهيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] أي: منها مقام إبراهيم، ومَن

---

(١) طوي: بئر.
(٢) كَنَّته: أي امرأة ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة وأزكى السلام.
(٣) أي من تركتهما بمكة وهما: إسماعيل وأمه هاجر عليهما السلام.

وأشْواطِ بين المَرْوتين إلى الصَّفا ... وما فيهما من صُورة وتَماثِلِ
ومَنْ حَجَّ بيتَ اللّٰهِ مِنْ كل راكب ... ومِنْ كل ذي نَذْر ومنْ كل راجل
وبالمَشْعَر الأقْصَى إذا عَمَدوا له ... إلآلِ إلى مُفْضَى الشِّراج القَوابل
وَتَوْقافِهم فوْقَ الجِبال عَشِيَّةً ... يُقيمون بالأيدي صُدورَ الرّواحل
وليلةِ جَمْعٍ والمنازل مِن مِنى ... وهَلْ فوقها من حُرْمة ومَنازل
وَجَمْع إذا ما المُقْرَبات أجَزْنَه ... سِراعًا كما يَخْرُجْنَ من وَقْع وابِل

جعل مَقامًا بدلاً من آياتٍ، قال: الْمَقامُ جمع مقامة، وقيل: بل هو أثر قدمه حين رفع القواعدَ من البيت وهو قائم عليه.

وقوله: بين الْمَرْوَتَيْنِ: هو كنحو ما تقدم في بطن المكّتين والْحَمَّتَيْن وعُنَيْزَتَيْن، مما ورد مُثَنًّى من أسماء المواضع، وهو واحد في الحقيقة، وذكرنا العلة في مجيئه مثنى ومجموعًا في الشعر. وفيها قوله:

وبالْمَشْعَرِ الأقْصَى إذا قَصَدُوا له ألاَلَا

البيت. فالمشعر الأقصى: عَرَفةُ، وألالا: جبل عَرَفة. قال النابغة:

يَزُرْنَ أَلاَلاً سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ

وسُمِّي: أَلالاً لأن الحجيج إذا رأوه أَلُّوا في السير أي: اجتهدوا فيه؛ ليدركوا الموقف قال الراجز:

مُهْرَ أبي الْحَبْحَابِ لا تَشَلِّي ... بارك فيكَ الله من ذي ألّ[1]

والشِّراج: جمع شَرْج، وهو مسيل الماءِ، والقوابلُ: المتقابلة. وفيها قوله: وحَطْمِهِمُ سُمْرَ الصِّفَاحِ: جمع صَفْح، وهو سَطْح الجبل، والسُّمْر يجوز أن يكون أراد به السَّمُرَ، يقال فيه: سَمُر وسَمْر بسكون الميم، ويجوز نقل ضمة الميم إلى ما قبلها إلى السين، كما قالوا في حَسُنَ: حُسْنَ، وكذا وقع في الأصل بضم السين، غير أن هذا النَّقل إنما يقع غالبًا فيما يُراد به المدح أو الذمّ نحو حَسُن وقبُح، كما قال: وحُسْنَ ذا أدبا. أي حَسُن ذا أدَبًا، وجائز أن يراد بالسُّمْر هٰهنا جمع: أَسْمَرَ وسَمْراء ويكون وصفًا للنبات، والشجر كما يوصف بالدُّهْمَة إذا كان مُخْضَرًّا، وفي التنزيل: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٤] أي: خضراوان إلى السواد.

---

(١) انظر إصلاح المنطق لابن السكّيت (ص ٢٣).

وبالجمْرة الكُبْرَى إذا صَمَدوا[1] لها ... يَؤُمُّون قَذْفًا رأسَها بالجَنادِل
وكِنْدَةَ إذْ هُم بالْحِصاب عَشِيَّةً ... تُجِيز بهم حُجَّاجُ بَكْر بن وائل
حَلِيفان شَدًّا عَقْدَ ما احْتَلفا له ... ورَدًّا عليه عاطفات الوَسائِل
وَحَطْمِهِمُ سمَرْ الرِّمَاحِ وَشَرْحَهُ ... وشِبْرِقَهُ وَخْدَ النَّعَام الحوامل
فهَل بعْد هذا من مَعاذٍ لعائذٍ ... وهل مِنْ مُعيذ يتَّقي اللَّهَ عاذل
يُطاع بنا أمْرُ العِدَا وَدّ أنَّنا ... تُسَدُّ بنا أبوابُ تُرْك وكابُل
كذَبْتُمْ وبيتِ اللَّه نَتْرك مكَّةَ ... ونظْعَن إلا أمْرُكم في بَلابِل
كذبتم - وبيتِ الله - نُبْزَى محمدًا ... ولمَّا نُطاعِن دونَه ونُناضل
ونُسْلِمُه حتى نُصرَّع حولَه ... ونَذْهل عن أبْنائِنا والحَلائل
ويَنْهَضَ قومٌ فِي الحديد إليكُمُ ... نُهوضَ الرَّوايا تحت ذات الصَّلاصل
وحتى ترى ذا الضِّغْن يركب رَدْعه ... من الطَّعْنِ فِعْل الأنْكَبِ[2] الْمُتَحامل

وقوله: وشِبْرِقَه. وهو نبات يقال ليابسه: الْحَلِيّ، والرطبة: الشِّبْرِق.

وقوله: نبذي محمدًا أي نسلبه ونُغْلب عليه.

وقوله: نُهوضَ الرَّوايا. هي الإبل تحمل الماءَ واحدتها: راوية، والأسْقِيَةُ أيضًا يقال لها: روايا، وأصل هذا الجمع: رَوَاوِي ثم يصير في القياس: رَوائي مثل حوائل جمع: حول، ولكنهم قلبوا الكسرة فتحة بعدما قدّموا الياء قبلها، وصار وزنه: فوالع، وإنما قلبوه كراهية اجتماع واوين، واو فواعل، الواو التي هي عين الفعل، ووجه آخر، وهو أن الواو الثانية قياسها أن تنقلب همزة في الجمع لوقوع الألف بين واوين، فلما انقلبت همزة قلبوها ياء، كما فعلوا في خطايا وبابه، مما الهمزة فيه معترضة في الجمع، والصَّلاصل. المزادات لها صَلْصَلة بالماء[3].

---

(١) صمدوا لها: أي توجهوا لها. و«الصمد» اسم من أسماء الله تعالى كما ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾. والصمد: قيل هو الذي لا جوف له، وقيل: أي السيد، وقيل: الذي توجه إليه في قضاء الحوائج، وقيل الصمد: هو الذي «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد». ويطلب الاسم غير معرّف على الله وعلى خلقه، ولا يطلق معرفًا إلا على الله تعالى، ولذا جاء في التنزيل بالتعريف، بخلاف اسمه تعالى الأحد. وانظر للمحقق «القول الأسنى في تفسير الأسماء الحسنى».

(٢) الأنكب من الإبل: كأنما يمشي في شِقٍّ.

(٣) وقيل الصلصلة: بقية الماء.

وإنَّا ـ لَعَمْرُ الله ـ إنْ جَدَّ ما أرى لَتَلْتَبِسَنْ أسْيافُنا بالأماثل

بكَفَّيْ فَتًى مثلِ الشهاب سَمَيْدَع أخِي ثقةٍ حامي الحقيقة باسل

شُهورًا وأيَّامًا وحَوْلاً مُجَرَّما علَينا وتأتي حِجَّةٌ بعدَ قابل

وما تَرْكُ قومٍ ـ لا أبا لك ـ سيِّدًا يَحُوط الذِّمار غير ذَرْبٍ مُواكِل

وأبيضَ يُسْتسقى الغَمامُ بوجْهِه ثِمَالَ اليَتامى عِصْمةً للأرامل

يلُوذ به الهُلاَّكُ من آل هاشم فهُمْ عنده في رَحْمة وفَواضِل

لَعَمْري لقد أجْرى أسِيدٌ وبِكْرُه إلى بُغْضنا وجَزَّآنا لآكل

وعثمانُ لم يَرْبَع علينا وقُنْفُذٌ ولكن أطاعا أمْرَ تلك القبائل

أطاعا أُبَيًّا، وابنَ عَبْدِ يَغُوثِهِم ولم يَرْقُبا فينا مقالةَ قائل

كما قد لَقِينا مِنْ سُبَيْع ونَوفَل وكُلٌّ تَوَلى مُعْرِضًا لم يُجَامِل

فإن يُلْفَيا، أو يُمْكِنِ الله منهما نَكِلْ لهما صاعًا بِصَاعِ المُكايل

وذاك أبو عَمْرو أبى غيرَ بُغْضنا لِيُظْعِننا في أهْل شاءٍ وجامل

يُناجِي بنا في كلّ مُمْسًى ومُصْبَح فناجِ أبا عَمْرٍ بنا ثم خاتل

ويُؤْلِي لنا بالله ما إنْ يَغُشُّنا بَلى قد تراهُ جَهْرَةً غير حائل

وفيها قوله: غير ذَرْبٍ مواكل. وهو مخفف من ذَرِب والذَّرِبُ: اللسان الفاحش المنطق، والمواكل الذي لا جِدّ عنده فهو يَكِل أموره إلى غيره.

وفيها قوله: ثِمالَ اليتامى، أي: يَثْمُلُهُم، ويقوم بهم، يقال: هو ثِمال مالٍ أي يقوم به.

وفيها قوله:

لِيُظْعِنَنَا في أهل شاء وجامل

الشَّاء والشَّوِيُّ: اسم للجمع مثل الباقر والبقير، ولا واحد لشاء، والشَّوِيُّ من لفظه، وإذا قالوا في الواحد: شاة، فليس من هذا؛ لأن لام الفعل في شاة هاء بدليل قولهم في التصغير: شُوَيْهة، وفي الجمع شياه، والجامل اسم جمع بمنزلة الباقر.

وقوله: وكنتم زمانًا حَطْبَ قِدرٍ: حَطْب اسم للجمع مثل رَكْب، وليس بجمع، لأنك تقول في تصغيره: حُطَيْب ورُكَيْب.

وقوله: حِطابُ أقدُرٍ: هو جمع حَاطب فلا يُصغَّر، إلا أن ترده إلى الواحد، فتقول: حُوَيْطبون، ومعنى البيت: أي: كنتم متفقين لا تَحْطِبون إلا لِقِدْرٍ واحدةٍ، فأنتم الآن بخلاف ذلك.

أضاق عليه بُغضُنا كلَّ تَلْعة — من الأرض بين أخْشُبٍ فَمَجَادِلِ
وسائِلْ أبا الوَليد ماذا حَبَوْتَنا — بسَعْيِكَ فِينا مُعْرِضًا كالمُخاتِلِ
وكُنْتَ امْرءًا مِمَّنْ يُعاش برَأيه — ورَحْمتِه فينا ولستَ بجاهِلِ
فعُتْبةُ لا تَسْمع بنا قولَ كاشِحٍ — حَسودٍ كَذوب مُبْغض ذي دَغاوِلِ
وَمَرَّ أبو سُفيانَ عَنِّيَ مُعْرِضًا — كما مرَّ قَيْلٌ من عِظام المَقاوِل
يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِياهِهِ — ويزعمُ أني لسْتُ عنكم بغافِلِ
ويُخبرنا فعلَ المُناصِحِ أنَّهُ — شَفيقٌ، ويخفى عارماتِ الدَّوَاخل
أمُطْعِمُ لم أخْذُلْك في يومِ بَخْدَةٍ — ولا مُعْظِم عند الأُمور الجلائل
ولا يوم خَصْم إذ أتَوْكَ ألِدَّة — أُولِي جَدَلٍ من الخُصوم الْمَسَاجِلِ
أمُطْعِمُ إنَّ القَوْمَ ساموك خُطَّة — وإني متى أُوكَلْ فَلَسْتُ بوائِل

وفيها قوله:

من الأرض بين أخْشُبٍ فَمَجَادِلِ

أراد الأخاشب، وهي جبال مكة[1]، وجاء به على أخْشُب، لأنه في معنى أجْبُل، مع أن الاسم قد يجمع على حذف الزوائد كما يصغرونه كذلك، والْمَجَادِل: جمع مِجْدل وهو: القصر، كأنه يريد ما بين جبال مكة، فقصور الشام أو العراق، والفاء من قوله: فمجادل تعطي الاتصال بخلاف الواو، كقوله بين الدَّخُول فَحَوْمَل، وتقول: مُطِرْنا بين مكَة فالمدينة إذا اتصل المطر من هذا إلى هذه، ولو كانت الواو لم تعط هذا المعنى.

وقوله:

أُولِي جَدَلٍ من الْخُصُوم الْمَسَاجِل

يُروى بالجيم وبالحاء فمَن رواه بالجيم فهو من الْمُسَاجَلة في القول، وأصله في استقاء الماء بالسَّجْل، وصبِّه فكأنه جمع مَساجِل على تقدير حذف الألف الزائدة من مفاعل، أو جمع مِسْجَل بكسر الميم، وهو من نعت الخصوم، ومَن رواه المساحِل بالحاء، فهو جمع مِسْحل وهو اللسان، وليس بصفة للخصوم، إنما هو مخفوض بالإضافة، أي: خصماء الألسنة، وقال ابن أحمر:

مَنْ خطيبٌ إذا ما انحلَّ مِسْحَلُه

أي: لسانهُ وهو أيضًا من السَّحْل وهو الصَّبُّ، ومنه حديث أيوب حين فرج عنه، فجاءت سحابة فسَحَلَتْ في بَيْدَرِه ذهبًا، وجاءت أخرى فسَحَلت في البيدرِ[2] الآخر فضة.

---

(١) أخاشب مكة: جبالها.

(٢) البيدر: الجرن.

جَزَى اللَّهُ عنَّا عبدَ شمس ونَوْفلاً عُقوبة شرّ عاجلاً غيرَ آجِل
بميزان قِسْط لا يُخِسُّ شَعيرةً له شاهدٌ من نفسِه غير عائل
لقد سَفُهت أحلامُ قوم تبدَّلوا بني خَلَفٍ قَيْضًا بنا والغَياطل
ونحنُ الصَّميمُ من ذُؤابة هاشِم وآلِ قُصَيٍّ في الْخُطوب الأوَائل
وسَهْمٌ وَمخْزُوم تَمالَوْا وألَّبُوا علينا العِدَا من كلِّ طِمْل وخامِل

فصل: وفيها:

لقد سَفُهَت أحلامُ قوم تبدلوا بني خَلَفٍ قَيْضًا بنا والغَيَاطِل

قَيْضًا أي: معاوضة، ومنه قول النبي عليه السلام لذي الْجَوْشن[١]: إن شئت قايَضْتُك به المختارَ من دُروع بَدْرٍ، فقال: ما كنتُ لاقِيضَه اليوم اليوم بشيء[٢] يعني: فَرَسًا له، يقال له: ابن الْقَرحَاء. وقال أبو الشَّيص:

لا تنكري صَدِّي ولا إعراضي ليس المُقِلُّ عن الزمان براضِ
بُدِّلت من بُرْدِ الشباب مُلاءَةً خَلَقًا، وبئس مَثُوبة الْمُقْتَاضِ

والغياطل: بنو سهم، لأن أُمهم الْغَيْطَلةُ، وقد تقدم نسبها، وقيل: إن بني سهم سُمُّوا بالغياطل، لأن رجلاً منهم قتل جَانًّا طاف بالبيت سَبْعًا، ثم خرج من المسجد فقتله، فأظْلمت مكةُ، حتى فزِعوا من شدة الظلمة التي أصابتهم، والْغَيْطَلَةُ: الظُّلْمة الشديدة، والْغَيْطَلَةُ أيضًا: الشجرُ الملتف، والْغَيْطَلةُ: اختلاط الأصوات، والغيطلة: البقرة الوحشية، والغيطلة: غَلَبَة النعاس، وقوله: يُخِسُّ شعيرةً، أي: ينقص، والْخسيسُ: الناقص من كل شيء، ويُروَى في غير السيرة: يَحُصُّ بالصاد والحاء مهملةً من حَصِّ الشَّعر: إذا أذهبه.

وقولُه: من كل طِمْلٍ وخاملٍ: الطِّمْلُ: اللص، كذا وجدته في كتاب أبي بحر، وفي العين: الطِّمْل الرجل الفاحش، والطِّمل والطِّمْلاَلُ: الفقير، والطِّمْلُ: الذئب[٣]. وقوله: لِقْحَةٌ غير باهل: الباهل: الناقة التي لا صِرَارَ على أخْلاَفها، فهي مباحة الحَلْب يقال: ناقة مَصْرورة، إذا كان على خَلْفِها صِرار يمنع الفصيل من أن يرضع، وليست الْمُصَرَّاةُ من هذا المعنى، إنما هي التي جُمع لَبَنُها في ضَرْعِها، فهو من الماء الصَّرَى[٤]، وقد غلط أبو علي

---

(١) هو: أرس بن الأعور، وقيل شرحبيل. وهو أشهر.
(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٣٩).
(٣) انظر اللسان (١١/٤٠٨).
(٤) الصرى: أي الذي طال مكثه.

فعَبْدَ مَناف أنتمُ خيرُ قَوْمكم ... فلا تُشركوا في أمْركم كلَّ واغل
لَعَمْري لقَد وَهَنْتُمُ وعَجَزْتُمُ ... وجِئْتم بأمرٍ مُخْطِىء للمفاصِل
وكنتم حَديثًا حَطْبَ قِدْرٍ وأنتمُ ... أَلآنَ حِطابُ أقدُرٍ ومَراجل
ليَهْنىءْ بني عَبْد مَناف عُقوقُنا ... وخِذْلانُنا، وتركُنا في المَعاقل
فإنْ نَكُ قوْمًا نَتَّئِرْ ما صنعتُمُ ... وَتَحْتَلِبُوها لِقْحة غيرَ باهِل
وسائطُ كانت في لؤَيِّ بن غالبٍ ... نَفاهم إلينا كلُّ صَقْر حُلاحِل[1]
ورهط نُفَيل شَرُّ مَن وطىء الحَصى ... وألأمُ حافٍ مِن مَعَدْ وناعِل
فأبلِغ قُصَيًّا أن سيُنشر أمرُنا ... وبَشِّر قُصَيًّا بعدَنا بالتَّخاذل
ولو طرَقت ليلاً قصيًّا عظيمةٌ ... إذًا ما لجأنا دونهم في الْمَداخل
ولو صَدَقوا ضَرْبًا خِلال بُيوتهم ... لكنَّا أُسَى عند النساء المَطافل[2]
فكلُّ صديقٍ وابنِ أُختِ نَعُدُّه ... لَعَمْري - وَجَدنا غِبَّه غيرَ طائل
سوى أنّ رَهطًا من كِلاب بن مُرَّة ... بَراءٌ إلَينا من مَعَقَّةِ خاذِل

في البارع، فجعل الْمُصَرَّاة بمعنى الْمَصْرُورَةِ، وله وجه بعيد، وذلك أن يُحْتَجَّ له بقلبِ إحدى الراءين ياءً مثل: قَصَيْتُ أظفاري، غير أنه بعيد في المعنى، وقالت امرأةُ المغيرةِ تعاتب زوجَها، وتذكر أنها جاءته كالناقة الباهِلةِ التي لا صِرار على أخلافِها: أطعمتُك مَأْدُومي وأَبْثَثْتُكَ مَكْتومي، وجِئتُك باهلاً غيرَ ذاتِ صِرَارٍ، وفي الحديث: لا تورد الإبِل بُهْلاً [أو بُهَّلاً]، فإن الشياطينَ تَرْضَعُها[3]، أي: لا أصِرَّةَ عليها.

وفيها قوله:

بُـرَاءٌ إلـيـنـا مـن مَـعَـقَّـةِ خـاذل

يقال: قومٌ بُراءٌ [بالضَّمّ] وبَراءٌ بالفتح، وبِراء بالكسر، فأما بِراء بالكسرِ، فجمعُ بريءٍ، مثل كريم وكِرام، وأما بَراء فمصدر، مثل سَلاَم والهمزةُ فيه، وفي الذي قبله لام الفعلِ، ويقالُ: رجلٌ بَراء ورجلان بَرَاء، وإذا كسرتها أو ضممتها لم يجز إلا في الجمع، وأما بُراء بضم الباء، فالأصل فيه بُرآءُ مثل كُرَمَاء فاستثقلوا اجتماعَ الهمزتين، فحذفوا الأولى، وكان وزنه فُعَلاَء، فلما حَذَفوا التي هي لام الفعل صار وزنه فُعَاء، وانصرف لأنه أشبه فُعالاً،

---

(١) حلاحل: موضع، والجيم أعلى اللسان (١١/ ١٧٤).
(٢) أي أصحاب الأطفال.
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧/ ٣٠).

وَهَنَّا لَهُم حتى تبَدَّد جمْعُهم ... وَيخسُرَ عنَّا كلُّ باغٍ وجاهل

وكان لَنا حوض السِّقاية فيهم ... ونحنُ الكُدَى من غالب والكَواهل

شَباب من الْمُطَيَّبين وهاشِم ... كبِيض السُّيوفِ بين أيدي الصَّياقل[1]

فما أدركوا ذَحْلاً ولا سَفَكوا دمًا ... ولا حالَفوا إلا شِرّ القَبائل

بضربٍ ترَى الفِتْيان فيه، كأنهُم ... ضَوَاري أُسُود فوق لَحْمٍ خَرادِل

بني أُمَةٍ مخبوبةٍ هِنْدِكيَّة ... بني جُمح عُبَيدِ قيسِ بن عاقل

ولكنَّا نسلٌ كِرامٌ لسادةٍ ... بهم نُعِيَ الأقوام عند البَواطل

ونعم ابنُ أُخت القوم غيرَ مُكذَّب ... زهيرٌ حُسامًا مُفْرَدًا مِنْ حَمائل

أشَمُّ مِنَ الشُّمّ البَهاليل يَنتمي ... إلى حسب في حَوْمة المجْد فاضل

لعَمْري لقد كَلِفْتُ وجدًا بأحمد ... وإخوته دَأبَ المحِبِّ المواصل

فلا زال في الدُّنيا جمالاً لأهلها ... وزَيْنًا لمَن والاه ربّ المشاكل

فمَنْ مِثْله في النَّاس أيُّ مؤَمَّل ... إذا قاسه الحُكّام عند التَّفاضل

حليمٌ رشيد عادل غيرُ طائش ... يُوالي إلٰهًا ليسَ عنه بغافِل

فوالله لولا أنْ أجيء بسُبَّة ... تُجَرُّ على أشْياخِنا في المحافل

لكنَّا اتبعْناه على كلّ حالَة ... من الدَّهر جِدًّا غير قول التَّهازل

لقد عَلِموا أنَّ ابنَنا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا، ولا يُعْنَى بقَوْل الأباطل

فأصبح فينا أحمدٌ في أرُومَة ... تُقصِّر عنه سَوْرَةُ الْمُتَطاوِل

حَدِبْتُ بنفسي دونه وحَمَيْتُه ... ودافعتُ عنه بالذُّرا والكَلاكِل[2]

فأيَّدَه ربُّ العِباد بنَصْره ... وأظهر دينًا حقُّه غيرُ باطل

رجالٌ كِرامٌ غيرُ مِيلٍ نَمَاهُم ... إلى الخَيْرِ آباءٌ كِرامُ المَحاصل

والنسب إليه إذا سمّيت به: بُراوى، والنسب إلى الآخرين بَرائِيّ وبِرَائي، وزعم بعضهم إلى أن بُراء بضم أوله من الجمع الذي جاء على فُعال، وهي ثمانية ألفاظ: فَرير وفُرار وعَزَن وعُزان، ولم يصنع شيئًا، وقال النحاس: بُراء بضم الباء.

---

(١) الصيقل: شَحّاذُ السيوف وجَلاَّؤها. والجمع صياقل وصياقلة. اللسان (١١/ ٣٨٠).

(٢) الكلاكل: الكلكل والكلكال: الصدر من كل شيء، والكلكل من الفرس ما بين محزِمه إلى ما مسّ الأرض منه إذا ربض. اللسان (١١/ ٥٩٧).

فإن تكُ كعبٌ من لؤيّ صُقَيْبةً ... فلا بدَّ يومًا مرَّة مِنْ تزايُل

قال ابن هشام: هذا ما صحَّ لي من هذه القصيدة، وبعضُ أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها.

قال ابن هشام: وحدّثنِي مَنْ أثق به، قال: أقحط أهلُ المدينة، فأتَوْا رسولَ الله ـ ﷺ ـ فشَكَوْا ذلك إليه، فصَعَد رسولُ الله ﷺ المنبرَ فاستسقى، فما لبث أنْ جاء من المطر ما أتاه أهلُ الضواحي يشكون منه الغَرقَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنا ولا علينا»، فانجاب السحابُ عن المدينة، فصار حوَالَيْها كالإكليل؛ فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لو أدرك أبو طالب هذا اليومَ لسرّه»، فقال له بعضُ أصْحابه: كأنك يا رسولَ الله أردت قولَه:

وأبيضَ يُسْتسقى الغمامُ بوَجْهه ... ثِمَالَ اليَتامى عِصْمةً للأَرامِل

قال: أجل[1].

الاستسقاء:

فصل: وذكر حديث استسقاء رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة، وهو حديث مَرْوِي من طرق كثيرة، وبألفاظ مختلفة.

وقوله: حتى أتاه أهلُ الضواحي يشكون الغَرق. الضواحي: جمع ضاحية، وهي الأرض البَرازُ التي ليس فيها ما يُكِنُّ من المطر، ولا مَنْجاة من السيول، وقيل: ضاحية كل بلد: خارجه. وقوله عليه السلام: «اللَّهمَّ حَوَالَيْنَا، ولا علينا»، كقوله في حديث آخر: «اللَّهمَّ مَنَابِتَ الشجر، وبطون الأودية، وظهور الآكام»، فلم يقل: اللَّهمَّ ارفعه عنّا ـ هو من حُسْن الأدبِ في الدعاء؛ لأنها رحمة الله، ونعمته المطلوبة منه، فكيف يُطلَب منه رفع نعمته، وكشف رحمته، وإنما يُسْأَل سبحانه كشف البلاء، والمزيد من النعماء، ففيه تعليم كيفية الاستسقاء. وقال: اللَّهمَّ مَنَابِتَ الشجر، ولم يقل: اصْرِفها إلى منابت الشجر؛ لأن الربّ تعالى أعلم بوجه اللطف، وطريق المصلحة كان ذلك بمطرٍ أو بِندًى أو طَلٍّ، أو كيف شاء، وكذلك بطون الأودية، والقدر الذي يحتاج إليه من مائها.

فصل: فإن قيل: كيف قال أبو طالب:

وأبْيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهه

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٢/ ١٥) ومسلم في الاستسقاء (٨/ ٩) والنسائي (٣/ ١٦٠) دون «لو أدرك أبو طالب هذا اليوم...».

قال ابن هشام: وقوله «وشِبْرِقَهُ» عن غير ابن إسحٰق.

قال ابن إسحٰق: والغياطل: من بني سهم بن عمرو بن هُصَيص، وأبو سفيان بنُ حرب بن أُمَيَّة. ومُطْعِمُ بن عديّ بن نَوْفل بن عبد مناف. وزُهير بن أبي أُمَيَّة بن المغيرة بنِ عبد الله بن عُمَر بن مخزوم، وأُمه: عاتكة بنت عبد المطلب. قال ابن إسحٰق: وأَسِيدٌ، وبِكْرهُ: عتَّابُ بن أسيد بن أبي العِيص بن أميَّة بن عبد شَمْس بن عَبد مناف بن قصيّ. وعثمان بن عُبيد الله: أخو طلحة بن عُبيد الله التَّيْميّ. وقُنْفذ بن عمير بن جُدْعان بن عَمْرو بن كَعْب بن سعد بن تَيْم بن مُرّة. وأبو الوليد عُتْبةُ بنُ ربيعة. وأُبيٌّ: الأخنس بن شَرِيق الثقفيّ، حليف بني زُهْرة بن كلاب.

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي الأخنس؛ لأنه خَنس بالقوم يوم بدْر، وإنما اسمُه: أُبيٌّ، وهو من بني عِلاج، وهو عِلاج بن أبي سَلَمة بن عوْف بن عُقْبَةَ. والأسود بنُ عَبد يَغُوث بن وَهْب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب. وسُبَيع بنُ خالد، أبو بَلْحارث بن فِهْر. ونوفل بنُ خُوَيلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ، وهو ابن العَدَويَّة. وكان من

ولم يَرَهُ قطّ استسقى، وإنما كانت استسقاءاته عليه السلام بالمدينة في سفر وحَضَر، وفيها شوهد ما كان من سرعة إجابة الله له.

فالجواب: أن أبا طالب قد شاهد من ذلك أيضًا في حياة عبد المطلب ما دلّه على ما قال، روى أبو سُلَيْمَان حَمَد بن محمد بن إبراهيم [بن الخطاب الخطابي] البُسْتِي النيسابوري[1]، أن رُقَيْقَةَ بنت أبي صَيْفِيّ بن هاشم قالت: تتابعت على قريش سِنُو جَدْب قد أقْحَلَتْ الظِّلفَ، وأرَقَّت العظم، فبينا أنا راقدة اللَّهمّ، أو مُهَدَّمة، ومعي صِنوى إذ أنا بهاتفِ صَيِّتٍ يصرخ بصوتٍ صَحِلٍ يقول: يا معشر قريش إن هذا النبيَّ المبعوثَ منكم، هذا إبَّانُ نُجومِه، فَحَيَّ هَلاً بالْحَيا والخصب، ألا فانظروا منكم رجلاً طُوَّالاً عُظَّامًا أبيضَ فَظًّا، أشَمَّ الْعِرْنين، له فخر يَكْظِمُ عليه[2]. ألاَ فلْيَخْلُص هو وولدُه، ولْيُدْلِفْ إليه من كل بَطْنِ رجلٌ، ألا فَلْيَشُنُّوا من الماءِ، ولْيَمَسُّوا من الطيب، وَليطوفوا بالبيت سَبْعًا، ألاَ وفيهم الطيب الطاهر لذاته، ألا فليدْعُ الرجلُ، وليؤمِّن القومُ، ألا فَغِثْتُم أبدًا ما عشتم. قالت: فأصبحتُ مذعورة قَد قَفَّ جلدي، ووَلِه عَقلي، فاقْتَصَصْتُ رُؤياي، فوالحُرمةِ وَالحَرَم إنْ بقي أبْطَحِيٌّ إلاَّ قال: هذا شَيْبَةُ الْحَمْدِ، وَتَتَامَّت عنده قريشٌ، وَانفض إليه الناس من كُلِّ بَطْنِ رجلٌ، فَشَنُّوا وَمَسُّوا وَاستلموا وَاطَّوَّفُوا، ثم ارْتَقَوا أبا قُبَيْسٍ، وطَفِقَ القوم يَدِفُّون

---

(١) هو الإمام الخطابي صاحب شرح سنن أبي داود «معالم السنن» توفي سنة ٣٨٨هـ.

(٢) يكظم عليه: أي لا يظهره.

شياطين قُرَيش، وهو الذي قَرَن بين أبي بكر الصدّيق وطَلْحة بنْ عُبَيْد الله رضي الله عنهما في حَبْل حين أسْلما، فبذلك كانا يُسمَّيان: القَرينين، فقتله عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام يوم بَدْر. وأبو عمرو: قُرَظَة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف. «وقوم علينا أظِنَّة»: بنو بكر بن عبد مَنَاة بنت كنانة، فهؤلاء الذين عَدَّد أبو طالب في شعره من العرب.

ذكر الرسول «ﷺ»[1] ينتشر:

فلما انتشر أمرُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ في العرب، وبَلَغ البُلْدانَ، ذُكر بالمدينة، ولم يكن حيٌّ من العرب أعلمَ بأمر رسولِ الله ـ ﷺ ـ حين ذكر، وقبلَ أن يُذكر من هذا الحيّ من الأوْس والخَزْرَج، وذلك لِمَا كانوا يسمعون من أحبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء، ومعهم في بلادهم. فلما وقع ذِكْره بالمدينة، وتحدّثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف. قال أبو قَيْس بن الأسْلت، أخو بني واقف.

حولَه، ما إن يدركَ سعيُهُمْ مُهَلةً، حتى قَرُّوا بذروة الجبل، وَاسْتَكَفُّوا جَنَابَيه، فقام عبدُ المطلب، فاعْتَضَد ابنَ ابنِهِ محمدًا ـ ﷺ ـ فرفعه على عاتِقه، وَهو يومئذ غُلام قد أيْفَع، أو قد كَرَبَ، ثم قال: اللَّهمَّ سادَّ الْخَلَّة، وكاشفَ الكُرْبة أنت عالم غير مُعلَّم، ومسؤول غيرُ مُبَخَّلٍ، وهذه عِبِدَّاؤُكَ، وإماؤك بِعَذِراتِ حَرَمِك يشكون إليك سَنَتَهم، فاسْمَعَنَّ اللَّهمَّ، وأمطِرنَّ علينا غَيْثًا مَريعًا مُغْدِقًا، فما راموا والبيت، حتى انفجرت السماءُ بمائها، وكَظَّ الوادي بثَجِيجِه[2]. رواه أبو سليمان عن ابن الأعرابي. قال: حدّثنا محمد بن علي بن البُخْتُرِيّ، نا يعقوب بن محمد بن عيسى بن عبد الملك بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، نا عبد العزيز بن عِمْران، عن ابن حُوَيِّصَةَ، قال يحدّث مَخْرَمة بن نُفَيل عن أُمه رُقَيْقَة بنت أبي صَيْفيّ.

وذكر الحديث، ورواه بإسناد آخر إلى رُقَيْقَة، وفيه: ألا فانظروا منكم رجلاً وَسيطًا عُظَامًا جُسَامًا أوْطَف الأهداب، وأن عبد المطلب قام ومعه رسول الله ـ ﷺ ـ قد أيْفَعَ أو كرَبَ، وذكر القصة.

---

(١) بالمطبوع «ص» بدلاً من ﷺ. وقد تقدم التنبيه على مثلها.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير وفيه زهير بن حصن قال الذهبي: لا يُعرف. قاله الهيثمي في المجمع (٢/ ٢١٥). وأخرجه البخاري في الاستقاء (١٠٠٨) عن ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

أبو قيس بن الأسلت ونسبه وشعره في الرسول «ﷺ»

قال ابن هشام: نَسَب ابنُ إسحٰق أبا قَيْس هذا هٰهنا إلى بني واقف، ونسبه في حديث الفِيل إلى خَطْمة؛ لأن العرب قد تنسب الرجلَ إلى أخي جدّه الذي هو أشهر منه.

قال ابن هشام: حدّثني أبو عُبيدة أنّ الحَكم بن عَمْرو الغِفاريّ من ولد نُعَيلة أخي غِفار، وهو غِفار بن مُلَيل، ونُعَيْلة بنُ مُليل بن ضَمْرة بن بَكْر بن عبد مناة، وقد قالوا: عُتْبة بنُ غَزْوان السُّلَميّ، وهو من ولد مازن بن منصور وسُليم بن منصور.

قال ابن هشام: فأبو قيس بن الأسلت: من بني وائلٍ، ووائلٌ، وواقف وَخَطْمَةُ إخوة من الأوس.

قال ابن إسحٰق: فقال أبو قَيْس بن الأسلت ـ وكان يحبّ قريشًا، وكان لهم صِهرًا، كانت عنده أرْنب بنت أسَد بن عبد العُزّى بن قُصيّ، وكان يُقيم عندهم السنينَ بامرأته ـ قصيدةً يعظِّم فيها الحُرْمة، وينهي قُرَيشًا فيها عن الحَرب، ويأمرهم بالكفّ بعضهم عن بعض، ويذكر فضلَهم وأحلامَهم، ويأمرهم بالكَفّ عن رسولِ الله ﷺ، ويذكِّرهم بلاءَ الله عندهم، ودَفْعَه عنهم الفِيل وكيدَه عنهم، فقال:

ابن الأسلت وقصيدته

فصل: وذكر ابنُ هشام كلّ مَن سمّاه أبو طالب في قصيدته، أو أشار إليه، وعرف بهم تعريفًا مُسْتغنيًا عن الزيد. وذكر قصيدة أبي قيس صَيْفِي بن الأسْلَت، واسمُ الأسلتِ: عامرٌ، والأسْلَتُ: هو الشديد الفَطَس يقال: سَلَتَ اللَّهُ أنفه، ومن السلت حديث بشر بن عاصم حين أراد عمر أن يستعمله، فلما كتب له عهدَه أبي أن يقبله، وقال: لا حاجة لي به. إني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن الوُلاةَ يُجَاء بهم يوم القيامة، فيقفون على جِسْرِ جَهَنَّم، فمَن كان مُطاوِعًا لله تناوله بيمينه حتى ينجيه، ومَن كان عاصيًا لله انخرق به الجسر إلى وادٍ من نارٍ تلتهب التهابًا»، قال: فأرسل عمرُ إلى أبي ذَرٍّ، وإلى سَلْمانَ، فقال لأبي ذَرٍّ: أنت سمعت هذا من رسول الله ـ ﷺ ـ قال: نعم والله، وبعد الوادي وادٍ آخر من نارٍ. قال: وسأل سَلْمانَ، فكره أن يخبره بشيء، فقال عمر: مَن يأخذها بما فيها؟ فقال أبو ذر: مَن سَلَت اللَّهُ أنْفَه وعينيه، وأضْرَعَ خَدَّه إلى الأرض ذكره ابن أبي شيبة[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/٢١٧). وذكره الحافظ في المطالب (٢٠٤٧).

يا راكِبًا إمَّا عَرَضتَ فَبَلِّغن مُغَلغَلةً عنّي لُؤَيَّ بن غالبِ
رسول امرىءٍ قد راعه ذاتُ بَيْنِكم على النأيِ مَحْزونٍ بذلك ناصبِ
وقد كانَ عندي للهُموم مُعَرَّسٌ[1] فلم أقْضِ منها حاجتي ومآربي
نُبَيِّتُكُم شَرْجَيْن كل قبيلة لها أزمَلٌ مِنْ بين مُذْكٍ وحاطب
أُعيذكُمُ بالله مِنْ شرّ صُنعكم وشَرٌ تَباغِيكم ودَسِّ العَقارب
وإظْهار أخلاقٍ، وَنَجوى سَقيمةٍ كَوَخز الأشافي وَقعُها حقُّ صائب
فذَكِّرْهُمُ بالله أوّلَ وَهْلةٍ وإحلال أحرام الظِّباء الشَّوازب
وقُلْ لهم والله يحكم حُكْمَه ذَرُوا الحربَ تذهب عنكم في المَراحب
متى تَبْعثوها، تبعثوها ذَميمةً هي الغُول للأقْصَيْن أو للأقارب

وأول القصيدة:

يا راكبًا إمَّا عَرَضت فَبَلِّغَنْ

البيت. الْمُغَلْغَلَةُ: الداخلة إلى أقصى ما يراد بُلوغه منها، ومنه تغلغل في البلاد: إذا بالغ في الدخول فيها، وأصله: تَغَلَّلَ وَمُغَلَّلَة، وَلكن قلبوا إحدى اللامين غينًا، كما فعلوا في كثير من المضاعَف، وَأصله من الْغَلل وَالْغِلاَلَةِ، فأما الْغَلَلُ فماءٌ يستره النباتُ والشجرُ، وأما الْغِلاَلَةُ فساترةٌ لما تحتها.

وفيها. نُبَيّتُكم شَرْجَيْن. أي: فريقين مختلفين، وَنُبَيْتُكم لفظٌ مشكل وَفي حاشية الشيخ: نبيتكم شَرْجَين، وَهو بيِّن في المعنى، وَفيه زِحاف خَزم، وَلكن لا يعاب المعنى بذلك، وَأما لفظ التَّبَيُّت في هذا البيت، فبعيد من معناه، وَالأزمَلُ: الصوت، وَالْمُذْكي: الذي يوقد النار، وَالحاطب: الذي يَحْطِب لها، ضُرِب هذا مثلاً لنار الحرب، كما قال الآخر:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وَميضَ جَمْرٍ وَيوشك أن يكونَ لها ضِرام
فإن النارَ بالعُودين تُذْكَى وإن الحربَ أولُها الكلامُ[2]

وقوله: وهي الغُول للأدنى، أي: هي الهلاك، يقال: الغضبُ: غول الحِلْم، أي يهلكه، والْغَوْلُ بفتح الغين: وَجَعُ البطن، قاله البخاري في تفسير قوله: ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾. وقوله: وإحلالُ إحرامِ الظباء الشَّوازِب[3]. أي: إن بلدَكم بلدٌ حَرَامٌ تأمن فيه الظباء الشوازِبُ

(١) المُعَرِّس: الذي يسير نهاره ويُعَرِّس أي ينزل أول الليل.
(٢) انظر مروج الذهب (٣/٢٥٦). (٣) التي يحرم صيدها في الحرم.

تُـقَـطِّـع أرحـامًـا، وتُـهْـلِـكُ أُمَّـةً ... وتَبْري السَّديف[1] من سَنام وغارب
وتَسْـتـبـدلـوا بـالأتْـحَـمِـيَّـة بـعـدهـا ... شَـلـيـلاً وأصـداءً ثـيـابَ الْـمُـحَـارب
وبـالـمِسْـك والـكـافـور غُـبْـرًا سَـوابـغـا ... كـأنَّ قَـتِـيـرَيْـهـا عـيـونُ الـجَـنـادب
فـإيَّـاكُـم والـحـربَ لا تَـعْـلَـقَـنَّـكـم ... وحَـوْضًـا وخِـيـم الـمـاء مُرًّ الـمـشـارب
تَـزَيَّـنُ لـلأقْـوام، ثُـمَّ يَـرَوْنَـهـا ... بـعـاقـبـةٍ إذ بَـيَّـنـت، أُمَّ صـاحـب
تُحَرِّق، لا تُشْوِي ضعيفًا، وتَنتَحي ... ذوي العِزّ منكم بالْحُتُوف الصَّوائب
ألم تعلموا ما كان في حرب دَاحِسٍ ... فتَعْتبروا أو كان في حَرْب حاطب

التي تأتيه من بُعْدٍ، لتأمنَ فيه، فهي شازِبة أي: ضامرة من بعد المسافة، وإذا لم تَحِلُّوا بالظباءِ فيه، فَأَحْرَى ألاّ تَحِلُّوا بدمائكم، وإحرامُ الظباءِ: كونُها في الحرم، يقال لمَن دخل في الشهر الحرام، أو في البلد الحرام: مُحْرِمٌ. والأتْحَمِيَّةُ: ثيابٌ رِقاقٌ تصنع باليمن، والشليل: دِرْعٌ قصيرة، والأصْدَاء: جمع صَدَأ الحديد، والقَتِير: حَلَقُ الدِّرْع شبهها بعيون الْجَرَادِ، وأخذ هذا المعنى التَّنُوخِيُّ فقال:

كـأثـوابِ الأراقـم مَـزَّقـتـهـا ... فـخـاطـتـهَـا بـأعـيـنـهـا الـجَـرادُ

وقوله في وصف الحرب:

تَـزَيَّـن لـلأقـوام، ثـم يَـرَوْنَـهـا ... بـعـاقـبـةٍ إذْ بَـيَّـنـت أُمَّ صـاحـب

هو كقول عمرو بن معدي كرب:

الـحـربُ أولُ مـا تـكـون فَـتِـيَّـةٌ ... تـسـعـى بِـبَـزَّتـهَـا لـكـل جَـهُـول
حتى إذا اشتعلت وشَبَّ ضِرامُها ... ولَّـت عـجـوزًا غـيـرَ ذاتِ خـلـيـل
شَـمْـطـاءَ جَـزَّت رَأسَـهـا، فـتـنـكـرت ... مـكـروهـةً لـلـشَّـمِّ والـتَّـقـبـيـل

فقوله: أُم صاحب، أي: عجوزًا كأُم صاحب لك، إذ لا يصحب الرجلَ إلا رجُلٌ في سنّه، وفي جامع البخاري: كانوا إذا وقعت الحرب يأمرون بحفظ هذه الأبيات، يعني: أبيات عمرو المتقدمة.

وقـولـه:

ألـم تـعـلـمـوا مـا كـان فـي حـرب داحـسٍ

---

(١) السديف: لحم السَّنام.

وكم قد أصابتْ من شَريف مُسوَّد ... طويلِ العِماد، ضيفُه غيرُ خائب

عظيمِ رَمادِ النَّارِ يُحْمَد أمرُه ... وذي شِيمةٍ مَحْضٍ كريم المَضارب

وماءٍ هُريق في الضَّلال كأنما ... أذاعت به ريح الصَّبا والجَنائب

يخبِّركُم عنها امرؤٌ حقُّ عالمٍ ... بأيَّامها والعِلْمُ عِلْمُ التَّجارب

فبِيعُوا الحِرابَ مِلْمُحَارب، واذكُروا ... حِسابَكُمُ، وَاللَّهُ خيرُ مُحاسِب

ولِيّ امرىءٍ، فاختار دِينا، فلا يكُنْ ... عليكم رقيبًا غيرَ رَبِّ الثَّواقب

أقيمُوا لَنا دينًا حَنِيفًا فأنتمُ ... لنا غايَةٌ قد يُهتدى بالذَّوائبِ

وأنتم لهَذا النَّاسِ نور وعِصْمةٌ ... تُؤَمُّون، والأحلام غير عَوازب

وأنتم ـ إذا ما حُصِّل الناسُ ـ جَوْهرٌ ... لكم سُرَّة البَطْحاء شُمُّ الأرانب

تَصونون أجسادًا كِرامًا عَتيقةً ... مُهذَّبة الأنسَاب غيرَ أشائبِ

يُذْكَر معنى داحسٍ إذا ذكره ابن إسحٰق بعد هذه القصيدة إن شاء الله تعالى.

وقوله فيها: وَلِيّ امرىءٍ فاختار دينًا فإنما. أي: هو وليّ امرىءٍ اختار دينًا، والفاء زائدة على أصلِ أبي الحسن، قال في قولهم: زيدًا فاضرِب: الفاءُ مُعَلَّقة أي: زائدة، ومَن لا يقول بهذا القول يجعل الفاء عاطفة على فعل مضمر، كأنه قال: ولي امرىء تَدَيَّن، فاختار دينًا، أو نحو هذا، وقد تقدّم شرح باقي القصيدة في آخر قصة الحبشة.

وقال فيها: كريم المضارب، وفي حاشية كتاب الشيخ: لعله الضرائب، يريد: جمع ضريبة، ولا يبعد أيضًا أن يكون قال: المضارب. يريد أن مضارب سيوفهِ غير مذمومة، ولا راجعة عليه إلا بالثناء والحمد والوصف بالمكارم.

وفيها قوله: وماء هُريق في الضلال. ويُروى: في الصِّلال جمع صَلَّة، وهي الأرض التي لا تمسك الماء، أي رُبَّ ماءٍ هُريق في الضلال من أجل السراب، لأنه لا يُهْرِيقُ ماءً من أجلِ السَّرابِ إلا ضالّ غير مميز بمواضع الماء، وأذاعت به، أي: بدّدته، فلم ينتفع به، وهذا مثل ضربه للنظر في عواقب الأمور، ويُروى: وما اهْرِيق في أمر، ومعناه: والذي أُهْرِيق في أمر الضلال، فوصل ألف القطع ضرورة، ويقال: أُرِيق الماء، وأُهْرِيق بالجمع بين الهمزة والهاء، وهي أقلّها، ولتعليلها موضع غير هذا.

يرى طالبُ الحاجات نحو بُيوتكم عصائبَ هلْكى تَهْتَدِي بعَصائب
لقد علم الأقوامُ أنّ سَراتَكم على كلّ حال خيرُ أهل الْجَبَاجِب
وأفضله رأيًا، وأعلاه سُنَّة وأقْوَلُه للحقّ وَسْط المواكب
فقوموا، فصَلُّوا رَبَّكُم، وتمَسَّحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاؤٌ ومَصْدَق غَدَاةَ أبي يَكْسُوم هادِي الكَتَائب
كتيبتُه بالسَّهل تُمْسِي، ورَجْلُه على القاذفات في رُؤوس المناقب
فلما أتاكم نَصرُ ذي العَرْش، ردَّهم جُنودُ المليك بين سافٍ وحاصِب
فولَّوْا سِرَاعًا هاربينَ، ولم يَؤُبْ إلى أهله مِ الْحُبْشِ غيرُ عَصائب
فإن تَهْلِكوا، نَهْلِكْ وتَهلِكْ مَواسم يُعاش بها، قولُ امرىءٍ غيرِ كاذب

قال ابن هشام: أنشدني بيتَه: «وماءِ هُرِيق»، وبيتَه: «فبيعوا الحراب»، وقولَه: «ولِيُّ امرىءٍ فاختار»، وقوله:

على القاذفات في رؤوس المناقب

أبو زيد الأنصاريّ وغيره.

حرب داحس

قال ابن هشام: وأما قوله:

ألم تعلموا ما كان في حرب داحس

وقوله فيها: بين سافٍ وحاصب: السافي: الذي يَرْمي بالتراب، والحاصب الذي يَقْذف بالحصباء.

وفيها ذكر الجَبَاجِب، وهي منازل مِنى. كذا قال ابن إسحٰق، وقال البَرْقِيُّ: هي حُفَر بمِنى، يجمع فيها دم الْبُدْن، والهدايا، والعرب تعظمها وتفخر بها، وقيل: الجباجب: الكُروش. يقال للكَرِشِ: جَبْجَبة بفتح الجيم، والذي تقدّم واحدُه: جُبْجُبَة بالضم[1].

حرب داحس[2]

فصل: وذكر حديث حرب داحس مختصرًا، وداحس: اسم فرس كان لقيس بن أبي

---

(١) في الراصد: الجبجبة: ماء معروف بنواهي اليمامة.

(٢) انظر الكامل (١/ ٤٤٩) النقائض بين جرير والفرزدق لأبي عبيدة (١/ ٧٦).

فحدّثني أبو عُبيدة النحويّ: أن داحسًا فَرَس كان لقَيْس بن زُهير بن جَذيمة بن رَواحة بن رَبيعة بن الحارث بن مازن بن قُطَيْعة بن عَبْس بن بَغيض بن رَيْث بن غَطَفان، أجراه مع فرس لحُذَيفة بن بَدْر بن عَمْرو بن زيد بن جُؤية بن لَوْذان بن ثَعْلَبَةَ بن عدي بن فزارة بن ذُبيان بن بَغيض بن رَيْث بن غَطَفان، يقال لها: الغَبْراء. فدسَّ حُذيفة قومًا وأمرهم أن يضربوا وَجْه داحس، إن رأوه قد جاء سابقًا، فجاء داحس سابقًا، فضَربوا وجهَه، وجاءت الغبراء. فلما جاء فارس داحس أخبر قيسًا الخبرَ، فوثب أخوه مالك بن زُهَير، فلطم وجهَ الغبراء، فقام حَمَلُ بنُ بدر، فلطم مالكًا. ثم إن أبا الجُنَيْدِب العَبْسيّ لقي عوفَ بن حُذيفة فقتله، ثم لقي رجلٌ من بني فَزارة مالكًا فقتله فقال حَمَلُ بن بَدْر أخو حُذيفة بن بَدْر:

قَتَلْنا بعَوفٍ مالكًا وهو ثَأْرُنا ... فإن تطلبوا منَّا سوى الحقّ تَنْدَموا

زهير، ومعنى داحس: مدحوس كما قيل: ماء دافق، أي: مدفوق، والدَّحْسُ: إدخال اليد بقوة في ضيق، كما رُوِيَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ مرّ بغلام يسلخ شاة، فأمره أن يتنحي ليُريه، ثم دَحَس عليه السلام بيده بين الجِلْد واللحم، حتى بلغ الإبطَ ثم صلّى، ولم يتوضأ[1]. فَدَاحِسٌ سُمِّيِ بهذا الاسم؛ لأن أُمه كانت لرجل من بني تَمِيم، ثم من بني يَرْبُوع اسمه: قِرْواش بن عَوْف، وكان اسم الفرس: جَلْوَى، وكان ذو العُقَّال فرسًا عتيقًا لِحَوْطِ بن جابر، فخرجت به فتاتان له، لتسقياه، فبصر بجلْوَى، فأدْلَى حين رآها، فضَحِك غِلْمةٌ كانوا هنالك، فاستحيت الفتاتان، ونكَّستا رأسيهما، فأفلت ذو العُقَّال حتى نَزَا على جَلْوى، وقيل ذلك لِحَوْطِ فأقبل مغضبًا، وهو يسعى حتى ضرب بيده في التراب، ثم دَحَسها في رَحم الفرس، فسطَا عليها، فأخرج ماءَ الفحل منها، واشتملت الرحمُ على بقية الماء، وحملت بمهر فسَمَّوه: داحِسًا، وأظهرُ ما فيه أن يكون مِثْلَ: لابِنٍ وتامِرٍ، وأن لا يكون فاعِلاً بمعنى مفعول، فهو داحس بن ذي العُقَّال بن أعْوَج الذي تُنْسب إليه الخيل الأعْوَجِيَّة[2] في قول بعضهم، وقد تقدم غير هذا القول ـ ابن سَبَلٍ[3]، وكان لغني بن يَعْصُر، وفيه يقال:

إن الجواد بن الجواد بن سَبَل ... إنْ دَايمُوا جاد، وإن جادَ وَبَل

وفي ذي العُقَّال يقول جرير:

تمسي جيادُ الخيل حول بيوتنا ... من آل أعوجَ، أو لذي العُقَّال

---

(١) «حسن». أخرجه أبو داود (١٨٥) بتحقيقي. وابن ماجة في الذبائح (٣١٧٩).

(٢) أعوج: فرس لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات.

(٣) سبل: هي أم أعوج سالف الذكر.

وهذا البيت في أبيات له. وقال الربيع بن زياد العَبْسي:

أَفَبَعْدَ مقْتل مالكِ بن زُهَير ترجو النِّساءُ عواقبَ الأطهار

وهذا البيت في قصيدة له.

فوقعت الحرب بين عَبْس وفَزارة، فقُتِلَ حُذيفة بن بدر وأخوه حَمَل بن بدر، فقال قيس بن زُهَير بن جَذيمة يرثي حُذيفة، وجَزِع عليه:

كم فارسٍ يُدْعى وليس بفارسٍ وعلى الهَباءة فارسٌ ذو مَصْدَقِ
فابكوا حُذيفة لن تُرثَوا مثلَه حتى تَبيد قبائلٌ لم تُخْلَق

وهذان البيتان في أبيات له. وقال قيس بن زهير:

على أنّ الفتى حَملَ بنَ بَدْرٍ بَغَى، والظُّلمُ مَرْتَعهُ وخيم

وهذا البيت في أبيات له: وقال الحارث بن زهير أخو قيس بن زهير:

تركتُ على الهَباءة غيرَ فخْرٍ حُذَيفةَ عنده قِصَدُ العَوالي

وأنشد:

أَفبعد مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرِ ترجو النساءُ عواقبَ الأطهار

وفيه إقواء، وهو حذف نصف سبب من القسم الأول، وقد تكلمنا على معنى الإقواء قبل، وأما اختلاف القوافي فيسمى: اكتفاء، وإقواء أيضًا لأنه من الكُفْء، فكأنه جعل الرفع كفئًا للخفض، فسوّى بينهما، وفيها قوله:

ترجو النساءُ عواقبَ الأطهار. كقول الأخطل:

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

فيقال: إن حرب داحس دامت أربعين سنة، لم تحمل فيها أُنثى، لأنهم كانوا لا يقربون النساء ما داموا محاربين، وذكر الأَصْبهَانِيُّ أن حرب داحِس كانت بعد يوم جَبَلة بأربعين سنة، وقد تقدّم يوم جَبَلة، وأن رسول الله ﷺ ولد في تلك الأيام، وقال لبيد:

وغَنِيتُ حَرْسًا قبل مَجْرى داحسٍ لو كان للنفسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

وكان لبيدٌ في حربِ جَبَلَة ابنَ عَشْرِ سنين، وقوله: حَرْسًا أي: وقتًا من الدهر، وَيروى سَبْتًا وَالمعنى وَاحد، وَكان إجراء داحس وَالغبراءِ على ذاتِ الإصادِ موضعٍ في بلاد فَزَارَةَ،

وهذا البيت في أبيات له.

قال ابن هشام: ويقال: أرسل قيسٌ داحسًا والغَبْراء، وأرسل حُذَيفةُ الخطَّارَ والحَنْفاء، والأوّل أصحّ الحديثين. وهو حديث طويل مَنعني من استقصائه قَطْعُه حديث سيرة رسول الله ﷺ.

حرب حاطب:

قال ابن هشام: وأما قوله: «حرب حاطب». فيَعْني حاطبَ بن الحارث بن قَيْس بن هَيْشَة بن الحارث بن أُميَّة بن معاوية بن مالك بن عَوْف بن عَمْرو بن عَوْف بن مالك بن الأوس، كان قتل يهوديًا جارًا للخَزْرج، فخرج إليه يزيدُ بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمرَ بن حارثة بن ثَعْلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج ـ وهو الذي يقال له: ابن فُسْحُم، وفُسْحم: أمَّه، وهي امرأة من القَيْن بن جَسْر ـ ليلاً في نفر من بَني الحارث بن الخزرج فقتلوه، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فكان الظفر للخزرج على الأوس، وقُتل يومئذٍ سُوَيد بن صامت بن خالد بن عطيَّة بن حَوْط بن حَبيب بن عَمْرو بن عوف بن مالك بن الأوس، قَتله المُجذَّر بن ذَيَّادٍ البلوي، واسمه عبد الله، حليف بني عَوْف بن الخزرج. فلما كان يوم أُحُد خرج المجذّر بن ذَيَّاد مع رسول الله ـ ﷺ ـ وخرج معه الحارث بن سُوَيد بن صامت، فوجد الحارثُ بن سُوَيد غِرَّة من الْمُجَذَّر فقتله بأبيه. وسأذكر حديثَه في موضعه ـ إن شاء الله تعالى ـ ثم كانت بينهم حروب منعني من ذكرها واستقصاء هذا الحديث ما ذكرت في حديث حرب داحس.

وَكان آخرُ أيام حرب داحس بقَلَهَى من أرضِ قيس، وَهناك اصطلحت عبس وَمنُولة: وَهي أم بني فَزارة: شَمْخ وَعَدِي وَمازن، فيقال لهذا الموضع: قَلَهَى، وَأما قَلَهَّي فموضع بالحجاز، وَفيه اعتزل سعدُ بن أبي وَقاص حين قُتل عثمان، وَأمر ألاّ يُحَدَّث بشيء من أخبار الناس، وَألا يسمع منها شيئًا، حتى يصطلحوا، وَيقال: إن الْحَنْفَاءَ كانت فرسَ حُذَيْفَةَ، وَأنها أُجريت مع الغبراء ذلك اليوم، قال الشاعر:

إذا كان غيرُ الله للمرء عُدَّةً ... أتته الرَّزايا من وُجوه الفوائد
فقد جَرَت الْحَنْفَاءُ حَتْفَ حُذَيْفَةٍ ... وَكان يراها عُدَّةً للشدائدِ

وَأما حرب حاطب الذي ذكرها، فهي حربٌ كانت على يد حاطب بن الحارث بن قَيس بن هَيْشَة بن الأوسِ، فنُسبَت إليه، وَكانت بين الأوس وَالْخَزْرج.

حكيم بن أمية ينهي قومه عن عداوة الرسول:

قال ابن إسحٰق: وقال حكيم بن أُميَّة بن حارثة بن الأوْقص السُّلميّ، حليف بني أُميَّة وقد أسلم، يورّع قومَه عَمَّا أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ، وكان فيهم شريفًا مُطاعًا:

هل قائلٌ قولاً من الحقّ قاعدٌ ... عليه، وهل غضْبانُ للرُّشْد سامعُ
وهل سَيِّدٌ تَرجو العشيرةُ نَفْعَه ... لأقصَى الموالي والأقارب جامعُ
تبرأتُ إلا وجهَ مَنْ يملك الصَّبا ... وأهْجُركم ما دام مُدْلٍ ونازع
وأُسْلِم وَجْهِي للإلٰه ومنْطِقِي ... ولو راعني مِنَ الصَّديق روائع

ذكرى ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه

مفتريات قريش وإيذاؤهم للرسول ﷺ:

قال ابن إسحٰق: ثم إن قريشًا اشتدّ أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ، ومَنْ أسْلم معه منهم، فأغْرَوْا برسول الله ﷺ: سفهاءَهم، فكذّبوه، وآذَوْه، ورموه بالشِّعر والسِّحر والكَهانة والجنُون، ورسولُ الله ﷺ مُظْهِرٌ لأمر الله لا يُسْتخفى به، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عَيْب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إيَّاهم على كفرهم.

ما لقي رسول الله (ﷺ) من قومه

فصل: فيما لقي رسول الله ﷺ من قومه، ذكر ابن إسحٰق والواقدي والتَّيْمِي، وابن عُقْبَةَ وغيرهم في هذا الباب أُمورًا كثيرةً تتقارب ألفاظها ومعانيها، وبعضهم يزيد على بعض، فمنها حَثْوُ سفهائهم الترابَ على رأسه، ومنها أنهم كانوا يَنْضِدُون. الْفَرْثَ والأفْحَاث[1] والدمَاء على بابه، ويطرحون رحم الشاة في بُرْمَتِه، ومنها: بَصْقُ أُميَّة بن خلف في وجهه، ومنها: وطء عقبة بن أبي مُعَيْط على رقبته، وهو ساجد عند الكعبَة حتى كادت عيناه تبرزان، ومنها أخذُهم بِمُخَنَّقِه حين اجتمعوا له عند الحِجْر، وقد ذكره ابن إسحٰق، وزاد غيره الخبر أنهم خنقوه خنقًا شديدًا وقام أبو بكر دونه فَجَبَذُوا رأسَه ولحيته حتى سقط أكثرُ شَعره، وأما السَّبُّ والْهَجْو والتلقيب وتعذيب أصحابه وأحبائه، وهو ينظر، فقد ذكر من ذلك ابن إسحٰق ما في الكتاب، وقد قال أبو جهل لسُمَيَّة أُمّ عَمَّار بن ياسر: ما آمنتِ بمحمد إلا لأنك عَشِقْتِه لجمالِه، ثم طعنها بالحِربة في قُبُلها حتى قتلها، والأخبار في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) الأفحاث: جمع فحث: بعض ما في الكرش.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني يَحْييٰ بنُ عروة بن الزبير، عن أبيه عُرْوة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثرُ ما رأيْتَ قريشًا أصابوا من رسول الله ـ ﷺ ـ فيما كانوا يُظْهرون من عداوته؟ قال: حضرْتُهُم، وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثلَ ما صَبرْنا عليه من أمر هذا الرجل قطُّ: سفَّه أحلامَنا، وشتم آباءنا، وعاب دِيننا، وفرّق جماعَتنا، وسبّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا، فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ـ ﷺ ـ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرّ بهم طائفًا بالبيت، فلما مرّ بهم غَمَزُوه، ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ. قال: ثم مضى، فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفتُ ذلك في وجه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم مرَّ بهم الثالثةَ فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «أتسمعون يا معشرَ قُريش؟! أما والذي نفسي بيده، لقد جِئْتُكم بالذَّبح». قال: فأخذت القومَ كلمتُه حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائرٌ واقع، حتى إن أشدّهم فيه وَصَاةً قَبْل ذلك ليَرْفَؤُه بأحسن ما يجدُ من القول، حتى إنه ليقول: انصرفْ يا أبا القاسم، فوالله ما كنتَ جهولاً. قال فانصرف رسولُ الله ﷺ، حتى إذا كان الغدُ اجتمعوا في الحِجْر وأنا معهم، فقال بعضُهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فوثبوا إليه وثبةَ رجلٍ واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لِمَا كان يقول من عَيب آلهتهم ودينهم؟! فيقول رسول الله ﷺ: «نعم أنا الذي أقول ذلك»، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه. قال: فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أنْ يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشدّ ما رأيتُ قريشًا نالوا منه قطُّ.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني بعضُ آل أُمّ كُلْثوم ابنة أبي بكر، أنها قالت: رجع أبو بكرٍ يومئذٍ وقد صَدَعوا فَرْق رأسه، ممَّا جَبَذُوه بلِحْيته، وكان رجلاً كثيرَ الشعر.

قال ابن هشام: حدّثني بعض أهلِ العلم: إن أشدّ ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يومًا فلم يَلقه أحدٌ من الناس إلا كذّبه وآذاه، لا حُرٌّ ولا عَبْد، فرجع رسولُ الله ﷺ إلى منزله، فتدثَّر من شدَّة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يا أيُّها المُدَّثِرُ قُمْ فأنْذِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢].

السبب في تلقيبه بالمدّثر والنذير العريان:

وذكر ابن إسحٰق قول رسول الله ـ ﷺ ـ: «دَثّرُوني دَثّرُوني» فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيُّها الْمدَّثِر قُمْ فأَنْذِر﴾ قال بعض أهل العلم: في تسميته إياه بالْمدَّثِرِ في هذا المقامِ

مُلاَطَفَةٌ وتأنيسٌ، ومن عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمّي المخاطَب باسم مُشْتَقٍّ من الحالة التي هو فيها، كقوله عليه السلام لحذيفة: قم يَا نَوْمان[1]، وقوله لعليّ بن أبي طالب ـ وقد تَرِب جنبُه: قم أبا تُرَابٍ[2] فلو ناداه سبحانه، وهو في تلك الحال من الكرب باسمه، أو بالأمر المجرد من هذه الملاطفة لَهَالَهُ ذلك، ولكن لما بُدِىء، بيأيّها المدثر أنِسَ، وعلم أن ربّه راضٍ عنه، ألا تراه كيف قال عندما لَقِيَ من أهل الطائف من شدة البلاء والكرب ما لقي: رَبِّ إن لم يكن بك غَضَبٌ عَلَيَّ فلا أُبالي[3] إلى آخر الدعاء، فكان مطلوبُه رضا ربه، وبه كانت تهوّن عليه الشدائد. فإن قيل: كيف ينتظم يأيّها المدّثر مع قوله: قم فأنْذر، وما الرابط بين المعنيين، حتى يلتئما في قانون البلاغة، ويتشاكلا في حكم الفصاحة؟ قلنا: من صفته عليه السلام ما وَصَف به نفسَه حين قال: أنا النذير العُرْيان[4]، وهوَ مَثَلٌ معروف عند العرب، يقال لمَن أنْذَرَ بقُرب العدو، وبالغ في الإنذار، وهو النذير العُرْيان، وذلك أن النذير الجادَّ يُجَرِّد ثوبه، ويُشير به إذا خاف أن يسبقَ العَدوُّ صوتَه، وقد قيل: إن أصل المثل لرجل من خَثْعَم سلَبه العدُوُّ ثوبَه، وقطعوا يده، فانطلق إلى قومه نذيرًا على تلك الحال، فقوله عليه السلام: «أنا النذير العريان» أي: مثلي مثل ذلك، والتدثّر بالثياب مُضادٌّ للتَّعَرّي، فكان في قوله: ﴿يأيها المدّثر﴾ مع قوله: ﴿قم فأنذر﴾ والنذيرُ الجادُّ يسمى: الْعُرْيان: تشاكل بَيِّنٌ، والتئام بديعٌ وَسَمَاقَةٌ في المعنى، وجَزَالة في اللفظ.

تقديم المفعول على الفعل:

وقوله بعد هذا: ﴿وَرَبَّك فَكَبِّر﴾ أي: ربّك كبّر، لا غيره لا يَكْبُر عليك شيء من أمر الخلْق، وفي تقديم المفعول على فعل الأمر إخلاصٌ، ومثله قوله: ﴿إيَّاك نَعْبُدُ وإياك نستعين﴾ أي: لا نعبد غيرك [ولا نستعين إلا بك]، ولم يَقُل: نعبدك ونستعينك، وفي الحديث: إذا قال العبد: إياك نعبد، وإياك نستعين، يقول الله تعالى: أخلص لي عبدي العبادةَ، واستعانني عليها، فهذه بيني وبين عبدي.

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في الجهاد (٩٩) والبيهقي (٩/ ١١٩) وفي الدلائل له (٣/ ٤٥٠).
(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (١/ ١٢٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٣٨) والبيهقي (٢/ ٤٤٦).
(٣) انظر القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١١) والبغوي (٦/ ١٦٧).
(٤) «صحيح». أخرجه البخاري (٩/ ١١٥).

....

عتبة بن ربيعة والرَّئي:

فصل: وذكر قول عتبة: إن كان هذا رَئِيًّا تراه. ولغةُ بني تميم: رِئِيّ بكسر الراء، وكذلك يقولون في كل فعيل عين الفعل منه همزة، أو غيرها من حروف الْحَلْق، يكسرون أوله، مثل: رحيم وشهيد والرَّئِيُّ: فَعيل بمعنى مَفْعول، ولا يكون إلا من الْجِنّ، ولا يكون فَعِيل بمعنى مفعول في غير الجنّ. إلا أن يؤثر فيه الْفِعْل نحو: جريح وقتيل وذبيح وطحين، ولا يقال من الشكر: شكير، ولا ذكرته فهو ذكير، ولا فيمن لُطِم: لطيم إلا أن تغير منه اللطمة، كما قالوا: لطيم الشيطان. قال ابن الزبير حين قُتل عَمْرُو بن سعيد الأشْدَق [بن العاص]: ألاَ إن أبا ذِبَّانَ قتل لطيمَ الشيطان: ﴿كذلك نُوَلِّي بعضَ الظالمين بَعْضًا بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام: ٢٩]. وقالوا من الحمد: حميد، ذهبوا به مذهب كريم، وكذلك قالوا في الجنّ: رَئِيٌّ، وإن كانت الرؤيا لا تؤثّر في الْمَرْئِيّ؛ لأنهم ذهبوا به مذهب قرين ونَجِيّ.

إسلام حمزة رضي الله عنه(١)

قال ابن إسحـٰق: حدّثني رجل من أسْلم، كان واعيةً: أنّ أبا جهل مرّ برسول الله ﷺ عند الصَّفا فآذاه وشتمه، ونال منه بعضَ ما يكره من العَيْب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلِّمه رسولُ الله ـ ﷺ ـ، ومَوْلاةٌ لعبد الله بن جُدْعان بن عمرو بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم بن مُرّة في مَسْكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعَمَد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقْبل مُتَوَشِّحًا قوسَه، راجعًا من قَنَصٍ له، وكان صاحبَ قَنَصٍ يَرْميه، ويخرج له، وكان إذا رجع من قَنَصه لم يصل إلى أهله، حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف، وسلّم، وتحدّث معهم، وكان أعزّ فتًى في قريش، وأشدّ شَكِيمة، فلما مرّ بالمَوْلاةِ، وقد رجع رسولُ الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عُمارة، لو رأيتَ ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ آنفًا من أبي الحَكَم بن هشام: وَجَده هـٰهنا جالسًا، فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه، ولم يكلِّمه محمدٌ ﷺ.

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لِمَا أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى، ولم يَقِفْ على

إسـلام حمـزة

فصل: وذكر إسلام حمزةَ، وأُمُّه: هالةُ بنت أُهَيْب بن عبد مناف بن زُهرة، وأُهَيْبٌ: عمُّ آمنة بنت وهب تزوجها عبدُ المطلب، وتزوج ابنُه عبدُ الله آمنة في ساعةٍ واحدة، فولدت هالةُ لعبد المطلب حمزة. وولدت آمنةُ لعبد الله رسولَ الله ـ ﷺ ـ ثم أرضعتهما ثُوَيْبَةُ كما تقدم، وزاد غير ابن إسحـٰق في إسلام حمزة أنه قال: لما احتملني الغضب، وقلت: أنا على

---

(١) انظر الكامل (١/ ٦٠١) والمنتظم لابن الجوزي (٢/ ٣٨٤) والطبري في تاريخه (١/ ٥٤٩).

أحد، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لَقِيه أن يُوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القومِ فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس، فضربه بها، فشجّه شجَّةً مُنكرة، ثم قال: أتشتمه، فأنا على دينه أقول ما يقول؟! فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت. فقامت رجالٌ من بني مخْزوم إلى حَمْزة، لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعُوا أبا عُمارة، فإني والله قد سَبَبْتُ ابن أخيه سَبًّا قبيحًا، وتَمَّ حمزةُ رضي الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قومه. فلما أسلم حمزةُ عرفت قريشٌ أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

عتبة بن ربيعة يذهب إلى الرسول (ﷺ)[1]:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كَعْب القُرَظيّ، قال: حُدّثت أن عُتبة بن ربيعة ـ وكان سيِّدًا ـ قال يومًا وهو جالس في نادي قريش ورسولُ الله ـ ﷺ ـ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلِّمَه،

قوله، أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي، وبتّ من الشَّكِّ في أمر عظيم لا أكتحل بنوم، ثم أتيت الكعبة، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق، ويُذهِب عني الريْب فما اسْتَتْمَمْتُ دعائي حتى زَاحَ عني الباطِلُ، وامتلأ قلبي يقينًا ـ أو كما قال ـ فغدوت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا لي بأن يُثَبِّتَنِي الله، وقال حمزة بن عبد المطلب حين أسلم:

حَمِدْتُ اللّهَ حين هَدى فُؤَادي	إلى الإسلامِ والدينِ الْحَنِيفِ
الدِّين جاء من رَبٍّ عزيزٍ	خبيرٍ بالعبادِ بهم لطيفِ
إذا تُلِيتْ رسائِلُه علينا	تحدَّر دمعُ ذي اللُّبِّ الْحَصِيفِ
رسائلُ جاء أحمدُ مِن هداها	بآياتٍ مُبَيَّنَةِ الْحُروف
وأحمد مُصْطَفَى فينا مطاعٌ	فلا تَغْشَوْه بالقول العنيف
فَلا واللّهِ نُسلِمه لقوم	ولَمَّا نَقْضِ فيهم بالسيوف
ونترك منهم قَتْلى بقاعٍ	عليها الطيرُ كالوِردِ العَكُوف
وقد خُبِّرت ما صنعت ثقيف	به، فجزى القبائلَ من ثقيف
إلٰهُ الناس شَرّ جَزاءِ قومٍ	ولا أسقاهم صَوْبَ الخَريف

(١) بالمطبوع «ص» وقد تقدم الكلام عليه غير مرة.

وأعْرِضَ عليه أمورًا لعلَّه يقبل بعْضَها، فنعطيه أيَّها شاء، ويكفَّ عنَّا؟ وذلك حين أسلم حمزةُ، ورأوْا أصحابَ رسول الله ـ ﷺ ـ يَزيدون ويكْثُرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قُم إليه، فكلِّمه، فقام إليه عُتبةُ حتى جلس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا بن أخي، إنك منَّا حيثُ قد علمتَ من السِّطَة في العشيرة، والمكان في النَّسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فَرَّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْت به آلهتهم ودينَهم، وكفّرت به مَن مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضَها. قال: فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: «قلْ يا أبا الوليد، أسمَع»، قال: يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًا[1] تراه لا تَستطيع ردَّه عن نفسك، طَلَبْنا لك الطبَّ، وبذَلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوَى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبةُ، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يستمع منه، قال: «أقد فرغتَ يا أبا الوليد»؟ قال: نعم، قال: «فاسمَعْ مني»، قال: أفعل، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حَم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فهم لا يَسْمَعُونَ وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١ ـ ٥]. ثم مضى رسول الله ـ ﷺ ـ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبةُ أنصت لها، وألْقى يَدَيْهِ خَلْفَ ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضُهم لبعض: نحلف بالله: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوَجْه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثلَه قطُّ، والله ما هو بالشِّعر، ولا بالسِّحر، ولا بالكهانة. يا معشرَ قُريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل، وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تُصبْه العربُ فقد كُفِيتُموه بغيركم، وإن يَظْهَرْ على العرب، فمُلْكُه مُلْككم، وعزّه عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعُوا ما بدا لكم.

....

(١) أي مسّ من الجن.

بين النبي (ﷺ)[1] وبين قريش

قال ابن إسحٰق: ثم إن الإسلام جعل يَفْشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنِّساء، وقُريش تحْبِس مَنْ قَدَرَت على حَبْسه، وتَفْتِن مَن استطاعت فِتْنَتَه من المسلمين، ثم إن أشراف قُريش من كل قَبيلة ـ كما حدّثني بعضُ أهل العلم عن سَعيد بن جبير، وعن عِكْرِمة مولى ابن عبَّاس، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

اجتمع عُتْبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو سُفيان بن حَرْب، والنَّضر بن الحارث، أخو بني عبد الدَّار، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام، والأسودُ بن المطَّلِب بن أسدٍ، وَزَمَعة بن الأسود، والوليد بن المُغيرة، وأبو جهل بن هشام ـ لعنه الله ـ وعبد الله بن أبي أُمية، والعاصُ بن وائل، ونُبيه ومُنَبِّه ابنا الحجّاج السَّهميَّان، وأمية بن خلف، أو مَن اجتمع منهم. قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظَهْر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلِّموه وخاصموه حتى تُعْذِروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك، فأْتِهم، فجاءهم رسول الله ـ ﷺ ـ سريعًا، وهو يظنّ أنْ قد بَدَا لهم فيما كلَّمهم فيه بَدَاء، وكان عليهم حريصًا يحب رشدَهم، ويعزّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له يا محمد، إنّا قد بعثنا إليك؛ لنكلِّمك، وإنَّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدْخل على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدينَ، وشتمتَ الآلهة، وسفَّهت الأحلامَ، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قَبيحٌ إلا قد جِئْتَه فيما بيننا وبَيْنك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشَّرَف فينا، فنحن نُسَوِّدك علينا، وإن كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمّون التابع من الجنّ رَئِيًّا ـ فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالَنا في طَلَب الطبّ لك حتى نُبرئك منه، أو نُعْذِر فيك، فقال لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا المُلْك عليكم. ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتابًا،

طلب الآيات

فصل: وذكر ما سأله قومُه من الآيات وإزالة الجبال عنهم، وإنزال الملائكة عليه،

(١) بالمطبوع: «ص». تقدم الكلام عليه مرارًا. واكتفى هنا بما تقدم من تعليق، وما يأتي بعد فهو كما سبق.

وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغتكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليَّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»، أو كما قال ـ ﷺ ـ قالوا: يا محمد، فإن كنت غيرَ قابل منّا شيئًا مما عَرَضْناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدًا، ولا أقلَّ ماء، ولا أشدّ عيشًا منّا، فسَلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسَيرْ عنّا هذه الجبالَ التي قد ضَيَّقَت علينا، وليبسط لنا بلادَنا، وليفجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبعث لنا منهم: قُصيّ بن كلاب، فإن كان شيخَ صِدْق، فنسألهم عمّا تقول: أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدَّقوك، وصنعتَ ما سألناك، صَدَّقناك، وعرفنا به منزلَتَك من الله، وأنه بعثك رسولاً ـ كما تقول ـ فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «ما بهذا بُعِثْتُ إليكم، إنما جئتُكم من الله بما بَعثني به، وقد بلَّغتكم ما أُرْسِلْت به إليكم، فإن تقبلوه، فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم»، قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سَلْ ربَّك أن يبعث معك مَلَكًا يصدّقك بما تقول، ويراجعنا عنك وسَلْه، فليجعل لك جنانًا وقُصورًا وكنوزًا من ذهب وفضَّة يُغنيك بها عمّا نراك تَبْتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرفَ فضلك ومنزلَتك من ربّك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا

وغير ذلك، جهلاً منهم بحكمة الله تعالى في امتحانه الخلقَ، وتَعَبُّدِهِمْ بتصديق الرسل، وأن يكون إيمانُهم عن نظر وفكر في الأدلة، فيقع الثواب على حسب ذلك، ولو كشف الغطاء، وحصل لهم العلم الضروري، بَطَلَتْ الحكمة التي من أجلها يكون الثواب والعقاب، إذ لا يُؤْجَر الإنسان على ما ليس من كسبه، كما لا يؤجر على ما خُلق فيه من لون وشعر ونحو ذلك، وإنما أعطاهم من الدليل ما يقتضي النظَرُ فيه العلْمَ الكَسْبي، وذلك لا يحصل إلا بفعل من أفعال القلب، وهو النظر في الدليل، وفي وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول، وإلا فقد كان قادرًا سبحانه أن يأمرهم بكلام يسمعونه، ويغنيهم عن إرسال الرسل إليهم، ولكنه سبحانه قسم الأمر بين الدارين، فجعل الأمْرَ يُعْلَم في الدنيا بنظرٍ واستدلال وتفكّر واعتبارٍ؛ لأنها دار تعبّد واختبار، وجعل الأمْرَ يُعلم في الآخرة بمعاينة واضطرار، لا يُستحَق به ثواب ولا جزاء، وإنما يكون الجزاء فيها على ما سبق في الدار الأولى، حكمة دبرها، وقضية أحكمها، وقد قال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نُرْسِلَ بالآيات إلاّ أنْ كَذَّبَ بها الأوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]. يريد ـ فيما قال أهل التأويل ـ إن التكذيب بالآيات نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم وإنزال الملائكة يوجب في حكم الله، ألاَّ

بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعِثْت إليكم بهذا، ولكنّ الله بعثني بشيرًا ونذيرًا» ـ أو كما قال ـ: «فإن تقبلوا ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ أصبرْ لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»، قالوا: فأسقط السماء علينا كِسَفًا كما زعمت أن ربَّك لو شاء فعل، فإنَّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، قال: فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل»، قالوا: يا محمد، أفما عَلِم ربُّك أنَّا سنجلس معك، ونسألك عمّا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرَّحمٰن، وإنَّا والله لا نؤمن بالرَّحمٰن أبدًا، فقد أعْذرنا إليك يا محمد، وإنَّا والله لا نتركك وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله وبالملائكة قَبيلاً.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ، قام عنهم، وقام معه عبدُ الله بن أبي أُمَيَّة بن

يُلَبِّث الكافرين بها، وأن يعاجِلَهم بالنقمة، كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أُعطيت قريشٌ ما سألوه من الآيات، وجاءهم بما اقترحوا ثم كذبوا لم يَلْبَثوا، ولكن الله أكرم محمدًا في الأمة التي أرسله إليهم؛ إذ قد سبق في علمه أن يكذِّب به مَن يكذب، ويصدق به مَن يصدق، وابتعثه رحمة للعالمينَ بَرٍّ وفاجرٍ، أما الْبَرُّ فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر، فإنهم أمنوا من الْخَسْفِ والغرَق وإرسال حاصب عليهم من السماء. كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] مع أنهم لم يسألوا ما سألوا من الآيات إلا تَعَنُّتًا واستهزاءً، لا على جهة الاسترشاد، ودفع الشك، فقد كانوا رأوا من دلائل النبوّة ما فيه شفاء لمَن أنصف، قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أنَّا أنزلنا عليك الكتاب﴾ [العنكبوت: ٥١] الآية، وفي هذا المعنى قيل:

لو لم تكن فيه آياتٌ مبيّنة كانت بداهتهُ تُنبيك بالخبر

وقد ذكر ابن إسحٰق في غير هذه الرواية أنهم سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، فَهَمَّ رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يدعو الله لهم، فنزل جبريل، فقال لهم: ما شئتم إن شئتم فعلت ما سألتم، ثم لا نُلْبِثُكُمْ إن كذبتم بعد معاينة الآية، فقالوا: لا حاجة لنا بها[١].

عبد الله بن أبي أمية:

فصل: وذكر قول عبد الله بن أبي أُمية له، واسم أبي أُمية: حُذَيْفَةُ: والله لا أُومن بك

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣١٦) بنحوه.

المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وهو ابن عمَّته فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال له: يا محمد، عَرَض عليك قومُك ما عَرضوا فلم تقبلْه منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا، ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدّقوك ويتّبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذَ لنفسك ما يَعْرفون به فضلَك عليهم، ومنزلَتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل لهم بعض ما تخوّفهم به من العذاب، فلم تفعل ـ أو كما قال له ـ فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليكَ حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وأيْم الله أنْ لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أصدّقك، ثم انصرف عن رسول الله ـ ﷺ ـ وانصرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى أهله حزينًا آسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوه، ولِمَا رأى من مُباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال أبو جهل: يا معْشَرَ قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما تَرَوْنَ من عَيْب ديننا، وشَتْم آبائنا، وتَسْفِيه أحلامنا، وشتْم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجْلسَنَّ له غدًا بحَجَر ما أطيق حَمْله ـ أو كما قال ـ فإذا سجد في صلاته، فَضَخْتُ به رأسه، فأسلِموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنَعْ بعد ذلك بنو عبد مَناف، ما بَدَا لهم، قالوا: والله لا نُسْلمك لشيء أبدًا، فامْضِ لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ـ ﷺ ـ ينتظره، وغدا رسول الله ـ ﷺ ـ كما كان يغدو، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ بمكّة وقِبْلَتُهُ إلى الشام، فكان إذا صلَّى صَلَّى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعلَ الكعبة بينه وبين

حتى تتخذَ سُلَّمًا إلى آخر الكلام، وقد أسلم عبد الله بن أبي أُمية قبل فتح مكة، وسيأتي ذكر إسلامه.

همّ أبي جهل بإلقاء الحجر:

وذكر خبر أبي جهل، وما همّ به من إلقاء الحجر على رسولِ الله ـ ﷺ ـ وهو ساجد، وقد رواه النَّسَوِيُّ بإسناد إلى أبي هُرَيْرَةَ قال: قال أبو جهل، وذكر الحديث إلى قوله: فنكَص أبو جهلٍ على عَقِبَيْه، فقالوا: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لَخَنْدَقًا من نار، وهَوْلاً وأجنِحةً، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو دنا لاختطفته الملائكة عُضوًا عضوًا»، وخَرَّجه أيضًا مسلم[1]

---

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٣٨) والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٨٩) والطبري في تفسيره (٣٠/ ٦٥).

الشام. فقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ يُصَلِّي وقد غَدَتْ قُريش، فجلسوا في أَنْديتهم يَنْتظرون ما أبو جهل فاعل. فلما سَجَد رسولُ الله ـ ﷺ ـ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رَجَع منهزمًا. مُنْتَقَعًا لونُه مرعوبًا. قد يَبِست يداه على حَجَره. حتى قَذَف الحَجَر من يده. وقامت إليه رجال قُريش. فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمتُ إليه لأفعلَ به ما قلتُ لكم البارحةَ، فلما دنوتُ منه عَرَض لي دونه فَحْلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثلَ هامَتِه، ولا مثل قَصَرته، ولا أنيابه لفَحْلٍ قطُّ. فَهَمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحٰق: فذُكِر لي أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ذلك جبريلُ عليه السلام، لو دنا لأخذه».

فلما قال لهم ذلك أبو جَهْل. قام النَّضرُ بن الحارث بن كَلَدَة بن عَلْقَمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيّ.

قال ابن هشام: ويقال النضرُ بنُ الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف.

قال ابن إسحٰق: فقال: يا معشر قريش. إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتمْ له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا، أرْضاكم فيكم. وأصدَقكم حديثًا. وأعظمكم أمانة. حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشَّيبَ، وجاءكم بما جاءكم به. قلتم: ساحرٌ، لا والله ما هو بساحر. لقد رأينا السحرة ونَفْثهم وعَقْدهم، وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن؛

وذكر النَّسَوِيُّ أيضًا بإسناده إلى ابن عباس أن أبا جهل قال له: ألم أنْهَكَ؟ فوالله ما بمكة نادٍ أعزّ من نادِيَّ، فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿أرأيتَ الذي ينهى عَبْدًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلْيَدْعُ ناديه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧ ـ ١٨].

تفسير أرأيت:

قال محمد بن يزيد: في الكلام حذفٌ، تقديرُه: ﴿أَرَأَيْتَ الذي ينهى عبدًا إذا صَلَّى﴾، أمُصِيبٌ هو أو مُخْطِىءٌ؟ وكذلك في قوله: ﴿أرأيتَ إن كان على الهدى﴾ [العلق: ١١] كأنه قال: أليسَ مَن ينهاه بضالٍّ؟ وقوله: ﴿لَنَسْفَعًا بالنَّاصِيةِ﴾ [العلق: ١٥] أي لنأخُذَنَّ بها إلى النارِ، وقيل معنى السَّفْع هٰهنا: إذلالُه وقَهْرُه، والنادي والنَّدِيُّ والمُنْتَدى بمعنى واحدٍ، وهو: مجلسُ القوم الذين يَتَنَادَوْن إليه، وقال أهل التفسير فيه أقوالاً متقاربةً، قال بعضهم: فَلْيَدْعُ حَيَّه، وقال بعضهم: عشيرتَه، وقال بعضُهم: مجلسَه، وفي أرأيتَ معنى: أَخْبِرْني، ولذلك قال سيبويه: لم يجز إلغاؤها، كما تُلغى: علمتُ إذا قلتَ: علمت أَزَيْدٌ عندك أم عَمْروٌ، ولا يجوز هذا في: أرأيت، ولا بُدَّ من النَّصْبِ إذا قلت: أرأيت زَيْدًا، أَبُو مَنْ هو؟ قال سيبويه: لأن دخولَ معنى أخبرني فيها لا يجعلها بمنزلة: أخبرني في جميع أحوالها، قال

قد رأينا الكهنة، وتخالُجَهُمْ وسَمِعْنا سَجْعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعرَ، وسَمِعْنا أصنافَه كلَّها: هَزجَه ورَجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنونَ، فما هو بخَنْقه، ولا وَسْوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم.

وكان النَّضْر بن الحارث من شياطين قُريش، وممّن كان يؤذي رسول الله ـ ﷺ ـ وينصب له العداوةَ، وكان قد قَدِمَ الحِيرةَ، وتعلَّم بها أحاديثَ ملوك الفرس، وأحاديث رُسْتُم وإسفندياذ، فكان إذا جلس رسولُ الله ـ ﷺ ـ مجلسًا فذكَّر فيه بالله، وحذّر قومه ما أصاب مَنْ قبلَهم من الأمم من نقمة الله، خَلَفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قُريش، أحسنُ حديثًا منه، فهَلُمَّ إليَّ، فأنا أُحدّثكم أحسنَ من حديثه، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورُستم وإسفندياذ. ثم يقول: بماذا محمدٌ أحسنُ حديثًا مني؟

قال ابن هشام: وهو الذي قال فيما بلغني: سأنزل مثلَ ما أنزل الله.

قال ابن إسحٰق: وكان ابن عبَّاس رضي الله عنهما يقول ـ فيما بلغني: نزل فيه

المؤلف: وظاهرُ القرآن يقضي بخلافِ ما قال سيبويه إلاَّ بعد البيان، وذلك أنها في القرآن مُلْغاةٌ؛ لأن الاستفهامَ هو مطلوبُها، وعليه وقعت في قوله: ﴿أرأيتَ إن كَذَّبَ وتولى أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١٣]. فقوله: أَلَمْ يعلم: استفهامٌ، وعليه وقعت: أرأيت، وكذلك: أَرَأَيْتُمْ، وأَرَأَيْتُكُمْ في الأنعام، فإن الاستفهام واقع بعدها نحو: ﴿هلْ يُهلَك إلا القوْمُ الظالمون﴾ [الأنعام: ٤٧]. وهذا هو الذي منع سيبويه في: أرأيتَ وأرأيتُك أبو مَن أنت؟ وأما البيانُ فالذي قاله سيبويه صحيح، ولكن إذا ولّى الاستفهامُ: أرأيتَ، ولم يكن لها مَفْعُولٌ سوى الجملة، وأما في هذه المواضع التي في التنزيل، فليست الجملةُ المستفهَمُ عنها هي مَفْعُول: أرأيت، إنما مَفْعُولها محذوفٌ يدلّ عليه الشرطُ، ولا بد من الشرط بعدها في هذه الصور؛ لأن المعنى: أرأيتم صنيعكم إن كان كذا، وكذا، كما يقول القائل: أرأيت إن لقيت العدو أتقاتله أم لا؟ تقدير الكلام: أرأيتَ رأيك أو صنيعك إن لقيت العدو فحرف الشرط، وهو: إن، دالٌّ على ذلك المحذوف، ومُرْتبط به، والجملة المستفهَمُ عنها كلامٌ مُسْتأنَف منقطِع، إلا أن فيه زيادةَ بيانٍ لما يستفهم عنه، ولو زال الشَّرط، ووليها الاستفهامُ لَقَبُحَ كما قال سيبويه، ويحسُن في: علمت، وهل علمت وهل رأيت، وإنما قُبْحُه مع أرأيت خاصة، وهي التي دخلها معنى: أخبرني فتدَبَّرْه.

الأساطير وشيء عن الفرس:

فصل: وذكر حديثَ النَّضر بن الحارث، وما نزل فيه من قول الله تعالى: ﴿قالوا

ثمان آيات من القرآن: قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥] وكلّ ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن.

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه، وبعثوا معه عُقْبة بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سَلاهم عن محمد، وصفا لهم صِفَته، وأخبراهم بقَوْله، فإنهم أهلُ الكتاب الأوّل، وعندهم عِلمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرَجا حتى قَدِما المدينةَ، فسألا أحبارَ يهود عن رسول الله ـ ﷺ ـ وَوَصَفا لهم أمْره. وأخبراهم ببعض قوله. وقالا لهم: إنكم أهلُ التَّوراة. وقد جِئْناكم لتُخْبِرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار يهود: سَلُوه عن ثلاث نَأمُركم بهنّ. فإن أخبركم بهنّ، فهو نبيّ مُرْسَلٌ. وإن لم يفعل فالرجل مُتقوِّل. فَرَوْا فيه رأيكم. سَلُوه عن فِتْيَةٍ ذهبوا في الدَّهر

أَسَاطِيرُ الأَوَّلين﴾ واحد الأساطير: أُسْطُورة كأُحْدُوثة وأحاديث، وهو ما سَطَّره الأوَّلُون، وقيل: أساطير: جمع أسطار، وأسطارٌ جمعُ: سَطَر بفتح الطاء، وأما سَطْرٌ بسكون الطاء، فجمعه: أَسْطُرٌ، وجمع الجمع: أساطر بغير ياء، وذكر أن النضر بن الحارث كان يُحَدِّث قريشًا بأحاديث رُسْتُمَ وإسفنديار، وما تعلَّم في بلاد الفرس من أخبارهم، وذكر ما أنزل الله في ذلك من قوله، وقد قيل فيه نزلت: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وأما أحاديث رستم، ففي تاريخ الطبري[1] أن رُسْتُم بن ريسان كان يحارب كي يستاسب بن كي لهراسب، بعدما قتل أباه لطراسب ابن كي أجو. وكي في أوائل هذه الأسماء عبارة عن البهاء، ويقال: عبارة عن إدراك الثأر، ويقال لهؤلاء الملوك: الكينية من أجل هذا، وكان رُسْتُم الذي يقال له: رُسْتُم سَيِّد بني ريسان من ملوك الترك، وكان كي يستاسب قد غضب على ابنه، فسجنه حسدًا له على ما ظهر من وقائعه في الترك، حتى صار الذكر له، فعندها ظهرت الترك على بلاد فارس، وسبَوا بنتين: ليستاسب، اسم إحداهما: خمانة، أو نحو هذا، فلما رأى يستاسب ألاً يدَين له بقتالهم أطلق ابنه من السجن، وهو إسفنديار، ورضي عنه وولاّه أمر الجيوش، فنهد إلى رستم، وكانت بينهما ملاحم يطول ذكرها، لكنه قتل رستم، واستباح عساكره، ودوّخ في بلاد الترك، واستخرج أُختيه من أيديهم، ثم مات إسفنديار قبل أبيه، وكان ملك أبيه نحوًا من مائة عام، ثم عهد إلى بهمن بن إسفنديار، فولاّه الأمر بعد موته وبهمن بلغتهم: الحسن النيّة، ودام ملكه نيّفًا على مائة عام، وكان له ابنان: ساسان ودارا، وقد أملينا في أول الكتاب طرفًا من حديث ساسان وبنيه، وهم الساسانية الذين قام عليهم الإسلام، ورُسْتُم آخرُ مذكور أيضًا قبل هذا

---

(١) الطبري في تاريخه (١/ ٢٩٧/ ٢٩٨/ ٢٩٩/ ٣٢٩).

الأوّل ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديثُ عجب، وسَلوه عن رجل طَوّاف قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها ما كان نَبؤُهُ، وسلوه عن الرُّوح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتَّبعوه، فإنه نبيّ. وإن لم يفعل، فهو رجلٌ متقوّل. فاصنعوا في أمره ما بَدَا لكم. فأقبل النَّضْر بن الحارث، وعُقْبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أُمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مناف بن قُصَيّ حتى قَدِما مكّة على قُريش. فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمدٍ. قد أخبرَنا أحبارُ يهود أنْ نسأله عن أشياء أمَرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجلُ مُتَقَوِّل. فرَوْا فيه رأيكم.

فجاؤوا رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: يا محمد، أخْبرنا عن فِتْية ذهبوا في الدَّهر الأوّل قد كانت لهم قصَّة عَجَبٌ، وعن رجل كان طوّافًا قد بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها، وأخْبرنا عن الرُّوح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا»، ولم يستثْنِ، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ـ ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمسَ عشَرةَ ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وَحْيًا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرْجف أهل مكة وقالوا: وَعَدنا محمدٌ غدًا، واليوم خمس عشرةَ ليلةً. قد أصبحنا منها لا يخْبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه، وحتى أحزنَ رسول الله ـ ﷺ ـ مُكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهلُ مكة، ثم جاءه جبريلُ من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حُزْنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفِتْيَة، والرجل الطَّوَّاف، والروح.

في أحاديث كي قباذ، وكان قبل عهد سليمان، ثم كان رستم وزيرًا بعد كي قباذ لابنه كي قاووس، وكانت الجنّ قد سُخِّرت له. يقال إن سليمان أمرهم بذلك، فبلغ ملكُه من العجائب ما لا يكاد أن يصدقه ذوو العقول لخروجها عن المعتاد لكن محمد بن جرير الطبري ذكر منها أخبارًا عجيبة[١].

وذكر أنه هَمَّ بما همَّ به نمروذ من الصعود إلى السماء، فطرحته الريح، وضَعْضَعَتْ أركانه، وهدمت بنيانَه، ثم ثابَ إليه بعض جنوده، فصار كسائر الملوك يغلب تارة، ويُغلب بخلاف ما كان قبل ذلك، وسار بجنوده إلى اليمن فَنَهَد إليه عمرو ذو الأذْعَار، فهزمه عَمْرو، وأخذه أسيرًا، وحبسه في مَحْبِس حتى جاء رُسْتَم، وكان صاحب أمره، فاسْتَنْقَذَه من عَمْرٍو، إمَّا بَطْوعٍ، وإمَّا بإكراه، وردّه إلى بلاد فارس. ولابنه شاوخش مع قراسيات ملك الترك خبر عجيب، وكان رستم هو القيِّم على شاوخش والكافل له في

---

(١) انظر التخريج السابق. وفيه بعض الاختلاف عما هنا. وفي تسخير سليمان الجن لرستم ـ نظر ومقال.

قال ابن إسحٰق: فذُكر لي أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال لجبريل حين جاءه: لقد احتبستَ عني يا جبريل حتى سُؤتُ ظنًّا، فقال له جبريل: ﴿ومَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بأمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بينَ أيْدِينا ومَا خَلْفَنا وما بينَ ذلكَ ومَا كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. فافتتح السورة ـ تبارك وتعالى ـ بحَمده وذكر نُبُوَّةَ رسوله، لِما أنكروه عليه من ذلك، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أنْزَلَ على عَبْدِهِ الكِتابَ﴾ [الكهف: ١ ـ ٢٦] يعني: محمدًا ﷺ، إنك رسول مني: أي تحقيق لما سألوه عنه من نبوّتك. ﴿ولمْ يجعل له عِوَجًا قيمًا﴾: أي معتدلاً، لا اختلاف فيه. ﴿لِيُنْذِرَ بَأسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾: أي عاجل عقوبته في الدنيا، وَعَذَابًا أَلِيمًا فِي الآخِرةِ من عند ربك الذي بعثك رسولاً. ﴿ويُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحاتِ أنَّ لهُمْ أجْرًا حَسنًا ماكِثِينَ فِيهِ أبَدًا﴾: أي دار الخلد لاَ يَمُوتُونَ فِيها الذين صدَقوك بما جئت به مما كذَّبك به غيرهم، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال. ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: قريشًا في قولهم: إنا نعبد الملائكة، وهي بنات الله. ﴿ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبائِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقهم وعَيْب دينهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تخرُجُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ﴾ أيْ: لقولهم: إن الملائكة بناتُ الله. ﴿إنْ يَقُولُونَ إلاَّ كَذِبًا فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ﴾ يا محمد ﴿على آثارِهِمْ إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذا الحَدِيثِ أسَفا﴾: أي لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم، أي: لا نفعل.

قال ابن هشام: باخعٌ نفسَك، أي: مُهْلِك نفسَك، فيما حدّثني أبو عُبيدة قال ذو الرُّمَّة:

ألا أيُّهَذا الباخع الوَجْدُ نفسَه ... لشَيْءٍ نَحَتْه عن يَدَيْه المَقادِرُ

صغره، وكان آخر أمر شاوخش بعد عجائب أن قتله قراسيات، وقام ابنه كي خسرو يطلب بثأره، فدارت بينه وبين الترك وقائع لم يسمع بمثلها، وكان الظفر له، فلما ظفروا رأى أمله في أعدائه ما ملأ عينه قُرَّة، وقلبه سرورًا زهد في الدنيا، وأراد السياحة في الأرض، فَتَعَاتَّ به أبناء فارس، وحذرته من شَتَات الشَّمْلِ بعده، وشماتة العدو، فاستخلف عليهم: كي لهراسب، بن كي اجو، بن كي كينة، بن كي قاووس المتقدم ذكره، ولا أدري: هل رستم الذي قتله إسفندياذ هو رُسْتَم صاحب كي قاووس، أم غيره، والظاهر أنه ليس به، لأن مدة ما بين كي قاووس وكي يستاسب بعيدة جدًّا، وأحسبه كما قدّمنا أنه كان من الترك، وهذا كله كان في مدة الكينية، وعند اشتغالهم بقتال الترك استعملوا بُخْتَ نَصَّرَ البابلي على العراق، فكان من أُموره مع بني إسرائيل وإثخانه فيهم، وهدمه لبيت المقدس وإحراقه للتوراة وقتله لأولاد الأنبياء، واسترقاقه لنساء

وجمعه: باخعون وَبَخعة. وهذا البيت في قصيدة له. وتقول العرب: قد بخعتُ له نُصْحي ونَفْسي، أي جَهَدْت له. ﴿إِنّا جَعَلْنا ما على الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

قال ابن إسحٰق: أي: أيّهم اتّبع لأمري، واعمل بطاعتي. ﴿وإنّا لَجَاعِلونَ مَا عَلَيْها صَعِيدًا جُرُزًا﴾: أي الأرض، وإنّ ما عليها لفانٍ وزائل، وإن المرجع إليَّ، فأجزي كُلاً بعمله، فلاَ تَأْسَ، ولا يَحْزنك ما تسمع وترى فيها.

قال ابن هشام: الصعيد: الأرض، وجمعه: صُعُد. قال ذو الرُّمَّة يصِف ظَبْيًا صغيرًا:

كأنّه بالضُّحى تَرْمي الصعيدَ به دَبَّابةٌ فِي عِظام الرأسِ خُرْطومُ

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضًا: الطريق. وقد جاء في الحديث: «إياكم والقعودَ على الصُّعَدات» يريد الطرق. والجُرز: الأرض التي لا تُنبت شيئًا، وجمعها: أجراز. ويقال: سَنة جُرز، وسنون أجراز، وهي التي لا يكون فيها مطر، وتكون فيها جُدُوبة ويُبْس وشدّة. قال ذو الرُّمَّة يصف إبلاً:

طوى النَّحْزُ والأَجْراز ما في بُطونها فما بقيتْ إلا الضّلوعُ الجَراشعُ

وهذا البيت في قصيدة له.

ملوكهم ولذراريهم مع عيشه في بلاد العرب حين جاس خلال ديارهم، ما هو مشهور في كتب التفاسير، ومعلوم عند أصحاب التواريخ.

فهذه جملة مختصرة تشرح لك ما وقع في كتاب ابن إسحٰق من ذكر رستم وإسفندياذ، وكانت الكينية قبل مدة عيسى ابن مريم، أولهم في عهد أَفْرِيدُون قبل موسى عليه السلام بمئين من السنين، وآخرهم في مدة الإسكندر بن قليس والإسكندر هو الذي سلب ملكهم، وقتل دارا بن دارا، وهو آخرهم، ثم كانت الأشغانية مع ملوك الطوائف أربعمائة وثمانين عامًا، وقيل: أقل من ذلك في قولِ الطبري، وقولُ المسعودي: خمسمائة وعشر سنين في خلال أمرهم بُعِث عيسى ابن مريم، ثم كانت الساسانية نحوًا من ثلاثين ملكًا حتى قام الإسلام، ففض خَدَمَتَهُمْ. وخَضَدَ شوكتَهم، وهدم هياكلَهم، وأطفأ نيرانهم التي كانوا يعبدون، وذلك كله في خلافة عمر.

حول سورة الكهف

قال ابن إسحٰق: ثم استقبل قصّة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفِتْية، فقال: ﴿أمْ

عن سورتي الكهف والفرقان ـ سبب نزول الكهف

فصل: وذكر ابن إسحٰق إرسال قُرَيْشٍ النضرَ بن الحارث وعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط إلى يهود، وما رجعا به من عندهم من الفصل بينهم وبين النبي ﷺ، فسألوه عن الأمورِ الثلاثة التي قالت اليهود: إن أخبركم بها فهو نبي وإلا فهو مُتَقَوِّل، فقال لهم: سأخبركم غدًا، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عنه الوحي في قول ابن إسحٰق خمسة عشر يومًا، وفي سِيَر التَّيمي وموسى بن عُقْبَةَ أن الوحيَ إنما أبطأ عنه ثلاثة أيام، ثم جاء جبريل بسورة الكهف.

لِمَ قدّم الحمد على الكتاب[1]؟!:

وذكر افتتاحَ الربِّ سبحانه بحمد نفسه، وذكر نبوّة نبيّه حمْدُه لنفسه تعالى خبرٌ باطِنُه الأمْرُ والتعليمُ لعبده كيف يَحمدُه، إذ لولا ذلك لاقتضت الحالُ الوقوف عن تسميته، والعبارات عن جلاله، لقصور كلِّ عبارةٍ عمّا هنالك من الجلال، وأوصافِ الكمال، ولمّا كان الحمدُ واجبًا على العبد قُدِّم في هذه الآيةِ ليقترِن في اللفظِ بالحمد الذي هو واجبٌ عليه، وليستشعرَ العبدُ وجوبَ الحمدِ عليه، وفي سورة الفرقان قال: ﴿تبارَكَ الذي نَزَّلَ الْفُرقانَ على عبده﴾ وبدأ بذكر الْفُرقانِ الذي هو الكتابُ المبَارك. قال الله سبحانه: ﴿وهذا كتابٌ أنزلناه مُبَارَكٌ﴾ فلما افتتح السورة بتبارَكَ الذي، بدأ بذكر الفرقان، وهو الكتاب المبارك، ثم قال: على عبده، فانظر إلى تقديم ذكر عبده على الكتاب، وتقديم ذكر الكتاب عليه في سورة الفرقان، وما في ذلك من تشاكُلِ اللفظ والتئامِ الكلامِ نرى الإعجازَ ظاهرًا، والحكمةَ باهرةً، والبرهانَ واضحًا، وأنشد لذي الرُّمَّةِ.

---

(١) وقيل في تفسير فاتحة الكتاب: أن التسبيح مقدّم على التحميد، وأن الرجل بعد الصلاة يسبّح الله ثلاثة وثلاثون ويحمد الله ثلاثة وثلاثون. . .، فكيف بدأ القرآن كله بالحمد ولم يبدأ بالتسبيح؟ قالوا: إن الحمد يتضمن في طياته التسبيح، إذا التسبيح من: سبّح، أي بعُد، فالتسبيح هو المباعدة بين الله وبين كل نقص وعيب، ولما كان ذلك كذلك فهو مستحق للحمد إذ هو المنزّه عن النقص والعيوب، وقالوا: إن أول كلمة قالها آدم حين نفخت فيه الروح. قال: الحمد لله، فكانت هذه أول كلمة يقولها أبو البشر آدم عليه السلام، وآخر كلمة يقولها المؤمنون يوم القيامة ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾. ﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ فكان أول كلمة قيلت هي: الحمد لله، وآخر ما يقال: الحمد لله، فلا حرم أن يكون أول الكلام المنزَّل على آخر الرسل: الحمد لله. والحمد لله ربّ العالمين. وانظر للمحقق «اللباب في تفسير فاتحة الكتاب».

حَسِبْتَ أنَّ أصحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَبا﴾: أي قد كان من آياتي فيما وضعت على العباد من حُجَجي ما هو أعجب من ذلك.

قال ابن هشام: والرقيم: الكتاب الذي رُقِم فيه بخبرهم، وجمعه: رُقُم. قال العَجَّاج:

ومُسْتَقَرُّ المُصْحَفِ المُرقَّمِ

وهذا البيت في أُرجوزة له.

شرح شواهد شعرية:

كأنه بالضُّحى ترمي الصعيدَ به دَبَّابَةٌ في عظام الرأس خُرْطُومُ

يصف ولدَ الظبية: والْخُرْطُومُ: من أسماء الخمر، أي: كأنه من نشاطه دَبَّتِ الخمرُ في رأسه. وأنشد له أيضًا:

طوى النَّحْزُ والأجرازُ. البيت. والنَّحْزُ: النَّخْسُ، والنُّحازُ: داء يأخذ الإبلَ والنحيزَةُ: الْغَرِيزَةُ، والنحيزة: نسيجة كالحزام: والضلوعُ الجَرَاشِعُ. هو جمع جُرْشُع. قال صاحب العين. الْجُرْشُعُ: العظيم الصدر، فمعناه إذًا في البيت على هذا: الضلوعُ من الهزال قد نَتَأَتْ، وبرزت كالصدر البارز.

الرقيم وأهل الكهف:

فصل: وذكر الرَّقِيمَ وفيه سوى ما قاله أقوال. رُوِيَ عن أنس أنه قال: الرقيمُ: الكلبُ، وعن كعب أنه قال: هو اسم الْقرية التي خرجوا منها، وقيل: هو اسم الوادي وقيل: هو صخرة، ويقال: لوح كتب فيه أسماؤهم ودينُهم وقصتُهم، وقال ابن عباس: كل القرآن أعلم إلا الرقيمَ والْغِسْلَين وحنانًا والأَوَّاه[1]، وقد ذكرت أسماؤهم على الاختلاف في بعض ألفاظها وهي: مليخا، كسليما، مرطوش بن أنس، أريطانس، أيونس، شاطيطوش[2]. وقيل في اسم مدينتهم: أفوس، واختلف في بقائهم إلى الآن، فرُوِيَ عن ابن عباس أنه أنكر أن يكون بقي شيء منهم، بل صاروا ترابًا قبل مبعث النبي ﷺ، وقال بعض أصحاب الأخبار غير هذا، وأن الأرضَ لم تأكلهم، ولم تغيرهم، وأنهم على مَقْرُبة من الْقُسْطَنْطِينِيَة، فالله أعلم. رُوِيَ

---

(١) فيه نظر.

(٢) معرفة أسمائهم «علم لا ينفع وجهل لا يضر». وإن كان في معرف أسمائهم خير لعرَّفهم الله تعالى في كتابه أو على لسان رسول الله ﷺ. فلا حاجة بنا إلى البحث عن أسمائهم وطولهم وغير هذا.

قال ابن إسحٰق: ثم قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إلى الكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَدًا فَضَرَبْنا على آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثوا أَمَدًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَقِّ﴾: أي بصدق الخبر عنهم. ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنا على قُلوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقَالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إلٰهًا لَقَدْ قُلْنا إِذًا شطَطًا﴾: أي لم يُشرِكوا بي كما أشركتم بي ما ليس لكم به علم.

قال ابن هشام: والشطط: الغلو ومجاوزة الحق. قال أعشى بني قَيْس بن ثعلبة:

لا يَنْتهون، ولا يَنْهَى ذَوِي شَطَط ... كالطَّعْن يذهبُ فيه الزيتُ والفُتُلُ

وهذا البيت في قصيدة له.

﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنا اتَّخذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ﴾.

قال ابن إسحٰق: أي بحجة بالغة.

أنهم سيحجّون البيتَ إذا نزل عيسى ابن مريم. ألفيتُ هذا الخبرَ في كتاب البدء لابن أبي خَيْثَمَة[١].

إعراب أحصى:

وذكر قول الله تعالى: ﴿لنعلَم أيُّ الْحِزْبَيْن أحصى لما لبثوا أمدا﴾ [الكهف: ١٢] قد أمْلينا في إعراب هذه الآية نحوًا من كرّاسة، وذكرنا ما وهم فيه الزَّجَّاجُ من إعرابها؛ حيث جعل أحصى اسمًا في موضع رفع على خبر المبتدأ، وأمَدًا: تمييز وهذا لا يصح؛ لأن التمييز هو الفاعل في المعنى، فإذا قلت: أيهم أعلم أبًا، فالأب هو العالم، وكذلك إذا قلت أيُهم أفرَهُ عَبْدًا، فالعبد هو الفارهُ، فيلزم على قوله إذًا أن يكونَ الأمَدُ فاعلاً بالإحصاء، وهذا محال، بل هو مفعول، وأحصى: فعل ماضٍ، وهو الناصب له، وذكرنا في ذلك الإملاء أنَّ أيهم، قد يجوز فيه النصبُ بما قبله إذا جعلته خبرًا، وذلك على شُرُوط بيّنّاها هنالك لمَن أراد الوقوف على حقيقتها، أي: ومواضعها، وكشفنا أسرارها.

عن الضرب وتزاور الشمس وفائدة القصة:

وقوله سبحانه: ﴿فضربنا على آذانهم﴾ أي: أنَمْناهم، وإنما قيل في النائم: ضُرِب على

---

(١) ترى كم يكون عمرهم آنذاك؟! وكيف يبقى هؤلاء أحياء إلى زمن ليس عليه السلام، أي إلى قيام الساعة وقد مات سيد ولد آدم ـ محمد ﷺ؟!!!.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا وإِذِ اعْتَزَلْتُموهُمْ ومَا يعْبُدونَ إلا اللَّهَ فأْوُوا إلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَته ويُهَيِّىءْ لَكمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا وَتَرى الشَّمْسَ إذَا طَلَعَتْ تزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمالِ وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾.

أُذنه؛ لأن النائم ينتبه من جهة السَّمْع، والضربُ هنا مُستعار من ضربت الْقُفْلَ على البابِ، وذكر قوله تعالى: ﴿تَزَاوَرَ عن كهْفِهِم ذاتَ اليمين﴾ الآية. وقيل في تَقرِضُهم: تحاذيهم، وقيل: تتجاوزهم شيئًا فشيئًا من الْقَرْضِ، وهو القطع، أي: تقطع ما هنالك من الأرض، وهذا كله شرح اللفظ، وأمّا فائدة المعنى، فإنه بيَّن أنهم في مَقْنُوَةٍ من الأرض، لا تدخل عليهم الشمسُ، فتحرقهم، وتبلي ثيابهم، ويقلَّبون ذات اليمين وذات الشمال. لئلا تأكلَهم الأرضُ، والفائدة العُظمى في هذه الصفة بيان كيفية حالهم في الكهف، وحال كلبهم، وأين هو من الكهف، وأنه بالْوَصيد منه، وأن باب الكهف إلى جهة الشمال للحكمة التي تقدمت، وأن هذا البيان لا يكاد يعرفه مَن رآهم، فإن المُطّلع عليهم يُمْلأ منهم رُعبًا، فلا يمكنه تأمُّل هذه الدقائق من أحوالهم، والنبي عليه السلام لم يرَهم قطّ، ولا سمع بهم، ولا قرأ كتابًا فيه صفتُهم؛ لأنه أُمّيٌّ في أُمة أُميّة، وقد جاءكم ببيان لا يأتي به مَن وصل إليهم حتى إن كلبَهم قد ذكر، وذُكِر موضعُه وبسطُه ذراعيه بالْوَصيد، وهم في الفجوة، وفي هذا كله برهانٌ عظيم على نبوّته، ودليلٌ واضح على صدقِه، وأنه غير مُتَقَوِّلٍ، كما زعموا، فقِفْ بقلبِك على مضمون هذه الأوصاف، والمراد بها تُغْصَمْ إن شاء الله مما وقعت فيه الْمُلْحِدةُ من الاستخفاف بهذه الآية من كتاب الله، وقولهم: أيّ فائدة في أن تكون الشمسُ تَزَاوَرُ عن كهفهم، وهكذا هو كل بيت يكون في مَقْنُوَةٍ، أي: بابه لجهة الشمال، فنبَّه أهلَ المعاني على الفائدة الأولى المُنبئة عن لطف الله بهم، حيث جعلهم في مَقْنُوَةٍ تزاور عنهم الشمسُ فلا تؤذيهم[1]، فقال: لمَن اقتصر من أهل التأويل على هذا: فما في ذكر الكلب وبسط ذراعيه من الفائدة، وما فيه من معنى اللطف بهم؟ فالجواب: ما قدّمناه من أن الله سبحانه لم يترك من بيان حالهم شيئًا، حتى ذكر حال كلبهم مع أن تأملهم متعذّر على مَن اطّلع عليهم من أجل الرعب، فكيف مَن لم يرهم، ولا سمع بهم، لولا الوحي الذي جاءه من الله سبحانه بالبيان الواضح الشافي، والبرهان الكافي، والرعب الذي كان يلحق المُطَّلِعَ عليهم، قيل: كان مما طالت شعورهم وأظفارهم[2]. ومن الآيات في هذه القصة قوله سبحانه: ﴿في فَجْوَةٍ

---

(١) وقيل: حتى لا تتغير أجسامهم وملابسهم فيصيبها العفن.

(٢) لو صحّ هذا وغيره من الكلام الذي طفحت به بعض كتب التفسير من وصف شكلِهم وهيآتهم ما تعجبوا عند استيقاظهم من نومهم إذا شاهد بعضهم بعضًا وقد تغير حاله، بل بقي شكلهم وسمتهم =

قال ابن هشام: تزاور: تميل، وهو من الزَّوَر: وقال امرؤ القيس بن حُجْر:

وإني زَعيمٌ إن رجعتُ مُمَلَّكًا بسَيْرٍ ترى منه الفُرانِقَ أزْوَرا

وهذا البيت في قصيدة له. وقال أبو الزّحف الكُليبي يصف بلدًا:

جَأْبُ المُنَدَّى عن هَوانا أزْوَرُ يُنْضِي المَطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان البيتان في أُرجوزة له. و﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمالِ﴾: تجاوزهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرّمة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْن أقْوازَ مُشْرِفٍ شِمَالاً وعن أيمانهنّ الفوارسُ

وهذا البيت في قصيدة له. والفجوة: السّعة، وجمعها: الفِجاء قال الشاعر:

ألْبَسْتَ قَوْمَك مَخْزَاةً ومَنْقَصةً حتى أُبيحوا، وخَلَّوْا فجوةَ الدارِ

﴿ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ﴾ أي في الحُجة عَلى مَنْ عَرف ذلك من أُمورهم من أهل الكتاب، مِمَّن أمَر هؤلاء بمسألتك عنهم في صِدْق نبوَّتِك بتَحْقيق الخبر عنهم. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وتَحْسَبُهُمْ أيْقاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمالِ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيدِ﴾.

قال ابن هشام: الوصيد: الباب. قال العَبْسي، واسمه: عُبَيْد بنُ وَهْب:

بأرضِ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها عَلَيَّ، ومَعْروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

منه﴾ أي: في فضاء، ومع أنهم في فضاء منه، فلا تصيبهم الشمس. قال ابن سلام: فهذه آية. قال: وكانوا يقلَّبُون في السنة مرتين[1]، ومن فوائد الآية: أنه أخرج الكلب عن التقليب، فقال: باسط ذراعيه، ومع أنه كان لا يُقلَّب لم تأكله الأرض؛ لأن التقليب كان من فعل الملائكة بهم، والملائكةُ أولياءُ المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والكلبُ خارجٌ من هذه الآية. ألا تراه كيف قال: بالوصيد، أي: بفناءِ الغار لا داخلاً معهم؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب[2] فهذه فوائد جمة قد اشتمل عليها هذا الكلام. قال ابن سلام: وإنما كانوا يقلَّبون في الرقدة الأولى قبل أن يبعثوا.

= كما هو كحال مَن لبث في نومه يوم أو بعض يوم.

(١) لا دليل صحيح على هذا.

(٢) انظر البخاري (٧/ ٢١٦) ومسلم في اللباس (٨٥) والنسائي (٨/ ٢١٣) وأبو داود (٤١٥٥) بتحقيقي. والترمذي (٢٨٠٥) وأحمد (٤/ ٣٠) وابن ماجه (٣٦٥٠) والطبراني (٨/ ٣٤٤).

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضًا: الفِناء، وجمعه: وصائد، ووُصُد، ووُصْدان، وأُصُد، وأُصْدان.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾... إلى قوله: ﴿قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ﴾ أهل السلطان والملك منهم: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ﴾ يعني: أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم: ﴿ثلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بالغَيْبِ﴾: أي لا علم لهم ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إلاَّ مِرَاءً ظاهِرًا﴾: أي لا

المتنازعون في أمرهم:

فصل: وذكر قول الله سبحانه: ﴿قال الذين غَلَبُوا على أمرهم لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] وقال: يعني أصحاب السلطان، فاستدلّ بعض أهلِ العلم على أنهم كانوا مسلمين بقوله: لنتخِذَنَّ عليهم مسجدًا[١]. وذكر الطبري أن أهلَ تلك المدينة تنازعوا قبل مبعثهم في الأجساد والأرواح. كيف تَكون إعادتها يوم القيامة فقال قوم: تُعاد الأجساد كما كانت بأرواحها، كما يقوله أهل الإسلام، وخالفهم آخرون، وقالوا: تُبعَث الأرواح دون الأجساد، كما يقوله النصارى، وشَرِيَ بينهم الشرُّ، واشتد الخلاف، واشتد على مَلِكهم ما نزل بقومه من ذلك، فلبس المُسُوح، وافترش الرماد، وأقبل على البكاء والتضرّع إلى الله أن يُريَه الفَصْل فيما اختلفوا فيه، فأحيا الله أصحاب الكهف عند ذلك، فكان من حديثهم ما عُرِف وشُهِرَ، فقال الملك لقومه: هذه آية أظهرها الله لكم لتتّفقوا، وتعلموا أن الله عزّ وجل كما أحيا هؤلاء، وأعادَ أزوَاحهم إلى أجسادهم، فكذلك يُعيد الخلق يوم القيامة كما بدأهم، فرجع الكل إلى ما قاله الملك، وعلموا أنه الحق.

عن واو الثمانية[٢]:

فصل: وذكر قول الله سبحانه: ﴿ويقولون سَبْعَةٌ وثامنهم كلبُهم﴾ قد أفردنا للكلام على هذه الواو التي يسمّيها بعض الناس: واو الثمانية بابًا طويلاً، والذي يليق بهذا الموضع أن تعلم: أن هذه الواو تدل على تصديق القائلين لأنها عاطفة على كلام مُضْمَر، تقديره: نعم،

---

(١) استدل بعضهم بهذه الآية على جواز اتخاذ المساجد على القبور، وقد ورد أربعة عشر حديثًا صحيحًا في النهي عن الصلاة في المساجد المُقامَة على القبور، وانظر الأمر باستفاضة والردّ على هذه الشبهة وغيرها في كتاب فضيلة الشيخ العلاّمة ناصر الدين الألباني ـ حفظه الله ونفع به ـ آمين. فانظره لِزامًا.

(٢) أي التي تأتي بعد سبعة أشياء، ثم تذكر قبل الثامن، كما في الآية. وكما جاء في سورة التوبة (١١٢) والتحريم (٥) وانظر بدائع الفوائد للعلاّمة القيّم ابن القيّم (٢/ ١٧٤) (٣/ ٥٢).

تكابرهم. ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنهم لا علم لهم بهم. ﴿ولا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إني فاعلٌ ذَلِكَ غَدًا إلاّ أنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾: أي ولا تقولنَّ لشيء سألوك عنه كما قلت في هذا: إني مخبركم غدًا.

وثامنهم كلبهم، وذلك أن قائلاً لو قال: إن زيدًا شاعرٌ، فقلت له: وفقيه، كنت قد صدقته، كأنك قلت: نعم هو كذلك، وفقيه أيضًا، وفي الحديث: سُئِلَ رسول الله ﷺ: أيتوضأ بما أفضلت الحمر، فقال: «وبما أفضلت السباع». يريد: نعم، وبما أفضلت السباع. خرّجه الدارقطني[1]. وفي التنزيل: ﴿وارزُقْ أهلَه من الثمرات مَنْ آمَنَ منهم بالله واليوم الآخر قال ومَنْ كَفَر﴾ [البقرة: ١٢٦] هو من هذا الباب. فكذلك ما أخبره عنهم من قولهم: ﴿ويقولون سبعة﴾، فقال سبحانه: و﴿ثامنهم كلبهم﴾ وليس كذلك: سادسُهم كلبهم، ورابعهم كلبهم؛ لأنه في موضع النعت لما قبله، فهو داخل تحت قوله سبحانه: ﴿رَجْمًا بالْغَيْبِ﴾ ولم يقل ذلك في آخر القصة.

آية الاستثناء:

فصل: وذكر قول الله تعالى: ﴿ولا تَقُولَنَّ لشيء﴾ وفسّره، فقال: أي اسْتَثْنِ شِيئة الله. الشِّيئة: مصدر شاء يشاء، كما أن الخِيفة مصدر خاف يخاف، ولكن هذا التفسير، وإن كان صحيح المعنى، فلفظ الآية مُشْكِل جدًّا؛ لأن قوله: ﴿لا تقولَنَّ لشيء إني فاعل ذلك غدًا﴾ [الكهف: ٢٣] نهى عن أن يقول هذا الكلام، ولم ينهه عن أن يصله بإلا أنْ يشاء الله، فيكون العبد المنهي عن هذا القول منهيًا أيضًا عن أن يصله بقوله: ﴿إلا أن يشاء الله﴾. هذا مُحال: فقوله إذًا: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ استثناءٌ من الله، راجعٌ إلى أول الكلام، وهذا أيضًا إذا تأملته نَقْضٌ لعزيمة النهي، وإبطالٌ لِحُكْمِه، فإن السيد إذا قال لعبده: لا تقم إلا أن يشاء الله أن تقوم، فقد حلّ عقدة النّهي؛ لأن مشيئة الله للفعل لا تُعْلم إلا بالفعل، فللعبد إذًا أن يقوم، ويقول: قد شاء الله أن نقوم، فلا يكون للنهي معنًى على هذا، فإذا لم يكن ردّ حرف الاستثناء إلى النهي، ولا هو من الكلام الذي نهى العبد عنه، فقد تبيّن إشكاله، والجواب: أن في الكلام حذفًا وإضمارًا تقديره: ولا تقولنّ: إني فاعل ذلك غدًا إلاَّ ذاكرًا إلاَّ أن يشاء الله، أو ناطقًا بأن يشاء الله، ومعناه: إلا ذاكرًا شِيئة الله، كما قال ابن إسحٰق؛ لأن الشِّيئة مصدر، وأنْ مع الفعل، في تأويل المصدر، وإعراب ذلك المصدر مفعول بالقول المضمر، والعرب تحذف القول، وتكتفي بالمقول ففي التنزيل: ﴿فأما الذين اسْوَدَّتْ وجوهُهُم أكَفَرْتم﴾ [آل عمران: ١٠٦] أي: يقال لهم: أكفرتم، فحذف القول، وبقي الكلام المقول، وكذلك

---

(١) «ضعيف الإسناد». أخرجه الدارقطني (١/ ٦٢) بتحقيقي. وفيه إبراهيم بن أبي حبيبة: ضعيف.

واسْتَثْنِ مَشِيئة الله، واذكر ربك إذا نَسِيت، وقل: عسى أن يَهْدِين ربّي لخير مما سألتموني عنه رَشَدًا، فإنك لا تدري ما أنا صانع في ذلك. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: أي سيقولون ذلك. ﴿قُلْ اللَّهُ أعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ

قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُون عليهم من كُلّ باب سلامٌ عليكم﴾ [الرعد: ٢٤] أي يقولون: سلام عليكم، وهو كثير، وكذلك إذًا قوله: ﴿إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هي من كلام الناهي له سبحانه، ثم أضمر القول، وهو الذكر الذي قدمناه، وبقي المقول، وهو: أن يشاء الله، وهذا القدر يكفي في هذا المقام، وإن كان في الآية من البسط والتفتيش ما هو أكثر من هذا.

ولبثوا في كهفهم:

فصل: وقد فسّر قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كَهْفِهِم﴾ فقال: معناه أي: سيقولون ذلك، وهو أحد التأويلات فيها. وعلى هذا القول قرأه ابن مسعود: وقالوا: لبثوا، بزيادة قالوا. ثم قال ابن إسحٰق: قل: ربي أعلم بما لبثوا، وهو وهم من المؤلف أو غيره، وإنما التلاوة: ﴿قُلِ اللَّهُ أعلمُ بما لَبِثوا﴾ وقد قيل: إنه إخبار من الله تعالى عن مقدار لُبْثِهم، ولكن لما علم استبعاد قريش وغيرهم من الكفار لهذا المقدار، وعُلم أن فيه تنازعًا بين الناس، فمن ثَمَّ قال: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ وقوله: ﴿ثلاثمائة سِنين وازدادوا تسعًا﴾ أي: إنها ثلاثمائة بحساب العجم، وإن حسبت الأهلَّة، فقد زاد العدد تسعًا، لأن ثلاثمائة سنةٍ بحساب الشمس تزيد تسع سنين بحساب القمر[1] فإن قيل: فكيف قال ثلاثمائة سنين، ولم يقل: سنة، وهو قياس العدد في العربية، لأن المائة تضاف إلى لفظ الواحد، فالجواب أن سنين في الآية بدل مما قبله، ليس على حدّ الإضافة ولا التمييز، ولحكمة عظيمة عُدِل باللفظ عن الإضافة إلى البدل، وذلك أنه لو قال: ثلاثمائة سنةٍ، لكان الكلام كأنه جواب لطائفة واحدة من الناسِ، والناسُ فيهم طائفتان: طائفة عرفوا طول لُبْثِهم، ولم يعلموا كمية السنين، فعرَّفهم أنها ثلاثمائة، وطائفةٌ لم يعرفوا طول لبثهم، ولا شيئًا من خبرهم، فلما قال: ثلاثمائة معرّفًا للأولين بالكمية التي شكُّوا فيها، مبيّنًا للآخرين أن هذه الثلاثمائة سنون، وليست أيامًا ولا شهورًا، فانتظم البيان للطائفتين من ذكر العدد، وجمع المعدود، وتبيّن أنه بدل؛ إذ البدل يراد به: تبيين ما قبله: ألا ترى أن اليهود قد كانوا عرفوا أن لأصحاب الكهف نبأً عجيبًا، ولم يكن العجب إلا من طول لُبْثهم غير أنهم لم يكونوا على يقين من أنها ثلاثمائة أو أقل، فأخبر أن تلك السنين ثلاثمائة، ثم لو وقف الكلام هٰهنا لقالت العرب، ومَن لم يسمع بخبرهم: ما هذه الثلاثمائة؟ فقال كالمبيّن لهم: سنين، وقد رُوِيَ معنى هذا التفسير عن الضحاك، ذكره النحّاس.

---

(١) بل تزيد عن هذا كثيرًا.

أَبْصِرْ بِهِ وأسمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشرِكُ فِي حُكْمِهِ أحَدًا﴾: أي لم يَخف عليه شيء مما سألوك عنه.

السنة والعام:

فصل: وقال: سنين، ولم يقل أعوامًا، والسنة والعام، وإن اتسعت العرب فيهما، واستعملَت كُلّ واحد منهما مكان الآخر اتساعًا، ولكنَّ بينهما في حكم البلاغة والعلم بتنزيل الكلام فَرْقًا، نَخُذْه أولاً من الاشتقاق، فإن السنة من سَنا يَسْنُو إذا دار حول البئر، والدابة: هي السَّانِيَةُ، فكذلك السنة دَوْرَةٌ من دورات الشمس، وقد تسمى السنة: دارًا، ففي الخبر: إن بين آدمَ ونوح ألفَ دارٍ، أي: ألف سنة، هذا أصل الاسم، ومن ثَمَّ قالوا: أكلتهم السَّنَةُ، فَسَمَّوْا شدَّةَ القحط سَنَةً، قال الله سبحانه: ﴿ولقد أخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] ومن ثم قيل: أسْنَتَ القومُ إذا أقحطوا، وكأن وزنه أفْعَتُوا، لا أفْعَلُوا، كذلك قال بعضهم، وجعل سيبويه التاء بدلاً من الواو، فهي عنده: أفعلوا، لأن الْجُدوبة والْخِصْب مُعتبر بالشتاءِ والصيف، وحساب الْعَجَم إنما هو بالسنين الشمسية بها يُؤَرِّخون، وأصحاب الكهف من أُمَّةٍ عجمية، والنصارى يعرفون حديثهم، ويؤرِّخون به، فجاء اللفظ في القرآن بذكر السنين الموافقة لحسابهم، وتمم الفائدة بقوله: وازدادوا تسعًا ليوافق حساب العرب، فإن حسابَهم بالشهور القمرية كالمحرم وصفر ونحوهما وانظر بعد هذا إلى قوله: ﴿تَزْرَعُون سَبْعَ سِنينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: ٤٧] الآية، ولم يقل أعوامًا، نفيه شاهد لما تقدم، غير أنه قال: ﴿ثم يأتي من بعد ذلك عام﴾، ولم يقل: سنة عدولاً عن اللفظ المشترك، فإن السنة قد يعُبَّر بها عن الشدة والأزمة كما تقدم، فلو قال: سنة لذهب الوهم إليها؛ لأن العامَ أقل أيامًا من السنة، وإنما دلّت الرؤيا على سَبْع سنين شدادٍ، وإذا انقضى العدد، فليس بعد الشدة إلا رخاءٌ، وليس في الرؤيا ما يدل على مدة ذلك الرخاء، ولا يمكن أن يكون أقل من عام، والزيادةُ على العام مشكوكٌ فيها، لا تقتضيها الرؤيا، فحكم بالأقل، وترك ما يقع فيه الشك من الزيادة على العام، فهاتان فائدتان في اللفظ بالعام في هذا الموطن، وأما قوله: ﴿وبلغ أربعين سنةً﴾ فإنما ذكر السنين، وهي أطول من الأعوام، لأنه مُخْبرٌ عن اكْتِهَال الإنسان، وتمام قوته واستوائه، فلفظ السنين أولى بهذا الموطن؛ لأنها أكمل من الأعوام، وفائدة أخرى: أنه خبر عن السنّ، والسنّ معتبر بالسنين، لأن أصلَ السِّن في الحيوان لا يعتبر إلا بالسنة الشمسية، لأن النِّتَاجَ، والحمل يكون بالربيع والصيف، حتى قِيل رِبْعيٌّ للبَكِير وصَيْفي للمؤخر، قال الراجز[1]:

إن بَـنِـيَّ صِـبْـيَـةٌ صَـيْـفِـيُّـونْ ... أفْـلَـحَ مَـنْ كـان لـه رِبْـعِـيُّـونْ

---

(١) هو: سعد بن مالك بن ضبيعة. وقيل: أكثم بن صيفي.

وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطواف: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَينِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٣] حتى انتهى إلى آخر قصة خبره.

فاستعمله في الآدميين، فلما قيل في الفصيل ونحوه: ابن سنة وابن سنتين، قيل ذلك في الآدميين، وإن كان أصلُه في الماشية لما قدمنا، وأما قوله: ﴿وحَمْلُه وفِصَالُه في عامين﴾ فلأنه قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَك عن الأَهِلَّةِ قل هي مواقيتُ للناس والحج﴾ [البقرة: ١٨٩] فالرضاع من الأحكام الشرعية، وقد قصرنا فيها على الحساب بالأهلة، وكذلك قوله: ﴿يُحِلُّونَه عَامًا ويُحَرِّمونه عامًا﴾ ولم يقل: سنةً؛ لأنه يعني شهر المحرم وربيع إلى آخر العام، ولم يكونوا يحسبون بأيلول ولا بتشرين ولا بيَنير، وهي الشهور الشمسية وقوله سبحانه: ﴿فأماته الله مائةَ عام﴾ إخبارٌ منه لمحمد - ﷺ - وأُمته وحسابهم بالأعوام والأهِلَّةِ كما وقَّت لهم سبحانه، وقوله سبحانه في قصة نوح: ﴿فلبث فيهم أَلْفَ سنةٍ إلا خمسين عامًا﴾ [العنكبوت: ١٤٠] قيل: إنما ذكر أولاً السنين؛ لأنه كان في شدائد مدته كلها إلا خمسين عامًا منذ جاءه الفرج، وأتاه الغوث، ويجوز أن يكون الله - سبحانه - علم أن عمره كان ألفًا، إلا أن الخمسين منها، كانت أعوامًا، فيكون عمره ألف سنة، تنقص منها ما بين السنين الشمسية والقمرية في الخمسين خاصة؛ لأن خمسين عامًا بحساب الأهلّة أقل من خمسين سنة شمسية بنحو عام ونصف، فإن كان الله سبحانه قد علم هذا من عمره، فاللفظ موافق لهذا المعنى، وإلا ففي القول الأول مقنع، وَالله أعلم بما أراد، فتأمل هذا، فإن العلم بتنزيل الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها يفتح لك بابًا من العلم بإعجاز القرآن، وابن هذا الأصل تعرف المعنى في قوله تعالى: ﴿في يوم كان مِقْدارُه خَمْسين أَلْفَ سنة﴾ [المعارج: ٤]. وقوله تعالى: ﴿[وإن يومًا عند ربك] كألف سنة مما تعدّون﴾ [الحجر: ٤٧] وأنه كلام ورد في معرض التكثير والتفخيم، لطول ذلك اليوم والسنة أطول من العام، كما تقدم، فلفظها أليق بهذا المقام.

ذكر قصة الرجل الطواف ذي القرنين:

فصل: وذكر قصة الرجل الطواف، والحديث الذي جاء فيه عن رسول الله - ﷺ - أنه كان مَلِكًا مسح الأرض بالأسباب، ولم يشرح معنى الأسباب. ولأهل التفسير فيه أقوال متقاربة، قالوا في قوله تعالى: ﴿وآتيْناه من كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] أي: علمًا يتبعه، وفي قوله تعالى: ﴿فأَتْبَع سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥] أي: طريقًا موصلة، وقال ابن هشام في غير هذا الكتاب السببُ: حبل من نور، كان ملَكٌ يمشي به بين يديه،

وكان من خبر ذي القرنين أنه أُوتِيَ ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيره فمُدّت له الأسبابُ، حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا يطأ أرضًا إلا سُلط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخَلْق.

قال ابن إسحٰق: حدّثني مَن يسوق الأحاديث عن الأعاجم، فيما توارثوا من علمه: أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه: مَرْزُبان بن مَرْذَبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث، بن نوح.

قال ابن هشام: واسمه: الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية، فنسبت إليه.

قال ابن إسحٰق: وقد حدّثني ثَوْر بن يزيد عن خالد بن مَعْدان الكَلاعيّ وكان رجلاً قد أدرك أن رسول الله - ﷺ - سُئِل عن ذي القرْنين، فقال: مَلِك مَسحَ الأرض من تحتها بالأسباب.

فيتبعه[1]، وقد قيل في اسم ذلك المَلك: زياقيل، وهذا يقرب من قول مَن قال: سببًا أي: طريقًا، ويقرب أن يكون تفسيرًا لقول النبي ﷺ: «مسح الأرض بالأسباب»، واختلف في تسميته بذي القرنين، كما اختلف في اسمه، واسم أبيه، فأصح ما جاء في ذلك ما رُوِيَ عن أبي الطُّفَيْلِ عامر بن واثلة قال: سأل ابن الْكَوَّاء علي بن أبي طالب، فقال: أرَأيت ذا القرنين، أنبيًا كان أم ملكًا؟ لا نبيًا كان، ولا ملكًا، ولكن كان عبدًا صالحًا دعا قومه إلى عبادة الله، فضربوه على قَرْنَيْ رأسِه ضربتين، وفيكم مثلُه. يعني: نفسه، وقيل: كانت له ضفيرتان من شعر، والعربُ تسمّي الْخُصْلَة من الشعر: قرنًا، وقيل: إنه رأى في المنام رؤيا طويلة أنه أخذ بِقَرْنَي الشمس، فكان التأويل أنه المشرق والمغرب، وذكر هذا الخبر علي بن أبي طالب الْقِيرَواني العابد في كتاب البستان له، قال: وبهذا سُمِّي ذا القرنين[2]، وأما اسمه، فقال ابن هشام في هذا الكتاب: اسمه مَرْزَبَى بن مَرْذَبَة بذال مفتوحة في اسم أبيه، وزاي في اسمه، وقيل فيه: هرمس، وقيل: هرديس. وقال ابن هشام في غير هذا الكتاب[3] اسمه الصَّعْب بن ذي مَرَاثِد، وهو أول التَّبَابعة، وهو الذي حكم لإبراهيم عليه السلام في بئر السبع حين حاكم إليه فيها، وقيل: إنه أفريدون بن أثفيان الذي قتل الضحاك[4]، ويُروَى في

---

(١) وقيل: منازل الأرض وأعلامها، وقيل العلم. وهو أقرب.

(٢) وقيل لأنه بلغ مطلع الشمس ومغربها، والشمس في شروقها وغروبها إنما تشرق وتغرب بين قرني شيطان كما صحّ الحديث عن رسول الله ﷺ، وقد نُهِيَ المسلم عن الصلاة في هذين الوقتين، فلما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس ومغربها سُمّي بذي القرنين.

(٣) في كتاب «التيجان».

(٤) انظر تاريخ الطبري (١/ ١٣٠/ ٢٢٠) ط. دار الكتب العلمية.

وقال خالد: سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: يا ذا القرنَين، فقال عمر: اللّهمَّ غَفرًا، أما رَضِيتم أن تَسمَّوْا بالأنبياء حتى تَسمَّيتم بالملائكة؟!.

خطبة قيس بن ساعدة التي خطبها بسوق عكاظ، أنه قال فيها: يا معشر إياد! أين الصعب ذو القرنين، مَلَك الخافِقَيْنِ، وأذلَّ الثقلين، وعَمِّر ألفين، ثم كان ذلك كلحظة عين، وأنشد ابن هشام للأعشى:

والصعبُ ذو القرنين أصْبَح ثاوِيًا   بـالْـحِـنْـوِ في جَدَثٍ أُمَيْم مُـقـيـم

وقوله بالْحِنْوِ يريد: حِنْو قُرَاقِرِ الذي مات فيه ذو القرنين بالعراق، وقول ابن هشام في السيرة: إنه من أهلِ مِصْرَ، وإنه الإسكندر الذي بنى الإسكندرية، فعرفت به: قولٌ بعيد مما تقدم، ويحتمل أن يكون الإسكندر سُمِّي ذا القرنين أيضًا تشبيهًا له بالأول، لأنه ملك ما بين المشرق والمغرب فيما ذكروا أيضًا، وأذلَّ ملوكَ فارس، وقتل دارا بن دارا، وأذلّ ملوكَ الروم وغيرهم، وقال الطبري في الإسكندر: وهو إسكندروس بن قليقوس، ويقال فيه: ابن قليس، وكانت أُمه زِنْجيّة، وكانت أُهْدِيت لدارا الأكبر أو سباها، فوجد منها نَكْهَةً استثقلها، فعولجت ببقلة، يقال لها: أندروس، فحملت منه بدارا الأصغر، فلما وضعته ردّها، فتزوّجها والد الإسكندر، فحملت منه بالإسكندروس، فاسمه عندهم مُشْتَقٌ من تلك الْبَقْلة التي طهّرت أُمه بها فيما ذكروا، وذُكِر عن الزبير: أنه قال: ذو القرنين هو: عبد الله بن الضحاك بن مَعَدٍّ [وقال ابن حبيب في] الْمُحبَّر في ذكر ملوك الحيرة، قال: الصَّعْبُ بن قرين [بن الهمال]: هو ذُو القرنين، ويحتمل أن يكونوا ملوكًا في أوقاتٍ شَتَّى، يسمى كلُّ واحد منهم: ذا القرنين والله أعلم. والأول كان على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو صاحب الخِضْر حين طلب عينَ الحياة[1] فوَجَدها الخِضرُ، ولم يجدها ذُو القرنين، حالت بينه وبينها الظلماتُ التي وقع فيها هو وإجنادُه في خبر طويل مذكور في بعض التفاسير مشهور عند الأخباريين.

حكم التسمّي بأسماء النبيين:

وأما قول عمر لرجل سمعه يقول: يا ذا القرنين: لم يكفِكُم أن تَتَسمَّوْا بالأنبياءِ حتى تسمّيتم بالملائكة، إن كان عمر قاله بتَوْقيف من الرسول عليه السلامِ، فهو مَلَك، لا يقول رسول الله - ﷺ - إلا الحق، وإن كان قاله بتأويل تأوّله [فقد] خالفه عليٌّ في الخبر المتقدم، والله أعلم أيُّ الخَبَرَيْنِ أَصَحّ نقلاً، غير أن الرواية المتقدمةَ عن عليّ يقوّيها ما نقله أهلُ الأخبار عن ذي القرنين، والله أعلم. وكان من مذهب عُمَرَ رحمه الله كراهيةَ التَّسمّي بأسماءِ

---

(١) قصة عثور الخضر على ما يسمى بعين الحياة تحتاج إلى دليل «صحيح» يقويها.

قال ابن إسحٰق: والله أعلم أيّ ذلك كان، أقال ذلك رسولُ الله ـ ﷺ ـ، أم لا؟ فإن كان قاله، فالحق ما قال.

الأنبياء، فقد أنكر على المغيرة تَكْنِيَتَهُ بأبي عيسى، وأنكر على صُهَيْبٍ تَكْنِيَتَه بأبي يَحْيىٰ، فأخبر كلُّ واحدٍ منهما أن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كَنَّاه بذلك، فسكت، وكأن عمر إنما كره من ذَلك الإكثار، وأنْ يظن أن للمسلمين شَرَفًا في الاسم إذا سُمّي باسم نبي، أو أنه ينفعه ذلك في الآخرة، فكأنه استشعر من رعيته هذا الغرضَ أو نحوه، هو أعلم بما كره من ذلك. وإلا فقد سَمَّى بمحمد طائفةٌ من الصحابة منهم: أبو بكر وعليٌّ وطلحةُ وأبو حذيفة وأبو جَهْم بن حذيفة، وحاطبٌ وخطّاب ابنا الحارث، كلّ هؤلاء المحمدين كانوا يُكْنَوْن بأبي القاسم إلا محمد بن خطاب، وسَمَّى أبو موسى ابنًا له بموسى، فكان يُكْنَى به، وأُسَيْدُ بن حُضَيْر سمّى ابنَه بيَحْيىٰ، وعلم به النبيُّ عليه السلام فلم يُنكر عليه، وكان لطلحَةَ عَشَرَةٌ من الولد، كُلُّهم يُسَمَّى باسم نَبيٍّ، منهم: موسى بن طلحة عيسى، وإسحٰق ويعقوب وإبراهيم، ومحمد، وكان للزبير عشرةٌ، كلُّهُم يسمى باسم شهيد، فقال له طلحة: أنا أُسمّيهم بأسماء الأنبياء، وأنت تسمّيهم بأسماء الشهداء، فقال له الزبير: فإني أطمع أن يكون بنيَّ شهداء، ولا تطمع أنت أن يكون بنوك أنبياء، ذكره ابن أبي خَيْثَمَةَ، وسمّى رسول الله ـ ﷺ ـ ابنه إبراهيم، والآثارُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وفي السنن لأبي داود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: سَمُّوا بأسماء الأنبياء[1]، وهذا محمول على الإباحة، لا على الوجوب، وأما التَّسَمِّي بمحمد، ففي مُسْنَد الحارث عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «ما كان له ثلاثة من الولد، ولم يُسَمِّ أحدَهم بمحمد، فقد جَهِلَ»[2]، وفي الْمُعَيْطِي عن مالكٍ أنه سُئل عَمَّن اسمُه محمد، ويكنَّى أبا القاسم، فلم يَرَ به بأسًا، فقيل له: أكَنَّيْتَ ابنك أبا القاسم، واسمه محمد؟ فقال: ما كَنَّيْتُه بها ولكن أهله يُكَنُّونه بها، ولم أسمع في ذلك نَهْيًا، ولا أرى بذلك بأسًا، وهذا يدلّ على أنَّ مالكًا لم يبلغه، أو لم يصحّ عنده حديث النّهي عن ذلك، وقد رواه أهلُ الصحيح ـ فالله أعلم ـ ولعله بلغه حديثُ عائشة أنه عليه السلام ـ قال: «ما الذي أحَلَّ اسمي وحَرَّم كُنْيَتي»[3]؟ وهذا هو الناسخ لحديث النهي، والله أعلم، وكان ابن سيرين يكره لكل أحد أن يَتَكَنَّى بأبي القاسم، كان اسمُه محمدًا، أو لم يكن. وطائفة إنما يكرهونه لمَن اسمُه محمد، وفي الْمُعَيْطِي أيضًا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٠) بتحقيقي. والنسائي (٦/ ٢١٨) وأحمد (٤/ ٣٤٥) والبيهقي في الآداب (٥٠٥) بتحقيقي ـ ط. دار الكتب العلمية.

(٢) «ضعيف». يبدو هذا بيِّنًا لمَن تذوّق حديث رسول الله ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٦٨) بتحقيقي. والبيهقي (٩/ ٣١٠) والطبراني في الصغير (١/ ١٤) والبيهقي في الآداب (٥١٧) بتحقيقي. وابن عساكر (١/ ٢٧٧).

أسباب نزول بعض الآيات وعن الروح

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الرّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

أنه سُئِل عن التسميةِ بمَهْدِي فكرهه، وقال: وما علمه بأنه مَهْدِيٌّ، وأباح التسمية بالهادي، وقال: لأن الهادي هو الذي يهدي إلى الطريق، وقد قدّمنا كراهية مالك التسمّي بجبريل. وقد ذكر ابن إسحٰق كراهيةَ عُمَرَ للتسمّي بأسماء الملائكة، وكره مالك التَّسمّي بياسين[١].

الـروح والنفس

فصل: وذكر سؤالهم عن الروح، وما أنزل الله فيه من قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونك عن الرُّوح﴾ الآية ورُوِيَ عن ابن إسحٰق من غير طريق الْبَكّائِيِّ أنه قال في هذا الخبر: فناداهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هو جبريلُ»، وهذه الرواية عن ابن إسحٰق تدلّ على خلاف ما روى غيرُه أن يهودَ قالت لقريش: اسْأَلُوه عن الروح، فإن أخبركم به فليس بنبي، وإن لم يخبركم فهو نبي، وقال ابن إسحٰق فيما تقدم من الحديث: اسَأَلُوه عن الرجل الطَّوّافِ، وعن الفِتْيَة، وعن الروح، فإن أخبركم وإلاّ فالرجلُ مُتَقَوِّلٌ فسوَّى في الخبر بين الروح وغيره، واختلف أهل التأويل في الروح المسؤول عنه، فقال بعضهم: هو جبريل؛ لأنه الروح الأمين، وروح القدس، وعلى هذا رواية ابن إسحٰق أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لقريش حين سألوه: «هو جبريل»، وقالت طائفة: الروح خَلْقٌ من الملائكة على صُوَرِ بني آدم، وقالت طائفة: الروحُ خَلْقٌ يرون الملائكة، ولا تراهم، فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم، ورُوِيَ عن علي أنه قال: الرُّوحُ مَلَكٌ له مائة ألف رأسٍ، لكل رأسٍ مائةُ ألفِ وجه، في كل وجه مائةُ ألفِ فم، في كل فمٍ مائةُ ألفِ لسان، يُسَبِّح الله بلغات مختلفة[٢]، وقالت طائفة: الروح الذي سألتَ عنه يهود هو: روح الإنسان، ثم اختلف أصحاب هذا القول، فمنهم مَن قال: لم يجبهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن سؤالهم، لأنهم سألوه تَعَنُّتًا واستهزاءً، فقال الله له: قُل: الروحُ من

---

(١) ياسين: ليس اسمًا من أسمائه ﷺ، وكذا طٰه، إنما حروف مقطعة كبقية الحروف المقطعة التي بدأت بها بعض سور القرآن، وكذا اسم «مصطفى» ليس من أسمائه إنما هو وصف له ﷺ أن «مصطفى» من الخلق بالنبوة والرسالة ـ صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا.

(٢) لا يصح مثل هذا عن علي رضي الله عنه، وهذا يجب هنا التنبيه على مثل هذه الأقوال التي تشبه مثل خير الباب من أن مَن قال كذا فله مائة ألف كذا لكل كذا مائة ألف كذا، كمَن توضأ ولم يمسح وضوءه فكل قطرة تسقط منه يخلق الله منها كذا ألف ملك لكل ملك ألف ألف رأس لكل رأس ألف ألف لسان. . . الخ. فمثل هذا الكلام إن لم يعتضده دليل «صحيح» فارم به.

قال ابن إسحٰق: وحُدِّثت عن ابن عبَّاس، أنه قال: لمّا قَدِمَ رسولُ الله - ﷺ - المدينةَ، قالت أحبارُ يَهُود: يا محمد، أرأيتَ قولَك: ﴿ومَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلا قليلاً﴾

أمر ربي، ولم يأمره أن يُبَيِّنه لهم، وقالت طائفة: بل قد أخبرهم الله به، وأجابهم عمّا سألوا؛ لأنه قال لنَبيِّه: قُلِ الرُّوحُ من أمر ربي، وأمْرُ الرَّبِّ هو الشرع، والكتابُ الذي جاء به، فمَن دخلَ في الشرع وتفقه في الكتابِ والسُّنَّةِ عَرَفَ الرُّوحَ، فكأن معنى الكلام: ادخلوا في الدين تعرفوا ما سألتم، فإنه من أمر ربي، أي: من الأمر الذي جئت به مُبَلِّغًا عن ربي، وذلك أن الروح لا سبيل إلى معرفته من جهة الطبيعة، ولا من جهة الفلسفة، ولا من جهة الرأي والقياس، وإنما يُعرف من جهة الشرع، فإذا نظرت إلى ما في الكتاب والسُّنّة من ذكره نحو قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ سَوَّاه ونَفَخَ فيه من رُوحه﴾ [السجدة: ٩] أي من روح الحياة، والحياةُ من صفاتِ الله سبحانه، والنفخُ في الحقيقة مضافٌ إلى مَلَكٍ ينفخ فيه بأمر رَبِّه، وتنظر إلى ما أخبر به الرسول عليه السلام أن الأرْواحَ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، وأنها تتعارف[1] وَتَتَشَامّ في الهواء، وأنها تُقْبَضُ من الأجساد بعد الموت، وأنها تُسْأَل في القبر، فتفهم السؤال وتسمع وَترى، وتُنَعَّم وَتُعَذَّب وَتلتذ وَتَأْلم، وَهذه كلُّها من صفات الأجسام، فتعرف أنها أجسام بهذه الدلائل، لكنها ليست كالأجساد في كثافتها وثقلها وإظلامها، إذ الأجساد خُلقت من ماءٍ وطين وحمإٍ مَسْنُون، فهو أصلُها، والأرواحُ خُلِقت مما قال الله تعالى، وهو النفخ المتقدم المضاف إلى الملك. والملائكة خلقت من نور كما جاء في الصحيح[2]، وإن كان قد أضاف النفخَ إلى نفسه، فكذلك أضاف قَبْضَ الأرواح إلى نفسه فقال: ﴿الله يَتَوَفَّى الأنفُسَ حين مَوْتِها﴾ [الزمر: ٤٢] وأضاف ذلك إلى الملك أيضًا فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الموتِ﴾ [السجدة: ١١] والفِعل مضاف إلى الملك مجازًا، وإلى الرب حقيقةً، فهو أيضًا جِسْمٌ، ولكنه من جِنْس الريح، ولذلك سُمِّي رُوحًا من لفظ الريح، ونفخُ الملك في معنى الريح غير أنه ضُمّ أوله؛ لأنه نُورانِي، والريح هواء متحرك، وإذا كان الشرعُ قد عرَّفنا من معاني الروح وصفاته بهذا القدر، فقد عُرِف من جهة أمره كما قال سبحانه: ﴿قُل الروحُ من أمر ربي﴾ وقوله: من أمر رَبِّي أيضًا، ولم يقل من أمر الله، ولا من أمر رَبِّكم يدل على خصوص، وعلى ما قدّمناه من أنه لا يعلمه إلا من أخذ معناه من قول الله سبحانه، وقولِ رسوله بعد الإيمان بالله ورسوله واليقين الصادق والفقه في الدين، فإن كان لم يخبر اليهود حين سألوه عنه، فقد أحالهم على موضع العلم به.

---

(١) انظر البخاري (٤/ ١٦٢) ومسلم في البر والصلة (١٥٩/ ١٦٠) وأبو داود (٤٨٣٤) بتحقيقي. وغيرهم.

(٢) انظر صحيح مسلم في الزهد (٦٠) وأحمد (٦/ ١٥٣) والبيهقي في الصفات (٣٤٣/ ٣٨٦) بتحقيقي.

إيّانا تريد، أم قومك؟ قال: «كُلاًّ»، قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: ﴿أَنَّا قَدْ أُوتينا التَّوْرَاة فيها بَيان كُلِّ شَيْءٍ﴾. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنها في عِلْم الله قليل،

الفرق بين الروح والنفس:

فصل: ومما يتصل بمعنى الروح وحقيقته أن تعرف: هل هي النفسُ أو غيرها، وقد كثرت في ذلك الأقوالُ، واضطربت المذاهبُ، فتعلق قومٌ بظواهر من الأحاديث لا توجب القطع، لأنها نقل آحادٍ[1]، وأيضًا فإن ألفاظهَا محتملة للتأويل، ومجازات العرف واتساعاتها في الكلام كثيرة، فمما تعلقوا به في أن الروح هي النفس قولُ بلال: «أخذَ بنفسي الذي أخذَ بنفسك»[2] مع قول النبي عليه السلام: «إن الله قبض أرواحنَا»، وقوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿الله يتوفّى الأنْفُس﴾ والمقبوضة هي الأرواح، ولم يفرقوا بين القبض والتوفّي، ولا بين الأخْذِ في قول بلالٍ: «أَخَذَ بِنَفْسِي الذي أَخَذَ بِنفسِك» وبين قول النبي عليه السلام: «قبض أرواحنا»، وتنقيح الأقوال وترجيحها يطول.

وقد روى أبو عُمَرَ[3] في التمهيد حديثًا يدل على خلافِ مَذهبهِ في أن النفس هي الروحُ، لكن علّله فيه أن الله خلق آدم، وجعل فيه نفسًا وروحًا، فمن الروح: عفافه، وفهمه وحلمهُ وسخاؤه، ووفاؤه، ومن النفس: شهوته وطيشه وسفَهُه وغضبه، ونحو هذا، وهذا الحديث معناه صحيح إذا تُؤُمِّل صحَّ نقله أو لم يصح، وسبيلك أن تنظر في كتاب الله أولاً، لا إلى الأحاديث التي تُنقل مرة على اللفظ، ومرة على المعنى، وتختلف فيها ألفاظ المحدّثين، فنقول قال الله تعالى: ﴿فإذا سَوَّيْتُه ونفختُ فيه من رُوحي﴾[4] ولم يقل: من نفسي وكذلك قال: ﴿ثُم سَوَّاه ونَفَخَ فيهِ من رُوحهِ﴾ [السجدة: ٩] ولم يقل من نفسه، ولا يجوز أيضًا أن يقال هذا، ولا خفاء فيما بينهما من الفرق في الكلام، وذلك يدل على أن بينهما فرقًا في المعنى، وبعكس هذا قوله سبحانه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ ولم يقل: تعلم ما في روحي، ولا أعلم ما في روحك، ولا يحسن هذا القول أيضًا أن يقوله غير عيسى[5]، ولو كانت النفس والروح اسمين لمعنى واحد، كالليث والأسد لصحّ وقوع كل واحد منهما مكان صاحبه، وكذلك قوله تعالى: ﴿يقولُون في أنْفُسهِمْ﴾ ولا يحسن في الكلام: يقولون في أرواحهم، وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾ ولم يقل: أن تقول روحٌ،

---

(١) من أحاديث الآحاد الكثير والكثير «صحيح». وانظر حديث «إنما الأعمال بالنيّات» وقد خصّ البخاري خبر الآحاد بكتاب خاص ضمّنه صحيحه فانظره.

(٢) «صحيح» أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) ابن عبد البر.

(٤) سورة الحجر آية رقم (٢٩).

(٥) مَن دونه في النبوة والرسالة.

وعندكم في ذلك ما يَكفيكم لو أقمتُموه». قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه

ولا يقوله أعرابي، فأين إذًا كون النفس والروح بمعنى واحد لولا الغفلة عن تدبّر كلام الله تعالى؟! ولكن بقيت دقيقة يُعرف منها السرّ والحقيقة، ولا يكون بين القولين اختلاف متباين إن شاء الله، فنقول وبالله التوفيق: الروح مشتق من الريح، وهو جسم هوائي لطيف، به تكون حياة الجسد عادة، أجراها الله تعالى؛ لأن العقل يوجب ألاّ يكون للجسم حياة، حتى ينفخ فيه ذلك الروح الذي هو في تجاويف الجسد، كما قال ابن فورك وأبو المعالي وأبو بكر المرادي، وسبقهم إلى نحو منه أبو الحسن الأشعري، ومعنى كلامهم واحد أو متقارب.

الروح سبب الحياة:

فصل: فإذا ثبت أن الروح سبب الحياة عادة، أجراها الله تعالى، فهو كالماء الجاري في عروق الشجرة صُعُدًا، حتى تحيا به عادة، فنسمّيه ماء باعتبار أوّلِيَّتِه، ونسمّي أيضًا هذا روحًا باعتبار أوّليته، واعتبار النفخة التي هي ريح، فما دام الجنين في بطن أُمه حيًا، فهو ذو روح، فإذا نشأ واكتسب ذلك الروحُ أخلاقًا وأوصافًا لم تكن فيه، وأقبل على مصالح الجسم كلفًا به، وعشق مصالح الجسد ولذّاته، ودفع المضارّ عنه سمّي: نفسًا، كما يكتسب الماء الصاعد في الشجرة من الشجرة أوصافًا لم تكن فيه، فالماء في العنبة مثلاً هو: ماء باعتبار الأصل والبَدْأة، ففيه من الماء الميوعة والرطوبة، وفيهِ منَ العنبة الحلاوة، وأوصاف أُخر، فتسمّيه مُصْطَارًا إن شئتَ، أو خمرًا إن شئتَ، أو غير ذلك مما أوجبه الاكتساب لهذه الأوصاف، فمَن قال: إن النفس هي الروحُ على الإطلاق من غير تقييد، فلم يُحْسِن العبارة، وإنما فيها من الروح الأوصاف التي تقتضيها نفخة الملك، وَالمَلَكُ موصوف بكلِّ خلقٍ كريم؛ وَلذلك قال في الحديث: فمن الروح عفافه وَحلمه وَوَفاؤه وَفهمه، وَمن النفس شهوته وَغضبه وَطيشه، وَذلك أن الروح كما قدّمنا مازج الجسد الذي فيه الدم، وَيسمى الدم: نفسًا، وَهو مجرى الشيطان، وَقد حكمت الشريعة بنجاسة الدم لسرٍّ لعله أن يُفهَم مما نحن بسبيله، فمنْ يعرف جوهَر الكلام، وَيُنزل الألفاظَ منازلها، لا يُسمى رُوحًا إلا ما وَقع به الفَرق بين الجماد والحيّ، وَالذي كان سببًا للحياة، كما في الكتاب العزيز عند ذكر إحياء النطفةِ، ونفخ الروح فيها، ولا يُقال: نفخ النفس فيها إلا عند الاتساع في الكلام، وتسمية الشي بما يؤول إليه، ومن هٰهنا سُمِّي جبريل عليه السلام: روحًا، والوحي: روحًا، لأن به تكون حياة القلوب، قال الله سبحانه: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال في الكفار: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١] وقال في

من ذلك: ﴿ولَوْ أنَّ ما فِي الأرْضِ مِنْ شَجَرَة أقْلامٌ وَالبَحْرُ يمُدُّه من بَعْدِه سَبْعَةُ أبحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ الله إنَّ الله عَزيزٌ حَكيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] أي: إن التوراة في هذا من علم الله قليل.

النفس ما تقدم، وقال: ﴿إن النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] ولم يقل إن الرُّوحَ لأمَّارة؛ لأن الروح الذي هو سبب الحياة لا يأمر بسوء، ولا يسمَّى أيضًا نفسًا، كما قدّمنا حتى يكتسب من الجسد الأوصاف المذكورة، وما كان نحوها، والماء النازل من السماء جنس واحد، فإذا مازج أجساد الشجر كالتفاح والفِرْسِك[1] والحَنْظَلِ والعُشْرِ، وغير ذلك اختلفت أنواعه، كذلك الروح الباطنة التي هي من عند الله، هي جنس واحد، وقد أضافها إلى نفسه تشريفًا لها حين قال: ونَفَخَ فيه من رُوحه، ثم يخالط الأجساد التي خُلقت من طين، وقد كان في ذلك الطين طيب وخبيث، فينزع كلُّ فرع إلى أصله، وينزع ذلك الأصل إلى ما سبق في أُم الكتاب، وإلى ما دبّره وأحكمه الحكيمُ الخبير، فعند ذلك تتنافر النفوس، أو تتقارب، وتتحابُّ أو تتباغض على حسب التشاكل في أصل الخلقة، وهي معنى قول النبي ـ ﷺ ـ: «فما تَعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وقد كتب بعض الحكماء إلى صديق له: «إن نفسي غير مشكورة على الانقياد إليك بغير زمام؛ فإنها صادفت عندك بعض جواهرها، والشيء يتبع بعضُه بعضًا».

الإنسان روح وجسد:

فصل: وقد يُعبَّر بالنفس عن جملة الإنسان روحه وجسده، فتقول: عندي ثلاثة أنفس، ولا تقول: عندي ثلاثة أرواح، لا يعبّر بالروح إلا عن المعنى المتَقَدِّم ذكره، وإنما اتّسع في النفس، وعبّر بها عن الجملة لغلبة أوصاف الجسد على الروح، حتى صار يسمى نفسًا، وطرأ هذا الاسم بسبب الجسد، كما يطرأ على الماء في الشجر أسماءً على حسب اختلاف أنواع الشجر من حلو وحامض ومُرٌّ وحِرِّيفٍ، وغير ذلك فتحصَّل من مضمون ما ذكرنا ألا يقال في النفس: هي الروح على الإطلاق، حتى تُقيد بما تقدم، ولا يقال في الروح: هو النفس إلا كما يقال في الْمَنِيِّ هو الإنسان، أو كما يقال للماء المغذّي لِلْكَرْمَة هو: الخمر، أو الخل، على معنى أنه ستنضاف إليه أوصاف يسمى بها خمرًا أو خلاًّ، فتقييد الألفاظ هو: معنى الكلام، وتنزيل كل لفظ في موضعه، هو معنى البلاغة فافهمه.

---

(١) الفرسك: الخوج.

عن تسيير الجبال وبعث الموتى:

قال: وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومُه لأنفسهم من تَسْيير الجبال، وَتَقْطِيع الأرض، وَبَعْث مَنْ مَضَى من آبائهم من الموتى: ﴿وَلَو أَنَّ قُرآنًا سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِّعَت به الأرض أو كُلِّمَ به الموتى بل لله الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لا أصنع من ذلك إلا ما شئت.

وأنزل عليه في قولهم: خُذْ لنفسك، ما سألوه أن يأخذَ لنفسه، أن يجعل له جِنانًا وقُصورًا وكُنوزًا، ويبعَث معه ملَكًا يصدّقه بما يقول، ويردّ عنه: ﴿وقالُوا ما لِهَذا الرَّسُول يَأْكُلُ الطَّعامَ ويمشي في الأَسْوَاق لَوْلا أنزل إلَيْه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إلَيْه كَنزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يأْكُلُ مِنْها وقال الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلا رَجُلاً مَسْحُورًا انْظر كَيْفَ ضَرَبُوا لك الأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطيعون سَبِيلاً تباركَ الذي إنْ شاءَ جعَل لك خَيرًا مِنْ ذلك﴾: أي من أن تمشي في الأسواق وتلتمس المَعاش ﴿جَناتٍ تَجْري مِنْ تحتها الأنهارُ ويجعَلْ لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١٠].

وأنزل عليه في ذلك من قولهم: ﴿ومَا أرسلنا قبلك مِن المرسِلين إلا إنهم لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ ويَمْشُون في الأَسْوَاق وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبُرُونَ وكان ربُّكَ بَصيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] أي جعلت بعضَكم لبعض بلاء، لتصبروا، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رُسلي فلا يُخالَفوا لفعلت.

النفـــس:

فصل: وإذا ثبت هذا فلم يبق إلا قولُ بلال: أَخَذَ بنَفْسِي الذي أَخَذَ بنفسك، فذكر النفس؛ لأنه معتذر من ترك عمل أمر به، والأعمال مضافة إلى النفس؛ لأن الأعمال جَسَدَانِيَّة، وقول النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله قبض أرواحنا، فذكر الروح الذي هو الأصل، لأنه أُنسُهُم من فزعهم، فأعلَمهم أن خالق الأرواح يقبضها إذا شاء، فلا تنبسط انبساطها في اليقظة وروح النائم وإن وُصِف بالقبض، فلا يدل لفظ القَبْضِ على انتزاعه بالكلية[1]. كما لا يدل قوله سبحانه في الظل: ﴿ثمَّ قَبَضْنَاه إلينا قَبْضًا يسيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦] على إعدام الظل بالكلية، وقوله تعالى: ﴿الله يَتَوَفَّى الأنفسَ﴾ فلم يقل: الأرواح، لأنه وعظ العباد الغافلين عنه، فأخبر أنه يتوفَّى أنفسهم، ثم يعيدها حتى يتوفَّاها، فلا يُعيدها إلى الحشر لتَزْدَجِرَ النفوسُ بهذه العظة عن سوء أعمالها؛ إذ الآية مكيّة، والخطابُ للكفار، وقد تنزلت الألفاظ منازلها في الحديث والقرآن، وذلك معنى الفصاحة وسرّ البلاغة.

(١) وانظر تفسير الرازي «مفاتيح الغيب» في تفسير آية الباب.

وأنزل الله عليه فيما قال عبد الله بن أبي أمية: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا أوْ تَكُونَ لك جَنة منْ نَخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفًا أوْ تأتيَ بالله وَالمَلائكة قَبِيلاً أوْ يكُونَ لك بَيْتٌ منْ زُخْرُف أوْ تَرْقى في السَّماءِ وَلَنْ نُؤمن لِرُقِيِّكَ حتى تُنزِّل عَلَيْنا كتابًا نَقْرؤهُ قُلْ سُبْحان ربي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٥].

قال ابن هشام: الينبوع: ما نبع من الماء من الأرض وغيرها. وجمعه ينابيع. قال ابن هَرْمَة. واسمه: إبراهيم بن عبد الله الفِهْريّ.

وإذا هَـرَقْـتَ بـكـلّ دارٍ عَـبْـرةً نُزِفَ الشُّؤونُ. ودَمْعُك اليَنبوعُ

وهذا البيت في قصيدة له. والكِسَف القِطَع من العذاب. وواحدته: كِسْفَةٌ. مثل سِدْرة وسدر. وهي أيضًا: واحدة الكِسَف. والقَبيل: يكون مقابلة ومعاينة. وهو كقوله تعالى: ﴿أوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلاً﴾: أي عيانًا. وأنشدني أبو عُبيدة لأعشى بني قَيْس بني ثعلبة:

أُصالحكم، حتى تبوؤوا بِمثْلِها كصَرْخة حُبْلَى يَسَّرتها قَبيلُها

ابن هـرمة:

فصل: واستشهد ابن هشام بقول ابن هَرْمة ونسبه فقال: فِهْري: وإنما هو خُلْجِيٌّ، والْخُلْج اسمه: قيس بن الحارث بن فهر، واختلف في تسمية بني قيس بن الحارث الْخُلج، فقيل: لأنهم اختلجوا من قريش وسكان مكة، وقيل: لأنهم نزلوا بموضع فيه خُلْج من ماء، ونسبوا إليه، وابن هَرْمة واسمه: إبراهيم بن علي بن هَرْمة، وهو شاعر من شعراء الدولة العباسية، وبيته:

وإذا هَـرَقْـتَ بـكـلّ دار عَـبْـرَةً نُـزِفَ الـشُّؤونُ ودمـعُـك الـيـنـبـوعُ

والشؤونُ: مجاري الدمع، وهي أطباق الرأس، وهي أربعة للرجل، وثلاثة للمرأة، كذلك ذكروا عن أهل التشريح، وكذلك ذكر قاسم بن ثابت في الدلائل، فالله أعلم.

من شرح الآيات:

وكل ما شرح ابن هشام من الآيات التي تلاها ابن إسحٰق، فقد تقدّم ما يحتاج بيانه منه، وفي قوله سبحانه: ﴿بَيْتٌ من زُخْرُفٍ﴾ دليل على أن البيت يراد به: القصر والمنزل، وإن كان عظيمًا، فإنه يسمى بيتًا كما قدّمنا في شرح بيت القصب في حديث خديجة.

يعني: القابلة؛ لأنها تُقابلها، وتَقبل ولدها. وهذا البيت في قصيدة له. ويقال القبيل: جمعه قُبُل، وهي الجماعات، وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ [الأنعام: ١١١]. فقُبل: جمع قَبيل، مثل سُبل: جمع سَبيل وسُرر: جمع سرير، وقُمص: جمع قميص. والقَبيل أيضًا: في مَثَل من الأمثال وهو قولهم: ما يعرف قَبيلاً من دَبِير: أي: لا يعرف ما أقبل ممَّا أدبر، قال الكُميت بن زيد:

تـفـرَّقـت الأمُـورُ بِـوِجْـهَـتَـيْـهـم فـمَـا عَـرَفـوا الـدَّبـير من الـقَـبِـيـل

وهذا البيت في قصيدة له، ويقال: إنما أُريد بهذا: الفتل، فما فُتِل إلى الذراع فهو القَبيل، وما فُتل إلى أطراف الأصابع فهو الدَّبير، وهو من الإقبال والإدبار الذي ذكرتُ. ويقال: فَتْلُ المِغزَل. فإذا فُتل إلى الركبة فهو القَبيل، وإذا فُتِل إلى الوَرِك فهو الدَّبير. والقَبيل أيضًا: قومُ الرجل. والزخرف: الذهب. والمزخرف: المزين بالذهب. قال العجاج:

مِنْ طَلَل أمْسى تخال الْمُصْحَفَا رُسـومَـه والْـمُـذْهَـب الـمُـزَخـرَفـا

وهذان البيتان في أُرجوزة له، ويقال أيضًا لكلّ مُزَيَّن: مُزَخرف.

قال ابن إسحٰق: وأُنزِل عليه في قولهم: إنَّا قد بَلَغنا أنك إنما يُعلِّمك رجل باليمامة. يقال له: الرحمٰن. ولن نؤمن به أبدًا: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ في أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لتتلوا عَلَيْهِمُ الَّذي أَوْحَينا إلَيْك وهم يَكْفُرُونَ بالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إلَهَ إلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإلَيْه مَتاب﴾ [الرعد: ٣٠].

وأنزل عليه فيما قال أبو جَهْل بن هشام ـ لعنه الله ـ وما همّ به: ﴿أرأيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إذا صَلَّى أرأيْتَ إنْ كانَ على الْهُدَى أوْ أمَرَ بالتَّقْوَى أرأيْتَ إنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بأنَّ اللَّهَ يَرَى كَلاًّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بالنَّاصِيةِ ناصيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نادِيَهْ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ كَلاًّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ سورة العلق.

قال ابن هشام: لَنسفعًا: لنجذبن، ولنأخذن. قال الشاعر:

قـومٌ إذا سَـمِـعـوا الـصُّـراخ رأيـتَـهـم مـن بـيـن مُـلْـجِـم مُـهْـرِهِ أو سـافِـع

والنادي: المجلس الذي يجتمع فيه القومُ، ويقضُّون فيه أمورَهم، وفي كتاب الله

تعالى: ﴿وتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ المُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] وهو النَّدِيُّ. قال عَبِيد بن الأبرص:

اذهب إليك فإني من بني أسَد أهل النَّدِيِّ، وأهل الْجُرْدْ والنادِي

وفي كتاب الله تعالى: ﴿وأحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]. وجمعه: أَنْدية. يقول: فَلْيَدْعُ أهل ناديه. كما قال تعالى: ﴿واسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] يريد أهل القرية. قال سلامة بن جَنْدَل، أحدُ بني سَعْد بن زيد مَنَاة بن تميم:

يَوْمانِ: يومُ مَقامات، وأنديةٍ ويومُ سَيْرٍ إلى الأعداء تأويب

وهذا البيت في قصيدة له. وقال الكُمَيت بن زَيْد:

لا مَهَاذير في النَّدِيِّ مكاثـ ـيرَ ولا مُصْمِتِين بالإفْحَامِ

وهذا البيت في قصيدة له. ويقال: النادي: الجلساء. والزبانية: الغِلاظ الشِّداد، وهم في هذا الموضع: خَزَنة النار. والزَّبَانية أيضًا في الدنيا: أعوانُ الرجل الذين يخدمونه ويُعينونه، والواحد: زِبْنِيَة. قال ابن الزِّبَعْري في ذلك:

مَطاعيمُ في المَقْرَى، مَطاعينُ في الوَغَى زَبَانيةٌ غُلْبٌ، عِظامٌ حُلُومُها

يقول: شِدَادٌ. وهذا البيت في أبيات له. وقال صَخْر بن عَبْد الله الهُذَليّ، وهو صَخْر الغَيّ:

وَمِنْ كَبِيرٍ نَفَرٌ زَبانِيَهْ

وهذا البيت في أبيات له.

قال ابن إسحٰق: وأنزل اللّٰهُ تعالى عليه فيما عَرَضوا عليه من أموالهم: ﴿قُلْ ما سأَلْتُكُمْ مِنْ أجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إنْ أجْرِيَ إلاّ على الله وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

فلما جاءهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ بما عرَفوا من الحق، وعرَفوا صِدْقه فيما حدث، ومَوْقع نُبوّته فيما جاءهم به من علم الغُيوب حين سألوه عمَّا سألوا عنه، حال الحسدُ منهم له بينهم وبين أتباعه وتصديقه فعتوا على الله وتركوا أمرَه عيانًا، ولَجُّوا فيما هم عليه من الكُفر، فقال قائلهم: لا تَسْمَعُوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تَغْلبون، أي: اجعلوه

لغوًا وباطلاً، واتخذوه هُزوًا لعلّكم تَغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصَمتموه يومًا غَلَبكم.

فقال أبو جهل يومًا - وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعمُ محمدٌ أنَّ جنود الله الذين يعذبونكم في النَّار، ويَحْبسونكم فيها تسعةَ عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا، وكَثْرَةً، أفيعجزُ كلُّ مائةِ رجلٍ منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣١] إلى آخر القصة، فلما قال ذلك بعضُهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسولُ الله - ﷺ - بالقرآن وهو يصلّي، يتفرقون عنه، ويأبون أن يَسْتمعوا له، فكان الرجلُ منهم إذا أراد أن يَسْتمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن، وهو يُصلّي، استرقَ السمعَ دونهم فَرَقًا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يَسْتمع منه ذهب خَشْية أذاهم، فلم يستمع، وإن خَفض رسولُ الله - ﷺ - صوتَه، فظن الذي يستمع أنهم لا يستمعون شيئًا من قراءته، وسمع هو شيئًا دونهم أصاخ له يَسْتمع منه[1].

خزنة جهنم وأبو الأشدين:

فصل: وذكر ابن إسحٰق قول أبي جهل مستهزئًا: يزعم محمد أن جنود ربّه التي يخوفكم بها تسعةَ عشر، وأنتم الناس، إلى آخر القصة. وأهل التفسير يعزون هذه المقالة إلى أبي الأشَدَّين الْجُمَحِيّ، واسمه: كَلَدَة بن أُسَيْد بن خلف، وأبو دَهْبَل الشاعر هو ابن أخيه، واسمه: وهْب بن زَمَعَة بن أسيد بن خلف بن وَهْب بن حُذافة بن جُمَح، وكانت عند أبي دَهبل التَّوْأمةُ التي يعرف بها صالح مولى التَّوْأَمةِ، وهي أُخت عبد الله بن صَفوان بن أُمية، ولدت له عبد الرحمن قتل يوم الجمل، وأنه قال: اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر إعجابًا منه بنفسه، وكان بلغ من شدته - فيما زعموا - أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة، لينتزعوه من تحت قدمه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح عنه، وقد دعا النبي - ﷺ - إلى المصارعة، وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه رسول الله - ﷺ - مرارًا، فلم يؤمن، وقد نسب ابن إسحٰق خبر المصارعة إلى رُكَانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وسيأتي في الكتاب والله أعلم، وأما ما قال أهل التأويل في خَزَنَة جهنم التسعة عشر، فرُوِيَ عن كعب أنه قال: بيد كل واحد منهم عمود له شُعْبَتان، وإنه ليدفع بالشعبة تسعين ألفًا

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٦/ ٩٣) الدرّ المنثور (٦/ ٢٨٢).

قال ابن إسحـٰق: حدّثني داود بن الْحُصَين، مولى عمرو بن عثمان، أن عكْرمة مولى ابن عبَّاس حدّثهم أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حدّثهم: إنما أنزلت هذه الآية: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخافِتْ بِها وَابْتَغِ بين ذٰلكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠]. من أجل أولئك النَّفر. يقول: لا تجهر بصلاتك فيتفرّقوا عنك، ولا تُخافت بها، فلا يَسْمعها مَنْ يُحبُّ أن يَسْمعها مِمَّن يَسْتَرق ذلك دونهم، لعلَّه يَرْعَوي إلى بعض ما يسمع، فينتفع به[١].

أول صحابي جهر بالقرآن:

قال ابن إسحـٰق: وحدّثني يحيىٰ بن عروة بن الزّبير، عن أبيه، قال: كان أوّلَ مَن جَهر بالقرآن بعد رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة عبدُ الله بن مَسْعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يومًا أصحابُ رسول الله ـ ﷺ ـ فقالوا: والله ما سمعتْ قريشٌ هذا القرآن يُجْهر لها به قطُّ، فمَنْ رجُل يُسْمعهموه؟ فقال عبد الله بن مَسْعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دَعُونِي فإن الله سيَمْنَعني. قال: فغدا ابن مَسْعود حتى أتى المقَام في الضُّحى، وقريشٌ فِي أَنْديتها حتى قام عند المَقام ثم قرأ: ﴿بِسْمِ الله الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ رافعًا بها صوته ﴿الرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ القُرآنَ﴾ قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون. ماذا قال ابنُ أُمّ عبدٍ؟ قال: ثم قالوا: ليَتْلو بعض ما جاء به محمدٌ، فقاموا إليه، فجعلوا يَضْربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له:

إلى النار[٢]، وقد أملينا في معنى أبواب الجنة وأبواب النار فائدة عددها وتسميتها، وذكر الزَّبَانِيَة، والحكمة في كونهم عددًا قليلاً مسألةً في قريب من جزء، فلتُنظَر هناك.

بهت الرسول ﷺ أن بشرًا يعلّمه:

فصل: وذكر قول قريش: إنما يعلّمه رجل باليمامة يقال له: الرحمـٰن، وإنّا لا نؤمن بالرحمـٰن، فأنزل الله سبحانه: ﴿وهم يَكْفُرُون بالرَّحْمـٰن قل هُوَ رَبِّي﴾ كان مُسَيْلِمَةُ بن حبيب الحنفي، ثم أحد بني الدُّول قد تسمى: الرحمـٰن في الجاهلية، وكان من المعمّرين، ذكر وَثِيمَةُ بن موسى أن مسيلمة تسمى بالرَّحْمـٰن قبل أن يولد عبدُ الله أو رسولُ الله ـ ﷺ ـ.

---

(١) انظر الطبري في تفسيره (١٥/ ١٢٥) وابن كثير في تفسيره (٥/ ١٢٨) والسيوطي في الدر (٤/ ٢٠٧) وابن حجر في الفتح (٨/ ٢٥٨).

(٢) كعب الأحبار من مسلمي أهل الكتاب ـ كثير النقل عنهم.

هذا الذي خَشينا عليك فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليّ منهم الآن، ولئن شئْتم لأُغادينَّهم بمثلها غدًا، قالوا: لا، حَسْبُك، قد أسمعتَهم ما يكرهون[1].

الذين استمعوا إلى قراءة النبي (ﷺ)

قال ابن إسحٰق: وحدّثني محمد بن مُسلم بن شِهاب الزّهري أنه حُدّث: أن أبا سفيان بن حَرْب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وَهْب الثقفيّ حليف بني زُهرة، خرجوا ليلةً؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلّي من الليل في بيته، فأخذ كلّ رجلٍ منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجْرُ تفرَّقوا. فجمعهم الطريقُ، فتلاوَموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تَعودوا، فلو رآكم بعضُ سُفهائكم لأوْقعْتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كلّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجرُ تفرّقوا، فجمعهم الطريقُ، فقال بعضُهم لبعض مثلَ ما قالوا أوّل مرّة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلةُ الثالثة أخذ كلُّ رجل منهم مجلسَه، فباتوا يَسْتمعون له، حتى إذا طلع

كبـيـــر:

وأنشد في تفسير الزَّبانية:

ومــن كَـبِـيــرٍ نَــفَــرٌ زَبـانــيَــة

وجاءت في حاشية كتاب الشيخ على هذا البيت: كبير: حَيٌّ من هُذَيْل قال المؤلف: وفي أسد أيضًا: كبير بن غَنْم بن دُودَان بن أسد، ومن ذريته: بنو جَحْش بن رَيَّان بن يَعْمَر بن صَبْرَة بن مُرَّة بن كبير ولعل الراجز أن يكون أراد هؤلاء، فإنهم أشهر، والله أعلم، وبنو كبير أيضًا: بطن من بني غامد، وهم من الأزد، والذي تقدّم ذكره من هذيل هو: كبير بن طابخة بن لِحْيان بن سعد بن هُذَيل.

حول آيات من القرآن

فصل: وذكر استماع أبي جهل وأبي سفيان والأخنس إلى قول أبي جهل: فلما تَجاذيْنا على الرُّكَب. وقع في الجمهرة: الجاذِي: المُقْعِي على قدميه قال: وربما جعلوا الجاذي والجاثِي سواء.

---

(١) هذا هو أول مَن جهر بالقرآن ـ عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الذي شاهده الناس في أحد الأفلام [الإسلامية] فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الفجرُ تفرّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضُهم لبعض: لا نبرحُ حتى نتعاهد ألاّ نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرّقوا.

فلما أصبح الأخنسُ بن شَريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخْبرني يا أبا حَنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، فقال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعْرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها، قال الأخنسُ: وأنا والذي حلفت به.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جَهْل، فدخل عليه بيتَه، فقال: يا أبا الحَكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمَّد؟ فقال: ماذا سمعتُ، تنازعْنا نحنُ وبنو عبد مناف الشرفَ، أطعَموا فأطْعمنا، وحَمَلوا فحَمَلْنا، وأعْطَوْا فأعْطَينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكَب، وكُنَّا كَفَرَسَيْ رِهان، قالوا: منَّا نبيّ يأتيه الوحيُ من السماء، فمتى نُدْرك مثلَ هذه، والله لا نُؤمن به أبدًا، ولا نصدّقه. قال: فقام عنه الأخنسُ وتركه.

قال ابن إسحٰق: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، قالوا يهزؤون به: ﴿قلُوبنا فِي أكِنَّة مما تدعونا إليه﴾ لا نفقه ما تقول: ﴿وفي آذاننا وَقْر﴾ لا نسمع ما تقول: ﴿ومن بيننا وبينك حجابٌ﴾ قد حال بيننا وبينك ﴿فاعمل﴾ بما أنت عليه ﴿إنَّنا عاملون﴾ بما نحن عليه، إنَّا لا نفقه عنك شيئًا، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قولهم: ﴿وَإذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وبينَ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجابًا مَسْتُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وإذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدْبارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ ـ ٤٦] أي: كيف فَهِمُوا توحيدَك ربَّك إن كنتُ جعلتُ على قلوبهم أكِنَّةً، وفي آذانهم وقرًا، وبينك وبينهم حجابًا بزعْمهم؛ أي: إني لم أفعل ذلك. ﴿نحْنُ أعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إذْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وَإذْ هُمْ نَجوَى إذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧] أي: ذلك ما تواصَوْا به من تَرك ما بعثْتُك به إليهم. ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَك الأمْثالَ فضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سبيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨] أي: أخطؤوا المثل الذي ضَرَبوا لك، فلا يُصيبون به هُدًى، ولا يَعْتدل لهم فيه قول ﴿وَقَالُوا أَإذَا كُنَّا عِظامًا وَرُفاتًا أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: قد جِئْت تُخبرنا: أنَّا سنُبعث بعد موتنا إذا كنَّا عظامًا ورُفاتًا، وذلك ما لا يكون. ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أوْ حديدًا أو خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي

وذكر قول الله سبحانه خبرًا عنهم: ﴿جَعَلْنَا بينك وبين الذين لا يُؤْمِنون بالآخرةِ حِجابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] قال بعضهم: مستور بمعنى: ساتِر كما قال: «وكان وَعْدُه مأْتِيًا» أي: آتيًا، والصحيح أن مستورًا هنا على بابه؛ لأنه حِجابٌ على القلب، فهو لا يُرى.

صُدُورِكُمْ فَسَيقولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكم أولَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١]. أي: الذي خلقكم مما تعرفون، فليس خَلْقُكم من تراب بأعزَّ من ذلك عليه.

قال ابن إسحٰق: حدّثني عبد الله بن أبي نَجيح، عن مُجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ ما الذي أراد اللَّهُ بِه؟ فقال: الموت[1].

ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة

قال ابن إسحٰق: ثم إنهم عَدَوْا على مَن أسْلم، واتَّبع رسولَ الله ـ ﷺ ـ من

وذكر حديث ابن عباس حين سُئِل عن قوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ في صُدوركم﴾ فقال: الموت، وهو تفسير يحتاج إلى تفسير، ورأيت لبعض المتأخرين فيه، قال: أراد ابن عباس أن الموت سَيفْنى كما يفنى كل شيء، كما جاء أنه يُذبح على الصِّراط، فكان المعنى أن لو كنتم حجارة أو حديدًا لأدرككم الفناء والموت، ولو كنتم الموت الذي هو كبير في صدوركم، فلا بُدَّ لكم من الفناء ـ والله أعلم ـ بتأويل ذلك، وقد بقي في نفسي من تأويل هذه الآية شيء، حتى يكمل الله نعمته بفهمها إن شاء الله تعالى ـ وقوله سبحانه: ﴿وَلَّوْا على أدبارهم نُفُورًا﴾ يجوز أن يكون: نفورًا: جمع نافر، فيكون نصبًا على الحال، ويجوز أن يكون مصدرًا مؤكدًا لوَلَّوا. ومما أنزل الله في استماعهم: ﴿ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُون إليك أفأنت تُسْمع الصُّمَّ﴾ [يونس: ٤٢] ألا ترى كيف جمع يستمعون، والحمل على اللفظ إذا قرُب منه أحسن، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وجْهَه إلى الله﴾ فأفرد، حملاً على لفظ مَنْ، وقال في آخر الآية: ولا خوْفٌ عليهم، فجمع حملاً على المعنى، لما بعد عن اللفظ، وهكذا كان القياس في قوله: ﴿ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُون﴾، ولكن لما كانوا جماعة، ونزلت الآية فيهم بأعيانهم، صار المعنى: ومنهم نفر يستمعون، يعني أُولئك النفر، وهم أبو جهل وأبو سفيان والأخنس بن شَرِيق، ألا ترى كيف قال بعد: ﴿ومنهم مَنْ ينظر إليك﴾ فأفرد حملاً على اللفظ لارتفاع السبب المتقدم، والله أعلم.

المُكرَه على الكفر والمعصية

فصل: وذكر تعذيبَ مَن أسلم وطرحَهم في الرَّمْضَاء، وكانوا يُلبسونهم أدراعَ الحديد،

(١) انظر الطبري في تفسيره (١٥/١٨) الدر المنثور للسيوطي (٤/١٨٧).

أصحابه، فوثَبَتْ كلُّ قبيلةٍ على مَن فيها من المسْلِمينَ، فجعلوا يحْبِسُونهم ويعذِّبونهم بالضرب والجوع والعَطش، وبرَمْضاء مكة إذا اشتدَّ الحرّ، مَنْ استضعفوا منهم، يَفْتنونهم عن دينِهِمْ، فمنهم مَن يُفْتن من شدّة البلاء الذي يُصيبه، ومنهم مَن يَصْلُب لهم، ويَعْصِمه الله منهم.

تعذيب بلال وعتقه[1]:

وكان بلالٌ مَوْلى أبي بكر رضي الله عنهما، لبعض بني جُمَح، مُوَلَّدًا من مولديهم، وهو بلالُ بن رباح، وكان اسْمُ أُمّه: حَمامة، وكان صادقَ الإسلام طاهرَ القَلب، وكان أُميَّة بن خَلَف بن وَهْب بن حُذافة بن جُمَح يُخرجه إذا حميت الظَّهيرةُ، فيطْرَحه على ظهره في بَطحَاء مكة، ثم يأمر بالصَّخرة العظيمة فتوضع على صَدْره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أوْ تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى؛ فيقول وهو في ذلك البلاء: أحَدٌ أحَدٌ.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان وَرَقة بن نوفل يمرّ به وهو يعذّب بذلك، وهو يقول: أحَد أحد، فيقول: أحَدٌ، أحَدٌ والله يا بلال، ثم يُقْبِل على أُميّة بن خَلف، ومن يَصْنع ذلك به من بني جُمح، فيقول: أحلفُ بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنَّه حَنَانًا[2]، حتى مرَّ به أبو بكر الصدّيق بن أبي قُحافة ـ رضي الله عنه ـ يومًا، وهُم يضْنعون ذلك به، وكانت دارُ أبي بكر في بني جُمَح، فقال لأُمية بن خَلف: ألا تتقي الله في هذا المِسْكين؟! حتى متى؟ قال: أنت الذي أفسدته، فأنقِذْه مما ترى، فقال أبو بكرٍ: أفعلُ عندي غلام أسودُ أجْلَدُ منه وأقوى، على دينك، أُعْطيكه به، قال:

حتى أعطوهم بألسنتهم ما سألوا من كلمة الكفرِ إلا بلالاً ـ رحمه الله ـ وأنزل الله فيهم: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِه وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾ ونزل في عَمّارٍ وأبيه: ﴿إلاَّ أنْ تَتَّقُوا منهم تُقَاةً﴾[3] ولما كان الإيمانُ أصلهُ في القلب، رخص للمؤمن في حال الإكراه أن يقول بلسانه إذا خاف على نفسه

---

(١) انظر ترجمته في أسد الغابة (١/٢٤٣) الإصابة (١/١٧٠) الاستيعاب (١/١٧٨) صفة الصفوة (١/٤٣٤) سير أعلام النبلاء (١/٣٤٧) حلية الأولياء (١/١٤٧) شذرات الذهب (١/٣١) الإكمال (٤/١١).

(٢) الحنان: الرحمة والعطف والرزق. وقال صاحب النهاية: أراد لأجعلنّ قبره موضع حنان أي مظنة من رحمة الله تعالى فأتمسح به تبركًا فيرجع ذلك عارًا عليكم.

(٣) الأشهر أن الآية الأولى نزلت في حق عمار بن ياسر رضي الله عنهما، والثانية لا مناسبة بينها وبين حديث الباب.

قد قبلتُ فقال: هو لك. فأعطاه أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه غلامَه ذلك وأخذه فأعتقه[1].

من عتقاء أبي بكر:

ثم أعْتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستّ رقاب، بلال سابعُهم: عامر بن فُهَيرة، شَهِد بدرًا وأُحُدًا، وقُتِل يوم بئر مَعُونة شهيدًا، وأُمّ شُمَيْس وَزِنِّيرة، وأُصيب بصرُها حين أعتقها، فقالت قُريش: ما أذهب بصرَها إلا اللات والعُزّى؛ فقالت: كذَبُوا ـ وبيت الله ـ ما تضرّ اللات والعُزّى، وما تَنفعان، فردّ اللّهُ بصرَها[2].

وأعتق النَّهدية وبنتَها، وكانتا لامرأة من بني عَبْد الدار، فمرّ بهما وقد بعثتهما سَيدتُهما بطَحين لها، وهي تقول: والله لا أُعْتقكما أبدًا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلاً يا أُمّ فلان، فقالت: حِلٌّ، أنت أفسدتَهما فأعْتِقهما؛ قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا، قال: قد أخذتُهما وهما حُرّتان، أرْجعا إليها طَحينها، قالتا: أوَ نَفْرُغ منه يا أبا بكر، ثم نردّه إليها؟! قال: وذلك إن شِئتُما.

حتى يأمن. قال ابن مسعود: ما من كلمة تدفع عني سَوْطين إلا قُلْتُها هذا في القول، فأما الفعل، فتنقسم فيه الحال: فمنه ما لا خلاف في جوازه كشرب الخمر، إذا خاف على نفسه القتل، وإن لم يخف إلا ما دون القتل، فالصبر له أفضل، وإن لم يخف في ذلك إلا كسجن يوم، أو طرف من الْهوَان خفيف، فلا تحل له المعصية من أجل ذلك، وأما الإكراه على القتل، فلا خلاف في حظْره؛ لأنه إنما رخص له فيما دون القتل، ليدفع بذلك قتل نفس مؤمنة، وهي نفسه، فأما إذا دَفَع عن نفسه بنفسٍ أخرى، فلا رُخْصَة، واختلف في الإكراه على الزّنى، فذكر عن ابن الماجشُونِ أنه قال: لا رُخْصَة فيه؛ لأنه لا ينتشر له إلا عن إرادة في القلب أو شهوة، وأفعالُ القلبِ لا تُباح مع الإكراه، وقال غيره: بل يرخص في ذلك لمَن خاف القتل؛ لأن انبعاث الشهوة عند الْمُمَاسَّة بمنزلة انبعاث اللعاب عند مَضْغ الطعام، وقد يجوز أكل الحرام إذا أُكره عليه.

فصل: واختلف الأصوليون في مسألة من الإكراه، وهي: هل المُكْرَه على الفعل مخاطَبٌ بالفعل، أم لا؟ فقالت المعتزلة: لا يصحّ الأمر بالفعل مع الإكراه عليه، وقالت الأشعرية: ذلك جائز؛ لأن العزم إنما هو فعل القلب، وقد يتصور منه في ذلك الحين

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٥٨٩) المنتظم لابن الجوزي (٢/ ٣٧٣).
(٢) الكامل (١/ ٥٩١).

ومرّ بجارية بني مُؤَمَّل، حيّ من بني عديّ بن كعب، وكانت مسلمةً، وعمرُ بن الخطاب يُعذّ بها لتترك الإسلام، وهو يومئذ مشركٌ وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركْك إلا مَلاَلَةً، فتقول: كذلك فَعل الله بك، فابتاعها أبو بكر، فأعتقها.

بين أبي بكر وأبيه:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني محمد بن عبد الله بن أبي عَتيق، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن بعض أهله[1]، قال:

قال أبو قحافة لأبي بكر: يا بُنَيَّ، إني أراك تُعْتِق رِقابًا ضِعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْدًا يمنعونك، ويقومون دونَك؟ قال: فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبتِ، إني إنما أُريد ما أُريد، لله عزّ وجل، قال: فيُتحدّث أنه ما نزّل هؤلاء الآياتُ إلا فيه، وفيما قال له أبوه: ﴿فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى وَصَدَّقَ بالحُسْنَى﴾ [الليل: ٥، ٦]... إلى قوله تعالى: ﴿وَما لأحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلاَّ ابْتِغاء وَجْهَ رَبِّهِ الأعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١].

العزم والنيّة، وهي القصد إلى امتثال أمر الله تعالى، وإن كان ظاهره أنه يفعله خوفًا من الناس، وذلك إذا أُكره على فرض كالصلاة مثلاً، إذا قيل: صَلِّ وإلا قُتلت، وأما إذا قيل له: إن صلّيت قُتلت، فظن القاضي أن الخلاف بيننا، وبين المعتزلة في ذلك، وغلطه بعض أصحابه، وقالوا: لا خلاف في هذه المسألة أنه مخاطَب بالصلاة مأمور بها، وإن رخّص له في تركها، فليس الترخيص مما يُخرجه عن حكم الخطاب، وإنما يرفع عنه الإكراهُ المأثَم، ولا يخرجه عن أن يكون مخاطبًا بها، وهذا الغلط المنسوب إلى القاضي في هذه المسألة ليس بقول له، وإنما حكاه في كتاب التقريب والإرشاد عن طائفة من الفقهاء. قالوا: لا يتصوّر القصد والإرادة للفعل مع الإكراه عليه. قال القاضي: وهذا باطل؛ لأنه يتصوّر انكفافه عنه مع الإكراه، فكذلك يتصور منه القصد إلى الامتثال له، وبه يتعلق التكليف، فإنما غلط من نسب إليه من الأصوليين هذا القول الذي أبطله، وبين بطلانه، وإنما ذكرت ما قالوه قبل أن أرى كلامه في المسألة، وأقف على حقيقة مذهبه، وهو بريء من الغلط فيها.

---

(١) مجاهيل.

تعذيب عمار بن ياسر

قال ابن إسحٰق: وكانت بنو مَخْزُوم يَخْرجون بعمَّار بن ياسر، وبأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حَميتِ الظهيرةُ، يُعذّبونهم برَمْضاء مكة، فيمرّ بهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيقول، فيما بلغني: صبرًا آل ياسر، موعدُكم الجنّة. فأمّا أُمُّه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام[1].

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغْرِي بهم في رجال من قريش، إذا سَمِع بالرجلِ قد أسلم، له شرف ومَنَعة أنَّبه وأخْزاه، وقال: تركتَ دِين أبيك وهو خير منك: لَنُسَفِّهَنّ حِلْمَكَ ولنُفَيِّلَنّ[2] رأيَك، ولنضعنّ شرفَك، وإن كان تاجرًا، قال: والله لنُكَسِّدنّ تجارتك، ولنُهلكنّ مالك، وإن كان ضعيفًا ضَربه وأغرى به.

فتنة المعذبين:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني حَكيم بن جُبير عن سَعيد بن جُبير، قال: قلت لعبد الله بن عبَّاس: أكان المشركون يَبْلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما

آل ياسر

فصل: وذكر فيمن عُذِّب في الله: سُمَيَّةَ أُمَّ عمار، وقد ذكرنا قتلَ أبي جهلٍ لها، وهي أول شهيد في الإسلام، ورُوِيَ أن عمّارًا قال لرسول الله ﷺ: لقد بلغ منّا العذابُ كلّ مبلغ، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: «صبرًا أبا اليقظان»، ثم قال: «اللّٰهمَّ لا تعذّب أحدًا من آل عمار بالنار»، وسُمَيَّة أمه، وهي بنت خَيَّاط، كانت مَوْلاة لأبي حُذَيْفة بن المغيرة، واسمه مُهَشِّم، وهو عمّ أبي جهل، وغلط ابن قُتَيْبة فيها، فزعم أن الأزرق مولى الحارث بن كَلَدة خلف عليها بعد ياسر، فولدت له سلَمَة بن الأزرق، وقال أهل العلم بالنساء: إنما سُمَيَّةُ أم سلمة بن الأزرق سُمَيَّةُ أخرى، وهي أُم زياد بن أبي سفيان، لا أُمّ عمار، وعمارٌ والْحُوَيْرِث وعبود بنو ياسر بن عامر بن مالك بن كِنانة بن قيس بن الحُصَين بن لوذين، ويقال الْوَذِيم بن ثَعْلَبَةَ بن عوف بن عامر بن حارثة بن زيام بن عَنْس بن مالك بن أُدَدَ بن زيْد الْعَنسِيّ الْمَذْحِجِيّ حليف لبني مخزوم، ومن ولد عمار: عبدُ الله بن سعد بن الحسن بن عثمان بن الحسن بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر، وهو المقتول بالأندلس، قتله عبد الرحٰمن بن معاوية.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٤٠) وغيرها. وانظر الكامل (١/ ٥٨٩).

(٢) أي نحط من رأيك.

يُعذَرون به في تَرْك دينهم؟ قال: نعم، والله، إن كانوا لَيَضْربون أحدهم، ويُجيعونه، ويُعطِّشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدّة الضُّرِّ الذي نزل به، حتى يُعطيهم ما سألوه من الفِتْنة، حتى يقولوا له: آللاَّتُ والعُزَّى إلـٰهُك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجُعَل[1] ليمرّ بهم، فيقولون له: أهذا الجُعَل إلـٰهُك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداءً منهم ممَّا يبلغون من جَهْده.

رفض تسليم الوليد لتقتله قريش:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني الزبيرُ بن عُكَّاشة بن عبد الله بن أبي أحمد أنه حُدِّث أن رجلاً من بني مَخزوم مَشَوْا إلى هشام بن الوليد، حين أسْلم أخوه الوليدُ بن الوليد، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتيةً منهم كانوا قد أسلَموا، منهم: سَلَمةُ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة. قال: فقالوا له ـ وخشُوا شَرّهم: إنّا قد أردنا أن نُعاتِب هؤلاء الفِتْية على هذا الدين الذي أحدثوا، فإنَّا نأمن بذلك في غيرهم. قال: هذا، فعليكم به. فعاتبوه وإياكم ونفسَه. وأنشأ يقول:

ألا لا يُـقْـتَـلَـنَّ أخـي عُـيَـيْـشٍ ... فـيـبـقـى بـيْـنـنـا أبـدًا تَـلاحِـي

زنيرة وغيرها:

فصل: وذكر زِنِّيرةَ التي أعتقها أبو بكر، وأول اسمهما: زاي مكسورة بعدها نون مكسورة مشددة على وزن فِعِّيلة، هكذا صحّت الرواية في الكتاب، والزِّنِّيرَة: واحدة الزنانير، وهي الحصا الصغار، قاله أبو عبيدة، وبعضهم يقول فيها: زَنْبرة بفتح الزاي وسكون النون وباء بعدها، ولا تُعرف زَنْبَرة في النساء، وأما في الرجال فَزَنْبَرَةُ بن زُبير بن مخزوم بن صَاهِلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هُذَيل بن مُدْركة بن إلياس بن مُضَر، وابنه: خالد بن زَنْبَرَة، وهو الغَرِقُ قاله الدارقطني.

أُم عميس:

فصل: وذكر أُمَّ عُمَيْسٍ[2]، وكانت لبني تَيْم بن مُرَّة أعتقها أبو بكر، وذكر غير ابن إسحٰق هؤلاء الذين عُذِّبوا في الله لما أعطوا بألسنتهم ما سُئِلوا من الكفر، جاءت قبيلةُ كل رجل منهم بأنْطَاعِ الأُدُمِ فيها الماء، فوضعوهم فيها، وأخذوهم بأطراف الأنطاعِ، واحتملوهم إلاَّ بلالاً.

---

(١) الجعل: الخنفساء.

(٢) وقيل: عبيس.

احذروا على نفسه، فأُقسم بالله لئن قتلتموه، لأقتلنّ أشرفكم رجلاً. قال: فقالوا: اللّهمّ العنه. مَن يُغرّر بهذا الخبيث، فوالله لو أُصيب في أيدينا لقُتل أشرفنا رجلاً. قال: فتركوه ونَزَعوا عنه. قال: وكان ذلك مما دفع الله به عنهم.

عـن بـلال:

وقول وَرَقَة بن نَوْفَل: لئن قَتَلْتُمُوه يعني: بلالاً، وهو على هذا الحال لأَتَّخِذَنَّه حنانًا أي: لأَتَّخِذَنّ قبره مَنْسكًا ومُسْتَرْحمًا. والحنان: الرحمة، وكان بلال رحمه الله يكنّى: أبا عبد الكريم، وقيل: أبا عبد الله، وأُخته غُفْرَة، وقد تقدم في أول الكتاب ذكر عمر مولى غُفْرَة، وهي هذه. والْغُفْرَةُ: الأُنثى من أولادِ الأرَاوِيّ، والذكر: غُفْر.

ذكر الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة[1]

قال ابن إسحٰق: فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ما يُصيب أصحابَه من البلاء. وما هو فيه من العافية. بمكانه من الله، ومن عمّه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يَمْنعهم مما هم فيه من البلاء. قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشَة، فإنّ بها مَلِكًا لا يُظلم عنده أحد. وهي أرض صِدْق، حتى يجعلَ الله لكم فرجًا ممَّا أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أرض الحبشة، مخافةَ الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم. فكانت أوّلَ هجرة كانت في الإسلام.

أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة:

وكان أوّلَ مَن خرج من المسلمين من بني أُمَيَّة بنِ عَبْد شَمْس بن عبد مناف بن

باب الهجرة إلى أرض الحبشة

وقد ذكرنا نسب الحبشة في أول الكتاب، وأما النجَّاشِيُّ فاسم لكل ملك يلي الحبشة، كما أن كِسْرى اسم لمَن ملك الفرس، وخاقان اسم لملك الترك كائنًا مَنْ كان، وبَطْلَيْمُوسُ: اسم لمَن مَلَك يُونَانَ، وقد ذكرنا هذا المعنى قبل، واسم هذا النجاشي: أَصْحَمَة بن أَبْجَر، وتفسيره: عطية.

وذكر في أول مَن خرج إلى الحبشة: عثمانَ بن عَفَّان وزوجَه رقية بنت رسول الله ـ ﷺ ـ وكان حين تزوجَها يغَنِّيها النساءُ:

أَحْسنُ شخصين رأى إنسان ... رُقَيَّةُ وبَعْلُها عُثْمان

---

(١) انظر الكامل (١/٥٩٦) المنتظم (٢/٣٧٤).

قُصَيّ بن كلاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لُؤَيّ بن غالب بن فهْرٍ: عثمانُ بن عفَّان بن أبي العاص بن أمية، معه امرأتُه: رُقيَّة بنتُ رسول الله - ﷺ - ومن بَني عبد شَمْس بن عبد مناف: أبو حُذيفة بن عُتْبة بن رَبيعة بن عَبْد شَمْس، معه امرأتهُ: سَهْلَةُ بنت سُهَيْلِ بن عمرو، أحد بني عامر بن لُؤَيّ، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حُذَيفة. ومن بَني أسَد بن عبد العُزّى بن قصيّ: الزُّبير بن العوّام بن خُوَيلد بن أسَد. ومن بَني عبد الدار بن قُصَيّ: مُصْعب بن عُمَير بن هاشم بن عبْد مناف بن عبد الدار. ومن بني زُهرة بن كِلاب: عبد الرحمن بن عَوف بنَ عَبْد عَوْف بن عبد بن الحارث بن زُهرة. ومن بني مَخزوم بن يَقَظة بن مُرّة: أبو سَلَمة بن عبد الأسد بن هِلال بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم، معه امرأتهُ أُمُّ سَلَمة بنت أبي أُميَّة بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مَخْزُوم. ومن بني جُمَح بن عمرو بن هُصيص بن كعب: عثمانُ بن مَظْعون بن حَبيب بن وَهْب بنُ حُذافة بن جُمح. ومن بني عديّ بن كعب: عامرُ بن رَبيعة، حليف آل الخطَّاب، من عَنز بن وائل معه امرأته: لَيلى بنت أبي حَثْمة بن حُذَيْفة بن غانم بن

ولدت رقية لعثمان ابنَه عبد الله، وبه كان يكنّى، ومات عبد الله وهو ابن ستّ سنين، وكان سبب موته أن ديكًا نقره في عينه، فتورّم وجهه فمرض، فمات. وذلك في جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، ثم كنّي بعد ذلك أبا عمرو، وهذا هو عبد الله الأصغر. وعبد الله الأكبر هو ابنه من فاختة بنت غَزْوَان، وأكبر بنيه بعد هذين: عَمرو، ومن بنيه عُمر وخالد وسعيد والوليد والمغيرة وعبد الملك وأبَانٌ، وفي السيرة من غير هذه الرواية أن رقية كانت من أحسن البشر، وأن رجالاً من الحبشة رأوها بأرضهم، فكانوا يُدَرْكِلون[1] إذا رأوها إعجابًا منهم بحُسْنها، فكانت تتأذى بذلك، وكانوا لا يستطيعون لغربتهم أن يقولوا لهم شيئًا، حتى خرج أولئك النفر مع النَّجَاشِي إلى عدوه الذي كان ثار عليه، فقتلوا جميعًا، فاستراحت منهم، وظهر لنجاشي على عدوّه، وروى الزبير في حديث أسنده أن رسول الله - ﷺ - بعث رجلاً بِلُطُفٍ إلى عثمان ورقية، فاحتبس عليه الرسول، فقال له عليه السلام: «إن شئت أخبرتك ما حبسك»، قال: نعم، قال: وقفت تنظر إلى عثمان ورقية تعجب من حسنهما».

وذكر ابن إسحٰق تسمية المهاجرين إلى أرض الحبشة، وقد تقدم التعريف ببعضهم، وذكرنا سبب إسلام عمرو بن سعيد بن العاصي، وأنه رأى نورًا خرج من زمزم أضاءت له منه نخل المدينة، حتى رأوا البُسْرَ فيها، فقصّ رؤياه، فقيل له: هذه بئر بني عبد المطلب، وهذا النور فيهم يكون، فكان سببًا لِبدارِه للإسلام.

---

(١) يدركلون: أي يرقصون.

عامر بن عبد الله بن عَوْف بن عبيد بن عُوَيج بن عديّ بن كعب. ومن بني عامر بن لُؤَيّ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزّى بن أبي قَيْس بن عبد وُدّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسل بن عامر.

ويقال: هو أول مَن قَدِمها. ومن بني الحارث بن فهر: سهيل ابن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث. فكان هؤلاء العشرة أول مَن خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة، فيما بلغني.

قال ابن هشام: وكان عليهم عثمان بن مظعون، فيما ذكر لي بعض أهل العلم.

قال ابن إسحٰق: ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وتتابع المسلمون، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فكانوا بها، منهم مَن خرج بأهله معه، ومنهم مَن خرج بنفسه لا أهل له معه.

المهاجرون من بني هاشم وبني أمية:

ومن بني هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب بن فهر: جعفرُ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، معه امرأتهُ: أسماء بنت عُمَيْس بن النعمان بن كعب بن مالك بن قحافة بن خَثْعم، ولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن جعفر، رجل.

ومن بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، معه امرأتهُ: رقية ابنة رسول الله ﷺ، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأتُه: فاطمةُ بنت صَفْوان بن أمية بن مُحَرِّث بن حَمَلِ بن شِقِّ بن

رؤيا سعد وخالد ولديّ العاص:

وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذه الرؤيا إنما كانت لأخيه، وأن عَمرًا هو الذي عبّرها له، وهذا هو الصحيح فيها، والله أعلم، وأما أخوه خالد بن سعيد، فكان يرى ـ قبل أن يسلم ـ نفسه قد أشفى على نار تأجّجُ، وكأن رسول الله ـ ﷺ ـ قد أخذ بِحُجْزَتهِ[1]، يصرفه عنها، فلما استيقظ علم أن نجاته من النار على يدي رسول الله ـ ﷺ ـ فلما أظهر إيمانه ضربه أبوه بِمِقْرَعَةٍ، حتى كسرها على رأسه، وحلف ألاّ ينفق عليه، وأغرى به إخوته، فطردوه وآذَوه،

(١) أي بمقدار إزاره.

رَقَبَةَ بن مُخْدِجٍ الكناني، وأخوه خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، معه امرأته: أُمَيْنَةُ بنت خلف بن سعد بن عامر بن بَياضة بن سُبَيْع بن جُعْثُمة بن سعد بن مُلَيْح بن عمرو، من خزاعة.

قال ابن هشام: ويقال: هُمَيْنة بنت خلف.

قال ابن إسحٰق: ولدت له بأرض الحبشة سَعيدَ بن خالد، وأمَةَ بنت خالد، فتزوج أمَةَ بعد ذلك الزبيرُ بن العوام، فولدت له عمرو بن الزبير، وخالد بن الزبير.

المهاجرون من بني أسد وبني عبد شمس:

ومن حلفائهم، من بني أسد بن خزيمة: عبد الله بن جَحْش بن رِئاب بن يَعْمَر بن صَبِرَة بن مُرّة بن كَبير بن غَنْم بن دُودان بن أسَد؛ وأخوه عُبيد الله بن جَحْش، معه امرأته: أمّ حَبيبة بنتُ أبي سُفْيان بن حَرْب بن أُميَّة، وقيسُ بن عبد الله، رجل من بني أسد بن خُزَيمة، معه امرأتُه بَرَكة بنت يَسار، مولاة أبي سُفيان بن حَرْب بن أمية، ومُعَيْقيب بن أبي فاطمة، وهؤلاء آلُ سَعيد بن العاص، سبعة نفر.

قال ابن هشام: مُعيقيب من دَوْس.

قال ابن إسحٰق: ومن بني عَبْد شَمْس بن عَبْد مناف، أبو حُذَيفة بن عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شمس، وأبو موسى الأشعريّ، واسمه: عبدُ الله بن قَيْس حليف آل عتبة بن ربيعة، رجلان.

المهاجرون من بني نوفل وبني أسد:

ومن بني نَوْفل بن عَبْد مناف: عُتْبةُ بن غَزْوان بن جابر بن وهْب بن نَسيب بن مالك بن الحارث بن مازن بن مَنصور بن عِكْرِمة بن خَصَفة بن قَيْس بن عَيْلان، حليف لهم، رجل.

ومن بني أسَد بن عبد العُزّى بن قُصَيّ: الزبيرُ بن العوّام بن خُوَيلد بن أسد، والأسودُ بن نَوْفل بن خُوَيلد بن أسَد، ويزيد بن زَمْعَة بن الأسود بن المُطَّلب بن أسَد. وعمرو بن أُميَّة بن الحارث بن أسَد، أربعة نفر.

فانقطع إلى رسول الله - ﷺ - حتى هاجر إلى أرض الحبشة - كما ذكر ابن إسحٰق - وأبوه سعيد بن العاصي أبو أُحَيْحَة الذي يقول فيه القائل:

أبو أحيحة:

أبـو أُحَـيْـحَـةَ مَـنْ يَـعْـتَـمُّ عِـمَّـتَـه ... يُـضْـرَب وإن كـان ذا مـال وذَا عَـدد

المهاجرون من بني عبد بن قصيّ وعبد الدار ولدي قصيّ:

ومن بني عَبْد بن قُصَيّ: طُليب بن عُمير بن وهب بن أبي كثير بن عبد [بن قُصَي] رجل.

ومن بني عبد الدّار بن قُصَيّ: مُصْعب بن عُمَير بن هاشم بن عبد مناف بن عَبْد الدار، وسُوَيط بن سَعْد بن حَرْملة بن مالك بنُ عُمَيلة بن السَّبَّاق بن عبد الدار، وجَهْم بن قَيْس بن عبد شُرَحْبيل بن هاشم بن عَبْد مناف بن عبد الدار معه امرأتُه أُم حَرْملة بنت عبد الأسود بن جذيمة بن أُقَيْشِ بن عامر بن بيَاضة بن سُبيع بن جُعْثُمة بن سَعْد بن مُليح بن عمرو، من خزاعة، وابناه: عَمْرو بن جَهْم وخُزيمة بن جَهْم، وأبو الرّوم بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عَبْد الدار، وفِراس بن النَّضْر بن الحارث بن كَلَدة بن علْقمة بن عبد مناف بن عبد الدار، خمسة نفر.

المهاجرون من بني زهرة وبني هذيل وبهراء:

ومن بني زُهرة بن كِلاب: عبدُ الرحمن بن عَوْف بن عبد عوف بن عَبْد بن الحارث بن زُهرة، وعامر بن أبي وقَّاص، وأبو وقاص: مالك بن أُهيب بن عَبْد مناف بن زُهْرة، والمطَّلب بن أزهر بن عبد عَوف بن عَبْد بن الحارث بن زُهرة، معه امرأته: رَمْلة بنت أبي عَوْف بن ضُبيرة بن سُعيد بن سَعْد بن سَهْم، وولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطَّلب.

ومن حُلفائهم من هُذيل: عبدُ الله بن مَسْعود بن الحارث بن شَمْخ بن مَخْزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل، وأخوه: عُتْبة بن مَسْعود.

وكان إذا اعْتَمَّ لم يعتمّ قرشي إعظامًا له، وقد قيل في عِمَّتِه أيضًا ما أنشده عَمْرو بن بحر الجاحظ[1]:

وكان أبو أُحَيْحَةَ قد علمتم ... بمكة غير مُهْتَضَمٍ ذميم
إذا شَدَّ العصابةَ ذاتَ يَوْمٍ ... وقام إلى المجالس والخصوم
لقد حَرُمت على مَنْ كان يمشي ... بمكة غير مُحْتَقَرٍ لئيم

مات أُحَيْحَة الذي كان يُكْنَى به في حرب الفِجَار، وأسلم من بنيه أربعةٌ أَبَانٌ وخالدٌ

---

(١) في «البيان والتبيين» له الأبيات لأبي قيس بن الأسلت.

ومن بَهْرَاء: الْمِقْدادُ بن عمرو بن ثَعْلبة بن مالك بن رَبيعة بن ثُمامة بن مَطْرود بن عمرو بن سعد بن زُهير بن لؤي بن ثعلبة بن مالك بن الشَّرِيد بن أبي أَهْوَز بن أبي فائش بن دُرَيم بن القَيْن بن أَهْوَد بن بَهْراء بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة.

قال ابن هشام: ويقال هَزْل بن فاس بن ذرّ، ودَهِير بن ثور.

قال ابن إسحٰق: وكان يقال له: المِقداد بن الأسود بن عَبْد يَغُوثَ بن وهب بن عَبْد مناف بن زُهْرة، وذلك أنه تبنَّاه في الجاهلية، وحالفه، ستة نفر.

المهاجرون من بني تميم وبني مخزوم:

ومن بني تَيْم بن مرّة: الحارثُ بن خالد بن صَخْر بن عامر بن عمرو بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم، معه امرأتهُ رَيْطة بنت الحارث بن جَبَلة بن عامر بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم، وَلَدت له بأرض الحبَشة موسى بن الحارث، وعائشة بنت الحارث، وزينب بنت الحارث، وفاطمةَ بنت الحارث، وعمرُو بن عثمان بن عمرو بن كَعْب بن سَعْد بن تَيْم، رجلان.

ومن بني مَخْزوم بن يَقَظة بن مُرّة: أبو سَلمة بن عبد الأسَد بن هِلال بن عبد الله بن عمر بن مَخْزوم، ومعه امرأتُه: أُم سَلمة بنت أبي أُميَّة بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مَخْزوم، ولدت له بأرض الحبشة زينب بنت أبي سَلَمة، واسم أبي سَلَمة: عبد الله واسم أُمّ سلمة: هند. وشَمَّاس بن عثمان بن الشَّريد بن سُويد بن هَرْمِيّ بن عامر بن مَخزوم.

من سيرة الشماس:

قال ابن هشام: واسم شماس: عثمان، وإنما سُمِّي شَمَّاسًا؛ لأن شماسًا من الشماسة، قدِمَ مكّة في الجاهلية، وكان جميلاً فعجب النَّاس من جماله، فقال عتبةُ بنُ ربيعة ـ وكان خالَ شماسٍ: أنا آتيكم بشماس أحسنَ منه، فجاء بابن أُخته عثمانَ بن عثمان، فسُمِّي: شَمَّاسًا. فيما ذكر ابنُ شهاب وغيرُه.

قال ابن إسحٰق: وهَبَّار بن سفيان بن عبد الأسد بن هِلال بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم، وأخوه عبد الله بن سفيان، وهشام بن أبي حُذيفة بن المُغيرة بن عبد الله بن

وعمرو والحكم الذي سَمَّاه رسول الله ـ ﷺ ـ عبدَ الله، ومات أُحَيْحَة بن سعيد، والعاصي بن سعيد وغيرهما من بنيه على الكفر، قتل العاصي منهم يوم بدر كافرًا.

عُمر بن مَخزوم، وسَلَمة بن هشام بن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخزوم، وعيَّاش بن أبي رَبيعة بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مَخْزوم.

المهاجرون من حلفاء بني مخزوم ومن بني جمح:

ومن حلفائهم: مُعتِّب بن عَوْف بن عامر بن الفَضْل بن عَفيف بن كُلَيب بن حَبَشية ابن سَلُول بن كَعْب بن عمرو، من خُزاعة، وهو الذي يُقال له: عَيْهامة، ثمانية نَفر.

قال ابن هشام: ويقال: حُبْشية ابن سلول، وهو الذي يقال له مُعَتِّب بن حمراء.

ومن بني جُمح بن عَمْرو بن هُصَيص بن كعب: عثمانُ بن مَظعون بن حَبيب بن وَهب بن حُذافة بن جُمح، وابنه: السائب بن عثمان، وأخواه: قُدامة بن مَظعون، وعبدُ الله بن مَظْعون، وحاطب بن الحارث بن مَعْمر بن حَبيب بن وَهب بن حُذافة بن جُمح، معه امرأتُهُ: فاطمةُ بنت الْمُجَلِّل بن عبد الله بن أبي قَيْسٍ بن عبد وُدّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وابناه: محمد بن حاطب، والحارث بن حاطب، وهما لبنت المُجَلِّل، وأخوه: حطَّاب بن الحارث، معه امرأتُه فُكيهة بنت يسار، وسفيان بن مَعْمر بن حَبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح، معه ابناه جابر بن سُفيان، وجُنادة بن سفيان، ومعه امرأته حَسَنة، وهي أُمهما، وأخوهما من أُمهما: شُرَحْبِيل ابن حَسَنة، أحد الغوث.

قال ابن هشام: شرحبيل بن عبد الله أحدُ الغوث بن مُرّ، أخي تميم بن مُرّ.

المهاجرون من بني سهم وبني عدي وبني عامر:

قال ابن إسحٰق: وعثمان بن ربيعة بن أُهْبان بن وَهْبَ بن حُذافة بن جُمَح، أحدَ عشرَ رجلاً.

أمة بنت خالد وأبوها:

وذكر أَمَةَ بنت خالد بن سعيد التي ولدت بأرض الحبشة، قال: وتزوجها الزبير بن العوام، وهي التي كساها رسول الله ـ ﷺ ـ وهي صغيرة، وجعل يقول: سَنَّاهْ، سَنَاهْ يا أُم خالد!! أي: حَسَنٌ حَسَنٌ[1] بلغة الحبشة، وكانت قد تعلمت لسان الحبشة؛ لأنها ولدت بأرضهم، وولدت للزبير عمرًا وخالدًا، يقال: إن أباها خالد بن سعيد أول مَن كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، مات بأجْنَادَيْنِ شهيدًا، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ قد استعمله على صَنْعَاءَ

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٩٠) وأبو داود والحاكم (٢/ ٩٢٤) وأحمد (٦/ ٣٦٥).

ومن بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعْب: خَنيس بن حُذافة بن قَيْس بن عديّ بن سعد بن سَهْم، وعبد الله بن الحارث بن قَيْس بن عديّ بن سعد بن سهل، وهشام بن العاص بن وائل بن سعد بن سهم.

قال ابن هشام: العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سهم.

قال ابن إسحـٰق: وقَيس بن حُذافة بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سهم، وأبو قيس بن الحارث بن قَيْس بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سَهم، وعبد الله بن حُذافة بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهم، والحارث بن الحارث بن قَيْس بن عدي بن سعد بن سَهم، ومَعْمر بن الحارث بن قَيس بن عدي بن سعد بن سَهم، وبِشْر بن الحارث بن قَيْس بن عديّ بن سعد بن سهم، وأخ له من أُمه من بني تميم، يقال له: سعيد بن عمرو، وسعيد بن الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم، والسائب بن الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد بن سهم، وعُمير بن رِئاب بن حُذَيفة بن مُهشِّم بن سعد بن سهم، ومَحْمِيَة بن الجزاء، حليف لهم، من بني زُبيد، أربعة عشر رجلاً.

ومن بني عديّ بن كعب: مَعْمَرُ بن عبد الله بن نَضْلة بن عبد العُزّى بن حُرْثَان بن عوف بن عُبيد بن عُوَيج بن عديّ، وعروة بن عبد العزّى بن حُرثان بن عَوْف بن عبيد بن عويج بن عديّ، وعديّ بن نَضْلة بن عبد العُزّى بن حُرثان بن عَوْف بن عُبيد بن عُوَيج بن عديّ، وابنه النعمانُ بن عديّ، وعامر بن رَبيعة، حليف لآل الخَطّاب، من عَنْزِ بن وائل، معه امرأتُه: ليلى بنت أبي حَثْمة بن غانم. خمسة نفر.

ومن بني عامر بن لُؤَيّ: أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزّى بن أبي قَيْس بن عبد وُدّ بن نَضر بن مالك بن حِسْل بن عامر، معهُ امرأته: أُم كلثوم بنت سُهيل بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وعبد الله بن مَخْرمة بن عبد العزّى بن أبي قَيْس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وعبد الله بن سُهيل بن عمرو بن عبد شَمْس بن عبد ودّ بن نَضْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وسَلِيط بن عَمْرو بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نَضْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وأخوه: السَّكران بن عَمْرو، معه امرأتُهُ: سَوْدة بنت زَمْعَةَ بن قَيْس بن

واليمن، فلما توفي رسول الله ـ ﷺ ـ أراد أبو بكر أن يستعمله، فقال: لا أعمل لأحدٍ بعد رسول الله ـ ﷺ ـ أبدًا، ويُروى أن أباه سعيد بن العاصي مرض، فقال: إن رفعني الله من مرضي لا يعبد إلـٰه ابن أبي كَبْشَة بمكة أبدًا، فقال ابنه خالد: اللَّهمَّ لا ترفعه فهلك مكانه، نهؤلاء بنو سعيد بن العاصي بن أُمية:

عبد شَمْس بن عبد ودّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، ومالك بن زَمْعَةَ بن قَيْس بن عبد شَمْس بن عبد ودّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، معه امرأتُه: عَمْرة بنت السَّعْديّ بن وَقْدان بن عبدِ شمس بن عبد وُدّ بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وحاطب بن عمرو بن عبد شَمْس بن عبد وُدّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر، وسعد بن خَوْلة، حليف لهم. ثمانية نفر.

قال ابن هشام: سعد بن خَوْلة من اليمن.

المهاجرون من بني الحارث:

قال ابن إسحٰق: ومن بني الحارث بن فِهْر: أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو: عامرِ بن عبد الله بن الجرّاح بن هِلال بن أُهيب بن ضَبَّة بن الحارث بن فهر، وسُهيل ابن بَيْضاء، وهو: سُهيل بن وَهْب بن رَبيعة بن هلال بن أُهَيْب بن ضَبَّة بن الحارث، ولكن أُمه غلبتْ على نَسبه، فهو ينسب إليها، وهي: دَعْد بنت جَحْدم بن أُميَّة بن ظَرِب بن الحارث بن فِهْر، وكانت تدعى: بَيضاء، وعمرو بن أبي سَرْح بن ربيعة بن هلال بن أُهَيْب بن ضَبّة بن الحارث، وعِيَاض بن زُهير بن أبي شدّاد بن ربيعة بن هِلال بن أُهيب بن ضَبَّة بن الحارث، ويقال: بل ربيعةُ بن هلال بن مالك بن ضبَّة بن الحارث، وعمرو بن الحارث بن زُهَيْر بن أبي شَدَّاد بن ربيعة بن هِلال بن مالك بن ضبة بن الحارث، وعثمان بن عَبْد غَنْم بن زُهير بن أبي شدّاد بن رَبيعة بن هلال بن مالك بن ضَبَّة بن الحارث، وسعد بن عبد قَيْس بن لَقيط بن عامر بن أُميَّة بن ظَرب بن الحارث بن فهر، والحارث بن عبد قَيْس بن لَقِيط بن عامر بن أُميَّة بن ظَرِب بن الحارث بن فهر. ثمانية نفر.

عبد شمس:

وعثمان: هو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، ولا يختلف في عبد شمس أنه بالدال، وأما عَبْ شمس بن سَعيد بن زَيد مناة بن تميم، فقال فيه أبو عبيد والْقُتَبيُّ: عبد شمس كما في الأول. وقال أكثر الناس فيه: عَبْ شمس، ثم اختلفوا في معناه، فقيل، معناه: عبد شمس، لكن أُدغمت الدال، وقيل: بل [عَبُّ شَمْسٍ و] عَبُّ الشمس هو ضَوْؤُها أو صفاؤها، وقيل في المثل: هو أبرد من عَبْقُرّ أي: الْبَرَدُ، وبعضهم يقول: وهو المبرد: من عَبْ قُر أي: بياضِ قُرٍّ، ومن حَبْ قُرٍّ أيضًا. وفيه قول ثالث: أعني: عَبْ شَمْس. وهو مروي عن ابن عمر. وقال معناه: عَبْءُ شمس بالهمز. ثم حُذِفت الهمزة تسهيلاً. وعَبْء الشمس. وعَبْوها مثله.

عدد الذين هاجروا إلى الحبشة

فكان جميع مَن لحق بأرض الحبشة، وهاجر إليها من المسلمين، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغارًا وولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمَّار بن ياسر فيهم، وهو يشُك فيه.

من شعر الهجرة الحبشية

وكان مما قيل من الشعر في الحبشة، أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن عديّ بن سعد بن سَهم، حين أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جِوار النجاشي، وعبدوا الله، لا يخافون على ذلك أحدًا، وقد أحسن النجاشي جوارهم حين نزلوا به، قال:

يا راكبًا بَلِّغَنْ عَنّي مُغَلْغَلَةً ... مَنْ كان يرجو بلاغَ الله والدينِ

عمّار لم يهاجر إلى الحبشة

وشك ابن إسحٰق في عمّار بن ياسر: هل هاجر إلى أرض الحبشة، أم لا. والأصح عند أهل السِّيَر كالواقدي وابن عُقْبَة. وغيرهما أنه لم يكن فيهم.

حول بني الحارث بن قيس:

وذكر ابن إسحٰق من بني الحارث بن قيس مَن هاجر إلى أرض الحبشة، ولم يذكر فيهم تميم بن الحارث. وذكره الواقدي وغيره. والحارث بن قيس كان أبوه من المستهزئين الذي أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

حول بني زهرة وطليب بن عبد:

وذكر من بني زُهْرة مَن هاجر إلى أرض الحبشة، وهم ستة نفر، ولم يذكر السابع، وهو: عَبد الله بن شهاب جدّ محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، وكان اسمه: عبد الجان، فسمّاه رسول الله ﷺ: عبد الله مات بمكة بعد الفتح وأخوه: عبد الله الأصغر شهد أُحُدًا مع المشركين، ثم أسلم.

وذكر المطلب بن عبد عوف ولم يذكر أخاه طليبًا، وكِلاهما هاجر إلى أرض الحبشة، ومات فيها، وهما أخوا أزهر بن عبد عوف.

من شعر الهجرة الحبشية ومسائله النحوية

فصل: وأنشد لعبد الله بن الحارث ما قاله في أرض الحبشة، وفيه قوله:

كل امرىء من عباد الله مُضطهَد ... ببَطْنِ مكةَ مَقهورٍ وَمَفْتُون

أنّا وَجَدْنا بلادَ الله وَاسِعَةً ... تُنجِي من الذلّ والْمَخْزاة والهُون

فلا تُقيموا على ذلّ الحياة، وخِزْ ... يٍ في الْمَمات، وعَيْب غيرِ مأمون

إنّا تَبِعنا رسولَ الله، واطَّرَحوا ... قول النّبي، وعالُوا في الْمَوازين

فاجْعَل عذابكَ بالقوْم الذين بَغَوْا ... وعائذًا بك أنْ يَغلوا فيُطْغوني

أَلْحِق عذَابك[1] بالقوم الذين طَغوْا ... وعائذًا بك أنْ يَغلُو فيُطْغُوني

أنشده سيبويه فيما ينتصب على الفعل المتروك إظهارُه، وذلك لحكمة، وهي أن الفعل لو ظهر لم يخلُ أن يكون ماضيًا أو مستقبلاً، فالماضي يوهم الانقطاع، والمتكلم إنما يريد أنه في مقام العائذ، وفي حال عوذ، والفعل المستقبل أيضًا يؤذن بالانتظار، وفعل الحال مشترك مع المستقبل في لفظ واحد، وذلك يوهم أنه غير عائذ، فكان مجيئه بلفظ الاسم المنصوب على الحال أدلَّ على ما يريد، فإن عائذًا كقائم وقاعد، وهو الذي يسمى عند الكوفيين: الدائم، فالقائل: عائذًا بك يا رب، إنما يريد: أنا في حال عِياذٍ بك، والعامل في هذه الحال: تكلُّمه ونداؤه، أي: أقول قولي هذا عائذًا، وليس تقديره: عذت ولا أعوذ، إنما يريد أن يسمعه ربّه، أو يراه عائذًا به.

وقوله: أن يعلو يجوز أن تكون أن مع ما بعدها في موضع نصب، وفي موضع خفض عند النحويين، أما النصب فعلى إضمار الفعل، لأنه قال: عائذًا، فأعلم أنه خائف، فكأنه قال: أخاف أن يعلو فيطغوني، وأما الخفض فعلى إضمار حرف الجر، فكأنه قال: من أن يعلو، وهو مذهب الخليل وسيبويه في أن المخففة وأن المشددة نحو قوله تعالى: ﴿إن هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدة﴾ [الأنبياء: ٩٢] تقديره: لأن هذه، وجاز إضمار حرف الجر في هذين الموضعين، وإن كانت حروف الجر لا تضمر، لأنهما موصولتان بما بعدهما، فطال الاسم بالصلة، فجاز حذف الجرّ تخفيفًا.

ولقائل أن يقول: هذه دعوى ادّعيتم أن أنْ وما بعدها اسم مخفوض، وهو لا يظهر فيه الخفض، ثم بنيتم التعليل على غير أصل؛ لأن الخفض لم يثبت بعد، فنقول: إنما علمنا أنه في موضع خفض لوقوعه في موضع لا يقع فيه إلا المخفوض بحرف الجر نحو قوله سبحانه: ﴿وأَجْدَرُ ألاّ يعلموا حُدودَ ما أنزل الله﴾ [التوبة: ٩٧] ونحو قوله تعالى: ﴿أحَقُّ أنْ

---

(١) تقدم أنها: فاجعل عذابك.

وقال عبد الله بن الحارث أيضًا، يذكر نَفْي قُريش إياهم من بلادهم، ويعاتب بعضَ قومه في ذلك:

أبتْ كَبِدِي لا أكْذِبَنْك قتَالهم ... عليَّ، وتَأباه عليَّ أنامِلي

تقوم فيه﴾ [التوبة: ١٠٨] ونحو قوله: ﴿أنْ تَضِلَّ إحداهما﴾ [البقرة: ٢٨]. فقوله تعالى: ﴿أجدر ألاَ يعلموا﴾، معناه: بأن لا يعلموا، فلو كان قبل أنْ فِعْلٌ لقلنا: حذف حرف الجر، فتعدّى الفعل، فنصب، ولكن أجدر وأحق اسمان لا يعملان، فمن هٰهنا عرف النحويون أنه في موضع خفض؛ إذ لا ناصب له، وأما ما اعتلوا به من طول الاسم بالصلة، وأن ذلك هو الذي سَوَّغ لهم إضمار حرف الجر، فتعليل مدخول، ينتقض عليهم بالأسماء الموصولة كالذي ومن وما، فإنها قد طالت بالصلة، ومع ذلك لا يجوز إضمار حرف الجر فيها، لا تقول: خرجت ما عندك، ولا هربت الذي عندك أي: مِن الذي عندك، وتقول: خرجت أن يراني زيد، وفررت أن يراني عمرو، أي: مِنْ أن يراني، ولأن يراني بدل، على أن العلة غير ما قالوا، وهي أنَّ أنْ مع الفعل ليس باسم محض، وإنما هو في تأويل اسم، والاسم المحض ما دلّ عليه حرف الجر، فلا بدّ إذًا من إظهار حرف الجر إذا جئت به؛ لأنه اسم قابل لدخول الخوافض عليه، وأما أنْ فحرف محض لا يصحّ دخول حرف جرّ عليه، ولا على الفعل المتصل به فلا تقول: هو اسم مخفوض، إنما هو في تأويلِ اسم مخفوض، فمن هٰهنا فرقت العرب بينه، وبين غيره من الأسماء، فإذا أدخلت عليه حرف الجر مظهرًا جاز، لأنه في تأويل اسم، وإذا أضمرت حرف الجر جاز أيضًا التفاتًا إلى أن الحرف الجر لا يدخل على الحرف، ولا على الفعل فحسن إسقاطه مراعاة للفظ أنْ، وللفعل الفعل، وقلنا: هو في موضع خفض على معنى أن الكلام يَؤُول إلى الاسم المخفوض، لا أنه يظهر فيه خفض، أو يقدَّر تقديرَ المبني الذي منعه البِنَاءُ من ظهور الخفض فيه، حتى يشبه أنْ فنقول: هو اسم مبني على السكون، لا بل نقول: هي حرف، والحرف لا يدخل عليه حرف الجر، لا مضمرًا ولا مظهرًا، وإنما هو تقدير في المعنى، لا في اللفظ، فافهمه.

لا يضاف اسم إلى أن المصدرية:

فصل: واعلم أنَّ [أنْ] التي في تأويل المصدر لا يضاف إليها اسم. تقول: هذا موضع أن تقعد ويوم خروجك، ولا تقول: يوم أن تخرج؛ لأنها ليست باسم كما قدّمنا، وإنما تضاف إلى الأسماء المحضة، لا إلى التأويل، ولا يضاف إليها أيضًا اسم الفاعل، لا بمعنى الْمُضِيّ، ولا بمعنى الاستقبال، ولا المصدر إلا على وجه واحد نحو: مخافة أن تقوم، وذلك إذا أردت معنى المفعول بأن وما بعدها، وأما على نحو إضافة المصدر إلى الفاعل، فلا يجوز ذلك.

وكَـيْـفَ قِـتَـالـي مَـعْـشَـرًا أدْبُـوكُـم | علـى الـحق أن لا تَـأْشِبـوه بِـبـاطِـل
نَفَتْهم عبادُ الجنّ مِنْ حُرّ أرضِهِم | فأضْحَوْا على أمْر شَديد البَلابل
فـإن تـكُ كـانـت فـي عَـدِي أمـانـة | عدي بن سَعْد عن تُقًى، أو تَواصل

وإنما تكون فاعلة مع الفعل إذا ذكرته قبلها نحو: يسرّني أن تقوم، وأما مع المصدر مضافًا إليها فلا، وتكون مفعولة مع المصدر ومع الفعل معًا، وكل هذا الأسرار بديعة موضعها غير هذا، لكني أقول هٰهنا قولاً لائقًا بهذا الموضع، فإني لم أذكر الخفض بإضمار حرف الجر، في أن وإن إلا مساعدة لمَن تقدم، فعليه بنيت التعليل والتأصيل، وإذا أبيت من التقليد فلا إضمار لحروف الجر فيها، إنما هو النصب بفعل مضمر أو مظهر، أما قوله تعالى: ﴿أحق أن تقوم فيه﴾ فإنما لما قال أحق علم أنه يوجب عليه أن يقوم فيه، وكذلك أجدر ألاّ يعلموا، ومعنى أجدر: أخلق وأقرب، ولما ثبتت لهم هذه الصفة اقتضى ذلك ألا يعلموا؛ فصار منصوبًا في المعنى، ولو جئت بالمصدر الذي هو اسم محض نحو: القيام والعلم لم يصح إضمار هذا الفعل؛ لأن أجدر وأحق ونحوهما اسمان يضافان إلى ما بعدهما، فلو جئت بالقيام بعد قولك أحق، فقلت: أحق قيامك، لانقلب المعنى.

ولو نصبته بإضمار الفعل الذي أضمرت مع أن لم يكن دليل عليه؛ لأن الاسم يطلب الإضافة، فيمنع من الإضمار والنصب، وإذا وقعت بعده لم يطلب الإضافة؛ لما قدّمناه من امتناع إضافة الأسماء إليها، وإنما اخترنا هذا المذهب، وآثرناه على ما تقدم من إضمار الخافض؛ لأنّا قد نجدها في مواضع مجرورة، ولا يجوز إضمار حرف الجر، كقولك: سر إلى أنْ تطلع الشمس، ولا يجوز إضمار إلى هٰهنا، وكذلك تقول: هذا خير من أن تفعل كذا، ولا يجوز أيضًا إضمار من، ولو كان حرف الجر معها للعلتين المتقدمتين لاطّرَد جواز ذلك فيها على الإطلاق، وإنما هي أبدًا إذا لم يكن معها حرف الجر ظاهرًا مفعولة بفعل مضمر، وقد تكون فاعلة، ولكن بفعل ظاهر نحو: يعجبني أن تقوم، وأما خرجت أن أرى زيدًا فعلى إضمار الإرادة والقصد، كأنك أردت: أن أراه، أو أن لا أراه؛ لأن كلّ مَن فعل فعلاً، فقد أراد به أمرًا ما، لكنك إن جعلت مكانها المصدر لم يجز الإضمار أو قَبُح؛ لأن المصدر تعمل فيه الأفعال الظاهرة إذا كانت متعدية، وتصل إليه بحرف جر إذا لم تكن متعدية، وأنْ مع الفعل لا تعمل فيها الحواس ولا أفعال الجوارح الظاهرة، تقول: رأيت قيام زيد، ولا تقول: أن يقوم، وسمعت كلامك، ولا تقول: سمعت أن تتكلم، وإنما يتعلق بها، وتعمل فيها الأفعال الباطنة نحو: خفت واشتهيت وكرهت، وما كان في معنى هذا أو قريبًا منه، فإذا سمع المخاطب أن مع الفعل لم يذهب وَهْمُه بحكم العادة إلاّ إلى هذه المعاني، فإن كانت ظاهرة فذاك، وإلا اعتقدنا أنها مضمرة، وأن الفعل الظاهر دالٌ عليها،

فقد كنتُ أرجو أنّ ذلكَ فِيكُم بحَمْد الذي لا يُطَّبَى بالجَعائل
وبُدّلت شِبلاً شبلَ كل خبيثة بذي فَجَرٍ مأْوَى الضّعاف الأرامل

وقال عبد الله بن الحارث أيضًا:

وتلكَ قُرَيشٌ تجْحَدُ الله حقَّه كما جَحَدت عادٌ ومديَنُ والحِجْرُ
فإن أنا لم أبْرِق فلا يَسَعنَّنِي من الأرض بَرٌّ ذُو فَضاء ولا بحر

وغيرها من الأسماء ليس كذلك، إذا وقع قبلها فعل من أفعال الجوارح الظاهرة، وقع عليها إن كان متعديًا أو وُصل بحرف، إن كان غير متعدٍّ، ومَنَع من الإضمار أنه لفظي، والإضمار معنوي إلا في باب للمفعول من أجله، وقد قدّمنا فيه سرًا بديعًا فيما سبق من هذا الكتاب.

فصل: وأنشد لعبد الله بن الحارث شعرًا فيه:

كما جَحَدت عادٌ وَمَدْيَنُ وَالْحِجْرُ

أما عاد فقد تقدم نسبها، وأما الْحِجْرُ فليست بأُمّةٍ، ولكنها ديار ثمود. أراد: أهل الحجر، وأما مَدْيَنُ فأُمّة شعيب، وهم بنو مديان بن إبراهيم عليه السلام، وأُمهم: قطورا بنت يَقْطَان الكنعانية، ولدت له ثمانية من الولد تناسلت منهم أُمم، وقد سمّيناهم في كتاب التعريف والإعلام، وفي أول هذا الكتاب.

وفيه أيضًا قوله: فإن أنا لم أُبرِقْ فلاَ يَسَعنَّنِي. البيت، قال: وبه سمّي الْمُبْرِق، قال المؤلف: وفي هذا حجة على الأَصْمَعِيِّ حين منع أن يقال: أرعد وأبرق، وذُكر له قولُ الْكُمَيْت:

أرْعِد وأبْرِق يا يزيد

فلم يره حجة، [وقال: الكميت جُرْمقانِيٌّ من أهل الموصل] ليس بحجة، وألحقه بالمحدّثين لتأخر زمانه، كما فعل بذي الرُّمَّةِ حين احتجّ عليه بقوله:

ذو زَوْجَةٍ بالْمِصْرِ أم ذُو خُصُومَةٍ

فأبى أن يقول: زوجة بهاء التأنيث، وقال: طالما أكل ذو الرُّمَّةِ الزيتَ في حوانيت البقّالين، وبيت الْمُبْرِق في هذا حجة بلا خلاف، وقد وجد أرْعَد وأبْرَق في غير هذا البيت، مما تقوم به الحجة أيضًا، وبيت الْمُبْرِق هذا يحتمل وجهًا آخر، وهو أن يكون من أبرق في الأرض إذا ذهب بها لا من أرعد وأبرق، وكذلك وجدته في حاشية كتاب الشيخ على هذا البيت منسوبًا للْمُصْعَب، قال: الإبراق: الذهاب، وفي العين: أبرقت الناقة بذنبها إذا ضربت

بـأرْضٍ بـهـا عَـبْـدُ الإلـٰه مُـحَـمـدٌ   أُبَيّن ما في النَّفس إذ بلغ النَّقْرُ

فسمّي عبد الله بن الحارث ـ يرحمه الله ـ لبيته الذي قال: المُبْرِق.

وقال عثمان بن مَظْعون يُعاتب أُميَّة بن خَلَف بن وهْب بن حُذافة بن جُمَح، وهو ابن عمّه، وكان يُؤذيه في إسلامه، وكان أُميَّة شريفًا في قومه في زمانه ذلك:

أتيمَ بن عَمْرو لِلَّذي جاء بِغْضَةً   ومِنْ دونه الشَّرْمَانِ والبَرْكُ أكتعُ

به يمينًا وشمالاً، وهو في معنى الذهاب في الأرض، لأنه جَوَلاَن فيها، وهي البَرُوق، قال نَهْشَل بن دارِم لأخيه سَلِيط ـ وقد لامه على ترك الكلام في بعض المواطن: لا أُحسن تَأنَامَك، ولا تَكْذَابَك، تَشُول بلسانك شَوَلاَنَ الْبَرُوق. وذكر في الشعر:

يـلـيـن مـا فـي الـنـفـس إذ بـلـغ الـنَّـقْـرُ

ويُروى: يُلَيِّن ما في الصدر. والنَّقْر: البحثُ عن الشيء، وأكثر ما يقال فيه: التَّنْقِير، واستشهد عبدُ الله الْمُبْرِقُ في غَزْوَة الطائف، وكان أبوه الحارثُ من المستهزئين، وكان جدُّه قيس أعزَّ قريش في زمانه، يُروَى أن عبدَ المطلب كان يُنَقِّز ابنه عبد الله، والد رسول الله ـ ﷺ ـ وهو طفل، فيقول:

كـأنـه فـي الـعـز قـيـسُ بـن عـدي   فـي دار قـيـس الـنَّـديُّ يَـنْـتـدي

قاله الزبير بن أبي بكر.

حول لام التعجب:

فصل: وذكر شعر عثمان بن مَظْعُون:

أتَـيْـمَ بـنَ عَـمْـرٍو لِـلَّـذِي جـاءَ بِـغْـضَـةً

أراه: عجبًا لِلَّذِي جاء، والعرب تكتفي بهذه اللام في التعجب، كقوله عليه السلام: لِهَذا العبدِ الحبشي جاء من أرضه وسمائه إلى الأرض التي خُلق منها، قاله في عَبْدٍ حَبَشِيٍّ دُفن بالمدينة، وقال في جنازة سعد بن مُعاذ وهو واقف على قبره، وتقهقر ثم قال: سُبْحَان الله لهذا العبد الصالح ضُمَّ عليه القبرُ ثم فُرِجَ عنه، وقيل في قوله سبحانه: ﴿لإيلاف قُرَيْشٍ﴾ أقوال منها: أنها متعلقة بمعنى التعجب، كأنه قال: اعجبوا لإيلاف قريش، وبِغْضةً نُصِبَ على التمييز كأنه قال: يا عجبًا لما جاء به من بِغْضَةٍ، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله، وروى الزبير هذا البيت:

أتَـيْـمَ بـن عَـمْـرٍ لـلـذي فـار ضِـغْـنُـهُ

أأخرجْتَني مِنْ بطْنِ مكَّةَ آمِنا وأسكنْتَني في صَرْح بيضَاءَ تقذع
تَريش نِبالاً لا يُواتيكَ ريشُها وتَبْري نبالاً ريشُها لَكَ أجْمَعُ

من معاني شعر ابن مظعون:

وكذلك رُوِيَ في هذا الشعر: في صرح بَيطَاءَ تُقْدَعُ بالطاء وفتح الباء وكسرها، وقال بِيَطاء: اسم سفينة، وتُقْدَع بالدال، أي: تدْفع، وزعم أن تَيْم بن عمرو وهو جُمَح سُمِّي جُمَحًا؛ لأن أخاه سهم بن عمرو ـ وكان اسمه زيدًا ـ سابقه إلى غاية، فَجمَحَ عنهَا تيم، فسُمِّي جُمَحًا، ووقف عليها زيد، فقيل: قد سَهَمَ[1] زَيْدٌ فسُمِّي: سَهْمًا.

وقوله: ومن دوننا الشَّرْمَان. الشَّرم: البحر، وقال الشَّرمَان بالتثنية؛ لأنه أراد البحر الْمِلْحَ، والبحر الْعَذب، وفي التَّنزيل: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَين﴾ والشَّرْمُ من: شَرَمْتُ الشيء إذا خَرَقْته، وكذلك البحر من بَحَرْتُ الأرض إذا خرقتها، ومنه سُمِّيت الْبَحِيرَة لخَرْقِ أُذُنها والْبَرْكُ: ما اطمأن من الأرض واتَّسع، ولم يكن منتصبًا كالجبال.

وقوله: في صرح بيضاء. يريد: مدينة الحبشة، وأصل الصَّرح: القصر، يريد: أنه ساكن عند صَرْح النَّجَاشِيِّ.

وقوله: تُقْذَع أي: تُكْرَه، كأنه من أقذعت الشيء، إذا صادفته قَذِعًا ويقال أيضًا: قَذَعْتُ الرجلَ إذا رميته بالفحش، يريد أن أرض الحبشة مقْذوعة، وأحسب هذه الرواية تصحيفًا، والصحيح: ما قدّمناه من قول الزبير وروايته، وأنه بِيطَاء بالطاء، وتُقْدَع بالدال.

وقوله: وأسلمك الأوباش يريد أخلاطًا من النحاس، يقال: أوشاب وأوباش، والأوباش أيضًا شجر متفرق، والوَبْش بياض في أظفار الأحداث.

أنســـــاب:

وذكر فيمن هاجر إلى أرض الحبشة من بني عدي: مَعْمر بن عبد الله بن نَضْلَةَ، وقال فيه عليُّ بن الْمَدِيني: إنما هو: مَعْمَر بن عبد الله بن نافع بن نَضْلَةَ.

وقال ابن إسحٰق: نَضْلة بن عبد العزى بن حُرْثَان بن عَوْف بن عُبَيْد وفي حاشية كتاب الشيخ قال: إنما هو نَضْلةُ بن عوف بن عُبَيْدِ بن عُوَيْج، وذكر أنه قولُ مصْعَب في كتاب

---

(١) سهم: السين والهاء والميم أصلان. أحدهما يدل على تغيّر في اللون، والآخر على حظ ونصيب وشيء من الأشياء. فالسهمة النصيب. ويقال: أسهم الرجلان: إذا اقترعا، وذلك من السهمة، والنصيب والفوز. مقاييس اللغة (٣/ ١١١).

وحـارَبْـتَ أقـوامًـا كِـرَامًـا أعِـزَّةً ... وأهلكتَ أقوامًا بهم كنتَ تَفزع

ستَعْلَمُ إنْ نابَتْك يومًا مُلِمَّةٌ ... وأسلمَك الأوْباش ما كنتَ تَصْنع

النسب[1]. وذكر في بني عَدِيٍّ: عُرْوَةَ بن عَبدِ الْعُزَّى بن حُرثان، كذا في كتاب المصعب إلا أنه قال: عمرو بن أبي أُثَاثة أو عُرْوَة بن أبي أُثَاثَة على الشَّكِّ وذكره أبو عُمَرَ في كتاب الاستيعاب فقال فيه: عروة بن أبي أُثاثة ويقال ابن أُثاثة بن عبد العزى بن حُرثان، قال: وأُمه، أُم عمرو بن العاصي، فهو أخوه لأُم[2].

قال المؤلف: وأُمهما اسمها: ليلى، وتلقّب بالنابغة، وهي من بني ربيعة ثم من بني جَلاَّنَ قال أبو عمر: ويقال فيه: ابن أبي أُثاثة، قال المؤلف: وقد قدّمنا أن المصعب الزبيري شك فيه، فقال: عروة، أو عَمْرو، وأما الزبير: فقال عمرو بن أبي أثاثة، ولم يشكَّ، ثم قال أبو عمر: لم يذكره ابن إسحٰق فيمن هاجر إلى أرض الحبشة، وذكره الواقدي، وأبو معشر وموسى بن عقبة، قال المؤلف: وهذا وهم من أبي عمر ـ رحمه الله ـ فإن ابن إسحٰق ذكره فيهم، غير أنه نسَبه إلى جده عبد العُزى، وأسقط اسم أبيه أبي أثاثة، وقال حين ذكر من هاجر من بني عدي بعد ما عدّهم خمسة، قال: أربعة نفر، وهو وهم من ابن إسحٰق، وذكر فيهم مع الخمسةِ: ليلى بنت أبي حَثْمَة امرأة عامر بن ربيعة، فهم على هذا ستة، غير أنه يحتمل أنه يريد أربعة نفر دون حليفهم عامر، وما أظنه قصد هذا؛ لأن من عادته أن يعدّ الحلفاء مع الصميم؛ لأن الدعوة تجمعهم.

أُم سلمة:

وذكر أُم سَلَمة وبعلها أبا سلمة، توفي عنها بالمدينة، وخلف عليها رسول الله ـ ﷺ ـ وذكر اسمها هذا، وقيل في اسمها: رملة[3]، وأبوها أبو أُمية اسمه: حُذَيْفَة يُعرَف بزاد الراكب.

وذكر أنها ولدت بأرض الحبشة زينبَ بنت أبي سلمة، وكان اسم زينبَ بَرّة، فسمّاها رسول الله ـ ﷺ ـ زينب، كانت زينبُ هذه عند عبد الله بن زَمْعَة، وكانت قد دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يغتسل، وهي إذ ذاك طفلة، فَنَضَحَ في وجهها من الماء، فلم يزل ماءُ الشباب في وجهها، حتى عجزت وقاربت المائة، وكانت من أفقه أهل زمانها، وأدركت

---

(١) انظر نسب قريش للزبيري (٣٨٢/٣٨٦) والجمهرة لابن حزم (١٤٧).

(٢) انظر نسب قريش (٣٨١/٤٠٩).

(٣) وفي الإصابة: هند.

وتيم بن عمرو، الذي يدعو عثمانُ، جمحُ، كان اسمه: تَيْمًا.

وقعة الحَرَّة بالمدينة[1]، وقُتل لها في ذلك اليوم ولدان، اسم أحدهما: كبير، والآخر: يزيد بن عبد الله بن زَمْعَة، فكانت تبكي على أحدهما: ولا تبكي على الآخر، فسُئِلَت عن ذلك، فقالت: أبكيه لأنه جرّد سيفه وقاتل، والآخر لا أبكيه لأنه لزم بيته، وكفّ يده حتى قُتِل، ورُوِيَ أن رسول الله - ﷺ - حين ابتنى بأُم سلمة دخل عليها بيتها في ظلمة، فوطىء على زينب، فبكت، فما كان من الليلة الأخرى دخل في ظلمة أيضًا، فقال: «أنظروا زُنَابَكم أن لا أطأ عليها»، أو قال: «أخّروا» ذكره الزبير، وفي هذا الحديث تَوْهين لرواية مَن روى أنه كان يرى بالليل، كما يرى بالنهار.

النور الذي كان على قبر النجاشي:

فصل: وذكر حديث عائشة: «كنّا نتحدّث أنه لا يزال يُرى على قبر النجاشي نور»[2]، وقد خرّجه أبو داود من طريق سَلَمَة بن الفَضْل، وعن ابن إسحٰق عن يزيد بن رُومان عن عائشة، وأورده في باب: النور يُرى عند الشهيد، وليس في هذا الحديث ولا غيره ما يدلّ على أن النجاشي مات شهيدًا، وأحسبه أراد: أن يشهد بهذا الحديث ما وقع في كتب التاريخ من أن عبد الرحمن بن ربيعة أخا سلمان بن ربيعة الذي يقال له: ذو النور، وكان على باب الأبواب فقتله الترك زمانِ عمر، فهو لا يزال يُرى على قبره نور، وبعضد هذا حديثُ النجاشي، يقول: فإذا كان النجاشي - وليس بشهيد - يُرى عنده نور، فالشهيد أحرى بذلك لقول الله سبحانه: ﴿والشهداءُ عند ربهم لهم أجرُهم ونورهم﴾[3] [الحديد: ١٩].

---

(١) عام ٦٣ هـ.

(٢) «ضعيف». أخرجه أبو داود (٢٥٢٣) موقوفًا.

(٣) الأوجه لربط هذا بذاك.

إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها[1]

قال ابن إسحٰق: فلما رأت قُريش أن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا وقرارًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجُلَين من قريش جَلْدين إلى النجاشي، فيردّهم عليهم؛ ليَفْتنوهم في دينهم، ويُخْرجوهم من دارهم، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبدَ الله بن أبي رَبيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم.

فقال أبو طالب ـ حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه ـ أبياتًا للنجاشي يحضّه على حُسْن جوارهم، والدَّفع عنهم:

ألا ليتَ شِعري كيفَ في النَّأي جعفرٌ ... وعمرو وأعْداء العدو الأقاربُ
وهل نالت أفعالُ النجاشي جعفرًا ... وأصحابَه أو عاق ذلك شاغب

إرسال قريش إلى النجاشي في أمر أصحاب النبي ﷺ

ذكر ابن إسحٰق أنهم أرسلوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة، وأهدوا معهما هدايا إلى النجاشي. وعبدُ الله بن أبي ربيعة هذا كان اسمه بَحِيرا، فسمّاه رسول الله ـ ﷺ ـ حين أسلم: عبد الله، وأبوه: أبو ربيعة ذو الرمحين، وفيه يقول ابن الزِّبَعْري:

بَحيرا بن ذي الرمحين قرّب مجلسي ... وَراح علينا فضلُه وهو عاتم

---

(١) انظر المنتظم (٢/ ٣٨٠) الكامل (١/ ٥٩٨) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥١) فتح الباري (٧/ ١٤٨).

تعلَّمْ - أبيتَ اللَّعن - أنَّك ماجدٌ　　كريمٌ فلا يَشْقى لديك الْمُجانب
تـعـلَّـمْ بـأن الـلَّـهَ زادك بَـسْـطَـةً　　وأسـبـابَ خَـيـرٍ كـلُّـهـا بـك لازب
وأنَّـك فـيـضٌ ذو سِـجـال غـزيـرةٍ　　يَـنـال الأعـادي نـفـعَـهـا والأقـارِب

قال ابن إسحٰق: حدّثني محمد بن مُسلم الزُّهري عن أبي بَكْرِ بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلَمَة بنت أبي أُميَّة بن المُغيرة زوج رسول الله ﷺ، قالت: لما نزلنا أرضَ الحبشة، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ: النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبدْنا الله تعالى، لا نُؤذَى، ولا نَسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجُلَيْن منهم جَلْدَين، وأن يُهْدوا للنجاشيِّ هَدايا مما يُستطرَف من مَتاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَمُ، فجمعوا له أدَمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بَطارقته بِطْرِيقًا إلا أهْدَوْا له هديَّة، ثم بعثوا بذلك عبدَ الله بن أبي رَبيعة، وعَمْرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعَا إلى كل بِطْريق هديَّته قبل أن تكلّما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هَداياه، ثم سَلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. قالت: فخَرجا حتى قَدِما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار،

واسم أبي ربيعة: عَمْرو، وقيل: حُذَيْفةُ، وأُم عبد الله بن أبي ربيعة: أسماء بنت مُخَرِّبَة التميمية، وهي أم أبي جهل بن هشام، وعبدُ الله بن أبي ربيعة هذا هو والد عُمَر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر، ووالد الحارث أمير البصرة المعروف بالقُبَاعِ، وكان في أيام عمر واليًا على الجند، وفي أيام عثمان، فلما سمع بحصر عثمان، جاء لينصره، فسقط عن دابته فمات.

عمارة بن الوليد بن المغيرة:

فصل: وكان معهما في ذلك السفر عُمارة بن الوليد بن المغيرة الذي تقدم ذكره حين قالت قريش لأبي طالب: خذ عُمارة بدلاً من محمد، وادفع إلينا محمدًا نقتله، وكان عُمارة من أجمل الناس، فذكر أصحاب الأخبار أنهم أرسلوه مع عمرو بن العاصي إلى النَّجَاشِيِّ، ولم يذكره ابن إسحٰق في رواية ابن هشام، وذكر حديثه مع عمرو في رواية يونس، ولكن في غير هذه القصة المذكورة هٰهنا، ولعل إرسالهم إياه مع عمرو، كان في المرة الأخرى التي سيأتي ذكرها في السِّيرة عند حديث إسلام عمرو، وَمِمَّن ذكر قصة عمارة بطولها أبو الفرج الأصبهاني، وذكر أن عَمْرًا سافر بامرأته، فلما ركبوا البحر، وكان عُمارة قد هَوِيَ امرأة عَمْرو وهَوِيته، فعزما على دفع عمرو، أو كان ذلك من عمارة على غير قصد فدفع عمرًا، فسقط في البحر، فسبح عمرو، ونادى أصحاب السفينة فأخذوه، ورفعوه إلى السفينة،

فلم يبق من بطارقته بِطرِيق إلا دَفعا إليه هديته قبل أن يُكلِّما النجاشي، وقالا لكلِّ بِطْريقَ منهم: إنه قد ضَوَى إلى بَلَد الملك منَّا غلْمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مُبتدَع، لا نعْرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم، ليردّهم إليهم، فإذا كلَّمْنَا الملك فيهم، فأشيرُوا عليه بأن يُسْلِمَهُمْ إلينا، ولا يكلِّمهم، فإن قومَهم أعْلَى بهم عَيْنًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقَبلها منهما، ثم كلَّماه، فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضَوَى إلى بلدك منّا غِلْمان سفهاء، فارقوا دينَ قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نَعْرفه نحن، ولا أنت، وقد بَعَثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم: لتردّهم إليهم، فهم أعْلَى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي رَبيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقته حوله: صَدَقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلِمْهم إليهما، فليردَّهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاهَا الله، إذن لا أُسلمهم إليهما، ولا يُكاد قومٌ جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول

فأضمرها عمرو في نفسه، ولم يُبدها لعمارة، بل قال لامرأته ـ فيما ذكر أبو الفرج ـ قَبِّلي ابن عمك عُمَارة لتطيبَ بذلك نفسه، فلما أتيا أرض الحبشة مكر به عمرو، وقال: إني قد كتبت إلى بني سهم ليبرؤوا من دمي لك، فاكتب أنت لبني مخزوم ليبرؤوا من دمك لي، حتى تعلم قريش أنَّا قد تصافينا، فلما كتب عُمارة، إلى بني مخزوم، وتبرؤوا من دمه لبني سهم، قال شيخ من قريش: قُتل عُمارة ـ والله ـ وعلم أنه مكر من عمرو، ثم أخذ عمْرو يحرّض عُمارة على التعرضِ لامرأة النجاشي، وقال له: أنت امرؤ جميل، وهنّ النساء يُحْبِبْن الجمال من الرجال، فلعلها أن تشفع لنا عند الملك في قضاء حاجتنا، ففعل عُمارة فلما رأى عَمْرو ذلك، وتكرر عُمارة على امرأة الملك، ورأى إنابتها إليه، أتى الملكَ مُنْتَصِحًا، وجاءه بأمارة عرفها الملك، قد كان عُمارة أطلع عَمْرًا عليها، فأدْركته غَيْرة الملك، وقال: لولا أنه جاري لقتلته، ولكن سأفعل به ما هو شَرٌّ من القتل، فدعا بالسَّوَاحر، فأمرهنّ أن يَسْحَرنه، فنفخْن في إحلِيلِهِ[1] نفْخَةً، طار منها هائمًا على وجهه، حتى لحق بالْوُحُوشِ في الجبال، وكان يَرى آدميًّا فيفرّ منه، وكان ذلك آخر العهد به إلى زمن عمر بن الخطاب، فجاء ابنُ عمه عبدُ الله بن أبي ربيعة إلى عمر، واستأذنه، في المسير إليه لعله يجده، فأذِنَ له عمر فسار

---

(١) إحليله: أي ذكره.

هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان، أسلمتهم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منَعتُهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني».

حوار بين النجاشي وبين المهاجرين

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جِئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما عَلِمْنا، وما أمرنَا به نبيُّنا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفتَه، فنشروا مَصاحفهم حولَه سألهم، فقال لهم: ما هذا الدينُ الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه المِلَل! قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منَّا الضعيفَ، فكنَّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبَه وصِدْقه وأمانتَه وعفافَه، فدعانا إلى الله؛ لنوحِّدَه ونعبدَه، ونخلَع ما كنَّا نعبد نحنُ وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصِدْق الحَديث، وأداء الأمانة، وصِلة الرحم، وحُسْن الجوار، والكَف عن

عبدُ الله إلى أرض الحبشة، فأكثر النِّشْدَة عنه، والفحص عن أمره، حتى أخبر أنه ـ بِحَيْلٍ[1] يرد مع الوحوش، إذا وردت، ويصدُر معها إذا صدرت، فسار إليه حتى كَمَن لَه في الطريق إلى الماء، فإذا هو قد غطّاه شعرُه، وطالت أظفارُه، وتمزقت عليه ثيابه، حتى كأنه شيطان، فقبض عليه عبدُ الله، وجعل يذكره بالرَّحِم ويستعطفه، وهو ينتفض منه، ويقول: أرسلني يا بَحِيرُ، أرسلني يا بُحَيْرُ، وأبى عبدُ الله أن يرسلَه، حتى مات بين يديه، وهو خبر مشهور اختصره بعض مَن أَلَّف في السير، وطوله أبو الفرج، وأوردته على معنى كلامه، متحرّيًا لبعض ألفاظه[2].

عن حديث أصحاب الهجرة مع النجاشي

فصل: وذكر حديث أصحاب الهجرة مع النجاشي، وما قال له جعفر إلى آخر القصة، وليس فيها إشكال، وفيه من الفقه: الخروج عن الوطن، وإن كان الوطن مكَّةَ على فضلها، إذا كان الخروج فرارًا بالدين، وإن لم يكن إلى إسلام، فإن الحبشةَ كانوا نصارى يعبدون

---

(١) بحيل: موضع.

(٢) انظر نسب قريش (٣٢٢). والقصة يبدو عليها أثر الوضع، فهي في حاجة إلى دليل «صحيح» يعتضدها.

المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقَذْف الْمُحْصَنات، وأمَرَنا أن نعبد الله وحده ـ لا نُشركُ به شيئًا ـ وأمرنا بالصَّلاة والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه أمورَ الإسلام ـ فصدقناه وآمنَّا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشركِ به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحْلَلْنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبَائث، فلمَّا قَهرونا وظلَموننا وضيَّقوا علينا،

المسيح، ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبين ذلك في هذا الحديث، وسُمُّوا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى الله عليهم بالسبق، فقال: ﴿والسابقون الأوَّلُون﴾ وجاء في التفسير: أنهم الذين صلّوا القبلتين، وهاجروا الهجرتين، وقد قيل أيضًا: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار كفر، لما كان فعلهم ذلك احتياطًا على دينهم، ورجاء أن يخلى بينهم وبين عبادة ربهم، يذكرونه آمنين مطمئنين،/وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد، وأُوذي على الحق مؤمن، ورأى الباطل قاصرًا للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر ـ أي بلد كان ـ يخلى بينه وبين دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حَتْمٌ على المؤمن، وهذه الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة: ﴿ولِلَّهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فصل: وليس في باقي حديثهم شيءُ يُشْرَح، قد شرح ابن هشام الشُّيُوم، وهم الآمنون، فيحتمل أن تكون لفظة حبشية غير مشتقة، ويحتمل أن يكون لها أصل في العربية، وأن تكون من شِمْت السيفَ إذا أغمدته، لأن الآمنَ مُغْمَدٌ عنه السيف، أو لأنه مصُونٌ في صُوانٍ وحِرْز كالسيف في غمده.

وقوله: ضَوَى إليك فِتية أي: أووا إليك، ولاذوا بك، وأما ضَوِي بكسر الواو، فهو من الضَّوَى مقصور، وهو الهزال، وقال الشاعر:

فتى لم تلده بنتُ عم قريبة ... فَيَضْوَى، وقد يَضْوَى رَدِيدُ الْغَرَائِب

ومنه الحديث: اغتربوا لا تضوَوْا، يقول: إن تزويج القرائب يورث الضَّوَى في الولد[1]، والضعف في القلب، قال الراجز:

إنَّ بِلالاً لَمْ تَشِنْهُ أُمُّه ... لم يتناسب خالُه وعَمُّه

---

(١) كلام مردود بصريح القرآن وصحيح الحديث.

وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخْتَرْناك على مَنْ سواك، وَرَغِبْنَا في جوارك، ورَجَوْنا أن لا نُظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كهيعصٓ﴾. قالت: فبكى والله النجاشيُّ، حتى اخضَلَّت لحيتُه، وبكت أساقفتُه، حتى أخْضَلوا مَصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مِشكاةٍ واحدة، انطلقا، فلا والله لا أُسْلمهم إليكما، ولا يُكادون.

قالت: فلما خَرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينَّه غدًا عنهم بما استأصل به خَضْرَاءهم. قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ـ وكان أتْقَى الرَّجُلَين فينا: لا نفعل؛ فإنَّ لهم أرْحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأُخبرنَّه أنهم يزعمون أن عيسى ابنَ مريم عَبْدٌ، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون

إضافة العين إلى الله:

وفيه: قومهم أعلى بهم عينًا، أي: أبْصَر بهم، أي: عينهم وإبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم، فالعين هاهنا بمعنى الرؤية والإبصار، لا بمعنى العين التي هي الجارحة، وما سُمِّيت الجارحة عينًا إلا مجازًا؛ لأنها موضع العِيان، وقد قالوا: عانَه يَعِينه عَيْنًا إذا رآه، وإن كان الأشهر في هذا أن يقال: عاينه معاينة، والأشهر في عِنْت أن يكون بمعنى الإصابة بالعين، وإنما أوردنا هذا الكلام، لتعلم أن العينَ في أصلِ وضع اللغة صفةٌ لا جارحة، وأنها إذا أُضيفت إلى الباري سبحانه، فإنها حقيقة نحو قول أُم سلمة لعائشة: بعين الله مَهْواكِ، وعلى رسول الله تَرُدِّين؟ وفي التنزيل: ﴿ولِتصْنَعَ على عيني﴾ وقد أملينا في المسائل المفردات: مسألة في هذا المعنى، وفيها الرد على مَن أجاز التثنية في العين مع إضافتها إلى الله تعالى، وقاسها على اليدين، وفيها الرد على مَن احتج بقول النبي عليه السلام: إن ربَّكم ليس بأعور[1]، وأوردنا في ذلك ما فيه شفاء، وأتبعناه بمعانٍ بديعة في معنى عَوَرِ الدَّجَّال، فلْيُنظَر هنالك.

معنى أن عيسى كلمة الله وروحه:

وقول جعفر في عيسى: هو رُوح الله وكلمته، ومعنى: كلمته أي: قال له، كما قال لآدم حين خلقه من تراب، ثم قال له: كن فيكون، ولم يقل: فكان، لئلا يتوهم وقوع

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٣) وأحمد (١/ ٢٤٠) والبيهقي في الصفات (٣١١) بتحقيقي.

في عيسى ابن مَرْيم قولاً عظيمًا، فأرسِل إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم، ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلُها قطُّ. فاجتمع القوم، ثم قال بعضُهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول ـ والله ـ [فيه] ما قال الله، وما جاءنا به نبيُّنا، كائنًا في ذلك ما هو كائن. قالت: فلمَّا دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال [له] جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا ﷺ: هو عبدُ الله ورسولُه، وروحه، وكَلِمتُهُ ألْقاها إلى مَرْيم العذراءِ البَتُولِ. قالت: فضرب النجاشيُّ بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العودَ، قالت: فتناخَرَتْ بَطارِقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نَخَرْتُم والله، اذهبوا فأنتم شُيومٌ بأرضي ـ والشُّيوم: الآمنون ـ مَن سَبَّكم غَرِم، ثم قال: مَن سَبَّكُمْ غَرِم، ثم قال: مَن سبَّكم غَرم ما أُحبّ أن لي دَبْرًا من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم ـ قال ابن هشام: ويقال: دَبْرَي من ذهب. ويقال فأنتم سُيُوم، والدبر ـ بلسان الحبشة: الجبل ـ ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ اللَّهُ مني الرّشوة حين ردَّ عليَّ مُلْكي، فآخذَ الرَّشوَة فيه، وما أطاع الناس فِيَّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مَقْبوحَيْن، مَرْدُودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

الفعل بعد القول بيسير، وإنما هو واقع للحال، فقوله: فيكون مُشْعِرٌ بوقوع الفعل في حال القول، وتوجه الفعل بيسير على القول، لا يمكن مستقدم ولا مستأخر، فهذا معنى الكلمة، وأما روح الله؛ فلأنه نفخَة رُوح القدس في جَيْبِ الطاهرة المقدسة، والقُدس: الطهارة من كل ما يشين، أو يعيب، أو تَقْذَرُه نفس، أو يكرهه شرع، وجبريل: روح القدس، لأنه روح لَمْ يُخلق من مَنِيٍّ، ولا صدر عن شهوة، فهو مُضاف إلى الله سبحانه إضافة تشريف وتكريم؛ لأنه صادر عن الحضرة المقَدَّسة[1]، وعيسى عليه السلام صادر عنه، فهو: روح الله على هذا المعنى؛ إذ النفخ قد يسمى: روحًا أيضًا، كما قال غَيْلاَنُ [بن عقبة ذو الرُّمَّة] يصف النار:

فقلت له: ارفعها إليك، وأحْيِها بِرُوحك، واقدرها لها قِيتَةً قدرا

وأضف هذا الكلام في روح القدس، وفي تسمية النفخ روحًا إلى ما ذكرناه قبل في حقيقة الروح، وشرح معناه فإنه تكملة له.

---

(١) لا تجوز مثل هذه الكلمة أن تطلق وتنسب إلى الله تعالى.

المهاجرون وانتصار النجاشي:

قالت: فوالله إنّا لعَلى ذلك، إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في مُلْكه. قالت: فوالله ما علمتُنا حَزِنّا حزنًا قطُّ كانت أشدَّ علينا من حُزْنٍ حَزِنّاه عند ذلك، تَخَوُّفًا أن يَظْهر ذلك الرجلُ على النجاشيّ، فيأتي رجلٌ لا يعرف مِنْ حَقّنا ما كان النَّجاشِيّ يَعْرف منه، قالت: وسار إليه النجاشيُّ، وبينهما عرضُ النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم: مَنْ رجلٌ يخرج حتى يحضُرَ وَقيعَة القوم، ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوّام: أنا، قالوا: فأنت ـ وكان مِن أحدث القوم سنًّا ـ قالت: فنفخوا له قِرْبةً، فجعلها في صَدره، ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها مُلْتقى القوم، ثم انطلق حتى حَضَرهم، قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشيّ بالظهور على عدوّه، والتَّمْكين له في بلاده، قالت: فوالله إنّا لعَلى ذلك مُتوقِّعون لِمَا هو كائن، إذ طلع الزُّبير وهو يسعى، فلمع بثَوْبه وهو يقول: ألا أبْشروا، فقد ظفر النجاشيُّ، وأهلك اللّهُ عدوّه، ومكّن له في بلاده. قالت: فوالله ما علمتنا فَرِحْنا فرحةً قطّ مثلَها. قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوّه، ومكّن له في بلاده، واستوثَق عليه أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير مَنْزل، حتى قدمْنا على رسولِ الله ﷺ وهو بمكة.

قصة تملّك النجاشي على الحبشة:

قال ابن إسحٰق: قال الزهريّ: فحدّثت عُروة بن الزبير حديثَ أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أُمّ سلمة زوج النبي ﷺ، فقال: هل تدري ما قولُه: ما أخذ الله مني الرِّشوَة حين ردّ عليّ مُلْكي، فآخذ الرِّشوَة فيه، وما أطاع النَّاسَ فِيَّ، فأطيع الناسَ فيه؟ قال: قلت: لا، قال: فإن عائشة أُمّ المؤمنين حدّثتني أن أباه كان ملكَ قومه، ولم يكن له ولدٌ إلا النجاشي، وكان للنجاشي عمّ، له من صلبه اثنا عَشَر رجلاً، وكانوا أهلَ بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنّا قتلنا أبا النجاشيّ، وملّكنا أخاه فإنه لا وَلد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صُلبه اثني عَشَر رجلاً، فتوارثوا مُلْكه من بعده، بقيت الحبشة بعده دهرًا، فَغَدَوا على أبي النجاشي فقتلوه، وملّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينًا.

النجاشي أصحمة:

فصل: وذكر حديثَ عائشة عن النَّجَاشِيّ حين ردّ الله عليه ملكه، وأن قومه كانوا باعُوه، فلما مَرِجَ أمرُ الحبشة، أخذوه من سيده واسْتَرَدُّوه. وظاهرُ الحديث يدل على أنهم أخذوه منه قبل أن يأتِيَ به بلادَه لقوله: خرجوا في طلبه، فأدركوه، وقد بيّن في حديث آخر

ونشأ النجاشي مع عمِّه ـ وكان لبيبًا حازمًا من الرجال ـ فغلب على أمْر عمِّه، ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشةُ مكانَه منه، قالت بينها: والله لقد غَلَب هذا الفتى على أمر عمِّه، وإنا لنتخوّف أن يملِّكَهُ علينا، وإن ملَّكه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عَرَف أنَّا نحن قتلنا أباه. فَمَشَوْا إلى عمِّه، فقالوا: إمَّا أنْ تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنَّا قد خِفْناه على أنفسنا، قال: ويلكم! قتلتُ أباه بالأمس، وأقتله اليومَ! بل أُخرجه من بلادكم. قالت: فخرجوا به إلى السوق، فباعوه إلى رجل من التجَّار بستمائة درهم، فقذفه في سفينة فانطلق به، حتى إذا كان العَشِيّ من ذلك اليوم، هاجت سَحَابةٌ من سحائب الخريف، فخرج عمُّه يَسْتمطر تحتها، فأصابته صاعقةٌ، فقتلته. قالت: ففزعت الحبشةُ إلى وَلَده، فإذا هو مُحْمِق، ليس في ولده خيرٌ، فمرج على الحبشة أمرُهم.

فلما ضاق عليهم ما هُم فيه من ذلك، قال بعضهم لبعض: تعلَّموا والله أن مَلِكَكم الذي لا يُقيم أمرَكم غيرُه لَلَّذِي بِعْتم غدوةً، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة، فأدركوه الآن. قالت: فخرجوا في طلبه، وطَلَبِ الرجل الذي باعوه منه حتى أدركوه، فأخذوه منه، ثم جاؤوا به، فعقدوا عليه التاجَ، وأقعدوه على سرير المُلْك، فملَّكوه.

فجاءهم التاجرُ الذي كانوا باعوه منه، فقال: إمَّا أن تُعطوني مالي، وإمَّا أن أُكلِّمه في ذلك؟ قالوا: لا نُعْطيك شيئًا، قال: إذن والله أُكلِّمه، قالوا: فدونك وإيَّاه. قالت: فجاءه فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعتُ غلامًا من قوم بالسوق بستمائة درهم، فأسْلَموا إليَّ غلامي، وأخذوا دراهمي، حتى إذا سِرْت بغلامي، أدركوني، فأخذوا

أن سيده كان من العرب وأنه استعبده طويلاً، وهو الذي يقتضيه قوله: فلما مَرِجَ على الحبشة أمْرُهم، وضاق عليهم ما هم فيه، وهذا يدلّ على طول المدة في مغيبه عنهم، وقد رُوِيَ أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النجاشي علم بها قبل مَنْ عنده من المسلمين، فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذا هو قد لبس مِسْحًا، وقعد على التراب والرماد، فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟! فقال: إنّا نجد في الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبده، وجب على العبد أن يحدث لله تواضعًا، وإن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهي أن النبي محمدًا ـ ﷺ ـ بلغني أنه التقى هو وأعداؤه بوادٍ يقال له: بدر كثير الأراك، كنت أرعى فيه الغنم على سيدي، وهو من بني ضَمْرَة، وأن الله قد هزم أعداءه فيه، ونصر دِينه، فدلّ هذا الخبر على طول مكثه في بلاد العرب، فمن هنا ـ والله أعلم ـ تعلم من لسان العرب ما فهم به سورة مريم حين تُليت عليه، حتى بكى، وأخْضَل لحيته، ورُوِيَ عنه أنه قال: إنّا نجد في الإنجيل أن اللعنة تقع في الأرض إذا كانت إمارة الصبيان.

غلامي، ومنعوني دَراهمي. قالت: فقال لهم النجاشي: لتُعْطُنَّه دراهمَه، أو ليضعنّ غلامُه يده في يده، فليذهبنّ به حيث شاء، قالوا: بل نُعطيه دراهمه. قالت: فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رِشوةً حين ردّ عليّ مُلْكي، فآخذ الرّشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ، فأُطيع الناس فيه. قلت: وكان ذلك أوّل ما خُبِرَ من صَلابته في دينه، وعَدْله في حكمه.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني يزيد بن رُومان عن عُروة بن الزّبير، عن عائشة قالت: لما مات النجاشي، كان يُتحدّث أنه لا يزال يُرى على قَبره نورٌ[١].

إسلام النجاشي والصلاة عليه

قال ابن إسحٰق: وحدّثني جَعْفر بن محمد، عن أبيه، قال: اجتمعت الحبشة، فقالوا للنجاشيّ: إنك قد فارقتَ دينَنا، وخرجوا عليه قال: فأرسل إلى جعفر وأصحابه،

من فقه حديث الهجرة إلى الحبشة:

فصل: ومما في حديث الهجرة إلى الحبشة من الفقه أن جَعْفَر بن أبي طالب قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: كيف نصلّي في السفينة إذا ركبنا في البحر؟ فقال ﷺ: «صلِّ قائمًا إلا أن تخاف الغرق»[٢] خرّجه الدَّارَقُطْنِي، ولكن في إسناده مقال، وفي مُسْند ابن أبي شيبة: وصلّى أنسٌ في السفينة جالسًا. وذكر البخاري عن الحسن: يصلّي قائمًا إلا أنْ يَضُرَّ بأهلها.

حول كتاب النجاشي والصلاة عليه

فصل: وذكر الكتاب الذي كتبه النجاشي، وجعله بين صدره وقَبَائِه، وقال للقوم: أشهد أن عيسى لم يزد على هذا، وفيه من الفقه أنه لا ينبغي للمؤمن أن يكْذِب كذبًا صُرَاحًا، ولا أن يعطي بلسانه الكفر، وإن أُكْره ما أمكنه الحيلة، وفي الْمَعَارِيض مَنْدُوحَةٌ عن الكذب[٣]، وكذلك قال أهل العلم في قول النبي عليه السلام: «ليس بالكاذب مَن أصلح بين اثنين، فقال خيرًا»[٤]. روته أُم كلثوم بنت عُقْبة. قالوا: معناه أن يُعَرِّضَ، ولا

(١) تقدم تخريجه والتعليق عليه.

(٢) «ضعيف الإسناد» الدارقطني (١/ ٢٩٤) بتحقيقي والحاكم (١/ ٢٧٥) والبيهقي (٣/ ١٥٥) وابن الجوزي في العلل (١/ ٤١٥).

(٣) أخرجه البيهقي في الآداب (٣٩٢) بتحقيقي. والبيهقي (١٠/ ١٩٩) وابن عدي (٣/ ٩٦٣). ومندوحة: أي سعة.

(٤) «صحيح». أخرجه البخاري (٣/ ٢٤٠) ومسلم في البرّ والصلة (١٠١) بنحوه والبيهقي في الآداب (١٣١) وأبو داود (٤٩٢٠) وكلاهما بتحقيقي.

فَهَيّأ لهم سُفنًا، وقال: اركبوا فيها، وكُونوا كما أنتم، فإن هُزمتُ فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتُم، وإن ظفرتُ فاثبتُوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبدُه ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قَبَائه عند الْمَنْكِب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصَفُّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألستُ أحقَّ الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبدٌ، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابنُ الله، فقال النجاشيّ، ووضع يده على صدره على قَبَائه: هو يشهد أن عيسى ابنَ مريم لم يَزِد على هذا شيئًا،

يُفْصِحَ بالكذب، مثل أن يقول: سمعته يستغفر لك، ويدعو لك، وهو يعني أنه سمعه يستغفر للمسلمين، ويدعو لهم؛ لأن الآخر من جملة المسلمين، ويحتال في التعريض ما استطاع، ولا يختلق الكذبَ اختلاقًا، وكذلك في خُدْعَةِ الحرب يُوَرِّي، ويَكْنِي، ولا يختلق الكذب يستحله بما جاء من إباحة الكذب في خُدَع الحرب، هذا كله ما وجد إلى الكناية سبيلاً.

وذكر أن رسول الله - ﷺ - صلّى على النجاشي، واستغفر له[1]، وكان موتُ النجاشي في رجب من سنة تسع، ونعاه رسول الله ﷺ إلى الناس في اليوم الذي مات فيه، وصلّى عليه بالبقيع، رُفع إليه سَرِيرُه بأرض الحبشة حتى رآه، وهو بالمدينة فصلّى عليه، وتكلم المنافقون، فقالوا: أيصلّي على هذا العِلْج؟! فأنزل الله تعالى:

﴿وإنَّ مِنْ أهل الكتابِ لمَنْ يُؤمِنُ بالله وما أُنْزِل إليكم وما أُنزل إليهم﴾[2] [آل عمران: ١٩٩]. ومن رواية يونس عن ابن إسحٰق أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب، كان ابنًا للنجاشي نفسه، وأن عليًا وجده عند تاجر بمكة، فاشتراه منه، وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين[3].

وذكر أن الحبشة مَرِجَ عليها أمرها بعد النجاشي، وأنهم أرسلوا وفدًا منهم إلى أبي نَيْزَر، وهو مع علي ليملكوه ويتوّجوه، ولم يختلفوا عليه فأبى وقال: ما كنت لأطلب الملك بعد أن منّ الله عليّ بالإسلام، قال: وكان أبو نَيْزَر من أطول الناس قامة،

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٣/ ١٤٧) ومسلم وغيرهما.
(٢) لا صحة لقصة رفع سرير النجاشي وسبب نزول الآية.
(٣) انظر الإصابة (٣/ ١٣٣).

وإنما يعني ما كَتَب، فرضوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشيُّ صلّى عليه واستغفر له.

وأحسنهم وجهًا، قال: ولم يكن لونه كألوان الحبشة، ولكن إذا رأيته قلت: هذا رجل من العرب.

ذكر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]

قال ابن إسحٰق: ولما قَدِمَ عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة على قُرَيش، ولم يُدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وردّهما النجاشيُّ بما يكرهونه، وأسلم عمرُ بن الخطّاب ـ وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرام ما وراء ظهره ـ امتنع به أصحابُ رسول الله ﷺ، وبحَمْزة حتى عازُّوا قُرَيشًا، وكان عبدُ الله بن مسعود يقول: ما كنَّا نقدر على أن نصلّي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطّاب، فلما أسلم قاتل قريشًا، حتى صلّى عند الكعبة، وصلَّينا معه، وكان إسلام عمر بعد خروج مَنْ خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال البكائي: قال: حدّثني مِسْعَرُ بن كِدَام، عن سَعْد بن إبراهيم، قال: قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنَّا ما نصلّي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم، قاتل قريشًا حتى صلّى عند الكعبة، وصلَّينا معه.

قال ابن إسحٰق: حدّثني عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عَيَّاش بن أبي

إسلام عمر وحديث خباب

فصل: في حديث إسلام عمر. ذكره إلى آخره، وليس فيه إشكال، وكان إسلام عمر والمسلمون إذْ ذاك بضعة وأربعون رجلاً، وإحدى عشرة امرأة.

---

(١) انظر أسد الغابة (٤/ ١٤٥) الاستيعاب (٣/ ١٤٤) صفة الصفوة (١/ ٢٦٨) الطبقات الكبرى (٩/ ١٤١) حلية الأولياء (١/ ٣٨) الكاشف (٢/ ٣٠٩) الإصابة (٤/ ٢٧٩) غاية النهاية (١/ ١٩١) المنتظم (٢/ ٣٨٤) الطبري (١/ ٥٤٩).

ربيعة، عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أُمه أُم عبد الله بنت أبي حَثْمة، قالت:

والله إنَّا لنترحَّلُ إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامرٌ في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطَّاب، حتى وقف عليَّ، وهو على شركه ـ قالت: وكنَّا نلقى منه البلاء أذًى لنا، وشدة علينا ـ قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أُمَّ عبد الله. قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجنّ في أرض الله، آذيتمونا وقَهَرتمونا، حتى يجعل الله مخرجًا. قالت: فقال: صَحِبكم الله، ورأيت له رِقَّة، لم أكن أراها، ثمَّ انصرف وقد أحْزَنه ـ فيما أرى ـ خُروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقالت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمرَ آنفًا ورقَّته وحُزْنه علينا! قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسلم الذي رأيتِ، حتى يُسلم حمار الخطَّاب؛ قالت: يأسًا منه، لِما كان يُرى مِنْ غِلْظته وقَسْوته عن الإسلام.

قال ابن إسحٰق: وكان إسلامُ عمرَ فيما بلغني أن أُختَه فاطمةَ بنت الخطّاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عَمْرو بن نُفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلُها سعيدُ بن زيد، وهما مُستخفيان بإسلامهما من عُمر، وكان نُعيم بن عبد الله النحَّام من مكة، رجل من قومه، من بني عديّ بن كَعْب قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه فَرَقًا من قومه، وكان خبَّاب بن الأرَتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطَّاب يُقرئها القرآن، فخرج عمرُ يومًا متوشِّحًا سيفَه يريد رسول الله ـ ﷺ ـ ورهطًا من أصحابه، قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتَ عند الصَّفا، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ـ ﷺ ـ عمُّه حمزةُ بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصديق، وعليّ بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممّن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكةِ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أُريد محمدًا هذا الصابىء، الذي فرّق أمرَ قُريش، وسفَّه أحلامَها، وعاب دِينها، وسبّ آلهتها، فأقتلُه، فقال له نُعيم: والله لقد غرّتك نفسُك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تارِكيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرَهم؟ قال: وأيّ أهلِ بيتي؟ قال: خَتَنُك وابن عمِّك سعيد بن زيد بن عمرو، وأُختك: فاطمةُ بنت الخطَّاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمرُ عامدًا إلى أُخته وختنه، وعندهما خبَّاب بن الأرت معه صحيفةٌ، فيها: «طٰه» يقرئهما إيَّاها، فلما سمعوا حِسَّ عمر تغيَّب خبَّاب في مُخدع لهم ـ أو في بعض البيت ـ

وفيه: أن خَبَّابًا وهو ابن الأرَتّ كان يقرىء فاطمة بنت الخطاب القرآن، وخَبَّاب تميمي

وأخذت فاطمةُ بنت الخطّاب الصحيفةَ، فجعلتها تحت فخذها، وقد سَمع عمرُ حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الْهَينمةُ التي سمعتُ. قالا له: ما سمعتَ شيئًا، قال: بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أُخته وختنُه: نعم قد أسلمنا، وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بَدَا لك: فلما رأى عمر ما بأُخته من الدم نَدِم على ما صنع، فارْعَوَى، وقال لأُخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سَمِعتُكم تقرؤون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك، قالت له أُخته: إنَّا نَخْشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردَّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجس، على شِركك، وإنه لا يمسّها إلا الطاهر، فقام عمرُ، فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: «طٰه» فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام

بالنسب، وهو خُزاعي بالولاء لأُم أنمار بنت سباع الخزاعي، وكان قد وقع عليه سِبَاء، فاشترته وأعتقته، فولاؤُه لها، وكان أبوها لعوف بن عَبْد عَوْف بن عبد بن الحارث بن زُهرة، فهو زُهْرِي بالحِلْف، وهو ابن الأرتّ بن جَنْدَلة بن سَعْد بن خُزَيمة بن كعب بن سعد بن زَيْدِ مناة بن تميم، كان قَيْنًا يعمل السيوف في الجاهلية، وقد قيل: إن أُمّه كانت أُمّ سِبَاعِ الْخُزاعِيّة، ولم يلحقه سِبَاء، ولكنه انتمى إلى حلفاء أُمه بني زهرة، يكنى: أبا عبد الله، وقيل: أبا يحيىٰ، وقيل أبا محمد مات بالكوفة سنة تسع وثلاثين بعدما شهد مع عَلِيٍّ صِفّين والنَّهْرَوَان، وقيل: بل مات سنة سَبْعٍ وثلاثين. ذكر أن عمر بن الخطاب سأله عما لقي في ذات الله، فكشف ظهره، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد أُوقِدَت لي نار، فما أطفأها إلا شَحْمِي.

تطهير عمر ليمسّ القرآن:

فصل: وفيه ذكر تطهير عمر ليمسّ القرآن، وقول أُخته: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إلاَّ الْمُطَهَّرُون﴾ والمطهرون في هذه الآية هم الملائكة، وهو قول مالك في الموطأ، واحتج بالآية الأخرى التي في سورة عبس، ولكنهم وإن كانوا الملائكة، ففي وصفهم بالطهارة مقرونًا بذكر الْمَسِّ ما يقتضي ألاَّ يمسّه إلا طاهر اقتداء بالملائكة المطهرين، فقد تعلق الحكم بصفة التطهير، ولكنه حكم مندوب إليه؛ وليس محمولاً على الفرض، وكذلك ما كتب به رسول الله ـ ﷺ ـ لعَمْرو بن حزم: «وألاّ يَمَسَّ القرآنَ إلا طاهرٌ»[1] ليس على الفرض، وإن كان الفرض فيه

---

(١) «مرسل». أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٣٧) وأبو داود في مراسيله (١٣٧).

وأكرمَه! فلما سمع ذلك خبَّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدَعْوة نبيِّه، فإني سَمِعته أمس، وهو يقول: اللّٰهمَّ أيِّد الإسلام بأبي الحَكَم بن هشام، أو بعُمر بن الخطَّاب[1]، فالله الله يا عمر: فقال له عند ذلك عمر: فدلَّني يا خَبَّابُ على محمد حتى آتيه، فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصَّفا، معه فيه نَفَر من أصحابه، فأخذ عمرُ سيفه فتوشَّحه، ثم عمد إلى رسول الله - ﷺ - وأصحابه، فضرب عليهم البابَ، فلما سمعوا صوته، قام رجلٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - فنظر من خلَل الباب، فرآه متوشِّحًا السيفَ، فرجع إلى رسول الله - ﷺ -

---

أبين منه في الآية؛ لأنه جاء بلفظ النهي عن مسّه على غير طهارة، ولكن في كتابه إلى هرقل بهذه الآية: ﴿يأَهْلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة﴾ [آل عمران: ٦٤] دليل على ما قلناه، وقد ذهب داود وأبو ثور وطائفة ممن سلف، منهم الْحكمُ بن عُتَيْبَة وحماد بن أبي سُليمان إلى إباحة مسِّ المصحف على غير طهارة، واحتجوا بما ذكرنا من كتابه إلى هرقل، وقالوا: حديث عَمْرو بن حزم مُرْسَلٌ، فلم يروْه حجة، والدارَقُطنِي قد أسنده من طرق حِسان، أفواهًا: رواية أبي داود الطَّيَالِسي عن الزُّهرِي عن أبي بكر بن محمد بن عَمْرو بن حَزْم، عن أبيه عن جدّه، ومما يقوّي أن الْمُطَهَّرين في الآية هم الملائكة، أنه لم يقل: المتطهرون، وإنما قال الْمُطَهَّرون، وفرقٌ ما بين المتطهِّر والمطهَّر: أن المتطهِّر مَنْ فعل الطُّهُور[2]، وأدخل نفسه فيه كالْمُتَفَقه مَن يدخل نفسه في الفقه، وكذلك الْمُتَفَعِّل في أكثر الكلام، وأنشد سيبويه:

وقَـيْـسُ عَـيْـلان ومَـن تَـقَـيَّـسـا

فالآدميون مُتَطهِّرون إذا تطهروا، والملائكة مُطهَّرُون خِلْقَةً، والآدميات إذا تطهرن: مُتَطَهِّراتٌ، وفي التنزيل: ﴿فإذا تَطَهَّرن فأتوهن مِنْ حيث أمركم الله﴾ [البقرة: ٢٢٢] والحور العين مُطَهَّرات، وفي التنزيل: ﴿لهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرة﴾ [النساء: ٥٧] وهذا فرقٌ بَيِّن وقوة لتأويل مالك رحمه الله، والقول عندي في الرسول عليه السلام أنه مُتَطهِّر ومُطَهَّر، أما متطهِّر؛ فلأنه بشر آدمي يغتسل من الجنابة، ويتوضأ من الحَدَث، وأما مطهَّر؛ فلأنه قد غُسل باطنُه، وشُقَّ عن قلبِه، ومُلىء حكمة وإيمانًا فهو مُطَهَّر ومُتَطهِّر، واضمم هذا الفصل إلى ما تقدم في ذكر مولده من هذا المعنى، فإنه تكملة والحمد لله.

---

(١) «حسن». أخرجه الترمذي وأحمد (١/٤٥٦) والطبراني (١١/٢٥٥) وابن سعد (٣/١/١٩٢) والحاكم ٣/٨٣) وابن ماجه (١٠٥).

(٢) الطُهور: أي التطهّر، والطَهور: هو الماء.

وهو فَزِع، فقال: يا رسول الله، هذا عمرُ بنُ الخطّاب مُتَوَشِّحًا السيف، فقال حمزةُ بن عبد المطّلب: فَأْذن له، فإن كان جاء يريد خَيْرًا بَذَلْناه له، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ائذَن له»، فأذِنَ له الرجل، ونهض إليه رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبَذَه به جبذةً شديدةً، وقال: «ما جاء بك يا بن الخطّاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهِي حتى يُنزل الله بك قارعةً»، فقال عمرُ: يا رسول الله، جِئتك لأُومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرةً عَرَف أهلُ البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

فتفرّق أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من مكانهم، وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عُمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيَمْنعان رسول الله ـ ﷺ ـ ويَنْتصفون بهما من عدوّهم. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطّاب حين أسلم.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عبدُ الله بن أبي نجيح المكّي، عن أصحابه: عُطاء، ومجاهد، أو عمّن رُوِيَ ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدّثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مُباعدًا، وكنت صاحبَ خَمْر في الجاهليّة، أحبُّها وأُسَرّ بها، وكان لنا مجلسٌ

وفي تطهّر عمر قبل أن يُظْهر الإسلام قوةٌ لقول ابن القاسم: إن الكافر إذا تطهّر قبل أن يُظهِر إسلامه، ويشهد الشهادتين أنه مُجْزِىءٌ له، وقد عاب قول ابن القاسم هذا كثيرٌ من الفقهاء، وكذلك في خبر إسلام سعد بن مُعاذٍ على يدي مُصْعَب بن عُمَيْر، وقد سأله: كيف يصنع مَن يريد الدخول في هذا الدين، فقال: يتطهر، ثم يشهد بشهادة الحق، ففعل ذلك هو وأُسَيْد بن حُضيْر، وحديث إسلام عمر، وإن كان من أحاديث السِّيَرِ، فقد خرَّجه الدارقُطْني في سُننه، غير أنه خرَّج أيضًا من طريق أنس أن أُخت عمر قالت له: إنك رِجسٌ، ولا يَمَسُّه إلا المطَهَّرُون، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام فتوضأ، ثم أخذ الصحيفة وفيها سورة طٰه[1]، ففي هذه الرواية أنه كان وضوءًا، ولم يكن اغتسالاً، وفي رواية يونس: أن عمر حين قرأ في الصحيفة سورة طٰه انتهى منها إلى قوله: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعى﴾ [طٰه: ١٥] فقال: ما أَطْيَبَ هذا الكلام وأحْسَنَه، وذكر هذا الحديث بطوله، وفيه أن الصحيفة كان فيها مع سورة طٰه: ﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ﴾ وأن عمر انتهى في قراءتها إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ﴾.

---

(١) «ضعيف الإسناد». أخرجه الدارقطني (١/١٢٣) بتحقيقي. وفيه القاسم بن عثمان ـ تفرّد به. قال البخاري: له أحاديث لا يُتابع عليها.

يجتمع فيه رجال من قُرَيش بالحَزْوَرة، عند دُور آل عمر بن عَبْد بن عِمْران المخزومي، قال: فخرجت ليلةً أُريد جُلسائي أولئك في مَجْلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجدْ فيه منهم أحدًا. قال: فقلت: لو أني جئت فلانًا الخمَّار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلِّي أجدُ عنده خمرًا فأشرب منها. قال: فخرجتُ فجِئْته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئتُ الكعبةَ، فطُفْت بها سبعًا أو سبعين. قال: فجئتُ المسجد أُريد أن أطوفَ بالكعبة، فإذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قائمٌ يصلي، وكان إذا صلّى استقبل الشامَ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُصلاه بين الرُّكْنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين رأيتُه: والله لو أني استمعت لمحمدٍ الليلةَ حتى أسمعَ ما يقول! قال: فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأرْوِ عنه، فجِئت من قِبَل الحِجْرِ، فدخلت تحت ثيابها، فجعلتُ أمشي رُوَيدًا، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ قائمٌ يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قِبلته مستقبله، ما بيني وبينه إلا ثيابُ الكعبة. قال: فلما سمعتُ القرآن رقّ له قلبي، فبكيت ودخلني الإسلامُ،

زيادة في إسلام عمر:

فصل: وذكر ابن سُنْجُر زيادة في إسلام عمر، قال: حدّثنا أبو المغيرة قال: نا صفوان بن عمرو، قال: حدّثني شُرَيْحُ بن عبيد، قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقَّةِ، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن قال: قلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، فقرأ: ﴿إنَّه لقَوْلُ رسولٍ كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تُؤْمِنُون﴾ قال: قُلْتُ: كاهنٌ عَلم ما في نفسي، فقال: ﴿ولاَ بِقَول كاهنٍ قليلاً ما تَذَكَّرُون﴾ إلى آخر السورة قال: فوقع الإسلامُ في قلبي كل موقع، وقال عمر حين أسلم:

الحمدُ لله ذي الْمَنِّ الذي وَجَبَتْ	له علينا أيادٍ ما لها غير
وقد بدأنا فكذَّبْنا، فقال لنا	صدقَ الحديث نبيٌّ عنده الخبر
وقد ظلمتُ ابنةَ الخطابِ ثم هدى	ربي عَشِيَّة قالوا: قد صَبَا عُمر
وقد نَدِمْتُ على ما كان من زَلَلٍ	بظلمها حين تُتْلى عندها السُّور
لما دعت ربَّها ذا العرش جاهدة	والدمعُ من عينها عَجْلاَنَ يَبْتَدِرُ
أيقنتُ أن الذي تدعوه خالقُها	فكاد تسبقني من عِبْرَة دِرَرُ
فقلت: أشهد أن الله خالقُنا	وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبيُّ صِدْقٍ أتى بالحق مِنْ ثقةٍ	وافى الأمانةِ ما في عُوده خَوَرُ

فلم أزل قائمًا في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله - ﷺ - صلاتَه، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسَين، وكانت طريقه، حتى يَجْزَع الْمَسْعى، ثُم يَسْلُك بين دار عبَّاس بن المطَّلب، وبين دار ابن أزْهر بن عبد عَوْف الزُّهري، ثم على دار الأخْنس بن شَريق، حتى يدخل بيتَه، وكان مسكنُه - ﷺ - في الدار الرَّقْطاء، التي كانت بيدَي مُعاويةَ بن أبي سفيان. قال عمر رضي الله عنه: فتبعتُه حتى إذا دخل بين دار عبَّاس، ودار ابن أزهر، أدركتُه، فلما سمع رسول الله - ﷺ - حسِّي عَرَفني، فظن رسول الله - ﷺ - أني إنما تَبِعْته لأُوذيه، فَنَهمني، ثم قال: «ما جاء بك يا بن الخَطَّاب هذه الساعةَ»؟ قال: قلت: جئت لأُومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فحَمِدَ الله رسول الله - ﷺ - ثم قال: «قدَ هَداك الله يا عمر»، ثم مَسح صَدْري، ودعا لي بالثَّبات، ثم انصرفتُ عن رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله ﷺ بيتَه.

قال ابن إسحٰق: والله أعلم أيّ ذلك كان.

رواه يونس عن ابن إسحٰق. وذكر البَزَّارُ في إسلام عمر أنه قال: فلما أخذت الصحيفة، فإذا فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، فجعلت أفكر: مِن أي شيء اشتق، ثم قرأت فيها: ﴿سَبَّح لِلَّه ما في السمٰوات والأرض [وهو العزيز الحكيم]﴾ أول الحديد. وجعلت أقرأ وأُفكر حتى بلغت: ﴿آمنوا بالله ورسوله﴾ [الحديد: ٧]. فقلت: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[١].

من تفسير حديث إسلام عمر:

فصل: وفي حديث إسلام عمر: قال: ما هذه الهَيْنَمَة، والْهَيْنَمةُ: كلام لا يفهم، واسم الفاعل منهُ مُهَيْنِم، كأنه تصغير، وليس بتصغير، ومثله الْمُبَيْطر، والْمُهَيْمِن، والْمُبَيْقِر بالقاف، وهو المهاجر من بلد إلى بلد، والْمُسَيْطِر، ولو صغَّرت واحدًا من هذه الأسماء لحذفت الياء الزائدة، كما تحذف الألف من مفاعل، وتلحق ياء التصغير في موضعها، فيعود اللفظ إلى ما كان، فيقال في تصغير مُهَيْنم ومُبيْطِر: مُهَيْنِمٌ ومُبَيْطِرٌ، فإن قيل: فَهَلاً قلتم: إنه لا يُصَغَّر؛ إذ لا يُعْقَل تصغيرٌ على لفظ التكبير، وإلا فما الفرْق؟ فالجواب أنه قد يظهر الفرق بينهما في مواضع، منها: الجمع، فإنك تجمع مُبَيْطرًا: مَباطر بحذف الياء، وإذا كان مُصَغَّرًا لا يجمع إلا بالواو والنون، فتقول: مُبَيطِرُون، وذلك أن التصغير لا يكسر؛ لأن تكسيره يؤدّي إلى حذف الياء في الخماسي؛ لأنها زائدة كالألف، فيذهب معنى التصغير، وأما الثلاثي المصغَّر

---

(١) أخرجه البزار (١/ ١٣) (٣/ ٤٥).

قال ابن إسحٰق: وحدّثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن ابن عمر، قال: لما أسلم أبي عمرُ، قال: أي قريش أنْقَلُ للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجُمَحِي. قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عُمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلامٌ أعقِل كلَّ ما رأيتُ، حتى جاءه، فقال له: أعلمتَ يا جميلُ أني قد أسلمت: ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه واتّبعه عمر، واتبعتُ أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صَرَخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول باب

فيؤدّي تكسيره إلى تحريك ياءِ التصغير أو همزها، وذلك أن يقال في فُلَيْس فلائس، فيذهب أيضًا معنى التصغير لتصغير لفظ الياء التي هي دالّة عليه، ولو بَنَيْت اسم فاعل من: بيأس لقلت فيه مُبَيْئِس، ولو سهلت الهمزة حركت الّياء فقلت فيه: مُبَيِّيس، وتقول في تصغيره إذا صغرته: مُبَيِّس بالإدغام، كما تقول [في] أبوس: أبيس، ولا تنقل حركة الهمزة إلى الياء إذا سهلت، كما تنقلها في اسم الفاعل من بَيأس ونحْوه، إذا سهلت الهمزة، وهذه مسألة من التصغير بديعة يقوم على تصحيحها البرهان.

حول النهيم وهكذا:

فصل: وفي حديث إسلام عمر: فَنَهَمَه رسول الله ـ ﷺ ـ أي: زجره، والنَّهِيمُ؛ زَجْر الأسد، والنَّهامِيُّ: الحدَّاد والنُّهام: طائر، وفيه قول العاصي بن وائل قال: هكذا [خلوا] عن الرجل، وهي كلمة معناها: الأمر بالتنحّي، فليس يعمل فيها ما قبلها، كما يعمل إذا قلت: اجلس هكذا، أي: على هذه الحال، وإن كان لا بدّ من عامل فيها إذا جعلتها للأمر، لأنها كافُ التشبيه دخلت على ذا، وها: تَنْبيهٌ، فيقدر العامل إذًا مُضمَرًا، كأنك قلت: ارجعوا هكذا، وتأخروا هكذا، واستُغني بقولك: هكذا عن الفعل، كما استغنى برُوَيْدًا عن ارفق.

جميل بن معمر:

فصل: وذكر قول عمر لجميل بن مَعْمَر الْجُمَحي: إني قد أسلمت، وبايعت محمدًا، فصرخ جميل بأعلى صوته: ألا إن عمر قد صبأ. جميل هذا هو الذي كان يقال له: ذو القلبين[1]، وفيه نزلت في أحد الأقوال: ﴿ما جَعَل الله لرَجُل من قلبين في جوفه﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفيه قيل:

وكيف ثَوَائي بالمدينة بعدما ... قَضَى وَطَرًا منها جميلُ بن مَعْمَر

---

(١) قيل: لحفظه، وقيل لعقله ونباهته.

الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ، قال: يقول عمرُ من خلفه: كَذَب، ولكني قد أسلمتُ، وشهدتُ أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسوله. وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويُقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم. قال: وطَلَح، فقَعد وقامُوا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كُنَّا ثلثمائة رجل لتركناها لكم، أو لتركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخٌ من قريش، عليه حُلَّة حِبَرَة، وقميصٌ مُوشًّى، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صَبَأَ عمر، فقال: فمَهْ، رجلٌ اختار لنفسه أمرًا، فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا؟! خلُّوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كُشِط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجلُ الذي زجر القومَ عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يُقاتلونك؟ فقال: ذلك، أي بُني، العاصُ بن وائل السهمي.

قال ابن هشام: حدّثني بعضُ أهل العلم، أنه قال: يا أبت، مَن الرجلُ الذي زَجر القومَ عنك يوم أسلمتَ، وهم يقاتلونك، جزاه الله خيرًا؟ قال: يا بني ذاك العاص بنُ وائل، لا جزاه الله خيرًا.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عبد الرحمٰن بن الحارث عن بعض آل عُمر، أو بعض أهله، قال: قال عمر: لمّا أسلمتُ تلك الليلةَ، تذكَّرت أيّ أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه، فأخبره أني قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل ـ وكان عُمر لحَنْتَمَة بنت هشام بن المُغيرة ـ قال: فأقبلت حين أصبحتُ، حتى ضربتُ عليه بابَه. قال: فخرج إليَّ أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلاً يا بن أُختي، ما جاء بك؟ جئتُ لأُخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب البابَ في وجهي، وقال: قبَّحك الله، وقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ.

وهو البيت الذي تغنَّى به عبد الرحمن بن عوف في منزله، واستأذن عمر فسمعه، وهو يتغنَّى، وينشد بالركبانية، وهو غِناء يُحدى به الرِّكَابُ، فلما دخل عمرُ قال له عبد الرحمن: إنّا إذا خلونا، قلنا ما يقول الناس في بيوتهم، وقلب المبرد هذا الحديث، وجعل المنشد عُمَر، والمستأذنَ عبدَ الرحمن، ورواه الزبير[1] كما تقدم، وهو أعلم بهذا الشأن.

(١) انظر نسب قريش (ص ٤٤٨).

خبر الصحيفة[1]

قال ابن إسحٰق: فلما رأت قُريشٌ أنّ أصحاب رسولِ الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشيّ قد منع مَنْ لجأ إليه منهم، وأنّ عمر قد أسْلم، فكان هو وحَمْزة بن عبد المطّلب مع رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، وجعل الإسلامُ يَفْشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطّلب، على أن لا يُنْكِحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صَحيفة، ثم تعاهدوا وتَواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفةَ في جَوْف الكعبة توكيدًا على أنفسهم، وكان كاتبَ الصحيفة منصورُ بن عِكرمة بن عامر بن هاشم بن عَبْد مناف بن عَبْد الدار بن قُصَيّ ـ قال ابن هشام: ويقال: النضر بن الحارث ـ فدعا عليه رسولُ الله ﷺ، فَشَلّ بعضُ أصابعه.

قال ابن إسحٰق: فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطّلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شِعْبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم: أبو لَهَب عبد العُزّى بن عبد المطّلب، إلى قريش، فظاهرهم.

موقف أبي لهب من رسول الله ﷺ:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني حُسين بن عبد الله: أنّ أبا لهب لقي هِنْد بنت عُتْبة بن

حديث الصحيفة التي كتبتها قريش

ذكر فيه قول أبي لهبٍ ليديه: تَبًّا لكما، لا أرى فيكما شيئًا مما يقول محمد، فأنزل الله

---

(١) انظر البداية (٣/٩٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٠) تاريخ الطبري (٢/ ٣٤١) الكامل (١/ ٦٠٤) المنتظم (٣/٣).

رَبيعة، حين فارق قومَه، وظاهر عليهم قريشًا، فقال: يا بنت عتبة؛ هل نصرتِ اللات والعُزّى، وفارقتِ مَن فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم: فجزاك الله خيرًا يا أبا عُتْبة.

قال ابن إسحٰق: وحُدِّثت أنه كان يقول في بعض ما يقول: يَعدني محمدٌ أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنةٌ بعد الموت، فماذا وضع في يديّ بعد ذلك، ثم ينفخ في يَدَيْه ويقول: تبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئًا مما يقول محمد، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

قال ابن هشام: تبّت: خسرت. والتباب: الخسران. قال حَبيب بن خُدْرة الخارجي: أحدُ بني هِلال بن عامر بن صَعْصعة:

يا طيب إنّا في مَعْشرٍ ذهبتْ مَسْعاتُهم في التَّبارِ والتَّببِ

وهذا البيت في قصيدة له.

تعالى: ﴿تبّت يدا أبي لهب وتب﴾، هذا الذي ذكره ابن إسحٰق يشبه أن يكون سببًا لذكر الله سبحانه يديه، حيث يقول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ﴾ وأما قوله: وتَبَّ، فتفسيره ما جاء في الصحيح من رواية مجاهد وسعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس، قال: لما أنزل الله تعالى: ﴿وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى أتى الصفا، فصعد عليه، فهتف: «يَا صَبَاحَاهْ»، فلما اجتمعوا إليه، قال: «أرأيْتُمْ لو أخبرتُكم أن خَيْلاً تخرج من سَفْح هذا الجبل، أكُنْتُمْ مُصَدِّقيّ»؟ قالوا: ما جَرَّبنا عليك كذبًا. قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عَذَابٍ شديد. فقال أبو لهب: تَبًّا لك ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ﴾، وقد تَبَّ[1]. هكذا قرأ مجاهد والأعمش، وهي ـ والله أعلم ـ قراءة مأخوذةٌ عن ابن مسعود، لأن في قراءة ابن مسعود ألفاظًا كثيرة تُعين على التفسير قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس، ما احتجت أنْ أسأَله عن كثير مما سألته، وكذلك زيادة قد في هذه الآية، فَسَّرت أنه خبر من الله تعالى، وأن الكلام ليس على جهة الدعاء، كما قال تعالى: ﴿قاتلهم الله أنّى يُؤْفَكُون﴾ [التوبة: ٣٠]، أي: إنهم أهلٌ أن يقال لهم هذا، فتبّت يدا أبي لهب، ليس من باب: قاتلهم اللّهُ، ولكنه خَبَر مَحْضٌ بأن قد خسر أهله وماله، واليدان: آلة الكسبِ، وأهلُه ومالُه مما كسب فقوله: ﴿تبَّت يدا أبي لَهَبٍ﴾، تفسيره قوله: ﴿ما أغنى عنه مالُه وما كَسَبَ﴾ وولَدُ الرجل من كَسْبه، كما جاء في الحديث، أي خسرت يداه هذا الذي كسبت، وقوله: وتبَّ، تفسيره. ﴿سَيَصْلى نارًا ذات لهبٍ﴾ أي: قد خَسِر

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٢١) ومسلم وأحمد (١/ ٣٠٧) والبيهقي في الدلائل (٢/ ١٨١) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٢٦).

شعر أبي طالب

قال ابن إسحٰق: فلما اجتمعت على ذلك قُريش، وصنعوا فيه الذي صنعوا، قال أبو طالب:

ألا أبلغا عنّي على ذاتِ بَيْننا لُؤَيًّا وخُصًّا من لُؤَيٍّ بني كَعْبِ
ألم تَعْلَمُوا أنّا وَجَدنا محمدًا نبيًّا كموسى خُطَّ في أوّل الكُتْبِ

نفسه بدخوله النار، وقولُ أبي لهب: تبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئًا، يعني: يديه: سببٌ لنزول تَبَّت يدا كما تقدم.

وقوله في الحديث الآخر: تَبًّا لك يا محمد، سببٌ لنُزُول قوله سبحانه: ﴿وتبْ﴾ فالكلمتان في التنزيل مبنيتان على السببين، والآيتان بعدهما تفسير للتبيِّن. تَبَابِ يديه، وتبابه هو في نفسه، والتَّبَبُ على وزن التَّلَف لأنه في معناه، والتَّبَابُ كالهلاك والْخَسَارِ وَزْنًا ومعنى، ولذلك قيل فيه: تَبَبٌ وتبَابٌ.

من تفسير شعر أبي طالب

فصل: ذكر شعر أبي طالب:

ألا أبلغا عني على ذاتِ بيننا

قال قاسم بن ثابت: ذات بيننا، وذات يده، وما كان نحوه: صفةٌ لمحذوفٍ مؤنث، كأنه يريد الحال التي هي ذات بينهم كما قال الله سبحانه: ﴿وأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُم﴾ [الأنفال: ١] فكذلك إذا قلت: ذات يده. يريد أمواله، أوْ مكْتَسباته، كما قال عليه السلام: «أزعاه على زَوْج في ذات يده»[1]، وكذلك إذا قلت: لقيته ذاتَ يوم، أي: لقاءةً أو مرَّةً ذات يوم، فما حُذف الموصوف، وبقيت الصفةُ صارت كالحال لا تتمكن، ولا تُرفع في باب ما لم يُسَمَّ فاعلُه، كما ترفع الظروف الْمُتمكِّنة، وإنما هو كقولك: سير عليه شديدًا وطويلاً، وقول الخَثْعَمِي ـ واسمه: أنس بن مالك [مدرك]: عزمت على إقامة ذات صباح، ليس هو عندي من هذا الباب، وإن كان سيبويه قد جعلها لغة لخثعم، ولكنه على معنى إقامة يوم، وكل يوم هو ذو صباح، كما تقول، ما كلمني ذو شَفَة، أي: متكلم، وما مررت بذي نفس،

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/٧) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٠٠/٢٠٢) وأحمد (٢/ ٢٧٥/ ٤٤٩) والبيهقي (٧/ ٢٩٣) والحميدي (١٠٤٧) وعبد الرزاق (٢٠٦٠٣) والبيهقي في الآداب (٢١) بتحقيقي. وانظر الفتح (٩/ ٥١١).

فلا يكون من باب: ذَاتَ مَرَّة الذي لا يتمكن في الكلام، وقد وجدت في حديث قَيْلَة بنت مَخْرَمة، وهو حديث طويل وقع في مسند ابن أبي شَيْبَة: أن أُختها قالت لبعلها: إن أُختي تريد المسير مع زوجها حُرَيْثٍ بن حَسَّان ذا صباح بين سَمْع الأرض وبصرها، فهذا يكون من باب: ذات مرة، وذات يوم، غير أنه ورد مذكّرًا؛ لأنه تشتغل تاء التأنيث مع الصَّاد، وتوالي الحركات، فحذفوها، فقالوا: لقيته ذا صباح، وهذا لا يتمكن كما لا يتمكن: ذات يوم وذات حين، ولا يضاف إليه مصدر، ولا غيره. وقول الْخَثْعَمِيِّ: عزمت على إقامة ذي صباح قد أضاف إليه، فكيف يضيف إليه، ثم ينصبه، أو كيف يضارع الحال مع إضافة المصدر إليه؟ فكذلك خفضه، وأخرجه عن نظائره، إلا أن يكون سيبويه سمع خثعم يقولون: سرت في ذات يوم، أو سِيرَ عليه ذاتُ يوم برفع التاء، فحينئذ يسوغ له أن يقول: لغة خثعم، وأما البيت الذي تقدم فالشاهد له فيه، وما أظن خَثْعَمَ، ولا أحدًا من العرب يُجيز التمكن في نحو هذا، وإخراجه عن النصب، والله أعلم.

لا التي للتبرئة:

فصل: وفيـــه:

ولا خـيـر مـمّـن خـصّـه الله بـالـحـب

وهو مشكل جدًا لأن لا في باب التبرئة لا تنصب مثل هذا إلا مُنَوَّنًا تقول: لا خَيْرًا من زيد في الدار، ولا شرًا من فلان، وإنما تَنصب بغير تنوين إذا كان الاسم غير موصول بما بعده، كقوله تعالى: ﴿لا تَثْرِيب عليكم اليوم﴾ [يوسف: ٩٢]. لأن عليكم ليس من صلة التثريب، لأنه في موضع الخبر، وأشبه ما يقال في بيت أبي طالب أن خيرًا مخفف، من خَيِّرٍ كَهَيْن وَمَيْت [من هَيِّن ومَيِّتٍ] وفي التنزيل: ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] هو مخفف من خَيِّرات.

عود إلى شرح شعر أبي طالب:

وقوله: مِمَّن. من، متعلقة بمحذوف، كأنه قال: لا خَيْر أخير مِمَّن خَصَّه الله، وخَيْر وأَخْيَرُ: لفظان من جنس واحدٍ، فحُسنَ الحذفُ استثقالاً لتكرار اللفظ، كما حَسُن: ﴿ولكن الْبِرَّ مَنْ آمن بالله﴾ [البقرة: ١٧٧]. و﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] لما في تكرار الكلمة مرتين من الثقل على اللسان، وأغرب من هذا قول الله تعالى: ﴿ولو يُعَجِّلُ اللَّهُ للناسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالُهم بالْخَيْرِ﴾ [يونس: ١١] أي: لو عجله لهم إذا اسْتَعْجَلوا به اسْتِعْجَالاً مثل استعجالهم بالْخَيْر، فحسن هذا الكلامُ لما في الكلام من ثقل التكرار، وإذا حذفوا حرفًا واحدًا لهذه العلة كقولهم: بَلْحَرث بنون فلان، وظَلْتَ وأحشت فأحرى أن يحذفوا كلمة من

وأن الذي ألصقتمُ من كِتابكم | لَكُم كائن نحسًا كَراغية السَّقْبِ
أَفِيقوا أَفِيقوا، قبل أن يُحفَر الثَّرَى | ويُصبح مَنْ لم يَجْنِ ذنبًا كذي الذنْب
ولا تَتْبعوا أمرَ الوُشاة، وتَقْطَعوا | أواصرَنا بعد المودَّة والقُرْبِ
وتَسْتجلبوا حَرْبًا عَوَانًا، وربما | أمرّ على مَن ذاقه جَلبُ الحَرْبِ
فلسنا ـ وربّ البيت ـ نُسلمُ أحمدًا | لعَزَّاءَ من عضّ الزّمان ولا كَرْب
ولمَّا تَبِنْ منَّا، ومنكم سَوالف | وأيدٍ أُترّت بالقُساسيَّة الشُّهب
بمعْتَرك ضَيْق ترى كِسَر القَنا | به والنسورَ الطُّخم، يَعْكُفن كالشَّرْبِ

حروف، فهذا أصل مُطَّرِدٌ، ويجوز فيه وجه آخر، وهو أن يكون حذف التنوين مراعاة لأصل الكلمة؛ لأن خَيْرًا من زيد إنما معناه: أخير من زيد، وكذلك: شَرٌّ من فلان، إنما أصله: أشَرُّ على وزن أفعَل، وحذفت الهمزة تخفيفًا، وأفعل لا ينصرف، فإذا انحذفت الهمزة انصرف ونُوِّن، فإذا توهمتها غير ساقطةٍ التفاتًا إلى أصل الكلمة، لم يبعد حذف التنوين على هذا الوجه مع ما يقوّيه من ضرورة الشعر.

وقوله: بالقُسَاسِيَّة الشُهب، يعني: السيوف، نسبها إلى قُسَاس، وهو معدن حديد لبني أسد، وقيل اسم للجبل الذي فيه المعدن: قال الراجز يصف فأسًا:

أحضر من معدنِ ذِي قُساس[1] | كأنه في الحَيْدِ ذي الأضراس

يُرمى به في البلد الدَّهَاس

وقال أبو عبيد في القُساسِيَّة: لا أدري إلى أيّ شيء نُسِبَ، والذي ذكرناه قاله الْمُبَرَّدِ، وقوله: ذي قُساس كما حكى، ذو زيد، أي: صاحب هذا الاسم، وفي أقيال حِمْير: ذو كَلاَعٍ، وذو عَمْرو، أُضيف المسمّى إلى اسمه، كما قالوا: زيد بَطَّة، أضافوه إلى لقبه.

وذكر فيه النسور الطخمة، قيل: هي السود الرؤوس، قاله صاحب العين، وقال أيضًا: الطُّخمةُ سواد في مقدم الأنف.

وقوله: كراغية السَّقْبِ يريد ولد الناقة التي عقرها قُدار، فرغا ولدُها، فصاح برُغائه كُلُّ شيء له صوت، فهلكت ثمود عند ذلك، فضربت العرب ذلك مثلاً في كل هَلَكة. كما قال علقمة [بن عَبَدَة]:

رغا فوقهم سَقْبُ السماء فداحِصٌ | بِشكَّتِهِ لم يُسْتَلَبْ وسليبُ

---

(١) قساس: اسم بلد تنسب إليه السيوف القاسية، وقيل اسم جبل لبني نمير.

كأنَّ مُجالَ الخيل في حَجَراته ... ومَغْمَعة الأبطال مَعْركة الحَرْب
أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أزْرَه ... وأوصَى بَنيه بالطِّعان وبالضَّرْب
ولسْنا نَمَلّ الحربَ، حتى تَمَلَّنا ... ولا نَشْتكي ما قد يَنوب من النَّكْبِ
ولكنَّنا أهلُ الحَفائظ والنُّهى ... إذا طار أرواحُ الكُماة من الرَّعْب

فأقاموا على ذلك سَنَتين أو ثلاثًا، حتى جُهِدوا لا يصل إليهم شيءٌ، إلاَّ سرًّا مستخفيًا به مَنْ أراد صِلَتهم من قريش.

من جهالة أبي جهل:

وقد كان أبو جهل بن هشام ـ فيما يذكرون ـ لقِي حَكيم بن حِزام بن خُويلد بن أسَد، معه غلام يَحْمل قمحًا يُريد به عمته خَديجة بنت خُويلد، وهي عند رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه في الشِّعب، فتعلَّق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم!؟ والله لا تبرح أنت وطعامُك، حتى أفْضحك بمكة. فجاءه أبو البَخْتري بن هاشم بن الحارث بن أسَد [بن عبد العزى]، فقال: ما لك وله؟ فقال: يحمل الطعامَ إلى بني هاشم، فقال أبو البَخْتَرِيّ: طعامٌ كان لعمَّته عنده بعثت إليه [فيه]، أفتمنعه أن يأتيها بطَعامها؟! خلّ سبيلَ الرجل، فأبى أبو جهل، حتى نال أحدُهما من صاحبه، فأخذ أبو البَخْترِيّ لَحْيَ بَعيرٍ، فضربه به فشجَّه، ووطئه وطْأً شديدًا، وحمزةُ بن عبد المطلب قريب يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله ـ ﷺ ـ على ذلك يدعو قومَه ليلاً ونهارًا وسرًّا وجهارًا، مناديًا بأمْر الله لا يتَّقي فيه أحدًا من النَّاس.

ما لقي رسول الله ﷺ من قومه:

فجعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمُّه وقومُه من بني هاشم وبني المطلب دونه، وحالوا بينهم، وبين ما أرادوا من البَطْش به، يَهْمِزونه، ويَسْتَهْزِئُون به، ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قُريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، ومنهم مَن سُمِّيَ لنا.

وقال آخر:

لَعَمْرِي لقد لاقت سُلَيْمٌ وعامر ... على جانب الثَّرْثَار[1] راغيةَ الْبِكْر

(١) الثرثار: وادٍ بالجزيرة.

أبو لهب وامرأته

ومنهم مَن نزل فيه القرآن في عامّة مَنْ ذكر الله من الكفّار، فكان ممّن سُمّي لنا من قُريش ممّن نزل فيه القرآن: عمّه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أُمّ جَميل بنت حَرْب بن أُميَّة، حمّالة الحطب، وإنما سمّاها الله تعالى حمّالة الحطب؛ لأنها كانت ـ فيما بلغني ـ تَحمل الشوك، فتطرحه على طريق رسول الله ـ ﷺ ـ حيث يمرّ، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ ما أَغْنَى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لَهَبٍ وَامرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ في جِيدها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾[1].

قال ابن هشام: الجِيد: العنق. قال أعشى بَني قَيْس بن ثعلبة:

يومَ تُبدي لنا قَتيلة عَنْ جِيـ ـدِ أَسِيلٍ تَزِينُه الأطواقُ

وهذا البيت في قصيدة له. وجمعه: أجياد. والمسد: شجرٌ يدِقّ كما يَدِقّ الكَتَّان، فتفتل منه حبال. قال النابغة الذبياني ـ واسمه: زياد بن عَمْرو بن معاوية:

مقذوفةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بازِلُهَا له صَرِيفٌ صَرِيفَ القَعْو بالمَسَدِ

وهذا البيت في قصيدة له، وواحدته: مَسَدَة.

ذكر أُم جميل والمسد وعذابها

فصل: وذكر أُم جميل بنت حرب عمّة معاوية، وذكر أنها كانت تحمل الشوك، وتطرحه في طريق رسول الله ـ ﷺ ـ فأنزل الله فيها: ﴿وامرأته حَمَّالة الْحَطب﴾ قال المؤلف: فلما كَنَّى عن ذلك الشوك بالحطب، والحطبُ لا يكون إلا في حبل، مِنْ ثَمَّ جعل الحبل في عنقها، ليقابل الجزاء الفعل.

وقوله: من مَسَد، هو من مَسَدْت الحبل إذا أحكمتَ فَتْله، إلا أنه قال: من مَسَدٍ، ولم يقل: حبلٌ مَسَدٌ ولا مَمْسُود لمعنى لطيف، ذكره بعض أهل التفسير، قال: المسد يُعَبَّر به في العُرْف عن حبل الدَّلو، وقد رُوِيَ أنه يُصنع بها في النَّار ما يُصنع بالدَّلو، تُرْفع بالمسد في عنقها إلى شَفِير جهنم، ثم يُرمى بها إلى قعرها هكذا أبدًا، وقولهم: إن المسد هو حبل الدلو في العُرْف صحيحٌ فإنّا لم نجده في كلام العرب إلا كذلك، كقول [النابغة] الذُّبْيَاني:

له صَرِيفٌ صريفَ القَعْو بالمَسَد

---

(١) سورة المسد.

....

وقال الآخر وهو يستقي على إبله:

يا مَسَد الخُوصِ تَعَوَّذْ مِنّي ... إنْ تَكُ لَدْنًا لَيِّنًا فإنّي
ما شئت من أشْمَطَ مُقْسَئِنِّ[1]

وقال آخر:

يا رَبِّ عَبْسٍ لا تُبَارِكْ في أحَدْ ... في قائم منهم، ولا فيمن قَعَدْ
غير الأُولى شَدُّوا بأطرافِ الْمَسَدْ

أي: استقوا، وقال آخر[2]، وهو يستقي:

وَمَسَدٍ أُمِرَّ من أيَانِقِ ... ليس بأنياب[3] ولاَ حَقائِقِ[4]

يريد: جمع أيْنُق، وأينُق: جمع ناقة مقلوب، وأصله: أنوق، فقلب، وأُبدلت الواو ياء؛ لأنها قد أُبدلت ياء للكسرة، إذا قالوا: نياق، وقلبوه فرارًا من اجتماع همزتين لو قالوا: أنوق على الأصل، يريد أن المسد من جلودها. وفي الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال في المدينة: «قد حرّمتها إلا لعُصْفُور قَتَبٍ، أو مَسَد مَحَالةٌ، والْمَحَالةَ: الْبَكَرَةُ. وفي حديث آخر: أنه حرّمها بريدًا في بريد إلا الْمِنْجَدَة أو مسد، والْمِنْجَدَةُ: عصا الراعي. وقال أبو حنيفة في النبات: كلُّ مَسَدٍ رِشاء، وأنشد:

وَبَكْرَةً وَمِحْوَرًا صَرَّارًا ... وَمَسَدًا من أبَقٍ مُغَارا

وَالأبَقُ: الْقِنَّبُ، وَالزِّبْرُ: الكَتَّانُ، وأنشد أيضًا:

أنزعُها تمطيًا وَمَتًّا ... بالمَسَد الْمَثْلُوث أو يَزِمْتا

فقد بانَ لك بهذا أن الْمَسَد حبل البئر، وقد جاء في صفة جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ أنها كَطَيِّ البئر لها قَرْنان، والْقَرْنَانِ من البئر: كالدِّعامَتَيْن لِلْبَكَرَةِ، فقد بانَ لك بهذا كله، ما ذكره أهل التفسير من صفة عذابها أعاذنا الله من عذابه وأليم عقابه، وبهذا تناسب الكلام، وكثرت معانيه، وتنزّه عن أن يكون فيه حَشْوٌ أو لغو ـ تعالى الله منزله؛ فإنه كتاب عزيز.

---

(١) أي الشيخ الكبير.

(٢) هو: عمارة بن طارق. وقيل البيت لعقبة الهجيمي.

(٣) أنياب: جمع ناب. وهي الناقة الكبيرة السنّ.

(٤) حقائق: جمع حقة. وهي الناقة في السنة الرابعة.

وقول مجاهد: إنها السِّلسِلة التي ذَرْعها سبعون ذراعًا لا ينفي ما تقدم، إذ يجوز أن يَرْبِقَ في تلك السلسلة أُمَّ جميلٍ وغيرها، فقد قال أبو الدرداء لامرأته: يا أُمَّ الدرداء إن لِلَّهِ سلسلة تغلي بها مراجلُ جهنم منذ خلق الله النار إلى يوم القيامة، وقد نجّاك من نصفها بالإيمان بالله، فاجتهدي في النجاة من النصف الآخر بالحضّ على طعام المسكين، وكذلك قول مجاهد: إنها كانت تمشي بالنمائم لا ينفي حملها للشوك، وهو في كلام العرب سائغ أيضًا، فقد قال ابن الأسلت لقريش حين اختلفوا:

وَنُبِّئْتُكم شَرْجَيْنِ[1] كل قبيلة لها زُمَّل من بينِ مُذْك وحاطب

فالْمُذكي الذي يذكي نار العداوة، والحاطب الذي يَنِمُّ ويغري كالمحتطب للنار، ومن هذا المعنى، وكأنه مُنْتَزَع منه قول النبي ـ ﷺ ـ: «لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ»[2] والقتّات هو الذي يجمع القَتَّ، وهو ما يوقد به النار من حشيش وحطب صغار.

عن الجيد والعنق:

وقوله: في جِيدها، ولم يقل: في عنقها، والمعروف أن يُذكر العنق إذا ذُكر الغُل، أو الصَّفْع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنا في أعناقهم أغْلالًا﴾ [يس: ٨] ويذكر الجيد إذا ذُكر الحُلِيُّ أو الحسن، فإنما حَسُن هٰهنا ذكر الجيد في حُكم البلاغة؛ لأنها امرأة، والنساء تحلّي أجيادهنّ، وأم جميل لا حُلِيَّ لها في الآخرة إلا الحبل المجعول في عنقها، فلما أُقيم لها ذلك مقام الحليّ ذكر الجيد معه، فتأمله؛ فإنه معنى لطيف، ألا ترى إلى قول الأعشى:

يَوْمَ تُبدي لنا قُتَيْلَة عن جِيد

ولم يقل: عن عنق، وقول الآخر:

وأحسنُ من عقد المليحة جيدُها

ولم يقل: عنقها، ولو قاله لكان غَثًّا من الكلام، فإنما يحسن ذكر الجيد حيث قلنا،

---

(١) الشرج: الضرب.

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (٨/ ٢١) ومسلم في الإيمان (١٦٩) وأبو داود (٤٨٧١) بتحقيقي. والترمذي (٢٠٢٦) والنسائي (٨/ ٣١٨) وابن خزيمة في التوحيد (٣٥٨) والبيهقي في الآداب (١٣٧) بتحقيقي.

ويُنظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم﴾ [آل عمران: ٢١] أي لا بُشرى لهم إلا ذلك، وقول الشاعر [عَمْرو بن مَعْدي كَرِبَ]:

[وخَيْلٍ قد دَلَفْتُ لها بِخَيْلٍ] تَحِيَّةُ بينهم كَرْبٌ وجيعُ

أي: لا تحية لهم. كذلك قوله: في جيدها حبل من مسد، أي: ليس ثَمَّ جيد يُحَلّى، إنما هو حبل المسد، وانظر كيف قال: وامرأتُهُ، ولم يقل: وزوجه؛ لأنها ليست بزوج له في الآخرة، ولأن التزويج حِلية شَرْعية، وهو من أمر الدين يجرّدها من هذه الصفة، كما جرّد منها امرأة نوح وامرأة لوط، فلم يقل: زوج نوح، وقد قال لآدم: ﴿اسْكُنْ أنتَ وزوجُك﴾ [البقرة: ٣٥] وقال لنبيه عليه السلام: ﴿قل لأزواجك﴾، وقال: ﴿وأزواجه أُمهاتهم﴾، إلا أن يكون مساق الكلام في ذكر الولادة والحمل، ونحو ذلك، فيكون حينئذ لفظ المرأة لائقًا بذلك الموطن، كقوله تعالى: ﴿وكانت امرأتي عاقرًا﴾ [مريم: ٥ ـ ٨] ﴿فأقبلت امرأته في صَرَّة﴾ [الذاريات: ٢٩] لأن الصفة التي هي الأُنوثة هي المقتضية للحمل والوضع لا من حيث كان زوجًا[١].

غلوّ في الوصف بالحُسْن:

فصل: وأنشد شاهدًا على الجيد قول الأعشى:

يَوْمَ تُبْدِي لنا قُتَيْلَةُ عن جِيدِ أسيلٍ تَزينُه الأطواقُ

وقوله: تزينه أي: تزيده حُسْنًا، وهذا من القصد في الكلام، وقد أبى الْمُولَّدُون إلا الغلوّ في هذا المعنى، وأن يغلبوه فقال في الحماسة حسين بن مُطَير [الأسَدِي]:

مُبَلَّلةُ الأطراف زانت عقودَها بأحْسَنَ مِمَّا زَينتها عقودُها

وقال خالد الْقَسْرِي لعمر بن عبد العزيز: مَن تكن الخلافةُ زينته، فأنت زينتها، ومَن تكن شرَّفَتْه، فأنت شرَّفْتَهَا، وأنت كما قال [مالِكُ ابن أَسْمَاء]:

وتزيدين أطيبَ الطِّيبِ طِيبًا إن تَمَسِّيه، أين مثلك أيْنا

وإذا الدُّرُّ زان حُسنَ وجوهٍ كان لِلدُّرِّ حُسْنُ وجهك زَيْنا!

(١) وانظر مزيد إيضاح: «جلاء الأفهام» ص (١٥٠) للعلاّمة ابن القيم رحمه الله تعالى. وكما فرّق القرآن بين الزوجة والمرأة فرّق بين الأب والوالد، والغيث والمطر، والحركة والميد، والخوف والخشية، والريح والرياح، والسماء والسمٰوات، والدعاء والنداء .... الخ.

....

فقال عمر: إن صاحبكم أعطى مَقُولاً، ولم يُعْط مَعْقُولاً، قال المؤلف: وإنما لَم يحْسُن هذا من خالد لما قصد به التملّق. وإلا فقد صدر مثل هذا المعنى عن الصِّدِّيق، فحُسن لما عَضَده من التحقيق والتحرّي للحق، والبعد عن الملق والخلابة، وذلك حين عهد إلى عُمَرَ بالخلافة، ودفع إليه عهده مختومًا، وهو لا يعرف ما فيه، فلما عرف ما فيه رجع إليه حزينًا كهيئة الثَّكلى: يقول: حملتني عِبْئًا ألا أضطلع به، وأوردتني موردًا لا أدري: كيف الصَّدَر عنه، فقال له الصديق: ما آثرتك بها، ولكني آثرتها بك، وما قصدت مَسَاءتك، ولكن رجوت إدخال السرور على المؤمنين بك، ومن هٰهنا أخذ الحُطيئة قوله:

ما آثروك بها إذ قَدَّموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بها الإثَرُ

وقدْ سَبَك هذا المعنى في النسيب عبدُ الله بن عباس الرومي، فقال:

وأحسنُ من عِقدِ المليحةِ جيدُها ... وأحسنُ من سِربالها الْمُتَجَرِّد

ومما هو دون الغلوّ وفوق التقصير قول الرَّضِيّ:

حَلْيُه جِيدُه، لا ما يُقَلّدهُ ... وكُحْلُه ما بعينيه من الْكَحَلِ

ونحو منه ما أنشده الثعالبي:

وما الْحَليُ إلا حِيلةٌ من نَقِيصَةٍ ... يُتَمِّمُ من حُسْنٍ إذا الحسنُ قَصَّرا

فأما إذا كان الجمال موفرا ... فحسبُك لم يحتج إلى أن يُزَوَّرا

وسمعت القاضي أبا بكر محمد بن العربي يقول: حجّ أبو الفضل الجوهري الزاهد ذات مرة، فلما أشرف على الكعبة، ورأى ما عليها من الديباج تمثّل، وقال:

ما عُلِّقَ الْحَلْيُ على صدرها ... إلا لما يُخْشَى من الْعَيْنِ

تقول والدُّرُّ على نَحْرِها ... مَنْ عَلَّقَ الشَّيْن على الزَّيْنِ

وبيت الأعشى المتقدم بعده:

وشَتِيتٍ كالأُقْحُوَانِ جَلاه ... الطَّلُّ فيه عُذوبَةٌ واتِّساقُ

وأثيثٍ جَثْلِ النباتِ تُرَوِّيـ ... ـه لَعُوبٌ غَريرَة مِفْتاقُ

حُرَّةٌ طَفْلَةُ الأنامِلِ كالدُّمْـ ... ـيةِ لا عَانِسٌ ولا مِهْزَاقُ

قال ابن إسحٰق: فذُكر لي: أنّ أُمّ جميل: حمّالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها، وفي زوجها من القرآن، أتت رسولَ الله ﷺ، وهو جالس في المَسْجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصدّيق، وفي يدها فِهْر من حِجارة، فلما وقفتْ عليهما أخذَ الله ببصَرها عن رسولِ الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبُك، فقد بلَغني أنه يهجوني؟ والله لو وجدته لضربتُ بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُـذَمَّـمـا عَـصَـيْـنـا وأمْـرَه أبَـيْـنـا
ودِيـنـه قَـلَـيْـنـا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تُراها رأتك؟ فقال: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني».

قال ابن هشام: قولها: «ودينه قلينا» عن غير ابن إسحٰق.

قال ابن إسحٰق: وكانت قريش إنما تسمِّي رسول الله ـ ﷺ ـ مُذَمَّمًا، ثم يسبُّونه، فكان رسول الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون لِما يصرف الله عني من أذى قريش، يسبُّون ويهجون مذمَّمًا، وأنا محمد»!.

الفهـر:

وذكر قول أُم جميل لأبي بكر: لو وجدت صاحبك لشدخْت رأسه بهذا الفِهر. المعروف في الفِهر: التأنيثُ، وتصغيره فُهَيرة، ووقع هٰهنا مذكّرًا.

حول قولهم: مذمم وحديث خباب:

وذكر قول النبي ﷺ: «ألا ترون إلى ما يدفع الله عني من أذى قريش، يشتمون ويهجونَ مَذَمَّما وأنا محمد»[1]؟! وأدخل النَّسوِيُّ هذا الحديثَ في كتاب الطلاق في باب: «مَن طلّق بكلام لا يشبه الطلاق، فإنه غير لازم» وهو فقه حسن لقول النبي ـ ﷺ ـ: «ألا ترون إلى ما يدفع الله عني»، فجعل أذاهم مصروفًا عنه، لما سَبُّوا مُذمَّمًا، ومُذَمَّمًا لا يشبه أن يكون اسمًا له، فكذلك إذا قال لها: كلي واشْرَبي، وأراد به الطلاقَ لم يلزمه، وكان مصروفًا عنه؛ لأن مثل هذا الكلام لا يشبه أن يكون عبارة عن الطلاق.

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٤/ ٢٢٥) وأحمد (٢/ ٢٤٤) والبيهقي (٨/ ٢٥٢) والحميدي (١١٣٦).

إيذاء أُمية بن خلف للرسول ﷺ:

وأُميَّة بن خلف بن وهب بن جُذافة بن جُمَح، كان إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزه ولَمَزه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاً لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ ما الحُطَمَةُ نارُ الله المُوقَدَةُ التي تَطَّلِعُ على الأَفْئِدَةِ إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾.

قال ابن هشام: الهُمَزة: الذي يشتم الرجلَ عَلانية، ويَكْسِرُ عينيه عليه، ويَغْمز به. قال حَسَّان بن ثابت:

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعتُ لذلِّ نفسٍ　　　بقافيةٍ تَأَجَّجُ كالشُّواظِ

وهذا البيت في قصيدة له. وجمعه: همزات. واللُّمَزَة: الذي يَعيب الناسَ سرًّا ويُؤْذيهم. قال رؤبة بن العجاج:

في ظلِّ عَصْريْ باطلي ولَمْزِي

وهذا البيت في أُرجوزة له، وجمعه: لمزات.

إيذاء العاص للرسول ﷺ:

قال ابن إسحٰق: والعاص بن وائل السهميّ، كان خبَّاب بن الأرتّ، صاحبُ رسولِ الله - ﷺ - قَيْنًا بمكة يعمل السيوفَ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفًا عملها له، حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خَبَّابُ أليس يزعمُ محمد صاحبُكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغَى أهلُها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم؟! قال خبَّاب: بلى. قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب، حتى أرْجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقَّك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خبَّاب آثرَ عند الله مني، ولا أعظم حظًّا في ذلك، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿أفرأيتَ الَّذِي كَفَرَ بآياتِنا وَقالَ لأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾. . . إلى قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ ويَأْتِينا فَرْدًا﴾ [هي وما قبلها من سورة مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

فصل: وذكر حديث خَبَّاب مع العاصي بن وائل، وما أَنْزَلَ اللّٰهُ فيه من قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بآياتنا﴾ وقد تقدم الكلامُ على: أرأيت، وأنه لا يجوز أن يليها الاستفهام، كما يلي: علمت ونحوها، وهي هٰهُنا: عاملة في الذي كفر، وقد قدّمنا من القول فيها ما يُغني عن إعادته هٰهنا، فلينظر في سورة: اقرأ، وحديث نزولها.

إيذاء أبي جهل لرسول الله ﷺ

ولقي أبو جهل بن هشام رسولَ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ فقال له: والله يا محمد، لتتركنّ سبَّ آلهتنا، أو لنَسُبنَّ إلٰهك الذي تعبد. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بغَيرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فذكر لي أنّ رسول الله ﷺ كفّ عن سبّ آلهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله.

إيذاء النضر لرسول الله ﷺ

والنضر بن الحارث بن علْقَمة بن كَلَدَة بن عَبْد مناف بن عَبْد الدار بن قُصَيّ،

سدّ الذرائع

فصل: وذكر قول أبي جهل لتكفَّن عن سبّ آلهتنا أو لَنَسُبّن إلٰهك، فأنزل الله تعالى ﴿ولاَ تَسُبُّوا الذينَ يَدْعون من دون الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوًا بغير عِلْم﴾ [الأنعام: ١٠٨] الآية. وهذه الآية أصل عند المالكية في إثبات الذرائع ومراعاتها في البيوع وكثير من الأحكام، وذلك أن سبّ آلهتهم كان من الدين، فلما كان سببًا إلى سبّهم الباري ـ سبحانه ـ نهى عن سبّ آلهتهم، فكذلك ما يخاف منه الذريعةُ إلى الربا، ينبغي الزجر عنه، ومن الذرائع ما يقرب من الحرام، ومنها ما يبعد فتقع الرخصة والتشديد على حسب ذلك، ولم يجعل الشافعي الذريعة إلى الحرام أصلاً، ولا كره شيئًا من البيوع التي تُتّقى فيها الذريعةُ إلى الربا، وقال: تهمة المسلم وسوء الظن به حرام، ومن حجتهم: قول عمر بن الخطاب: إنما الربا على مَن قصد الربا، وقول النبي عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى»[1] فيه أيضًا متعلق لهم، وقالوا: ونهيه تعالى عن سبّ آلهتهم، لئلا يُسَبّ الله تعالى ليس من هذا الباب؛ لأنه لا تهمة فيه لمؤمن ولا تضييق عليه، وكما تُتّقى الذريعةُ إلى تحليل ما حرّم الله، فكذلك ينبغي أن يُتقى تحريمُ ما أحلّ الله، فكِلا الطرفين ذميم، وأحلّ الله البيع وحرّم الربا، والربا معلوم، فما ليس من الربا فهو من البيع، والكلام في هذه المسألة للطائفتين، والاحتجاج للفريقين يتّسع مجالُه ويصدّنا عن مقصودنا من الكتاب[2].

عن النضر بن الحارث ورستم

فصل: حديث النضر بن الحارث، وقال في نسبه: كَلَدة بن علقمة وغيره من النُسّاب

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (١/ ٢) ومسلم في الإمارة (١٥٥) وأبو داود (٢٢٠١) بتحقيقي والترمذي (١٦٤٧) وابن ماجة (٤٢٢٧) وغيرهم في غيرهم.

(٢) انظر «إقامة الدليل على إبطال التحليل» للعلاّمة شيخ الإسلام ابن تيمية.

كان إذا جلس رسولُ الله ﷺ مجلسًا، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذّر قُريشًا ما أصاب الأُمَمَ الخالية، خَلفه في مجلسه إذا قام، فحدّثهم عن رُسْتم السديد، وعن إسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله يا محمد بأحسنَ حديثًا مني، وما حديثه إلا أساطير الأوّلين، اكتتبها كما اكتتبتها. فأنزل الله فيه: ﴿وقالُوا أساطيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ والأرْضِ إنه كانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦]. ونزل فيه: ﴿إذا تُتْلَى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أساطِيرُ الأوَّلينَ﴾. ونزل فيه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أفَّاكٍ أثِيم يَسْمَعُ آياتِ الله تُتْلَى عَلَيْهِ ثم يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كأنْ لَمْ يَسْمَعْها كأنَّ فِي أُذُنَيهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيم﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

قال ابن هشام: الأفاك: الكذّاب. وفي كتاب الله تعالى: ﴿ألا إنَّهُمْ مِنْ إفْكِهِم لَيَقولونَ وَلَدَ الله وإنَّهُمْ لَكاذِبونَ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]. وقال رؤبة:

لامْــرِئٍ أفَّــك قــولاً إفــكَــا

وهذا البيت في أُرجوزة له.

قال ابن إسحٰق: وجلس رسولُ الله ﷺ يومًا ـ فيما بلغني ـ مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث، حتى جلس معهم في المجلس، وفي المجلس غيرُ واحد من قريش، فتكلَّم رسولُ الله ﷺ. فعرض له النضر بن الحارث، فكلَّمه رسولُ الله ـ ﷺ ـ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وكُلٌّ فيها خالِدونَ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَهُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨ ـ ١٠٠].

يقول: علقمة بن كلدة، وكذلك ألفيته في حاشية كتاب الشيخ أبي بحر عن أبي الوليد، وحديث النضر: أنه تعلّم أخبار رستم وإسفندياز، وكان يقول: اكتتبتها كما اكتتبها محمد، ووقع في الأصل: اكتتبها كما اكتتبها محمد، وفي الرواية الأخرى عن أبي الوليد: اكتتبتها كما اكتتبها، ورستم الشيد بالفارسية معناه: ذو الضياء، والياء في الشيد والألف سواء، ومنه «أرفخشاذ» وقد تقدم شرحه، ومنه «جم شاذ»، وهو من أول ملوك «الأرض» وهو الذي قتله الضحاكُ «بيوراسب»، ثم عاش إلى مدة «أفريذون وأبيه جم»، وبين «أفريذون» وبين «جم» تسعة آباء، وقال له حين قتله: ما قتلتك بجم، وما أنت له بكفء، ولكن قتلتك بثور كان في داره، وقد تقدّم طرف من أخبار رستم وإسفندياز في الجزء قبل هذا.

قال ابن هشام: حصب جهنم: كلّ ما أوقدت به. قال أبو ذُؤيب الهُذليّ واسمهُ: خُويلد بن خالد:

فأطْفِيء، ولا تُوقد، ولا تَكُ مُحْصِبًا لـنـارِ الـعُـداةِ أن تَـطـيـر شَـكـاتُـهـا

وهذا البيت في أبيات له. ويُروَى: ﴿وَلا تَكُ مِحْضَأً﴾. قال الشاعر:

حَضَأْتُ لـه نـاري فـأبـصَـرَ ضـوءَهـا وما كـان لـولا حَـضْـأَةُ الـنار يَـهْـتـدي

ابن الزبعرى والأخنس وما قيل فيهما

قال ابن إسحٰق: ثم قام رسولُ الله ـ ﷺ ـ وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرى السَّهْمِيُّ حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزّبعري: والله ما قام النضرُ بن الحارث لابن عبد المطَّلب آنفًا وما قعد، وقد زعم محمد أنّا وما نعبد من آلهتنا هذه حَصَب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخَصَمْته، فسلوا محمدًا: أكلّ ما يُعْبد من دون الله في جهنم مع مَنْ عبَده؟ فنحن نَعْبُد الملائكة، واليهودُ تعبد عُزَيرًا والنَّصارى تعبد عيسى ابن مريم عليهما السلام، فعجب الوليد، ومَن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم. فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزّبْعري فقال رسول الله ﷺ: «كلّ مَن أحَبَّ أن يعبد من دون الله فهو مع مَنْ عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتْهُمْ بعبادته»، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك: ﴿إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أولَئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُمْ فيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]: أي عيسى ابن مريم، وعُزَيرًا، ومن عُبدُوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم مَن يعبدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله.

حديث ابن الزبعرى وعزير

وذكر حديث ابن الزِّبَعْرَى، وقوله: إنّا نعبد الملائكة، وأن النصارى تعبد المسيح إلى آخر كلامه، وما أنزل الله في ذلك من قوله تعالى: ﴿إن الذين سَبَقَتْ لهم مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآية قال المؤلف: ولو تأمل ابنُ الزِّبَعْرَى وغيرُهُ من كفار قريش الآية لرأى اعتراضه غير لازم من وجهين:

أحدهما: أنه خطاب متوجّه على الخصوص لقريش وعَبَدَة الأصنام، وقولُه إنّا نعبد الملائكة حَيْدةٌ، وإنما وقع الكلام والمُحَاجَّة في اللاَّت والْعُزَّى وهُبَل، وغير ذلك من أصنامهم.

ونزّل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله: ﴿وقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا سُبْحانَهُ بَلْ عبادٌ مُكْرَمُون لا يَسْبِقُونَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بأمْرِهِ يعْمَلُون﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إني إلـهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهنَّمَ كذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى ابن مريم أنه يُعبد من دون الله، وعَجِبَ الوليد، ومَن حَضَره من حُجَّته وخصومته: ﴿ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]. أي: يصدّونَ عن أمرك بذلك من قولهم.

ثم ذكر عيسى ابنَ مريم فقال: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ عَبْدٌ أنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إسْرائِيلَ وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الأرْضِ يَخْلُفُونَ وَإنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بها

والثاني: أن لفظ التلاوة: ﴿إنكم وما تعبدون﴾ ولم يقل: وَمَنْ تعبدون، فكيف يلزم اعتراضه بالمسيح وعُزيْر والملائكة وهم يعقلون، والأصنامُ لا تعقل، ومن ثَمّ جاءت الآية بلفظ: ما الواقعة على ما لا يعقل، وإنما تقع ما على ما يعْقل[١]، وتُعلم بقرينة من التعظيم والإبهام، ولعلنا نشرحها ونبيّنها فيما بعد إن قُدِّر لنا ذلك، وسبب عبادة النصارى للمسيح معروف، وأما عبادة اليهود عُزَيْرًا، وقولهم فيه: إنه ابن الله سبحانه وتعالى عن قولهم، وسببه فيما ذكر عبد بن حميد الكَشّي، أن التوراة لما احْتَرَقَتْ أيام بُخْتَ نَصَّر، وذهب بذهابها دين اليهود، فلما ثاب إليهم أمرهم وجدوا لفقدها أعظم الكرب، فبينما عزير يبكي لفقد التوراة، إذ مرّ بامرأة جاثمة على قبر قد نشرت شعْرَها، فقال لها عزير: مَن أنت؟ قالت: أنا إيليا أُم القرى أبكي على ولدي، وأنت تبكي على كتابك، وقالت له: إذا كان غدًا، فأتِ هذا المكان، فلما أن جاء من الغد للساعة التي وعدته، إذا هو بإنسان خارج من الأرض في يده كهيئة القارورة، فيها نور، فقال له: افتح فاكَ، فألقاها في جوفه، فكتب عُزَيْرٌ التوراةَ ـ كما أنزلها الله، ثم قدر على التوراة بعدما كانت دفنت أن ظهرت، فعرضت التوراةُ، وما كان عزيرُ كَتَب، فوجدوه سواء، فمنها قالوا: إنَّه ولدُ الله تعالى عن ذلك[٢].

---

(١) إن «ما» تطلق على ما لا يعلم وعلى صفات مَن يعلم، قال تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ وقال تعالى: ﴿والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح مَن زكّاها﴾. وقال تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون﴾ انظر الجزء السادس عشر من مجموع الفتاوى لابن تيمية رحمه الله تعالى وجزاه الله عنّا كل خير ـ في تفسير سورة «الكافرون». والكتاب القيم لتلميذه ابن القيم: «بدائع القواعد» (١/ ١٣٦) وسيتحدّث السهيلي بعد قليل من لفظة «ما» فانتظر.

(٢) قصة تقتصر إلى الدليل «الصحيح» الذي يعتضدها.

واتَّبِعُونِ هَذَا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٥٩ ـ ٦١] أي: ما وَضَعْتُ على يديه من الآيات من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بها وَاتَّبِعُونِ هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

والأخنسُ بن شَرِيق بن عَمْرو بن وَهْب الثقفي، حليف بني زُهرة، وكان من أشراف القوم، وممن يُستمع منه، فكان يُصيب من رسول الله ﷺ، ويردّ عليه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠، ١١]. . . . إلى قوله تعالى: ﴿زَنيم﴾، ولم يقل: زَنيم لعيب في نسبه؛ لأن الله لا يَعيب أحدًا بنسب، ولكنه حقَّق بذلك نعتَه ليُعرف. والزنيم: العَديد للقوم، وقد قال الخَطِيم التميميّ في الجاهلية:

زَنيم تَداعاه الرّجالُ زِيادةً ... كما زِيد في عَرْض الأديم الأكارعُ

حصب جهنم:

وقوله حَصَبُ جهنم، هو من باب الْقَبْض والنَّفَض والْحَصْبُ بِسكون الصاد كالقبْضِ والنفْضِ، ومنه الحاصب في قوله سبحانه: ﴿أنْ يرسِل عليكم حاصِبًا﴾ ويُروى: حَضَب جهنم بضاد معجمة في شواذ القراءات، وهو من حضبت النار بمنزلة حَضأْتها، يقال: أَرَّثْتها وأَثْقبتها وحَشَشْتها وأذْكيتها وفسّر ابن إسحٰق قوله: يصُدُّون، ومَن قرأ: يصِدُّون فمعناه: يعجبون.

ما نزل في الأخنس:

فصل: وذكر ما أنزل الله تعالى في الأخنس بن شَرِيق ـ واسمه: أبي من قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم﴾ وقد قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقد قيل: في الأسود بن عبد يغوث الزهري، وقال ابن عباس: نزلت في رجل من قريش له زَنَمتَان كَزَنَمَتي الشاة. رواه البخاري بإسناده عنه[1]. وفي رواية أخرى أنه قال: الزنيم الذي زَنَمَتَان من البشر يُعرَف بها، كما تُعرَف الشاة بزنمتها، ورُوِيَ عن ابن عباس أيضًا مثل ما قال ابن إسحٰق أن الزنيم الملصق بالقوم، وليس منهم، قال ذلك ابن الأزرق الحَرُوري، وقال: أما سمعت قول حَسّان: زنيم تداعاه الرجال البيت، وقد أنشد ابنُ هشام هذا البَيْت مستشهدًا به ونسبه لِلْخَطِيم التَّمِيمِيّ، والأعرف أنه لحسان، كما قال ابن عباس[2]، وأما الْعُتلُّ فهو الغليظ الجافي من

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٣٥).

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٩/ ١٤/ ١٧/ ١٨) الدر المنثور (٦/ ٢٥١) فتح الباري (٨/ ٥٣٠).

ما قيل في الوليد بن المغيرة وأُبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط:

والوليد بن المُغيرة، قال: أيُنزَّل على محمد، وأُترك وأنا كبير قُريش وسيدها، ويُترَك أبو مسعود عمرو بن عُمير الثقفي سيِّد ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟! فأنزل الله تعالى فيه، فيما بلغني: ﴿وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾ [الزخرف: ٣٠]. . . إلى قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وأُبيّ بن خَلف بن وَهْب بن حُذافة بن جُمَح، وعُقْبة بن أبي مُعيط، وكانا مُتصافيين، حَسَنًا ما بينهما. فكان عُقْبة قد جلس إلى رسول الله - ﷺ - وسمع منه، فبلغ ذلك أُبيًا، فأتى عُقْبة، فقال: ألم يبْلُغني أنك جالست محمدًا، وسمعتَ منه! ثم قال: وَجْهي من وجهك حَرام أن أُكلِّمك - واستغلظ من اليمين - إن أنتَ جلستَ إليه، أو سمعتَ منه، أو لم تأته، فتتْفل في وجهه. ففعل من ذلك عدوّ الله عُقْبة بن أبي مُعيط لعنه الله. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبيلاً﴾. . . إلى قوله تعالى: ﴿لِلإنسانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

ومشى أُبيّ بن خلف إلى رسول الله - ﷺ - بعَظم بالٍ قد ارفَتَّ، فقال: يا محمد، أنت تزعم أن يبعث هذا بعد ما أرِمَ، ثم فتّه بيده، ثم نفخه في الريح نحوَ رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ -: «نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يُدخلك الله النار». فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِي العِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيها الَّذِي أَنْشَأها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجرِ الأَخْضَر نارًا فإذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٩، ٨٠].

ما قيل في حق الذين اعترضوا الرسول في الطواف

واعترض رسولَ الله ﷺ، وهو يطوف بالكعبة - فيما بلغني - الأسودُ بن

قوله تعالى: ﴿خُذُوه فاعْتِلُوه [إلى سَوَاءِ الْجَحِيم]﴾ [الدخان: ٤٧]. وقال عليه السلام: «أنا أُنبئكم بأهل النار: كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر جَمَّاع منَّاع»[1].

﴿قل يا أيها الكافرون﴾

فصل: وذكر قولهم الذي أنزل الله فيه: ﴿قل يا أيُّها الكافرون﴾ إلى آخرها فقال: ﴿لا

---

(١) «صحيح». أخرجه ابن ماجة (٤١١٩) وأحمد (٤/ ٣٠٦) وابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٣٢) وأصله في الصحيحين.

المطَّلب بن أسد بن عبد العزّى، والوليدُ بن المغيرة، وأُميَّة بن خلف، والعاصُ بن وائل السهميّ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقالوا: يا محمد، هَلُمّ فلنعبدْ ما تعبد، وتعبدُ ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد، كنَّا قد أخذنا

أعبد ما تعبدون﴾ أي: في الحال ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ أي: في المستقبل، وكذلك: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ فإن قيل: كيف يقول لهم: ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم قد قالوا: هَلُمَّ فلنعبد ربك، وتعبد ربّنا، كيف نفي عنهم ما أرادوا وعزموا عليه؟ فالجواب من وجهين: أحدهما: أنه علم أنهم لا يفعلون، فأخبر بما علم. الثاني: أنهم لو عبدوه على الوجه الذي قالوه ما كانت عبادة، ولا يسمى عابدًا لله مَن عبده سنةً، وعبد غيره أخرى، فإن قيل: كيف قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ ولم يقل: مَن أعبد، وقد قال أهل العربية: إن ما تقع على ما لا يعقل، فكيف عبَّر بها عن الباري تعالى؟ فالجواب: أنّا قد ذكرنا فيما قبل أن ما قد تقع على مَن يعقل بقرينة، فهذا أوان ذكرها، وتلك القرينة: الإبهام والمبالغة في التعظيم والتفخيم، وهي في معنى الإبهام لأن مَنْ جلَّت عظمته، حتى خرجت عن الحصر، وعجزت الأفهام عن كُنْه ذاته، وجب أن يقال فيه: هو ما هو كقول العَرب: سُبْحَان ما سبَّح الرعدُ بحمده، ومنه قوله: ﴿والسماء وما بناها﴾ فليس كونه عالمًا مما يوجب له من التعظيم ما يوجب له أنه بنى السمٰوات، ودحا الأرض، فكان المعنى: إن شيئًا بناها لَعَظيم، أو ما أعظمه من شيء! فلفظ ما في هذا الموضع يُؤذِن بالتعجب من عظمته كائنًا ما كان هذا الفاعل لهذا، فما أعظمه، وكذلك قوله تعالى في قصة آدم: ﴿ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُد لما خَلَقْتُ بِيَديَّ﴾ ولم يقل: لمَن خلقت، وهو يَعْقِل، لأن السجودَ لم يجب له من حيث كان يعقل، ولا من حيث كان لا يعقل، ولكن من حيث أُمِروا بالسجود له، فكائنًا ما كان ذلك المخلوق، فقد وجب عليهم ما أُمِروا به، فمن هاهنا حَسُنت ما في هذا الموضع، لا من جهة التعظيم له، ولكن من جهة ما يقتضيه الأمر من السجود له، فكائنًا مَن كان، وأما قوله تعالى: ﴿لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُون﴾ فواقِعةٌ على ما لا يعقل؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، وقوله: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ اقتضاها الإبهام، وتعظيم المعبود مع أن الحسّ منهم مانع لهم أن يعبدوا معبوده كائنًا ما كان، فحسنت ما في هذا الموضع لهذه الوجوه، فبهذه القرائن يحسن وقوع ما على أُولي العلم وبقيت نكتة بديعة يتعيّن التنبيه عليها، وهو قوله تعالى: ﴿ولا أنا عابدٌ ما عبدتم﴾ بلفظ الماضي، ثم قال: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ بلفظ المضارع في الآيتين جميعًا، إذا أخبر عن نفسه قال: ما أعبد، ولم يقل: ما عبدت، والنكتة في ذلك أن ما لما فيها من الإبهام ـ وإن كانت خبرية ـ تعطي معنى الشرط، فكأنه قال: مهما عبدتم شيئًا، فإني لا أعبده، والشرط يحول المستقبل إلى لفظ الماضي، تقول: إذا قام زيد غدًا فعلت كذا،

بحظِّنا منه، وإن كان ما نعبد خيرَ مما تعبد، كنت قد أخذت بحظِّك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَأَيُّها الكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّم وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِين﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]. أي: إن كنتم لا تعبدون إلا الله، إلا أن أعبد ما تعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم، لكم دينكم جميعًا، ولي ديني.

ما قيل في حق أبي جهل

وأبو جهل بن هشام ـ لما ذكر الله عزّ وجلّ شجرةَ الزَّقُّوم تخويفًا بها لهم، قال: يا معشر قريش، هل تدرون ما شجرة الزَّقُّوم التي يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا، قال: عجوة يثرب بالزُّبد، والله لئن استمكَنَّا منها لَنَتَزَقَّمَنَّهَا تزقُّمًا. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ

وإن خرج زيد غدًا خرجت، فما: فيها رائحة الشرط من أجل إبهامها؛ فلذلك جاء الفعل بعدها بلفظ الماضي، ولا يدخل الشرط على فعل الحال، ولذلك قال في أول السورة: ما تعبدون؛ لأنه حال لأن رائحة الشرط معدومة فيها مع الحال، وكذلك رائحة الشرط معدومة في قوله: عابدون ما أعبد؛ لأنه ـ عليه السلام ـ يستحيل أن يتحوّل عن عبادة ربه؛ لأنه معصوم، فلم يستقم تقديره بمهما، كما استقام ذلك في حقهم؛ لأنهم في قبضة الشيطان يقودهم بأهوائهم؛ فجائز أن يعبدوا اليوم شيئًا، ويعبدوا غدًا غيره، ولكن مهما عبدوا شيئًا، فالرسول عليه السلام لا يعبده؛ فلذلك قال: ولا أنتم عابدون ما أعبد في الحال وفي المآل، لما علم من عصمة الله له، ولما علم الله من ثباته على توحيده، فلا مدخل لمعنى الشرط في حقه عليه السلام، وإذا لم يدخل الشرط في الكلام بقي الفعل المستقبل على لفظه، كما تراه، ونظير هذه المسألة قوله تعالى: ﴿كيف نُكَلِّم مَنْ كان في المهد صبيًّا﴾ اضطربوا في إعرابها وتقديرها لمّا كانت مَن بمعنى الذي، وجاء بكان على لفظ الماضي، وفهمها الزجاج، فأشار إلى أن مَنْ فيها طرفٌ من معنى الشرط؛ ولذلك جاءت كان بلفظ الماضي بعده، فصار معنى الكلام: مَن يكن صبيًّا، فكيف يكلّم؟! لمّا أشارت إلى الصبي: أنْ كلِّموه، ولو قالوا: كيف نكلِّم مَن هو في المهد الآن لكان الإنكار والتعجب مخصوصًا به، فلما قالوا: كيف نكلّم مَن كان، صار الكلام أبلغ في الاحتجاج للعموم الداخل فيه. إلى هذا الغرض أشار أبو إسحٰق، وهو الذي أرادَ، وإن لم يكن هذا لفظه، فليس المقصود العبارات، وإنما المقصود تصحيح المعاني المتلقّاة من الألفاظ والإشارات.

الـــزقّـــوم

فصل: وذكر حديث أبي جهل حين ذكر شجرة الزَّقُّوم يقال: إن هذه الكلمة لم تكن من لغة قريش، وأن رجلاً أخبره أن أهل يثرب: يقولون تَزَقَّمت: إذا أكلت التمر بالزبد،

شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الأثِيمِ كالمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾ [الجاثية: ٤٤ ـ ٤٦]. أي: ليس كما يقول.

قال ابن هشام: المهل: كل شيء أذبته، من نحاس أو رصاص، أو ما أشبه ذلك فيما أخبرني أبو عبيدة.

وبلغنا عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: كان عبد الله بن مَسعود واليًا لعمرَ بن الخطاب على بيت مال الكوفة، وأنه أمر يومًا بفضة، فأُذيبت، فجعلت تلوَّنُ ألوانًا، فقال: هل بالباب من أحد؟ قالوا: نعم، قال: فأدخِلوهم، فأُدخِلوا فقال: إن أدنى ما أنتم راؤون شبهًا بالْمُهْل لهَذا، وقال الشاعر:

يَسْقيه ربي حميمَ المُهْل يَجْرعُه   يَشْوي الوجوهَ فَهُو في بَطْنه صَهْرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي:

فمَن عاش منهم عاش عبدًا وإن يَمُتْ   ففي النار يُسْقَى مُهْلَها وصديدَها

وهذا البيت في قصيدة له.

ويقال: إن المهل: صديد الجسد.

بلغنا أن أبا بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ لما حُضِر، أمَر بثوبين لَبِيسين يُغْسلان، فيكفَّن فيهما، فقالت له عائشة: قد أغناك الله يا أبت عنهما، فاشترِ كفنًا، فقال: إنما هي ساعة حتى يَصير إلى المهل. قال الشاعر:

شاب بالماء منه مُهلاً كَريهًا   ثم علّ الْمنون بعد النِّهال

قال ابن إسحٰق: فأنزل الله تعالى فيه: ﴿والشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرآنِ ونُخَوِّفُهُمْ فمَا يَزِيدُهُمْ إلاَّ طُغْيانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فجعل بجهله اسم الزقوم من ذلك استهزاء، وقيل: إن هذا الاسم أصلاً في لغة اليمن، وأن الزقوم عندهم كلّ ما يُتَقيّأ منه. وذكر أبو حنيفة في النبات: أن شجرة باليمن يقال لها: الزقوم، لا ورق لها وفروعها أشبه شيء برؤوس الحيّات، فهي كريهة المنظر، وفي تفسير ابن سلام والماوَرْدِيّ أن شجرة الزقوم في الباب السادس من جهنم أعاذنا الله منها، وأن أهل النار ينحدرون إليها. قال ابن سلام: وهي تحيا باللهب كما تحيا شجرة الدنيا بالمطر.

وقوله: الملعونة في القرآن، أي: الملعون آكلها، وقيل: بل هو وصف لها كما يقال: يوم ملعون أي مشؤوم.

قصة ابن أُم مكتوم

ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ يكَلِّمه، وقد طمع في إسلامه، فبينا هو في ذلك، إذ مرّ به ابنُ أُمّ مكتوم الأعمى، فكلم رسولَ الله ﷺ، وجعل يَسْتقرئه القرآن، فشقَّ ذلك منه على رسولِ الله - ﷺ - حتىٰ أضْجره، وذلك أنه شغله عمَّا كان فيه من أمر الوليد، وما طَمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسًا، وتركه، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءهُ الأَعْمَى﴾. . . إلى قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ أي: إنما بعثتك بشيرًا ونذيرًا، لم أخصّ بك أحدًا دون أحد، فلا تمنعه مِمَّن ابتغاه، ولا تتصدّينّ به لمن لا يريده.

حديث ابن أُم مكتوم

فصل: وذكر حديثَ ابن أُمِّ مكْتوم، وذكر اسمه ونسبه. وأُم مكتوم: اسمها: عاتكةُ بنتُ عبد الله بن عَنْكَثَةَ بن عامر بن مَخْزوم.

وذكر الرجل الذي كان شغل رسول الله ﷺ، وأنه الوليد بن المغيرة، وقد قيل: كان أُمية بن خلف، وفي حديث الموطأ: عظيم من عظماء المشركين، ولم يسمّه[1]، وفي قوله سبحانه: ﴿أنْ جاءَه الأعمى﴾ من الفقه أن لا غِيبَةَ في ذكر الإنسان بما ظهر في خلقته من عَمًى أو عَرَجٍ، إلاّ أن يقصد به الازدراء، فيلحق المأثم به؛ لأنه من أفعال الجاهلين، قال الله تعالى: ﴿أتتخذُنا هُزُوًا قال أعوذ بالله أن أكُونَ من الجاهلين﴾ [البقرة: ٦٧]. وفي ذكره إياه بالعمى من الحكمة والإشارة اللطيفة التنبيه على موضع العتب؛ لأنه قال: ﴿أنْ جاءه الأعْمَى﴾ فذكَر المجيء مع العمى، وذلك ينبىء عن تَجَشُّم كُلْفَةٍ ومَن تَجَشَّم القصد إليك على ضعفه، فحقّك الإقبال عليه، لا الإعراض عنه، فإذا كان النبي - ﷺ - مَعْتُوبًا على تولّيه عن الأعمى، فغيره أحقّ بالْعَتْبِ، مع أنه لم يكن آمن بعدُ، ألا تراه يقول: ﴿وما يُدْرِيك لعلَّه يزَّكَّى﴾ الآية ولو كان قد صحَّ إيمانه، وعلم ذلك منه لم يعرض عنه رسولُ الله - ﷺ - ولو أعرض لكان الْعَتْبُ أشد، والله أعلم، وكذلك لم يكن ليخبر عنه، ويسمّيه بالاسم المشتق من العمى، دون الاسم المشتق من الإيمان والإسلام، لو كان دخل في الإيمان قبل ذلك والله أعلم، وإنما دخل فيه بعد نزول الآية، ويدلّ على ذلك قوله للنبي - ﷺ -: اسْتَدْنِنِي يا محمد ولم يقل: اسْتَدْنِنِي يا رسول الله، مع أن ظاهر الكلام يدل على أن الهاء في لعله يزكّى عائدة على الأعمى، لا على الكافر؛ لأنه لم يتقدم له

---

(١) أخرجه مالك (١/ ١٧٢).

قال ابن هشام: ابن أُمّ مكتوم، أحد بني عامر بن لؤيّ، واسمه: عبد الله، ويقال: عمرو.

ذكر بعد، ولعل تعطي التَّرَجِّيَ والانتظار، ولو كان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حدّ الترجّي والانتظار للتَّزَكِّي، والله أعلم.

العائدون من أرض الحبشة

قال ابن إسحٰق: وبلغ أصحابَ رسول الله ﷺ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة، إسلامُ أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دَنَوْا من مكة، بلغهم أنّ ما كانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مستخفيًا.

فكان ممَّن قَدِمَ عليه مكةَ منهم، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد معه بدرًا، ومَنْ حُبس عنه، حتى فاته بدرٌ وغيرُه، ومَن مات بمكة. منهم من بني عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ: عثمانُ بن عفّان بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شَمْس، معه امرأته: رُقَيَّة بنت رسول الله ـ ﷺ ـ. وأبو حُذَيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، امرأته سَهْلة بنت سُهَيل.

ومن حلفائهم: عبدُ الله بن جَحْش بن رِئاب.

قصة الغرانيق[1] وإسلام مكة

وذكر ما بلغ أهل الحبشة من إسلام أهل مكة، وكان باطلاً، وسببه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ سورة النجم، فألقى الشيطانُ في أُمْنِيَّتِهِ، أي: في تلاوته عند ذِكْرِ اللاّت والعُزّى، وإنَّهم لَهُمُ الْغَرَانِقَة العُلى، وإن شَفَاعَتَهُمْ لَتُرْتَجى، فطار ذلك بمكة، فسُرّ المشركون، وقالوا: قد ذكر آلهتنا بخير فسجَد رسولُ الله ـ ﷺ ـ في آخرها، وسجد المشركون والمسلمون، ثم أنزل الله تعالى: ﴿فينسَخ اللَّهُ ما يُلقي الشيطان﴾ الآية، فمن هٰهنا

(١) الغرانيق: جمع غرنوق: الذكور من الطير. وقصة الغرانيق ضعيفة، بل هي موضوعة فيه عليها أهل العلم سلفًا وخلفًا وقد جمع العلاّمة الألباني حفظه الله وأمتع به الكثيرين كلامهم في كتاب دحض قصة الغرانيق، وفيه على ما فيها من غثّ وعفن.

ومن بني نَوْفل بن عبد مناف: عُتْبة بن غَزْوان، حليفٌ لهم، من قَيْس عيلان.

ومن بني أسَد بن عبد العُزَّى بن قُصَيّ: الزُّبير بن العوّام بن خُويلد بن أسد.

ومن بني عبد الدار بن قُصَيّ: مُصْعَب بن عُميْر بن هاشم بن عبد مناف وسُوَيبط بن سعد بن حَرْملة.

ومن بني عَبْد بن قُصَيّ: طُلَيْبُ بن عُمَير بن وَهْب بن أبي كبير بن عَبْد.

ومن بني زُهْرة بن كِلاب: عبدُ الرحمن بن عَوْف بن عبد عَوْف بن عبد بن الحارث بن زُهْرة، والمِقْدادُ بن عمرو، حليف لهم، وعبدُ الله بن مسعود، حليف لهم.

ومن بني مخزوم بن يَقَظة: أبو سَلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عَمرو بن مخزوم، معه امرأته: أُمّ سَلَمة بنت أبي أُميَّة بن المُغيرة، وشمَّاس بن عثمان بن الشَّريد بن سُوَيد بن هَرْمِيّ بن عامر بن مخزوم. وسَلَمة بن هشام بن المُغيرة، حبسه عمّه بمكة، فلم يقدم إلا بعد بدر وأُحُد والخندق، وعياش بن أبي ربيعَةَ بن المغيرة هاجر معه إلى المدينة، ولحق به أخواه لأُمه: أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام، فرجعا به إلى مكة، فحبساه بها حتى مضى بدرٌ وأُحُد والخندق.

ومن حلفائهم: عمَّار بن ياسر، يُشكّ فيه، أكان خرج إلى الحبشة أم لا؟ ومُعتِّب بن عَوْف بن عامر من خزاعة.

ومن بني جُمح بن عمرو بن هُصَيص بن كعب: عثمانُ بنُ مَظْعون بن حَبيب بن وَهْب بن حُذافة بن جُمَح، وابنه: السائب بن عثمان، وقُدامة بن مظعون، وعبد الله بن مظعون.

اتصل بهم في أرض الحبشة أن قريشًا قد أسلموا، ذكره موسى بن عقبة وابن إسحٰق من غير رواية الْبَكَّائِي، وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة، ومَن صحّحه قال فيه أقوالاً، منها: أن الشيطان قال ذلك وأشاعه. والرسول ـ عليه السلام ـ لم ينطق به، وهذا جيد لولا أن في حديثهم أن جبريل قال لمحمد: ما أتيتك بهذا، ومنها: أن النبيَّ ـ ﷺ ـ قالها من قبل نفسه، وعنى بها الملائكة: إن شفاعتهم لَتُرْتَجَى. ومنها: أن النبي ـ عليه السلام ـ قاله حاكيًا عن الْكَفَرة، وأنهم يقولون ذلك، فقالها متعجبًا من كفرهم، والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته، والله أعلم.

ومن بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعْب: خُنَيس بن حُذافة بن قَيس بن عديٍّ، وهشام بن العاص بن وائل، حُبس بمكة بعد هجرة رسولِ الله - ﷺ - إلى المدينة، حتى قَدِمَ بعدَ بَدْرٍ وأُحُد والخَندق.

ومن بني عَديّ بن كَعْب: عامر بن رَبيعة، حليف لهم، معه امرأتُه: ليلى بنت أبي حَثْمة بنُ حذافة بن غانم.

ومن بني عامر بن لؤيّ: عبدُ الله بن مَخْرمة بن عبد العُزَّى بن أبي قَيْس: وعبد الله بن سُهَيل بن عمرو، وكان حبس عن رسول الله - ﷺ - حين هاجر إلى المدينة، حتى كان يوم بَدْر، فانحاز من المشركين إلى رسول الله ﷺ، فشهد معه بدرًا، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزّى، معه امرأته: أُم كلثوم بنت سُهَيل بن عمرو، والسكران بن عمرو بن عبد شَمْس، معه امرأته: سَوْدة بنت زَمَعة بن قيس، مات بمكة قبل هجرة رسولِ الله - ﷺ - إلى المدينة، فخلف رسولُ الله ﷺ على امرأته سَوْدة بنت زَمعة.

ومن حلفائهم سعد بن خَوْلة.

ومن بني الحارث بن فِهْر: أبو عُبَيدة بن الجرّاح، وهو عامر بن عبد الله بن الجرّاح، وعمرو بن الحارث بن زُهَير بن أبي شدّاد، وسُهيل ابن بَيْضاء؛ وهو سهيل بن وهب بن ربيعة بن هِلال، وعمرو بن أبي سَرْح بن ربيعة بن هلال «كنيته: أبو سعد كما في الإصابة».

فجميع مَن قَدِمَ عليه مكةَ من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثةٌ وثلاثون رجلاً، فكان مَنْ دخل منهم بجوارٍ، فيمن سُمّي لنا: عثمانُ بن مَظْعون بن حبيب الجُمحي، دخل بجوارٍ من الوليد بن المُغيرة، وأبو سَلَمَةَ بن عبد الأَسَد بن هلال بن عبد الله بن عُمر بن مَخْزوم، دخل بجوارٍ من أبي طالب بن عبد المطَّلب، وكان خالَه. وأُمُّ أبي سَلمة: بَرَّة بنت عبد المُطَّلب.

وسمّى الذين قَدِموا منهم من أجل ذلك الخبر، وذكر فيهم طُلَيْبًا، وقال في نسبه: ابن أبي كبير بن عبد بن قصي، وزيادة أبي كبير في هذا الموضع لا يوافق عليه وكذلك وجدت في حاشية كتاب الشيخ التنبيه على هذا وذكره أبو عمَر ونسبه كما نسبه ابن إسحٰق بزيادة: أبي كبير، وكان بدريًا في إحدى الروايتين عن ابن إسحٰق، وكذلك قال الواقدي وابن عقبة، ومات بأَجْنَادَيْن شهيدًا لا عقب له.

قصة ابن مظعون مع الوليد:

قال ابن إسحاق: فأما عثمان بن مَظعون، فإن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حدّثني عمَّن حدّثه عن عثمان، قال: لما رأى عثمان بن مَظْعون ما فيه أصحابُ رسول الله - ﷺ - من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المُغيرة، قال: والله إن غُدوي ورَواحي آمنًا بجوار رجلٍ من أهل الشرك - وأصحابي، وأهل ديني يَلْقَون من البلاء والأذى في الله ما لا يُصيبني - لنقصٌ كبير في نفسي، فمشى إلى الوليد بن المُغيرة، فقال له: يا أبا عبد شَمْس، وفتْ ذِمَّتُك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لِمَ يا بن أخي؟ لعله آذاك أحدٌ من قومي، قال: لا، ولكني أرْضَى بجوار الله، ولا أُريد أن أستجيرَ بغيره؟ قال: فانطلِقْ إلى المسجد، فارددْ عليّ جواري عَلانيةً، كما أجرتُك علانيةً. قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجدَ، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردّ عَلَيَّ جواري، قال: صَدَق، قد وجدتُه وَفيًّا كريمَ الجوار، ولكني قد أحببتُ أن لا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جوارَه، انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كِلاب في مجلس من قُريش يُنشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لَبيد:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل

تأويل: كلّ شيء ما خلا الله باطل:

فصل: وذكر قول لَبِيد:

ألا كُلُّ شيء ما خلا اللّهَ باطل

وقصة ابن مظعون إلى آخرها، وليس فيها ما يشكل غير سؤال واحد، وهو قول رسولِ الله - ﷺ -: «أصْدَقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ» قولُ لَبِيد:

ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلاَ اللّهَ باطلُ[(١)]

فصدقه في هذا القول وهو - عليه السلام - يقول في مناجاته: «أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، ولقاؤك حق»[(٢)]. فكيف يجتمع هذا مع قوله:

ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خلا الله باطل

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٨/ ١٢٧) ومسلم في الشعر. مقدمة (٥٢٤) وأحمد (٢/ ٢٤٨) والترمذي (٢٨٤٩) وفي الشمائل له (١٢٦).

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (١/ ١٣٢) وغيره.

قال عثمان: صدقتَ، قال:

وكـلّ نـعـيـم لا مـحـالـة زائـل

قال عثمان: كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول. قال لَبيد بن رَبيعة: يا مَعْشر قريش، والله ما كان يُؤذَى جليسُكم، فمتى حَدَث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سَفيه في سُفهاء معه، قد فارقوا دينَنا، فلا تَجدنّ في نفسك مِنْ قوله، فردّ عليه عثمان حتى شَرِي أمرُهما، فقام إليه ذلك الرجلُ، فَلطَم عينَه، فخَضَّرها، والوليدُ بن المُغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا بن أخي إن كانت عينُك عمًّا أصابها لغنيَّة، لقد كنتَ في ذمة مَنيعة. قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرةٌ إلىٰ مثل ما أصاب أُختَها في الله، وإني لفي جوار مَنْ هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شَمْس، فقال له الوليد: هَلُمَّ يا بن أخي، إن شئت فعُدْ إلى جوارك، فقال: لا.

فالجواب من وجهين أحدهما: أن يريد بقوله: ما خلا الله: ما عداه، وعدا رحمته التي وعد بها مَن رحمه، والنار وما تَوعَّد به من عقابه، وما سوى هذا فباطل أي: مضمحل والجواب الثاني: أنَّ الجنة والنار وإن كانتا حقًا، فإن الزوال عليهما جائز لذاتهما، وإنما يبقيان بإبقاء الله لهما، وأنه يخلق الدوام لأهلهما على قول مَن جعل الدوام والبقاء معنًى زائدًا على الذات، وهو قول الأشعري، وإنما الحق على الحقيقة مَن لا يجوز عليه الزوال، وهو القديم[1] الذي انعدامه مُحال؛ ولذلك قال عليه السلام: أنت الحق بالألف واللام، أي المستحق لهذا الاسم على الحقيقة، وقولك الحق؛ لأن قوله قديم، وليس بمخلوق فيبيد، ووعدك الحق كذلك، لأن وعده كلامه، هذا مقتضى الألف واللام، ثم قال: والجنة حق، والنار حق بغير ألف ولام، ولقاؤك حق كذلك؛ لأن هذه أمور مُحدَثات والمحدَث لا يجب له البقاء من جهة ذاته، وإنما علمنا بقاءها من جهة الخبر الصادق الذي لا يجوز عليه الخُلف، لا من جهة استحالة البقاء عليها، كما يستحيل على القديم ـ سبحانه ـ الذي هو الحق، وما خلاه باطل، فإمَّا جوهر وإما عرض، وليس في الأعراض إلا ما يجب له الفناء، ولا في الجوهر إلا ما يجوز عليه الفناء والبطول، وإن بقي ولم يبطل فجائز أن يبطل. وأما الحق ـ سبحانه ـ فليس من الجواهر والأعراض، فاستحال عليه ما يجب لهما، أو يجوز عليهما.

---

(١) القديم: ليس اسمًا من أسمائه تعالى، وقد تقدم الكلام عليه في أول الكتاب، وانظر القواعد المُثلى لفضيلة الشيخ محمد بن صالح، و«القول الأسنى في تفسير الأسماء الحسنى» للمحقق.

أبو سلمة في جوار أبي طالب:

قال ابن إسحٰق: وأما أبو سَلمة بن عَبْد الأسد، فحدّثني أبي إسحٰق بنُ يسار عن سَلَمة بن عبد الله بن عُمر بن أبي سَلَمة أنه حدّثه: أن أبا سلمة لما استجار بأبي طالب، مشى إليه رجال من بني مخزوم، فقالوا: يا أبا طالب، لقد منعت منَّا ابنَ أخيك محمدًا، فما لكَ ولصاحبنا تمنعُه منّا؟ قال: إنه استجار بي، وهو ابنُ أُختي، وإنْ أنا لم أمنع ابنَ أُختي لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب، فقال: يا معشر قُريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، والله لتنتهُنّ عنه، أو لنقومنّ معه في كلّ ما قام فيه، حتى يبلغَ ما أراد. قال: فقالوا: بل ننصرف عمّا تكره يا أبا عُتْبة، وكان لهم وليًا وناصرًا على رسول الله - ﷺ - فأبقَوا على ذلك، فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما يقول، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله - ﷺ - فقال أبو طالب يحرّض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله ﷺ:

وإنّ امْـرءًا أبـو عُـتَـيـبـة عـمُّـه ... لـفـي رَوْضَـة مـا إن يُـسـامُ الْـمَـظـالـمـا

أقـول لـه - وأيـن مـنـه نَـصـيـحـتـي ... أبـا مُـعْـتـب ثَـبِّـتْ سـوادَك قـائـمـا

فـلا تَـقـبـلـنَّ الـدهـرَ مـا عـشـتَ خُـطـةً ... تُـسَـبُّ بـهـا، إمَّـا هَـبـطـت الـمَـواسـمـا

ووَلّ سـبـيـل الـعَـجْـز غـيـرَك مـنـهـمُ ... فإنـك لـم تُـخْـلَـق عـلـى الـعَـجْـز لازمـا

وحاربْ، فإن الحربَ نُصْفٌ وما ترى ... أخا الحرب، يُعطَى الخَسف حتى يُسالما

وكـيـف ولـم يَـجْـنُـوا عـلـيـك عَـظـيـمـةً ... ولـم يـخـذلـوك غـانـمًـا، أو مُـغـارِمـا

جَـزَى الـلَّـهُ عـنَّـا عـبـدَ شـمـس ونـوْفـلاً ... وتَـيْـمًـا ومَـخْـزومًـا عُـقـوقًـا وَمـأثـمـا

بـتَـفْـرِيـقـهـم مِـنْ بـعـد وُدٍّ وأُلْـفَـةٍ ... جـمـاعَـتـنـا، كـيـمـا يَـنـالُـوا الـمَـحـارِمـا

كـذبـتـم وبـيـتِ الله نُـبـزَى مـحـمـدًا ... ولـمـا تَـرَوْا يـومًـا لـدى الـشِّـعـب قـائـمـا

قال ابن هشام: نبزَى: نسلب. قال ابن هشام: وبقي منها بيت تركناه.

أبو بكر يردّ جوار ابن الدغنة

قال ابن إسحٰق: وقد كان أبو بكر الصدّيق - رضي الله عنه - كما حدّثني:

ذكر حديث أبي بكر مع ابن الدغنة

وذكر حديث أبي بكر حين لقي ابن الدُّغُنّة، واسمه: مالك، وهو سيد الأحابيش، وقد سمّاهم ابن إسحٰق، وهم: بنو الحارث وبنو الهُوَن من كنانة، وبنو المُصْطَلِقِ من خُزَاعة

محمد بن مُسلم الزُهري، عن عُروة، عن عائشة رضي الله عنهما، حين ضاقت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى مِنْ تَظاهر قُريش على رسولِ الله - ﷺ - وأصحابه ما رأى، استأذن رسول الله - ﷺ - في الهجرة، فأذِنَ له، فخرج أبو بكر مهاجرًا، حتى إذا سار من مكة يومًا أو يومين، لَقِيه ابنُ الدُّغُنة، أخو بني الحارث بن عَبْد مناة بن كِنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش.

قال ابن إسحٰق: والأحابيش: بنو الحارث بن عبد مناة بن كِنانة، والهُوْن بن خُزيمة بن مُدْركة، وبنو المُصْطلق من خزاعة.

قال ابن هشام: تحالفوا جميعًا، فسُمُّوا الأحابيش للحِلْف.

ويقال: ابن الدُّغينة.

قال ابن إسحٰق: حدّثني الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: فقال ابن الدُّغُنة: أينَ يا أبا بكر؟ قال: أخْرَجني قومي وآذَوْني، وضيَّقوا عليّ، قال: ولِمَ؟ فوالله إنك لَتَزين العشيرةَ، وتُعين على النوائب، وتفعل المعروف وتَكْسِبُ المَعْدومَ، ارجع، وأنت في جواري، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابنُ الدَّغِنة فقال: يا معشر قُريش، إني قد أجرتُ ابنَ أبي قُحافة، فلا يعرضنَّ له أحدٌ إلا بخير. قالت: فكفّوا عنه.

قالت: وكان لأبي بكر مَسْجِدٌ عند باب داره في بني جُمَح، فكان يصلّي فيه، وكان رجلاً رقيقًا، إذا قرأ القرآن استبكى. قالت: فيقف عليه الصبيان والعَبيد والنِّساء، يعْجبون لما يَرَوْن من هَيْئته. قالت: فمشى رجالٌ من قريش إلى ابن الدُّغُنَّة، فقالوا له: يا بن الدَّغَنَةِ، إنك لم تُجِزْ هذا الرجل، ليُؤْذينا! إنه رجل إذا صلّى، وقرأ ما جاء به محمدٌ يرق ويبكي، وكانَت له هيئة ونحْو، فنحن نتخوّف على صبياننا ونِسائنا وضَعَفتِنا أن يَفْتِنهم، فأتِه فمُرْه أن يدخل بيته، فَلْيَصْنع فيه ما شاء. قالت: فمشى ابنُ الدَّغِنَّة إليه، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أُجِرك لتُؤذي قومَك، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذَّوْا بذلك منك، فادخل بيتَك، فاصنع فيه ما أحببتَ، قال: أوَ أردّ عليك جوارك وأرضى بجوار

تحبَّشوا، أي: تجمعوا، فسموا الأحابيش. قيل: إنهم تحالفوا عند جُبَيل، يقال له حُبْشِيّ، فاشتق لهم منه هذا الاسم.

وقوله لأبي بكر: إنك لتَكْسِب المعدومَ، يقال: كَسِبْتَ الرجل مالاً، فتعدّيه إلى مفعولين. هذا قول الأَصْمَعِي، وحكى غيره: أكسبته مالاً، فمعنى تَكْسِبُ المعدومَ، أي: تَكْسِب غَيْرَكَ ما هو معدوم عنده، والدَّغِنَة: اسم امرأةٍ عُرف بها الرجل، والدُّغُنُ: الغَيْمُ يبقى بعد المطر.

اللهِ؟ قال: فاردد عليّ جِواري، قال: قد رددته عليك. قالت فقام ابنُ الدُّغُنَّة، فقال: يا معشر قريش، إنَّ ابنَ أبي قحافة قد ردّ عليّ جِواري، فشأنكم بصاحبكم.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عبدُ الرحمن بن القاسم، عن أبيه القاسم بن محمد قال: لَقِيه سَفيه من سُفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحَثا على رأسه ترابًا. قال: فمرّ بأبي بكر الوليد بن المُغيرة، أو العاص بن وائل. قال: فقال أبو بكر: ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيهُ؟ قال: أنت فعلتَ ذلك بنفسك. قال: وهو يقول: أي ربّ، ما أحلَمكُ! أي ربّ، ما أحلمك! أي ربّ، ما أحلمك!.

حديث نقض الصحيفة

قال ابن إسحٰق: وبنو هاشم، وبنو المطَّلب في منزلهم الذي تعاقدت فيه قُريش عليهم في الصحيفة التي كتبوها، ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريشٌ على بني هاشم وبني المطَّلب نفرٌ من قريش، ولم يُبْلِ فيها أحد أحسنَ من بلاء هشام بن عمرو بن رَبيعة بن الحارث بن حُبيْب بن نَصْر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لُؤيّ، وذلك أنه كان ابن أخي نَضْلة بن هاشم بن عَبْد مناف لأُمه، فكان هشام لبني هاشم واصلاً، وكان ذا شرف في قومه فكان ـ فيما بلغني ـ يأتي بالبعير، وبنو هاشم وبنو

عن الشعب ونقض الصحيفة

فصل: وذكر نقض الصحيفة، وقيام هشام فيها ونسبه، فقال: هشام بن الحارث، بن حُبَيْب، وفي الحاشية عن أبي الوليد: إنما هو هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث، وهكذا وقع نسبه في رواية يونس عن ابن إسحٰق، وكان أبوه عمرو أخا نَضْلة بن هاشم لأُمه[1].

وذكر أنه كان يأتي بالبعير قد أوْقَره بَزًّا بالزاي المعجمة، وفي غير نسخة الشيخ أبي بحر: بُرًّا، وفي رواية يونس: بَزًّا أو بُرًّا على الشك من الراوي.

وذكر أن منصور بن عِكْرِمَة كان كاتب الصحيفة، فشَلَّت يدُه، وللنُّسّابِ من قريش في كاتب الصحيفة قولان، أحدهما: أن كاتبَ الصحيفة هو: بَغِيضُ بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، والقول الثاني: أنه مَنصور بن عَبْد شُرَحْبِيل بن هاشم من بني عبدا الدار أيضًا، وهو خلاف قول ابن إسحٰق، ولم يذكر الزُّبَيْرُ في كاتبِ الصحيفة غير هذين القولين، والزُّبَيْرِيُّون أعلم بأنساب قومهم[2].

---

(١) انظر نسب قريش للزبيري (٤١٢/٤٣١). (٢) انظر نسب قريش لمصعب الزبيري (٢٢٢).

المطَّلب في الشِّعب ليلاً، قد أوْقره طَعامًا، حتى إذا أقبل به فَمَ الشِّعب، خلع خِطَامه من رأسه، ثم ضرب على جَنْبه، فيدخل الشِّعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره بَزًّا، فيفعل به مثلَ ذلك.

قال ابن إسحٰق: ثم إنه مشى إلى زُهير بن أبي أُميَّة بن المُغيرة بن عبد الله بن عُمَر بن مخزوم ـ وكانت أمه: عاتكةَ بنت عبد المطَّلب ـ فقال: يا زهير، أقد رَضيتَ أن تأكل الطعامَ، وتلبس الثيابَ، وتنكح النِّساء، وأخوالُك حيثُ قد علمتَ، لا يُباعون، ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكحون، ولا يُنكَح إليهم؟ أما إني أحْلِف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوتَه إلى ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجلٌ آخر، لقُمْت في نَقْضها حتى أنقضَها، قال: قد وجدت رجلاً قال: فمَن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: أبْغِنا رجلاً ثالثًا.

فذهب إلى المُطْعِم بن عديّ، فقال له: يا مُطْعِم أقد رضيتَ أن يَهْلِك بَطْنان من بني عَبْد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمْكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سراعًا، قال: ويحك! فماذا أصنَع؟ إنما أنا رجلٌ واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال: مَنْ هو؟ قال: أنا، قال: أبْغِنا ثالثًا، قال: قد فعلتُ، قال: مَن هو؟ قال: زهير بن أبي أُميَّة، قال: أبغنا رابعًا.

وذكر ما أصاب المؤمنين مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ في الشِّعْب من ضيق الحصار لا يبايعون ولا يناكحون، وفي الصحيح: أنهم جُهِدُوا حتى كانوا يأكلون الخَبَطَ وورَقَ السَّمُر، حتى إن أحدَهم لَيَضَعُ كما تَضَعُ الشاةُ، وكان فيهم سعدُ بن أبي وَقَّاص. رُوِيَ أنه قال: لقد جُعت، حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب، فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن، وفي رواية يونس: أن سعدًا قال: خَرَجْت ذات ليلة لأبول، فسمعت قَعْقَعَةً تحت البول، فإذا قطعةٌ من جِلْدِ بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رَضَضْتُها، وَسَفِفْتُها بالماء، فَقَوِيت بها ثلاثًا، وكانوا إذا قَدِمَت العيرُ مكة يأتي أحدُهم السوقَ ليشتري شيئًا من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب عدُوُّ الله، فيقول: يا معشر التجار: غالُوا على أصحاب محمد، حتى لا يُدركوا معكم شيئًا، فقد علمتم ما لي ووفاءَ ذِمَّتي، فأنا ضامن أن لا خَسَارَ عليكم، فيزيدون عليهم في السِّلعة، قيمتها أضعافًا، حتى يرجعَ إلى أطفاله، وهم يَتَضَاغَوْن من الجوع، وليس في يديه شيء يُطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جُهِدَ المؤمنون، ومَن معهم جوعًا وعُرْيًا، وهذه إحدى الشدائد الثلاث التي دلّ عليها تأويل الْغَطَّات الثلاث التي غَطَّه جبريل حين قال

فذهب إلى أبي البَخْتَرِيّ بن هشام، فقال له نحوًا ممَّا قال لمطعِم بن عديّ، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: مَن هو؟ قال: زهير بن أبي أُمية، والمُطْعم بن عديّ، وأنا معك، قال: أبغنا خامسًا.

فذهب إلى زَمْعَة بن الأسود بن المطَّلِب بن أسَد، فكلَّمه، وذكر له قرابتَهم وحقَّهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تَدْعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم.

فاتَّعدوا خطْم الحَجُون ليلاً بأعلَى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القِيام في الصّحيفة، حتى يَنْقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أوّلَ مَنْ يتكلَّم. فلما أصبحوا غَدوْا إلى أنديتهم، وغدا زُهير بن أبي أمية عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سَبْعًا، ثم أقبل على الناس، فقال: يٰأهلَ مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثِّيابَ، وبنو هاشم هَلْكى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفةُ القاطعة الظَّالمة.

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد: كذبتَ والله لا تُشقّ، قال زَمْعة بن الأسود: أنت والله أكذبُ، ما رَضينا كتابها حيثُ كُتِبت، قال أبو البَخْترِي، صَدَق زمْعَةُ، لا نرضى ما كُتب فيها، ولا نُقرّ به، قال المطعم بن عديٍّ: صدقتُما، وكذبْ مَنْ قال غيرَ ذلك، نبْرأ إلى الله منها، ومما كُتب فيها، قال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك. فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِي بليل، تُشُووِر فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المُطعِم إلى الصحيفة ليشقَّها، فوجد الأرَضَة قد أكلتها، إلاَّ: «باسمك اللَّهمَّ».

وكان كاتب الصحيفة مَنصور بن عِكْرمة. فشلَّت يدُهُ فيما يزعمون.

قال ابن هشام: وذكر بعضُ أهل العلم: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لأبي طالب: «يا عمّ، إن رَبِّيَ الله قد سلَّط الأرَضَة على صحيفة قريش، فلم تَدَع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظُّلم والقطيعة والبُهتان»، فقال: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم»، قال:

له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، وإن كان ذلك كان في الْيَقَظَةِ، ولكن مع ذلك له في مقتضى الحكمة تأويلٌ وإيماء، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا قبل، وإلى آخر حديث الصحيفة ليس فيها ما يشكل[1].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/ ٢١) وتاريخ الطبري (٢/ ٣٤١) والمنتظم (٣/ ٣) والبداية والنهاية (٣/ ٩٥) والكامل (١/ ٦٠٤).

فوالله ما يدخل عليك أحدٌ، ثم خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهَلُمَّ صحيفتكم، فإن كان كما قال ابن أخي، فانتهوا عن قَطيعتنا، وانزلوا عمَّا فيها، وإن يكن كاذبًا دفعت إليكم ابنَ أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدُوا على ذلك، ثم نظروا، فإذا هي كما قال رسولُ الله ﷺ، فزادهم ذلك شرًّا. فعند ذلك صنع الرَّهْط من قريش في نَقض الصحيفة ما صنعوا.

قال ابن إسحٰق: فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها. قال أبو طالب، فيما كان من أمر أولئك النفَر الذين قاموا في نَقْضها يمدحهم:

ألا هَلْ أتى بَحْرِيِّنا صُنْعُ رَبِّنا ... على نَأيهم واللّهُ بالنَّاسِ أرْوَدُ

شرح دالية أبي طالب:

وقول أبي طالب: ألا قد أتى بَحْرِيِّنا، يعني الذين بأرض الحبشة، نسبهم إلى الْبَحْر لركوبهم إياه، وهكذا وجه النِّسَب إليه، وقد قال عليه السلام: إذا نشأت بَحْرِيَّة، وزعم ابن سيدة في كتاب المحكم له أن العَربَ تنسب إلى البحر: بَحْرانِيّ على غير قياس، وأنه من شَوَاذ النسب، ونسب هذا القول إلى سيبويه والخليل، ولم يقله سيبويه قطّ، وإنما قال في شواذ النسب: تقول في بَهْرَاء: بَهْرَانِيّ، وفي صنعاء: صَنْعَانِيّ، كما تقول: بَحْرَانِيّ في النسب إلى الْبَحْرَيْن التي هي مدينة، وعلى هذا تلقَّاه جميعُ النُّحاة، وتأوَّلُوه من كلام سيبويه، وإنما شبّه على ابن سيدة لقول الخليل في هذه المسألة، أعني مسألة النسب إلى البحرين، كأنهم بَنُوا البحر على بَحْران، وإنما أراد لفظ البحرين ألا تراه يقول في كتاب العين: تقول بَحْرَانِي في النسب إلى الْبَحْرَين، ولم يذكر النسب إلى البحر أصلاً للعلم به، وأنه على القياس جارٍ، وفي الغريب المصنف عن اليزيدي أنه قال: إنما قالوا: بَحْرانِي في النسب إلى الْبَحْرَين، ولم يقولوا: بَحْرِي ليفرّقوا بينه وبين النسب إلى الْبَحْرِ، وما زال ابن سيدة يعثر في هذا الكتاب وغيره [عثرات] يَدْمي منها الأظلُّ[1]، ويَدْحَضُ دَحَضات تُخرجه إلى سبيل مَنْ ضلّ ألا تراه قال في هذا الباب: وذكر بحيرة طَبَرِية، فقال: هي من أعلام خروج الدجال، وأن ماءها يَيْبَس عند خروجه، والحديث: إنما جاء في غير زُغَر، وإنما ذكرت بحيرة طَبَرِيَّة في حديث يأجوج ومأجوج، وأنهم يشربون ماءها، وقال في الجِمار في غير هذا الكتاب: [إنما] هي التي تُرمى بعرفة، وهذه هَفْوة لا تُقال، وعَثْرة [لا] لعًا[2] لها وكم له من هذا إذا تكلم في النسب وغيره، ومن النسب إلى البَحْر قوله عليه السلام لأسماء بنت عُمَيس

---

(١) الأظل: باطن الأصبع.

(٢) لعًا: صوت: معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته.

فَيُخبِرَهُم أنَّ الصَّحيفَةَ مُزِّقَتْ — وأنْ كلُّ ما لم يَرْضه اللَّهُ مُفْسَد
تَراوحَها إفكٌ، وَسِحْرٌ مُجمَّع — ولم يُلْفَ سِحْر آخِرَ الدهر يَصْعد
تَداعى لها مَن ليس فيها بقَرْقَرٍ — فَطائرُها في رأسِها يَتَرَدّد
وكانَتْ كِفاءً رَقْعَةٌ بأثيمةٍ — لِيُقْطَعَ منها ساعِدٌ ومُقَلَّد
ويَظْعَن أهلُ المكَّتين، فيَهرُبُوا — فرائصُهم من خَشْيَةِ الشَّرِّ تُرْعَد
ويُتْرَك حَرّاثٌ يقَلِّبُ أمره — أيُتْهِمُ فيهم عند ذاك ويُنجِدُ
وتَصْعد بين الأخْشَبين كَتيبةٌ — لها حُدُجٌ سَهْمٌ وقوس ومرْهد

حين قَدِمَت من أرض الحبشة: الْبَحْرِيَّة الْحَبَشِيَّة، فهذا مثل قول أبي طالب: ألا هل أتى بَحْرِيَّنا.

وقوله: والله بالناس أرْوَدُ: أي: أرْفَقُ، ومنه: رُوَيْدَك، أي: رِفقًا جاء بلفظ التصغير؛ لأنهم يريدون به تقليلاً أي: ارفُق قليلاً، وليس له مكبّر من لفظه؛ لأن المصدر: إرْوادا، إلا أن يكون من باب تصغير الترخيم، وهو أن تصغّر الاسم الذي فيه الزوائد، فتحذفها في التصغير، فتقول في أسود: سُوَيْد، وفي مثل إرواد: رُوَيْد.

وقوله: مَن ليس فيها بقَرقَر: أي: ليس بذليل، لأن الْقَرْقَرَ: الأرضُ الْمَوْطُوءَةُ التي لا تمنع سالكها، ويجوز أن يريد به: ليس بذي هَزْل، لأن الْقَرْقَرَةَ: الضحكُ.

وقوله: وطائرها في رأسها يتردد. أي: حظّها من الشُّؤْم والشر، وفي التنزيل: ﴿ألزمناه طائرَه في عُنقه﴾ [الإسراء: ١٣]، وقوله: لها حُدُجٌ سَهْمٌ وقوْسٌ ومِرْهَد، وجدت في حاشية كتاب الشيخ مما كتبه عن أبي الوليد الكِناني على هذا البيت: لعله حُدُج بضم الحاء والدال جمع حِدْج على ما حكى الفارسي، وأنشد شاهدًا عليه عن ثعلب:

قمنا فآنَسْنَا الْحُمُولَ والحُدُجْ

ونظيره: سِتْر وسُتُر، ذكر ذلك عنه ابنُ سيدة في محكمه، فيكون المعنى: إن الذي يقوم لها مقام الْحِدْج سَهْمٌ وقَوْسٌ ومِرْهد. إلى هنا انتهى ما في حاشية كتاب الشيخ. قال المؤلف: وفي العين: الحَدَجُ: حَسَك القُطْبِ[1] [ما دام رطبًا] فيكون الْحدَجُ في البيت مُسْتَعَارًا من هذا، أي: لها حَسَك، ثم فسره فقال: سهمٌ وقوس ومِرْهَدُ[2]، هكذا في الأصل بالراء وكسر الميم فيحتمل أن يكون مقلوبًا من مَرْهَدٍ: مفْعَل مِنَ رَهَد الثوبَ إذا مزقه، ويعني

---

(١) القطب: ضرب من النبات.

(٢) مرهد: أي لين.

فَمَنْ يَنْشَ من حُضّار مكة عِزُّه فعِزّتنا فِي بطن مَكّة أتْلَد
نَشَأْنا بها، والنَّاسُ فيها قلائل فلم نَنْفكِكْ نزدادُ خيرًا ونحْمَد
ونُطعم حتى يترك النَّاسُ فضلَهم إذا جعلت أيدي المُفيضين تُرَعَد
جزى الله رَهطًا بالحَجُون تَبايعوا على ملأ يَهْدِي لحَزم ويُرْشِد
قُعودًا لدى خَطْم الحَجون كأنهم مَقَاوِلة، بل هم أعزّ وأمجدُ
أعانَ عليها كلُّ صَقْر كأنه إذا ما مشى في رَفْرف الدّرع أحْردُ
جَرِيّ على جُلّى الخطوب، كأنه شهاب بكَفَّيْ قابسٍ يَتوقَّد
من الأكرمين من لَؤيّ بن غالب إذا سِيم خَسْفًا وَجهُه يتربَّدُ
طويل النِّجاد خارج نصفُ ساقِهِ على وَجْهه يُسْقى الغَمام ويُسْعد
عظيم الرماد، سيد وابن سيِّد يَحُضّ على مَقْرَى الضيوف، ويحْشِد
ويبني لأبناء العَشِيرة صَالحًا إذا نحن طُفْنا في البلاد، ويَمْهَد
ألَظَّ بهذا الصُّلح كل مُبَرَّأ عظيم اللواء أمره ثَمَّ يُحمد
قضَوْا ما قَضَوْا في ليلهم، ثم أصبحوا على مَهْلٍ، وسائر النَّاس رُقَّد

به رُمحًا أو سيفًا، ويحتمل أن يكون غير مقلوب، ويكون من الزَّهيد، وهو الناعم أي: ينعم صاحبُه بالظَّفر، أو ينعم هو بالرِّيِّ من الدَّم، وفي بعض النسخ: مَزْهد بفتح الميم والزاي، فإن صحّت الرواية به، فمعناه: مَزْهد في الحياة، وحِرْص على الممات، والله أعلم. وقوله فيها: إذا جعلت أيدي المفيضين تُرْعَد. يعني: أيدي المفيضين بالقِداح في الميسر، وكان لا يفيض معهم في الميسر إلاّ سخي، ويسمّون مَن لا يدخل معهم في ذلك: الْبَرِمَ. وقالت امرأة لبعلها ـ وكان بَرِمًا بخيلاً، ورأته يقرنَ بَضْعَتين في الأكل: أبَرَمًا قَرُونًا ويسمونه أيضًا: الْحَصُور: يريد أبو طالب: إنهم يطعمون إذا بخل النَّاس. والميسر: هي الْجَزُورُ التي تُقَسَّم، يقال: يَسَرْتُ إذا قسمت، هكذا فسّره الْقُتَبِيُّ وأنشد:

أقول لهم بالشِّعبِ إذْ يَيْسِرونَنِي ألم ييأسوا أني ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

قال: يَيْسِرُونَنِي أي: يَقْتَسِمُون مالي، ويُروى: يَأسِرونني من الأسْر.

وقوله: رَفْرَفِ الدِّرْع أحْرَدُ. رَفْرَفُ الدِّرع: فُضُولها، وقيل في معنى: رَفْرَفٍ خُضْرٍ: فضول الفُرُش والبُسُط، وهو قول ابن عباس، وعن علي أنها: الْمَرافِق، وعن سَعِيد بن جُبَيْرٍ: الرفارف: رياضِ الجنة، والأحْرَدُ الذي في مشيه تثَاقُلٌ، وهو من الحَرَدِ، وهو: عَيْب في الرِّجْلِ.

هُمُ رَجَعَوا سَهْلَ ابنَ بيضاء راضيًا ... وسُرّ أبو بكر بها ومحمَّد
متى شُرّك الأقوامُ في جُلّ أمرنا ... وكُنّا قديمًا قَبْلَها نُتودّد
وكنّا قديمًا لا نُقِرّ ظُلامةً ... ونُدْرِك ما شئنا، ولا نتشدَّد
فيا لَقُصَيّ هَلْ لَكُمْ فِي نُفوسِكمْ ... وهل لكُم فيما يجِيء به غد
فإني وإيَّاكُمْ كما قال قائلٌ ... لَديك البَيانُ لو تكلمت أسود

وقال حسَّان بن ثابت يبكي المُطعِم بن عديّ حين مات، ويذكر قيامَه في نَقْض الصحيفة:

أيا عين فابكي سيِّد القوم واسفَحي ... بدمعٍ، وإن أنزفتِه فاسكبي الدَّما
وبكّي عظيمَ المَشْعَرَين كليهما ... على النَّاسِ مَعْرُوفًا له ما تَكلَّما
فلو كان مجدٌ يُخلد الدَّهرَ واحدًا ... من الناس أبقى مجدُه اليومَ مُطْعِما

وفيـــه:

هم رَجَعوا سَهْلَ ابن بَيْضَاءَ راضِيًا

سهل هذا هو: ابن وَهْب بن رَبيعَة بن هِلال بن ضَبَّةَ بنَ الحارث بن فِهر، يعرف: بابن الْبَيضَاء، وهي أمه، واسمها: دَعْد بنت جَحْدَم بن أُمَيَّة بن ضَرِب بن الحارث بن فِهْر، وهم ثلاثة إخوة: سَهْلٌ وسُهيل وصَفْوان بنو البَيْضاء[1]. وقوله:

وإني وإياهم كما قال قائل ... لديك البيانُ لو تكلمت أسْوَدُ

أسود: اسم جبل كان قد قتل فيه قتيل، فلم يعرف قاتله، فقال أولياء المقتول هذه المقالة، فذهبت مثلاً.

قول حسان في مطعم وهشام بن عمرو:

فصل: وذكر قول حَسَّان في مُطْعِم بن عَدِيٍّ، ويذكر جواره للنبي ـ عليه السلام ـ وذلك حين رجع من الطائف، وقيامه في أمر الصحيفة:

فلو كانَ مجدٌ يُخلِد الدهرَ واحدًا ... من الناس أبقى مجدُه اليوم مُطْعِما

---

(١) انظر نسب قريش (٤٤٦).

أجرْتَ رسولَ الله منهم، فأصبحوا عبِيدَك، ما لَبَّى مُهِلّ وأحْرَما
فلو سُئلَتْ عنه مَعدٌّ بأسْرِها وقَحْطان، أو باقي بَقية جُرْهما
لقالوا: هو المُوفى بخُفرة جارِه وذمَّته يومًا إذا ما تَذَمَّما
فما تطلُع الشَّمسُ المُنيرة فوقَهم على مثله فيهم أعَزّ وأعْظَما
وآبَى إذا يَأبى وألْيَنَ شِيمَةً وأنومَ عن جار إذا اللَّيْلُ أظلما

قال ابن هشام: قوله «كليهما» عن غير ابن إسحٰق.

قال ابن هشام: وأما قوله: «جرت رسول الله منهم»، فإن رسول الله ـ ﷺ ـ لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يُجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تَصْديقه ونصرته، صار إلى

وهذا عند النحويين من أقبح الضرورة، لأنه قدّم الفاعل، وهو مضاف إلى ضمير المفعول، فصار في الضرورة؛ مثل قوله:

جزى رَبُّه عني عديَّ بن حاتم[1]

غير أنه في هذا البيت أشبه قليلاً لتقدم ذكر مُطْعِم، فكأنه قال: أبقي مجدُ هذا المذكور المتقدم ذِكْرُهُ مُطْعِمًا. ووضع الظاهر موضع المضمر، كما لو قلت: إن زيدًا ضَرَبت جاريتُه زيدًا، أي: ضربت جاريتُه إياه، ولا بأس بمثل هذا، ولا سِيَّما إذا قصدت قصدَ التعظيم وتفخيم ذكر الممدوح، كما قال الشاعر:

وما لي أن أكونَ أعيب يحيىٰ ويحيىٰ طَاهِر الأثواب بَرُّ

ويجوز نصبُه عندي على البدل من قوله: وَبكِّي عظيمَ المشعرين، ويكون المفعولُ من قوله: أبقى مجدُه محذوفًا، فكأنه قال: أبقاه مجدُه أبدًا، والمفعول لا قُبحَ في حذفه، إذا دلَّ عليه الكلام كما في هذا البيت.

وذكر قول حسان في هشام بن عمرو، وقال فيه: للحارث بن حُبَيِّبِ بن سُخَام، وقد تقدم نسبه، وهو حُبَيْب بالتخفيف تصغير حِبّ، وجعله حسانُ تصغِير حبِيب، فشدَّده، وليس هذا من باب الضرورَة؛ إذ لا يسوغ أن يقال في فُلَيْس: فُلَيِّس، ولا في كُلَيْب: كُلَيِّب في شِعر ولا غيره، ولكن لما كان الحِبُّ والحبيب بمعنى واحد جعل أحدهما مكان الآخر، وهو حَسَنٌ في الشعرِ، وسائغ في الكلام، وهشام بن عمرو هذا أسلم، وهو مَعْدود في الْمُؤَلَّفة قلوبُهم، وكانوا أربعين رجلاً فيما ذكروا.

---

(١) القائل هو: أبو الأسود الدؤلي. انظر خزانة الأدب (١/ ١٩٠).

جِرَاء، ثم بعث إلى الأخنس بن شَرِيق، ليُجيره، فقال: أنا حليفٌ، والحليف لا يُجير، فبعث إلى سُهيل بن عمرو، فقال: إن بني عامر لا تُجير على بني كَعْب. فبعث إلى المُطعِم بن عديّ، فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المُطعِم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله - ﷺ - أن أدخُل، فدخل رسول الله - ﷺ - فطاف بالبيت، وصلّى عنده، ثم انصرف إلى منزله، فذلك الذي يعني حسانُ بن ثابت.

قال ابن إسحٰق: وقال حسَّان بن ثابت أيضًا: يمدح هِشامَ بن عمرو لقيامه في الصحيفة:

هـل يُـوفـيـنّ بـنـو أمـيَّـة ذمَّـة ... عَـقْـدًا كـمـا أوْفـى جِـوَارُ هِـشـامِ

مِـنْ مَـعْـشَـر لا يَـغْـدِرُون بـجـارِهـم ... لـلـحـارث بـن حُـبَـيِّـب بـن سُـخَـام

وإذا بـنـو حِـسْـل أجـارُوا ذِمَّـةً ... أوفَـوْا وأدَّوْا جـارَهـم بـسـلام

وكان هشام أخا سُخَام: قال ابن هشام: ويقال: شحام.

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

قال ابن إسحٰق: وكان رسول الله - ﷺ - على ما يَرى من قومه، يبذل لهم النَّصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه. وجعلت قريشٌ، حين منعه اللَّهُ منهم، يحذّرونه النّاس، ومَن قَدِمَ عليهم من العرب.

وقوله: ابن سُخَام، هو: اسم أُمه، وأكثر أهل النسب يقولون فيه: شُحَام بشين معجمة، وألفيت في حاشية كتاب الشيخ أن أبا عبيدَة النَّسَّابة وعَوَانة يقولون فيه: سُحَام بسين وحاء مهملتين، والذي في الأصل من قول ابن هشام: سخام بسين مهملة، وخاء معجمة ولفظ شُخَام من شَخَمَ الطعام، وخَشِم إذا تغيرت رائحته، قاله أبو حنيفة.

حول حديث طفيل الدوسي وذي الكفّين[١]

فصل: وذكر حديث طُفَيْلِ بن عمرو الدَّوْسِيّ، وهو طُفَيْل بن عَمْرو بن طَرِيف بن العاصي بن ثعلبة بن سُلَيْم بن جهْمِ بن دَوْس إلى آخره وليس فيه إشكال إلا قوله: حِنَا ذي

---

(١) انظر البخاري (٤/ ٥٤) (٥/ ٢٥٠) (٨/ ١٠٥) ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٨) وأحمد (٢/ ٢٤٣/ ٤٤٨/ ٥٠٢) وابن عساكر (٧/ ٦٥/ ٦٦) والفتح (٨/ ١٠١) (١١/ ١٤٢/ ١٩٦) وابن سعيد في الطبقات الكبرى (٤/ ١/ ١٧٦) والبداية (٣/ ١٠٠) (٥/ ٦٨) (٦/ ٢١٤) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٥٩).

وكان الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيّ يحدّث: أنه قَدِمَ مكة ـ ورسول الله ﷺ بها ـ فمشى إليه رجالٌ من قُريش ـ وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعِرًا لَبيبًا ـ فقالوا له: يا طُفيل، إنك قدمتَ بلادنا، وهذا الرجلُ الذي بين أظهرنا قد أعْضل بنا، وقد فرّق جماعَتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قولُه كالسِّحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجلِ وبين زوجته، وإنَّا نَخْشى عليك وعلى قومك ما قد دَخل علينا، فلا تُكلمنَّه ولا تسمعنّ منه شيئًا.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعتُ أن لا أسمع منه شيئًا، ولا أُكلِّمه، حتى حشوتُ فِي أُذُني حين غدوتُ إلى المسجد كُرْسُفًا فَرَقًا من أن يبلغني شيءٌ من قوله، وأنا لا أُريد أن أسمَعه. قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قائمٌ يصلّي عند الكعبة. قال: فقُمت منه قريبًا، فأبى اللَّهُ إلا أن يُسمعني بعضَ قوله. قال: فسمعتُ كلامًا حسنًا. قال: فقلت في نفسي: واثُكل أُمّي!! والله إني لرجُل لَبيب شاعرٌ ما يخفى عليّ الحسَنُ من القبيح، فما يَمنعني أن أسمَع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبِلتُهُ، وإن كان قبيحًا تركتُه.

قال: فمكثت حتى انصرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى بيته فاتَّبعتُه، حتى إذا دخل بيته دَخلتُ عليه، فقلت: يا محمد، إنَّ قومك قالوا لي كذا وكذا ـ للذي قالوا ـ فوالله ما بَرِحوا يُخَوْفونني أمرَك حتى سددت أُذُني بكُرْسُف لئلا أسمع قولَك، ثم أبى اللَّهُ إلا أن يُسمعني قولَك، فسمعتُه قولاً حسنًا، فاعرض عليّ أمرك. قال: فعرض عليّ رسول الله ـ ﷺ ـ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحقّ، وقلت: يا نبيّ الله إني امرؤٌ مُطاع في قومي، وأنا راجعٌ إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ اللَّهَ أن يجعل لي آيَةً تكون لي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه فقال: «اللَّهمَّ اجعل له آية».

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بِثَنِيَّة تُطْلِعُني على الحاضر وَقع نورٌ بين عينيّ مِثْلُ المِصباح، فقلت: اللَّهمَّ في غير وَجْهي، إني أخشى، أن يظنُّوا أنها مُثْلة وَقعت في وجهي لفِراق دينهم. قال: فتحوّل فوقع في رأس سَوطي. قال: فجعل الحاضرُ يتراءَوْن ذلك النور في سَوْطي كالقنديل المعلّق، وأنا أهبط إليهم من الثَّنِيَّة، قال: حتى جئتُهم فأصبحتُ فيهم.

الشَّرَى، وقد قال ابن هشام: هو حِمى، وهو موضعٌ حَمَوْهُ لصنمهم ذي الشَّرى، فإن صحَّت رواية ابن إسحٰق، فالنون قد تبدل من الميم، كما قالوا: حُلاَّن وحُلاَّم للجدي، ويجوز أن يكون من حَنَوْت العود، ومن مَحْنِيَةِ الوادي، وهو ما انحنى منه.

إسلام والد الطفيل وزوجته:

قال: فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخًا كبيرًا، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلستُ منك، ولستَ مني، قال: ولِمَ يا بنيّ؟ قال: قلت: أسلمتُ، وتابعت دينَ محمد - ﷺ - قال: أي بنيّ، فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب، فاغتسل، وطَهِّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أُعلِّمك ما عُلِّمتُ. قال: فذهب فاغتسل، وطهَّر ثيابَه. قال: ثم جاء فعرضتُ عليه الإسلام، فأَسْلَم.

قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت: إليك عني، فلستُ منك ولست منّي، قالت: لِمَ؟ بأبي أنت وأُمي، قال: قلت: قد فرّق بيني وبينك الإسلام، وتابعتُ دين محمد - ﷺ - قالت: فديني دينُك، قال: قلت: فاذهبي إلى حِنَا ذي الشَّرى - قال ابن هشام: ويقال: حِمَى ذي الشَّرى - فتَطَهَّري منه.

ذو الشَّرى صنمًا لِدَوْس، وكان الحمى حِمًى حَمَوْه له، به وشَلٌ من ماءٍ يَهْبِط من جبل.

قال: قالت: بأبي أنت وأُمي، أتخشى على الصبيَّة من ذي الشَّرى شيئًا، قال: قلت: لا، أنا ضامنٌ لذلك، فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام، فأسلمت.

ثم دعوت دَوْسًا إلى الإسلام، فأبطؤوا عليّ، ثم جئتُ رسول الله - ﷺ - بمكَّةَ، فقلت له: يا نبيّ الله، إنه قد غلبني على دَوْس الزّنا، فادْعُ الله عليهم، فقال: اللَّهمَّ اهْدِ دَوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفُق بهم، قال: فلم أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، ومضى بَدرٌ وأُحدٌ والخندقُ، ثم قَدِمتُ على رسول الله - ﷺ - بمَن أَسْلَمَ معي مِنْ قومي، ورسولُ الله - ﷺ - بِخَيْبَر، حتى نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتًا من دَوس، ثم لَحِقنا برسول الله - ﷺ - بخيبر، فأسْهم لنا مع المسلمين.

وقوله: يا ذا الْكَفَيْنِ لست من عُبّادكا. أراد: الكفّين بالتشديد، فخفف للضرورة، غير أن في نسخة الشيخ أن الصنم كان يسمى: ذا الْكَفَيْنِ، وخفف الفاء بخطّه بعد أن كانت مشددة، فدلّ أنه عنده مخفف في غير الشعر، فإن صحّ هذا فهو محذوف اللام، كأنه تثنيه كَفْءٍ، من كفأتُ الإناء، أو إذا كفء بمعنى كفء؟! ثم سُهِّلَت الهمزةُ، وألقيت حركتها على الفاء، كما يقال: الْخَبْءُ والْخَبُ، وفي الحديث: أن أهل الحاضر من دَوْسٍ كانوا يتراءونه في الثَّنِيّة، وفي سوطه كالْقِنديلِ المعلّق، وذكره المبرِّد فقال في لفظ الحديث: جعلوا ينظرون

ثم لم أزَل مع رسول الله ـ ﷺ ـ حتى إذا فتح اللّٰهُ عليه مكةَ، قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفَّين، صنمِ عمرو بن حُمَمَة حتى أُحْرقه.

قال ابن إسحٰق: فخرج إليه، فجعل طفيل يوقد عليه النار، ويقول:

يا ذا الكَفَّيْنِ لَسْتُ مِنْ عُبَّادِكا ... مـيـلادنـا أقْـدَمُ مِـنْ مِـيـلادكـا
إنـي حـشـوْتُ الـنَّـار فِـي فُـؤَادِكـا

قال: ثم رجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فكان، معه بالمدينة، حتى قَبض اللّٰهُ رسولَهُ ـ ﷺ ـ فلما ارتدّت العرب، خرج مع المسلمين، فسار معهم، حتى فرَغُوا من طُليحة، ومن أرض نَجْد كلِّها. ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ـ ومعه ابنُهُ عَمْرو بن الطُّفيل ـ فرأى رؤيا وهو متوجِّه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا، فاعبُرُوها لي، رأيتُ أن رأسي حُلِق، وأنه خرج من فمي طائرٌ، وأنه لقِيتْني امرأةٌ، فأدخلتني في فَرْجها، وأرى ابني يَطلبني طَلَبًا حَثيثًا، ثم رأيتُه حُبس عني، قالوا: خيرًا. قال: أمَّا أنا والله، فقد أوَّلتُها، قالوا: ماذا؟ قال: أمَّا حلْق رأسي فوَضْعه، وأما الطائر الذي خرج من فَمِي فَروحِي، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها، فالأرض تُحْفَرُ لي، فأُغيَّب فيها، أما طَلب ابني إياي ثم حَبْسه عني، فإني أراه سيَجْهد أنْ يصيبه ما أصابني، فقُتل رحمه الله شهيدًا باليمامة، وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبَلّ منها، ثم قُتل عام اليَرْموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيدًا.

من قصة أعشى بن قيس بن ثعلبة

قال ابن هشام: حدّثني خلاّد بن قُرّة بن خالد السَّدُوسيّ وغيرُه من مشايخ بَكْر بن وائل مِن أهل العلم: أن أعشى بني قَيْس بن ثعلبة بن عُكَابة بن صَعْب بن عليّ بن

إلى الجبل، وهو يهتف من شدة الضياء والنور، وروى، أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: لما قال طفيل للنبي ـ ﷺ ـ إن دَوْسًا غلب عليها الزنى والربا، فادع الله عليهم، قلنا: هلكت دوس، حتى قال رسول الله ـ ﷺ ـ اللَّهمَّ اهدِ دوسًا[1].

الأعشى وداليته وحمزة والشرف

فصل: وذكر ابن هشام حديث الأعشى وقصيدته إلى آخرها، فلما كان قريبًا من مكة لقيه بعض المشركين، فقال: إلى أين يا أبا بصير؟ الحديث، وذكر تحريمه الخمر، وتحريمه

---

(١) انظر التخريج السابق.

بَكر بن وائل، [ابن قاسط بن هِنبِ بن أفصى بن دُعْمِي بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار] خرج إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يريد الإسلام فقال يمدح رسولَ الله ﷺ:

أَلَمْ تَغتمِض عَيْناك ليلة أرْمَدا ... وبتّ كما بات السَّليمُ مُسهَّدا

وَما ذاك مِنْ عشقِ النِّساء، وإنما ... تناسيتَ قبلَ اليوْم خُلَّة مَهْددا

الزنى، وقول الأعشى: أما الخمر ففي الناس منها عُلاَلات وقال غير ابن هشام: كان القائلَ لِلأَعشى هذه المقالة أبو جهل. قالها في دار عُتْبَة بن ربيعة، وكان نازلاً عنده، قال المؤلف: وهذه غَفْلَةٌ من ابن هشام، ومَن قال بقوله، فإن الناس مُجمِعون على أن الخمر لم ينزل تحريمها إلا بالمدينة بعد أن مضت بدر وأُحُد، وحرمت في سورة المائدة، وهي من آخرِ ما نزل، وفي الصحيحين من ذلك قصةُ حمزة حين شربها وغنّته القينتان: ألا يا حمز، للشُّرُف النِّوَاءِ، فبَقَر خواصِرَ الشارِفين، واجتنب أسنمتها.

وقوله للنبي عليه السلام: هل أنتم إلاّ عَبِيدٌ لآبائي، وهو ثَمِل. الحديث بطوله. فإن صحّ خبر الأعشى، وما ذكر له في الخمر، فلم يكن هذا بمكة، وإنما كان بالمدينة، ويكون القائل له: أما علمت أنه يحرم الخمر، من المنافقين، أو من اليهود، فالله أعلم. وفي القصيدة ما يدل على هذا قوله: فإن لها في أهل يثرب موعدًا، وقد أُلفيت للقالي رواية عن أبي حاتم عن أبي عبيدة قال: لقي الأعشى عاممر بن الطُّفَيْل في بلاد قيس، وهو مقبل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر له أنه يحرم الخمر، فرجع، فهذا أولى بالصواب، وقول الأعشى: أتروّى منها هذا العام، ثم أعود فأسلم لا يخرجه عن الكفر بإجماع، قال الإسفراييني في عقيدته: إذا قال المؤمن سأكفر: غدًا أو بعد غد، فهو كافر لحينه بإجماع، وإذا قال الكافر: سأُومن غدًا، أو بعد فهو على كفره، لا يخرجه عن حكم الكفر إلا إيمانه إذا آمن، ولا خلاف في هذا والله المستعان.

وقوله:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عيناك ليلة أرْمَدَا

لم ينصب ليلة على الظرف؛ لأن ذلك يفسد معنى البيت، ولكن أراد المصدر فحذفه، والمعنى: اغتماض ليلة أرمد، فحذف المضاف إلى الليلة، وأقامها مقامه، فصار إعرابها كإعرابه، وقد رُوِيَ هذا البيت: ليلك بالكاف، ومعناه: غَمْضُ أرْمَد، وقيل: بل أرمد على هذه الرواية من صفة الليل، أي حال منه على المجاز، كما تقول: ليلك ساهر.

وقوله:

تناسيت قبل اليوم خُلَّةَ مَهْدَدَا

ولكن أرَى الدهْرَ الذي هو خائنٌ	إذا أصلحتْ كفَّاي عاد، فأفسدا
كُهولاً وشُبَّانًا فقدتُ وثَرْوةً	فلِلَّه هذا الدَّهرُ كيد تَرَدّدا!!
وما زلتُ أبغي المالَ مُذْ أنا يافعٌ	وليدًا وكهلاً حين شِبْت وأمْردا
وأبتذل العِيسَ المَراقيل تَغتلي	مسافةَ ما بين النُّجَيْر فصَرْخَدا
ألا أيُّهذا السائلِي أين يَمَّمتْ	فإنّ لها في أهلِ يثرِبَ موْعدا
فإنْ تسألي عني، فيا رُبّ سائلٍ	حَفِيّ عن الأعشى به حيثُ أصْعدا
أجدّت بِرجلَيْها النَّجاءَ، وراجعتْ	يداها خِنافًا ليِّنًا غيْرَ أحْردا
وفيها ـ إذا ما هجَّرت ـ عَجْرفيّةٌ	إذا خِلْت حِرْباء الظَّهيرة أصْيدا

مَهْدَدٌ: فَعْلَل من المهْد، ولولا قيام الدليل على أن الميم أصلية لحكمنا بأنه مَفْعل؛ لأن الكلمة الرباعية إذا كان أولها ميمًا أو همزة، فحملها على الزيادة، إلا أن يقوم دليل على أنها أصلية، والدليل على هذه الكلمة ظهور التضعيف في الدال؛ إذ لو كانت الميم زائدة لما ظهر التضعيف، ولقلت فيه: مَهَدّ كما تقولُ: مَردّ وَمَكرّ ومَفرّ في كل ما وزنه مفْعَل من المضاعف، وإنما الدال في مَهْدَدَ ضوعفت ليلحق ببناء جَعْفر.

وقوله:

إذا خِلت حِرْباء الظهيرة أصْيَدا

والأصيد: المائل العنق، ولما كانت الْحِرْباء تدور بوجهها مع الشمس كيفما دارت، كانت في وسط السماء في أول الزوال، كالأصيد، وذلك أحرّ ما تكون الرَّمْضَاء. يصف ناقته بالنشاط، وقوة المشي في ذلك الوقت.

وقوله: خِنافًا ليِّنًا. في العين: خَنَفَت الناقة تخنِف بيديها في السير، إذا مالت بهما نشاطًا، وناقة خَنُوف قال الراجز[1]:

إن الشِّواءَ[2] والنَّسِيلَ[3] والرُّغُفْ والقَيْنَة[4] الحسناءَ، والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيلَ، والخيلُ خُلُف

وقوله: لَيِّنًا غير أحْرَدا، أي: تفعل ذلك من غير حَرَد في يديها، أي اعوجاج، والنُّجَيْرُ وصَرْخَدُ بلدان، وأهل النجير أول مَن ارتدّ في خلافة أبي بكر بعد أهل دَبًا وكان أهل دبا قد

(١) هو: لَقيط بن زرارة.
(٢) الشواء: اللحم المشوي.
(٣) النسيل: اللحم المطبوخ بلا توابل.
(٤) القينة: المغنية.

وآلَـيْـتُ لا آوي لـهـا مـن كَـلالـة	ولا من حَفًى حتى تلاقي محمَّدا
متى ما تُناخى عند باب ابنِ هاشم	تُراحِي، وَتَلْقَيْ من فَواضله نَدَى
نـبـيًّـا يَـرَى مـا لا تـروْن وذكـرُه	أغـار لـعَـمْـري فـي الـبـلاد وأنْـجَـدا
لـه صَـدقـاتٌ مـا تُـغِـبّ ونـائِـل	ولـيـس عـطـاءُ الـيـوْم مـانـعَـه غـدا
أجِـدَّكَ لـم تـسْـمَـع وَصَـاةَ مـحـمـد	نبيِّ الإلـهِ حيث أوْصَى، وأشـهَـدا
إذا أنت لـم ترحـل بزاد من التُّقَى	ولاقيت بعد الموْت مَنْ قد تَزوّدا

حاصرهم حُذَيْفَة بن أسَيْد، وحاصر أهل النجير زياد بن لبيد بأمر أبي بكر، حتى نزلوا على حكمه. وأما صَرْخَدُ فبلد طيب الأعناب، وإليه تنسب الخمرُ الصَّرْخَديَّة. وفي الأمالي: ولذٍّ كطعم الصَّرْخَدِي تركته.

وقـولـــه:

وآلَـيْــت لا آوي لَــهَــا مِــن كَـلالَــة

ولا من وَجًى، أي: لا أرق لها، يقال: آويت للضعيف إيَّة ومأْوِيَة إذا رقّت له كبدك.

وقـولـــه:

أغـار لَـعَـمْـري فـي الـبـلاد وأنـجـدا

المعروف في اللغة: غار وأنجد، وقد أنشدوا هذا البيت: لعمري غَارَ في البلاد وأنجدا. والغَورُ: ما انخفض من الأرض، والنجْدُ: ما ارتفع منها، وإنما تركوا القياس في الغور، ولم يأت على أفعل إلا قليلاً، وكان قياسه أن يكون مثل أنْجَدَ، وأتْهم؛ لأنه مَن أمَّ الغور، فقد هبط ونزل، فصار من باب غار الماءُ، ونحو ذلك، فإن أردت: أشْرَف على الْغَوْر، قلت: أغار، ولا يكون خارجًا عن القياس.

وقـولـــه:

ولـيـس عـطـاءُ الـيـوم مـانـعَـه غـدًا

معناه على رفع العطاء ونصب مانع، أي: ليس العطاء الذي يعطيه اليوم مانعًا له غدًا مَن أن يعطيه، فالهاء عائدة على الممدوح، فلو كانت عائدة على العطاء لقال: وليس عطاء اليوم مانعه هو، بإبراز الضمير الفاعل، لأن الصفة إذا جرت على غير مَن هي له برز الضمير المستتر بخلاف الفعل، وذلك لِسر بيّنّاه في غير هذا الموضع لم يذكره الناس، ولو نصب العطاء لجاز على إضمار الفعل المتروك إظهاره، لأنه من باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره، ويكون اسم ليس على هذا مضمرًا فيها عائدًا على النبي ﷺ.

ندمتَ على أن لا تكون كمثْلِه	فَتُرصِد للأمر الذي كان أرْصَدا
فإيَّاك والمَيْتاتِ لا تقربنَّها	ولا تأخُذَنْ سهمًا حديدًا، لتُفْصِدا
وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسُكَنَّه	ولا تعبد الأوثان، والله فاعبُدا
ولا تَقرَبنَّ حُرَّةً كان سِرُّها	عليكَ حرامًا فانْكَحَنْ أو تأبَّدا
وذا الرّحِم القُربَى فلا تَقْطَعَنَّه	لعاقبة ولا الأسير المُقَيَّدا
وسبِّح على حينِ العشيَّات والضّحى	ولا تَحمَد الشَّيطانَ والله فاحمَدا
ولا تَسْخرا من بائس ذي ضرارة	ولا تحْسَبَنّ المال للمَرْء مُخْلِدا

وقوله: فانْكَحَنْ أوْ تَأبَّدا. يريد: أو ترهَّب؛ لأن الراهب أبَدًا عَزَبٌ فقيل له: متأبدًا اشتق من لفظ الأبد.

وقوله: فالله فاعبدا، وقف على النون الخفيفة بالألف، وكذلك فانكحن أو تأبدا، ولذلك كتبت في الخط بألف، لأن الوقف عليها بالألف، وقد قيل في مثل هذا: إنه لم يُرِد النونَ الخفيفة، وإنما خاطب الواحد بخطاب الاثنين، وزعموا أنه معروف في كلام العرب، وأنشدوا في ذلك[1]:

فإن تَزْجُراني يا ابْنَ عفان أزْدَجِرْ	وإنْ تَدَعَانِي أحم عِرْضًا مُمَنَّعا

وأنشدوا أيضًا في هذا المعنى[2]:

وقلت لصاحبي: لا تَحْبِسَانا	بنزع أُصُولها واجْتَثَّ شِيحَا

ولا يمكن إرادة النون الخفيفة في هذين البيتين، لأنها لا تكون ألفًا، إلا في الوقف، وهذا الفعل قد اتصل به الضمير، فلا يصح اعتقاد الوقف عليه دون الضمير، وحُكِيَ أن الحجاج قال: يا حرسي اضربا عنقه، وقد يمكن فيه حمل الوصل على الوقف، ويحتمل أن يريد: اضرب أنت وصاحبك: وقد قيل في قوله سبحانه: ﴿ألقيا في جَهَنَّم﴾ إن الخطاب لمالِكٍ وحده حملا على هذا الباب، وقيل: بل هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿سائق وشهيد﴾ وفي القصيدة زيادة لم تقع في رواية ابن هشام وهي قوله في وصف الناقة:

فأما إذا ما أدْلَجَتْ، فترى لها	رقيبين نجمًا لا يغيب وَفَرْقدا

---

(١) صاحب البيت هو: سويد بن كراع العكلي.
(٢) صاحب البيت هو: المضرس بن ربعي الأسدي، وقيل يزيد بن الطثرية.

مصير الأعشى:

فلما كان بمكة أو قريبًا منها، اعترضه بعضُ المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسولَ الله ـ ﷺ ـ؛ ليُسلم، فقال له: يا أبا بصير، إنه يُحرِّم الزِّنا، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمرٌ ما لي فيه من أرَب، فقال له: يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمْر، فقال الأعشى: أمَّا هذه فوالله إنّ في النفس منها لعُلاَلات، ولكني منصرفٌ فأتروَّى منها عامي هذا، ثم آتيه فأُسلم. فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يَعُد إلى رسول الله ﷺ.

ذلّة أبي جهل:

قال ابن إسحٰق: وقد كان عدوّ الله أبو جهل بن هشام مع عداوته لرسول الله ـ ﷺ ـ وبغضه إياه، وشدّته عليه، يُذلُّه الله له إذا رآه.

أبو جهل والإراشي

قال ابن إسحٰق: حدّثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي، وكان واعية، قال: قَدِمَ رجلٌ من إراش ـ قال ابن هشام: ويقال: إراشة ـ بإبل له مكةَ، فابتاعها منه أبو جهل، فمَطَله بأثمانها. فأقبل الإراشي حتى وقف على نادٍ من قريش، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ في ناحية المسجد جالسٌ، فقال: يا معشر قريش، مَنْ رجلٌ يؤدّيني على أبي الحَكم بن هِشام، فإني رجلٌ غريب، ابنُ سَبيل، وقد غلَبني على حقي؟: فقال له أهلُ ذلك المجلس: أترى ذلك الرجلَ الجالسِ ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ وهم يهزؤون به؛ لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة ـ اذْهَبْ إليه، فإنه يُؤَدّيك عليه.

وقع هذا البيت بعد قوله: لينًا غير أحردا.

وقوله في صفة النبي ﷺ:

أغار لعمري في البلاد وأنجدا

وبعده:

به أنقذ اللَّهُ الأنامَ من الْعَمَى   وما كان فيهم مَن يَرِيعُ إلى هُدى

حديث الإراشي

فصل: وذكر حديثَ الإراشي الذي قَدِمَ مكة، واستعدى على أبي جهل.

قال ابن إسحٰق: هو من إراش، وهو ابن الغوث أو ابن عمرو، بن الغوث بن نبت بن

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا عبد الله إنَّ أبا الحَكم بنَ هشام قد غَلَبني على حقٍّ لي قِبَله، وأنا غريب ابن سَبيل، وقد سألت هؤلاء القومَ عن رجل يؤدّيني عليه، يأخذ لي حقِّي منه، فأشاروا لي إليك، فخُذْ لي حقِّي منه، يرحمك الله، قال: انطلق إليه، وقام معه رسولُ الله ـ ﷺ ـ فلما رأوْه قام معه، قالوا لرجل ممّن معهم: اتبعه، فانظر ماذا يصنع.

قال: وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ حتى جاءه، فضرب عليه بابَه، فقال: مَن هذا؟ قال: محمد، فاخرج إليّ، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة، قد انْتُقِع لونُه، فقال: أعطِ هذا الرجل حقّه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، قال: فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه إليه. قال: ثم انصرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقال للإراشي: الحق بشأنك، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرًا، فقد والله أخذ لي حقي.

قال: وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك! ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب، والله ما هو إلا أن ضَرب عليه بابَه، فخرج إليه وما معه رُوحُه، فقال له: أعطِ هذا حقَّه، فقال: نعم، لا تبرحْ حتى أُخرج إليه حقَّه فدخل فخرج إليه بحقه، فأعطاه إياه. قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: وَيْلك! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قطُّ! قال: ويحَكم، والله ما هو إلا أن ضربَ عليّ بابي، وسمعت صوتَه، فمُلئت رعبًا، ثم خرجتُ إليه، وإنّ فوق رأسه لفَحْلاً من الإبل، ما رأيت مثلَ هامته، ولا قَصَرَته، ولا أنْيابه لفَحْلٍ قط، والله لو أبيتُ لأكلني.

مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهو والد أنمار الذي ولد، بَحيلةَ وخَثْعَم. وإراشة الذي ذكر ابن هشام: بَطْنٌ من خَثْعَم، وإراشة مذكورة في العماليق في نسب فِرْعون صَاحب مصر، وفي بَلِيٍّ أيضًا بنو إراشة، وقوله: مَنْ [رجل] يؤديني على أبي الحكم أي: يعينني على أخذ حقي منه، وهو من الأداة التي توصل الإنسان إلى ما يريد، كأداة الحرب، وأداة الصانع، فالحاكم يؤدي الخصم، أي يوصله إلى مطلبه، وقد قيل: إن الهمزة بدل من عين، ويؤدِّي ويعدي بمعنى واحد، أي: يزيل العُدْوان، والعَداء وهو: الظلم، كما تقول: هو يُشْكِيك أي: يُزيل شَكْواك، وفي حديث خباب: شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حَرَّ الرَّمْضَاءِ، فلم يُشكنا معناه على أحد القولين: لم يرفع شَكْوانا ولم يُزْلها.

وقوله: فخرج إليه، وما في وجهه رائحة، أي: بقية روح، فكان معناه: روح باقية، فلذلكِ جاء به على وزن فاعِله، والدليل على أنه أراد معنى الرُّوح وإن جاء به على بناء فاعلة قول الإراشي في آخر الحديث: خرج إليّ، وما عنده رُوحُه.

ركانة ومصارعته

قال ابن إسحٰق: وحدّثني أبي إسحٰقُ بن يسار، قال: كان رُكَانَةُ بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف أشدَّ قُرَيش، فخلا يومًا برسولِ الله ـ ﷺ ـ في بعض شِعاب مكة، فقال له رسولُ الله ﷺ: «يا رُكَانة، ألا تتقي الله، وتقبل ما أدعوك إليه»؟ قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حقّ لاتبعتك، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «أفرأيت إن صرَعتك، أتعلم أنّ ما أقول حق»؟ قال: نعم، قال: «فقم حتى أصارعك». قال: فقام إليه رُكانة يصارعه، فلما بطش به رسولُ الله ـ ﷺ ـ أضْجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئًا، ثم قال: عُدْ يا محمد، فعاد فصرعه، فقال يا محمد: والله إن هذا لَلْعَجب، أتصرعني! فقال رسولُ الله ﷺ: «وأعجبُ من ذلك إن شئت أن أُريكه، إن اتَّقيت الله واتبعت أمري»، قال: ما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرةَ التي ترى فتأتيني»، قال: ادْعُها، فدعاها، فأقبلت حتى وقفتْ بين يدَيْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ قال: فقال لها: «ارجعي إلى مكانك». قال: فرجعت إلى مكانها!.

مصارعة ركانة[1]

فصل: وذكر حديث رُكَانة ومصارعته للنبي ـ ﷺ ـ وقد تقدم مثلُ هذا الحديث عن أبي الأشدين الْجُمَحِيِّ، ولعلهما أن يكونا جميعًا صارعا رسول الله ـ ﷺ ـ وقد تقدم التعريف بأبي الأشدِّين، وباسمه ونسبه؛ ورُكَانة هذا هو: ابن عَبْد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب من مَسْلَمَةِ الفتح، وتوفي في خلافة معاوية، وهو الذي طلق امرأته ألْبتَّة، فسأله رسولُ الله ـ ﷺ ـ عن نيّته، فقال: إنما أردت واحدة، فردّها عليه[2]، ومن حديثه عن النبي ﷺ: أنه قال: «إن لكل دين خُلقًا، وخلق هذا الدين الحياء»[3]، ولابنه يزيد بن رُكانَة صحْبَةٌ أيضًا، ويُروى عن يَزِيدَ بن رُكَانة ابنُه علي، وكان علي قد أعطى من الأيْدِ والقوة ما لم يُعْطَ أحد، نَزَع في ذلك إلى جَدِّ رُكَانة، وله في ذلك أخبار ذكرها الفاكهي، منها: خبره مع يزيد بن معاوية، وكان يزيد بن معاوية من أشد العرب، فصارعه يومًا، فصرعه عليٌّ صرعة لم يسمع بمثلها، ثم حمله بعد ذلك على فرس جَمُوح لا يطلق، فعلم عليٌّ ما يراد به، فلما جَمَح به الفرس ضَمَّ عليه فخذيه ضَمَّةً نَفَقَ منها الفرسُ، وذكر عنه أيضًا أنه تأبَّطَ رجلين أيْدَيْنِ، ثم جرى بهما، وهما تحت إبْطَيْهِ حتى صاحا: الموت الموت، فأطلقهما.

---

(١) انظر البداية (٣/١٠٣).

(٢) «حسن». أخرجه أبو داود (٢٣٧٣) بتحقيقي.

(٣) «حسن». أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) والطبراني في الصغير (١/١٢) وأبو نعيم في الحلية (٥/٣٦٣) وابن عبد البرّ في التمهيد (٩/٢٥٧).

قال: فذهب رُكانة إلى قومه، فقال: يا بني عبد مناف، ساحِرُوا بصاحبكم أهلَ الأرض، فوالله ما رأيت أسحرَ منه قطُّ، ثم أخبرهم بالذي رأى، والذي صنع.

قدوم وفد النصارى من الحبشة

قال ابن إسحٰق: ثم قَدِمَ على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو بمكة ـ عشرون رجلاً، أو قريبٌ من ذلك من النَّصارى، حين بلغهم خبرهُ من الحبشة، فوجدوه في المَسْجد، فجلسوا إليه وكلَّموه وسألوه، ورجالٌ من قُريش في أنديتهم حولَ الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ـ ﷺ ـ عمّا أرادوا، دعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الله ـ عزّ وجل ـ وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينُهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصف لهم في كتابهم من أمْره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جَهْل بن هشام في نَفَر من قُرَيش، فقالوا لهم: خيَّبكم الله مِنْ رَكْب! بعثكم مَن وراءكم مِنْ أهل دينكم تَرْتادون لهم؛ لتأتوهم بخَبر الرجل، فلم تطمئنّ مجالسُكم عنده، حتى فارقتم دينَكم، وصدّقتموه بمال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قالوا، فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نُجَاهِلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَأْلُ أنفسَنا خيرًا.

ويقال: إن النَّفر من النَّصارى من أهل نَجْران، فالله أعلم أيّ ذلك كان. فيقال ـ والله أعلم ـ فيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾... إلى قوله: ﴿لَنا أعْمالُنا ولَكُم أعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

قال ابن إسحٰق: وقد سألت ابن شهاب الزُّهريّ عن هؤلاء الآيات فيمن أُنزلن، فقال لي: ما سمعن علمائنا أنّهن أُنزلن في النجاشي وأصحابه، والآية من سورة المائدة

وفد نصارى الحبشة

فصل: وذكر قدوم وفد النصارى من الحبشة وإيمانهم، وما أنزل الله فيهم من قوله تعالى: ﴿الذين قالوا إنَّا نَصَارى﴾ ولم يقل: من النصارى، ولا سَمَّاهم هو سبحانه بهذا الاسم، وإنما حكى قولهم الذي قالوه حين عَرَّفوا بأنفسهم، ثم شهد لهم بالإيمان، وذكر أنه أثابهم الجنة، وإذا كانوا هكذا فليسوا بنصارى، هم من أمة محمد ـ عليه السلام ـ وإنما عُرف النصارى بهذا الاسم، لأن مبدأ دينهم كان من نَاصِرَةَ قرية بالشام، فاشْتُقّ اسمُهم منهم، كما اشْتُقّ اسم اليهود من يهُود بن يعْقوب، ثم لا يقال لمَن أسلم منهم: يهودي اسم الإسلام أولى بهم جميعًا من ذلك النسب.

من قوله: ﴿ذلكَ بأنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبانًا وأنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ . . . إلى قوله: ﴿فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

قال ابن إسحٰق: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خبابٌ، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صَفْوَان بن أُميَّة بن مُحَرِّث، وصُهَيب، وأشباههم من المسلمين، هَزِئت بهم قريش، وقال بعضهُم لبعض: هؤلاء أصحابُه كما ترون، أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بَيْننا بالهدى والحقّ! لو كان ما جاء به محمدٌ خيرًا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه، وما خصهم اللّهُ به دُوننا. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُون رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عليكَ من حِسابِهِم مِنْ شَيْءٍ وما مِنْ حسابكَ عليهم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وكذلكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ ببَعْض لِيَقُولُوا أهٰؤلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْننا أَلَيْسَ اللَّهُ بأعْلَمَ بالشَّاكِرِينَ وَإذَا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بآياتنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فإنَّهُ غَفورٌ رحيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤].

وكان رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ كثيرًا ما يَجْلس عند المَرْوة إلى مَبِيَعَة غلام نَصْرانيّ، يقال له: جَبْرٌ، عَبْدٌ لبَني الحَضْرميّ، فكانوا يقولون: والله ما يعلِّم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جَبْرٌ النَّصراني، غلامُ بني الحضرمي، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أنَّهم يقُولون إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

قال ابن هشام: يُلْحدون إليه: يميلون، والإلحاد: الميل عن الحقّ.

عن غلام المبيعة وصهيب وأبي فكيهة:

فصل: ذكر أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يجلس إلى مَبِيعَة غُلام. المبيعة: مَفْعلة مثل المعيشة، وقد يجوز أن يكون مَفْعُلة بضم العين ـ وهو قول الأخفش، وأما قولهم: سلعة مَبِيعة فمفعولة، حُذفت الواوُ منها في قول سيبويه حين سكنوا الياء استثقالاً للضمة، وفي قول أبي الحسن الأخفش إن الياء بدل من الواو الزائدة في مَبْيُوعة، ووزنها عنده: مَفُولَة بحذف العين، وللكلام على هذين المذهبين موضع غير هذا.

وذكر صُهَيْبًا وأبا فَكِيهَة، وسنذكر اسم أبي فكيهة، والتعريف به فيما بعد لأنه بَدْرِيٌّ، وكذلك صُهَيْبُ بن سِنان، ونقتصر في هذا الموضع على ذكر اسمه وهو: يسار مولى عبد الدار.

قال رؤبة بن العَجَّاج:

إذا تَبِع الضَّحَّاكَ كلُّ مُلْحِد [ونحن ضَرَّابُون هامَ الْعُنَّدِ]

ابن هشام: يعني الضَّحاك الخارجيّ، وهذا البيت في أُرجوزة له.

سبب نزول سورة الكوثر

قال ابن إسحٰق: وكان العاص بنُ وائل السَّهمي ـ فيما بلغني ـ إذا ذُكِر رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال: دعوه، فإنما هو رجلٌ أبْتر، لا عَقِبَ له، لو مات لانقطع ذِكْره، واسترحتم منه، فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ما هو خير لك من الدنيا وما فيها. والكوثرِ: العظيم.

الأبتر والكوثر(١)

فصل: وذكر قول العاصي بن وَائل: إن محمدًا أَبْتَرُ إذا مات انقطع ذكره، وأنزل الله تعالى فيه قوله من سورة الكوثر على قول ابن إسحٰق، وأكثر المفسرين. وقيل: إن أبا جهل هو الذي قال ذلك. وقد قيل: كعب بن الأشرف، ويلزم على هذا القول الأخير أن تكون سورة الكوثر مدنية، وقد روى يونس عن أبي عبد الله الْجُعْفِي عن جابر الْجُعْفِي عن محمد بن علي، قال: كان القاسم ابن رسول الله ـ ﷺ ـ قد بَلَغ أنْ يركب الدابة، ويَسير على النَّجيبَة، فلما قبضه الله، قال العاصي: أصبح محمد أبتر من ابنه، فأنزل الله على نبيّه ﷺ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوثَرَ﴾ عِوَضًا يا محمد من مصيبتك بالقاسم: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر إن شَانِئَكَ هو الأَبْتَرُ﴾ ولم يقل: إن شانئك أبتر يتضمن اختصاصه بهذا الوصف، لأن هو في مثل هذا الموضع تعطي الاختصاص، مثل أن يقول قائل: إن زيدًا فاسق، فلا يكون مخصوصًا بهذا الوصف دون غيره، فإذا قلت: إن زيدًا هو الفاسق، فمعناه: هو الفاسق الذي زعمت، فدلّ على أن بالحضْرَةِ مَن يزعم غير ذلك، وهٰكذا قال الجرجاني وغيره في تفسير هذه الآية أنَّ هو تعطي الاختصاصَ، وكذلك قالوا في قوله سبحانه: ﴿وأنه هو أغْنَى وأقْنَى﴾ لما كان العباد يتوهمون أنَّ غير الله قد يغني، قال: هو أغْنَى وأقْنَى، أي: لا غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ إذ كانوا قد يَتَوَهَّمون في الإحياء والإماتة ما توهما النمرود حين قال: أنا أُحْيِي وأُميت، أي: أنا أقتل مَن شئتُ، وأسْتَحْيِي مَن شئت، فقال عزّ وجل: ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ أي: لا غيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿وأنه هُوَ ربُّ

---

(١) انظر الطبري (٣٠/ ٢١١) وابن كثير (٨/ ٣٥٥) والبيهقي (٩/ ٢٥٩) الإتقان للسيوطي (٢/ ٥٧) والدرّ المنثور له (٦/ ٤٠٤).

....

الشِّعْرَى﴾[1] أي: هو الرَّبُّ لا غيره، إذ كانوا قد اتخَذُوا أربابًا من دونه، منها: الشِّعْرى، فلما قال: وإنه خلق الزوجين، وأنه أهلك عادًا استغنى الكلام عن هو التي تعطي معنى الاختصاص، لأنه فعلٌ لم يَدَّعِه أحدٌ، وإذا ثبت هذا، فكذلك قوله:﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أي: لا أنت. والأبتر: الذي لا عَقِب له يتبعه، فعدمه كالْبَتَر الذي هو عَدَم الذَّنَب، فإذا ما قلت هذا، ونظرت إلى العاصي، وكان ذا ولد وعقِب، وولدهُ عَمْرُو وهشام ابنا العاصي بن وائل، فكيف يثبت له الْبَتَر، وانقطاع الولد، وهو ذو ولد ونَسْلٍ، وينفيه عن نبيه، وهو يقول: ﴿ما كان مُحَمَّد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية. فالجواب: أن العاصي - وإن كان ذا ولد - فقد انقطعت الْعِصْمَةُ بينه وبينهم، فليسوا بأتباعٍ له، لأن الإسلام قد حجزهم عنه، فلا يرثهم ولا يَرِثُونه، وهم من أتباعِ محمد عليه السلامَ، وأزواجُه أُمهاتُهم، وهو أبٌ لهم. كما قرأ: أُبَيُّ بن كعب: «وأزواجُه أُمهاتُهم، وهو أبٌ لهم[2]، والنبي أولى بهم» كما قال الله سبحانه، فهم وجميع المؤمنين أتباع النبي في الدنيا، وأتباعُه في الآخرة إلى حوضه، وهذا معنى الْكَوْثر، وهو موجود في الدنيا لكثرة أتباعه فيها، ليغذّي أرواحَهم بما فيه حياتُهم من العلم، وكثرة أتباعه في الآخرة ليسقيهم من حَوْضه ما فيه الحياة الباقية، وعدوُّ الله العاصي على هذا هو الأبتر على الحقيقة، إذ قد انقطع ذَنَبهُ وأتباعه، وصاروا تَبعًا لمحمد - ﷺ - ولذلك قوبل تَغْييرُه للنبي - ﷺ - بِالْبَتَر بما هو ضده من الْكَوْثر؛ فإن الكثرة تضاد معنى الْقِلَّة، ولو قال في جواب اللعين: إنا أعطيناك الْحَوْضَ الذي من صِفته كذا وكذا لم يكن ردًّا عليه، ولا مُشاكلاً لجوابه، ولكن جاء باسم يتضمن الخير الكثير؛ والعددَ الْجَمَّ الغفيرَ الْمُضادَّ لمعنى الْبَتَر، وأن ذلك في الدنيا والآخرة بسبب الحوض المورود الذي أعطاه، فلا يختص لفظ الكوثر بالحوض، بل يجمع هذا المعنى كله، ويشتمل عليه، ولذلك كانت آنيتُه كعددِ النُّجُوم، ويقال: هذه الصفة في الدنيا: علماءُ الأمة من أصحابه ومن بعدهم، فقد قال: أصحابي كالنجوم[3]، وهو يَرْوُون العلم عنه، ويؤدّونه إليّ مَن بعدهم، كما تَرْتوِي الآنيةُ في الحوض، وتسقي الواردة عليه: تقول: رَوَيْتُ الماءَ، أي: اسْتَقَيْته كما تقول: رَوَيْتُ العلم، وكلاهما فيه حياة، ومنه قيل لمَن روى علمًا أو شعرًا: راوية تشبيهًا بالْمَزَادة أو الدَّابة

---

(١) سورة النجم آية رقم (٤٤ - ٤٩).

(٢) هذه اللقطة «وهو أب لهم» ليست آية من كتاب الله تعالى. وما ليس في القرآن من قرآن يُراد وإن قرأه أفضل الصحابة.

(٣) «ضعيف». أخرجه عبد بن حميد المنتخب (٣٧٣). وانظر الميزان (١٥١١/٢٢٩٩) وفي لسانه (٢/٤٨٨) (٢/٥٩٤) وتلخيص الحبير (٤/١٩٠) بتحقيقي وابن عساكر (٦/٢٨٥).

التي يُحمل عليها الماء وليس من باب عَلاَّمة ونَسَّابة، وفي حديث أبي بَرْزَةَ في صفة الحوض أنها تَنْزُو في أكُفِّ المؤمنين، يعني الآنيةَ، وحَصبَاءُ الحوض: اللؤلؤُ والياقوت، ويقابلهما في الدنيا الْحِكم المأثورةُ عنه، ألا ترى أن اللؤلؤَ في علم التعبير حِكَمٌ وفوائدُ علم، وفي صفة الحوض له المسك، أي: حَمأَتهُ[1] ويقابله في الدنيا: طيبُ الثناء على العلماء، وأتباع النبي الأتقياء، كما أن المسك في علم التعبير ثناءٌ حَسَنٌ، وعلم التعبير من علم النُّبوءَةِ مُقْتَبسٌ. وذكر في صفة الحوض الطيرُ التي ترده كأعناق الْبُخْتِ[2]، ويقابله من صفة العلم في الدنيا وُرودُ الطالبين من كل صُقْعٍ[3] وقُطْر على حضرة العلم وانتيابهم إيَّاها في زمن النبي - ﷺ - وبعده، فتأمل صفة الكوثر معقولَة في الدنيا، مَحسوسةً في الآخرة مُدْرَكة بالْعِيَان ـ هُنالك يبين لك إعجازُ التنزيل ومطابقة السورة ـ لسبب ـ نزولها، ولذلك قال فُضَيْل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَر﴾ أي: تواضع لمَن أعطاك الكوثر بالصلاة له، فإن الكثرة في الدنيا تقتضي في أكثر الخلق الْكِبر: وتَحْدو إلى الفخر والمحيرية، فلذلك كان عليه السلام طأطأ رأسه عامَ الفتح حين رأى كثرة أتباعه، وهو على الراحلة حتى ألصق عُثْنُونَه[4] بالرَّحْلِ امْتِثالاً لأمر ربه، وكذلك أمره بالنحر شُكرًا له، ورفعِ اليدين إلى النَّحْرِ في الصلاة عند استقبال القِبلة التي عندها ينحر، وإليها يهدي معناه: الجمع بين الفعلين. النحرِ المأمور به يوم الأضحى، والإشارة إليه في الصلاة برفع اليدين إلى النَّحْر، كما أن القبلَة مَحْجُوجَةٌ مُصَلًّى إليها، فَكذلكَ ينْحَر عندها، ويُشار إلى النحر عند استقبالها، وإلى هذا التفتَ عليه السلام حين قال: مَنْ صَلَّى صلاَتَنا، واستقبل قبْلتنا، ونَسَك نُسُكَنا فهو مسلم وقد قال الله سبحانه: ﴿قل إنَّ صَلاتِي ونُسُكي ومَحْيَايَ وَمَمَاتي لِلَّهِ ربّ العالمين لا شريكَ له وبذلك أُمِرْتُ وأنا أوَّلُ المسلمين﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] فقَرن بين الصلاة إلى الكعبة، والنُّسُكَ إليها، كما قرن بينهما حين قال: ﴿فَصَلِّ لربِّك وانْحَرْ﴾ وذكر في صفة الحوض: كما بين صَنْعَاءَ وأيْلَة[5] وقد جاء فيه أيضًا في الصحيح «كما بين جَرْبَاء وأذْرُحَ»[6] وبينهما مسافة بعيدة، وفي الصحيح أيضًا في صفته: كما بين عَدَن أبْينَ إلى عَمَّانَ، وقد تقدم ذكر أبْيَنَ، وأنه ابن زهير بن أيْمَن بن حِمْير، وأن عَدَن سُمِّيت برجل من حِمْير عَدَنَ بها، أي: أقام، وتقدم أيضًا ما قاله الطبري أنَّ عَدَنَ وأبْيَنَ هما ابنا عَدْنان أخوا معدّ، وأما عَمَّانُ بتشديد الميم وفتح العين، فهي بالشام قرب دمشق، سُمِّيت بعَمَّان بن لُوط بن هَارَان، كان سَكَنها ـ فيما ذكروا ـ وأما عُمَانُ

(١) الحمأة: الطين.
(٢) البخت: الإبل طويلة العنق.
(٣) صقع: جهة وناحية.
(٤) العثنون: ما نبت على الذقن.
(٥) أخرجه الطبراني (١١/٣١٣).
(٦) متفق عليه.

الكوثر في الشعر

قالِ ابن إسحٰق: قال لَبيد بن ربيعة الكِلابيّ:

وصاحبُ مَلْحُوبٍ فُجِعنا بيَوْمِهِ وعـنـد الـرِّداعِ بـيـتُ آخـرَ كـوْثـرِ

بضم العين وتخفيف الميم، فهو باليمن سُمِّيت بعُمَان بن سِنَان، وهو من ولد إبراهيم ـ فيما ذكروا ـ وفيه نظر؛ إذ لا يُعْرَف في ولد إبراهيم لصُلبه من اسمه سِنان. وفي صفة الحوض أيضًا كما بين الكوفة ومكة، وكما بين بيت المقدس والكعبة، وهذه كلها روايات متقاربة المعاني، وإن كانت المسافات بعضها أبعدَ من بعض، فكذلك الحوض أيضًا له طول وعرض وزوايا وأركان، فيكون اختلافُ هذه المسافات التي في الحديث على حسب ذلك جعلنا الله من الواردين عليه، ولا أظْمَأ أكبادَنا في الآخرة إليه. ومما جاء في معنى الكوثر ما رواه ابن أبي نَجيح عن عائشةَ ـ قالت: «الكوثر نهر في الجنة، لا يُدْخل أحد إصْبَعَيْه في أُذنيه إلا سَمِع خريرَ ذلك النهرَ»[1] وقع هذا الحديث في السيرة من رواية يونس، ورواه الدَّارَقُطْنيّ من طريق مالك بن مِغْوَلٍ عن الشَّعْبِيِّ عن مَسْروقٍ عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله أعطاني نهرًا يقالُ له الكَوْثَر لا يشاء أحد من أُمتي أن يسمعَ خرير ذلك الكوثر إلا سمعه»، فقلت: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: «أَدْخِلِي أُصْبَعَيْك في أُذنيكِ وشُدِّي، فالذي تسمعين فيهما من خرير الكوثر»[2]. وروى الدارُقُطْنيُّ من طريق جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لعلي: «والذي نفسي بيده إنك لذائدٌ عن حَوْضي يومَ القيامة تذود عنه كُفَّار الأمم، كما تُذاد الإبلُ الضالَّة عن الماء بعصًا من عَوْسَج»[3] إلا أن هذا الحديثَ يرويه حَرَامُ بن عُثْمانَ عن ابْنَيْ جابرٍ، وقد سُئل مالك عنه، فقال: ليس بثقة، وأغلظ فيه الشافعي القول، وأما قوله ـ عليه السلام ـ: «ومِنْبَري على حوضي»، فقد قيل في معناه أقوالٌ، ويفسّره عندي الحديث الآخر، وهو قوله عليه السلام، وهو عَلَى المنبر: «إني لأنظر إلى حوضي الآن من مقامي هذا» فتأمله.

استشهاد ابن هشام على معنى الكوثر

وذكر ابن هشام في الاستشهاد على معنى الكوثر قول لبيد بن ربيعة:

وصاحبُ مَلْحُوبٍ فُجِعْنَا بيومهِ وعـنـد الـرِّداعِ بـيـتُ آخر كـوْثَـرِ

---

(١) ضعيف. أخرجه الحاكم (٣/ ١٧١) وفيه انقطاع بين ابن أبي نجيح وعائشة رضي الله عنها.
(٢) «ضعيف جدًا» أخرجه الدارقطني (١/ ١٣٧).
(٣) العوسج: ضرب من الشجر له شوك. والحديث ضعيف كما سيقول السهيلي رحمه الله تعالى.

يقول: عظيم.

قال ابن هشام: وهذا البيت في قصيدة له. وصاحب مَلْحُوب: عَوْف بن الأَحْوصِ بن جَعْفَر بن كِلاب، مات بمَلْحُوب. وقوله: عند الرِّداع بيت آخر كَوْثر: يعني شُريح بن الأحوص بن جَعْفَر بن كِلاب، مات بالرّداع. وكَوثر: أراد الكثير، ولفظه مشتقّ من لفظ الكثير. قال الكُميت بن زَيْد يمدح هِشام بن عبد الملك بن مروان:

وأنت كَثيرٌ يا بن مَرْوان طَيِّب   وكان أبوك ابنُ العقائل كَوْثَر

وهذا البيت في قصيدة له. وقال أُميّة بن أبي عائذ الهُذليّ يصِف حمار وحش:

يُحامي الحَقيق إذا ما احتدمْن   وحَمْحَمْنَ في كَوْثر كالجِلال

يعني بالكوثر: الغبار الكثير، شبهه لكثرته عليه بالجِلال. وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن إسحٰق: حدّثني جعفر بن عمرو ـ قال ابن هشام: هو جعفر بن عمرو بن أُميّة الضَّمْري ـ عن عبد الله بن مُسْلم أخي محمد بن مسلم بن شهاب الزهريّ، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ، وقيل له: يا رسول الله، ما الكوثر الذي أعطاك الله؟ قال: «نَهْر كما بين صنعاء إلى أيْلة، آنيتُه كعدد نجُوم السماء، تَرِده طيورٌ لها كأعناق الإبل». قال: يقول عمر بن الخطاب: إنها يا رسول الله لناعمة، قال: «آكلها أنعم منها»[(١)].

قال ابن إسحٰق: وقد سمعت في هذا الحديث أو غيره أنه قال ـ ﷺ ـ: «مَنْ شَرِبَ منه لا يَظْمأ أبدًا»[(٢)].

وبالفورة الحرّابِ ذو الفَضلِ عامرٌ   فنعم ضياءُ الطارقِ الْمُتَنَوِّرِ

يعني عامرَ بن مالك مُلاعِبَ الأسِنَّةِ، وهو عم لَبِيدٍ، وسنذكر: لِمَ سُمّي مُلاعِبَ الأسِنَّة إذا جاء ذكرُه إن شاء الله تعالى. وصاحبُ مَلْحُوب: عوفُ بن الأحْوَص، وقد ذكره ابن هشام. والذي عند الرِّدَاعِ: شُرَيْح بن الأحوص في قوله، وقال غيره: هو حِبَّان بن عُتْبَةَ بن مالك بن جَعْفر بن كلاب. والرَّادع: من أرض اليمامة. ومَلْحُوب: مَفْعُولٌ من لَحَبْتُ العود، إذا قشرته، فكأن هذا الموضع سُمِّي مَلْحُوبًا، لأنه لا أكَم فيه ولا شَجَر.

---

(١) انظر الدرّ المنثور (٦/٤٠٢).

(٢) أخرجه الطبراني (١٠/٩٩).

نزول: ﴿وقالوا لولا نزّل عليه مَلَك﴾:

قال ابن إسحٰق: ودعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ قومَه إلى الإسلام، وكلَّمهم، فأبلغ إليهم، فقال له زَمَعَة بن الأسود، والنَّضر بن الحارث، والأسود بن عَبْد يَغوث، وأُبَيّ بن خَلَف، والعاص بن وائل: لو جُعل معك يا محمد مَلَك يحدّث عنك الناس وَيُرَى معك! فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكًا لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

نزول ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾

قال ابن إسحٰق: ومرّ رسولُ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ بالوليد بن المغيرة، وأُمية بن خَلَف، وبأبي جَهْل بن هشام، فغمزوه وهَمَزوه، واستهزؤوا به، فغاظه ذلك: فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بالَّذِين سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئون﴾ [الأنبياء: ٤١].

ذكر حديث المستهزئين

وذكر حديث الْمُسْتَهْزئين برسول الله ـ ﷺ ـ وما أنزل الله فيهم من قوله تعالى: ﴿ولقد اسْتُهْزِىءَ برُسُلٍ مِنْ قَبْلِك﴾ [الأنبياء: ٤١] الآية. فقال فيها: اسْتُهْزِىء بِرُسُلٍ ثم قال: فحاق بالذين سَخِروا منهم، ولم يقل: اسْتَهْزَءُوا، ثم قال: ما كانوا به يستهزئون ولم يقل: يَسْخرون. ولا بدَّ في حكمةٍ في هذا من جهة البلاغة وتنزيلِ الكلام منازله، فقوله: اسْتُهْزِىء برُسُلٍ، أي: أُسْمِعُوا من الكلام الذي يُسَمَّى اسْتِهزاءَ ما ساءهم تأنيسًا له، ليتأسّى بمَن قبله من الرسل، وإنما سُمِّي استهزاء إذا كان مسموعًا، وهو من فعل الجاهلين: قال الله تعالى: ﴿أتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قال أعوذ بالله أن أكونَ من الجاهلين﴾ [البقرة: ٦٧]. وأما السُّخْرُ والسُّخْرَى، فقد يكون في النفس غير مسموعٍ، ولذلك تقول: سَخِرْت منه، كما تقول: عَجِبْتُ منه إلا أن الْعجب لا يختص بالمعنى المذموم، كما يختص السُّخر، وفي التنزيل خبرًا عن نوح: ﴿إنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كما تَسْخَرُون﴾ [هود: ٢٨] ولم يَقُل: نَسْتَهْزِىء بكم كما تَسْتَهْزِئون؛ لأن الاستهزاء ليس من فعل الأنبياء، إنما هو من فعل الجاهلين كما قدّمنا من قول موسى عليه السلام، فالنبي يَسْخَر: أي، يعجب من كُفْرِ مَن يَسْخر به، ومن سُخْر عقولهم، فإن قلت: فقد قال الله تعالى: ﴿الله يستهزىء بهم﴾، قلنا: العربُ تسمي الْجَزاءَ على الفعل باسم الفعل كما قال تعالى: ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾ وهو مَجازٌ حسن[1] وأما

---

(١) النسيان هنا حقيقة لا مجاز، والنسان لغة: الترك. وانظر مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٤٢١).

ذكر الإسراء والمعراج

قال ابن هشام: حدّثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحٰق المطّلبي قال: ثم أُسرِيَ برسولِ الله - ﷺ - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيتُ المقدس من إيلياء، وقد فشا الإسلام بمكة في قريش، وفي القبائل كلها.

قال ابن إسحٰق: كان من الحديث فيما بلغني عن مَسْرَاه - ﷺ - عن عبد الله بن مَسْعود، وأبي سَعيد الخُدْريّ، وعائشة زوج النبيّ ﷺ، ومعاوية بن أبي سفيان، والحسن بن أبي الحسن البصري، وابن شهاب الزُّهريّ، وقَتادة وغيرهم من أهل العلم،

الاستهزاء الذي كُنَّا بصدَدِه، فهو المسمّى استهزاءً حقيقة، ولا يرضى به إلا جهول. ثم قال سبحانه: ﴿فَحَاقَ بالذين سَخِرُوا منهم ما كانوا به يَسْتَهْزِئون﴾ أي حاق بهم من الوعيد الْمُبلَّغ لهم على ألسنة لرسل ما كانوا يستهزؤون به بألسنتهم، فنزلت كل كلمة منزلها، ولم يحسن في حكم البلاغة وضْعُ واحدةٍ مكانَ الأُخرى. وذكر أيضًا قوله سبحانه: ﴿ولو جَعَلْنَاه مَلَكًا لجعلناه رَجُلاً﴾ أي: لو جعلنا الرسول إليهم من الملائكة لم يكن إلا على صُورة رجل، وَلِدَخَل عليهم من اللَّبْس فيه ما دَخَل في أمْر مُحَمَّد وقوله: ﴿لَبَسْنا﴾ يدل على أن الأمرَ كله منه سبحانه، فهو يُعْمِي مَن شاء عن الحق، ويَفْتح بَصيرةَ مَن شاء، وقوله: ﴿ما يَلْبسون﴾، مَعناه: يَلْبِسون على غيرهم، لأن أكثرهم قد عَرَفوا أنه الحقُّ، ولكن جَحَدُوا بها، واسْتَيْقَنَتْها أنفسُهم، فَجعلوا، يَلْبِسُونَ أي يَلْبِسُ، بعضُهم على بعض وَيَلْبِسُون على أهليهم وأتباعهم، أي: يخلطون عليهم بالباطلِ، تقول العرب: لَبَسْتُ عليهم الأمْرَ أَلْبِسُه، أي: سترتُه وخلطته، ومن لُبْس الثيابِ: لَبِسْت أَلْبَسُ، لأنه في معنى كَسِيتُ، وفي مُقَابلة عَرِيتُ، فجاء على وزنه، والآخر في معنى: خَلَطْتُ أو سَتَرْت، فجاء على وزنه.

شرح ما في حديث الإسراء من المشكل[1]

اتفقت الرواة على تسميته إسراءً، ولم يُسَمِّه أحَدٌ منهم: سُرًى، وإن كان أهلُ اللغة قد قالوا: سَرَى وأَسْرَى بمعنى واحد، فدلّ على أن أهل اللغة لم يُحَقِّقوا العبارة، وذلك أن القُرَّاءَ لم يختلفوا في العلاوة من قوله: ﴿سُبْحانَ الذي أسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ولم يقل: سَرَى،

---

(١) انظر للمحقق «القول الوهاج في شرح حديث الإسراء والمعراج». وانظر المنتظم (٣/ ٢٥) البداية (٣/ ١٠٨) الكامل (١/ ٥٧٨) الدلائل للبيهقي (٢/ ٣٥٤) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٣) وانظر البخاري كتاب مناقب الأنصار. حديث رقم (٣٨٨٧) ومسلم في الإيمان (٢٦٤) وفتح الباري (٧/ ٣٠١) وأحمد (١/ ٣٠٩) الآية الكبرى للسيوطي/ الشفاء للقاضي عياض (١/ ٢٣١) وزاد المعاد (٣/ ٣٤).

وأُمّ هانىء بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كلٌّ يحدّث عنه بعضَ ما ذكِر من أمره حين أُسرِي به ـ ﷺ ـ، وكان في مَسْراه، وما ذكر عنه بلاء وتمْحيص، وأمر مِنْ أمر الله في قدرته وسلطانه، فيه عبرة لأُولي الألباب، وهدًى ورحمةٌ وثبات لِمَن آمن وصدّق، وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين، فأُسْرِي به كيف شاء، لِيُريه من آياته ما أراد، حتى عاينَ ما عاين مِنْ أمره وسُلطانه العظيم، وقُدْرته التي يَصْنع بها ما يُريد.

راوية ابن مسعود:

فكان عبدُ الله بن مسعود ـ فيما بلغني عنه ـ يقول:

أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالبُراق ـ وهي الدّابّة التي كانت تُحملِ عليها الأنبياء قبلَه، تضع حافرَها في منتهى طرفِها ـ فحُمل عليها، ثم خرج به صاحبُه، يرى الآيات فيما بين السماءِ والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيمَ الخليلَ وموسى وعيسى في نَفَر من الأنبياء قد جُمعوا له، فصلَّى بهم. ثم أُتِيَ بثلاثة آنية، إناء فيه لبن،

وقال: والليل إذا يَسْر، ولم يقل: يُسْرِي، فدلّ على أن السُّرَى من سَرَيت إذا سِرْت ليلاً، وهي مؤنثة تقول: طالت سُرَاكَ الليلة، والإسراءُ مُتَعَدٍّ في المعنى، ولكن حذف مفعوله كثيرًا حتى ظن أهلُ اللغة أنهما بمعنى واحد، لما رأَوْهُما غير متعديين إلى مفعول في اللفظ، وإنما أسْرى بعبده، أي: جعل الْبُراقَ يَسْرِي، كما تقول: أمْضَيْتُه، أي: جعلته يَمْضي، لكن كَثُر حذفُ المفعول لقوة الدلالة عليه، أو للاستغناء عن ذِكْره، إذ المقصودُ بالخبر ذكْرُ محمد، لا ذكر الدابّة التي سارت به، وجاز في قصة لوط عليه السلام. أن يقال له: فأَسْرِ بأهلك: أي فاسْرِ بهم، وأن يقرأ فأَسْرِ بأهلك بالقَطْع، أي: فأسْرِ بهم ما يَتَحَمَّلُون عليه من دابةٍ أو نحوها، ولم يتصور ذلك في السُّرى بالنبي ﷺ، إذ لا يجوز أن يقال سَرَى بعبده بوجه من الوجوه؛ فلذلك لم تأتِ التلاوة إلا بوجه واحد في هذه القصة فتدبره. وكذلك تسامح النحويون أيضًا في الباء والهمزة، وجعلوهما بمعنى واحد في حكم التعدية، ولو كان ما قالوه أصلاً لجاز في: أمرضْته أنِ تقول: مَرِضْت به، وفي أسْقَمْتُه: أن تقول: سَقِمْتُ به، وفي أَعْمَيْتُه أن تقول: عَمِيتُ به قياسًا عليّ: أذْهَبْتُهُ وَأذْهَبْتُ به، ويأبى الله ذلك والعالمون؛ فإنما الباء تُعطي مع التعدية طَرَفًا من المشاركة في الفعل ولا تعطيه الهمزةُ، فإذا قلت: أقعدته، فمعناه: جعلته يقعد، ولكنك شاركته في القعود، فجذبته بيدك إلى الأرض، أو نحو ذلك، فلا بدّ من طَرَفِ من المشاركة إذا قعدت به، ودخلت به، وذهبت به بخلاف أدخلته وأذهبته.

وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء قال. فقال رسول الله ﷺ: «فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرضت عليّ: إنْ أخذ الماء، غرق وغَرِقتْ أُمّته، وإن أخذ الخَمرَ غَوَى، وغَوتْ أُمته، وإن أخذ اللبن هُدِيَ، وهُدِيَت أُمته. قال: فأخذتُ إناءَ اللبن، فشربتُ منه، فقال لي جبريل عليه السلام: هُدِيتَ وهُدِيَت أُمتك يا محمد».

حديث الحسن:

قال ابن إسحٰق: وحُدِّثت عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم في الحِجْر، إذ جاءني جبريلُ، فهَمزني بقدمه، فجلست فلم أرَ شيئًا، فعُدت إلى مَضْجعي، فجاءني الثانيةَ فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أرَ شيئًا، فعدتُ إلى مَضْجعي، فجاءني الثالثةَ فهمزني بقدمه، فجلستُ، فأخذ بعَضدي، فقمت معه فخرج إلى بابِ المسجد، فإذا دابَّة أبيضُ، بين البغل - والحمار - في فَخِذيه جَناحانِ يحْفِز بهما رجْليه، يضع يده في مُنتهى طرفه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتني ولا أفوته.

حديث قتادة:

قال ابن إسحٰق، وحُدِّثت عن قَتادة أنه قال: حُدّثت أن رسولَ الله ﷺ قال: «لما دنوتُ منه؛ لأركبه شَمَس، فوضع جبريلُ يدَهُ على مَعْرفَته، ثم قال: ألا تَسْتَحِي يا بُرَاقُ مما تَصْنع، فوالله ما ركبك عَبْدٌ لله قبلَ محمدٍ أكرمُ على الله منه. قال: فاسْتحيا حتى ارْفَضَّ عَرَقًا، ثم قَرَّ حتى رَكبته».

من حديث الحسن:

قال الحسنُ في حديثه: فمضى رسولُ الله ﷺ، ومضى جبريلُ عليه السلام معه، حتى انتهى به إلى بيت المقدِس، فوجد فيه إبراهيمَ ومُوسى وعيسى في نَفَر من الأنبياء

فإن قلت: فقد قال الله سبحانه: ﴿ذهب الله بنورهم وذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ ويتعالى - سبحانه - عن أن يوصف بالذهاب، ويضاف إليه طرف منه، وإنما معناه: أذْهب نورهم وسمعَهم. قلنا: في الجواب عن هذا: أن النور والسمع والبصر كان بيده سبحانه، وقد قال: بيده الخير، وهذا من الخير الذي بيده، وإذا كان بيده، فجائز أن يقال ذَهَبَ به على المعنى الذي يقتضيه قوله سبحانه بيَدِه الخيرُ كائنًا ما كان ذلك المعنى، فعليه ينبني ذلك المعنى الآخر الذي في قوله: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ مَجَازًا كان أو حَقيقةً، ألا ترى أنه لما ذكر الرِّجسَ كيف قال: ﴿لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ولم يقلْ يَذْهَبُ به، وكذلك قال: ﴿ويُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَان﴾

فأمَّهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بإناءين، في أحدهما: خمر، وفي الآخر: لَبن. قال: فأخذ رسولُ الله ﷺ إناءَ اللبن، فشَرب منه، وترك إناء الخمر. قال: فقال له جبريلُ: هُديت للفِطْرة، وهُديَتْ أُمّتك يا محمد، وحُرِّمت عليكم الخمر، ثم انصرف رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى مكة، فلما أصبح غَدا على قريش، فأخبرهم الخبرَ. فقال أكثر الناس: هذا والله الأمْرُ البَيِّن، والله إن العِير لتُطْرد شهرًا من مكة إلى الشام مُدبرة، وشهرًا مقبلة، أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة، ويرجع إلى مكة! قال: فارتدّ كثيرٌ ممّن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بَكْر، فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك، يزعم أنه قد جاء هذه الليلةَ بيتَ المقدس، وصلَّى فيه، ورجع إلى مكَّة. قال: فقالَ لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى، ها هو ذاك في المسجد يحدّث به الناس، فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صَدق، فما يُعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليُخبرني أنّ الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليل أو نهار فأصدّقه، فهذا أبعدُ مما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال: يا نبيّ الله. أحدّثتَ هؤلاء القومَ أنك أتيت المَقْدس هذه الليلةَ؟ قال: «نعم»، قال: يا نبيّ الله، فصفه لي، فإني قد جِئْته ـ قال الحسن: فقال رسولُ الله ﷺ: «فرُفع لي حتى نظرتُ إليه» ـ فجعلَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ يَصِفه لأبي بكر: ويقول أبو بكر: صدقتَ، أشهد أنك رسولُ الله، كلما وصف له منه شيئًا، قال: صدقتَ، أشهد أنك رسولُ الله، حتى انتهى، قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصدّيق، فيومئذ سمّاه الصِّدِّيق.

قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتدّ عن إسلامه لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنا الرُّؤْيا التي أرَيْناكَ إلا فِتْنَةً للناسِ والشَّجَرَةَ المَلْعُونةَ فِي القُرآنِ ونُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إلاَّ طُغْيانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

فهذا حديث الحسن عن مَسْرى رسولِ الله ﷺ. وما دخل فيه من حديث قتادة.

[الأنفال: ١١] تعليمًا لعبادِهِ حُسْن الأدب معه، حتى لا يضاف إلى الْقدُّوس سبحانه ـ لفظًا ومعنًى شيءٌ من الأرجاس، وإن كانت خَلْقًا له ومِلْكًا فلا يقال: هي بيده على الخصوص، تحسينًا للعبارة وتنزيهًا له، وفي مثل النور والسمع والبصر يَحْسُن أن يقال: هي بيده، فحَسُنَ على هذا أن يقال: ذَهَبَ به، وأما أسْرى بعبده، فإن دخولَ الباء فيه ليس من هذا القبيل، فإنه فعل يتعدّى إلى مفعول، وذلك المفعول المسْرى هو الذي سَرى بالعبدِ فشاركه بالسُّرى، كما قدّمنا في قَعَدْتُ به أنه يُعْطى المشاركةَ في الفعْل، أو في طَرَفٍ منه، فتأمله.

الإسراء رؤيا

قال ابن إسحٰق: وحدّثني بَعضُ آل أبي بكر: أن عائشة زوجَ النبيّ ﷺ كانت تقول: ما فُقِد جَسدُ رسولِ الله - ﷺ - ولكن الله أسْرى بروحه.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني يعقوب بن عُتْبة بن المُغيرة بن الأخْنس: أن معاوية بن أبي سفيان، كان إذا سُئِلَ عن مَسْرى رسولِ الله - ﷺ - قال: «كانت رُؤيا من الله تعالى صادقة».

فلم يُنْكَر ذلك من قولهما، لقول الحَسن: إن هذه الآية نزلت في ذلك، قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنا الرُّؤْيا التي أرَيْناك إلاَّ فِتْنَةً للنَّاس﴾ [الإسراء: ٦٠]. ولقول الله

أكان الإسراء يقظة أم منامًا

فصل: وتقدم بين يدي الكلام في هذا الباب: هل كان الإسراء في يقظةٍ بجسده، أو كان في نومه بروحه، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حين مَوْتها والتي لم تَمُتْ في مَنَامِها﴾ [الزمر: ٤٣] وقد ذكر ابن إسحٰق عن عائشةَ ومعاويةَ أنها كانت رؤيا حقٌّ، وأن عائشة قالت: لم تفقد بدَنه، وإنما عُرِج بروحه تلك الليلة، ويحتجّ قائل هذا القول بقوله سبحانه: ﴿وما جَعَلْنَا الرُّؤيَا التي أرَيْنَاكَ إلاَّ فِتْنَةً للناس﴾ [الإسراء: ٦٠]. ولم يقل: الرُّؤْيَة، وإنما يُسَمَّى رؤيا ما كان في النوم في عُرْف اللغة، ويحتجّون أيضًا بحديث البُخاري عن أنس بن مالك قال: ليلة أُسْرِيَ برسول الله - ﷺ - من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثةُ نفر قبل أن يُوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيّهم هو؟ فقال أوسَطُهم: هو هذا، وهو خيرهم، فقال آخرهم: خُذوا خيرهم فكان تلك الليلة، فلم يرهم حتى أتَوْه ليلة أخرى، فيما يرى قلبُهُ وتنام عينه ولا ينامُ قلبه، وكذلك الأنبياءُ عليهم السلامُ تنام أعينُهم، ولا تنام قلوبُهم، فلم يُكلّموه، حتى احْتَمَلُوه فوضعوه عند بئرِ زَمْزَمَ، فتولاّه منهم جبريلُ. الحديث بطوله، وقال في آخره: واستيقظ، وهو في المسجد الحرام، وهذا نص لا إشكال فيه أنها كانت رؤيا صادقة، وقال أصحابُ القول الثاني: قد تكون الرؤيا بمعنى الرؤية في اليقظة، وأنشدوا للراعي يصف صائدًا:

وكَبَّر للرُّؤْيَا، وهَشَّ فؤادُه ... وبَشَّر قلبًا كان جَمًّا بلابِلُه[1]

قالوا: وفي الآية بيان أنها كانت في اليقظة، لأنه قال: ﴿وما جعلنا الرُّؤْيا التي أرَيْناكَ إلاَّ فتنة للناس﴾ ولو كانت رؤيا نوم ما افتتن بها الناس حتى ارتدّ كثيرٌ ممّن أسلم، وقال

---

(١) البلابل: الوساوس والهموم.

تعالى في الخبر عن إبراهيم عليه السلام إذ قال لابنه: ﴿يا بُنَيَّ إنِّي أرَى في المَنامِ أنّي أذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. ثم مضى على ذلك. فعرفتُ أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظًا ونيامًا.

قال ابن إسحٰق: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني ـ يقول: «تنام عيناي، وقلبي يقظان». والله أعلم أيّ ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه ما عاين، من أمر الله، على أيّ حاليه كان: نائمًا، أو يقظان، كلّ ذلك حقّ وصدق.

الكفّار: يزعم محمد أنه أتى بيتَ الْمَقْدِس، ورجع إلى مكة ليلته، والعِير تطرد إليها شهرًا مُقْبِلةً وشهرًا مُدْبِرةً، ولو كانت رؤيا نوم، لم يستبعد أحدٌ منهم هذا، فمعلومٌ أن النائم قد يرى نفسه في السماءِ، وفي المشرقِ والمغرب، فلا يستبعد منه ذلك واحتجّ هؤلاء أيضًا بشربه الماء من الإناء الذي كان مُغَطًّى عند القوم، ووجدوه حين أصبح لا ماءَ فيه، وبإرشاده للذين نَدَّ بعيرُهم حين أنفرَهم حِسُّ الدابّة، وهو الْبُرَاقُ حتى دلّهم عليه، فأخبر أهل مكة بأمارة ذلك، حتى ذلك الغِرارَتَيْنِ السَّوْداءِ والْبَرْقَاء كما في هذا الكتاب، وفي رواية يونس: أنه وعَدَ قريشًا بقُدوم الْعِير التي أرشدهم إلى البعير، وشرب إناءهم، وأنهم سَيَقْدُمُون ويُخْبِرون بذلك، فقالوا: يا محمدُ متى يَقْدُمون؟ فقال: «يوم الأربعاء»، فلما كان ذلك اليوم، ولم يَقْدُموا، حتى كَرَبَت الشمسُ أن تَغْرُبَ، فدعا الله فحبس الشمس حتى قَدِموا كما وصف، قال: ولم يحبس الشمسَ إلا له ذلك اليوم، ولِيُوشَع بن نُونٍ[1] وهذا كلُّه لا يكون إلا يَقَظةً، وذهبت طائفةٌ ثالثة، منهم: شيخُنا القاضي أبو بكر [بن العربي] رحمه الله إلى تصديق المقالتين، وتصحيح الحديثين، وأن الإسراء كان مرتين، إحداهما: كان في نومه وتوطئةً له وتيسيرًا عليه، كما كان بدء نبوّته الرؤيا الصادقة، ليسهل عليه أمر النبوّة فإنه عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سهّله عليه بالرؤيا؛ لأن هولَه عظيم، فجاءه في اليقظة على تَوْطِئَةٍ وَتقْدِمَةٍ، رفقًا مِن الله بعبده وتسهيلاً عليه، ورأيت المهلب في شرح البخاري قد حكى هذا القولَ عن طائفةٍ من العلماءِ، وأنهم قالوا: كان الإسراء مرتين: مرةً في نومه، ومرة في يقظته ببدنه ـ ﷺ ـ.

قال المؤلف: وهذا القول هو الذي يصحّ، وبه تتفق معاني الأخبار، ألا ترى أنه قال في حديث أنس الذي قدّمنا ذكره: أتاه ثلاثة نفر قبل أن يُوحى إليه، ومعلوم أن الإسراء كان بعد النبوة، وحين فُرضت الصلاة كما قدّمنا في الجزء قبل هذا، وقيل كان قبل الهجرة بعامٍ، ولذلك قال في الحديث: فارتدّ كثير ممّن كان قد أسلم، ورواة الحديثين حفاظ، فلا يستقيم

(١) يوشع بن نون: أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو صاحب موسى عليه السلام في رحلته إلى الخضر.

الجمع بين الروايتين إلا أن يكون الإسراءُ مرتين، وكذلك ذكر في حديث أنس: أنه لقي إبراهيمَ في السماء السادسةِ وموسى في السابعةِ، وفي أكثر الروايات الصحيحة أنه رأى إبراهيم عند البيت المعمور في السماء السابعة، ولقي موسى في السادسةِ، وفي رواية ابن إسحٰق أُتِيَ بثلاثة آنيةٍ، أحدها ماءٌ فقال قائل: إن أخذ الماءَ غَرِقَ، وغرقت أُمته، وفي إحدى روايات البخاري في الجامع الصحيح: أنه أُتِيَ بإناء فيه عَسَلٌ، ولم يذكر الماءَ والرواةُ أثباتٌ، ولا سبيل إلى تكذيب بعضهم ولا توهينهم، فدلّ على صحة القول بأنه كان مرتين، وعاد الاختلاف إلى أنه كان كله حقًّا، ولكن في حالتين ووقتين مع ما يشهد له من ظاهر القرآن، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فكان قابَ قَوْسَينِ أو أدنى فأَوْحَى إلى عبده ما أوحى﴾ ثم قال: ﴿ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رأى﴾ [النجم: ٨ ـ ١١] فهذا نحو ما وقع في حديث أنس من قوله: فيما يراه قلبه، وعينه نائمة والفؤادُ: هو القلبُ، ثم قال: ﴿أَفَتُمارُونَه على ما يَرى﴾ ولم يقل: ما قَدْ رَأى، فدلّ على أن ثَمَّ رؤيةً أخرى بعد هذه، ثم قال: ﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخرَى﴾ أي: في نَزْلَةٍ نَزلَها جبريلُ إليه مرة، فرآه في صورته التي هو عليها ﴿عِنْد سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى إذْ يغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: يغشاها فراشٌ من ذَهَبٍ، وفي رواية: يَنْتَشِر منها الياقوتُ، وثمرُها مثل قِلاَلِ هَجَر[1] ثم قال: ﴿ما زَاغَ الْبَصَرُ﴾ ولم يقل: الْفُؤَاد، كما قال في التي قبل هذه، فدلّ على أنها رُؤيَةُ عينٍ وبصرٍ في النَّزلَةِ الأُخرى، ثم قال: ﴿لقد رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّه الْكُبرى﴾، وإذا كانت رؤية عينٍ؛ فهي من الآياتِ الكُبرى، ومِنْ أعظم البراهين والْعِبر، وصارت الرؤيا الأولىَ بالإضافة إلى الأُخرى ليست من الْكُبَر؛ لأن ما يراه العبدُ في منامه دون ما يراه في يقظته لا محالةَ، وكذلك قال في أكثر الأحاديث إنه رأى عند سِدْرة المنتهى نهرين ظاهرين، ونهرين باطنين، وأخبره جبريل أن الظاهرَين: النيلُ والفرات، وذكر في حديث أنس أنه رأى هذين النهرين في السماء الدنيا، وقال له الملك: هما النيلُ والفراتُ، أصلهما وعنصرهما، فيحتمل أن يكون رأى في حال اليقظةِ منبعَهما، ورأى في المرة الأُولى النهرين دون أن يرى أصلَهما والله أعلم. فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وأنزلنا من السماءِ ماءً بِقَدَرٍ فأَسْكَنَّاه في الأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] أنهما النيل والفرات أُنْزِلا من الجنة من أسفل درجةٍ منها على جَناحِ جبريل، فأودعهما بطونَ الجبال ثم إن الله سبحانه سيرفعهما، ويذهب بهما عند رفع القرآنِ وذَهَابِ الإيمان، فلا يبقى على الأرض خير، وذلك قوله تعالى: ﴿وإنّا عَلَى ذَهَابٍ به

(١) قرية من قرى المدينة: كانت معروفة ومشهورة بقلالها الكبيرة.

لَقَادِرُون﴾[1] وفي حديثِ مُسْنِدٍ ذكره النحاس في المعاني بأتم من هذا فاختصره، ووقع في كتاب المعلم للمَازَرِيِّ قول رابع في الجمع بين الأقوال قال: كان الإسراء بجسده في اليقظة إلى بيت المقدس، فكانت رؤيا عين، ثم أسرى بروحه إلى فوق سبعِ سَمٰوات، ولذلك شَنَعَ الكفارُ قوله: وأتَيْتُ بيتَ المقدس في ليلتي هذه، ولم يَشْنَعُوا قوله فيما سوى ذلك.

شماس البراق:

فصل: ومما يُسْأَل عنه في هذا الحديث شِماسُ الْبُراقِ حين ركبه النبي - ﷺ - فقال له جبريل: أما تستحيي يا بُراقُ، فما ركبك عبدٌ لله قبْل محمد هو أكْرَمُ عليه منه، فقد قيل: في نفرته ما قاله ابن بَطَّال في شرح الجامِع الصحيح، قال: كان ذلك لبُعد عهد الْبُراقِ بالأنبياء، وطول الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وروى غيره في ذلك سببًا آخر قال في روايته في حديث الإسراء: قال جبريل لمحمد عليه السلام حين شَمَسَ به الْبُراقُ: لعلك يا محمد مَسَسْتَ الصَّفْرَاءَ اليوم، فأخبره النبي - ﷺ - أنه ما مَسَّها إلاً أنه مَرَّ بها، فقال: تَبًّا لِمَن يعبُدك من دون الله، وما مسّها إلا لذلك، وذكر هذه الرواية أبو سعيد النَّيْسَابُوري في شرف المصطفى، فالله أعلم، وقد جاء ذكر الصَّفْراء في مُسنَدِ البَزَّار[2]، وأنها كانت صَنَمًا بعضُه من ذهب فكسرها رسولُ الله - ﷺ - يوم الفتح، وفي الحديث الذي خرّجه التِّرمِذِيّ من طريق بُرَيدَة الأسْلَمي أنه - عليه السلام - حين انتهى إلى بيت المقدس، قال جبريل: بإصْبَعه إلى الصخرة، فخَرقَها فَشدَّ بها الْبُراق، وصلّى[3]، وأنَّ حُذَيْفَةَ أنكر هذه الرواية، وقال: لم يفرّ منه وقد سَخّره له عالمُ الغَيْبِ والشّهادة[4]، وفي هذا من الفقه على رواية بُرَيْدَة: التنبيهُ على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل، وأن الإيمان بالقدَرِ كما - رُوِيَ عن وَهْب بن مُنَبِّهٍ - لا يمنع الحازمَ من تَوقّي المهالك. قال وهب: وَجَدْتُه في سبعين كتابًا من كُتُبِ الله القديمة[5]،

---

(١) تفسير الآية فإن مقصودها والمراد منها النيل والفرات - تفسير وتأويل بعيد. وقد أجاد النووي في شرح مسلم من بيان وتفسير نبع النيل والفرات من الجنة. فانظره هناك.

(٢) أخرجه البزار بسند متصل عن علي رضي الله عنه. قال القاري (١/٣٩٩): فيه زياد بن المنذر: كذاب.

(٣) «ضعيف». أخرجه الترمذي (٣١٣٢). وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٤٧). وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) تقدم التنبيه أن وهب بن منبه أحد مسلمي أهل الكتاب وكان رضي الله عنه يكثر من الرواية عنهم، وفيه ما يصادم صريح القرآن وصحيح السُّنّة.

وهذا نحو من قوله ﷺ: «قَيِّدها وتَوَكَّل»[1] فإيمانُه ﷺ بأنه قد سُخِّر له كإيمانه بقدَرِ الله وعلمِه بأنه سبق في عِلمِ الكتاب ما سبق، ومع ذلك كانَ يَتَزَوَّدُ في أسفاره ويُعِدُّ السلاح في حُروبه، حتى لقد ظاهر بين دِرْعين في غَزْوةِ أُحُدٍ. وَرَبْطُه للبُراق في حَلْقَةِ البابِ من هذا الفن، وهو حديث صحيح، وقد رواه غير بُرَيْدَة ووقع في حديث الحارث بن أبي أُسامة من طريق أَنَس، ومن طريق أبي سعيد، وغيرهما أعني رَبْطَه للبُراق في الْحَلْقَة التي كانت تَرْبِطُه فيها الأنبياء، غير أن الحديثَ يرويه داود بن الْمُحَبِّر، وهو ضعيف.

معنى قول الملائكة: مَن معك:

معنى قول الملائكة: مَن معك ومما يُسْأَلُ عنه قولُ الملائكة في كل سماء لجبريل: مَنْ معك، فيقول: محمد، فيقولون: أَوَقد بعث إليه فيقول: نعم هكذا لفظ الحديث في الصِّحاح، ومعنى سؤالهم عن الْبَعْثِ إليه فيما قال بعض أهل العلم، أي: قد بعث إليه إلى السماء، كما قد وجدوا في العلم أنه سيعرج به، ولو أرادوا بَعْثَه إلى الخلق، لقالوا: أَوَقد بُعِثَ، ولم يقولوا إليه، مع أنه يبعد أن يخفى عن الملائكة بعثُه إلى الخلق، فلا يعلمون به إلى ليلة الإسراء. وفي الحديث الذي تقدم في هذا الكتاب بيانٌ أيضًا حين ذكر تسبيح ملائكة السماء السابعة، ثم تسبيح ملائكة كل سماء، ثم يسأل بعضهم بعضًا: مِمَّ سَبَّحتم حتى ينتهي السؤال إلى ملائكة السماء السابعة، فيقولون: قَضَى ربُّنا في خَلْقه كذا، ثم ينتهي الخبرُ إلى سماء الدنيا ـ الحديث بطوله، وفي هذا ما يدل على أن الملائكة قد علمت بنبوّة محمد ـ ﷺ ـ حين نُبِّيء، وإنما قالت: أَوَقد بعث إليه، أي قد بعث إليه بالْبُرَاقِ كما تقدَّم على أن في حديث أنس أن ملائكةَ سماءِ الدنيا قالت لجبريل: أَوَقد بعث، كما وقع في السيرة وليس في أول الحديث: إليه، هذا إنما جاء في حديث الرُّؤْيا التي رآها بقلبه، كما قدّمنا، وأن ذلك قبل أن يُوحى إليه كما جاء في الحديث بعينه، وفي هذا قوة لما تقدم من أن الإسراء كان رُؤْيا، ثم كان رؤية؛ ولذلك لم نجد في رواية من الروايات أن الملائكة قالوا: أَوَقد بُعِث إليه إلا في ذلك الحديث، فالله أعلم[2].

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٢/ ٤٥٤) والرواية المتداولة «اعقلها وتوكل». أخرجها ابن حبان (٢٥٩٩) موارد ـ والبيهقي في الآداب (٩٩٣) بتحقيقي. وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٩٠).

(٢) وفي طرق جبريل لباب السماء وردّ الملائكة عليه، ثم سؤالهم ثم إجابته ثم سؤالهم مرة أخرى ثم إجابته عليهم السلام، يعطي النبي ﷺ فسحة من الوقت لينتظر في ملكوت الله تعالى عند طرق السماء الأولى فينظر في النجوم والكواكب والأرض وحرس السماء إلى غير ذلك من آيات الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿لنريه من آياتنا الكبرى﴾، ويتكرر نفس المشهد عند كل سماء ليجول=

باب الحفظة:

وذكر بابَ الْحَفَظَةِ، وأن عليه ملَكًا يقال له: إسماعيل، وقد جاء ذكره في مُسْنَدِ الحارثِ، وفيه أن تحت يده سبعون ألف ملك تحت يد كل ملك سبعون ألف ملَك، هكَذا لفظُ الحديث في رواية الحارثِ، وفي رواية ابن إسحٰق: اثنا عشر ألف مَلَك هكذا لفظ الحديث، وفي مُسْنَد الحارث أيضًا.

وذكر سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، فقال: لو غطيتُ بورَقة من ورقها هذه الأُمَّةُ لغطَّتهم، وفي صفتها من رواية الجميع: فإذا ثمرُها كقِلاَل هَجَر، وفي حديثِ الْقُلَّتَيْنِ من كتاب الطهارة، من رواية ابن جُرَيْج: إذا كان الماءُ قُلَّتيْن من قِلاَلِ هَجَر لم يحمل الخبث[1] قالوا: والقلّتان منها تَسعَانِ خمسمائة رطل، قال الترمذي: وذلك نحو من خَمْسِ قِرَبٍ، وفي تفسير ابن سلام قال عن بعض السلف: إنها سُمِّيَتْ سِدْرَة الْمُنْتَهى، لأن روح المؤمن ينتهي به إليها، فتصلّي عليه هنالكَ الملائكةُ المقربون. قال ذلك في تفسير علّيين[2].

آدم في سماء الدنيا والأسودة التي رآها:

فصل: وفيه أنه رأى آدم في سماء الدنيا، وعن يمينه أُسودة، وعن شماله أسْوِدة، وأن جبريلَ أعلمه أن الأسْوِدة التي عن يمينه هم: أصحابُ الْيَمين، وفي رواية ابن إسحٰق: تعرض عليه أرواحُ ذُريته، فإذا نظر إلى الذين عن يمينه ضحك، وقد سُئِلَ عن هذا، فقيل: كيف رأى عن يمينه أرواحَ أصحاب اليمين، ولم يكن إذ ذاك من أصحاب اليمين إلا نَفَرٌ قَلِيل، ولعله لم يكَن ماتَ تلك الليلة منهم أحد، وظاهرُ الحديثِ يقضي أنهم كانوا جماعة. فالجوابُ أن يقال: إنْ كان الإسراءُ رؤيا بقلبه، فتأويلها أن ذلك سيكون، وإن كانت رُؤْيا عين، كما قال ابن عباس وغيره بمعناه: أن ذلك أرواحُ المؤمنين رآها هنالك، لأن الله تعالى يتوفى الخلقَ في منامِهم، كما قال في التنزيل: ﴿اللَّهُ يَتَوفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزمر: ٤٣] فصعد بالأرواح إلى هنالك، فرآها ثم أُعيدت إلى أجسادها. وجوابٌ آخر: وهو أنَّ أصحابَ اليمين الذين ذكرهم اللَّهُ تعالى في سورة الْمُدَّثِر في قوله تعالى: ﴿إلا

= ببصره - ﷺ - في أرجاء كل سماء ليطّلع على آيات الله عز وجل، فيرى عدد من الملائكة لا يحصيه إلا الله عز وجل، ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾، كل هذا تقدمة للقاء ربّ هؤلاء الجند وملكهم، ربّ كل شيء ومليكه سبحانه وتعالى عزّ وجل.

(١) ليس من حديث صحيح تقييد القلتين بقلال حجر، والله أعلى وأعلم.

(٢) وقيل: لأن عندها ينتهي علم الملائكة.

الصفات التي وصف بها النبي بعض الرسل

قال ابن إسحٰق: وزعم الزُّهْرِيّ عن سعيد بن المُسَيَّب أن رسول الله ـ ﷺ ـ وصف

أصحابَ الْيَمِين في جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُون عن الْمُجْرِمين﴾ [٣٩: ٤٠]. قال ابنُ عباس: هم الأطفال الذين ماتوا صغارًا، ولذلك سألوا المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُم في سَقَر﴾ لأنهم ماتوا قبل أن يعلموا بكفر الكافرين، وقد ثبت في الصحيح أن أطفال المؤمنين والكافرين في كفالة إبراهيم عليه السلام، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لجبريل حين رآهم في الروضة مع إبراهيم: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ فقال: أولاد المؤمنين الذين يموتون صغارًا، فقال له: وأولاد الكافرين، قال: وأولاد الكافرين. خرّجه البخاري في الحديث الطويل من كتاب الجنائز، وخرّجه في موضع آخر، فقال فيه: أولاد الناس، فهو في الحديث الأول نَصٌّ، وفي الثاني عموم، وقد رُوِيَ في أطفال الكافرين أنهم خدمٌ لأهل الجنة، فعلى هذا لا يبعد أن يكون الذي رآه عن يمين آدم من نَسَمِ ذريتِه أرواحَ هؤلاء، وفي هذا ما يدفع تَشْعيبَ هذا السؤال والاعتراض منه.

من حكم الماء:

فصل: وفيه شُرْبُه من إناءِ القوم، وهو مُغطًّى، والماءُ وإن كان لا يُمْلَكُ والناس شُرَكَاءُ فيه، وفي النار والْكَلأ كما جاء في الحديث، لكن المستقى إذا أحرزه في وعائه، فقد ملكه، فكيف استباح النبي ﷺ شُرْبه وهو مِلْكٌ لغيره، وأملاكُ الكفار لم تكن أُبيحت يومئذ، ولا دماؤهم.

فالجوابُ أن العربَ في الجاهلية كان في عُرْف العادة عندهم إباحة الرِّسْلِ لابن السبيل فَضْلاً عن الماءِ، وكانوا يعهدون بذلك إلى رِعائهم، ويشترطونه عليهم عند عقد إجارتهم: ألاَّ يمنعوا الرِّسْلَ، وهو اللبن من أحدٍ مرَّ بهم، وللحكم في العُرْفِ في الشريعة أصولٌ تشهد له، وقد تَرْجم البخاريُّ عليه في كتاب البيوع، وخرج حديثَ هِندِ بنتِ عُتْبَة، وفيه: خُذِي ما يكفيك وولدَك بالمعروف[1].

عن دخول بيت المقدس وصفة الأنبياء

فصل: وذكر فيه أنه دخل بيتَ الْمَقدِس، ووجد فيه نفرًا من الأنبياء، فصلَّى بهم، وفي

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/ ٨٥) ومسلم في الأقضية (٧) والنسائي (٨/ ٢٤٧) وابن ماجه (٢٢٩٣) وأحمد (٦/ ٣٩) وأبو داود (٣٥٣٢) بتحقيقي.

لأصحابه إبراهيمَ ومُوسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة، فقال: أما إبراهيم، فلم أرَ رجلاً أشبهَ بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه، وأما موسى فرجل آدمُ طويلٌ ضَرْبٌ جَعْد أقْنَى كأنه من رجال شَنُوءَة، وأما عيسى ابن مريم، فرجل أحمر، بين القصير والطويل، سَبْط الشعر، كَثير خِيلان الوجه، كأنه خرج من دِيماس، تَخال رأسَه يَقْطُر ماء، وليس به ماء، أشبهُ رجالكم به عُروة بن مَسعود الثقفي[1].

حديث التِّرمِذِيِّ الذي قدَّمناه عن حُذَيفَةَ أنه أنكر أن يكونَ صلَّى بهم، وقال: ما زال من ظَهر الْبُرَاقِ، حتى رأى الجنةَ والنار، وما وعده الله تعالى، ثم عاد إلى الأرض، وزيادة العدل مقبولةٌ، ورواية مَن أثبتَ مُقدَّمةٌ على رواية مَنْ نَفَى، وذكر فيه صفة الأنبياءِ، وقال في عيسى: كأن رأسُه يَقْطُرُ ماءً وليس به ماءٌ، وكأنه خرج من دِيَمَاسٍ والدِّيماسُ: الْحَمَّامُ، وأصله: دِمَّاس ويجمع على دَمَامِيس، وقد قيل في جمعه: دَيَاميس، ومثله، قيراط ودينار ودِيباج، الأصل فيها كلها: التضعيف، ثم قُلبَ الحرف المدغمُ ياء، فلما جَمَعوا وصَغَّروا، ردُّوه إلى أصلِه، فقالوا: قراريط ودنانير: [وقُرَيْرِيط ودُنَيْنِير]، غير أنهمْ لم يقولوا: دنانير ولا قياريط، كما قالوا: دَياميس، وقالوا: دَبابيج ودَبابيج، وأصلُ الدَّمْس: التغطيةُ ومنه لَيْلٌ دامِسٌ، وفي هذه الصفة من صفات عيسى عليه السلام إشارة إلى الرِّيِّ والخِصْبِ الذي يكون في أيامه إذ أُهبِطَ إلى الأرض والله أعلم.

وذكر في صفة موسى أنه آدمُ طوَّالٌ، ولوصفه إياه بالأُدْمَةِ أصلٌ في كتاب الله تعالى، قاله الطَّبَري عند تفسير قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ قال: في خُروج يده بيضَاء آيَةٌ في أن خرجت بيضاءَ مخالفًا لونُها لسائر لونِ جسدِه، وذلك دليل بيِّن على الأُدْمَة التي هي خلافُ البياض.

وذكر إبراهيمَ فقال: لم أرَ رجلاً أشبهَ بصَاحبِكم ولا صاحبكم أشْبَه به منه، يعني: نفسه، وفي آخر هذا الكلام إشكالٌ من أجل أن أشْبَهَ منصوبٌ في الموضعين، ولكن إذا فهمت معناه، عرفت إعرابَه، ومعناه: لم أرَ رجلاً أشبهَ بصاحبكم ولا صاحبُكم به منه، ثم كرر أشبه توكيدًا فصارت لغوًا كالْمُقْحَم وصاحبكم معطوفٌ على الضمير الذي في أشبه الأول الذي هو نعتٌ لرجل، وحسن العطفُ عليه، وإن لم يؤكدَ بهو، كما حسن في قوله تعالى:

---

(١) هو: عروة بن مسعود الثقفي: أرسلته قريش للنبي ﷺ يوم الحديبية، وقد أسلم على تسع من الهجرة. وهو الذي قالت فيه قريش من رجلين: ﴿لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ [الزخرف: ٣١] والحديث مرسل. وانظر مسلم في الإيمان (١٦٧) والترمذي في المناقب (٣٦٥١) وفي الشمائل له (٢٨).

قال ابن هشام وكانت صِفة رسول الله ـ ﷺ ـ فيما ـ ذكر عُمر مولى غُفْرة عن إبراهيم بن محمد بن عليّ بن أبي طالب، قال: كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام، إذا نعت رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: لم يكن بالطَّويل المُمَّغِط، ولا القصير الْمُتَرَدِّد، وكان رَبْعة من القوم، ولم يكن بالْجَعْد الْقَطَطِ ولا السَّبْطِ، كان جَعْدًا رَجْلاً، ولم يكن بالْمُطَهَّم ولا الْمُكَلْثَم وكان أبيض مُشْرَبًا، أدْعَج العينين، أهْدَب الأشْفَار، جليل الْمُشَاش الْكَتَد، دقيق الْمَسْرُبَة أجْرَدَ، شَثْن الكفَّين والقدمين، إذا مشى تَقَلَّع، كأنما يمشي في صَبَب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتمُ النبوّة، وهو ﷺ خاتمُ النَّبيين، أجْوَدُ الناس كفًا، وأجرأ الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذِمَّة، وألينهم عَرِيكة، وأكرمهم عِشْرة، مَن رآه بديهة هابَه، ومَن خالطه أحبَّه، يقول ناعتُه: لم أرَ قبله ولا بعده مثله، ﷺ[1].

﴿ما أشرَكْنَا ولا آباؤُنا﴾ من أجل الفصل بلا النافية، ولو أسقط من الكلام أشْبَهَ الثاني، لكان حَسَنًا جدًّا، ولو أخَّر صاحبكم فقال: ولا أشبه به صاحبُكم منه لجازَ، ويكون فاعلاً بأشْبَهَ الثانية، ويكون من باب قولهم: ما رأيتُ رجلاً أحسنَ في عينه الكحلُ مِنْ زَيْدٍ، وهي مسألة عَذْرَاءُ لم تَفْتَرِعْها أيدي النُّحَاةِ، بعد ولم يشف منها مُتَقَدِّمٌ منهم، ولا متأخِّرٌ مِمَّن رأينا كلامه فيها وقد أمْلَيْنَا في غيرِ هذا الكتابِ فيها تحقيقًا شافيًا.

صِفة النبي ﷺ:

فصل: وذكر في صفة النبي ـ ﷺ ـ مما نعته به عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: لم يكن بالطويل الْمُمَغط بالغين المعجمة، وفي غير هذه الرواية بالعين المهملة، وذكر الأوصاف إلى آخرها وقد شرحها أبو عُبَيْد، فقال عن الأصمعي، والكسائي وأبي عَمْرو وغير واحد قوله: ليس بالطويل الْمُمَغَّط أي: ليس بالبائن الطويل، ولا القصير الْمُتَرَدِّدِ يعني: الذي تردد خلْقُه بعضُه على بعْض، وهو مجتمع ليس بسَبْطِ الْخَلْقِ يقول: فليس هو كذلك، ولكن رَبْعَة بين الرجلين، وهكذا صِفَتُه ـ ﷺ ـ وفي حديث آخر: ضَرْب اللَّحم بين الرجلين.

وقوله: ليس بالمطهم، قال الأصمعي: هو التام كل شيء منه على حدته، فهو بارع الجمال، وقال غير الأصمعي الْمُكَلْثم المُدَوَّر الوجه، يقول: ليس كذلك، ولكنه مسْنُونٌ، وقوله: مشرب يعني الذي أُشْرِب حُمْرَةً، والأدعج العين: الشديدُ سَوادِ العين قال الأصْمَعي: الدُّعْجَةُ: هي السواد، والجليل الْمُشَاشِ: العظيمُ العظام مثل الركبتين والمِرْفَقَيْنِ والْمَنْكِبَيْنِ، وقوله: الْكَتَد هو: الكاهِلُ وما يليه من جسده، وقوله: شَثْن الكفَّينِ والقدمين يعني: أنهما

---

(١) «ضعيف الإسناد». أخرجه الترمذي في المناقب (٣٦٤٢).

حديث أم هانىء عن الإسراء:

قال محمد بن إسحٰق: وكان ـ فيما بلغني ـ عن أُمّ هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها ـ واسمها: هند ـ في مسرى رسول الله ﷺ، أنها كانت تقول: ما أُسرِيَ برسولِ الله ـ ﷺ ـ إلا وهو في بيتي، نائم عندي تلك الليلة في بيتي، فصلَّى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قُبيل الفجر أهَبَّنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ فلما صلّى الصبح، وصلَّينا معه، قال: «يا أُمّ هانىء، لقد صلَّيت معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ بهذا الوادي، ثم جئتُ بيتَ المقدس فصلَّيت فيه، ثم قد صلَّيت صلاةَ الغَداة معكم الآن كما ترين»، ثم قام ليخرج، فأخذْتُ بطَرف رِدائه، فتكشَّف عن بَطْنه كأنه قُبْطيَّة مَطْوية، فقلت له: يا نبيّ الله، لا تحدّث بهذا الناس، فيكذّبوك ويُؤذوك، قال: «والله لأُحدّثنّهموه». قالت: فقلت لجارية لي حَبشيَّة: ويحكِ اتبعي رسولَ الله ـ ﷺ ـ حتى تَسْمعي ما يقولُ للناس، وما يقولون له. فلما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الناس أخبرهم، فعَجبوا وقالوا: ما آيةُ ذلك يا محمد؟ فإنّا لم نسمع بمثل هذا قطُّ، قال: «آية ذلك أني مَرَرْت بعِير بَني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرَهم حِسُّ الدابّة، فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهم عليه، وأنا مُوجَّه إلى الشام. ثم أقبلت حتى إذا كنتُ بضَجَنان مررتُ بعِيرِ بني فلان، فوجدتُ القومَ نيامًا، ولهم إناء فيه ماء قد غطَّوا عليه بشيء فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه، ثم غطيتُ عليه كما كان، وآية ذلك أن عِيرَهم الآن تَصُوب من البَيْضاء، ثَنِيَّة التَّنْعيم يقدُمها جمل أَوْرَقُ، عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى بَرْقَاء». قالت: فابتدر القَومُ الثنيَّة، فلم يَلْقهم أولُ مِنَ الجمل كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنهم وَضَعوه مملوءًا ماء ثم غطَّوه، وأنهم هبُّوا فوجدوه مغطًّى كما غطَّوْه، ولم يجدوا فيه ماءً. وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أُنفرنا في الوادي الذي ذَكَره، ونَدّ لنا بعيرٌ، فسَمعنا صوتَ رجل يدعونا إليه، حتى أخذناه.

فقلت لجبريل: يا جبريل، مُرْه، فَلْيردّها إلى مكانها. قال: فأمره، فقال لها: اخبِي، فرجعتْ إلى مكانها الذي خَرجت منه. فمَا شبَّهتُ رُجوعَها إلا وقوع الظلّ. حتى إذا دخلت من حيثُ خَرجت رَدّ عليها غطاءها.

إلى الغِلَظ. وقوله: لَيسَ بالسبط ولا الْجَعْدِ الْقَطَطِ، فالْقَطَطُ: الشديدُ الْجُعُودَةِ مثل شُعور الْحَبَشة، ووقع في غريب الحديث لأبي عبيد التامُّ كلُّ شيء منه على حِدَته. يقول: ليس كذلك، ولكنه بارع الجمال، فهذه الكلمة، أعني: ليس كذلك مخِلَّة بالشرح، وقد وجدته في رواية أخرى عن أبي عبيد بإسقاط: يقول كذلك، ولكن على نص ذكرناه آنفًا.

قال أبو سَعيد الخُدْريّ فيَ حديثه: إن رسولَ الله ـ ﷺ ـ قال: «لما دخلتُ السماء الدنيا، رأيت بها رجلاً جالسًا تُعرَض عليه أرواح بَني آدم، فيقول لبعضها، إذا عُرضت عليه خيرًا ويُسرّ به، ويقول: روح طيِّبة خَرجت من جَسد طيب، ويقول لبعضها إذا عُرضت عليه: أُفٍّ، ويَعْبِس بوجهه ويقول: روح خَبيثة خرجت من جَسد خبيث. قال: قلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم، تُعرَض عليه أرواح ذرّيته، فإذا مَرّت به روح المُؤمن مِنهم سُرّ بها: وقال روح طيبة خرجت من جَسد طيب. وإذا مرّت به روح الكافر منهم أفَّف منها، وكَرِهها، وساء ذلك، وقال: روحٌ خبيثةٌ خرجت من جَسد خبيث.

رؤية النبي ربه[(١)]:

فصل: وقد تكلم العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء، فروى مسروقٌ عن عائشة أنها أنكرت أن يكون رآه، وقالت مَن زعم أن محمدًا رأى ربَّه، فقد أعظم على الله الْفِرْية، واحتجت بقوله سبحانه: ﴿لا تُدْرِكُه الأبْصارُ وهو يُدْرِك الأبْصارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وفي مصنف الترمذي عن ابن عباس وكعب الأحبار أنه رآه، قال كعب: إن الله قسم رؤيته وكلامَه بين موسى ومحمد، وفي صحيح مسلم عن أبي ذَرٍّ قلت: يا رسول الله هل رأيتَ ربَّك؟ قال: رأيت نورًا، وفي حديث آخر من كتاب مسلم أنه قال: نورًا أنّى أراه، وليس في هذا الحديث بيان شافٍ أنه رآه، وحكي عن أبي الحسن الأشعري أنه قال: رآه بعيني رأسِه، وفي تفسير النقاش عن ابن حنبل أنه سُئِلَ: هل رأى مُحمدٌ رَبَّه، فقال: رآه رآه حتى انقطع صوته، وفي تفسير عبد الرزاق عن معمر عن الزهري وذكر إنكار عائشة أنه رآه، فقال الزهري: ليست عائشة أعلَم عندنا من ابنِ عباس، وفي تفسير ابن سلام عن عروة أنه كان إذ ذكر إنكار عائشة أن يكون رسولُ الله ـ ﷺ ـ رأى ربه يشتدّ ذلك عليه، وقول أبي هريرة في هذه المسألة كقول ابن عباس أنه رآه؟ روى يونس عن ابن إسحٰق عن داود بن الحصين قال: سأل مروان أبا هريرة: هل رأى محمد ربه؟ قال: نعم، وفي رواية يونس أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم رآه، فقال ابن عمر: وكيف رآه، فقال ابن عباس كلامًا كرهت أن أُورده بلفظه لما يُوهم من التشبيه، ولو صحّ لكان له تأويل والله أعلم، والتحصيل من هذه الأقوال ـ والله أعلم ـ أنه رآه لا على أكمل ما تكون الرؤية على نحو ما يراه في حظِيرة القُدْسِ عند الكرامة العظمى والنعيم الأكبر، ولكن دون ذلك، وإلى هذا يُومي قولُه: رأيت نورًا ونورًا أني أراه في الرؤية الأخرى والله أعلم.

---

(١) انظر مزيد إيضاح في الشفاء للقاضي عياض (١/ ٢٥٠) والمزاد لابن القيم (٣/ ٣٥).

قال ثم رأيت رجالاً لهم مَشافر كمَشافر الإبل، في أيديهم قِطَع من نار كالأفهار، يقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم. فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكَلة أموال اليتامى ظُلْمًا[1].

وأما الدُّنُوُّ والتَدَلِّي فهما خبرٌ عن النبي - ﷺ - عن بعضِ المفسرين، وقيل إن الذي تدلى هو جبريلُ عليه السلام تدلى إلى محمد حتى دنا منه وهذا قول طائفة أيضًا، وفي الجامع الصحيح في إحدى الروايات منه: فتدَلّى الجبار، وهذا مع صحة نقله لا يكاد أحدٌ من المفسرين يذكره لاستحالة ظاهره، أو للغفلة عن موضعه، ولا استحالة فيه؛ لأن حديثَ الإسراء إن كان رؤيا رآها بقلبه وعينُه نائمةٌ - كما في حديث أنس فلا إشكال فيما يراه في نومه عليه السلام فقد رآه في أحسن صورةٍ ووضع كفّه بين كتفيه، حتى وجد بَرْدَها بين ثدييه رواه الترمذي من طريق معاذٍ في حديث طويل[2]، ولما كانت هذه رؤيا لم ينكرها أحدٌ من أهل العلم، ولا استبشعها، وقد بيّنّا آنفًا أن حديث الإسراء كان رؤيا ثم كانَ يَقظة فإن كان قوله فتدلّى الجبَّارُ في المرة التي كان فيها غير نائم، وكان الإسراء بجسده، فيقال فيه من التأويل ما يقال في قوله: ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا، فليس بأبعدَ منه في باب التأويل، فلا نَكَارَةَ فيه كان في نوم أو يقظة، وقد أشرنا إلى تمام هذا المعنى في شرح ما تضمنه لفظ الْقَوْسَين من قوله: قَابَ قَوْسَيْن في جزءٍ أمليناه في شرح سبحان الله وبحمده، تَضَمَّن لطائف من معنى التَّقْديس والتسبيح، فلينظر هناك وأملينا أيضًا في معنى رؤيةِ الرب سبحانه في المنام، وفي عَرَصَاتِ القيامة مسألة لقناعِ الحقيقة في ذلك كاشفةً فمَن أراد فهم الرُّؤْية والرؤيا فلينظرها هنالك، ويقوّي ما ذكرناه من معنى إضافة التدَلّي إلى الرَّبِّ سبحانه كما في حديث البخاري ما رواه ابن سنجر مُسْندًا إلى شُرَيح بن عبيد، قال: لما صعد النبي - ﷺ - إلى السماء، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فلما أحسّ جبريل بدُنوِّ الرَّبِّ خرّ ساجد، فلم يَزَلْ يُسبِّح سُبْحَانَ رَبِّ الْجَبَرُوتِ والْمَلَكُوتِ والْكِبْرياءِ والعظمة حتى قضى الله إلى عبده ما قضى، قال: ثم رفع رأسَه، فرأيته في خَلْقه الذي خُلِق عليه منْظُومًا أجنحتُه بالزَّبَرجَدِ واللؤلؤ والياقوت، فخُيِّل إليَّ أن ما بين عينيه قد سدّ الأفقين، وكنت لا أراه قبل ذلك إلا على صُوَرٍ مختلفة، وكنت أكثر ما أراه على صورة دِحْيَة بن خليفة الكَلْبِي، وكان أحيانًا لا يراه قبل ذلك إلا كما يرى الرجلُ صاحبَه من وراء الغربال[3].

---

(١) وردت هذه المشاهد في رواية البيهقي كما تقدم تخريجه.

(٢) «حسن». أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) وأحمد (١/ ٣٩٨/ ٣٧٥) (٤/ ٦٦) والطبراني (٨/ ٣٤٩).

(٣) جاءت الأحاديث «الصحيحة» المصرّحة برؤيته لجبريل في عدة صور وعلى صورته التي خلقه الله عليه له ستمائة جناح، أما كونه كان - ﷺ - يراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغربال في حاجة =

قال: ثم رأيت رجالاً لهم بُطون لم أرَ مثلَها قطُّ بسَبيل آل فرعون، يمُرّون عليهم كالإبل الْمَهْيُومة حين يُعْرَضون على النار، يطؤونهم لا يقدرون على أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك. قال: قلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكَلَة الربا.

قال: ثم رأيتُ رجالاً بين أيديهم لحم ثمين طيِّب، إلى جنبه لحم غَثٌّ منتن، يأكلون من الغثّ المنتن، ويتركون السمين الطيب. قال: قلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يَتركون ما أحلَّ الله لهم من النِّساء، ويَذهبون إلى ما حرّم الله عليهم منهنّ.

قال: ثم رأيت نساءً مُعلَّقات بثديِّهنّ، فقلتُ: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال مَن ليس من أولادهم.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني جَعفر بن عَمْرو، عن القاسم بن محمد أن رسولَ الله - ﷺ - قال: «اشتدّ غضب الله على امرأة أدخلت على قوم مَنْ ليس منهم، فأكل حَرائبهم، واطّلع على عوراتهم»(١).

عود إلى حديث الخدري: ثم رجع إلى حديث أبي سَعيد الخُدريّ، قال: «ثم أصعدني إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالةَ: عيسى ابن مريم، ويحيىٰ بن زكريًا، قال: ثم أصْعدني إلى السماء الثالثة، فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البَدْر، قال: قلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب. قال: ثم أصْعدني

لقاؤه للنبيين:

فصل: ومما سئل عنه من حديث الإسراء، وتكلم فيه لقاؤه لآدم في السماء الدنيا، ولإبراهيم في السماء السابعة، وغيرهما من الأنبياء الذين لقيهم في غير هاتين السماءين، والحكمةُ في اختصاص كل واحد منهم بالسماء التي رآه فيها، وسؤال آخر في اختصاص هؤلاء الأنبياء باللقاء دون غيرهم، وإن كان رأى الأنبياءَ كلهم، فما الحكمة في اختصاص هؤلاء الأنبياء بالذكر؟ وقد تكلم أبو الحسن بن بطال في شرح البخاري على هذا السؤال، فلم يصنع شيئًا، ومغزى كلامه الذي أشار إليه أن الأنبياء لمّا علموا بقدومه عليهم ابتَدَرُوا إلى لقائه ابتدار أهل الغائبِ للغائب القادم، فمنهم مَن أسرع، ومنهم مَن أبطأ. إلى هذا المعنى أشار فلم يزد عليه، والذي أقول في هذا: إن مأخذ فهمه من علم التعبير، فإنه من علم

= إلى دليل «صحيح» يعتضده.

(١) انظر المجمع (٤/ ٢٢٥) والكنز (١٣٠٠٢).

إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل فسألته: مَن هو؟ قال: هذا إدريس ـ قال: يقول رسولُ الله ـ ﷺ ـ: ورفعناه مكانًا عليًا ـ قال: ثم أصْعدني إلى السماء الخامسة فإذا فيها كَهْل أبيضُ الرأس واللِّحية، عظيم العُثْنون، لم أرَ كَهْلاً أجملَ منه، قال: قلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا المُحَبَّبُ في قومه هارون بن عِمران، قال: ثم أصْعدني إلى السماء السادسة، فإذا فيها رجل آدمُ طويلٌ أقْنى كأنه من رجال شَنُوءَة؛ فقلت له: مَن هذا يا

النبوءة، وأهلُ التعبير يقولون: مَن رأى نبيًا بعينه في المنام، فإن رؤياه تُؤذِن بما يُشبه حال ذلك النبي من شِدَّةٍ أو رَخاء أو غير ذلك من الأمور التي أخبِر بها عن الأنبياء في القرآن، والحديثِ، وحديثُ الإسراء كان بمكةَ وهي حَرَم الله وأمنه وقُطَّانُها جيرانُ الله، لأن فيها بيتَه، فأول ما رأى عليه من الأنبياء آدم الذي كان في أمن الله وجوارِه، فأخرجه عدوُّه إبليسُ منها، وهذه القصة تشبهها الحالة الأولى من أحوال النبي ـ ﷺ ـ حين أخرجه أعداؤه من حَرَمِ الله وجوار بيته، فَكَرَبَه ذلك وغَمَّه. وأشبهت قصتُه في هذا قصة آدم، مع أن آدم تُعْرَض عليه أرواحُ ذريتِه الْبَرّ والفاجر منهم، فكانَ في السماء الدنيا بحيث يرى الفريقين، لأن أرواحَ أهلِ الشقاء لا تَلِجُ في السماء، ولا تُفْتَح لهم أبوابُها كما قال الله تعالى، ثم رأى في الثانية عيسى ويحيىٰ وهما الْممتَحنان باليهود، أما عيسى فكذبته اليهودُ وآذته، وهمُّوا بقتله فرفعه الله، وأما يحيىٰ فقتلوه، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان، وكانت محنتُه فيها باليهود، آذَوْه وظَاهَروا عليه وَهمُّوا بإلقاء الصَّخْرة عليه، ليقتلوه فَنجَّاه الله تعالى كما نَجَّى عيسى منهم، ثم سَمُّوه في الشاة، فلم تزل تلك الأَكْلَة تعاوده، حتى قطعت أبْهَرَهُ[1] كما قال عند الموت، وهكذا فعلوا بابنَيْ الخالة: عيسى ويحيىٰ، لأن أُمَّ يحيىٰ أشياعُ بنت عمْران أُخت مريم، أُمهما: حَنَّة، وأما لقاؤه ليوسفَ في السماء الثالثة، فإنه يُؤذِن بحالة ثالثة تشبه حال يوسف، وذلك بأن بوسف ظَفِر بإخوته بعدما أخرجوه من بين ظَهْرانَيْهِمْ فصفح عنهم، وقالَ: ﴿لا تَثْرِيبَ عليكم﴾ الآية، وكذلك نبينا ـ عليه السلام ـ أَسَرَ يوم بدْرٍ جُمْلَةً من أقاربه الذين أخرجوه فيهم عمه العباسُ، وابن عمه عقيل، فمنهم مَن أطلق، ومنهم مَن قبِل فداءه، ثم ظهر عليهم بعد ذلك عامَ الفتح فجمعهم، فقال لهم: أقول ما قال أخي يوسف لا تَثْرِيبَ عليكم اليوم، ثم لقاؤه لإدريسَ في السماء الرابعة، وهو المكان الذي سماه الله مكانًا عليًا، وإدريس أول مَن آتاه الله الخطَّ بالقلم، فكان ذلك مُؤذنًا بحالةٍ رابعة، وهي عُلُوُّ شأنه ـ عليه السلام ـ حتى أخاف الملوكَ وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته، حتى قال أبو سفيان، وهو عند ملك الروم، حين جاءه كتابٌ للنبي ـ عليه السلام ـ، ورأى

---

(١) الأبهر: عرق في الظهر.

جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى بن عِمْران. ثم أصْعدني إلى السماء السابعة، فإذا فيها كَهْل جالس على كرسيّ إلى باب البيت المَعمور، يدخله كلّ يوم سَبعون ألفَ مَلَك، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة. لم أرَ رجلاً أشبهَ بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه،

ما رأى من خَوْف هِرقل: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبْشَة[1]، حتى أصبح يخافه مَلكُ بني الأصْفَرِ، وكتب عنه بالقلم إلى جميع ملوك الأرض، فمنهم مَن اتّبعه على دينه كالنَّجَاشِي، ومَلِكَ عمان، ومنهم مَن هادنه، وأهدى إليه وأتحفه كَهِرَقْل والْمُقَوْقِس، ومنهم مَن تعَصَّى عليه، فأظهره اللَّهُ عليه، فهذَا مقام عليّ، وخط بالقلم كنحو ما أُوتِيَ إدريس ـ عليه السلام ـ ولقاؤه في السماء الخامسة لهارون الْمُحَبَّبِ في قومه يؤذن بحب قريشٍ، وجميع العرب له بعد بُغْضهم فيه، ولقاؤه في السماء السادسة لموسى يؤذن بحالةٍ تشبه حالة موسى حين أمر بغزو الشام فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها، وأدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم، وكذلك غزا رسولُ الله ـ ﷺ ـ تبُوكَ من أرضِ الشام، وظهر على صاحب دَوْمَةَ حتى صالحه على الْجِزْية بعد أن أتى به أسيرًا، وافتتح مكة، ودخل أصحابه البلدَ الذي خرجوا منه، ثم لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيمَ ـ عليه السلام ـ لحكمتين: إحداهما: أنه رآه عند البيت المعمور مُسْنِدًا ظهره إليه والبيتُ المعمورُ حيال مكة، وإليه تحجّ الملائكة، كما أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، وأذّن في الناس بالحج إليها والحكمة الثانية أن آخر أحوالِ النبي ـ ﷺ ـ حِجُّه إلى البيت الحرام، وحَجّ معه نحوٌ من سبعين ألفًا من المسلمين، ورؤيةُ إبراهيمَ عند أهلِ التأويل تؤذن بالحج، لأنه الداعي إليه والرافع لقواعدِ الكعبة المحجوبة، فقد انتظم في هذا الكلام الجوابُ عن السؤالين المتقدمين، أحدهما: السؤال عن تخصيص هؤلاء بالذكر، والآخر: السؤال عن تخصيصهم بهذه الأماكن من السماء الدنيا إلى السابعة، وكان الحزمُ تركَ التكلُّف لتأويل ما لم يرد فيه نصٌّ عن السلَف، ولكن عارضَ هذا الغرضَ ما يجب من التفكير في حكمة الله، والتدبّر لآيات الله، وقولُ الله تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون﴾ وقد رُوِيَ أن «تفكُّرَ ساعةٍ خيرٌ من عِبَادةِ سنةٍ»[2] ما لم يكن النظر والتفكير مجرّدًا من ملاحظة الكتابِ والسنَّةِ، ومقتضى كلام العرب، فعند

---

(١) أي ارتفع شأنه.

(٢) «ضعيف». أخرجه القرطبي في تفسيره (٤/ ٣١٤). وانظر التذكرة للفتن (١٨٨) والأسرار المرفوعة للقاري (١٦٢) والفوائد للشوكاني؛ ٢٥١). وذكره ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية (٢٨٩) بتحقيقي. وقد بيّنت هناك نسبة الكتاب لصاحبه وأنه مدسوس عليه، وأن الكتاب هو مجموعة من المسائل والأسئلة جُمعت من مؤلفات السيوطي ونسبت للهيثمي زورًا. وقد نسب الكتاب للهيثمي صاحب كشف الخفاء/ وغيره، وآخرهم ذكرًا له صاحب موسوعة أطراف الحديث. والعلاّمة الألباني حفظه الله في سلسلته الضعيفة (حديث رقم ٢٥).

قال: قلت: مَن هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. قال: ثم دخل بي الجنة، فرأيتُ فيها جاريةً لعساء، فسألتها: لمَن أنت؟ وقد أعجبتني حين رأيتُها، فقالت: لزيد بن حارثة، فبشَّر بها رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة».

ذلك يكون القولُ في الكتاب والسنة بغير علم عصمنا الله ـ تعالى ـ من ذلك، وجعلَنا من الْمُمْتَثِلينَ لأمْرِه حيث يقول: فاعتبروا يا أُولي الأبصارْ وليدَّبروا آياتِه، ولِيَتَذَكَّر أُولو الألبابِ، ولولا إسراعُ الناسِ إلى إنكار ما جهلوه، وغِلَظُ الطباع عن فَهْم كثير من الحكمة لأَبْدَيْنَا مِنْ سِرِّ هذا السؤالِ، وكشفْنَا عن الحكمة في هؤلاء الأنبياء المسلمين في هذه المراتب أكثر مما كشَفْنَا.

البيت المعمور:

فصل: وذكر البيت المعمور، وأنه يَدْخُلُه كل يوم سبعون ألف ملَكٍ روى ابن سنجر عن علي ـ رحمه الله ـ قال: البيتُ المعمور بيتٌ في السماء السابعة يقال له: الضُّرَاحُ، واسم السماء السابعة: عَرِيبَا، روى أبو بكر الخطيب بإسناد صحيح إلى وَهْب بن مُنَبِّه قال: مَن قرأ البقرة وآل عمران يوم الجمعة كان له نُورٌ يملأ ما بين عَرِيبَاءَ وجريباء وجريبا، وهي الأرض السابعة، وذكر عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف دِحْيَة عند كل دِحْيَةٍ سبعون ألف ملك رواه عنه أبو التَّيَّاح [يزيد الضُّبَعِيّ] قال أبو سلمة: قلتُ ما الدِّحْيَةُ؟ قال: الرئيس. وروى ابنُ سنجر أيضًا من طريق أبي هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: في السماءِ السابعة بيتٌ يقال له: الْمَعْمُور بِحِيالِ مَكَّةَ، وفي السماء السابعة نهرٌ يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسةً، ثم يخرج فينتفض انتفاضة، يَخرّ عنه سبعون ألف قَطْرَةٍ، يخلق الله من كل قطرة ملكًا ويؤمرون أن يأتوا البيت المعمور ويصلوا فيه فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدًا، [و] يولي عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفًا يُسَبِّحون الله [فيه] إلى أن تقوم الساعة»[1].

فرض الصلاة:

فصل: وأما فرض الصلاة عليه هنالك، ففيه التنبيه على فضلها، حيث لم تُفْرض إلاَّ في الحضرة الْمُقَدَّسَةِ[2]؛ ولذلك كانت الطهارةُ من شأنها، ومن شرائط أدائها، والتنبيه على أنها مناجاةُ الربّ، وأنا الربّ تعالى مُقْبِلٌ بوجهه على المصلِّي يناجيه يقول: حَمِدَني عبدي،

---

(١) «ضعيف». وقد تقدم التنبيه على مثله.

(٢) تقدم التنبيه أيضًا غير مرة على هذه اللفظة ونسبتها لله تعالى.

قال ابن إسحٰق: ومن حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - فيما بلغني: أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السمٰوات إلا قالوا له حين يستأذن في دخولها: مَن هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد، فيقولون: أوَ قد بُعِث؟

أثْنَى علَيَّ عَبْدِي إلى آخر السورة، وهذا مُشاكِلٌ لفرضها عليه في السماء السابعة حيث سمع كلام الرب، وناجاه، ولم يعرج به حتى طُهِّر ظاهرُه وباطنهُ بماء زمزم كما يتطهر المصلّي للصلاة، وأُخْرِج عن الدنيا بجسمه، كما يخرج المصلّي عن الدنيا بقلبه، ويحرُم عليه كل شيء إلا مناجاة ربّه وتوجهه إلى قِبلته في ذلك الحين، وهو بيت المقدس، ورفع إلى السماء كما يرفع المصلّي يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القِبلة العليا فهي البيت المعمور، وإلى جهة عرش مَن يناجيه ويصلّي له سبحانه.

فرض الصلوات خمسين:

فصل: وأما فرض الصلوات خمسين ثم حطّ منها عشرًا بعد عشر إلى خمس صلوات. وقد رُوِيَ أيضًا أنها حطّت خمسًا بعد خمس، وقد يُمكن الجمع بين الروايتين لدخول الخمس في العشر، فقد تكلم في هذا النقص من الفريضة: أهُو نَسْخٌ أم لا؟ على قولين، فقال قوم: هو من باب نَسْخ العبادة قبل العمل بها، وأنكر أبو جعفر النحاس هذا القول من وجهين، أحدهما البناءُ على أصلِهِ ومذهبه في أن العبادة لا يجوز نسخُها قبل العمل بها، لأن ذلك عنده من الْبَدَاءِ، والْبَدَاءِ مُحالٌ على الله سبحانه. الثاني: أن العبادةَ إن جاز نسخُها قبل العملِ بها عند مَن يرى ذلك، فليس يجوز عند أحدٍ نسخُها قبل هبوطها إلى الأرض وَوصولها إلى المخاطبين: قال: وإنما ادعى النسخ في هذه الصلوات الموضوعة عن محمد وأمته القاشاني، ليصحّح بذلك مذهبَه في أن البيان لا يتأخر، ثم قال أبو جعفر: إنما هي شفاعة شفعها رسول الله - ﷺ - لأُمته ومراجعةٌ راجعها ربّه، ليخفّف عن أمته، ولا يسمى مثل هذا نسخًا.

قال المؤلف: أما مذهبه في أن العبادة لا تُنسَخ قبل العمل بها، وأن ذلك بَدَاءٌ فليس بصحيح، لأن حقيقة البَداءِ أن يَبْدُو للآمرِ رأيٌ يتبين له الصوابُ فيه بعد أن لم يكن تبيّنه، وهذا مُحال في حق مَن يعلم الأشياء بعلم قديم[1]، وليس النسخ من هذا في شيء إنما النسخ تبديلُ حكم بحكم، والكلُّ في سابق عِلمه ومقتضى حكمته، كنسخِه المرضَ بالصحة، والصحةَ بالمرضِ، ونحو ذلك، وأيضًا بأن العبدَ المأمور يجب عليه عند توجّه الأمر إليه

---

(١) أزلي.

فيقول: نعم، فيقولون: حيّاه الله من أخ وصاحب، حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربّه، ففرض عليه خمسين صلاة في كلّ يوم.

ثلاثُ عباداتٍ: الفعل الذي أُمِر به، والعزم على الامتثال عند سماع الأمر، واعتقاد الوجوب إن كان واجبًا فإن نُسِخ الحكم قبل الفعل، فقد حصلت فائدتان: العزمُ واعتقادُ الوجوب. وعلم الله ذلك منه، فصحَّ امتحانُه له واختباره إياه، وأوقع الجزاء على حسب ما علم من نيته، وإنما الذي لا يجوز نسخ الأمر قبل نزوله، وقبل علم المخاطب به، والذي ذكر النحاس من نَسْخ العبادة بعد العمل بها، فليس هو حقيقة النسخ، لأن العبادة المأمور بها قد مضت، وإنما جاء الخطاب بالنهي عن مثلها لا عنها، وقولنا في الخمسِ والأربعين صَلاةً الموضوعةَ عن محمد وأُمته أحد وجهين، إما أن يكون نسخ ما وجب على النبي ﷺ من أدائها ورفع عنه استمرار العزم واعتقاد الوجوب، وهذا قد قدّمنا أنه نسخٌ على الحقيقة، ونسخ عنه ما وجب عليه من التبليغ، فقد كان في كل مرة عازمًا على تبليغ ما أمر به، وقول أبي جعفر: إنما كان شافعًا ومراجعًا ينفي النسخ فإن النسخ قد يكون عن سبب معلوم، فشفاعته عليه السلام لأُمته كانت سببًا للنسخ لا مُبْطِلةً لحقيقته، ولكن المنسوخ ما ذكرنا من حكم التبليغ الواجب عليه قبل النسخ وحكم الصلوات الخمس في خاصته، وأما أُمته فلم ينسخ عنهم حكم إذ لا يتصور نسخ الحكم قبل بلوغه إلى المأمور، كما قدّمنا، وهذا كله أحد الوجهين في الحديث.

والوجه الثاني أن يكون هذا خبرًا لا تَعبُّدًا، وإذا كان خبرًا لم يدخله النسخُ، ومعنى الخبر أنه عليه السلام أخبره ربُّه أن على أُمته خمسين صلاة، ومعناه: أنها خمسون في اللوح المحفوظ، وكذلك قال في آخر الحديث: هي خمسٌ وهي خمسون، والحسنة بعشر أمثالها فتأوّله رسول الله ـ ﷺ ـ على أنها خمسون بالفعل، فلم يزل يراجع ربَّه حتى بيَّن له أنها خمسون في الثواب لا بالعمل. فإن قيل: فما معنى نفضها عشرًا بعد عشر؟ قلنا: ليس كل الخلق يحضر قلبه في الصلاة من أولها إلى آخرها، وقد جاء في الحديث أنه يكتب له منها ما حضر قلبه فيها، وأن العبد يصلّي الصلاة، فيكتب له نصفها ربعها حتى انتهى إلى عشرِها، ووقف، فهي خمسٌ في حق مَن كتب له عشرها، وعشر في حق مَن كتب له أكثر من ذلك، وخمسون في حق مَن كَمُلت صلاتُه وأدّاها بما يلزمه من تمام خشوعها وكمال سجودها وركوعها.

أوصاف من الملائكة:

فصل: وذكر أنه عليه السلام لم يلقه مَلَكٌ من الملائكة إلا ضاحكًا مستبشرًا إلا مالكًا خازنَ جهنم، وذلك أنه لم يضحك لأحدٍ قبله، ولا هو ضاحك لأحدٍ، ومِصْداق هذا في

قال: قال رسولُ الله ﷺ: «فأقبلت راجعًا، فلما مررت بموسى بن عِمران ونِعْم الصاحبُ كان لكم، سألني كم فُرض عليك من الصلاة؟ فقلت خمسين صلاة كلّ يوم؛ فقال: إن الصلاة ثقيلة، وإن أُمتك ضعيفة، فارجع إلى ربّك، فاسأله أن يخفِّف عنك

كتاب الله تعالى، قال الله سبحانه: ﴿عليها ملائكةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦٠] وهم موكلون بغضب الله تعالى فالغضب لا يزايلهم أبدًا، وفي هذا الحديث معارضة للحديث الذي في صفة ميكائيل أنه ما ضَحِك منذ خلق الله جهنم، وكذلك يعارضه ما خرَّج الدَّارَقُطْنِيُّ أن رسول الله - ﷺ - تبسم في الصلاة، فلما انصرف سُئِل عن ذلك، فقال: «رأيت ميكائيلَ راجعًا من طلب القوم، على جناحيه الغبارُ فضحِك إليَّ، فتبسمت إليه»[1] وإذا صحّ الحديثان، فوجه الجمع بينهما: أن يكون لم يضحك منذ خلق الله النار إلى هذه المدة التي ضحك فيها لرسول الله - ﷺ - فيكون الحديثُ عامًّا يُراد به الخصوص، أو يكون الحديث الأول حدَّث به رسولُ الله - ﷺ - قبل هذا الحديث الأخير ثم حدّث بعدُ بما حَدَّث به من ضَحِكِهِ إليه، والله أعلم ولَم يَرَ مالكًا على الصورة التي يراه عليها المعذبون في الآخرة، ولو رآه على تلك الصورة ما استطاع أن ينظر إليه.

أكلة الربا في رؤيا المعراج:

وذكر أَكَلَة الرِّبا وأنهم بسبيل آلِ فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة، وهي العِطاش، والْهُيَام: شدة العطش، وكان قياس هذا الوصف ألاّ يقال فيه مَهْيومة، كما لا يقال معطوشة، إنما يقال هائم وَهيْمان، وقد يقال: هُيُومٌ ويجمع على هيم، ووزنه فعل بالضم لكن كُسِر من أجل الياء كما قال تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥] ولكن جاء في الحديث مَهْيُومة، كأنه شيء فعل بها كالْمَحْمُومة والْمجنُونة وكَالْمنْهُوم، وهو الذي لا يَشْبع وكَان قياس الياء أن تعتل، فيقال: مَهِيمة، كما يقال: مَبِيعة في معنى مَبْيُوعة، ولكن صحّت الياء، لأنها في معنى الهيومة كما صحَّت الواو في عور لأنه في معنى أعور، كما صحّت في اجْتَوَرُوا لأنه في معنى: تَجَاوَرُوا، وإنما رآهم منْتَفِخَةً بطونُهم؛ لأن العقوبة مُشَاكِلةٌ للذنب، فآكل الربَا يَرْبو بطنُه، كما أراد أن يرْبُو مالُه بأكل ما حُرِّم عليه، فَمُحِقَت البركَةُ من ماله، وجُعِلت نَفْخًا في بطنه، حتى يقومَ كما يقومُ الذي يتخبَّطه الشيطانُ من الْمَسِّ، وإنما جُعِلوا بطريق آل فرعون يمرون عليهم غُدُوًّا وعَشِيًّا لأن آلَ فرعون هم أشد الناس عذابًا يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. فَخصُّوا بسبيلِهم، ليعلَم أن الذين هم أشدّ الناس عذابًا يطئونهم فضلاً عن غيرهم من الكفار، وهم لا يستطيعون القيامَ،

---

(١) «إسناده ضعيف». أخرجه الدارقطني (١/ ١٧٥) بتحقيقي. وفيه الوازع بن نافع: ضعيف.

وعن أُمتك. فرجعتُ فسألت ربّي أن يخفّف عنّي، وعن أُمتي، فوضع عني عشرًا. ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لي مثلَ ذلك، فرجعت فسألت ربّي، فوضع عنّي عشرًا. ثم انصرفت، فمررت على موسى، فقال لي مثل ذلك، فرجعت فسألته فوضع

ومعنى كونهم في طريق جهنم بحيثُ يُمَرُّ بالكفار عليهم، أن الله سبحانه قد أوقف أمرَهم بين أن ينتهوا، فيكون خيرًا لهم، وبين أن يعودوا ويصرّوا، فيدخلهم النار، وهذه صفةُ مَنْ هو في طريق النار قال الله تعالى: ﴿فمَن جاءَه مَوْعِظَةٌ من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله﴾ [البقرة: ٢٧٥]. إلى آخر الآية وفي بعض المسنَدات أنه رأى بطونَهم كالبيوت، يعني: آكَلَةَ الرِّبا، وفيها حَيّاتٌ ترى خارج البطون. فإن قيل: هذه الأحوال التي وصفها عن أَكَلَة الربا إن كانت عبارةً عن حالهم في الآخرة، فآلُ فرعون في الآخرة قد أُدْخِلوا أشدَّ العذاب، وإنما يُعْرَضُون على النارِ غُدُوًّا وعَشيًّا في الْبَرْزَخ، وإن كانت هذه الحالُ التي رآهم عليها في البَرْزَخ، فأيّ بُطون لهم، وقد صاروا عِظامًا ورفاتًا، ومُزِّقوا كُلَّ مُمَزَّقٍ فالجواب أنه إنما رآهم في البرزخ، لأنه حديثٌ عما رأى، وهذه الحال هي حال أرواحهم بعد الموت، وفيها تصحيح لمَن قال: الأرواحُ أجسادٌ لطيفة قابلة للنعيم والعذاب، فيخلق الله في تلك الأرواح من الآلام ما يجده مَنْ انتفخ بطنُه حتى وُطِيء بالأقدام، ولا يستطيع مِنْ قيامٍ، وليس في هذا الحديث دليلٌ على أنهم أشد عذابًا من آلِ فرعونَ، ولكن فيه دليل على أنهم يَطَؤُهم آلُ فرعون وغيرهم من الكفار الذين لم يأكلوا الرِّبا ما داموا في البرزخ إلى إن يقوموا يوم القيامة، كما يقوم الذي يتخبَّطه الشيطانُ من الْمَسِّ، ثم ينادي منادِي الله ﴿أَدْخِلُوا آل فِرْعَوْن أشدَّ العذاب﴾ [غافر: ٤٦] وكذلك ما رأى من النساء الْمُعَلَّقات بثديهنّ يجوز أن يكون رأى أرواحَهُنّ، وقد خُلق فيها من الآلام ما يجده مَنْ هذه حالُه، ويحتمل أيضًا أن يكون مُثِّلَت له حالهنّ في الآخرة، وذكر الذينَ يدَعُون ما أحلّ اللَّهُ من نسائهم، ويأتون ما حرم عليهم، وهذا نص على تحريم إتيان النساء في أعجازهنّ، وقد قام الدليل على تحريمه من الكتاب والسُّنّة والإجماع، وقد ذكرنا المواضع التي يقوم منها التحريم على هذه المسألة من كتاب الله، ومن حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وذكرنا ما جاء في ذلك عن ابن عباس من قوله: هو الكفر، وقول ابن عمر: هي اللُّوطيّة الصغرى، وأما الإجماع، فإن المرأةَ تُرَدُّ بداء الْفَرْج، ولو جازَ وطْؤها في المسلك الآخر ما أجمعوا على رَدِّها بداء الفرج، وقد مهَّدنا الأدلة على هذه المسألة مُفْردة في غير هذا الإملاء بما فيه شفاء والحمد لله.

الولد لغير رشدة:

وقوله: فأكل حرائبهم: الْحَرِيبَةُ: المال، وهو من الحرب، وهو السَّلَبُ، يريد أن الولد إذا كان لغير رِشْدَةٍ نُسب إلى الذي وُلد على فراشه، فيأكل من ماله صغيرًا، وينظر إلى بناته

عنّي عشرًا، ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك، كلما رجعت إليه، قال: فارجعْ فاسأل، حتى انتهيتُ إلى أن وضع ذلك عني، إلا خمس صلوات في كلّ يوم وليلة. ثم رجعت إلى

من غير أمه وإلى أخواته، ولَسْنَ بعَمَّاتٍ له، وإلى أُمِّه وليست بجدَّة له، وهذا فساد كبير، وإنما قدّم ذكر الأكل من حَرِيبته وماله قبل الاطّلاع على عَوْراته، وإن كان الاطّلاعُ على الْعَوْرَاتِ أشنع، لأن نفقته عليه أول من حال صغره، ثم قد يبلغ حدّ الاطّلاع على عَوْراته، أو لا يبلغ، وأيضًا فإن الأُم أرضعته بلبانها، ولم تدفعه إلى مرضعة كان الزَّوْجُ أبًا له من الرضاعة، وكان حكمه حكم الابن من الرضاعة، وفي ذلك نقصان من الشناعة، فإن بلغ الصَّبِي، وتابت الأُم، وأعلمته أنه لغير رِشْدَة ليستعفَّ عن ميراثهم، ويكفّ عن الاطّلاَع على عَوْراتهم، أو علم ذلك بقَرينةِ حالٍ وجب عليه ذلك وإن كان شرُّ الثلاثة كما جاء في الحديث في ابن الزّنا، وقد تُؤُوّلَ حديثُ شَرّ الثلاثة على وُجوهٍ، هذا أقربها إلى الصواب، لقوله عليه السلام: أَكَلَ حَرائِبَهم، واطَّلَع على عَوْراتهم، ومَن فعل هذا عن عَمْدٍ وقصد فهو شرّ الناس، وإن لم يعلم فأكلُه واطلاعُه شرُّ عمل، وأبواه حين زَنَيا فارقا ذلك العمل الخبيث لحينهما والابن في عمل خبيثٍ من مَنْشَئِه إلى وفاته، فعملُه شَرُّ عمل.

حكم الحاكم لا يحلّ الحرام:

وفي هذا الحديث من الفقه أيضًا أن حكم الحاكم لا يُحلُّ حرامًا، وذلك أن الولد في حكم الشريعة للفِراش إلا أن يُنْفَى باللِّعَان، فإذا حكَم الحاكم بهذا، وعلم الولدُ عند بلوغه خلاَفَ ما حكم به الحاكم لم يحلّ له بهذا الحكم ما حَرَّم الله عليه من أكل الحرائب والاطّلاع على العورات، وفي هذَا ردٌّ لمذهب أبي حنيفة من قوله: إن حكم الحاكم قد يحلّ ما يعلَم أنه حرام مثل أن يشهد شاهدان على رجل أنه طلّق، وهما يعلمان أنه لم يطلق فيقبل القاضي شهادتهما فيطلق المرأة على الرجل، فإذا بانَتْ منه كان لأحد الشاهدين أن يَنْكِحَها مع علمه بأنه قد شَهِد زُورًا، لم يقل أبو حنيفة بهذا القول في الأموال لقول النبي عليه السلام: «إنما أنا بَشَرٌ وإنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ أَحَدَكُم أن يكون أَلْحَنَ بحُجَّتِه من صاحبه، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمَن قَضَيْتُ له بشَيءٍ من حَقّ أخيه، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطْعةً من النار»[1] ففي هذا الحديث مع الذي تقدَّمَ ردٌّ لمذهبه، ولا حجة له في أن يقول ذلك مخصوص بالأموال من وجهين: أحدهما: أن القياسَ أصل من أُصوله، وقياس المسألتين واحد، الثاني: أنه قال من حق أخيه، ولم يقل من مال أخيه، وهذا لفظ يعمّ الحقوق كلها قال المؤلف: وعندي أن أبا حنيفة رحمه الله: إنما بنى

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٩/ ٣٢) ومسلم في الأقضية (٥) ومالك (٧١٩).

موسى، فقال لي مثل ذلك، فقلت: قد راجعتُ ربي وسألته، حتى استحييتُ منه، فما أنا بفاعل»، رواه البيهقي في كتاب دلائل النبوّة وابن جرير وابن أبي حاتم.

هذه المسألة على أصله في طلاق الْمُكْرَه، فإنه عنده لازم فإذا أكره الرجلُ على الطلاق، وقلنا يلزم الطلاق له، فقد حرمت المرأة عليه، وإذا حرمت عليه جاز أن ينكحها مَن شاء فالإثم إنما تعلّق في هذا المذهب بالشهادة دون النكاح، وقد خالفه فقهاءُ الحجاز في طلاق المكرَه، وقولهم يعضده الأثر، وقول أبي حنيفة يعضده النظر، والخوض في هذه المسألة يصدُّنا عمّا نحن بسبيله.

مكان إدريس:

فصل: وذكره لإدريس في السماء الرابعة مع قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، مع أنه قد رأى موسى وإبراهيم في مكان أعلى من مكان إدريس فذلك والله أعلم لما ذكر عن كعب الأحبار أن إدريس خصّ من جميع الأنبياء أن رفع قبل وفاته إلى السماء الرابعة، ورفعه ملَكٌ كان صديقًا له، وهو الملَك الموكَّل بالشمس فيما ذكر، وكان إدريس سأله أن يُريه الجنة، فأذِنَ له الله في ذلك، فلما كان في السماء الرابعة رآه هنالك ملَكُ الموت، فعجب، وقال أُمِرتُ أن أقبِض روحَ إدريس الساعة في السماء الرابعة، فقبضه هنالك، فرفعه حيًا إلى ذلك المكان العليّ خاصٌ له دون الأنبياء[1].

قول الأنبياء في كل سماء:

فصل: وذكر من قول الأنبياء له في كل سماء: مَرْحَبًا بالأخ الصالح، وقول آدم وإبراهيم: بالابن الصالح وقد ذكرنا في أول هذا الكتاب حُجّةً لمَن قال: إن إدريسَ ليس بجدٍّ لنُوحٍ، ولا هو من آباء رسولِ الله ـ ﷺ ـ لأنه قال مَرْحَبًا بالأخ الصالح، ولم يقل: بالابن الصالح.

خرافة طلب موسى أن يكون من أمة أحمد:

وأما اعتناءُ موسى ـ عليه السلام ـ بهذه الأُمَّة وإلْحاحُه على نبيّها أن يشفع لها، ويَسأل التخفيفَ عنها، فلقوله ـ والله أعلم ـ حين قُضِيَ إليه الأمرُ بجَانِبِ الْغَربيِّ، ورأى صفات أُمة محمد عليه السلام في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أُمَّةً صفتُهم كذا، اللَّهمَّ

---

(١) «ضعيف». وتقدم التنبيه على ما ينقله ابن وهب وكعب الأحبار من كتب أهل الكتاب، وكما ورد في الصحيح أنه إذا حدّثنا أهل الكتاب بشيء فلا نصدقهم ولا نكذبهم، وكله تحت قاعدة «ما وافق القرآن وما خالفه».

فمَن أدّاهنّ منكم إيمانًا بهنّ، واحتسابًا لهنّ، كان له أجْرُ خمسين صلاة مكتوبة. رواه. وفي الحديث غرابة ونكارة.

اجعلهم أُمتي، فيقال له: تلك أُمة أحمد، وهو حديث مشهور[1]، فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم مَنْ هُو منهم، لقوله: اللَّهمَّ اجْعَلْني منهم، والله أعلم.

بعض ما رأى:

ومما جاء في حديث الإسراء مما لم يذكره ابن إسحٰق في مُسْند الحارث بن أبي أُسامة أنه ـ عليه السلام ـ ناداه مُنادٍ، وهو على ظهر البُراق: يا محمد، فلم يعرج عليه، ثم ناداه آخر: يا محمد يا محمد ثلاثًا، فلم يعرج عليه، ثم لقيته امرأة عليها من كُلِّ زينة ناشرةً يديها، تقول: يا محمد يا محمد، حتى تَغَشَّته، فلم يعرج عليها، ثم سأل جبريلَ عمّا رأى، فأخبره، فقال: أما المنادي الأول، فداعي اليهود لو أجبْته لَتَهَوَّدَت أُمتك، وأما الآخر فداعي النصارى، ولو أجَبتَه لَتَنَصَّرتْ أُمتك، وأما المرأة التي كان عليها من كل زينة، فإنها الدنيا لو أجَبْتَهَا لآثرتَ الدنيا على الآخرة[2].

---

(١) حديث باطل لا يصح. وكيف لموسى عليه السلام أن يختار غير ما اختار الله تعالى له.

(٢) تقدم أن هذه المشاهد أخرجها البيهقي في الدلائل، وفيها نكارة، وهي منتشرة بين الناس من الحديث المنسوب إلى ابن عباس في الإسراء، وأخذها الكاتب [لويس عوض] وقال عنها: إنها نص أدبي راقٍ!!! ولكلٍّ وجهة.

كفاية الله أمر المستهزئين

قال ابن إسحٰق: فأقام رسولُ الله ـ ﷺ ـ على أمر الله تعالى صابرًا محتسبًا، مؤدّيًا إلى قومه النصيحة على ما يلقَى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزئين ـ كما حدثني يزيد بن رُومان، عن عُروة بن الزبير خمسةَ نَفَر من قومهم، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم.

من بني أسَد بن عبد العُزى بن قُصَيّ بن كِلاب: الأسودُ بن المطلب بن أسد أبو زَمعة، وكان رسُول الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني ـ قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به، فقال: اللهمّ أغم بصره وأثْكِلْه ولَده.

ومن بني زُهرة بن كلاب: الأسودُ بن عبدِ يَغوث بن وَهْب بن عبد مناف بن زُهرة.

ومن بني مخزوم بن يَقظة بن مُرّة: الوليد بن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ومن بني سَهْم بن عمرو بن هُصَيص بن كَعْب: العاصُ بن وائل بن هشام. قال ابن هشام: العاصُ بن وائل بن هاشم بن سُعَيد بن سَهْم.

عن المستهزئين وملكان[(١)]

فصل: وذكر حديثَ المستهزئين الذين أنزل الله فيهم: ﴿إِنا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئين﴾

(١) انظر الكامل لابن الأثير (١/٥٩٢).

ومن بني خُزاعة: الحارث ابن الطُلاطِلة بن عمرو بن الحارث بن عبد عمرو بن لُؤَي بن مِلْكان.

فلما تمادوا من الشرّ، وأكثروا برسول الله - ﷺ - الاستهزاء، أنزل الله تعالى عليه: ﴿فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ إنَّا كَفَيْناكَ المُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعلون معَ اللّه إلٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٣ - ٩٥].

قال ابن إسحٰق فحدَّثني يزيد بن رُومان، عن عُرْوة بن الزبير، أو غيره من العلماء أن جبريل أتى رسولَ الله - ﷺ - وهم يطوفون بالبيت، فقام، وقام رسولُ الله - ﷺ - إلى جَنْبه فمرّ به الأسودُ بن المطلب، فرمى في وجهه بورقة خضراء، فعَمِيَ، ومرّ به الأسودُ بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى فمات منه حَبَنا. ومرّ به الوليدُ بن المغيرة فأشار إلى أثر جُرح بأسفل كعب رجله، كان أصابه قبل ذلك بسنين، وهو يَجرُّ سَبَله، وذلك أنه مرَّ برجل من خُزاعة، وهو يَريش نَبلا له، فتعلق سهم من نبله بإزاره، فخدش من رجله ذلك الخدشَ، وليس بشيء، فانتقض به، فقتله. ومرّ به العاص بن

[الحجر: ٩٥] وذكر فيهم الحارث ابن الطُّلاَطِلةَ، والطُّلاَطِلَةُ: أُمُّه، قال أبو الوليد الوقّشي، والطُّلاَطِلَةُ في اللغة: الداهية، قال أبو عبيد: كُلُّ داءٍ عُضَال فهو: طُلاطِلَة، وذكر في نسبه عبدَ عمرو بن مِلْكان بالضبطين جميعًا، وفي حاشية كتاب الشيخ الحافظ أبي بحر، قال: قد تقدم من قول ابن حبيب النحوي أن الناس ليس فيهم مَلَكان بفتح الميم إلا مَلَكان بن جَرْم بن زَبَّان بن حُلْوانِ عمْران بن الحَافِ بن قُضَاعَة، ومَلَكَانُ بن عباد بن عِياض بن عُقبة بن السَّكُون بن أشرس، وإخوة عدي هم: تُجِيب عرفوا بأمهم تُجِيب بنت دُهْم بن ثوبان، وهم من كِنْدَة، وكل من في الناس وغيرهما مِلْكان مكسور الميم ساكن اللام، وقال مشايخ خزاعة: في خزاعة مَلَكَانُ بفتح الميم، قال القاضي: يعني ابن حبيب: مَلَكان بن أفْصَى بن حارثة بن ثَعْلَبَة بن عمرو بن عامر، وقال غير ابن حبيبْ كالذي يخرج من عبارته: إن الذي في خُزَاعَة إنما هو مِلْكان بن أَفْصى مثل مِلْكان بن عدي بن عَبد مناة من الرباب الذين منهم ذو الرُّمة الشاعر، ومثل مِلْكان بن عَبْد مناة من الرباب أيضًا رهط سُفْيان بن سَعِيد الثَّوري. وذكر في المستهزئين الأسود بن عَبْد يَغُوث الزهري روى أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاك المُسْتَهْزِئين﴾ [الحجر: ٩٥] نزل جبريل عليه السلام فحنا ظهْرَ الأسود، فقال رسولُ الله ﷺ: خالي خالي، فقال له جبريل: خَلِّ عنك، ثم حناه حتى قتله، ذكره الدَّارَقُطْنِي[١].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٠٨/٤).

وائل، فأشار إلى أخمص رجله، وخرج على حمارٍ له يريد الطائف، فَرَبض به على شُبارقة، فدخلت في أخْمَص رجله شوكةٌ، فقتلتْه ومرّ به الحارث ابن الطُّلاطِلَة، فأشار إلى رأسه، فامتخض قَيْحًا فقتَله[1].

الوليد وأبو أزيهر

قال ابن إسحٰق: فلما حضرت الوليدَ الوفاةُ دعا بنِيهِ، وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد، والوليد بن الوليد، وخالد بن الوليد، فقال لهم: أي بَنِيّ، أوصيكم بثلاث، فلا تُضيِّعوا فيهن: دَمي في خُزاعة، فلا تَطُلُّنَّهُ، والله إني لأعلم أنهم منه بُرآء، ولكني أخْشَى أن تُسَبُّوا به بعد اليوم، ورِباي في ثَقِيف، فلا تدَعوه حتى تأخذوه، وعُقْرى عند أبي أُزَيْهِر، فلا يفوتَنَّكم به. وكان أبو أزَيْهر قد زوّجه بنْتًا، ثم أمسكها عنه فلم يُدخلها عليه حتى مات.

فلما هلك الوليد بن المغيرة، وثبت بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم عقل الوليد، وقالوا: إنما قتله سَهْمُ صاحبكم ـ وكان لبني كعب حِلْف من بني عبد المطلب بن هاشم ـ فأبت عليهم خُزاعة ذلك، حتى تقاولوا أشعارًا، وغَلُظ بينهم

حديث الوليد بن المغيرة

فصل: وذكر وفاةَ الوليد بن المغيرة، وقولَه لبنيه: وعُقْرى عند أبي أُزَيْهِر الدَّوْسِي لا تدعوه العَقْر: دُيَةُ الفَرْجِ المَغْصُوبِ، وأصلُه في البِكْر من أجل التَّدْمِية، ومنه عَقَر السَّرْجُ الفَرَسَ: إذا أدماه، وبَيْضَةُ العُقْرِ منه؛ لأنهم كانوا يقيسون البِكر بالبَيْضَةِ، ليعرفوا بكورتها، وقيل: عُقْر بضم العين، لأنه بمعنى بِضع.

عن مقتل أبي أُزيهر وموقف دوس

وذكر قَتْل هشام بن الوليد لأبي أُزَيْهر وخبرَ أم غَيْلان مع ضِرَار حين أجارته، ومن تمام الخبر: أن دَوْسا لماَ بلغها مقتلُ أبي أُزيهر الدوسي، وثبت على رجال من قريش كانوا عندهم، فقتلوا منهم بجير بن العَوَّام أخا الزُّبَيْر، وأرادوا قتلَ ضِرارِ بن الخطاب، فأجَارَته أمُّ غَيْلاَن وابنُها عوف، قالَ ضرار: لقد أدخلتني بين درعها وبدنها، حتى إني لأجد تَسْبِيدَ رُكَبها، والتَّسْبِيد: موضع الحَلْق من الشعر، وكان الذي قتل بُجَيْرًا صبيحُ بن سعد أو مَلِيح بن سَعْد جد أبي هُرَيْرَة لأمه؛ لأن أمَّه أميمة بنتَ مَلِيح أو صبيح.

---

(١) السابق.

الأمر ـ وكان الذي أصاب الوليدَ سهمُه رجلاً من بني كعب بن عمرو من خزاعة ـ فقال عبدُ الله بن أبي أُمَيَّة بن المُغِيرة بن عبد الله بن عمر بن مُخْزوم:

إني زَعيم أن تَسيرُوا، فتَهْربُوا ... وأن تتركوا الظَّهْرَانَ تَعْوي ثعالِبُه

وأن تتركوا ماءً بجِزْعِة أَطْرِقا ... وأن تسألوا: أيّ الأراك أطايبه؟

فإنَّا أناسٌ لا تُطَلّ دماؤُنا ... ولا يَتعالى صاعدًا مَنْ نحاربه

وكانت الظَّهْران والأراك منازلَ بني كَعْب، من خُزاعة. فأجابه الجَوْنُ بن أبي الجَوْن: أخو بني كعب بن عَمْرو الخُزاعيّ، فقال:

والله لا نُؤْتِي الوليدَ ظُلامةً ... ولمَّا قَرَوْا يومًا تزول كَواكِبُهْ

ويَصْرَعُ منكم مُسْمِنٌ بعد مُسْمِن ... وتُفْتَح بعد الموْت قَسْرًا مَشاربه

إذا ما أكلتم خُبزكم وخَزِيرَكم ... فكلُّكم باكي الوليدِ ونادبه

ثم إن الناسَ ترادّوا وعَرَفوا أنما يَخْشَى القومُ السُّبة، فأعطتهم خزاعةُ بعض العَقْل، وانصرفوا عن بعض. فلمَّا اصطلح القومْ قال الجَوْن بن أبي الجَوْن:

عن أطرقا ومن أحكامه أن:

فصل: وذكر شعر عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة وفيه:

وأن تتركوا ماءً بِجِزْعَةِ أَطْرِقا

والجَزْعَةُ والجَزْعُ بمعنى واحد[1]، وهو معظم الوادي، وقال ابن الأعرابي: هو ما انثنى منه، وأَطْرِقا اسم عَلَم لموضع[2] سمي بفعل الأمر للاثنين، فهو مَحْكِيٌّ لا يُعْرَبُ، وقيل: إن أصل تسميته بذلك أن ثلاثةَ نفر مرّوا بها خائفين، فسمع أحدهم صوتًا، فقال لصاحبيه: أَطْرِقا، أي: أَنْصتا، حتى نرى ما هذا الصوت، فسمي المكان بأَطْرِقا، والله أعلم. وذكَر شِعْر الجَوْنِ بن أبي الجَوْن، وفيه:

---

(١) جزع: الجيم والزاء والعين أصلان: أحدهما الانقطاع، والآخر: جوهر من الجواهر. فأما الأول فيقولون: جَزَعْتُ الرملة إذا قطعتها؛ رمته: جِزعُ الوادي، وهو الموضع الذي يقطعه من أحد جانبيه إلى الجانب؛ ويقال: هو منعطفه، والجَزع: نقيض الصبر، وأما الآخر فالجزَع وهو الخرز المعروف. انظر مقاييس اللغة (١/ ٤٥٣). اللسان (٨/ ٤٧).

(٢) اسم موضع بنواص مكة.

وقائلةٍ لمَّا اصطلحنا تَعَجُّبا ... لِما قد حَمَلْنا للوليد وقائلِ

ألم تُقسموا تُؤتوا الوليدَ ظُلامةً ... ولمَّا تَروا يومًا كثيرَ البَلابلِ

فنحن خَلطنا الحربَ بالسِّلم فاستوت ... فأمَّ هواه آمنا كل راحلِ

ثم لم ينْته الجَوْنُ بن أبي الجَوْن حتى افتخر بقَتْل الوليد، وذكر أنهم أصابوه، وكان ذلك باطلاً. فلحق بالوليد وبوَلده وقَوْمه من ذلك ما حَذره.

فقال الجَوْن بن أبي الجَوْن:

ألا زَعَم المُغيرة أنْ كَعْبا ... بمكَّة منهمُ قَدْرٌ كَثِيرُ

ألم تُقسِموا تُؤتوا الوليد ظُلامَةً

أراد: أن تؤتوا، ومعناه: أن لاَ تُؤتوا كما جاء في التنزيل: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم أن تضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] في قول طائفة، ومعناه عندي: كره لكم أن تَضِلُّوا، وقد قدمنا في الجزء قبل هذا كلام على أن، ومقتضاها وشيئًا من أسرارها فيه غنية، وإذا كان الكلامُ محمولاً على معناه فالنصب جائزٌ، والرَّفع جائز أيضًا، كما أنشدوا[(١)]:

ألا أيُّهذا الزَّاجِرِي أحْضُرَ الوَغى

بنصب: أحضُرَ ورفعه، وأنشد سِيبَوَيْه:

ونَهْنَهْتُ نِفْسي بعدما كِدْتُ أَفْعَلَه[(٢)]

يريد: أن أفعلَه، وإذا رفعت في هذا الموضع لم يُذْهِب الرفعُ معنى أن فقد حكى سيبويه: مره يحفرها، وقدره تقديرين، أحدهما: أن يريدَ الحال أي: مُرْه حافرًا لها، والثاني: أن يريد: مُرْه أن يحفرَها، وارتفع الفعل لما ذهبت أن من اللفظ، وبَيَّن ابنُ جني الفرقَ بين التقديرين، وقال: إذا نويت أن فالفعلُ مستقبل، وإذا لم تَنْوِها فالفعل حاضر، وههُنا مسألةٌ من العرب ذكرها الطبري، قال: العرب تقول لمن توجه في أمر: تصنع ماذا وتفعل؟ ماذا على تقدير: تريد أن تصنع ماذا، فإذا قالوا: تريد ماذا لم يكن إلا رفعًا، لأن المعنى الذي يجلب معنى أن الناصبة ليس في قوله: تريد؛ إذ لا يستقيم أن تقول: تريد أن تريد ماذا، يعني: أن الإرادة لا تراد.

---

(١) صاحب البيت هو: طرفة بن العبد: وفيه: ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى. والوغى أصله الصوت والجلبة ثم كنى به عن الحرب. انظر القصائد العشر للخطيب التبريزي (١٠٣).

(٢) انظر الكتاب لسيبويه (١/ ١٥٥).

فلا تَفخر مُغيرةُ أنْ تراها ... بها يَمْشي المُعَلْهَج والمَهِير

بِها آباؤنا، وبها وُلِدْنا ... كما أرْسَى بِمَثْبَتِه ثَبِيرُ

وما قال المُغيرة ذلك إلا ... لِيَعْلم شأنَنا أوْ يَسْتَثِير

فإنَّ دمَ الوليد يُطَلّ إنَّا ... نَطُلّ دِماءً أنت بها خبيرُ

كساهُ الفاتِكُ المَيمونُ سَمْهما ... زُعافا وهو ممتلئٌ بَهِيرُ

شعر الجون:

وذكر شعر الجَوْن أيضًا، وفيه:

بها يمشي المُعَلْهَجُ والمَهِيرُ

المهير[1]: ابن المهورة الحُرَّة والمُعَلْهَجُ[2]: المتردد في الإماء كأنه منحوت من أصلين: من العِلْج لأن الأمة: عِلْجَة، ومن اللَّهَج، كأن وَاطِىءَ الأَمَةِ قد لَهِجَ بها، فَنُحِتَ لفظِ المُعَلْهَج من هذين اللفظين[3].

وفيه:

كما أرْسَى بِمَثْبَتِه ثَبِيرُ

كذا صحت الرواية في أرسى بالتخفيف وهو زِحاف داخلٌ على زحاف؛ لأن تسكينَ اللام مِن مُفَاعَلْتُن في الوافر زِحاف، ولكنه حَسَنٌ كثير، فلما كثر شَبَّهه هذَا الشاعرُ بمفاعيل؛ لأنه على وزنه، ومَفَاعِيلُنْ يَحْسُن حذفُ الياء منها في الطويل، فيصير فعُولن مَنَاعِلُن فلذلك أَدَخَل هذا الشاعرُ الزحافَ على مُفَاعَلْتُن لأنه بعد السكون في وزن مفاعيلن التي تحذف ياؤها حذفًا مستحسنًا، فتدبره، فإنه مليح في علم العروض.

---

(١) المهير: الحرة والمهائر الحرائر. اللسان (٥/ ١٨٦).

(٢) المعلهج: الدَّعي. والمعلهج: الذي ولد من جنسين مختلفين. وقال ابن سيده: المعلهج: الذي ليس بخالص النسب. اللسان (٢/ ٣٢٨).

(٣) علج: العين واللام والجيم: أصل صحيح يدل على تحرس ومزاولة في جفاء وغلظ. من ذلك: العلج: وهو حمار الوحش، ربه يشبه الرجل الأعجمي. وقال الخليل: سمي علجًا لاستعلاج خَلْفِهِ وهو غِلظُه. والعلج: الشديد من الرجال. وحكوا: أرض معتلجة: وهي التي تراكب نيتها وطال ودخل بعضه في بعض. مقاييس اللغة (٤/ ١٢١). والعلج: الرجل من كفار العجم، والأنثى علجة. اللسان (٢/ ٣٢٦) واللهيج: قالوا: لهيج الأمر لهجًا ولهوج وألهج كلاهما: أولع به واعتاده. واللهج بالشيء: الولوع به. اللسان (٢/ ٣٥٩).

فخَرّ ببطن مَكّة مُسْلَحِبًّا ... كأنّهُ عند وجَبْته بَعير

سيَكْفيني مِطالَ أبي هشام ... صغارٌ جَعْدةُ الأوبار خُور

قال ابن هشام: تركنا منها بيتًا واحدًا أقذع فيه.

ثورة لمقتل أبي أزيهر:

قال ابن إسحٰق: ثم عدا هشامُ بن الوليد على أبي أُزَيْهر، وهو بسُوق ذي المَجَاز، وكان عند أبي سُفيان بن حَرْب بنت أُزَيهر، وكان أبو أُزَيهر رجلاً شريفًا فِي قومه ـ فقتله بعُقْر الوليد الذي كان عنده، لوصيّة أبيه إيَّاه، وذلك بعد أن هاجر رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة ومضى بدرٌ، وأُصيب به مَنْ أُصيب من أشراف قُرَيش من المشركين؛ فخرج يَزيد بنُ أبي سُفيان، فجمع بَني عبد مناف، وأبو سفيان بذي المَجاز، فقال الناس: أُخْفِرُ أبو سفيان في صهْره، فهو ثائر به، فلمّا سمع أبو سفيان بالذي صَنع ابنُه يزيد ـ وكان أبو سفيان رجلاً حليمًا مُنكرًا، يحبّ قومه حبًا شديدًا ـ انحطّ سريعًا إلى مكة، وخشي أن يكون بين قريش حَدَثٌ في أبي أُزَيهر، فأتى ابنَه وهو في الحديد، في قَوْمه من بني عَبْد مناف والمطيِّبين، فأخذ الرمحَ من يده، ثم ضرب به على رأسه ضربةً هدَّه منها، ثم قال له؛ قبَّحك الله! أتريد أن تضرب قُرَيشًا بعضَهم ببعض في رجل من دَوْس. سَنُؤتيهم العَقْل إن قَباوه، وأطْفأ ذلك الأمرَ.

فانبعث حسَّان بن ثابت يُحَرّض في دَم أبي أُزَيهر، ويعيِّر أبا سفيان خُفْرَته ويُجْبِنه، فقال:

غدا أهلُ ضَوْجَيْ ذي المجاز كِلَيهما ... وجارَ ابن حَرْب بالغَمَّس ما يغدو

ولم يمنع العيْرُ الضَّروطُ ذِمارَه ... وما منعت مخزَاةَ والِدِها هِنْد

كساكَ هشامُ بنُ الوَليدِ ثيابَهُ ... فأبْلِ وأخْلِفْ مثلَها جُدُدًا بعدُ

قَضَى وَطَرًا منه فأصْبح ماجدًا ... وأصبحتَ رخوًا ما تخبُّ وما تغدُو

من أسواق العرب:

فصل: وأنشد لحسَّانِ بن ثابت:

غدا أهلُ ضَوْجَيْ ذي المجاز بسُحْرَةٍ

ضَوْجُ الوادي: جانبه، وذو المجاز: سوقٌ عند عَرَفَةَ كانت العربُ إذا حَجَّت أقامت بسوق عكاظِ شهرَ شَوَّالٍ، ثم تنتقل إلى سوق مَجَنَّة فتقيم فيه عشرين يومًا من ذي القَعْدَة، ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج، وكانوا يتفاخرون في سوق عكاظ

فلو أنَّ أشياخًا ببدرٍ تَشاهدوا لَبَلَّ نعالَ القوم مُعْتَبِطٌ وَرْد

فلما بلغ أبا سُفيان قولُ حسَّان قال: يريد حَسان أن يَضْرب بعضَنا ببعض في رجل من دَوس! بئس والله ما ظنّ!

آية الربا من البقرة

ولما أسلم أهلُ الطَّائف كلَّم رسولَ الله ﷺ خالدُ بن الوليد في ربا الوليد، الذي كان في ثقيف، لما كان أبوه أوصاه به.

قال ابن إسحٰق: فذكر لي بعضُ أهل العلم أن هؤلاء الآيات من تحريم ما بَقي من الربا بأيدي الناس نزلن في ذلك من طلب خالد الرّبا: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] إلى آخر القصة فيها.

شهر شوال إذا اجتمعوا، ويقال: عَكَظَ الرجلُ صاحبَه إذا فاخره وغَلَبَه بالمفاخرة، فسُميت عُكَاظ لذلك[١].

وذكـــر:

لَبَلَّ نِعالَ القوم مُعْتَبِطٌ وَرْدُ

يعني: الدَّمَ العَبِيطَ[٢].

ما أنزل الله في الربا

فصل: وذكر ما أنزل الله في الربا الآيات من سورة البقرة، وقد قدمنا في حديث بنيان الكعبة من قولهم: لا تنفقوا فيها رِبًا ولا مَهْرَ بغِيٍّ، وأن في ذلك دليلاً على قِدَم تحريمه عليهم في شرح إبراهيمَ عليه السلام، أو في غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك أنَّه من أقبح الأعمالِ لما فيه من هَدْم جانب المروءة، وإيثار الحرص مع بعد الأمل، ونسيان بَغْتة الأجل، وترك التوسعة وحسن المعاملة، ومن تأمل أبوابَ الرِّبا لاح له شر التحريم من جهة الجَشْعَ المانع من حسن المعاشرة والذَّريعة إلى ترك القَرْض، وما فيه، وفي التوسعة من مكارم الأخلاق، ولذلك قال سبحانه: ﴿فإن لم تفعَلوا فأْذَنُوا بِحَرْبٍ من الله

---

(١) عكاظ: عكظ دابته يعكظها عكظًا: حبسها، وتعكظ القوم تعكظًا إذا تحيَّسوا لينظروا في أمورهم. وعكاظ: سوق للعرب كانوا يتعاكظون فيها؛ قال الليث: سميت عكاظًا لأن العرب كانت تجتمع فيها يتعكظ بعضهم بعضًا بالمفاخرة، اللسان (٧/ ٤٤٧).

(٢) العبيط: الطري من كل شيء. مقاييس اللغة (٤/ ٢١١). اللسان (٧/ ٣٤٧).

الهمّ بأخذ ثأر أبي أزيهر:

ولم يكن في أبي أُزَيهر ثأرٌ نعلمه، حتى حَجَز الإسلامُ بين الناس، إلا أن ضِرار بن الخطَّاب بن مِرْداس الفِهْري خَرج في نَفَر من قُرَيش إلى أرض دَوْس، فنزلوا على امرأة يقال لها أُمّ غَيْلان، مولاة لدَوْس، وكانت تَمْشُط النِّساء، وتجهِّز العرائس، فأرادت دَوْس قتلَهم بأبي أُزَيهر، فقامت دونهم أُمُّ غيلان ونسوةٌ معهم، حتى منعتهم، فقال ضرار بن الخطاب في ذلك:

جَزَى الله عنَّا أُمَّ غَيْلان صالحا ... ونسوَتها إذ هُنَّ شُعْثٌ عَواطلُ[1]

فهنّ دَفَعن الموتَ بعد اقترابه ... وقد بَرَزَتْ للثَّائرين المَقاتل

دعتْ دعوةً دَوْسا فسالت شِعابها ... بعزّ وأدّتها الشِّراجِ[2] القَوابل[3]

وَعمْرًا جَزاه الله خيرًا فَمَا وَنى[4] ... وما بردتْ منه لديّ المَفاصِل

فجرّدتُ سَيْفي ثم قمتُ بنَصْله ... وعن أيّ نَفْس بعد نفسي أقاتل

عمل أُم غيلان:

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة: أن التي قامت دون ضِرار أُمُّ جميل، ويقال: أُمّ غَيلان، قال: ويجوز أن تكونَ أُمُّ غَيلان قامت مع أُمِّ جميل فيمن قام دونه.

فلما قام عمرُ بن الخطَّاب أتته أُمُّ جميل، وهي تُرى أنه أخوه: فلما انتسبت له عرف القِصّة، فقال: إني لستُ بأخيه إلا في الإسلام، وهو غاز، وقد عرفتُ مِنَّتَك عليه، فأعطاها على أنها ابنة سَبيل.

ورسوله﴾ [البقرة: ٢٧٩]. غضبًا منه على أهله، ولهذه النُّكْتة قالت عائشة لأمُّ محبة مولاة زيد بن أرقم: أبلِغي زيدًا تعني زَيْدَ بن أرقم أن قد أَبْطَلَ جهادَه مع رسول الله - ﷺ - حين ذكرت لها عنه مسألةً من البيوع تشبه الربا، فقالت: أبْطَلَ جهادَه، ولم تقل صَلاتَه ولا صيامه، لأن السيئات لا تُحْبَط الحَسَناتِ، ولكن خصَّت الجهادَ بالإبطال، لأنه حرب لأعداء الله، وآكلُ الربا قد أذن بحربٍ من الله، فهو ضده، ولا يجتمع الضدان، وهذا معنًى ذكره أبو الحسن بن بطال في شرح الجامع، وتلك المسألة مذكورة في المُدَوَّنة، لكن إسنادُها إلى عائشة ضعيف.

---

(١) أي ليس لهن حلي.
(٢) الشراج: جمع شرج: وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل.
(٣) أي المتقابلات.
(٤) الونى: الضعف.

قال الراوي: قال ابن هشام: وكانَ ضِرار لحق عمرَ بن الخطاب يوم أحد، فجعل يَضْربه بعَرض الرمح، ويقول: انجُ يابن الخطَّاب لا أقتلك، فكان عمر يعرفها له بعد إسلامه.

من المؤذين لرسول الله:

قال ابن إسحٰق: وكان النَّفَر يؤْذون رسولَ الله ﷺ في بيته أبا لَهَب، والحَكَم بن العاص بن أُمَيَّة، وعُقْبَة بن أبي مُعَيط، وعديّ بنْ حَمراء الثَّقفيّ، وابنَ الأَصْداء الهُذليّ، وكانوا جِيرانه لم يُسْلم منهم أحد إلا الحَكَمَ بن أبي العاص، فكان أحدهم ـ فيما ذكر لي ـ يطرح عليه ﷺ رَحمَ الشاة وهو يُصَلّي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمته إذا نُصبت له. حتى اتخذ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حجْرًا يستتر به منهم إذا صلى، فكان رسولُ الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى، كما حدثني عمرُ بن عبد الله بن عُروة بن الزبير، عن عُروة بن الزبير، يخرج به رسولُ الله ﷺ على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: يا بَني عبد مناف، أيّ جوارِ هذا! ثم يُلقيه في الطريق.

ما عاناه الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة[1]:

قال ابن إسحٰق: ثم إن خديجة بنت خُويلد وأبا طالب هَلَكا في عام واحد، فتتابعت على رسولِ الله ﷺ المصائبُ بهُلْك خَديجة، وكانت له وَزِيرَ صِدْق على الإسلام، يشكو إليها، وبهُلْك عمّه أبي طالب، وكان له عضدًا وحِرْزًا في أمره، ومَنَعَة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين. فلما هلك أبو طالب، نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تَطْمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سَفِيهٌ من سُفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا.

قال ابن إسحٰق: فحدثني هشام بن عُروة، عن أبيه عروة بن الزبير، قال: لما نثر ذلك السفيهُ على رأس رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك الترابَ دخل رسولُ الله ﷺ بيتَه والترابُ على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه الترابَ وهي تبكي، ورسول

....

(١) انظر طبقات ابن سعد (١/١٢٢) البداية والنهاية (٣/١٢٢) السيرة الحلبية (١/٤٦٦) المنتظم (٣/٧) الكامل (١/٦٠٦) السيرة الشامية (٢/٥٦٣) الدلائل للبيهقي (٢/٣٥١) النويري (١٦/٢٧٧).

الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بُنيَّة، فإن الله مانعٌ أباك. قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه، حتى مات أبو طالب[1].

ما حدث بين النبي ﷺ وبين أبي طالب والمشركين

قال ابن إسحٰق: ولما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثِقَلُه، قالت قريش بعضها لبعض: إن حَمْزة وعمر، قد أسْلما وقد فشا أمرُ محمّد في قبائل قُريش كلها، فانطلِقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، ولْيُعطِه منَّا، والله ما نأمن أن يَبْتَزُّونا أمرنا.

قال ابن إسحٰق: فحدثني العبَّاسُ بن عبد الله بن مَعْبد عن بعض أهله، عن ابن عبَّاس، قال: مَشَوْا إلى أبي طالب فكلَّموه، وهم أشراف قومه: عُتبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأُميَّة بن خَلف، وأبو سفيان بن حَرْب، في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منَّا حيث قد علمتَ، وقد حَضَرَك ما ترى، وتخوّفْنا عليك، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعُه، فخُذْ له منَّا، وخُذْ لنا منه، ليكفَّ عنا، ونكفّ عنه، وليدعنَا وديننا، وندعه ودينَه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي: هؤلاء أشرافُ قومك، قد اجتمعوا لك، ليُعطوك، وليأخذوا منك. قال: فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمة واحدة تُعطونيها تملكون بها العرب، وتَدين لكم بها العجم. قال: فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: تقولون: لا إلـٰه إلا الله، وتَخْلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفَّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمّد أن تجعل الآلهةَ إلـٰهًا واحدًا. إنّ أمرك لعَجب: ثم قال بعضُهم لبعض: إنّه والله ما هذا الرجل بِمُعْطيكم شيئًا ممّا تُريدون فانطلِقوا، وامْضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. قال: ثم تفرّقوا.

الرسول يرجو أن يسلم أبو طالب

فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي، ما رأيتُك سألتَهم شَطَطًا؛ فلما قالها أبو طالب طَمِع رسولُ الله ـ ﷺ ـ في إسلامه، فجعل يقول له: أيّ عمّ، فأنتَ فقُلها، أستحلّ لك بها الشّفاعة يوم القيامة. قال: فلما رأى حرصَ رسول الله ﷺ، قال:

وفاة أبي طالب ووصيته

ذكر ابن إسحٰق وفاة أبي طالب إلى آخر القصة، وفيها قال العباس: والله لقد قال أخي

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/٥٥٣) من طريق المصنف به.

يا ابن أخي، والله لولا مخافة السُّبَّة عليك، وعلى بني أبيك من بَعدي، وأن تظنّ قُرَيش إني قلتها جَزعًا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسُرّك بها. قال: فلمّا تقارب من أبي طالب الموتُ، قال: نظر العباسُ إليه يحرّك شفتيه، قال: فأصغى إليه بأذنه، قال: فقال يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرتَه أن يقولها، قال: فقال رسول الله ﷺ: لم أسمع.

الكلمة التي أمرته بها، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: لم أسمع[1].

قال المؤلف: شهادة العباس لأبي طالب لو أداها بعدما أسلم، لكانت مقبولةً، ولم يرد بقوله لم أسمع، لأن الشاهد العدل إذا قالت: سمعت، وقال من هو أعدل منه: لم أسمع أُخِذَ بقول من أثبت السماع، لأن عدم السماع يحتمل أسبابًا منعت الشاهد من السمع، ولكن العباس شهد بذلك قبل أن يُسْلِمَ مع أن الصحيحَ من الأثر، قد أثبت لأبي طالب الوفاةَ على الكفر والشرك وأثبت نزول هذه الآية فيه: ﴿ما كان لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِروا لِلْمُشْرِكين﴾[2] [التوبة: ١١٣] وثبت في الصحيح أيضًا أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يَحُوطك وينصرك، ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم وجدته في غَمَرَاتٍ من النار، فأخرجته إلى ضَحْضَاح»[3] وفي الصحيح أيضًا من طريق أبي سعيد، أنه ـ عليه السلام ـ قال: لعله تنفعه شَفَاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضَحْضَاحٍ من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه» وفي رواية أخرى: كما يغلي المِرْجَلُ بالقُمْقُم، وهيَ مُشْكِلة، وقال بعض أهل العلم: القُمْقُم: هو البُسْرُ الأخضر يُطبخ في المِرْجَل استعجالاً لنضجه، يفعل ذلك أهل الحاجة، وفي رواية يونس عن ابن إسحٰق زيادة، وهي أنه قال: يغلي منها دماغه حتى يسيلَ على قدميه، ومن باب النظر في حكمة الله، ومشاكلة الجزاء للعمل أن أبا طالب كان مع رسول الله بجملته مُتَحَزِّبًا له، إلا أنه مثبت لقدميه على مِلّة عبد المطلب، حتى قال عند الموت: أنا على مِلّة عبد المطلب، فسُلِّط العذابُ على قدميه خاصَّةً لتثبيته إياهما على ملة آبائه، ثبتنا الله على الصراط المستقيم.

وذكر قول الله تعالى: ﴿ما كان للنَّبيِّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ [التوبة: ١٣] وقد استغفر عليه السلام يوم أُحدٍ فقال: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لاَ يعلمون،

---

(١) انظر البداية (٣/ ١٢٣).

(٢) انظر خبر وفاة أبي طالب على الكفر والشرك ـ والعياذ بالله تعالى ـ في صحيح البخاري الحديث رقم (٤٦٧٥). وفي الفتح (٨/ ٣٤١) وطبقات ابن سعد (١/ ١٢٢) المنتظم (٣/ ٧).

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٥).

....

وذلك حين جَرَح المشركون وجهَه وقَتَلوا عمَّه. وكثيرًا من أصحابه، ولا يصح أن تكون الآية نزلت في عمه ناسخةً لاستغفاره يوم أُحُدٍ، لأنَّ وفاةَ عمه كانت قبل ذلك بمكة، ولا ينسخ المتقدمُ المتأخرَ، وقد أجيب عن هذا السؤال بأجوبة: أن قيل: استغفارُه لقومه مشروطٌ بتوبتهم من الشرك، كأنه أراد الدعاءَ لهم بالتوبة حتى يغفَر لهم ويُقوِّي هذا القول روايةُ من روى: «اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[1]، وقد ذكرها ابن إسحٰق، رواها عنه بعض رواة الكتاب بهذا اللفظ، وقيل. مغفرة تَصْرف عنهم عقوبة الدنيا في المَسْخ والخَسْف، ونحو ذلك، ووجهٌ ثالث، وهو أن تكون الآية تأخر نزولها، فنزلت بالمدينة ناسخةً للاستغفار للمشركين، فيكون سبب نزولها متقدمًا، ونزولها متأخرًا لا سيما، وهي في سورة براءة وبراءةٌ، من آخر ما نزل، فتكون على هذا ناسخةً للاستغفارين جميعًا، وفي الصحيح أن رسولَ الله - ﷺ - دخل على أبي طالب عند موته، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: يا عَمِّ قل: لا إلٰه إلا الله كلمةً أشهد لك بها عند الله، فقال له أبو جهل وابن أبي أمية: أترغبُ عن مِلَّة عبد المطلب، فقال أنا على ملة عبد المطلب، وظاهر الحديث يقتضي أن عبد المطلب مات على الشرك، ووجدت في بعض كتب المسعودي اختلافًا في عبد المطلب، وأنه قد قال فيه: مات مسلمًا لما رأى من الدلائل على نُبوَّة محمدٍ - ﷺ - وعلم أنه لا يبعث إلا بالتوحيد[2]، فالله أعلم، غير أن في مسند البزار، وفي كتاب النسوي من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله - ﷺ - قال لفاطمة، وقد عَزَّت قومًا من الأنصار عن مَيِّتهم: لعلك بلغت معهم الكُدَى، ويروى الكرى بالراء، يعني: القبور، فقالت: لا، فقال: لو كنت معهم الكُدَى أو كما قال، ما رأيت الجنةَ، حتى يراها جدُّ أبيك[3]، وقد أخرجه أبو داود، ولم يذكر فيه حتى يدخلها جد أبيك، وكذلك لم يذكر فيه: ما دخلت الجنة، وفي قوله: جد أبيك، ولم يقل: جدك يعني: أباه توطئة للحديث الضعيف الذي قدمنا ذكره أن الله أحيا أمه وأباه، وآمنا به، فالله أعلم، ويحتمل أن يكون أراد تخويفها بقوله: حتى يدخلها جد أبيك، فتتوهم أنه الجد الكافر، ومن جدوده عليه السلام: إسماعيل وإبراهيم، لأن قوله عليه السلام حق، وبلوغها معهم الكُدَى لا يوجب خلودًا في النار، فهذا من لطيف الكناية فافهمه، وحكي عن هشام بن السائب أو ابنِه أنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جمع إليه وجوه قريش، فأوصاهم، فقال: يا مَعْشَرَ قريش، أنتم صَفْوةُ الله من

---

(١) انظر مناهل الصفا (١٦) والسيوطي في الدر (٢/ ٢٩٨) (٣/ ٩٤).

(٢) لا صحة لهذا وقد تقدم التنبيه عليه غير مرة.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٢٣) بتحقيقي دون الزيادة. وأخرجه كاملاً النسائي (٤/ ٢٧) وإسناده ضعيف.

ما نزل فيمن طلبوا العهد على الرسول عند أبي طالب

قال: وأنزل الله تعالى في الرَّهط الذين كانوا اجتمعوا إليه، وقال لهم ما قال، وردّوا عليه ما ردّوا: ﴿صَ والقُرآن ذي الذِّكر بَل الَّذِين كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ﴾ [صَ: ١، ٢].. إلى قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ وانْطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أن امْشُوا وَاصْبِرُوا على آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَاد ما سَمْعنا بِهَذَا فِي

خلقه، وقلبُ العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبًا إلا أَحْرَزْتموه، ولا شَرَفًا إلا أدركتموه، فلكم بذلكم على الناس الفضيلةُ ولهم به إليكم الوسيلة، والناسُ لكم حِزْب، وعلى حربكم أَلْبٌ، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البَنِيَّة[1]، فإن فيها مَرْضاةً للرب، وقوامًا للمعاش، وَثَبَاتًا لِلْوَطأة، صِلوا أرحامَكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم مَنْسَأَةً في الأجل، وسِعةً في العدد، واتركوا البَغْي والعُقوقَ، ففيهما هَلَكَة القرون قبلكم، أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديثِ، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبةً في الخاص، ومَكْرُمَةً في العامّ، وإني أوصيكم بمحمّد خيرًا، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمرٍ قبله الجَنَانُ، وأنكره اللِّسان مخافةَ الشَّنآنِ، وأيم الله كأني أنظر إلى صَعَاليك العَرب، وأهل البر في الأطراف والمُسْتَضْعَفِين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمَته وعظموا أمره، فخاض بهم غَمَراتِ الموت، فصارت رؤساءُ قريش وصناديدُها أذنابًا ودورُها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا[2]، وإذا أعظُمهم عليه، أحْوَجهم إليه، وأَبْعَدهم منه، أَحْظَاهم عنده، قد مَحَضَتْه العربُ وِدادَها، وأَصْفَتْ له فُؤادَها، وأعطته قِيادَها، دونكم يا معشرَ قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاةً ولحزبه حُمَاةً، واللهِ لا يسلك أحد منكم سبيلَه إلا رَشَد، ولا يأخذ أحد بِهَدْيه إلا سَعِد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلِي تأخير، لَكَفَفْتُ عنه الهَزَاهِز[3]، ولدافعتُ عنه الدَّوَاهي، ثم هلك.

تفسير المشي في سورة صَ

فصل: وذكر ما أنزل الله تعالى في قولهم: ﴿أنِ امْشُوا واصْبِروا على آلهتِكم﴾ وذكر بعض أهل التفسير أن قولهم: امْشُوا من المَشَاءِ، لا من المَشْيِ والمَشَاء: نَماءُ المال وزيادته،

---

(١) يعني الكعبة.

(٢) أربابًا: أي مُطاعين.

(٣) الهزاهز: الفتن.

﴿المِلَّة الآخِرَة﴾ يعنون النصارى، لقولهم: ﴿إنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ - ﴿إنْ هَذَا إلاَّ اخْتِلاقٌ﴾ [صٓ: ٧] ثم هلك أبو طالب.

يقال مَشَى الرجلُ، وأَمْشَى: إذا نَما مالُه قال الشاعر:

وكُلُّ فَتَى وإن أَمْشَى وأثْرَى سَتَخْلِجُة عن الدُّنيا مَنُون

وقال الراجز:

والشَّاةُ لاَ تَمْشِي على الهَمَلَّعِ

أي: لا تَكْثُر، والهَمَلَّعُ: الذئب، وقاله الخطابي في معنى الآية، كأنهم أرادوا أن المَشَاءَ والبركة في صبرهم على آلهتهم، وحَمْلُها على المَشْي أظهر في اللغة، والله أعلم.

تتابع المصائب بموت خديجة:

وذكر تَتَابُعَ المصائب على رسول الله - ﷺ - بموت خديجة ثم بموت عمه، وذكر الزبير في حديث أسنده أن رسول الله ﷺ دخل على خديجةَ، وهي في الموت، فقال: تكرهين ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله في الكره خيرًا شعرت أن الله قد أعلمني أنه سَيُزَوِّجني معك في الجنة مريمَ ابنةَ عِمْران، وكُلْثُوم أخت موسى، وآسية امرأةَ فِرْعَوْن، فقالت: الله أعلمَك بهذا يا رسول الله؟ فقال: نعم، فقالت: بالرفاء والبنين، وذكر أيضًا في الحديث أن رسول الله - ﷺ - أطعمَ خديجةَ من عِنَبِ الجنة[1].

---

(١) «ضعيف». أخرجه ابن الجوزي في المنتظم (٣/١٩).

الرسول يسعى إلى الطائف

قال ابن إسحٰق: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ـ ﷺ ـ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمِّه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، يلتمس النُّصرة من ثقيف، والمَنعة بهم من قومه، ورجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عزّ وجلّ، فخرج إليهم وحدَه.

موقف ثقيف من الرسول ﷺ:

قال ابن إسحٰق: فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظي، قال: لما انتهى رسولُ الله ﷺ إلى الطائف، عَمَد إلى نَفر من ثقيف، هم يومئذ سادةُ ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عَبْد ياليَْل بن عمرو بن عُمير، ومسعود بن عَمرو بن عُمير، وحَبيب بن عمرو بن عُمير بن عوف بن عُقدة بن غِيرَة بن عَوْف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قُرَيش من بني جُمح، فجلس إليهم رسولُ الله ﷺ، فدعاهم إلى الله، وكلَّمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه؛

خروج النبي ﷺ إلى الطائف[1]

وسنذكر السبب في تسميتها بالطائف، وأن الدمون!! رجل من الصَّدِف من حَضْرَمَوْتَ نزلها، فقال لأهلها: ألا أبني لكم حائطًا يطيف ببلدتكم فبناه، فسميت: الطائف، وقيل: غير ذلك مما سنذكره.

---

(١) الطائف: ناحية ذات نخل وأعناب ومزارع وأودية وهي على ظهر جبل غزوان. وانظر الخبر في الكامل (١/ ٦٠٧) زاد المعاد (٣/ ٣١) المنتظم (٣/ ١٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٠/ ٢١١) تاريخ الطبري (١/ ٥٥٤).

فقال له أحدهم: هو يَمرُط ثيابَ الكعبة إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يُرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا. لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرًا من أن أرُدّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلِّمك. فقام رسولُ الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم - فيما ذُكر لي -: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتُموا عني، وكَره رسولُ الله ﷺ أن يبلغ قومَه عنه، فيُذْئرهم ذلك عليه. قال ابن هشام: قال عَبيد بن الأبرص:

ولقَدْ أتاني عَن تَميم أنهُم ... ذَئِرُوا لقَتْلَى عامر وتعصّبوا

فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعَبيدَهم، يسبونه ويَصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعُتبة بن ربيعة وشَيْبَة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثَقيف من كان يتبعه، فعَمَد إلى ظلّ حَبَلة من عنب، فجلس فيه. وابنا ربيعة ينظران

وقوله: فَيُذْئرها عليه، قد فسره ابن هشام، وأنشد:

ذَئِرُوا لقتلى عامرٍ وتَعصَّبوا

وفي الحديث لما نهى رسولُ الله ﷺ عن ضرب النساء قال: ذئير النساء على أزواجهن[1]، وفسره أبو عبيد بالنُّشوز على الأزواج، وأنشد البيت الذي أنشده ابن هشام، ومعنى كلامهما واحد.

وذكر ما لقي من أشراف ثَقيفٍ، وذكر موسى بن عقبة زيادةً في الحديث حين أَغْرَوْا به سفهاءَهم، قال: وكان يمشي بين سِمَاطين منهم، فكلّما نَقَلوا قدما، رَجَموا عَراقيبَه بالحجارة، حتى اختضب نعلاه بالدماء، وذكر التَّيْمِيُّ كما ذكر ابن عقبة، وزاد قال: كان إذا أَذْلَقَتْه الحجارةُ، قعد إلى الأرض، فيأخذون بِعَضِديه، فيقيمونه فإذَا مشى رَجَموه، وهم يضحكون حتى انتهى إلى الموضع الذي ذكره ابن إسحٰق من حائط عُتْبة وشَيْبة.

قال ابن إسحٰق: فجلس إلى ظل حَبَلة، والحَبَلَةُ الكرْمة، اشتق اسمُها من الحَبَل، لأنها تحمل بالعنب، ولذلك فتح حَمْل الشجرة والنخلة، فقيل: حَمْل بفتح الحاء تشبيهًا بحَمْل المرأة، وقد يقال فيه: حِمْل بالكسر تشبيهًا بالحَمْل الذي على الظهر، ومن قال في الكرمة حَبْلة بسكون الباء، فليس بالمعروف، وقد قال أبو الحسن بن كيسان في «نَهْي النبي ﷺ عن بَيْع حَبَلِ الحَبَلَة[2]»، إنه بيع العنب قبل أن يَطيَب، كما جاء في الحديث

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٨٥) وأبو داود (٢١٤٦) بتحقيقي.

(٢) أخرجه الترمذي (١٢٢٩) وابن ماجه (٢١٩٧) وأحمد (٥٦/١).

إليه، ويَرَيان ما لقي من سُفهاء أهل الطائف، وقد لقي رسولُ الله ﷺ ـ فيما ذُكر لي ـ المرأةَ التي من بني جُمَح، فقال لها: ماذا لَقِينا من أحمائك؟[١].

الآخر من نهْيه عن بيع التمر قبل أن يبدو صلاحُه، وهو قول غريب لم يذهب إليه أحد في تأويل الحديث، وقد قال عمر بن الخطاب في الأَرضِين التي افتتحت في زمانه ـ وقد قيل له: قسمها على الذين افتتحوها ـ فقال: والله لأدعَنَّها حتى يجاهدَ بها حَبَل الحَبَلَة، يريد: أولادَها في البطون. ذكره أبو عبيد في كتاب الأموال، والقول الذي ذكره أبو الحسن في حَبَل الحَبلَة وقع في كتاب الألفاظ ليعقوب وإنما أشكل عليه وعلى غيره دخولُ الهاء في الحَبَلَة، حتى قالوا فيه أقوالاً كلها هَباء، فمنهم من قال: إنما قال الحَبَلَة لأنها بَهيمة أو جَنينة، ومنهم من قال: دخلت للجماعة، ومنهم من قال: للمبالغة، وهذا كله ينعكس عليهم بقوله: حَبَل الحَبَلة، فإنه لم تدخل التاء إلا في أحد اللفظين دون الثاني، وتبطل أيضًا على من قال أراد: معنى البهيمة بحديث عمر المتقدم، وإنما النكتة في ذلك أن الحَبَل ما دام حَبَلاً لا يدرى: أذكرٌ هُو أم أنثى، لم يُسَمَّ حَبلاً، فإذا كانت أنثى، وبلغت حد الحمل، فحبلت فذاك الحبل هو الذي نهى عن بيعه، والأول قد علمت أنوثته بعد الولادة، فعبر عنه بالحبلة، وصار معنى الكلام أنه نهى عن بَيْع حَبَل الجَنينَة الي كانت حَبَلاً لا يعرف ما هي، ثم عرف بعد الوضع، وكذلك في الآدميين، فإذًا لا يقال لها: حبلة إلا بعد المعرفة بأنها أنثى، وعند ذكر الحبل الثاني لأن هذه الأنثى قبل أن تحبل، وهي صغيرة: رِخْلى، وتسمى أيضًا حائلاً وأشباه ذلك، وقد زال عنها اسم الحبل فإذا حبلت، وذكر حبلها وازدوج ذكره مع الحالة الأولى التي كانت فيها حبلاً فُرِّق بين اللفظين بتاء التأنيث، وخص اللفظ الذي هو عبارة عن الأنثى بالتاء دون اللفظ الذي لا يُدرى ما هو: أذكر أم أنثى، وقد كان المعنى قريبًا والمأخذ سهلاً لا يحتاج إلى هذه الإطالة لولا ما قدمناه من تخليطهم في تأويل هذا الكلام الفصيح البليغ الذي لا يَقْدُر قَدْرَه في البلاغة إلا عالم بجوهر الكلام.

---

(١) تقدم ذكر ورود الخبر. وقد أخرجه المصنف هنا عن محمد بن كعب مرسلاً. والقصة صحيحة دون ذكر الدعاء الآتي، فقد ذكره المصنف رحمه الله تعالى بلا سند فقال كما سيأتي: «فيما ذكر لي». وقد أورد الحديث [الدعاء] الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥) من حديث عبد الله بن جعفر وقال: رواه الطبراني وفيه ابن إسحٰق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات. وهو كما قال رحمه الله.

فلما اطمأنّ رسولُ الله ﷺ قال: فيما ذُكِر لي: «اللَّهمّ إليك أشْكو ضَعْف قُوّتي، وقِلّة حيلتي، وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت

نور الله ووجهه[1]:

فصل: وذكر دعاءَه ـ عليه السلام ـ عند الشدة، وقوله: اللهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قُوّتي وقلةَ حيلتي إلى آخر الدعاء، وفيه: أعوذ بنور وجْهك الكريم الذي أشرقت به الظلماتُ، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرة، ويُسأل عن النور هنا، ومعنى الوجه، وإشراق الظلمات، أما الوَجْه إذا جاء ذكره في الكتاب والسنة، فهو ينقسم في الذِّكر إلى موطنين: موطن تقربٍ واسترضاء بعمل، كقوله تعالى: ﴿يُريدون وَجْهَه﴾ وكقوله: ﴿إلاَّ ابْتِغاءَ وَجْه رَبِّه الأعلى﴾ فالمطلوب في هذا الموطن: رضاه وقبوله للعمل، وإقباله على العبد العامل، وأصله أن من رضي عنك، أقبل عليك، ومن غضب عليك أعرض عنك، ولم يُرِكَ وَجْهَه، فأفاد قولُه: بوجهك هٰهنا معنى الرضى والقبول، والإقبال، وليس بصلة في الكلام كما قال أبو عبيدة لأن قوله ذلك هُراءٌ من القول، ومعنى الصلة عنده: أنها كلمة لا تفيد إلا تأكيدًا للكلام، وهذا قولُ من غَلُظ طبعُه وبَعُد بالعُجْمَةِ عن فهم البلاغَةِ قلبُه وكذلك قال هو ومن قَلَّده في قوله تعالى: ﴿ويَبْقى وَجْهُ رَبِّك﴾ [الرحمٰن: ٢٧] أي يبقى رَبُّك، وكُلّ شيء هالك إلا وجهه، أي: إلا إيَّاه، فعلى هذا قد خلا ذكر، الوجه من حِكْمةٍ، وكيف تخلو كلمةٌ منه من الحكمة، وهو الكتاب الحكيم، ولكن هذا هو الموطن الثاني من مواطن ذكر الوجه، والمعنى به ما ظهر إلى القلوب والبصائر من أوصاف جلاله ومجده، والوَجْهُ لغةً ما ظهر من

---

(١) الوجه صفة من صفات ربنا الرحمٰن جلّ وعلا، نؤمن أن لله تعالى وجهًا كما صرّح القرآن الكريم، وأن له تعالى يد، ولله تعالى قدم وساق وأصابع، نؤمن بكل ما صرّح به القرآن وما جاءت به السُّنّة «الصحيحة» مع إيماننا بأنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، ومَن فسّر وتأوّل اليد وقال هي القدرة، فقد كذب القرآن واتهم ربه إما بالجهل بنفسه تعالى، أو بالجهل بلغة العرب فلم يعلم الفرق بين اليد والقدرة، أو أنه تعالى يريد أن يضلّ عباده فيقول لهم ويأمرهم أن يؤمنوا بما لا يريده منهم، فهو تعالى يريد أن يضلّهم حينما قال تعالى في كتابه أن اليهود قالوا: ﴿يد الله مغلولة﴾ ردَّ تعالى عليهم قولهم فقال تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾، وأمر عباده أن يؤمنوا أن له يد مبسوطة، ويسألهم يوم القيامة عن هذا ثم يقول لهم: كلام لم أرد منكم أن تؤمنوا أن لي «يد» بل هي «القدرة» ـ سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا ـ أو أن التأوّل يتّهم ربه والٰهه ومعبوده بكل هذا. ثم تقول لمَن يقول إن اليد معناه القدرة، وأن الوجه معناه كذا، وأن الضحك والغضب والفرح معناهم: كذا وكذا وكذا، تقول لهم: «أنتم أعلم أم الله». إنه تعالى هو الذي قال عن نفسه هذا في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ. والنور: اسم من أسماء الله تعالى قاله ابن القيم وغيره. وقد جمعت أقوالهم في كتابي «القول الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى» فانظره لزامًا.

ربّي، إلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بعيد يتجهَّمني؟ أم إلى عدوّ مَلّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غَضَب فلا أُبالي، ولكن عافيتَك هي أوسع لي، أعوذ بنور وَجْهك الذي أشرقتْ له

الشيء معقُولاً كان أو محسوسًا، تقول: هذا وجهُ المسألة، ووجْهُ الحديث، أي: الظاهر إلى رأيك منه، وكذلك الثوب ما ظهر إلى بصرك منه، والبصائر لا تحيط بأوصاف جلاله، وما يظهر لها من ذلك أقل مما يغيب عنها، وهو الظاهر والباطن - تعالى وجَلَّ - وكذلك في الجنة نظر أهلها إلى وجهه سبحانه إنما هو نظر إلى ما يَرَوْن من ظاهر جلاله إليهم عند تجليه، ورفع الحجاب دونهم، وما لا يدركون من ذلك الجلال أكثر مما أدركوا.

وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عليها فانٍ ويبقى وَجْهُ ربك ذو الجَلاَل والإكرام﴾ [الرحمٰن: ٢٦، ٢٧] لما كانت السمٰوات والأرض، قد أظهرت من قدرته وسلطانه، ما أظهرت أخبر تعالى أَن فناءها لا يُغيِّر ما علم من سلطانه وظهر إلى البصائر من جلاله، فقد كان ذلك الجلالُ قبل أن يخلُقَها، وهو باقٍ بعد فنائها كما كان في القِدَم، فهو ذو الجلال والإكرام، قال الحسن: معناه: تَجَلَّل بالبهاء وأكرم من شاء بالنظر إلى وجهه أما الأشعري[1] فذهب في معنى الوجه إلى ما ذهب فيه من معنى العين واليد، وأنها صِفَاتٌ لله تعالى لم تُعْلم من جهة العقُول، ولا من جهة الشرع المنقول، وهذه عُجْمةُ أيضًا فإنه نزل بلسان عربي مبين، فقد فهمته العربُ لما نزل بلسانها، وليس في لغتها أنَ الوجهَ صفةٌ ولا إشكال على المؤمن منهم، ولا على الكافر في معنى هذه الآي التي احْتيج آخر الزمان إلى الكلام فيه مع العجمان، لأن المؤمن لم يخش على عقيدته شَكًّا ولا تشبيهًا، فلم يستفسر أحدٌ منهم رسولَ الله عليه السلام، ولا سأله عن هذه الآية التي هي اليوم مشكلة عند عوام الناس، ولا الكافر في ذلك الزمان لم يتعلق بها في معرض المناقضة والمجادلة، كما فعلوا في قوله تعالى: ﴿إنكم وما تَعْبُدُون من دُون الله حَصَبُ جَهَنَّم﴾ [الأنبياء: ٩٨] ولا قال أحدٌ منهم: يزعم محمد أن الله ما يشبهه شيء من خلقه، ثُم يُثْبت له وجهًا ويدين إلى غير ذلك فدل على أنهم لم يَرَوْا في الآية إشكالاً، وتلَقَّوا معانيها على غير التشبيه، وعرفوا من سَمَانَةِ الكلام، ومَلاَحة الاستعارة أنهُ مُعْجِزٌ، فلم يَتَعَاطَوا له مُعَارضة، ولا توهَّموا فيه مُناقضة، وقد أملينا في معنى اليدين والعين مسألةً بديعة جدًا، فلتنظر هنالك.

وأما النورُ فعبارة عن الظهور وانكشاف الحقائقَ الإلٰهية، وبه أشرقت الظلمات، أي أشرقت محالها وهي القلوب التي كانت فيها ظلماتُ الجهالة والشكوك، فاستنارت القلوبُ

---

(١) أتباع أبا الحسن الأشعري.

الظُّلمات، وصَلَح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أنْ تُنْزل بي غضَبك، أو يحلّ عليّ سُخْطك، لك العُتبى حتى تَرْضَى، ولا حول ولا قوّة إلا بك».

قال: فلما رآه ابنا رَبيعة، عُتْبةُ وشَيْبةُ، وما لَقي، تحرّكت له رَحمُهُما فدَعَوَا غلامًا لهما نَصرانيًا، يقال له عدَّاس فقالا له: خذ قِطْفًا من العنب، فضَعْه في هذا الطَّبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عَدّاسٌ، ثم أقبل به حتى وَضعه بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال له: كُل، فلمَّا وضع رسولُ الله ﷺ فيه يَده، قال: «باسم الله»، ثم أكل، فنظر عَدّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومِنْ أهل أيّ البلاد أنت يا عَدّاس، وما دينك»؟ قال: نَصْرَاني، وأنا رجل من أهل نَينوى. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»؟ فقال له عَدّاس: وما يُدْريك ما يونسُ بن متى؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبيّ»، فأكبّ عَدّاس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسَه ويَدَيْه وقَدَميه.

بنور الله، وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نورِه﴾ أي: مَثَلُ نوره في قِلب في المؤمن كَمَشْكَاة، فهو إذًا نور الإيمان والمعرفة: المُجْلِي لكل ظلمةٍ وشك، قال كعب: المِشْكاةُ مَثَلٌ لِفَهْمِه، والمصباحُ مَثَلٌ للسانه، والزجاجة: مثلٌ لصَدْرِه، أو لقلبه أي: قلب محمّد ﷺ، وقال: أعوذ بنور وجهك، ولو قال: بنورك لحسُن، ولكن توسل إليه بما أودع قلبه من نوره، فتوسّل إلى نعمته بنعمته وإلى فَضْله ورحمته بفضله ورحمته، وقد تكون الظلماتُ هاهنا أيضًا الظلمات المحسوسة وإشراقها جلالتها على خالقها، وكذلك الأنوار المحسوسة، الكِلُّ دالٌّ عليه فهو نور النور، أي: مظهره مُنوِّر الظلمات، أي جاعلها نورًا في حكم الدلالة عليه سبحانه وتعالى.

خبر عداس:

فصل: وذكر خبر عَدَّاس غلام عُتْبَةَ وشَيْبَةَ ابني ربيعة حين جاء بالقِطْفِ من عندهما إلى آخر القصة، وفيه قبولُ هدية المشرك، وأن لا يَتَوَرّع عن طعامه، وسيأتي استقصاءُ ذلك إن شاء الله تعالى، وزاد التَّيْمِيُّ فيها أن عَدَّاسًا حين سمعه يذكر يُونُسَ بن مَتَّى قال: والله لقد خَرَجْت منها يعني: نينَوى، وما فيها عَشْرةٌ يعرفون: ما مَتَّى، فمن أين عرفت أنت مَتَّى، وأنت أُميٌّ، وفي أمة أُمّيَّةٍ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «هو أخي، كان نبيًا، وأنا نبي»، وذكروا أيضًا أن عَدَّاسًا لما أراد سيداه الخرُوج إلى بدر أمراه بالخروج معهما فقال لهما: أقتال ذلك الرجل الذي رأيته بحائطكما تريدان، والله ما تقوم له الجبال، فقالا له: وَيْحَكَ يا عَدَّاس: قد

قال: يقول ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه: أمَّا غُلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عَدّاس، قالا له: ويلك يا عدّاس! ما لك تقبِّل رأسَ هذا الرجل ويدَيه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يَعلمه إلا نبيّ، قالا له: ويحك يا عَدّاس، لا يَصْرفنَّك عن دينك، فإنّ دينَك خير من دينه.

أمر جنّ نصيبين

قال: ثم إن رسول الله - ﷺ - انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة، حين يَئِس من خَيْر ثقيف، حتى إذا كان بنَخلة قام من جَوْف الليل يصلّي، فمرّ به النَّفر من الجنّ الذين

س حَرك بلسانه، وعندما لقي رسولُ الله - ﷺ - من أهل الطائف، ما لقي، ودعا بالدعاء المتقدم، نزل عليه جبريلُ ومعه مَلك الجبال كما رَوى البخاري عن عبد الله بن يوسف، عن يونس، عن ابن شهابٍ قال: حدّثني عُرْوَةُ أن عائشةَ زوج النبي - ﷺ - حدّثته أنها قالت للنبي عليه السلام: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ عليك من أُحُدٍ؟ فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العَقَبة إذ عَرَضْتُ نفسي على ابن عَبْدِ ياليلَ بن عَبْدِ كُلاَلٍ، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت على وجهي، وأنا مهموم، فلم أَسْتَفِقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعَالِبِ»[1]، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال، لتأمرَه بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال، فسَلَّم عَليَّ فقال: يا محمّد ذلك لك، إن شئت أطبق عليهم الأَخْشَبَيْنْ، فقال النبيّ ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا»[2]. هكذا قال في الحديث: ابن عَبْدِ كُلاَلٍ، وهو خلاف ما نسبه ابن إسحٰق.

جنّ نصيبين[3]

فصل: وذكر حديث وفد جنِّ نَصِيبِين، وما أنزل الله فيهم، وقد أملينا أول المبعثين من هذا الكتاب طرفًا من أخبارهم وبيَّنا هنالك أسماءَهم، ونَصِيبِين مدينةٌ بالشام أثنى عليها رسولُ

---

(١) قرن الثعالب: هي ميقات أهل نجد تلقاء مكة.

(٢) «صحيح». أخرجه البخاري (٦/ ٢٢٥) ومسلم في الجهاد. حديث رقم (١٧٩٥).

(٣) ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٢) أن جنّ نصيبين واستماعهم للقرآن كان من أول البعثة وليس بعد فقوله - ﷺ - من الطائف. وانظر فتح الباري (٨/ ٥١٤).

ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم ـ فيما ذكر لي ـ سبعة نفر من جنّ أهل نَصِيبِين فاستمعوا له، فلما فَرَغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقصّ الله خبرَهم عليه ﷺ، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة.

الله ﷺ. رُوِي أنه قال: «رفعت إليّ نصيبين حتى رأيتُها فدعوت الله أن يَعْذُب نَهرُها، ويَنْضُر شجرُها، ويطيب ثمرُها» أو قال: «ويَكْثُر ثَمرُها»، وتقدم في أسمائهم ما ذكره، ابن دُرَيْد. قال: هم منشي وماشي وشاصر وماصر والأحقب، ولم يزد على تسمية هؤلاء، وقد ذكرنا تمام أسمائهم فيما تقدم، وفي الصحيح أن الذي أذن رسول الله ـ ﷺ ـ بالجن ليلة الجن شجرة، وأنهم سألوه الزاد، فقال: «كلُّ عَظْم ذُكِرَ اسم الله عليه يقع في يد أحدهم. أوفر ما يكون لحمًا، وكل بَعْرٍ علفٌ لَدَوابِّهم»[1]. زاد ابن سلام في تفسيره أن البَعْر يعود خَضِرًا لدوابهم، ثم نهى رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يُسْتَنجى بالعظم والرَّوْث، وقال: «إنه زاد إخوانِكم من الجن»، ولفظ الحديث في كتاب مسلم كما قدمناه: «كل عظم ذُكِرَ اسمُ الله عليه»[2]، ولفظه في كتاب أبي داود: «كل عظم لم يُذْكر اسم الله عليه»، وأكثر الأحاديث تدل على معنى رواية أبي داود، وقال بعضُ العلماء روايةُ مُسْلم في الجن المؤمنين، والرواية الأُخرى في حق الشياطين منهم، وهذا قول صحيح تعضده الأحاديث إلا أنا نكره الإطالة، وفي هذا رَدٌّ على من زعم أن الجنَّ لا يأكل ولا يشرب، وتأولوا قوله ـ عليه السلام: «إن الشيطان يأكل بِشِماله، ويشرب بِشِمالِه»[3] على غير ظاهره، وهم ثلاثة أصناف كما جاء في حديث آخر: صِنْفٌ على صُوَرِ الحيَّات، وصِنفٌ على صُوَر الكلاب سُودٌ وصِنفٌ ريحٌ طَيَّارة أو قال: هَفَّافَة ذَوُو أجنحةٍ، وزاد بعضُ الرواة في الحديث: وصِنف يَحُلُّون ويَظْعَنُون[4]، وهم السَّعَالَى، ولعل هذا الصِّنف الطَّيَّارَ هو الذي لا يأكل، ولا يشرب إن صح القول المتقدم والله أعلم. وروينا في حديث سمعتُهُ يقرَأ على الشيخ الحافظ أبي بكر بن العربي بسنده إلى جابر بن عبد الله، قال: بينا أنا مع رسول الله ﷺ نمشي إذ جاءت حَيَّةٌ، فقامت إلى جنبه، وأدنت فاها من أذنه، وكانت تناجيه، أو نحو هذا، فقال النبي ﷺ: «نعم» فانصرفت، قال جابر: فسألته، فأخبرني أنه رجل من الجن، وأنه قال له: مُرْ أمتك لا يستنجوا بالرَّوْثِ، ولا بالرِّمَّة، فإن الله جعل لنا في ذلك رزقًا.

---

(١) أخرجه البيهقي (٢/١١/١٠٩) وانظر البخاري في مناقب الأنصار (٣٢).
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) والترمذي وأحمد (١/٣٩).
(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٥/١٠٦). (٤) انظر أحمد (١/٢١٨).

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل

قال ابن إسحٰق: ثم قَدم رسولُ الله ﷺ مكة، وقومُه أشد ما كانوا عليه من خِلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مُستضعَفين، ممن آمن به. فكان رسولُ الله ﷺ يَعْرِض نفسَه في المَواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبيّ مُرْسَل، ويسألهم أن يصدّقوه ويَمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني من أصحابنا، من لا أتهم، عن زَيد بن أسْلَم عن ربيعة بن عِبَادِ الدِّيلي أو مَن حدّثه أبو الزناد عنه ـ قال ابن هشام: ربيعة بن عِبَاد.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني حُسَين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عبَّاسٍ، قال: سمعت ربيعة بن عبَاد، يحدّثه أَبي، قال: إني لغلام شاب مع أبي بِمَنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني فلان، إنّي رسولُ الله إليكم، يأمركم أن

ذكر عرض نفسه على القبائل[1]

فصل: وذكر عَرْضَه نفسَه ـ ﷺ ـ على القبائل، ليؤمنوا به، ولينصروه قبيلةً قبيلةً، فذكر بني حنيفة، واسم حنيفَة: أُثَال بن لُجَيْم، ولجيم: تصغير اللُّجَمِ، وهي دُوَيْبَةٌ، قال قُطْرُب، وأنشد:

لـهـا ذَنَـبٌ مـثـلُ ذَيْـلِ الـعـرو س إلى سَبَّةٍ مثل جَحْرِ اللُّجَمْ

ابن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، وسمى حَنيفة لحَنَفٍ كان في رجليه، وقيل: بل حنيفة أُمهم، وهي بنت كاهل بن أسد عُرِفوا بها، وهم أهل اليمامة، وأصحاب مُسَيْلمة الكذّاب، وقد أملينا في أول الكتاب سببَ نزولهم اليمامة وأول من نزلها منهم.

وذكر بَيْحَرة بن فراس العامري، وقولَه لرسول الله ﷺ: أَفَنُهْدِفُ نُحورَنا، للعرب دونك. نُهْدِف أي: نجعلها هَدَفًا لسهامهم، والهَدَفُ: الغرض.

وذكر قولَ الشيخ[2]: هل لها من تَلاَفٍ، أي: تَدارُك، وهو تَفاعُل من: تَلاَفَيْتُهم، وهل لذناباها من مطلب: مَثَلٌ ضُرِب لما فاته منها، وأصله: من ذُنَابَي الطائر: إذا أفلت من الحِبَالة، فطلبت الأخذ بِذُنَاباه، وقال: ما تقوَّلها إسماعيلي قط أي: ما ادعى النبوة كاذبًا أحدٌ من بني إسماعيل.

---

(١) انظر تاريخ الطبري (١/٥٥٦) الكامل لابن الأثير (١/٦٠٨).

(٢) هذا القول هو عند ابن إسحٰق في السيرة تحت عنوان «العرض على بني عامر».

تَعْبُدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تَخْلَعُوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنْداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدّقوا بي، وتمنعوني، حتى أُبَيِّن عن الله ما بعثني به». قال: وخَلْفه رجل أَحْوَلُ وَضيءٌ، له غَديرَتان عليه حُلَّة عَدَنيَّة، فإذا فرغ رسولُ الله ﷺ من قوله، وما دعا إليه، قال ذلك الرجل: يا بَني فلان، إنّ هذا إنما يدعوكم أن تسلُخوا اللات والعُزّى من أعناقكم، وحلفاءَكم من الجنّ من بَني مالك بن أُقَيْش، إلى ما جاء به من البِدْعة والضلالة، فلا تُطيعوه، ولا تسمعوا منه.

قال: فقلت لأبي: يا أبت، مَن هذا الذي يتبعه ويردّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمُّه عبد العُزّى بن عبد المطَّلب، أبو لهب[1].

قال ابن هشام: قال النابغة:

كأنَّك مَنْ جمال بَنِي أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خلفَ رجلَيه بِشَن

قال ابن إسحٰق: حدثنا ابنُ شهاب الزهريّ: أنه أتى كِنْدة في منازلهم، وفيهم سيِّد لهم يقال له: مُلَيح، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرَض عليهم نفسَه، فأَبَوْا عليه.

العرض على بني كلب:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن حصين: أنه أتى كَلْبًا في منازلهم، إلى بَطْن منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسَه، حتى إنه ليقولُ لهم: يا بني عبد الله، إن الله عزّ وجلّ قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.

عرض نفسه على كندة:

فصل: وذكر عرضه نفسه على كِنْدَةَ، وهم بنو ثَوْر بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيْد بن ميسع بن عمْرو بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلان بن سبأ على أحد الأقوال بين النسابين في كِنْدَة، وسمي كِنْدة لأنه كَنَد أباه، أي عَقَّه، وسمى ابنه مُرْتِعًا لأنه كان يجعل لمن أتاه من قومه مَرْتَعًا، فهم بنو مُرْتع بن ثور، وقد قيل إن ثورًا هو مُرْتِع، وكندة أبوه[2].

في هذا الكتاب تتمة لفائدته:

فصل: وذكر غير ابن إسحٰق ما لم يذكر ابنُ إسحٰق مما رأيت إملاء بعضه في هذا الكتاب تتمة لفائدته. ذكر قاسمُ بن ثابت والخطابي عرضَه نفسه على بني ذهْلِ بن ثَعْلبة، ثم

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٥٥) من طريق المصنف به.

(٢) انظر جمهرة ابن حزم (٣٩٤).

العرض على بني حنيفة:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني بعضُ أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتى بنِي حَنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعَرض عليهم نفسه، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه ردًا منهم.

العرض على بني عامر:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني الزهري أنه أتى بَني عامر بن صَعْصعة، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرَض عليهم نفسَه، فقال له رجل منهم - يقال له: بَيْحَرة بن فِرَاس. قال ابن هشام: فِراس بنُ عبد الله بن سَلمة بن قُشير بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صَعْصعة: والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قُريش، لأكلتُ به العربَ، ثم قال: أرأيتَ إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك اللهُ على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمرُ إلى الله يَضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أفَنُهدِف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمرُ لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك، فأبَوْا عليه.

على بني شَيْبان بن ثَعْلبة، فذكر الخطَّابي وقاسم جميعًا ما كان من كلام أبي بكر مع دَغْفَل بن حَنْظَلَة الذُّهلي زاد قاسم تكملة الحديث فرأينا أن نذكر زيادة قاسم، فإنها مما تليق بهذا الكتاب قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينةُ والوقار، فتقدم أبو بكر، فسلم قال علي: وكان أبو بكر مُقَدَّمًا في كل خير، فقال مِمَّن القومُ، فقالوا: من شَيْبان بن ثَعْلَبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله - ﷺ - فقال: بأبي أنت وأمي، هؤلاء غُرَرٌ في قومهم، وفيهم مَفْرُوقُ بن عمرو وهانىء بن قَبِيصَة، ومُثَنَّى بن حارثة، والنعمان بن شَرُيك؛ وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جَمَالاً ولِسَاناً وكانت له غَدِيرَتان[1] تسقطان على تَرِيبَتَيْه[2]، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال له مَفْروق إنا لنزيد على الألف، ولن تُغْلَب ألفٌ من قِلَّةٍ فقال أبو بكر: كيف المنَعَة فيكم؟ فقال مَفْروق: علينا الجهد، ولكل قوم جد، فقال أبو بكر: كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُّ ما نكون غَضَبًا لحين نلقى، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنُؤْثر الجيادَ على الأولاد، والسلاحَ على اللِّقاحَ[3]، والنصرُ من عند الله، يُدِيلنا مَرَّةً ويُديلُ عَلَيْنا، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر أَوَقَدْ بلغكم أنه رسول الله، فها هو ذا، فقال مَفْروق: قد بلغنا أنه

---

(١) غديرتان: ضفيرتان.
(٢) تريبتيه: أي عظام صدره.
(٣) اللقاح: أي الإبل.

فلما صدر الناسُ رجعتْ بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركتْه السن، حتى لا يقدر أن يُوافِيَ معهم المواسمَ، فكانوا إذا رجَعوا إليه حدَّثوه بما يكون في ذلك المَوْسم، فلما قَدموا عليه ذلك العامَ سألهم عمَّا كان في مَوْسمهم، فقالوا: جاءنا فَتَى من قُريش، ثم أحَدُ بني عبد المطَّلب، يزعم أنه نَبيّ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه، ونخرج به إلى بلادنا. قال: فوضع الشيخ يَدَيْه على رأسه ثم قال: يا بَني عامر، هل لها من تَلاف، هل لِذُنَابَاها من مَطْلب، والذي نَفْسُ فلان بيده، ما تَقَوّلها إسماعيليّ قَطّ، وإنها لحقّ، فأين رأيُكم كان عنكم.

يذكر ذلك، فإلى م تـدعو إليه يا أخا قريش؟ فتقدم رسولُ الله ﷺ، فقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسولُ الله، وإلى أن تُؤْوُوني، وتَنْصروني، فإن قريشًا قد ظاهرت على أمر الله، وكذبت رسولَه، واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد»، فقال مفروق: وإلى م تـدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ ما حَرَّم رَبُّكم عليكم ألاَّ تُشْركوا به شَيْئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تَقْتلوا أولادَكم من إمْلاَقٍ نحن نرزقكم وإيَّاهُمْ ولا تَقْربوا الفواحشَ ما ظَهَر منه وما بَطَن ولا تقتلوا النفسَ التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام: ١٥١] فقال مفروق: وإلى مم تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسولُ الله ـ ﷺ ـ ﴿إنَّ اللّهَ يأمر بالعَدْلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى ويَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمُنْكر والبَغْي يَعِظُكم لَعَلَّكم تَذَكَّرُون﴾ [النحل: ٩٠] فقال مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، والله لقد أَفِكَ قومٌ كذَّبوك، وظاهروا عليك، وكأنه أراد أن يَشْرَكَه في الكلام هانىءُ بن قَبِيصة، فقال: وهذا هانىء بن قَبِيصة شيخُنا، وصاحب دينِنا، فقال هانىء: قد سَمِعت مقالتَك يا أخا قريش، وإني أرى أنَّ تَرْكَنا دينَنَا واتباعنا إيَّاك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زَلَّةٌ في الرأي، وقِلَّة نظرٍ في العاقبة، وإنما تكون الزَلَّة مع العَجَلة، ومِنْ ورائنا قومٌ نكره أن نعقد عليهم عَقْدًا، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر، وكأنه أحب أن يَشْرَكه في الكلام المُثَنَّى، فقال: وهذا المُثَنَّى بن حارثة شيخنا وصاحب حَرْبنا، فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجوابُ: هو جوابُ هانىء بن قَبِيصَة في تركنا ديننا، واتباعنا إيَّاك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإنا إنما نزلنا بين صَريَان اليمامة والسَّمَاوة، فقال رسول الله ـ ﷺ «ما هذان الصَّريان»؟ فقال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى، فذنْبُ صاحبيه غيرُ مغفور، وعُذْرُه غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب، فذنبهُ معفور وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كِسْرى أن لا نُحْدِث حَدَثًا ولا نُؤوي مُحْدِثًا، وإني أرى هذا الأمرَ الذي تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوكُ، فإن أحببتَ أن نُؤْويك وننصرك مما يلي مياه العَرب، فَعَلنا فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «ما أسأتم في الرد، إذْ أفصحتم بالصِّدق،

عرض على العرب في المواسم

قال ابن إسحٰق: فكان رسولُ الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناسُ بالمَوْسم أتاهم يدعو القَبائلَ إلى الله وإلى الإسلام، ويَعْرِض عليهم نفسَه، وما جاء به من الله من الهُدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدَم مكةَ من العرب له اسمٌ وشرف، إلا تصدّى له، فدعاه إلى الله، وعَرَض عليه ما عنده.

حديث سويد بن صامت

قال ابن إسحٰق: وحدثني عاصم بن عُمر بن قَتادة الأنصاريّ، ثم الظَّفريّ عن أشياخ من قومه[1]، قالوا:

قَدم سُويد بن صامت، أخو بني عمرو بن عَوْف، مكةَ حاجًّا أو مُعتمرًا،

وإن دين الله لن ينصره إلا من حَاطَه من جميع جوانبه أَرَأَيْتُم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضَهم وأموالَهم ويفرشكم نساءهم، أَتُسَبِّحون الله وتُقَدِّسونه»، فقال النعمان بن شَرِيك: اللهم لك ذا، فتلا رسولُ الله ـ ﷺ: ﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسِرَاجًا منيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] ثم نهض النبي ـ ﷺ ـ فأخذ بيدي، فقال: «يا أبا بكر يا أبا حسن أية أخلاق في الجاهلية، ما أشرفَها بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم» قال: ثم دفعنا إلى مجلس الأوْس والخَزْرَج، فما نهضنا حتى بايعوا النبيَّ ﷺ، وكانوا صُدَقاءَ صُبَراءَ، وروى في حديثٍ مُسْنَدٍ إلَى طارق، قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين: رأيته بسوقِ ذي المَجَازِ يعرضِ نفسه على القبائل، يقول: «يا أيها الناسُ قولوا: لا إلَه إلا الله تُفْلِحوا»، وخَلْفَه رجلٌ له غديرتان يَرْجُمه بالحجارة، حتى أدْمَى كَعْبيه، يقول: يا أيها الناسُ لا تسمعوا منه، فإنه كذَّاب، فسألت عنه، فقيل: هو غلام عبد المطلب، قلت: ومن الرجل يرجمه؟ فقيل لي: هو عمه عَبْدُ العُزَّى أبو لهب[2]، وذكر الحديثَ بطوله. خَرَّجه الدَّارَقُطْنِي، ووقع أيضًا في السيرة من رواية يونس.

حديث سويد بن صامت

فصل: ذكر حديث سُوَيد بن صامت وشعره.

---

(١) مجاهيل.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢) والدارقطني (٣/ ٤٥) بتحقيقي والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٨٠) والطبراني في الكبير (٥/ ٥٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ٧٦).

وكان سُوَيد إنما يسمِّيه قومُه فيهم: الكاملَ، لجَلَده وشعره وشَرفه ونَسبه، وهو الذي يقول:

ألا رُبَّ مَن تدعو صَديقًا وَلَو تَرى ... مقالَته بالغَيبِ ساءَك ما يَفْري
مقالَتُه كالشُّهْد ما كان شاهدًا ... وبالغَيْب مأثورٌ على ثُغْرة النحر
يَسُرُّك باديه وتحت أديمِه ... نميمةُ غشٍّ تَبْتَري عَقَبَ الظَّهْر
تُبين لك العَيْنان ما هو كاتمٌ ... من الغِلِّ والبَغْضاء بالنظَر الشزر
فَرِشْني بخيرٍ طالما قد بَرَيْتَنِي ... وخيرُ الموالي من يَرشي ولا يَبْري

وهو الذي يقول: ونافر رجلاً من بني سُلَيم، ثم أحد بني زَعْبِ بن مالك مائة ناقة، إلى كاهنة من كُهَّان العرب، فقضتْ له. فانصرف عنها هو والسُّلميّ ليس معهما غيرهما، فلما فرّقت بينهما الطريقُ، قال: ما لي، يا أخا بني سُلَيم قال: أبعثُ إليك به؛ قال: فمَن لي بذلك إذا فُتَّني به؟ قال: أنا، قال: كلاّ، والذي نفس سُوَيدٍ بيده، لا تفارقَنِّي حتى أوتى

وفي الشعر:

وبالغَيْبِ مأثورٌ على ثُغْرَةِ النَّحْرِ

يعني السيفَ، ومأثورٌ: من الأَثَر وهو فرِنْدُ[1] السيف، ويقال فيه: أَثْر وإِثْر. قال الشاعر[2]:

جلاها الصَّيْقَلُونِ فَأَخلَصُوها ... خِفَافًا كُلُّها يَتْقِي بأَثْرِ

أراد: يَتَّقِي، وسُوَيْد: هو: الكامل، وهو ابن الصَّلْتِ بن حَوْط بن حَبِيب بن عَوْف بن عمرو بن عَوْف بن مالكِ بن الأَوْسِ وأمه لَيْلَى بنت عمرو النجارية أخت سَلْمَى بنت عمرو [بن زيد بن لبيد بن خِداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار [تيْم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج] أُم عبد المطلب بن هاشم، فَسُوَيْدٌ هذا ابن خالة عبد المطلب، وبنتُ سويد هي أمُّ عاتِكَةَ أخت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل مرأة عمر بن الخطاب، فهو جدُّها لأمِّها واسم أمها: زينب، وقيل: جليسة بنت سُوَيد، هكذا ذكره الزُّبَيْر بن أبي بكر.

---

(١) فرند السيف: جوهره.
(٢) هو: عيسى بن عمر الخفاف. كما في الأمالي للقالي (٣/ ٧٣).

بمال، فاتَّخذا فضرب به الأرضَ، ثم أوثقه رباطًا ثم انطلق به إلى دار بَني عمرو بن عوف، فلم يزل عنده حتى بعثتْ إليه سُلَيم بالذي له، فقال في ذلك:

لا تحسبَنِّي يابن زَغْبِ بن مالِك ... كَمَن كنتَ تُرْدى بالغيوب وتَخْتِلُ

تحوّلت قِرْنا إذ صُرعتَ بعزّة ... كذلك إنَّ الحازمَ المتحوّل

ضَرَبتُ به إبْط الشمَال فلم يَزَل ... على كلّ حال خدّه هو أسفل

في أشعار كثيرة كان يقولها:

فتصدّى له رسولُ الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سُوَيد: فلعلّ الذي معك مثلُ الذي معي، فقال له رسولُ الله ـ ﷺ: «وما الذي معك»؟ قال مَجَلَّة لقمان ـ يعني حكمة لقمان. فقال له رسولُ الله ﷺ: «اعرضها عليّ»، فعَرَضها عليه، فقال له: «إن هذا الكلامُ حَسَنٌ، والذي معي أفضلُ من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هُدًى ونور.» فتلا عليه رسولُ الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يَبْعُد منه، وقال: إن هذا لقولٌ حسن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخَزْرج، فإن كان رجالٌ من قومه لقولون: إنَّا لنراه قد قُتل وهو مُسْلم. وكان قَتْله قبل يوم بُعاث[1].

ذكر مجلة لقمان:

فصل: وذكرَ مَجلَّة لُقْمان، وهي الصحيفة، وكأنها مفعلة من الجَلاَل والجَلالَة، أما الجَلالَةُ فمن صفة المخلوق، والجلال من صفة الله تعالى، وقد أجاز بعضُهم أن يقال في المخلوق جَلاَلٌ وجَلالَةٌ وأنشد[2]:

فَلا ذَا جَلاَلٍ هِبْنَه لِجَلاَلَةٍ ... ولا ذا ضَيَاع هنَّ يتْرُكْنَ لِلْفَقْرِ

ولُقْمَانُ كان نوبيا من أهل أَيْلةَ وهو لقمان بن عَنْقَاء بن سرور فيما ذكَروا وابنه الذي ذُكِرَ في القرآن هو ثأران فيما ذكر الزَّجَّاج وغيره، وقد قيل في اسمه غير ذلك، وليس بلقمان بن عاد الحِمْيَرِيِّ.

---

(١) انظر تاريخ الطبري (١/ ٥٥٧) الكامل (١/ ٦٠٩).

(٢) هو: هدبة بن خشرم بن كرز. كما في أمالي القالي (٢/ ٢٣).

إسلام إياس بن معاذ وقصة أبي الحيسر

قال ابن إسحٰق: وحدّثني الحُصَين بن عبد الرحمن بن عَمرو بن سعد بن مُعاذ عن محمود بن لُبيد، قال: لما قَدِم أبو الحَيْسَر، أنسْ بن رافع، مكةَ ومعه فِتْية من بني عَبْد الأشْهل، فيهم إياس بن مُعاذ، يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج، سَمِعَ بهم رسولُ الله - ﷺ - فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسولُ الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب.» قال: ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. قال: فقال إياس بن مُعَاذ، وكان غلامًا حَدثًا: أي قوم، هذا والله خيرٌ مما جئتم له. قال: فيأخذ أبو الحَيْسر، أنسُ بن رافع، حَفْنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجهَ إياس بن مُعَاذ، وقال: دَعْنا منك، فَلَعَمْري لقد جئنا لغير هذا. قال: فصمت إياس، وقام رسولُ الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعَاث بين الأوس والخزرج.

قال: ثم لم يلبث إياس بن مُعاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني مَن حَضَره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله تعالى ويكبّره ويحمده ويُسَبّحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنّ قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

ذكر قدوم أبي الحيسر[1]

فصل: وذكر قدوم أبي الحَيْسَرِ أنس بن رافع بن يطلب الْحِلف، وذلك بسبب الحرب التي كانت بين الأوْس والخَزْرج، وهي حرب بُعاث المذكورة، ولهم فيها أيام مشهورة هلك فيها كثيرٌ من صَنَادِيدهم وأشرافهم، وبُعاث اسم أرضٍ بها عرفت.

---

(١) انظر الكامل (١/ ٦١٠).

الرسول مع نفر من الخزرج عند العقبة

قال ابن إسحـٰق: فلما أراد الله عزّ وجلّ إظهارَ دينه، وإعزاز نبيِّه ﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسولُ الله ﷺ، في المَوْسم الذي لقيه فيه النَّفرُ من الأنصار، فعرض نفسَه على قبائل العرب، كما كان صنع في كلّ مَوْسم. فبينما هو عند العقبة لَقِي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا.

بدء إسلام الأنصار

ولم يكن الأنصار اسمًا لهم في الجاهلية، حتى سمَّاهم الله به في الإسلام، وهم: بنو الأوْسِ والخَزْرَجِ، والخزرجُ: الريح الباردة وقال بعضهم: وهي الجَنُوبُ خاصَّةً، ودخول الألِف واللام في الأوس على حد دخولها في التَّيْم جمع: تَيْمِيٌّ وهو من باب: رُومِيّ ورُوم، لأن الأَوْسَ هي العطِيّة أو العِوض، ومثل هذا إذا كان عَلَمًا لا يدخله الألف واللام، ألا ترى أنّ كل أَوْسٍ في العرب غير هذا، فإنه بغير ألف ولام كأوس بن حارثة الطَّائيّ وغيره وكذلك، أوس وأُوَيْس: الذئب قال الراجز[1]:

يا لَيْتَ شِعْرِي عَنْه والأَمْرُ عمم   ما فعل اليومَ أُوَيْسٌ بالغَنَمْ

وأبوهم حارثة بن ثعلبة [بن عمرو مُزَيْقيَاء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزدي]، وهو أيضًا: والدُ خُزَاعةَ على أحد القولين، وأمهم: قَيْلَةُ بنت كاهل بن عُذْرَةَ قُضَاعِيَّة ويقال: هي بنت جَفْنَة، واسمه غَلْبَةُ بن عَمْرو بن عامر، وقيل بنت سَيْع بن الهَوْن بن خُزَيْمَة بن مدركة، قاله الزبير بن أبي بكر في كتاب أخبار المدينة.

---

(١) هو الهذلي كما في اللسان وانظر في بدء إسلام الأنصار: تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٣) البداية والنهاية (٣/ ١٤٥) الدلائل للبيهقي (٢/ ٤١٣) المنتظم (٣/ ٢٠).

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عاصم بن عُمر بن قَتادة، عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسولُ الله ﷺ، قال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: نَفَر من الخزرج، قال: أمِنْ موالي يَهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعَرض عليهم الإسلامَ، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعِلْم، وكانوا هم أهلَ شرك وأصحابَ أوثان، وكانوا قد عزُّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا لهم: إن نَبيًّا مبعوثٌ الآن، قد أظل زمانُه، نتَّبعه فنقتلكم معه قتلَ عاد وإرَم. فلما كلَّم رسولُ الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضُهم لبعض: يا قوم، تعلَّموا والله إنه للنبيّ الذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقُنَّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدّقوه وقَبِلوا منه ما عَرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنّا قد تركنا قومَنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، فـ(عسى) أن يجمَعهم الله بك، فسنقدَم عليهم، فنَدْعوهم إلى أمرك، وتَعْرض عليهم الذي أَجَبناك إليه من هذا الدّين، فإنّ يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك.

والأنصار: جمع ناصِر على غير قياس في جمع فاعل، ولكن على تقدير حذف الألف من ناصر، لأنها زائدة، فالاسم على تقدير حذفها: ثُلاثِي والثلاثي يجمع على أَفعال، وقد قالوا في نحوه صاحب وأصحاب وشاهد وأشهاد.

وذكر قول النبي - ﷺ - للنَّفَر من الأنصار: «أمن موالي يهود أنتم»؟ أي من حلفائهم، والمولى يجمع: الحليفَ وابن العم والمُعْتِق والمُعتَق لأنه مَفعَلٌ من الولاية، وجاء على وزن مفعل، لأنه مَفْزَع ومَلْجَأ لولِّيه فجاء على وزن ما هو في معناه.

وذكر النفر القادمين في العام الثاني الذين بايعوه بَيْعَةَ النساء، وقد ذكر الله تعالى بَيْعَة النساء في القرآن فقال: ﴿يُبَايِعْنَكَ على أن لا يُشْرِكْنَ بالله شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢] الآية، فأراد ببيعة النساء أنهم لم يبايعوه على القتال، وكانت مبايعته للنساء أن يأخُذَ عليهن العهد والميثاق، فإذا أقررن بألسنَتِهِنَّ قال: قد بايَعتُكُنَّ، وما مست يدُه يدَ امرأة في مبايعة كذلك قالت عائشة[1]، وقد روى أنهن كن يأخذْن بيده في البيعة من فوق ثَوْبٍ، وهو قول عامر الشعبي، ذكره عنه ابن سلام في تفسيره، والأول أصح وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن المقري النقاش في صفة بيعة النساء وجهًا ثالثًا أورد فيه آثارًا، وهو أن رسولَ الله - ﷺ - كان يغمس يده في إناءٍ وتغمس المرأة يدها فيه عند المبايعة، فيكون ذلك عقدًا للبيعة، وليس هذا

---

(١) انظر البخاري (٧/١٥٣).

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدّقوا.

أسماء الخزرجيين الذين التقوا بالرسول عند العقبة:

قال ابن إسحٰق: وهم ـ فيما ذُكر لي: ستة نفر من الخزرج، منهم من بني النجار ـ وهو تيم الله ـ ثم من بني مالك بن النجّار بن ثعلبة بن عَمْرو بن الخزرج بن حارثة بن عمرو بن عامر: أسعدُ بن زُرَارةَ بن عُدَس بن عُبيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجار، وهو أبو أمامة، وعوفُ بن الحارث بن رفاعة بن سَوَاد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النَّجار، وهو ابن عَفْراء.

قال ابن هشام: وعَفْراء بنتُ عُبَيد بن ثَعْلبة بن عُبَيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجار.

قال ابن إسحٰق: ومن بني زُرَيق بن عامر بن زُرَيق بن عَبْد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العَجْلان بن عَمْرو بن عامر بن زُرَيق.

قال ابن هشام: ويقال عامر بنُ الأزْرق.

قال ابن إسحٰق: ومن بني سَلِمة بن سَعْد بن عليّ بن ساردة بن تزيد بن جُشَم بن الخزرج، ثم من بني سَواد بن غَنْم بن كَعْب بن سَلمة: قُطْبَةُ بن عامر بن حَدِيدة بن عمرو بن غَنْم بن سَواد.

قال ابن هشام: عمرو بنُ سواد، وليس لسَواد ابنٌ يقال له: غَنَم.

قال ابن إسحٰق: ومن بني حَرَام بن كَعْب بن غَنْم بن كَعْب بن سَلَمة: عُقْبَةُ بن عامر بن نابي بن زَيْد بن حَرام.

ومن بني عُبَيد بن عَديّ بن غَنْم بن كَعْب بن سلَمة: جابر بن عبد الله بن رِئاب بن النُّعمان بن سِنَان بن عُبَيد.

فلما قَدِمُوا المدينةَ إلى قومهم ذَكَروا لهم رسولَ الله ﷺ ودَعَوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ من رسول الله ﷺ.

بالمشهور، ولا هو عند أهل الحديث بالثبت، غير أن ابن إسحٰق أيضًا قد ذكره في رواية عن يونس عن أَبَان بن أبي صالح، وذكر أنسابَ الذين بايعوه، وسنعيده في بيعة العقبة وغَزَاة بدر، وهناك يقع التنبيه على ما يحتاج إليه بعون الله.

بيعة العقبة الأولى[١]:

حتى إذا كان العامُ المُقْبِل وافَى المَوْسم من الأنصار اثنا عشَر رجلاً، فلقوه بالعقبة؛ وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ـ ﷺ ـ على بَيْعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب.

منهم من بَني النَّجار، ثم بني مالك بن النجَّار: أسعدُ بن زرارة بن عُدسَ بن عُبيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار، وهو أبو أُمَامة؛ وعَوْف، ومعاذ، ابنا الحارث بن رفاعة بن سَواد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النجّار، وهما ابنا عفراء.

وذكر في أنسابِ المبايعين له في العَقَبَةِ الأولى في بنِي سَلِمَة منهم: سادِرَة بن تَزِيد بن جُشَم، وتَزِيد بتاء منقوطة باثنتين من فوق، ولا يعرف في العرب تَزيد إلا هذا، وتَزِيد بن الحافِ بن قُضَاعَة، وهم الذين تنسب إليهم الثياب التزيدية، وأما سَلِمَة بكسر اللام، فهم من الأنصار سمي بالسَّلِمَة واحدة السَّلاَم، وهي الحجارة، قال الشاعر:

ذَاكَ خَـلِـيـلـي وذو يُـعَـاتِـبـنِـي يَـرْمِـي ورائي بـالـسَّـهْـمِ والـسَّـلِـمَـة

وفي جُعْفِيّ: سلمة بن عمرو بن دهل بن مروان بن جُعِفيّ وفي جُهَيْنَةَ سَلِمَةُ بن نَصْر بن غَطَفَان قاله ابن حبيب النسابة في الصحابة عَمْرو بن سَلِمَة أبو بُرَيْدة الجَرْمِيّ الذي أمَّ قومَه، وهو ابن ست سنين أو سبع، وفي الرُّواة عبد الله بن سَلِمة وينسب إلى بني سَلِمَة هؤلاء سَلِمَيّ بالفتح، كما ينسب إلى بني سَلَمَة، وهم بطنان من بني عامر يقال لهم: السَّلَمات، يقال لأحدهم سَلَمَة الخَيْر، وللآخرَ سَلَمَة الشرِّ ابنا قصير بن كعب بن ربيعة بن عامر، وأما بنو سَلِيمَة بياء ففي دَوْسٍ، وهم بنو سَلِيمَة بن مالك بن فَهْم بن غَنْم بن دَوْس، وسَلِيمَةُ هذا هو أخو جَذِيمة الأَبْرش، وهو الذي قتل أخاه مالكًا بسهم قَتْل خَطأٍ، ويقال في النسب إليه: سَلَمِيٌّ أيضًا وهو القياس، وقد قيل: سَلِيميٌّ كما قيل في عُمَيْرَةُ عُمَيْرِيٌّ.

وذكر بني جِدَارة من بني النجار، وجِدَارة وخُدَارة: أخوان، وغيره يقول في جِدارة: خِدَارة بالخاء المضمومة، وهكذا قيده أبو عمرو، كذلك ذكره ابن دريد في الاشتقاق، وهو أشبه بالصَّواب لأنه أخو خِدْرَة وكثيرًا ما يجعلون أسماء الإخوة مُشْتَقَّة بعضها من بعض.

---

(١) انظر خبر بيعة العقبة الأولى في تاريخ الطبري (٢/ ٣٥٣) البداية والنهاية (٣/ ١٤٥) المنتظم (٣/ ٣٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٦) الدلائل (٢/ ٣٤٠) الكامل (١/ ٦١٠) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٩٢).

ومن بني زرَيق بن عامر: رافعُ بن مالك بن العَجْلان بن عمرو بن عامر بن زريق، وذَكْوان بن عبد قَيْس بن خَلَدة بن مُخْلِد بن عامر بن زُرَيق.

قال ابن هشام: ذَكْوان، مهاجريّ أنصاريّ.

ومن بني عَوْف بن الخزرج، ثم من بني غَنْم بن عوف بن عمرو بن عَوْف بن الخزرج، وهُم القَوَاقِلُ: عُبَادَة بن الصامت بن قَيْس بن أصْرم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنْم؛ وأبو عبد الرحمٰن، وهو يزيد بن ثعلبة بن خَزْمة بن أصْرم بن عمرو بن عَمَّارة، من بني غُصَينة، من بَلِيّ، حليف لهم.

وذكر القَواقِل وهم بنو عمرو بن غَنْم بن مالك، وذكر تسميتهم القَواقِل، وأن ذلك لقولهم إذا أجاروا أحدًا: قَوْقِل حَيْث شئت، وفي الأنصار: القواقِل والجَعادِرُ وهما بطنان من الأوس، وسبب تسميتهما: واحد في المعنى، أما الجَعَادِرُ فكانوا إذا أجاروا أحدًا أعطوه سَهْمًا، وقالوا له: جَعْدِرْب حيث شئت، كما كانت القواقل تفعل، وهم بنو زَيد بن عمرو بن مالك بن ضُبَيْعَةَ [ابن زيد] يقال لهم كسر الذهب، وهما جميعًا من الأَوْس. قال الشاعر:

فـإن لـنـا بـيـن الـجـواري ولـيـدةً مُـقَـابَـلَـة بـيـن الـجَـعَـادِرِ والـكـسْـر
متى تدع في الزيدين زيدِ بن مالك وزيدِ بن عمرو تأتِها عِزَّةُ الخفْرِ

وذكر فيهم أبا الهيثم بن التَّيْهان، ولم ينسبه، ولا نسبه في أهل العقبة الثانية، ولا في غزوة بدر، وهو مالك بن التَّيْهان، واسم التيهان أيضًا مالكُ بن عَتِيكِ بن عَمُرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زَعْونُ بن جُشَم بن الحارث بن الخَزْرَج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأنصارِي حليف بني عبد الأشْهَلِ كان أحد النُّقَباء ليلة العقبة، ثم شهد بدرًا، واختلف في وقت وفاته، فأصح ما قيل فيه إنه شهد مع عليٍّ صِفِّين، وقتل فيها رحمه الله، وأحسب ابن إسحٰق وابنَ هشام تركا نسبه على جلالته في الأنصار وشهوده هذه المشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - لاختلافِ فيه، فقد وجدت في شعر عبد الله بن رَوَاحَة حين أضاف أبو الهيثم رسولَ الله - ﷺ - في منزله ومعه أبو بكر وعمر، فذبح لهم عَناقًا[1] وأتاهم بِقِنْوٍ من رُطَبَ الحديث بطوله، فقال ابن رَوَاحة في ذلك:

فـلـم أر كـالإسـلام عِـزًّا لأهـلِـه ولا مثَل أضيافِ لأراشِيِّ مَعْشَرا

---

(١) العناق: هي أُنثى ولد المعز.

قال ابن هشام: وإنما قيل لهم: القواقل، لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل دفعوا له سهمًا، وقالوا له: قَوْقِلْ به بِيَثْرِبَ حيث شئت.

قال ابن هشام: القَوْقَلَةُ: ضرب من المشي.

وقال ابن إسحٰق: ومن بَني سالم بن عَوْف بن عمرو بن الخزرج، ثم من بني العَجْلان بن زيد بن غَنْم بن سالم: العباس بن عُبادة بن نَضْلة بن مالك بن العَجْلان.

ومن بني سَلِمة بن سَعْد بن عليّ بن أسد بن ساردةَ بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج، ثم من بني حَرام بن كعب بن غَنْم بن سَلمة: عُقْبة بن عامر بن نابي بن زَيْد بن حَرام.

ومن بني سواد بن غَنْم بن كَعْب بن سَلمة قُطْبة بن عامر بن حَديدة بن عمرو بن غَنْم بن سَواد.

رجال العقبة من الأوس:

وشَهِدها من الأوس بن حارثة بن ثَعْلَبة بن عَمْرو بن عامر ثم من بني عَبْد الأشهل بن جُشم بن الحارث بن الخَزْرج بن عَمْرو بن مالك بن الأوس: أبو الهيثم بن التيِّهان، واسمه مالك.

فجعل إرَشِيًّا كما ترى، والأرَاشِيُّ منسوب إلى إراشَةَ في خُزَاعَةَ، أو إلى إراش بن لِحْيَانِ بن الغَوْثِ فالله أعلم: أهُو أنصاري بالحِلْفِ أم بالنَّسَبِ المذكور، قبل هذا، ونقلته من قول أبي عُمرَ في الاستيعاب[1]، وقد قيل: إنَه بلوِيٌّ من بني إرَاشَة بن فاران بن عَمْرو بن بَلِيّ، والهيثم في اللغة: فَرْخُ [النَّسْرِ، أو] العُقَاب، والهيثم أيضًا ضَرْبٌ من العشب فيما ذكر أبو حنيفة، وبه سمي الرجل هَيْثمًا أو بالمعنى الأول وأنشد:

رَعَتْ بِقَرَان الحَزْنِ رَوْضًا منَوَّرًا   عَمِيمًا من الظلاع والهَيْثَم الجَعْدِ

ذكر بيعَتَهم لرسول الله ـ ﷺ ـ على بَيْعَةِ النساء ألا يَسْرِقُوا، ولا يَزْنُوا إلى آخر الآية، وقيل في قوله عزّ وجلّ خبرًا عن بيعة النساء: ﴿ولاَ يأْتِين بِبُهْتَانٍ﴾ أنه الولد تنسبه إلى بَعْلِها، وليس منه، وقيل: هو الاستِمْتَاع بالمرأة فيما دُون الوَطْءِ كالقُبْلة والجَسَّة ونحوها، والأول يشبه أن يبايع عليه الرجالُ، وكذلك قيل في قوله تعالى: ﴿ولاَ يعْصِينَك في مَعْرُوفٍ﴾ أنه

(١) الاستيعاب (٤/ ١٧٧٧).

قال ابن هشام: التَّيْهان: يخفف ويثقل، كقوله: ميث وميِّت.

رجال العقبة الأولى من بني عمرو:

ومن بني عمرو بن عَوْفَ بن مالك بن الأوس: عُوَيم بن ساعِدة.

بيعة العقبة:

قال ابن إسحٰق: وحدثني يزيد بن أبي حَبيب، عن (أبي) مَرْثد بن عبد الله اليزني، عن عبد الرحمن بن عُسَيلة الصُّنابحي، عن عُبادة بن الصامت، قال: كنت فيمن حَضَر العقبةَ الأولى، وكنَّا اثْنَيْ عَشَر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بَيْعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض الحرب، على أن لا نُشرك بالله شيئًا، ولا نَسْرق، ولا نَزْني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتيَ ببهتان نَفْتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعْصيَه في معروف. فإن وَفَّيتم فلكم الجنة. وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأمرُكم إلى الله عَزّ وجلّ إن شاء عذّب وإن شاء غَفر.

قال ابن إسحٰق وذكر ابنُ شهاب الزهريّ، عن عائذ الله بن عَبد الله الخَوْلاني أبي إدريس أنّ عُبادة بن الصامت حدّثه أنه قال: بايعنا رسولَ الله ﷺ ليلةَ العَقَبَةَ الأولى على أن لا نُشْركَ بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادَنا، ولا نأتي بِبُهْتَانٍ نَفْتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نَعْصيه في معروف، فإن وَفَيتم فلكم الجَنَّة، وإن غَشِيتم من ذلك فأخِذتم بحَدّه في الدنيا، فهو كفَّارة له، وإن سُتِرْتم عليه إلى يوم القيامة فأمْرُكم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذّب، وإن شاء غَفَر.

النَّوْح، وهذا أيضًا وليس من شأن الرجال، فدل على ضعف قول من خصه بالنَّوْح، وخص البُهتان بإلحاق الولد بالرجل، وليس منه، وقيل: يفترينه بين أيديهن يعني: الكذب وعيْبَ الناس بما ليس فيهم، وأرجلِهن يعني: المشي في معصية، ولا يَعْصِينك في معروف، أي: في خير تأمُرُهُنَّ به، والمعروف: اسم جامع لمكارم الأخلاق، وما عرف حُسْنُه ولم تنكره القلوبُ، وهذا معنى يعم الرجالَ والنساءَ، وذكر ابن إسحٰق في رواية يونس فيما أخذه عليه السلام عليهن: أن قال: ولا تَغْشُشْنَ أزواجَكن، قالت إحداهن: وما غِشُّ أزواجنا فقال: أن تَأْخُذِي من ماله فَتُحَابي به غيرَه[1].

(١) أخرجه أحمد.

مصعب بن عمير ووفد العقبة

قال ابن إسحٰق: فلما انصرف عنه القومُ، بعث رسولُ الله ﷺ معه مُصعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مَناف بن عَبْد الدار بن قُصَيّ، وأمره أن يُقْرئهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويفقِّههم في الدين، فكان يُسَمى المُقرىءَ بالمدينة: مُصْعَبُ وكان مَنْزَلُه على أسْعد بن زُرارة بن عُدَس، أبي أُمامة.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عاصم بن عُمر بن قتادة: أنه كان يصلي بهم، وذلك أن الأوسَ والخزرَج كَره بعضُهم أن يَؤُمَّه بعضٌ.

هجرة مصعب بن عمير[١]

فصل: وذكر هِجْرَة مُصْعَب بن عُمَيْر وهو المُقْرِىءُ، وهو أول من سُمِّي بهذا، أعني المُقْرِىءَ يُكْنَى أبا عبد الله، كان قبل إسلامه من أنْعَم قريشٍ عَيْشًا وأعطرهم، وكانت أمه شديدة الكَلَفِ به، وكان يبيت وقَعْبُ[٢] الحَيْس[٣] عند رأسه، يستيقظ فيأكل، فلما أسلم أصابه من الشِّدَّة ما غيَّر لونَه وأذهب لحمه، ونَهَكَتْ جسمَه حتى كان رسولُ الله - ﷺ - ينظر إليه، وعليه فروة قد رفعها، فيبكي لما كان يعرف من نَعْمته[٤]، وحلفت أمُّه حين أسلم وهاجَر ألاَّ تأكُلَ ولا تشربَ ولا تَسْتَظِلَّ بظل حتى يرجع إليها، فكانت تقف للشمس حتى تسقط مَغْشِيًا عليها، وكان بنوها يحْشُون فاها بِشِجَارٍ، وهو عود فيصبُّون فيه الحَسَاءَ لئلا تموتَ، وسنذكر اسمَها ونسبَها عند ذكره في البَدْرِيِّين إن شاء الله تعالى، وكان رسول الله - ﷺ - يذكره، فيقول: ما رأيت بمكة أحسن لِمَّةً، ولا أَرَقَّ حُلَّةً ولاَ أَنْعَمَ نَعْمَةً من مُصْعَبِ بن عُميْر ذكره الواقدي[٥]. وذكر أيضًا بإسنادٍ له، قال: كان مُصْعب بن عمَير فتى مكة شَبَابًا وجمالاً وسِنًّا وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعْطَر أهلِ مكة يلبس الحَضْرَمِيَّ من النِّعال[٦].

وذكر أنَ مَنْزَلَه كان على أَسْعَد بن زُرَارَةَ، مَنزَلٌ بفتح الزاي، وكذلك كل ما وقع في هذا الباب من مَنْزَل فلان على فلان، فهو بالفتْح، لأنه أراد المصدر، ولم يُرِد المكان، وكذا قيده الشيخ أبو بحر بفتح الزاي، وأما أُمُّ قَيْس بنت مُحْصِن المذكورة في هجرة بني أسد،

---

(١) انظر الاستيعاب (٤/ ١٤٧٣).
(٢) القعب: القدح الضخم.
(٣) الحيس: التمر يُخلط بسمن وأقط [لبن مجفف] فيُعجَن عجنًا شديدًا.
(٤) أخرجه الترمذي.
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١/ ٨٢) والحاكم (٣/ ٢٠٠).
(٦) نعال حضرمية: نسبة إلى حضرموت.

أول جمعة أُقيمت بالمدينة

قال ابن إسحٰق: وحدّثني محمّد بن أبي أُمامة بن سَهل بن حُنيف، عن أبيه أبي أُمامة، عن عبد الرحمن بن كَعْب بن مالك، قال: كنت قائدَ أبي، كَعب بن مالك، حين ذهبَ بَصره، فكنتُ إذا خرجتُ به إلى الجُمْعة، فسمع الأذان بها صلى على أبي أُمامة، أسعد بن زُرَارَة. قال: فمكث حينًا على ذلك: لا يَسْمع الأذان للجُمعة إلا صلّى عليه واستغفر له. قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لَعَجْز، ألا أسألَه ما لَه إذا سَمِع الأذان للجمعة صلى على أبي أُمامة أسعد بن زُرَارَة؟ قال: فخرجت به في يوم جُمعة كما كنت أخرج، فلما سَمِعَ الأذانَ للجمعة صلى عليه واستغفر له. قال: فقلت له: يا أَبتِ،

فاسمها آمنة وهي أخت عكاشة، وهي التي ذكرت في المُوَّطأ وأنها أتت بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله ﷺ.

أول جمعة

فصل: وذكر أولَ من جَمَّع بالمدينة، وهو أبو أُمَامة، وذكر غيره أن أوّلَ من جَمَّع بهم مُصْعَبُ بن عُمَيْر، لأنه أوّل من قدم المدينة من المهاجرين، ثم قدم بعده ابنُ أُمّ مَكْتُوم، وقد ذكرنا في أوّل الكتاب مَنْ جمع في الجاهلية بمكة فخطب وذكَّر وبَشَّر بمبعث النبي ﷺ، وحَضَّ على اتباعه، وهو كَعْب بن لُؤَيّ ويقال: إنه أول من سمى العَرُوبَةَ الجمعة، ومعنى العَرُوبَةِ الرحمة فيما بلغني عن بعض أهل العلم، وكانت قريش تجتمع إليه فيها فيما حكى الزبير بن بكار، فيخطبهم، فيقول: أما بعد فاعلموا وتعلَّموا إنما الأرضُ لله مهادٌ، والجبالُ أَوْتاد، والسماءُ بناءٌ، والنجوم سملا، ثم يأمرهم بصلَةِ الرَّحِم، ويبشرهم بالنبي ﷺ[1]، ويقول: حَرَمُكُمْ يا قوم عظِّمُوه، فسيكون لَه نَبأٌ عظيم، ويخرج منه نبي كريم، ثم يقول في شعر ذكره:

على غَفْلة يأتي النبي محمدٌ ... فيخبر أخبارًا صَدُوقٌ خبيرُها

صُروفٌ رأيناها تُقلِّب أهلَها ... لها عُقَدٌ ما يستحيل مريرها

ثم يقول:

يا ليتني شاهدٌ فَحْوَاءَ دَعْوته ... إذا قُرَيْش تَبغي الحقَّ خِذْلانا

وأما أول من جمع في الإسلام فهو مَنْ ذكرنا.

---

(١) تقدم التعليق على هذه البشارة.

ما لك إذا سمعتَ الأذان للجمعة صَلَّيت على أبي أُمَامَةَ؟ قال: أَيْ بُنَيّ، كان أوَّل من جَمَّع بنا بالمدينة في هَزْم النَّبيت، من حَرّة بني بَيَاضَة، يقال له: نَقِيعُ الخَضِمَات، قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا[1].

نقيع الخضمات:

وذكر ابن إسحٰق أنه جمع بهم أبو أمامة عند هَزْم النَّبِيتِ في بَقِيعٍ يقال له بقيع الخَضِمَاتِ. بقيع بالباء وجدته في نسخة الشيخ أبي بحر، وكذلك وجدته في رواية يونس عن ابن إسحٰق، وذكره البكري في كتاب مُعْجَم ما استَعْجَم من أسماد البُقَع أنه نَقِيعٌ بالنون، ذكره في باب النون والقاف، وقال: هَزْم النَّبيت: جَبَلٌ على بريد من المدينة، وفي غريب الحديث: أنه عليه السلام حمى غرز النقيع. قال الخطابي: النقيعُ: القاعُ، والغَرَزُ شبه الثُّمام وسيأتي تفسيرُه فيما بعد إن شاء الله تعالى، ومعنى الخَضِمَاتِ من الخَضْم، وهو الأكْل بالفم كله، والقَضْمُ بأطراف الأسنان، ويقال: هو أكل اليابس، والخَضْمُ: أكل الرطب، فكأنه جمع خَضِمَة، وهي الماشية التي تَخْضَم، فكأنه سمي بذاك لخضب كان فيه، وأما البقيع بالباء فهو أقرب إلى المدينة منه بكثير، وأما بقيع الخَبْجَبَة بخاء وجيم وباءين، فجاء ذكره في سُنَنِ أبي داود: والخَبْجَبَةُ: شَجَرَةٌ عُرِف بها.

الجمعة:

فصل: وتجميع أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ الجمعةَ وتسميتُهم إيَّاها بهذا الاسم وكانت تسمى العَرُوبَةَ ـ كان عن هِدايةٍ من الله تعالى لهم قبل أن يُؤْمَروا بها، ثم نزلت سورة الجمعة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، فاستقر فرضُها واستمر حكمُها، ولذلك قال ـ ﷺ ـ في يوم الجمعة: أَضَلَّتْه اليهودُ والنصارى، وهداكم الله إليه[2].

ذكر الكَشِّي، وهو عَبْدُ بن حميد قال: نا عبد الرزاق عن مَعْمَر عن أيوب عن ابن سيرين قال: جمع أهلُ المدينة قبل أن يَقْدَم النبي ـ ﷺ ـ المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة، وهم الذينَ سَمَّوا الجُمْعَة، قال الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فَهَلُمَّ، فلنجعلْ يومًا نجتمع فيه، ونذكر الله، ونصلي ونشكر، أو كما قالوا، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوا يوم العَرُوبة، كانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زُرَارَة، فصلى بهم يَوْمَئذٍ ركعتين، فذكرهم،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٦٩) بتحقيقي.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٢/٢٣) والنسائي (٤/٨٧) وغيرهما ـ بنحوه.

فسموا الجمعة حين اجتمعوا إليه، فذبح لهم شاةً فَتَغدَّوا وتَعشَّوْا من شاةٍ، وذلك لقلتهم، فأنزل الله ـ عزّ وجلّ ـ في ذلك: ﴿إِذا نُودِي للصلاةِ مِنْ يَوم الجُمعة فاسعَوْا إلى ذكر الله﴾ [الجمعة: ٩].

قال المؤلف: ومع توفيق الله لهم إليه، فيبعد أن يكونَ فعلُهم ذلك عن غير إذن من النبي ـ ﷺ ـ لهم، فقد روى الدَّارَقُطْنِيُّ عن عُثمان بن أحمد بن السَّمَّاك، قال: نا أحمد بن محمّد بن غالب الباهِلِيّ، قال: نا محمّد بن عبد الله أبو زيد المَدَنِي، قال: نا المغِيرَةُ بن عبد الرحمٰن، قال: حدّثني مالك عن الزُّهْرِيِّ عن عُبَيْدِ الله بن عبْد الله عن ابن عباس، قال: أذن النبيُّ ﷺ بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع: رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يجمع بمكة، ولا يُبدي لهم، فكتب إلى مُصْعب بن عُمَيْر: أما بعد: فانظر اليوم الذي تَجْهَر فيه اليهود بالزَّبُورِ لِسَبْتهم، فأجْمَعُوا نساءَكم وأبناءَكم، فإذا مال النهارُ عن شَطْرِه عند الزَّوال من يوم الجمعة، فتقربوا إلى الله بركعتين قال: فأوّل من جَمَّع: مُصْعَبْ بن عُمَيْر، حتى قدم رسول الله ﷺ ـ المدينة، فجمع عند الزوال من الظهر[1]، وأظهر ذلك، ومعنى قول النبي ـ ﷺ ـ أضلَّته اليهودُ والنصارى، وهداكم الله إليه فيما ذكر أهل العلم أن اليهود أُمِرُوا بيوم من الأُسبوع، يعظَمون الله فيه، ويتفرغون لعبادته، فاختاروا من قِبَلِ أنفسهم السبت فأُلْزِمُوه في شرعهم، كذلك النصارى أُمِرُوا على لسان عيسى بيوم من الأسبوع، فاختاروا من قِبَل أنفسهم الأحدَ، فأُلْزِموه شرْعًا لهم.

قال المؤلف: وكان اليهودُ إنما اختاروا السبتَ، لأنهم اعتقدوه اليوم السابعَ، ثم زادوا لكفرِهم أن الله استراح فيه، تعالى الله عن قولهم، لأن بَدْءَ الخَلْق عندهم الأحد، وآخر الستة الأيام التي خلق الله فيها الخلق الجمعة، وهو أيضًا مذهب النصارى، فاختاروا الأحدَ، لأنه أول الأيام في زعمهم، وقد شهد الرسول ـ ﷺ ـ للفريقين بإضلال اليوم، وقال في صحيح مُسْلِم: «إن الله خلق التربة يوم السبت»[2]، فبيَّن أن أول الأيام التي خلق الله فيها الخلقَ السبت، وآخر الأيام الستة إذًا الخميس، وكذلك قال ابن إسحٰق فيما ذكر عنه الطبري، وفي الأثر أن يوم الجمعة سُمِّي الجمعة، لأنه جُمع فيه خَلْقُ آدم، روي ذلك عن سَلْمَان وغيره، وقد قدمنا في حديث الكَشّي أن الأنصار سَمَّوْه جُمْعَةً لاجتماعهم فيه، فهداهم الله إلى

(١) أخرجه الدارقطني.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٤٩) وأحمد (٣٢٧٢) والبيهقي في الصفات (٢٦) بتحقيقي. وانظر ما قاله شيخ الإسلام حول هذا الحديث في الفتاوى (١٨/١٨).

التسمية، وهداهم إلى اختيار اليوم، وموافقة الحكمة أن الله تعالى لما بدأ فيه خَلْقَ أَبينا آدمَ، وجعل فيه بَدْء هذا الجنس، وهو البشر، وجعل فيه أيضًا فناءَهم وانقضاءَهم إذ فيه تقوم الساعةُ، وجب أن يكون يومَ ذِكْرٍ وعبادة، لأنه تذكرة بالمبدأ، وتذكرة بالمعاد، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فاسعَوْا إلى ذكرِ اللَّهِ وذَرُوا البَيْع﴾ [الجمعة: ٩] وخص البيعَ لأنه يومٌ يُذَكِّر باليوم الذي لاَ بيْعٌ فيه ولا خُلَّة مع أنه وِترٌ للأيام التي قبله في الأصح من القول، والله يحب الوَتْر، لأنه من أسمائه فكان من هُدَى الله لهذه الأمة أن أُلْهِمُوا إليه ثم أُقِرُّوا عليه لَمَّا وافقوا الحكمة فيه، فهم الآخِرون السابقون يوم القيامة، كما قال عليه السلام، كما أن اليومَ الذي اختاروه سابقٌ لما اختارته اليهود والنصارى، ومتقدم عليه، ولذلك كان يقرأ رسول الله ﷺ سورة السجدة في صبح يوم الجمعة رواه سَعِيد بن إبراهيم عن الأعرج عن أبي هريرة، ورواه مُسْلم البَطِينُ عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس كلاهما عن النبي - ﷺ - ورواه عن سعيد بن جبير أيضًا عُزْوَةُ بن عبد الرحمٰن ذكره البزار، ورواه الترمذي في كتاب العلل له عن الأحوص، ورواه أيضًا عن أبي الأحوص، وعن عَلْقَمَةَ عن عبد الله بن مسعود عن رَسول الله ﷺ لما فيه من ذكر الستة الأيام واتباعها بذكر خلق آدم من طين، وذلك في يوم الجمعة تنبيهًا منه عليه السلام على الحكمة، وتذكرة للقلوب بهذه الموعظة.

وأما قراءته: ﴿هَلْ أتى على الإنسان حينٌ من الدَّهرِ﴾ في الركعة الثانية، فلِمَا فيها من ذكر السَّعْيِ وشكر الله لهم عليه يقول: ﴿وكان سَعْيُكم مَشْكورًا﴾ مع ما في أولها من ذكر بَدْءِ خلق الإنسان، وأنه لم يكن قبل شيئًا مذكورًا، وقد قال في يوم الجمعة: ﴿فاسعَوْا إلى ذكرِ الله﴾ فنبه بقراءته إياها على التأهب للسعي المشكور عليه والله أعلم، ألا ترى أنه كان كثيرًا ما يقرأ في صلاة الجمعة أيضًا بِهَلْ أتاك حديث الغَاشِية، وذلك أن فيها: ﴿لسَعْيِها رَاضِية﴾ كما في سورة الجمعة، ﴿فاسْعَوْا إلى ذكر الله﴾ فاستَحَبَّ عليه السلام أن يقرأ في الثانية ما فيه رضاهم بسعيهم المأمور به في السورة الأولى.

لفظ الجمعة:

ولفظ الجمعة مأخوذ من الاجتماع، كما قدمنا وكان على وزن فُعْلَة وفُعُلَة لأنه في معنى قُرْبَة، وقُرُبَةَ والعرب تأتي بلفظ الكلمة على وزن ما هو في معناها، وقالوا: عُمْرَة، فاشتقوا اسمها من عِمَارة المسجد الحرام، وبنوه على فُعْلة لأنها وُصْلَة وقُرْبةٌ إلى الله، ولهذا الأصل فروعٌ في كلام العرب، ونظائر لهذين الاسمين يُفيتُنا تتبعه عما نحن بسبيله، وفيما قَدَّمناه ما هو أكثر منْ لَمحةٍ دالة، وقالوا في الجمعة جَمَّع بتشديد الميم كما قالوا عَيَّد إذا شهد العيد،

وعَرَّف إذا شهد عَرَفة، ولا يقال في غير الجُمُعَة إلا جَمَع بالتخفيف، وفي البخاري: أول من عَرَّف بالبَصْرَة: ابنُ عباس، والتعريف إنما هو بِعَرَفات، فكيف بالبصرة، ولكن معناه أنه رضي الله عنه إذا صلى العصر يوم عَرَفَة أخذ في الدعاء والذكر والضراعة إلى الله تعالى إلى غروب الشمس، كما يفعل أهلُ عَرَفة.

أيام الأسبوع:

وليس في تسميته هذه الأيام والاثنين إلى الخميس ما يشد قول من قال: إن أوّل الأسبوع: الأحدُ وسابعُها السبت، كما قال أهل الكتاب لأنها تسمية طارئة، وإنما كانت أسماؤها في اللغة القديمة شِيَار وأوّل وأَهْوَن وجُبَار ودُبَار ومُؤنِسُ والعَرُوبَةُ، وأسماؤها بالسريانية قبل هذا أبو جاد هَوَّز حُطِّي إلى آخرها، ولو كان الله تعالى ذكرها في القرآن بهذه الأسماء المشتقة من العدد، لقُلْنا: هي تسمية صادقة على المسمَّى بها، ولكنه لم يذكر منها إلا الجُمُعَة والسَّبْت، وليسا من المُشْتَقَّة من العَدَدِ، ولم يُسَمِّها رسول الله ﷺ ـ بالأحد والاثنين إلى سائرها إلا حاكيًا للغة قومه لا مُبْتَدِئًا لتسميتها، ولعل قومَه أن يكونوا أخذوا معاني هذه الأسماء من أهل الكتاب المجاورين لهم، فألقوا عليها هذه الأسماءَ اتباعًا لهم، وإلاَّ فَقَدْ قدمنا ما ورد في الصحيح من قوله عليه السلام: إن الله خلق التُّرْبَةَ يَوْمَ السبت والجبالَ يوم الأحد، الحديث، والعجب من الطَّبَرِيِّ على تَبَحره في العلم كيف خالف مقتضى هذا الحديث، وأَعْنَقَ في الرد على ابن إسحٰق وغيره، ومال إلى قول اليهود في أن الأحد هو الأول ويومَ الجمعة سادسٌ لا وتر وإنما الوتر في قولهم يوم السبت مع ما ثبت من قوله عليه السلام: أضلَّته اليهودُ والنصارى، وهداكم الله إليه، وما احتج به بالطبري من حديث آخر، فليس في الصحة كالذي قدمناه، وقد يمكن فيه التأويل أيضًا، فقف بقلبك على حكمة الله تعالى في تعبد الخلق به لما فيه من التذكرة بإنشاء هذا الجنس ومبدئه، كما قدمنا، ولما فيه أيضًا من التذكرة بأَحِدِيَّة الله سبحانه، وانفراده قبل الخلق بنفسه، فإنك إذا كنت في الجمعة، وتفكرت في كل جمعة قبله حتى يترقى وهمُك إلى الجمعة التي خُلِق فيها أبوك آدم ثم فكرت في الأيام الستة التي قبل يوم الجمعة، وجدت في كل يوم منها جِنْسًا من المخلوقات موجودًا إلى السَّبْت، ثم انقطع وهمُك فلم تجد في الجمعة التي تلي ذلك السبتَ وجودًا إلا للواحد الصَّمَدِ الوتر، فقد ذكرت الجمعةُ مَنْ تفكّر بوَحْدانية الله وأَوَّلِيته، فوجب أن يُؤَكَّد في هذا اليوم توحيدُ القلب للربِّ بالذكر له، كما قال تعالى: ﴿فاسعَوْا إلى ذِكْرِ اللَّهِ وذَرُوا البيعَ﴾ الجمعة. وأن يتأكد ذلك الذكرُ بالعمل، وذلك بأن يكون العملُ مشاكلاً لمعنى التوحيد، فيكون الاجتماع في مسجد واحدٍ من المساجد، وإلى إمام واحد من الأئمة،

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير

قال ابن إسحق: وحدّثني عبيد الله بن المُغيرة بنُ مُعَيْقِب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عَمْرو بن حَزْم: أن أسْعد بن زُرَارَةَ خرج بمُصْعَبِ بن عُمَيْر يريد به دارَ بني عَبْد الأَشْهَل، ودارَ بني ظَفَر، وكان سعدُ بن مُعاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زَيْد بن عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زُرارة، فدخلَ به حائطًا من حَوائط بني ظَفر.

قال ابن هشام: واسم ظَفَرٍ: كَعْب بن الحارث بن الخَزْرج بن عمرو بن مالك بن الأوس - قالا: على بِئْر يقال لها: بئر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأَسَيْد بن حُضَير، يومئذ سيدًا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشْرك على دين قومه، فلمَّا سمعا به قال سعدُ بن مُعَاذٍ لأُسَيْد بن حُضَيْر: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَينا ليسفِّها ضُعفاءنا،

ويخطب ذلك الإمام، فيذكِّر بوحدانية الله تعالى وبلقائه، فيشاكل الفعل القول، والقول المعتقد، فتأمل هذه الأغراض بقلبك، فإنها تذكرة بالحق، وقد زِدنا على ما شرطنا في أول الكتاب معاني لم تكن هنالك، وعدنا بها، ولكن الكلامَ يفتح بعضُه بابَ بعض، ويحدو المتكلم قصد البيات إلى الإطالة، ولا بأس بالزيادة من الخير، والله المستعان.

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير[1]

وسمع أهلُ مكة هاتفًا يهتف، ويقول قبل إسلام سعد:

فإن يسلم السَّعْدان يصبح محمدٌ ... بمكةَ لا يخشى خِلاَفَ المُخَالِفِ

فَحسِبوا أنه يريد بالسَّعْدين: القبيلتين سعد هُذَيم من قُضاعة، وسعد بن زَيْد مَنَاة بن تميم، حتى سمعوه يقول:

فيا سَعْدَ سَعْد الأوسِ كن أنت ناصرًا ... ويا سَعْد سعد الخَزْرَجين الغَطَارِف

أَجِيبا إلى داعي الهدى وَتَمنَّيا ... على الله في الفِرْدَوْسِ مُنْيَةَ عارِف

فعلموا حينئذ أنه يريد سعدَ بن مُعَاذٍ وسَعْدَ بن عُبَادَة[2].

---

(١) له ترجمة في الإصابة (١/ ٣٩) تاريخ الصحابة (٣٠) الاستيعاب (١/ ٥٤) الطبقات (٣/ ٦٠٣) مشاهير علماء الأمصار لابن حبان (٣٦) بتحقيقي.

(٢) انظر الفتح (٧/ ٩٧).

فازجُرهما وانهَهُما عن أن يَأتيا دارَنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدّمًا، قال: فأخذ أسيد بن حُضَير حَرْبَته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعدُ بن زُرَارَةَ، قال لمصعب بن عمير: هذا سيِّد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّمًا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيتَ أمرًا قبلتَه، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفتَ، ثم رَكَزَ حَرْبَتَه وجلس إليهما، فكلَّمه مُصْعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لَعَرَفْنَا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتَسَهُّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأجمَله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تَشهد شهادة الحقّ، ثم تصلّي. فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحقّ، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلَّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعدَ بن معاذ،

هل يغتسل الكافر إذا أسلم؟

وذكر فيه اغتسالهما حين أسلما بأمر مُصْعَبِ بن عُمَيْر لهما بذلك، فذلك السُّنَّةُ في كل كافر يسلم، ثم اختلف في نية الكافر إذا أسلم باغتساله، فقال بعضهم ينوي به رفع الجَنَابة عن نفسه، وقال بعضهم: ينوي التعبُّد، ولا حُكْم للجَنَابةِ في حقِّه، لأن معنى الأمر به استباحةُ الصلاةِ، والكافرُ لا يُصَلِّي، وإن كان مخاطَبًا في أصح القولين، ولكنه أمر مشروط بالإيمان، فإذا لم يكن الإيمان - وهو الشرط الأول - فأجْدِرْ بأن يكون - الشرط الثاني - وهو الغسل من الجنابةِ غيرَ مُقيَّدٍ بشيء، فإذا أسلم هدَم الإسلامُ ما كان قبلَه، فلم يجب عليه إعادةُ صلاةٍ مضت، وإذا سقطت الصلواتُ سقطت عنها شروطها، واستأنف الأحكام الشرعية، فتجب عليه الصلواتُ من حين يسلم بشروط أدائها من وضوءٍ وغسل من جنابة، إذا أجْنَب بعد إسلامه، وغير ذلك من شروط صحة الصلاة، ورأيت لبعض المتأخرين أن اغتسالَه سِنَّةٌ لا فريضة وليس عندي بالبيِّن لأن الله سبحانه يقول: ﴿إنما المشركون نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] وحكم النجاسة إنما يُرفع بالطهارة ولم يحكم عليهم بالتَّنجِيس لموضع الجَنَابة؛ لأنه قد علق الحكم بصفة الشرك. والحكم المعلَّل بالصفة مرتبطٌ بها فإذا ارتفع حكمُ الشرْكِ بالإيمان لم يبق للجنَابة حكم كما إذا كان المسلمُ جُنُبًا، ثم بال فالطهور من الجنابة، يرفع عنه حكم الحَدَث الأصغر، وهو حَدَثُ الوُضُوءِ، لأن الطهارةَ الصُّغرى داخلةٌ في الكُبرى، وتطهُّره من تَنْجيس الشرك بإيمانه هو أيضًا بالإضافة إلى الطهر من الجنابة، الطهارة الكبرى، فينبغي أن تكون مُغْنِية عنها، كما كانت الطهارةُ من الجنابة مُغْنِيةً عن الطهارة من الحَدَث، إذ

ثم أخذ حَرْبته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سَعْد بن معاذ مُقْبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقَف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتُهما فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرَارَة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخفروك قال: فقام سعد مُغْضَبًا مبادرًا، تخوّفًا للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما؛ فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعدٌ أن أُسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أتَغْشانا في دارينا بما نكره - وقد قال أسعدُ بن زرارة لمصعب بن عُمير: أي مُصْعب، جاءك والله سيِّد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلَّف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتَسمع، فإن رضيتَ أمرًا ورَغبت فيه قَبِلْتَه، وإن كرهته عَزَلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفْت ثم ركز الحربةَ وجلس، فعرض عليه الإسلامَ، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم، لإشراقه وتسهُّله؛ ثم قال لهما: كيف تَصْنَعُون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهَّر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقّ، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحقّ، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أُسَيد بن حُضَير.

قال: فلما رآه قومُه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلُنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً؛ قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة، ورجع أسْعد ومُصْعب إلى منزل أسعد بن زُرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني

ليست واحدةٌ من هذه الطهارات مزيلةً لِعَيْنِ نجاسة فيها، فينبغي بعد هذا أن أمره بالاغتسال تعبُّد، والحُكم بأنه غير فرض تحكُّم والله أعلم، غير أن الترمذي خرج حديثَ قيسِ بن عاصم حين أسلم فأمره رسولُ الله ﷺ أن يغتسل. قال الترمذي: وعلى هذا العمل عند أهل العلم يَسْتحِبُّون للكافر إذا أسلم أن يغتسل، ويغسل ثيابه، فقال: يستحِبُّون، وجعلها مسألة استحباب.

أميَّة بن زيد، وخطْمة ووائل وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعرًا لهم قائدًا يستمعون منه ويُطيعون، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجَر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدرٌ وأُحد والخندق، وقال فيما رأى من الإسلام، وما اختلف الناس فيه من أمره:

أَرَبَّ النَّاسِ أشياءُ أَلَمَّتْ ... يُلَفُّ الصَّعْبُ منها بالذَّلُولِ

أربَّ النَّاسِ أمَّا إذْ ضَلَلْنا ... فَيَسِّرنا لِمَعْروف السَّبيل

فلولا رَبُّنا كُنَّا يَهُودًا ... وما دين اليهود بذي شُكول

ولولا رَبُّنا كنَّا نَصارَى ... مع الرُّهْبان في جَبَلِ الجليل

ولَكِنَّا خُلِقْنا إذْ خُلِقْنا ... حَنِيفًا دِينُنا عن كُلّ جيل

نسوق الهَدْي ترسُف مُذْعنات ... مكشفةَ المَناكب في الجُلُول

قال ابن هشام: أنشدني قوله: فلولا ربنا، وقوله: لولا ربنا، وقوله: مكشفة المناكب في الجلول، رجل من الأنصار، أو من خزاعة.

من شرح شعر ابن الأسلت:

فصل: وذكر شعر أبي قيس بن الأسْلَت، وفيه قوله:

ولولا رَبُّنا كُنَّا يَهُودًا ... وما دينُ اليهود بذي شُكُول

إراد جمع: شَكْل، وشَكْلُ الشيءِ ـ بالفتح ـ هو مثلُه، والشِّكل بالكسر الدَّلُّ والحُسْنُ، فكأنه أراد أنَّ دينَ اليهود بِدْعٌ، فليس له شُكول أي: ليس له نظير في الحقائق، ولا مثِيل يعضُدُه من الأمر المعروف المقبول، وقد قال الطائي:

وقلت: أخي. قالوا: أخٌ من قَرَابَةٍ ... فقلت لهم: إنَّ الشُّكُولَ أقاربُ

قَريبيَ في رَأيي ودِيني ومَذْهبي ... وإن باعدتنا في الخطوب المناسب

وقال فيه:

مع الرهبان في جَبَلِ الجليل

الجليلُ بالجيم الثُّمامَ، وهذا الجبل من جبال الشام معروف بهذا الاسم.

أمر العقبة الثانية[١]:

قال ابن إسحٰق: ثم إن مُصْعب بن عُمير رجَع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار المسلمين إلى المَوْسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشِّرك، حتى قَدموا مكة، فواعدوا رسولَ الله ﷺ العقبةَ، من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنبيِّه، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

البراء بن معرور وصلاة الكعبة

قال ابن إسحٰق: حدّثني مَعْبد بن كَعْب بن مالك بن أبي كعب بن القَيْن، أخو بني سلمة، إن أخاه عبد الله بن كعب، وكان من أعلم الأنصار، حدّثه أن أباه كعبًا حدّثه، وكان كعبٌ ممن شَهِد العقبة وبايع رسولَ الله ﷺ بها، قال: خرجنا في حُجَّاج قومنا من المُشركين، وقد صلَّينا وفَقِهنا، ومعنا البَرَاءُ بن مَعْرُور، سيِّدُنا وكبيرنا، فلما وَجَّهْنا لِسَفَرِنا، وخَرجْنا من المدينة، قال البرَاء لنا: يا هؤلاء، إني قد رأيت رأيًا، فوالله ما أدري، أتوافقونني عليه، أم لا؟ قال: قلنا: وما ذاك؟ قد رأيت أنْ لا أدع هذه البَنِيَّة مني بظَهْرٍ، يعني: الكعبة، وأن أُصَلِّي إليها. قال: فقلنا، والله ما بَلغنا أن نبيَّنا ﷺ يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه. قال: فقال: إني لَمُصَلٍّ إليها قال: فقلنا له: لكنَّا لا نفعل. قال: فكنا إذا حضرت الصلاةُ صلَّينا إلى الشام، وصلى إلى الكعبة، حتى قَدِمنا مكة. قال: وقد كنا عبنا عليه ما صنع، وأتَى إلا الإقامة على ذلك فلما قَدمنا مكة قال لي: يا ابن أخي، انطلقْ بنا إلى رسول الله ﷺ، حتى نسأله عما صنعتُ في سَفري هذا، فإنه والله لقد وَقَع في نفسي منه شيءٌ، لِما رأيتُ من خِلافكم إيَّاي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسولِ الله ﷺ، وكنَّا لا نعرفه، ولمْ نَرَه قبل ذلك فلقيَنا رجلاً من أهل مكة، فسألناه عن رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا؛ قال: فهل تعرفان العبَّاس بن عبد المطَّلب عَمَّه؟ قال: قلنا: نعم ـ قال: وقد كنَّا نعرف العبَّاس، كان لا يزال يقدَم

ذكر البراء بن معرور، وصلاته إلى القبلة[٢]

ذكر حديث كعبِ بنِ مالك حين حَجَّ في نَفَرٍ من قومه مع البَراءِ بن مَعْرُور، فكانوا يُصلّون إلى بيت المَقْدس، وكان البَرَاءُ يصلّي إلى الكعبة الحديث ـ إلى قول رسول

(١) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٠) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٠٠) البداية والنهاية (٣/ ١٥٠) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١) المنتظم (٣/ ٣٤) الدلائل للبيهقي (٢/ ٤٤٢).

(٢) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٣٦) الدلائل للبيهقي (٢/ ٤٤٤) المنتظم (٣/ ٣٤) الاستيعاب (١/ ١٥١).

علينا تاجرًا ـ قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجلُ الجالسُ مع العبَّاس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالسٌ، ورسولُ الله ﷺ جالسٌ معه، فسلَّمنا ثم جلسنا إليه. فقال رسولُ الله ﷺ للعبَّاس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفَضْل»؟ قال: نعم، هذا البرَاء بن مَعْرور، سيِّد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قولَ رسول الله ﷺ: الشاعر؟ قال: نعم. فقال البَرَاء بنُ مَعْرور: يا نبيّ الله، إني خرجتُ في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنِيَّة مني بظَهْر، فصلَّيتُ إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شَيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنتَ على قِبْلة لو صبرتَ عليها». قال: فرجع البَرَاءُ إلى قِبْلة رسولِ الله ﷺ، وصلّى معنا إلى الشام. قال: وأهلُه يزعمون أنه صلّى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عَوْن بن أيوب الأنصاريّ:

ومِنَّا المُصَلِّي أوَّلَ الناسِ مُقْبِلاً ... على كَعْبَةِ الرَّحْمٰن بين المَشاعِرِ

يعني البَرَاءَ بن مَعْرور. وهذا البيت في قصيدة له.

الله ـ ﷺ ـ: «قد كنت على قِبْلة لو صبرت عليها» فِقْهُ قولِه: لو صبرت عليها: أنه لم يأمره بإعادة ما قد صلَّى؛ لأنه كان مُتَأَوِّلاً.

قبلة الرسول ﷺ:

وفي الحديث: دليلٌ على أنَّ رسول الله ﷺ، كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس، وهو قول ابن عباس، وقالت طائفة: ما صلّى إلى بيت المقدس إلا مذ قدِم المدينةَ سَبْعَةَ عشر شهرًا أو ستة عشر شهرًا[1]، فعلى هذا يكون في القبلة نسخان نَسْخُ سُنَّةٍ بسُنَّةٍ، ونسخ سُنَّةٍ بقرآن، وقد بيَّن حديثُ ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة، فروى عنه من طرق صحاحٍ أن رسول الله ﷺ، كان إذا صلّى بمكة استقبل بيت المقدس، وجعل الكعبةَ بينه وبين بيت المقدس، فلمّا كان عليه السلام يتحرّى القبلتين جميعًا لم يَبِنْ توجُّهُه إلى بيت المقدس للناس، حتى خرج من مكة والله أعلم. قال الله تعالى له في الآية الناسخة: ﴿ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: من أي جهة جئت إلى الصلاة، وخرجتِ إليها فاستقبل الكعبةَ كنتَ مُسْتَدْبِرًا لبيت المقدس، أو لم تكن، لأنه كان بمكة يتحرّى في استقباله بيتَ المقدِس أن تكون الكعبةُ بين يديه، وتدبر قوله تعالى: ﴿ومِنْ

---

(١) انظر البخاري (١/ ٣٣).

إسلام عبد الله بن عمرو بن حرام[1]:

قال ابن إسحٰق: حدّثني مَعْبد بن كعْب، أن أخاه عبد الله بن كعب حَدّثه أن أباه كعب بن مالك حدّثه، قال كعب: ثم خرجنا إلى الحجِّ، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق. قال: فلما فرغنا من الحجّ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول

حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وجهَك﴾ وقال لأمته: ﴿وحيْثُ مَا كُنتُم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه﴾ ولم يقل: حيثما خَرَجْتُم، وذلك أنه كان عليه السلام إمامَ المسلمين، فكان يخرج إليهم إلى كل صلاة ليصلّي بهم، وكان ذلك واجبًا عليه إذ كان الإمام المقتدَى به فأفاد ذكرُ الخروج في خاصَّته في هذا المعنى، ولم يكن حكم غيره هكذا، يقتضي الخروج، ولا سيَّما النساء، ومن لا جماعة عليه، وكرّر الباري تعالى الأمر بالتوجُّه إلى البيت الحرام في ثلاثِ آياتٍ، لأن المُنْكِرين لتحويل القبلة، كانوا ثلاثة أصنافٍ من الناس اليهود، لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم، وأهلُ الرَّيْب والنِّفاق اشتد إنكارهم له أنه كان أولَ نسخ نزل، وكفار قُريش قالوا: ندِم محمّد على فِراق ديننا فسيرجع إليه كمَا رجع إليه قِبْلَتنا، وكانوا قبل ذلك يحتجُّون عليه، فيقولون: يزعم محمّد أنه يدعونا إلى ملّة إبراهيم وإسماعيل، وقد فارق قِبلة إبراهيم وإسماعيل، وآثر عليها قِبلة اليهود، فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة ﴿لِئِلاَّ يكونَ للناس عليكُم حجةٌ إلا الذين ظلموا منهم﴾ [البقرة: ١٥٠] على الاستثناء المنقطِع، أي: لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون وقال سبحانه: ﴿الحَقُّ من ربّك فلا تكونَنَّ من المُمْتَرين﴾ [البقرة: ١٤٧] أي: من الذين شكُّوا وامْتَرَوْا، ومعنى: الحق من ربك أي الذي أمرتك به من التوجه إلى البيت الحرام، هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك فلاَ تَمْتَر في ذلك وقال: ﴿وإن الذين أُوتوا الكتابِ لَيَعْلَمُون أنه الحق﴾ [البقرة: ١٤٤] وقال: ﴿وإنَّ فريقًا منهم لَيَكْتُمُون الحَقّ وهم يَعْلَمُون﴾ [البقرة: ١٤٦] أي يكتمون ما علموا من أن الكعبة هي قبلة الأنبياء، وروى أبو داود السنجري في كتاب الناسخ والمنسوخ له وهو في روايتنا عنه بسند رفيع حدَّثنا الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي قال: أنا أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أيوب البزار، قال: أنا أبو علي بن شاذان قال: أنا أبو بكر الفقيه النجَّار أحمد بن سُلَيْمان عنه، قال: نا أحمد بن صالح، قال: نا عَنْبَسة بن يونس عن ابن شهاب قال: كان سليمانُ بن عبد الملك لا يعظم إيلْيَاءَ كما يعظمها أهلُ بيته، قال: فسرت معه، وهو ولي عهد، قال: ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، قال سليمان: وهو جالس فيه: والله إن في هذه القبلة التي صلّى إليها المسلمون والنصارى لَعَجَبًا، قال خالد بن يزيد: أَمَا والله إني

---

(١) الخبر في تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٠) الدلائل (٢/ ٤٤٤) المنتظم (٣/ ٣٤).

الله ﷺ لها، ومعنا عبدُ الله بن عمرو بن حَرام أبو جابر، سيِّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنَّا نكتم مَن معنا من قومنا من المشركين أمرَنا، فكلَّمناه وقُلْنا له: يا أبا جابر، إنك سيِّد من ساداتنا، وشَريف من أشرافنا، وإنَّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَطَبًا للنار غدا، ثم دَعَوْناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة. قال: فأسلم وشَهد معنا العقَبة، وكان نقيبًا.

امرأتان في البيعة

قال: فنِمْنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مَضى ثلثُ الليل خَرَجْنا من رحالنا لمعاد رسولِ الله ﷺ، نتسلَّل تسلُّلَ القَطا مُسْتخفِين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نُسَيبة بنت كعب، أُمّ عُمَارَة،

لأَقرأ الكتابَ الذي أنزله الله على محمّد ـ ﷺ ـ وأقرأ التوراة، فلم يجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم، ولكن تابوت السَّكِينَةِ كان على الصخرة، فلما غضب الله تعالى على بني إسرائيل رفعه، فَكانت صلاتهم إلى الصَّخْرة عن مُشَاوَرة منهم»(١)، وروى أبو داود أيضًا أن يهوديًا خاصم أبا العالية في القِبلة، فقال أبو العالية: إن موسى عليه السلام كان يصلّي عند الصخرة، ويستقبل البيتَ الحرام، فكانت الكعبةُ قبلةً، وكانت الصخرة بين يديه، وقال اليهوديّ: بيني وبينك مسجدُ صالحِ النبيِّ ﷺ، فقال أبو العالية: فإني صليت في مسجد صالح وقبلتُه الكعبة، وأخبر أبو العاليَة أنه رأى مسجدَ ذي القَرْنَيْنِ وقبلته الكعبة، وروي أيضًا أن النبي ﷺ، كان يقول لجبريل: وَدِدْتُ أن الله حَوَّلني عن قبلة اليهود، فيقول له جبريل: إنما أنا عبدٌ مأمور(٢)، وروى غيره أنه كان يُتْبِعُه بصرَه إذا عَرَجَ إلى السماء حِرْصًا على أن يأمره بالتوجه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿قد نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السماء﴾ [البقرة: ١٤٤].

أُم عمارة وأُم منيع في بيعة العقبة الأخرى

وذكر بيعة العقبة، وذكر عِدَّة أصحاب بَيْعَة العقبة، وأنهم كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، وهما: أُم عُمَارَة وهي نُسَيْبَة بنت كعب امرأة زيد بن عاصم شهدت بيعة العقبة وبيعة الرضوان، وشهدت يوم اليمامة، وباشرت القتال بنفسها، وشاركت ابنَها عبدَ الله في قتل مُسَيْلِمَة، فقُطِعتْ يدُها، وجُرحَت اثنا عشر جُرْحًا، ثم عاشت بعد ذلك دَهْرًا، وكان

---

(١) أخرجه البزار (٢/٢٤٦).
(٢) انظر الدر المنثور (١/١٤٢).

إحدى نساء بني مازن بن النجّار، وأسماء بنت عَمْرو بن عديّ بن نابي، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم مَنِيع.

العباس والأنصار:

قال: فاجتمعنا في الشِّعب نَنتظر رسولَ الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه العبَّاسُ بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحَبّ أن يحضُر أمرَ ابن أخيه ويتوثّق له. فلما جلَس كان أوّل متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج ـ قال: وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار، الخزرج، خزرجها وأوْسها ـ: إن محمّدًا منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا؛ ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه ومَنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللُّحوقَ بكم، فإن كنتم تَرَوْن أنكم وافُون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تَحَمَّلتم من ذلك، وإن كنتم ترَوْن أنكم مُسْلِموه وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم، فمِن الآن فدَعُوه، فإنه في عِزٍّ ومَنَعَة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سَمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذْ لنفسك ولربِّك ما أحببتَ.

عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على الأنصار:

قال: فتكلّم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغَّب في الإسلام، ثم قال: أُبايعكم على أن تمنعوني مما تَمنعون منه نساءَكم وأبناءَكم، قال: فأخذ البرَاء بن

الناس يأتونها بمرضاهم، لِتَسْتَشْفِي لهم، فتمسح بيدها الشَّلاَّء على العليل، وتدعو له، فَقَلَّ ما مَسَحَتْ بيدِها ذا عاهَةٍ إلاَّ بَرِىءَ[1].

والأخرى: أسماء بنت عَمْرو أُم مَنِيع، وقد رفع في نسبها ونسب الأخرى ابن إسحٰق، ويُرْوى أن أُم عُمَارَة قالت لرسول الله ـ ﷺ ـ: ما أرى كلَّ شيء إلا للرجال، وما أرى للنساء شيئًا، فأنزل الله تعالى: ﴿إن المسلمين والمسلماتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] الآية.

قول البراء بن معرور:

وذكر قول البَرَاءِ بن مَعْرُور، وهو أول من ضَرَبَ بيده على يد رسولِ الله ﷺ، بالبيعة على اختلافٍ في ذلك قد ذكره ابن إسحٰق، فقال: نبايعك على أن نمنعك مما نمنع منه

---

(١) انظر ترجمة لها في الاستيعاب (١٩٤٨/٤) الطبقات (٤١٢/٨) الإصابة (٤١٨/٤).

مَعْرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحقّ، لنمنعنَّك مما نَمْنع منه أُزُرَنا فبايِعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب، وأهل الحَلْقة، وَرِثناها كابرًا [عن كابر]. قال: فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنَّا قاطِعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فَعَلْنا

أُزُرَنا، أراد: نساءنَا، والعربُ تَكْنِي عن المرأة بالإزَار، وتَكْنى أيضًا بالإزار عن النفس، وتجعل الثوبَ عبارةً عن لابسه كما قال:

رَمَوْها بأثوابٍ خِفَافٍ فلا تَرَى ... لها شَبَهًا إلا النَّعَامَ المُنفَّرا

أي: بأبدانٍ خِفَافٍ، فقوله مما نمنع أُزُرَنا يحتمل الوجهين جميعًا، وقد قال الفارسي في قول الرجل الذي كتب إلى عُمر من الغزو يذكره بأهله:

ألا أَبْلِغْ أبا حفص رَسُولاً ... فِدًى لكَ من أخِي ثِقَةٍ إزَاري

قال: الإزارُ: كناية عن الأهل، وهو في موضع نصب بالإغراء أي: احْفَظْ إزاري، وقال ابن قتيبة: الإزار في هذا البيت كناية عن نفسه، ومعناه فدًا لك نفسي، وهذا القولَ هو المَرْضِيُّ في العربية، والذي قاله الفارسي بعيد عن الصواب، لأنه أضمر المبتدأ، وأضمر الفعلَ الناصبَ للإزار، ولا دليل عليه لبعده، عنه، وبعد البيت ما يدل على صحة القول المختار وهو:

قلائصَنا هَداكَ الله مَهْلاً ... شُغِلْنا عنكم زَمَنَ الحِصَارِ

فنصب قلائصَنا بالإضمار الذي جعله الفارسي ناصبًا للإزار.

ترجمة البراء[1]:

والبَرَاء بن مَعْرور يُكْنَى أبا بشر بابنه بِشْر بن البَرَاء، وهو الذي أكل مع رسول الله ـ ﷺ ـ من الشاة المسمومة، فمات ومعرور اسمُ أبيه، معناه: مَقْصُود يقال: عَرَّه واعْتَرَّه إذا قَصَدَ، والبراء هذا ممن صَلَّى رسولُ الله ﷺ ـ على قبرِه بعد موته وكبَّر أربعًا، وفي هذا الحديث الصلاةُ على القبر، وقد رُوِيت من سِتّ طُرُق عن النبي ـ ﷺ ـ قاله أحمد بن حنبل، وذكرها كلَّها أبو عُمَر في التمهيد، وزاد ثلاث طرق لم يذكرها ابنُ حنبل، فهي إذًا تُروى من ـ تسع طُرُق أعني أن ـ تِسْعَةً من الصحابَة رَوَوْا صلاتَه عليه السلام على القبر،

---

(١) انظر ترجمته في الإصابة (١/ ١٤٤) الطبقات (٣/ ٦١٨) تاريخ الصحابة لابن حبان (١٠٢) الاستيعاب (١/ ١٥١).

ذلك، ثم أظْهَرَك الله أن ترجعَ إلى قومك وتَدَعنا؟ قال: فتبسّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهَدْم الهَدْم، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب مَنْ حاربتم، وأسالِم من سالمتم[1].

قال ابن هشام: ويقال: الهَدَم الهَدَم: أي ذِمَّتِي ذمَّتكم وحُرْمتي حُرْمَتُكم.

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيبًا، ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرَجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعةً من الخزرج، وثلاثةً من الأوْسِ.

فمنهم ابن عباس، وأنس بن مالك وبُرَيدَة، وأبو هريرة، وزيد بن ثابت، وعامر بن فُهَيْرة وأبو قَتَادَة الأنصاري، وسَهْل بن حُنَيْفٍ، وعُبَادَة بن الصامت، وحديثه مُرْسَلٌ، وأصحها إسنادًا حديثُ ابن عباس وأبي هريرة.

والهدم الهدم:

وذكر قولَ النبي ـ ﷺ ـ للمبايعين له: «بل الدَّمُ الدَّمُ والهَدْمُ الهَدْمُ»، وقال ابن هشام: الهَدَم بفتح الدال. قال ابن قُتَيْبَة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمُك وهَدْمي هَدْمك، أي: ما هَدَمْتَ من الدماء، هَدَمْته أنا، ويقال أيضًا: بل اللَّدْمُ اللَّدْمُ والهَدْمُ الهَدْم، وأنشد:

ثـم الْـحَـقـي بِـهَـدَمِـي ولَـدَمِـي

فاللَّدَمُ: جمع لادم، وهم أهلُه الذين يَلْتَدِمُون عليه إذا مات، وهو من لَدَمْتُ صدره: إذا ضَربْته. والهدم قال ابنُ هِشَام: الحُرْمَة، وإنما كنَى عن حُرْمَة الرجل وأهلِه بالهَدْم، لأنهم كانوا أهلَ نُجْعة وارتحال، ولهم بيوت يستخفونها يوم ظَعْنهم، فكلما ظَعَنُوا هَدَمُوها، والهدَم بمعنى المَهْدُوم كالقَبَض بمعنى المَقْبُوض، ثم جعلوا الهَدَم وهو البيت المهدوم عبارة عما حَوَى، ثم قال: هَدَمي هَدَمُك أي: رحلتي مع رحلتك أي لا أظعن وأدعك وأنشد يعقوب:

تَمْضي إذا زُجِرَتْ عن سَوْأةٍ قدُمًا   كأنـها هَـدَمٌ فـي الـجَـفْرِ مُـنْـقـاضُ

---

(1) أخرجه أحمد (٣/٣٢٢/٣٢٩) والحاكم (٢/٦٢٤) وصححه وأقرّه الذهبي والبيهقي في الكبرى (٩/٩) وحسّنه الحافظ في الفتح (٧/١٧٧).

أسماء النقباء الاثني عشر وتمام خبر العقبة

النقباء من الخزرج

قال ابن هشام: من الخزرج ـ فيما حدّثنا زيادُ بن عبد الله البكّائي، عن محمد بن إسحٰق المطلبي ـ: أبو أُمَامَة أسْعَد بن زُرَارَة بن عُدَس بن عُبيد بن ثعلبة بن غَنم بن مالك بن النجّار، وهو: تَيْمُ الله بن ثَعْلَبة عمرو بن الخزرج [بن حارثة]، وسَعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زُهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، وعبد الله بن رَوَاحَة بن ثعلبة امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك [الأغر] بن ثَعْلَبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج، ورافع بن مالك بن العَجْلاَنِ بن عمرو بن عامر بن زُرَيقِ بن عَبْد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخَزْرَجِ؛ والبَرَاء بن مَعْرور بن صخر بن خَنساء بن سِنَانِ بن عُبَيْد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كَعْب بن سَلَمة بن سَعْد بن عليّ بن أسد بن سارِدَة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج، وعبد الله بن عمرو بن حَرام بن ثَعْلَبة بن حَرَام بن كعب بن غَنْم بن كَعْب بن سَلَمة بن سَعْد بن عليّ بن أسد بن سارِدَة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج، وعُبَادة بن الصامت بن قَيْسِ بن أَصْرَم بن فِهْر بن ثَعْلَبة بن غَنْم بن سالم بن عَوْف بن عَمْرو بن عَوْفِ بن الخزرج.

قال ابن هشام: هو غَنْم بن عوف، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن إسحٰق: وسعد بن عُبادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أبي خُزَيْمَةَ بن ثعلبة بن طَرِيف بن الخَزرج بن ساعدة بن كَعب بن الخزرج، والمنذر بن عمرو بن خُنَيْسِ بن

مَن وَلِي النقباء

فصل: وذكر الاثني عشر نقيبًا، وشعر كعب فيهم إلى آخره، وليس فيه ما يشكل، وإنما جعلهم عليه السلام اثْنَيْ عَشَر نقيبًا اقْتِداءً بقوله تعالى في قوم موسى: ﴿وَبَعَثْنَا منهم اثْنَي عَشَرَ نَقيبًا﴾[1] [المائدة: ١٢] وقد سمينا أولئك النقباء بأسمائهم في كتاب التعريف والإعلام، فلينظر هنالك.

(١) في قوله أنه ﷺ جعلهم اثني عشر نقيبًا اقتداء بالقرآن ـ نظر ـ إنما الأمر كله يجري بقدر ربّ السمٰوات والأرض ـ سبحانه وتعالى عزّ وجل ـ.

حارثة بن لَوْذان بن عبد وَدّ بن زيد بن ثعلبة بن الخَزْرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج ـ قال ابن هشام: ويقال: ابن خنيش.

النقباء من الأوس:

ومن الأوس أُسَيْد بن حُضَير بن سِمَاكِ بن عَتِيك بن رَافِع بن امرىء القيس بن زَيْد بن عبد الأشهل [بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة، وسعد بن خَيْثَمة بن الحارث بن مالك بن كَعْب بن النَّحّاط بن كَعْب بن حارثة بن غَنْم بن السَّلْم بن امْرِىء القيس [بن ثعلبة بن عمرو بن عوف] بن مالك بن الأوس [بن حارثة] ورِفَاعَةُ بن عبد المُنْذِر بن زبير بن زيد بن أُمَيَّة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

شعر كعب بن مالك عن النقباء:

قال ابن هشام: وأهل العلم يعدّون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان، ولا يعدّون رفاعة. وقال كعب بن مالك يذكرهم، فيما أنشدني أبو زيد الأنصاري:

أبـلـغ أُبَـيًّـا أنَّـه قـال رأيـهُ ... وحان غداة الشِّعب والحينُ واقعُ
أبـى الله مـا مَـنَّـتك نـفـسُـك إنَّـه ... بـمـرصـاد أمـرِ الـنَّـاسِ راءٍ وسـامـعُ
وأبـلـغ أبـا سُـفـيـان أنْ قـد بـدا لـنـا ... بـأحـمـدَ نـورٌ من هُـدَى الله سـاطِـع
فـلا تَـرْغَـبَـن فـي حَـشْـد أمـرٍ تُـريـده ... وألِّـب وجَـمِّـعْ كُـلَّ مـا أنـت جـامـع
ودُونَـك فـاعـلـم أنَّ نـقـضَ عـهُـودِنـا ... أبـاه عـلـيـك الـرَّهْـطُ حـيـن تـبـايـعـوا
أبـاه الـبَـرَاءُ وابـنُ عـمْـرٍو كـلاهـمـا ... وأسـعـدُ يـأبـاه عـلـيـك ورَافِـع
وَسَـعْـد أبـاه الـسَّـاعـديُّ ومُـنْـذِرٌ ... لأنـفِـك إن حـاولـت ذلـك جـادِع
ومـا ابـنُ رَبـيـع إن تـنـاولـت عـهـدَه ... بـمُـسْـلِـمـه لا يـطـمـعـنْ ثَـمَّ طـامـع
وأيـضًـا فـلا يُـعْـطِـيـكـه ابـنُ رَوَاحَـة ... وإخْـفَـارُه مِـنْ دُونـه الـسـمُّ نـاقـع
وفـاء بـهِ والـقَـوْقَـلِـيّ بـنُ صـامـت ... بـمَـنْـدُوحـةٍ عـمـا تـحـاول يـافـع
أبـو هَـيـثـم أيـضًـا وفِـيٌّ بـمـثـلـهـا ... وفـاءً بِـمَـا أعـطَـى مـن الـعـهـد خـانِـع
ومـا ابـن حُـضَـيـر إن أردت بـمَـطْـمـع ... فـهـل أنـت عـن أُحْـمُـوقـةِ الـغَـيّ نـازع

ورُوِيَ عن الزُّهْرِي أنه قال: قال النبيّ عليه السلام للأوس والخزرج حين قدم عليهم النقباءُ: «لا يغضبَنَّ أحدكم فإني أفعل ما أومر»، وجبريلُ عليه السلام إلى جنبه

وسَعْدٌ أخو عَمْرِو بن عَوْف فإنه ضَرُوحٌ لما حاولتَ مِ الأَمْرِ مانع
أُولاكَ نجومٌ لا يُغِبُّك منهمُ عليك بنَحْسٍ في دُجَى الليل طالِع

فذكر كَعْب فيهم أبا الهيْثَمِ بن التَّيهان، ولم يذكر رفاعة.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عبد الله بن أبي بكر: أنّ رسول الله ﷺ قال للنُقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء، كَكَفالة الحواريِّين لعيسى ابن مَرْيم، وأنا كَفيل على قَوْمي - يعني المسلمين - قالوا: نعم.

ما قاله العباس بن عبادة للخزرج قبل المبايعة:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عاصمُ بن عمرو بن قَتَادة: أن القوم لمَّا اجتمعوا لبَيْعة رسولِ الله - ﷺ - قال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْلة الأنصاريّ، أخو بني سالم بن عَوْف: يا معشر الخزرج، هل تدرُون علامَ تُبايعون هذا الرجلَ؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تُبايعونه على حَرْب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم تَرَوْن أنكم إذا نُهِكَتْ أموالُكم مُصِيبة، وأشرافُكم قتلاً أسْلَمتموه، فمن الآن، فهو والله - إن فعلتم خِزْيُ الدنيا والآخرة، وإن كنتم تَرَوْن أنكم وافُون له بما دَعَوْتُموه إليه على نَهْكَةِ الأموال، وقَتْل الأشراف، فخُذُوه، فهو والله خَيْرُ الدنيا والآخرة، قالوا: فإنَّا نأخُذه على مُصيبة الأموال، وقَتْل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: «الجنَّة». قالوا: أبسُط يدَك، فَبَسط يدَه فبايعوه.

وأما عاصم بن عُمر بن قَتَادَة فقال: والله ما قال ذلك العبَّاس إلا ليَشُد العَقْدَ لرسول الله ﷺ في أعناقهم.

وأما عبدُ الله بن أبي بكر فقال: ما قال ذلك العبَّاس إلا ليؤخِّر القوم تلك الليلة، رجاء أن يحضرها عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُولٍ، فيكون أقوى لأمر القوم. فالله أعلم أيّ ذلك كان.

قال ابن هشام: سَلُول: امرأة من خُزاعة، وهي أُم أُبَيّ بن مالك بن الحارث.

يشير إليهم واحدًا بعد واحد، ورُوِيَ في المُعَيْطِيّ عن مالك بن أنس أنه روى حديث النقباء عن شيخ من الأنصار، قال مالك: وكنت أعجب كيف جاء هذا رجلان من قبيلة، ورجل من أخرى حتى حُدِّثت بهذا الحديث، وأن جبرِيلَ هو الذي ولاَّهم، وأشار عن النبيّ - ﷺ - بهم.

أول صحابي ضرب على يد الرسول في بيعة العقبة الثانية:

قال ابن إسحـٰق: فبنُو النجّار يزعمُون أن أبا أمامة، أسعد بن زُرارة كان أوّلَ من ضرب على يَده، وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهَيْثم بن التَّيهان.

قال ابن إسحـٰق: قال الزهري: حدّثني معبد بن كَعب بن مالك، فحدّثني في حديثه، عن أخيه عبد الله بن كَعْب، عن أبيه كَعْب بن مالك، قال: كان أوّل من ضَرب على يد رسولِ الله ﷺ البَرَاءُ بنُ مَعْرور، ثم بايع بعدُ القومُ.

الشيطان وبيعة العقبة

فلمَّا بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العَقَبة بأنفذ صوت سمعتُه قطُّ: «يا أهل الجَبَاجِبِ» ـ والجَبَاجِبُ: المنازل ـ هل لكم في مُذَمَّم والصُّباة معه، قد اجتمعوا على حَرْبكم. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العَقبة، هذا ابن أَزْيَب» ـ قال ابن هشام: ويقال ابن أَزْيَب استمع أي عدوّ الله، أمَا والله لأفرغنّ لك[1].

تفسير بعض ما وقع في وجدته

وذكر أن الشيطانَ صَرَخَ من رأس العَقَبة بأَنْفذ صوت. قال الشيخ أبو بحر: هكذا وقع في الأمهات، وأصلحناه عن القاضي أبي الوليد: بأبعد، قال المؤلف: ولا معنى لهذا الإصلاح، لأن وصف الصوتِ بالنفاذِ صحيحٌ هو أفصح من وصفه بالبعد، وقد مضى في حديث عُمَر مع الكاهن، قال: لقد سمعت من صوت العجل صوتًا ما سمعت أنفذَ منه، وفي الصحيح: أن الله تعالى يَحْشُر الخلقَ يوم القيامة في صَرْدَحٍ[2] واحد، فَيَنْفُذُهم البصرُ ويسمعهم الداعي. وكذلك وجدته في رواية يونس بن بكير عن ابن إسحـٰق: بأنفذ صوت كما كان في الأصل.

وقوله: «يا أَهْلَ الجَبَاجِبِ»[3]، يعني: منازلَ مِنًى، وأصلُه: أن الأوعية من الأَدَم

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٠) وأبو داود الطيالسي (٢/ ٩٣) من طريق المصنف ـ به. وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٢) ونسبه لأحمد والطبراني وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحـٰق وقد صرّح بالسّماع.

(٢) الصردح: الأرض المستوية. والصردحة: الصحراء التي لا تنبت، وهي غلظ في الأرض مستوٍ. اللسان (٢/ ٥١٢).

(٣) الجباجب: جمع جبجب بالضم وهو المستوي من الأرض ليس بحزن وهي هٰهنا أسماء منازل بمِنى سُمِّيت به لأن كروش الأضاحي تُلقى فيها أيام الحج السابق (١/ ٢٥٣).

الرسول لا يستجيب لطلب الحرب من الأنصار:

قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضُّوا إلى رِحالِكم». قال: فقال له العبَّاسُ بن عُبادة بن نَضْلة: والله الذي بعثك بالحقّ إن شئتَ لنميلنّ على أهْل مِنى غدًا بأسْيافنا؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤمَر بذلك، ولكن ارجعُوا إلى رحالكم». قال: فرَجعنا إلى مَضاجعنا، فنِمْنا عليها حتى أصْبحنا.

كالزَّبِيل ونحوه يسمى: جَبْجَبَة، فجعل الخيام والمنازل لأهلها كالأوعية، وقوله عليه السلام حين صرخ إبليس: «يا أهل الجَبَاجِبِ، هـذا أَزَبُّ العَقَبةِ، هذا ابن أَزْيَب». قال ابن هشام: ويقال: ابن أَزْيَب كذا تقيد في هذا الموضع أَزَبُّ العقَبةِ وقال ابن ماكولا: أُم كُرْز بنت الأَزَبِّ بن عمرو بن بَكِيل من هَمْدَان جدة العباس، أُم أُمه: سيلة، وقال: لا يعرف الأَزَبُّ في الأسماء إلا هذا، وَأَزَبُّ العَقَبَةِ، وهو اسم شيطان، ووقع في هذه النسخة في غَزْوَة أُحُدٍ إِزْبُ العَقَبَةِ بكسر الهمزة وسكون الزاي، وفي حديث ابن الزبير ما يشهد له حين رأى رجلاً طوله شِبْرَانِ على بَرْذَعَةِ رَحْلهِ [فأخذ السوط فأتاه]، فقال: «ما أنت»؟ فقال: أَزَبُّ، قال: «وما أَزَبُّ»؟ قال: رجل من الجن؛ فضربه على رأسِه بعود السوط، حتى باص، أي هَرَبَ، وقال يعقوب في الألفاظ: الأَزَبُّ: القصير. وحديث ابن الزبير ذكره العتْبِيُّ في الغريب، فالله أعلم أي اللفظين أصح؟ وابن أزيب في رواية ابن هشام يجوز أن يكون فَعْيَلاً من الإِزْب[1] أيضًا، والأَزْيَبُ: البخيل، وأَزْيَبُ: اسم ريح من الرياح الأربع، والأَزْيَبُ الفزَع أيضًا، والأَزْيَب: الرجل المتقارب المشي، وهو على وزن أفْعَل، قاله صاحب العين: ويحتمل أن يكون ابن أَزْيَب من هذا أيضًا، وأما البخيل فأَزْيَبُ على وزنَ فعْيَل لأن يعقوبَ حكى في الألفاظ: امرأة أَزْيَبَة ولو كان عن وزن أفْعَل في المذكر لقيل في المؤنث زَيبًا إلا أن فَعْيَلاً في أبنية الأسماء عِزيز، وقد قالوا في ضَهْياء: وهي التي لا تحيض من النساء، فعلى جعلوا الهمزة زائدة وهي عندي فَعْيَل لأن الهمزة في قراءة عاصم لام الفعل في قوله تعالى: ﴿يُضَاهُون﴾ والضَّهْيأ من هذا لأنها تُضَاهِي الرجل أي: تُشْبِهه ويقال فيه: ضَهْيَاءُ بالمد، فلا إشكالَ فيها أنها للتأنيث على لغة من قال ضَاهَيْت بالياء، وقد يجوز أن يكون أَزْيَب وأَزْيَبَة مثل أَزْمَل وأَزْمَلَة فلا يكون فَعْيَلاً. وروى أبو الأشهب عن الحسن قال: لما بويع لرسول الله ـ ﷺ ـ بِمنًى صرخ الشيطان، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «هذا أبو لُبَيْنَى[2] قد أَنْذَرَ بكم، فَتَفَرَّقوا».

---

(١) أزب: اللئيم، الدقيق المفاصل، والإزب من الرجال: القصير الغليظ. والإزب: القصير الدميم. اللسان (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٢) لُبَينى: تصغير لبنى، أو كما هو «لبينى» قيل: اسم ابنة إبليس عليه اللعنة.

مجادلة جُلّة قريش
للأنصـار في شـأن البيعة

فلما أصبحنا غدت علينا جِلّة قُرَيش، حتى جاؤونا في مَنازلنا، فقالوا: يا معشر الخَزْرج، إنه قد بَلَغنا أنكم قد جِئْتم إلى صاحبنا هذا تَسْتَخْرِجُونه من بين أَظْهُرِنا، وتُبايعونه على حَرْبنا، وإنه والله ما مِن حَيٍّ من العرب أبْغَضُ إلينا، أن تَنشَب الحربُ بيننا وبينهم، منكم. قال: فانبعث مَنْ هناك مِنْ مُشْركي قَوْمنا يَحْلفون بالله ما كان مِن هذا شيءٌ، وما عَلِمْناه. قال: وقد صدَقوا، لم يَعْلَموه. قال: وبعضُنا ينظُر إلى بعض. قال: ثم قام القومُ، وفيهم الحارث بنُ هشام بن المُغيرة المُخْزوميّ، وعليه نَعْلان له جَديدان. قال: فقلتُ له كلمةً ـ كأني أريد أن أَشْرَكَ القومَ بها فيما قالوا ـ: يا أبا جابر، أمَا تستَطيع أن تَتَّخذ، وأنت سيِّد من ساداتنا، مثلَ نَعْلَيْ هذا الفتى من قُريش؟ قال: فسَمِعها الحارث، فخَلَعهما من رِجْليه ثم رمى بهما إليّ، وقال: والله لتَنْتَعلَنَّهما. قال: يقول: أبو جابر: مَه، أحْفَظتَ والله الفَتى، فاردُد إليه نَعْلَيه. قال: قلت: لا والله لا أردّهما، فألٌ والله صالح، لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه.

قال ابن إسحٰق: وحدّثنا عبد الله بن أبي بكر: أنهم أتَوَا عبدَ الله بن أُبيّ ابن سَلُول، فقالوا له مثل ما قال كَعب من القول، فقال لهم: إنَّ هذا الأمر جَسيم، ما كان قومي ليتفوَّتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان. قال: فانصرفوا عنه.

تذكير فعيل وتأنيثها

فصل: وذكر الحارثَ بن هشام حين رمى بنعليه إلى جابر: قال: وكان عليه نَعْلاَن جديدان، والنعل: مؤنثة، ولكن لا يقال: جَدِيدَةٌ في الفصيح من الكلام، وإنما يُقال: مِلْحَفَةٌ جديد لأنها في معنى مَجْدُودَة أي: مقطوعة، فهي من باب كَفٌّ خضِيب، وامرأة قَتِيل، قال سيبويه: ومن قال جَدِيدة، فإنما أراد معنى حديثَة، أراد سيبويه أن حديثةً، بمعنى حادثة وكل فعيل بمعنى فاعِل يدخله التاء في المؤنث[١].

(١) انظر إصلاح المنطق لأبي يوسف يعقوب بن السكّيت (ص ٢٨٩).

قريش تطلب الأنصار وتأسر سعد بن عبادة

قال: ونَفَر الناسُ من مِنىً، فتَنَطَّس القومُ الخَبَر، فوجدوه قد كان، وخَرجوا في طلب القوم، فأدركوا سَعْد بن عُبادة بأذَاخِر، والمُنْذِرَ بن عمرو، أخا بني ساعدة بن كَعْب بن الخَزْرج، وكلاهما كان نقيبًا. فأما المُنْذِرُ فأعْجَز القومَ، وأما سَعْد فأخَذُوه، فرَبطوا يَدَيْه إلى عُنقه بنِسْع رَحْله، ثم أقْبَلوا به حتى أدْخلوه مكّة يَضْرِبونه، ويَجْذِبونه، بجُمَّتِه، وكان ذا شَعْرٍ كَثِير.

خلاص سعد بن عبادة

قال سعد: فوالله إني لفي أيْديهم إذ طَلع عليّ نَفرٌ من قُرَيش، فيهم رَجُلٌ وَضِيء أبيضُ، شَعْشَاع، حلو من الرجال قال ابن هشام: الطويل الحسن قال رؤبة: يَمْطُوه من شَعْشَاع غيرِ مُودَن. يعني عنق البعير غير قصير يقول: مودن اليد أي: ناقص اليد يمطوه من السير شعشاع: حلو من الرجال.

قال: قلت في نفسي: إن يكُ عند أحدٍ من القوم خَير، فعند هذا، قال: فلما دنا مني رفع يدَه فلَكَمني لَكْمةً شديدة. قال: قلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا من خَيْر. قال: فوالله إني لفي أيديهم يَسْحبونني إذ أوَى لِي رَجُلٌ مِمَّنْ كان معهم، فقال: وَيْحَك! أما بينك وبين أحد من قُرَيش جوار ولا عَهْد؟ قال: قلت: بلى، والله لقد كنت أُجِير لجُبَير بن مُطْعِم بن عديّ بن نَوْفَل بن عَبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظُلْمَهُم ببلادي، وللحارث بن حَرْب بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، قال: ويحك! فاهتِف باسم الرّجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلتُ، وخرج ذلك الرجلُ إليهما، فوجدَهما في المَسجْدَ عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخَزْرج الآن يُضْرَب بالأبطَح لَيَهْتِف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا، قالا: مَنْ هو؟ قال: سعد بن عُبادة. قالا: صدق والله، إن كان لَيُجير لنا تِجارَنا، ويَمْنعهم أن يُظلَموا ببلده: قال: فجاءا فخَلَّصا سعدًا من أيديهم، فانطلق. وكان الذي لَكَمَ سعدًا، سُهَيْلُ بن عمرو، أخو بني عامر بن لُؤَيّ.

من ألقاب الطويل

وذكر قول سعد حين أسرته قريش: فأتاني رجل وضيء شَعْشَاعٌ. والشَّعْشَعُ والشَّعْشَعَانِيُّ والشَّعْشَعَانُ: الطويل من الرجال، وكذلك السَّلْهَبُ والصَّعْقَبُ والشَّوْقَب و [الشَّرْعَبُ] والشَّرْجَبُ والخِبَقُّ والشَّوْذَبُ الطويل مع رقة في أسماء كثيرة.

قال ابن هشام: وكان الرجلُ الذي أوَى إليه، أبا البَخْتَرَيّ بن هشام.

قال ابن إسحٰق: وكان أوّل شعْر قيل في الهجرة بيتَيْن، قالهما ضِرَارُ بن الخطّاب بن مِرْداس، أخو بني محارب بن فهر:

تداركتَ سَعداً عَنوَةً فأخَذْتَه ... وكان شِفَاءً لو تداركتَ مُنْذِرا

ولو نِلْتُه طُلَّت هناك جِراحُه ... وكانت حَرِيًّا أن يُهانَ ويُهْدَرا

قال ابن هشام: ويُروى:

وكان حقيقًا أن يُهانَ ويُهْدَرا

قال ابن إسحٰق: فأجابه حَسَّان بن ثابت فيهما فقال:

لستَ إلى سَعْدٍ ولا المرء مُنْذِرٍ ... إذا ما مَطايا القوم أصْبَحْن ضُمَّرَا

معاني الكلمات:

وقوله: أوى إليه رجل أي رقّ له، يقال: أَوَى إِيّهْ [وأَوْيَةً] مَأْوِيَة.

وقوله فَتَنطَّس القومُ الخبرَ أي: أكثروا البحثَ عنه، والتَّنَطُّسُ، تدقيق النظر. قال الراجز: [رؤبة بن العَجّاج]

وقد أكون عندها نِقْرِيسًا ... طِبًّا بأدواء النِّسَا نَطِّيسا

وذكر قول ضِرار بن الخطاب:

وكان شِفَاءً وتداركتَ مُنْذِرَا

وضرار بن الخطاب: وضِرارٌ كان شاعرَ قُريش وفارسَها، ولم يكن في قريش أشعرُ منه، [عبد الله] ثم ابن الزِّبَعْرَى بن قيس بن عدي، وكان جدُّه مِرْدَاسُ رئيسَ بني مُحَارِب بن فِهْر في الجاهلية يسير فيهم بالمِرْبَاعِ، وهو رُبْعُ الغَنِيمة، وكان أبوه أيام الفِجَار رئيسَ بني مُحارِبِ بن فِهْر أسلَم ضِرار عام الفتح.

حول قصيدة حسان:

وذكر قول حسان يجيبه:

لستَ إلى عَمْرٍو ولا المرءِ مُنذِرٍ ... إِذَ ما مَطَايَا القَوْم أَصْبَحْنَ ضُمَّرا

فلولا أبو وَهْبٍ لَمَرَّت قصائدٌ   على شَرَف البَرْقاءِ يَهْوِينَ حُسَّرا
أَتَفخُرُ بالكَتَّان لَمَّا لَبِسْتَه   وقد تلْبَس الأنباطُ رَيْطا مُقَصَّرا
فَلا تَكُ كالوسنان يَحلمُ أنَّه   بقَرْيَة كِسْرَى أو بقَرْيَة قيْصَر
ولا تك كالثَّكْلَى وكانت بمَعزل   عن الثُّكْل لو كان الفُؤَادَ تَفَكَّرا
وَلا تَكُ كالشَّاةِ التي كان حَتْفها   بحَفْر ذِرَاعَيْها فلم تَرْضَ مُحْفَرا
وَلا تكُ كالعاوِي فأقبَل نحرَه   ولم يخْشَه سَهْمًا من النَّبْل مُضْمَرا
فإنَّا وَمَنْ يُهْدِي القَصائد نحْوَنا   كمُسْتَبْضَعٍ تمرًا إلى أهل خَيْبرا

يعني بعمرو عَمْرو بن خُنَيْسٍ والد المنذِر. يقول: لستَ إليه ولا إلى ابنه المنذِر أي: أنت أقل من ذلك، والمنذر بن عمرو هذا يقال له: أَعْنَق لِيَمُوتَ، هو أحد النقباء كما ذكر ابن إسحٰق، وذكر ابن إسحٰق في المواخاة أن رسول الله - ﷺ - آخى بينه، وبين أبي ذَرٍّ الغِفَارِي، وأنكر ذلك الواقدي محمدُ بن عمر، وقال: إنما آخى بينه وبين طُلَيْب بن عَمْرو. قال: وكيف يواخي بينه وبين أبي ذَرٍّ، والمواخاة كانت قبل بدر، وأبو ذر كان إذ ذاك غائبًا عن المدينة، ولم يقدم إلا بعد بدر، وقد قطعت بدر المواخاةَ ونسخها قولُه سبحانه: ﴿وأولو الأَرْحَام بعضُهم أَوْلَى بِبَعْضٍ في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ [الأنفال: ٧٥] وللمنذر بن عَمْرو حديثٌ واحد عن رسول الله - ﷺ - ليس له غيره، يرويه عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده عن المنذِر أن رسول الله ﷺ سجد عن السهو قبل التسليم، وعبد المهيمن ضعيفٌ. وقول حسان:

ولا تَكُ كالشاة التي كان حَتْفُها   بِحَفْرِ ذراعيها، لم ترض محفرا

تقوله العرب في مثل قديم فيمن أثار على نفسه شرًا كالباحث عن المُدْيَة[1] وأنشد أبو عثمان [الجاحظ] عمرو بن بحر. [لِلْفَرَزْدَق]:

وكان يُجير الناسَ من سَيْفِ مالكٍ   فأصبح يَبغي نفسَه مَنْ يُجيرُها
وكان كَعَنْز السُّوءِ قامت بِظِلْفِها   إلى مُدْيةٍ تحت التراب تُثِيرُها

---

(١) انظر «الحيوان» للجاحظ (١/ ٣٤٥) والبيان والتبيين له أيضًا (٣/ ١٥٩).

قصة صنم عمرو بن الجموح

فلما قَدِموا المَدينة أظهروا الإسلامَ بها، وفي قومهم بقايا من شُيوخ لهم على دينهم من الشِّرك، منهم عَمْرو بن الجَمُوح بن زَيْد بن حَرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سلمة، وكان ابنه مُعاذ بن عمرو شَهِدَ العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجَمُوح سيدًا من سادات بني سَلمة، وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صَنَمًا من خَشَب، يقال له: مَنَاة، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذه إلـٰهًا تعظِّمه وتُطَهِّره، فلمَّا أسلم فِتْيان بَني سَلَمة: مُعاذ بن جَبل وابنه مُعاذ بن عمرو، في فتْيان منهم ممَّن أسلم وشَهِد العقبة، كانوا يُدْلجون بالليل على صنم عَمْرو ذلك، فيحْملونه فيَطْرحونه في بعض حُفَر بني سَلَمة، وفيها عِذَر الناس، مُنَكَّسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو، قال: ويْلكم! مَن عَدا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يَلْتمسه، حتى إذا وجدَه غسلَه وطَهَّره وطَيَّبَه، ثم قال: أما والله لو أعلم مَنْ فعل هذا بكَ لأُخْزِيَنَّهُ. فإذا أمسى ونام عمرو، عَدَوْا عليه، ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجِده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيَغْسله ويطهِّره ويُطيِّبه، ثم يغدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثلَ ذلك. فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألْقَوْه يومًا، فغسلوه وطهَّره وطيَّبه، ثم جاء بسيفه فعلَّقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنعْ، فهذا السيفُ معك. فلما أمسى ونام عمرو، غَدَوْا عليه، فأخذوا السيفَ من عنقه، ثم أخذوا كَلْبًا ميتًا فقَرَنُوه به بحبل، ثم ألْقَوْه في بئر من آبار سلمة، فيها عِذَرٌ من عِذَر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يَجِدْه في مكانه الذي كان به.

إسلام عمرو بن الجموح

فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مُنَكَّسًا مَقْرُونًا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلّمه مَنْ أسْلَم من قومه، فأسلم برَحْمة الله، وحَسُن إسلامُه. فقال حين أسلم،

إسلام عمرو بن الجموح وصنمه[1]

فصل: في إسْلام عمْرِو بن الجَمُوح، وذكر صنَمه الذي كان يعبده، واسمه مَنَاة، وزنه فَعْلَة من منيت الدم وغيره: إذا صَبَبْته، لأن الدماءَ كانت تُمنَى عنده تَقَرُّبًا إليه، ومنه سُمِّيَتْ

---

(١) انظر ترجمته في الثقات (٣/٢٧٦) تاريخ الإصابة (٩١٢) الإصابة (٢/٥٢٩) الاستيعاب (٣/١١٦٨).

وعرَف من الله ما عرَف، وهو يذكر صَنمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكُر الله تعالى الذي أنْقذه ممَّا كان فيه من العمَى والضلالة:

والله لـو كـنْـتَ إلـهًـا لـم تَـكُـنْ ... أنت وكـلـبٌ وَسْط بئـرٍ فـي قَـرَنْ

أفٍّ لـمَـلْـقـاك إلـٰهـا مُـسْـتَـدَنْ ... الآنَ فَـتَّـشْـنـاك عـن سُـوء الـغَـبَـنْ

الـحَـمْـدُ لِـلَّـهِ الـعَـلِـيِّ ذي الـمِـنَـنْ ... الـواهـبِ الـرَّزَّاق ديَّـان الـدِّيَـنْ

هـو الـذي أنـقـذنـي مـن قـبـل أنْ ... أكـونَ فـي ظُـلْـمَـة قـبـرٍ مُـرْتَـهـنْ

بأحـمـدَ الـمـهـدي الـنبـيِّ الـمُـرْتـهـنْ

الأصنامُ الدُّمَى، وفي الحديث: لا والدُّمَى لا أرى بما تقول بأسًا، وكذلك مَنَاةُ الطاغية التي كانوا يُهلُّون إليها بقُدَيْد والحَظُّ من هذا المطلع ما في قوله تعالى: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ النجم، من الفائدة جعلها ثالثة للاَّتَ والعُزَّى، وأخرى بالإضافة إلى مناة التي كان يعبدها عَمْرُو بن الجَمُوح وغيره من قومه، فهما مَنَاتَان، وإحداهما عن الأخرى بالإضافة إلى صاحبتها.

وقـولـه:

الآن فَـتَّـشْـنَـاك عـن سُـوء الـغَـبَـن

الغبن في الرأي يقال: غَبِن رَأْيَه كما يقال: سَفِه نَفْسه، فنصبوا، لأن المعنى: خَسِر نَفْسَه، وأوْبَقَها وأفسَد رأيَه ونحو هذا.

وقوله: إلٰهًا مُسْتَدَنْ من السَّدَانة، وهي خِدمة البيت وتعظيمه.

وقوله: دَيَّان الدِّيَن: الدِّيَنُ جمع دِينة، وهي العادة، ويقال لها دِينٌ أيضًا، وقال ابنُ الطَّثَرِيَّة، واسمه يزيد:

أرى سَبْعَةً يَسْعَوْن للوصل كُلهم ... لـه عـنـد لَـيْـلَـى دِيـنَـةٌ يَـسْـتَـدِيـنُـهـا

فألْقيْتُ سَهْمي بَيْنهم حين أوْخَشُوا ... فـما صَار لي في القَسْم إلا ثَـمِينهـا

ويجوز أن يكون أراد بالدِّين: الأديان أي هو دَيَّان أهلِ الأَدْيان، ولكن جمعها علَى الدِّيَن، لأنها مِلَلٌ ونِحَل، كما قالوا في جمع: الحُرَّة: حرائر، لأنهن في معنى الكَرَائم والعقائل، وكذلك مَرائر الشجر، وإن كانت الواحدة مُرَّة، ولكنها في معنى فعيلة، لأنها عَسِيرة في الذَّوْق، وشديدة على الآكل، وكريهة إليه.

شروط البيعة في العقبة الأخيرة:

قال ابن إسحٰق: وكان في بيعة الحرْب، حين أذِن الله لرسوله في القتال شروطًا سوى شَرْطه عليهم في العَقبة الأولى، كانت الأولى على بَيْعة النِّساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذِن لرَسوله ﷺ في الحرب، فلما أذِن الله له فيها، وبايَعهم رسولُ الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربِّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنَّة.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عُبادة بن الوليد بن عُبادة بن الصامت، عن أبيه الوليد، عن جدّه عبادة بن الصامت، وكان أحدَ النقباء، قال:

بايعنا رسول الله ﷺ بيعةَ الحرب ـ وكان عُبادة من الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بَيْعة النساء ـ على السَّمْع والطاعة، في عُسْرنا ويُسْرنا ومُنْشَطِنا ومُكرَهنا، وأثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمرَ أهلَه، وأن نقول بالحقّ أينما كُنا، لا نخاف في الله لومةَ لائم.

أسماء من شهد العقبة

قال ابن إسحٰق: وهذه تسمية من شَهِد العقبة، وبايع رسولَ الله ﷺ بها من الأوس والخزرج، وكانوا ثلاثةً وسَبْعين رجلاً وامرأتين.

شهدها من الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس أُسَيْد بن حُضَير بن سِماك بن عَتِيك بن رافع بن امرىء القيس بن زَيد بن عَبْد الأشهل، نقيب لم يشهد بدرًا. وأبو الهيثم بن التَّيِّهان، واسمه مالك، شهد بدرًا. وسَلَمة بن سلامة بن وَقْش بن زُغْبَة بن زعوراء بن عبد الأشهل، شهد بدرًا، ثلاثة نفر. قال ابن هشام: ويقال: ابن زعَوراء بفتح العين.

قال ابن إسحٰق: ومن بني حارثة بن الحارث بن الخَزْرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: ظُهَيْر بن رافع بن عَدِيّ بن زيد بن جُشَم بن حارثة، وأبو بُرْدة بن نِيار، واسمه هانىء بن نِيَارِ بن عمرو بن عبيد بن كِلاب بن دُهْمان بن غَنْم بن ذُبْيان بن هُميم بن

تفسير بعض الأنساب

فصل: وذكر ابن إسحٰق تسمية من حَضَر العَقَبة، وذكر أنسابَهم إلا أبا الهَيْثَم بن التَّيهان، وقد ذكرنا اسمَه واسمَ أبيه، وما قيل في نسبه في ذكر العقَبة الأولى.

كاهَل بن ذُهْل بن دهني بن بَلِيّ بن عمرو بن الحافِ بن قُضاعة، حليف لهم، شهد بدرًا ونُهَيْر [أبو بهير] بن الهَيْثَم، من بني نابي بن مَجْدعة بن حارثة ثلاثة نفر.

ومن بني عمرو بن عوف مالك بن الأوس: سعدُ بن خَيْثَمة بن الحارث بن مالك بن كعب بن النَّحّاط بن كعب بن حارثة بن غَنْم بن السَّلْم بن امرىء القيس بن مالك بن الأَوْسِ، نقيب، شهد بدرًا، فقُتل به مع رسولُ الله - ﷺ - شهيدًا.

قال ابن هشام: ونسبه ابنُ إسحٰق في بني عمرو بن عوف، وهو من بني غَنْم بن السَّلْم، لأنه ربما كانت دعوة الرجل في القوم، ويكون فيهم فيُنسب إليهم.

قال ابن إسحٰق: ورفاعة بن عبد المُنْذر بن زَنْبر بن زيد بن أُميَّة بن زَيْد بن مالك بن عوف بن عمْرو، نقيب، شهد بدرًا. وعبدُ الله بن جُبير بن النعمان بن أُميَّة بن البُرَك - واسم البُرَك: امرؤ القيس بن ثعلبة بن عمرو شهد بدرًا، وقُتِل يوم أُحد شهيدًا أميرًا لرسولِ الله ﷺ على الرُّمة؛ ويقال: أُميَّة بن البَرْك، فيما قال ابن هشام.

قال ابن إسحٰق: ومعنُ بن عديّ بن الجد بن العَجْلان بن [حارثة] بن ضُبَيْعة [بن حرام] لهم من بَلِيّ، شهد بدرًا وأُحُدًا والخندق، ومشاهد رسول الله ﷺ كلها، قُتِل يوم اليمامة شهيدًا في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وعُويم بن ساعدة، شهد بدرًا وأحدًا والخندق خمسة نفر.

فجميع من شهد العقبة من الأوس أحدَ عشرَ رجلاً.

وشهدها من الخزرج بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، ثم من بني النَّجّار، وهو تَيْم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج: أبو أيوب، وهو خالد بن زيد بن كُليب بن ثعلبة بن عَبد بن عوف بن غَنْم بن مالك بن النَّجّار شهد بَدْرًا وأُحدًا والخَنْدقَ، والمشاهد كلها، مات بأرض الروح غازيًا في زمن معاوية بن أبي سفيان. ومُعاذ بن الحارث بن رِفَاعَة بن سَواد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النَّجّار، شهد بدرًا وأُحدًا والخندق، والمشاهد كلها، وهو ابن عَفْرَاء، وأخوه: عوف بن الحارث، شهد بدرًا وقُتل به شهيدًا، وهو الذي قتل أبا جهل بن هشام بن المغيرة، وهو لعفراء - ويقال: رفاعة بن الحارث بن سَوَاد، فيما قال ابن هشام - وعُمارة بن حزم بن زيد بن لَوْذَان بن عمرو بن عبد عوف بن غَنْم بن مالك بن النجّار. شهد بدرًا وأُحدًا والخندق، والمشاهد كلها،

وذكر قُطْبَة بن عامر، والقُطْبَة فيما ذكر أبو حنيفة واحدة القُطَبِ، وهي شَوْكة مدحرجة فيها ثلاث شُوَيْكَات، وهي تشبه حَسَك السَّعْدَانِ، وقد بان بِنَعْتِ أبي حنيفة له أنه الذي نسميه ببلادنا حِمَّص الأمير. والقُطْبَة: طَرَف النَّصْل.

قُتل يوم اليمامة شهيدًا في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه وأَسْعَدُ بن زُرَارَة بن عُدَس بن عبيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجّار، نقيب، مات قبل بدر ومسجدُ رسول الله ﷺ يُبنى، وهو أبو أُمَامة. ستة نفر.

ومن بني عمرو بن مَبْذول ـ ومبذول: عامر بن مالك بن النجار: سَهْل بن عَتِيك بن نُعْمان بن عمرو بن عَتيك بن عمرو، شهد بدرًا. رجل.

ومن بني عمرو بن مالك بن النجّار، وهم بنو حُدَيْلة ـ قال ابن هشام: حُدَيْلَة: بنت مالك بن زيد مناة بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج ـ أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عديّ بن عمرو بن مالك، شهد بدرًا. وأبو طلحة، وهو زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عديّ بن عمرو بن مالك، شهد بدرًا. رجلان.

ومن بني مازن بن النجّار: قيسُ بن أبي صَعْصعة، واسم أبي صعصعة: عَمْرو بن زيد بن عوف بن مَبْذُول بن عمرو بن غَنْم بن مازن، شهد بدرًا، وكان رسولُ الله ﷺ جعله على الساقة يومئذ. وعمرو بن غُزَيَّة بن عمرو بن ثعلبة بن خَنْساء بن مَبْذول بن عمرو بن غَنْم بن مازن. رجلان. فجميع من شهد العقبة من بني النجّار أَحَدَ عَشَر رجلاً.

قال ابن هشام: عمرو بن غُزَيَّة بن عمرو بن ثعلبة بن خنساء، هذا الذي ذكره ابن إسحٰق، إنما هو غُزَيَّة بن عَطِيَّة بن خَنْساء.

من شهدها من بلحارث بن الخزرج:

قال ابن إسحٰق: ومن بَلْحارث بن الخزرج: سعدُ بن الربيع بن عمرو بن أبي زُهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك [الأغر] بن ثَعْلَبَة بن كَعْب بن الخزرج بن الحارث، نقيب، شهد بدرًا وقُتل يوم أحد شهيدًا. وخارجةُ بن زيد بن أبي زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعْب بن الخزرج بن الحارث، شهد بدرًا وقُتل يوم أُحد شهيدًا وعبدُ الله بن رواحة [بن ثعلبة] بن امرىء القيس بن عمرو بن امرىء القيس بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث،

وذكَر ذكْوان بن عَبْدِ قيس، ونسبه إلى عامر بن زُرَيْق بن عامر بن زُرَيْق بن رَوَاحَة بن غَضْب بن جُشَم، والغَضْبُ في اللغة: الشَديد الحمرة، وجُشَمُ مَعْدُولٌ عن جَاشم، وهو من جَشِمْتُ الأمر [تكلفته على مشقة] كما عَدَلوا عُمر عن عامر وقد أملينا جُزْءًا في أسرار ما

نقيب، شهد بدرًا وأحدًا والخندق ومشاهدَ رسول الله ﷺ كلها، إلا الفتحَ وما بعده، وقُتل يوم مُؤتة شهيدًا أميرًا لرسول الله - ﷺ - وبشيرُ بن سعد بن ثعلبة بن الجُلاسَ بن زيد بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث، أبو النعمان بن بشير شهد بدرًا. وعبدُ الله بن زَيْدَ بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد [مناة] بن الحارث بن الخزرج [بن حارثة] شهد بدرًا، وهو الذي أُرِي النداء للصلاة، فجاء به إلى رسول الله - ﷺ - فأمر به. وخلادٌ بن سوَيْدِ بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن مالك [الأغر] بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث [بن الخزرج] شهد بدرًا وأُحدًا والخندق وقُتِل يوم بني قُرَيْظة شهيدًا، طُرِحَت عليه رَحى من أُطَم من آطامِها فَشَدَخَتْه شَدْخًا شديدًا، فقال رسول الله - ﷺ - فيما يَذكرون - إنّ له لأجْرَ شهيدين. وعقبةُ بن عمرو بن ثعلبة بن أُسَيْرة بن عُسَيرة بن جَدَارة بن عوف بن الحارث [بن الخزرج] وهو أبو مسعود وكان أحدَث من شهد العقبة سنًّا، مات في أيام معاوية، لم يشهد بدرًا سبعة نفر.

ومن بني بيّاضة بن عامر بن زُرَيْقِ بن عبد حارثة بن مالك بنِ غَضْبِ بن جُشَم بن الخزرج: زيادُ بن لَبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عديّ بن أُمَيَّة بن بيَاضة، شهد بدرًا. وفَرْوَةُ بن عمرو بن وَذَفَة بن عبيد بن عامر بن بَيَاضة، شهد بدرًا. قال ابن هشام: ويقال وَدْفة.

ينصرف، وما لا ينصرف شَرحْنا فيه فائدة العدل عن فاعل إلى فُعَل، وما حقيقة العَدِلْ والمَقْصُود به، ولم لَمْ يُعْدَل عن أسماء الأجناس، ولِم لَمْ يكن إلا في الصفات ولِم لَمْ يكن من الصفات إلا في مثل عامر وزَافِر وقاثم، ولم يكن في مالك وصالح وسالم، ولِمَ خص فعل هذا البناء بالعَدْل إليه، وهل عُدِل إلى بناء غيره، أم لا ولِمَ منع الخَفْض والتَّنْوين إذا كان مَعْدولاً إلى هذا البناء، فمن اشتاق إلى معرفة هذه الأسرار فَلْيَنْظُرْها هُنالِك، فإن ابنَ جني قد حام في كتاب الخصائص على بعضها، فما وَرَدَ، وصَأْصَأَ فما فَقَّحَ.

وذكر في بني بَيَاضَة عَمْروَ بن وَذَفَةَ بذال مُعْجَمة، وقال ابن هشام: وَدْفَة بدال مهملة، وهو الأصح، والوَدْفَة: الرَّوْضَة الناعمة سُمِّيت بذلك، لأنها تقطر ماء من نعمتها، والأُدَافُ الذَّكَر، وأصله: وُدَافٌ، سُمِّي بذلك الموضع قطر الماء والمني منه، ويقال للروضة النَّاعمة: الدَّقَرى، وعمرو بن وَدْفَة هذا هو البَيَاضِيُّ الذي روى عنه مالك في كتاب الصلاة، ولم يُسَمِّه، وفي الأنصار [من قبائل الخزرج] بنو النَّجار، وهم تَيْمُ الله بن ثَعْلَبَة، سمي النَّجار فيما ذكروا لأنه نَجَر وجْهَ رجل بقَدُوم وقيل: كان نَجّارًا، وثعلبة في العربِ كثير في الرجال، وقَلَّ ما يُسَمُّون بثَعْلَب، وإن كان ذلك هو القياس كما يَسَمُّون بنَمِرِ وسَبُع وذِئْبٍ، ولكن

قال ابن إسحٰق: وخالد بن قيس بن مالك بن العَجْلان بن عامر بن بيَاضة، شهد بدرًا. ثلاثة نفر.

ومن بني زُرَيق بن عامر بن زُرَيق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العَجْلان بن عمرو بن عامر بن زُرَيق، نقيب. وذَكْوان بن عبد قيس بن خَلْدَة بن مُخَلَّد بن عامر بن زُرَيق [بن عامر بن زريق بن عبد حارثة]، وكان خرج إلى رسول الله ﷺ، وكان معه بمكة وهاجر إلى رسولِ الله ﷺ من المدينة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري؛ شهد بدرًا وقُتل يوم أُحد شهيدًا. وعباد بن قيس بن عامر بن خَلْدة بن مُخلَّد بن عامر بن زُرَيق، شهد بدرًا. والحارث بن قيس بن خالد بن مُخَلَّد بن عامر بن زُرَيق، وهو أبو خالد شهد بدرًا. أربعة نفر.

ومن بني سَلِمة بن سعد بن عليّ بن أسد بن ساردة بن تَزيد بن جُشم بن الخزرج؛ ثم من بني عُبَيْد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كَعْب بن سلمة: البَرَاء بن مَعْرُور بن صَخر بن خَنْساء بن سِنَان بن عُبَيْدِ بن عَدِيّ بن غنم، نقيب، وهو الذي تزعُم بنو سَلِمَة أنه كان

الثعلب اسمٌ مشترَك، إذ يقال ثَعْلَبُ الرُّمحِ، وثَعْلَبُ الحَوْضِ، وهو مخرج الماء منه، وفي الحديث حتى قام أبو لبابة يسد ثَعْلب مِرْبَدِه بردائه[1]، فكأنهم عَدَلوا عن التسمية بثعلب لهذا الاشتراك، مع أن الثَّعْلَبَةَ أحمى لأَدْرَاصِها[2] وأَغْيَرُ على أجرائِها من الثَّعلب.

وذكر قول رسول الله - ﷺ - لبني سَلِمَة مَن سيدكم؟ فقالوا جَدُّ بن قَيْس على بُخْل فيه، فقال: وأيُّ داءٍ أكْبَرُ من البُخْلِ؟! بل سيدكم الأبيض الجَعْدُ: بِشْر بن البَرَاء[3]، وروى عن الزُّهْرِي وعامر الشَّعْبِيِّ أنهما قالا في هذا الحديث عن النبي عليه السلام: بل سَيِّدُكم عَمْرو بن الجَمُوح وقال شاعر الأنصار في ذلك:

وقال رَسُولُ اللهِ، والحق قولُه	لِمَنْ قال منا مَنْ تَعُدُّونَ سَيِّدَا
فقالوا له: جَدُّ بن قَيْسٍ عَلَى الَّتِي	نُبَخِّلُه فيها، وما كان أَسْوَدَا
فَسَوَّد عَمْرَو بن الجَمُوح لجُودِهِ	وحُقَّ لِعَمْرٍو وعندنا أنْ يُسَوَّدَا

---

(١) انظر النسائي (٣/ ١٥٩) وأبو داود (١١٦٩) بتحقيقي. وابن ماجه (١٢٦٩ - ١٢٧٠) وأحمد (٤/ ٢٣٦) والبيهقي في الدلائل (١٦٠) وانظر الفتح (١١/ ١٤٣).

(٢) أدراصها: أولادها.

(٣) أخرجه الطبراني (١٩/ ١٨) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢/ ١١٢) والحاكم (٣/ ٣١٩) وانظر الفتح (٥/ ١٧٨/ ١٧٩).

أوّل من ضَرب على يد رسول الله ﷺ وشَرَط له، واشترط عليه، ثم تُوفي قبل مَقْدم رسول الله ﷺ المدينةَ. وابنه بِشْر بن البَرَاء بن مَعرور، شهد بدرًا وأُحدًا والخندق، ومات بخيبر من أكلة أكلها مع رسول الله ﷺ، من الشاة التي سُمّ فيها ـ وهو الذي قال له رسولُ الله ﷺ، حين سأل بني سلمة: من سيِّدكم يا بني سِلَمة؟ فقالوا: الجَدُّ بن قَيْس، على بُخْلِه، فقال رسولُ الله ﷺ: وأي داء أكبر من البُخل! سيدُ بني سلمَة الأبيض الجَعْد بِشْرُ بن البَرَاءِ بن مَعْرور. وسِنان بن صَيْفِي بن صَخْر بن خَنْساء بنِ سنان بن عُبَيْد، شهد بدرًا، والطُّفيل بن النُّعْمَان خَنْسَاء بن سِنَان بن عُبَيْد، شَهِد بدرًا، وقُتِل يوم الخَنْدَقِ شَهِيدًا. ومَعْقِل بن المُنْذر بن سَرْح بن خُنَاس بن سِنَان بن عُبَيْد، شهد بدرًا. ويزيد بن المنذر بن سَرْح بن خُنَاس بن سنان بن عُبَيْد شهد بدرًا. ومسْعُودُ بن يزيد بن سُبَيْع بن خَنْسَاء بن سِنَان بن عُبَيْدِ. والضَّحّاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عبيد، شهد بدرًا، ويزيد بن خِذَام أو [ابن حرام أو خدارة] بن سبَيْع بن خَنْسَاء بن سِنَان بن عُبَيْد. وجُبَار بن صَخْر بن أُمَيَّة بن خنساء بن سِنان بن عُبَيْد [بن عَدِيّ بن غِنْم بن كعب بن سَلِمة]، شهد بدرًا.

قال ابن هشام: ويقال: جَبَّار بن صَخْرِ بن أُمَيَّة بن خُنَاس.

قال ابن إسحٰق: والطُّفَيْل بن مالك بن خنساء بن سنان بن عبيد [وهو ابن عم الطُّفَيْل بن النعمان بن خنساء بنِ سنان]، شهد بدرًا. أحد عَشَرَ رجلاً.

ومن بني سَواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة، ثم من بني كعب بن سواد: كعب بن مالك بن أبي كعب بن القَيْن بن كَعْب. رجل.

ومن بني غَنْم بن سَواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة: سُلَيْم بن عُمرو بن حَدِيدة بن عمرو بن غنم، شهد بدرًا. وقُطْبة بن عامر بن حَدِيدة بن عَمْرو بن غَنْم، شهد بدرًا. ويزيد بن عامر بن حَدِيدة بن عمرو بن غَنْم، وهو أَبو المنذر، شهد بدرًا. وأبو اليَسَر، واسمه: كعب بن عمرو بن عَبَّاد بن عمرو بن غَنْم [بن سَوادِ بن غَنم بن كعب بن

ذكر خديج بن سلامة البلوي[1]:

فصل: وذكر خَدِيجَ بن سلامة البَلَويّ، وهو: خَدِيج بخاء منقوطة مفتوحة ودال مكسورة، كذا ذكره الدّارَقُطني وغيره، وذكره الطبري، وقال: شهِد العَقَبة، ولم يشهد بدرًا، وقال: يُكْنَى أبا رشيد:

---

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٤٥٩).

سَلِمة]، شهد بدرًا. وصَيْفيّ بن سَواد بن عبَّاد بن عمرو بن غَنْم. خمسة نفر.

قال ابن هشام: صَيْفيّ بنَ أسود بن عباد بن عمرو بن غَنْم بن سواد، وليس لسواد ابن يقال له: غَنْم.

قال ابن إسحٰق: ومن بني نابي بن عمرو بن سَواد بن غَنْم بن كعب بن سَلمة: ثعلبة بن غَنَمَة بن عدِيّ بن نابي، شهد بدرًا، وقُتِل بالخندق شهيدًا. وعمرو بن غَنَمَة بن عديّ بن نابي، وعَبْس بن عامر بن عديّ بن نابي، شهد بدرًا. وعبدُ الله بن أُنَيْس، حليف لهم من قُضاعة. وخالد بن عمرو بن عديّ بن نابي. خمسة نفر.

قال ابن إسحٰق: ومن بني حَرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلمة: عبدُ الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام، نقيب، شهد بدرًا، وقُتل يوم أُحد شهيدًا، وابنه جابر بن عبد الله. ومعاذُ بن عمرو بن الجَموح بن زيد بن حرام، شهد بدرًا. وثابت بن الجِذْع ـ والجِذع: ثَعْلَبَةُ بن زيد بن الحارث بن حرام ـ شهد بدرًا، وقُتِل بالطائف شهيدًا. وعمير بن الحارث بن ثعلبة بن زيد بن الحارث بن حرام، شهد بدرًا. قال ابن هشام: عمير بن الحارث بن لَبْدة بن ثعلبة.

قال ابن إسحٰق: وخَدُيج بن سَلامة بن أوْس بن عمرو بن الفُرافِر [أو القراقر] حليف لهم من بَلِيّ ومُعَاذُ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عَدِي بن كعب بن عمرو بن أُدَيّ بن سَعْد بن عليّ بن أسَد، يقال: أسَد بن ساردة بن تزيد بن جُشَم بن الخزرج، وكان في بني سَلمة، شهد بدرًا، والمشاهد كلها ومات بعِمْوَاس، عام الطاعون بالشام، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإنما ادعته بنو سلمة أنه كان أخا سهل بن محمد بن الجِدِّ بن قيس بن صخر بنْ خنساء بن سنان بن عبيد بن عديّ بن غَنْم بن كعب بن سلمة. لأمه. سبعة نفر.

قال ابن هشام: أَوْسُ: ابن عباد بن عديّ بن كعب بن عمرو بن أُدَيّ بن سعد.

قال ابن إسحٰق: ومن بني عوف بن الخزرج، ثم من بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج: عُبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنْم بن سالم بن عوف، نقيب، شهد بدرًا والمشاهد كلها.

وذكر مُعَاذَ بن جَبَلٍ ونسبه إلى أُدَيّ بن سعد بن علي أخي سلمة، وقد انفرض عَقِبُ أُدَيّ، وآخِرُ من مات منهم عبدُ الرحمٰن بن مُعَاذ بن جَبَل، وقد يقال في أُدَيّ أيضًا: أُذُن في غير رواية ابن إسحٰق وابن هشام.

قال ابن هشام: هو غَنْم بن عوف، أخو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

قال ابن إسحٰق: والعباس بن عُبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف، وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة فأقام معه بها فكان يقال له: مهاجريّ أنصاريّ وقُتل يوم أُحد شهيدًا. وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثَعْلَبَة بن خَزْمة بن أصْرم بن عمرو بن عَمَّارة، حليف لهم من بني غُصَينة من بَلِيّ. وعَمْرو بن الحارث بن لَبْدة بن عمرو بن ثعلبة: أربعة نفر، وهم القواقل.

ومن بني سالم بن غنم بن عوف بن الخزرج، وهم بنو الحُبْلَى ـ قال ابن هشام: الحُبْلى: سالم بن غَنْم بن عوف، وإنما سمي: الحُبْلَى ـ لعظم بطنه: رفاعةُ بن عمرو بن زيد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن سالم بن غنم، شهد بدرًا، وهو أبو الوليد.

قال ابن هشام: ويقال: رفاعة: ابن مالك، ومالك: ابن الوليد بن عبد الله بن مالك بن ثعلبة بن جُشم بن مالك بن سالم.

قال ابن إسحٰق: وعُقبة بن وَهب بن كَلَدة بن الجَعْد بن هِلال بن الحارث بن عمرو بن عديّ بن جشم بن عوف بن بُهْثة بن عبد الله بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان، حليف لهم، شهد بدرًا، وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ مهاجرًا من المدينة إلى مكة، فكان يقال له: مهاجري أنصاري.

قال ابن هشام: رجلان.

قال ابن إسحٰق: ومن بني ساعدة بن كعب بن الخزرج: سعد بن عُبادة بن دُلَيْم بن حارثة بن أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة، نقيب؛ والمنذر بن عمرو بن خُنَيْس بن حارثة بن لَوْذان بن عَبْدِ وُدّ بن زيد بن ثعلبة بن جُشم بن الخزرج بن ساعدة، نقيب، شهد بدرًا وأُحدًا، وقُتل يوم بئر معونة أميرًا لرسول الله ﷺ، وهو الذي كان يقال له: أعنق ليموت. رجلان.

وذكر أن مُعَاذَ بن جَبَلٍ مات في طاعون عَمْوَاس، هكذا تقيد في النسخة عِمواس بسكون الميم، وقال فيه البكري في كتاب المعجم من أسماء البقع: عَمَواسَ بفتح الميم والعين، وهي قرية بالشام عُرِف الطاعون بها لأنه منها بدأ وقيل: إنما سمي: طاعون عِمْواس لأنه عَمّ وآسى أي جعل بعض الناس أسْوَة بعض.

قال ابن إسحٰق: فجميع من شَهِد العقبة من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان منهم، يزعمون أنهما قد بايعتا، وكان رسولُ الله ﷺ لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهنّ، فإن أقررن، قال: اذهبن فقد بايعتكن.

ومن بني مازن بن النجّار: نُسَيْبة بنت كعب بن عمرو بن عوف بن مَبْذُول بن عمرو بن غنم بن مازن [بن النَّجّار]، وهي أمّ عُمَارة، كانت شهدت الحرب مع رسول الله - ﷺ - وشهدت معها أختها. وزوجُها زيد بن عاصم بن كعب. وابناها: حبيب بن زيد، وعبد الله بن زيد، وابنها حبيب الذي أخذه مُسَيْلِمَةُ الكذّاب الحنفيّ، صاحب اليمامة، فجعل يقول له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أفتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فعجل يقطعه عضوًا عضوًا حتى مات في يده، لا يزيده على ذلك، إذا ذُكِرَ له رسولُ الله ﷺ آمن به وصلى عليه، وإذا ذُكر له مُسيلمة قال لا أسمع - فخرجتْ إلى اليمامة مع المسلمين، فباشرت الحربَ بنفسها، حتى قَتل الله مُسيلمةَ، ورجعت وبها اثنا عشر جرحًا، من بين طعنة وضربة.

قال ابن إسحٰق: حدّثني هذا الحديث عنها محمد بن يحيىٰ بن حبَّان، عن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي صَعْصعة.

ومن بني سلمة: أم مَنيع؛ واسمها: أسماء بنت عمرو بن عديّ بن نابي بن عمرو بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سَلمة.

نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال:

بسم الله الرحمن الرحيم. قال: حدّثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام، قال: حدّثنا زياد بن عبد الله البَكّائيّ، عن محمد بن إسحٰق المُطَّلِبيّ: وكان رسولُ الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يُؤذن له في الحرب ولم تُحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر

وذكر يَزيد بن ثعلبة بن خَزْمة بسكون الزاي كذا قال فيه ابن إسحٰق وابن الْكَلْبِي، وقال الطبري فيه خَزَمة بتحريك الزاي، وهو بَلَوِيٌّ من بني عَمَّارَة بفتح العين وتشديد الميم، ولا يعرف عِمَّارَة في العرب إلا هذا، كما لا يُعْرَفُ عمارة بكسر العين إلا أُبَيّ بن عِمَارة الذي يَروي حديثًا في المسح على الخفين، وقد قيل فيه عُمارة بضم العين، وأما سوى هذين فعُمَارة بالضم، غير أنّ الدَّارَقُطْنِي ذكر عن مُحَمَّد بن حبيب عن ابن الكلبيّ في نسب قُضاعة: قال مُدرك بن عبد الله القَمْقَام بن عمارة بن دُوَيْد بن مالك. وفي النساء عُمَارة بنت نافع، وهي أُم محمّد بن عبد الله بن عبد الرزاق، وفي الأنصار خَزَمة سوى هذا المذكور بفتح الزاي كثير.

على الأذى، والصفح عن الجاهل وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونَفَوهم من بلادهم فهم من بين مَفْتون في دينه، ومن بين معذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فرارًا منهم، منهم مَنْ بأرض الحبشة، ومنهم مَن بالمدينة، وفي كل وجه؛ فلما عَتَتْ قريش على الله عزّ وجلّ، وردّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذّبوا نبيّه ﷺ، وعذّبوا ونَفَوْا مَن عَبَده ووحّده وصدّق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أوّل آية أنزلت في إذنه له في الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال، لمن بغى عليهم، فيما بلغني عن عُروة بن الزبير وغيره من العلماء، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بغيرِ حقٍّ إلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ ونَهَوا عَنِ المُنْكَرِ ولِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ أي: أني، إنما أحْللت لهم القتالَ لأنهم ظُلِموا، ولم يكن لهم ذَنْب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاة، وأَمروا بالمعروف، ونَهوا عن المنكر، يعني النبيّ - ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿وقَاتِلُوهُمْ حتى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتى لا يُفْتَن مؤمن عن دينه ﴿ويَكُونَ الدّينُ لِلَّهِ﴾ أي: حتى يُعبد الله، لا يعبد معه غيره.

وذكر بني الحُبْلى والنسب إليه حُبُلِيٌّ بضم الحاء والباء قاله سيبويه على غير قياس، النَّسَب، وتوهم بعض من ألف في العربية أن سِيبَويْهِ قال فيه: حُبَلِيٌّ بفتح الباء لمَّا ذكره مع جُذَمِيٌّ في النسب إلى جَذِيمةَ ولم يذكره سيبويه معه، لأنه على وزنه، ولكن لأنه شاذ مثله في القياس الذي ذكرناه عن سيبويه من تقييده بالضمّ، ذكره أبو عَلِيٍّ القَالِي في البارع، وقال هكذا تقيد في النسخ الصحيحة من سيبويه، وحَسْبُك من هذا أن جميع المحدّثين يقولون: أبو عبد الرحمٰن الحُبُلِيّ بضمتين، لا يختلفون في ذلك، فدلّ هذا كله على غلط مَن نسب إلى سيبويه أنه فتح الباء.

الإذن لمسلمي مكة بالهجرة

قال ابن إسحاق: فلما أذن الله تعالى له ﷺ في الحرب، وبايعه هذا الحيُّ من الأنصار على الإسلام والنُّصْرة له ولمن اتبعه، وأوَى إليهم من المُسلمين، أمر رسولُ الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها. فخرجوا أرْسالاً، وأقام رسولِ الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة.

المهاجرون إلى المدينة

هجرة أبي سلمة وزوجه، وحديثها عمّا لقيا

فكان أوّل من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش، من بني مَخْزوم: أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه: عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قَدِم

متى أسلم عثمان بن أبي طلحة[1]

فصل: وذكر هجرة أُم سَلَمة وصُحْبَةُ عثمان بن طَلْحة لها، وهو يومئذ على كُفره، وإنما أسلم عُثمان في هُدْنة الحُدَيْبِيَة، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، وقتل يوم أُحُدٍ إخوتَه مُسَافِع، وكِلاب والحارث، وأبوهم وعمه عثمان بن أبي طلحة قتل أيضًا يوم أحد

(١) له ترجمة في الطبقات (٥/٤٤٨) الإصابة (٢/ ٤٦٠) تاريخ الصحابة (٨٧٢) الثقات (٣/ ٢٦٠) الاستيعاب (٣/ ١٠٣٤).

على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة فلما آذته قريش وبلغه إسلامُ من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجرًا.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني أبي إسحٰقُ بن يسار، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدّته أمّ سلمة، زوج النبيّ ﷺ، قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة رحَل إلى بعيرِه ثم حَمَلني عليه، وحمل معي ابني سلمةَ بن أبي سلَمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بعيرَه، فلما رأته رجالُ بني المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهْط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمَة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المُغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنةً أو قريبًا منها حتى مرّ بي رجلٌ من بني عمّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين وَلدها! قالت: فقالوا لي: الحقِي بزوجك إن شئتِ. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت: فارتحلتُ بعيري ثم أخذتُ ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خَلْق الله. قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيتُ حتى أقْدَم على زوجي، حتى إذا كنت بالتَّنْعيم لَقِيتُ عثمانَ بن طَلْحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميَّة؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوَ ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُنَيِّ هذا. قال: والله ما لك من مَتْرك، فأخذ بخِطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قطّ، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح، قام إلى بعيري فقدّمه فرَحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي. فإذا ركبتُ واستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى

كافرًا وبيده كانت مفاتيح الكعبة ودفعها رسولُ الله - ﷺ - عام الفتح إلى عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وإلى ابن عمه شَيْبَةَ بن أبي عثمان بن أبي طلحة، وهو جد بني شَيْبَة حَجَبة الكعبة، واسم أبي طلحة جدهم: عبد الله بن عبد العُزَّى، وقُتِل عثمان رحمه الله شهيدًا بأجْنَادَيْن في أول خلافة عمر.

ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخُليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهلَ بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آلَ أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة.

هجرة عامر وزوجه وهجرة بني جحش

قال ابن إسحٰق: ثم كان أوّل من قَدِمها من المهاجرين بعد أبي سَلمة: عامر بن ربيعة، حليف بني عديّ بن كعب، معه امرأتُه ليلى بنت أبي حَثْمة بن غانم بن عبد الله بن عَوْف بن عُبيد بن عديّ بن كعب. ثم عبدُ الله بن جحش بن رئاب بن يَعْمر بن صَبرة بن مرّة بن كثير بن غَنْم بن دُودان بن أسد بن خُزيمة، حليف بني

هجرة بني جحش

وذكر هجرة بني جَحْش، وهم: عبد الله وأبو أحمد واسمه: عبد، وقد كان أخوهم عُبَيْد الله أسلم ثم تنصر بأرض الحبشة، وزينب بنت جحش أم المؤمنين التي كانت عند زيد بن حارثة ونزلت فيها: ﴿فلما قَضَى زيد منها وَطَرًا زَوَّجْنَاكَها﴾ [الأحزاب: ٣٧] وأم حبيب بنت جَحْش التي كانت تُسْتَحَاض، وكانت تحت عبد الرحمٰن بن عوف، وحَمْنَة بنت جحش التي كانت تحت مُصْعَبِ بن عُمَيْر، وكانت تُسْتَحَاضُ أيضًا، وقد روي أن زينب استُحيضت أيضًا، ووقع في المُوَطَّأ أن زينب بنت جَحْش التي كانت تحت عبد الرحمٰن بن عوف، وكانت تُسْتَحَاضُ، ولم تك قَطُّ زينب عند عبد الرحمٰن بن عَوْف، ولا قاله أحد والغَلَط لا يسلم منه بشر، وإنما كانت تحت عبد الرحمٰن أختها أم حبيب، ويقال فيها أم حبيبة، غير أن شيخنا أبا عبد الله محمد بن نجاح، أخبرني أن أم حبيب كان اسمها: زينب فهما زَيْنَبَان غلبت على إحداهما الكُنْية، فعلى هذا لا يكون في حديث المُوَطَّأ وَهَمٌ ولا غلط والله أعلم. وكان اسم زينب بنت جحش: بَرَّة فَسماها رسولُ الله ـ ﷺ ـ زينبَ، وكذلك زينبُ بنت أُم سَلَمَةَ رَبِيبته عليه السلام، كان اسمها بَرَّة، فسماها زينبَ كأنه كره أن تُزَكِّيَ المرأةُ نفسَها بهذا الاسم، وكان اسم جَحش بن رِئاب: بُرَّة بضم الباء، فقالت زينب لرسول الله ـ ﷺ: يا رسول الله لو غيرت اسم أبي، فإن البُرَّة صغيرة، فقيل: إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لها: «لو أبوك مُسْلِمًا لسمَّيْته باسم من أسمائنا أهلَ البيت، ولكني قد سميته جَحْشًا والجَحْشُ أكبر من البَرَّةِ». ذكر هذا الحديث مُسْنَدًا في كتاب المؤتلف والمختلفِ أبو الحسن الدارقطني.

أمية بن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جَحْش، وهو أبو أحمد ـ وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها، بغير قائد، وكان شاعرًا، وكانت عنده الفَرْعة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمةَ بنت عبد المطلب بن هاشم ـ فغُلِّقت دارُ بني جحش هجرةً، فمرّ بها عُتبة بن ربيعة. والعبَّاس بن عبد المطلب، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وهي دار أَبَان بن عثمان اليوم التي بالردم، وهم مُصْعِدون إلى أعلى مكة، فنظر إليها عُتْبَةُ بن ربيعة تَخْفُق أبوابُها يَبَابًا ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفَّس الصُّعَداء، ثم قال:

وكلّ دار وإن طالت سلامتُها ... يومًا ستُدركها النَّكْباء والحُوب

قال ابن هشام: وهذا البيت لأبي دُؤاد الإيادي في قصيدة له. والحوب: التوجع.

قال ابن إسحٰق: ثم قال عتبةُ: أصبحت: دارُ بَني جحش خلاءً من أهلها! فقال أبو جهل: وما تبكي عليه من قُلِّ بنِ قُلّ.

قال ابن هشام: القُلّ: الواحد. قال لبيد بن ربيعة:

كلّ بني حرّةٍ مصيرُهم ... قُلّ وإن أكثرتْ من العَددِ

قال ابن إسحٰق: ثم قال: هذا عمل ابن أخي هذا، فرّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا وقطَع بيننا فكانَ منزِلُ أبي سَلَمَة بنِ عبدِ الأسَدِ، وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخيه أبي أحمد بن جحش، على مبشَر بن عبد المنذر بن نبر بقُباء، في بني عمرو بن عوف، ثم قدم المهاجرون أرْسالاً، وكان بنو غَنْم بن دُودان أهلَ إسلام، قد

الشعر الذي تمثل به أبو سفيان:

فصل: ذكر البيت الذي تمثل به أبو سفيان حين مَرَّ بدار بني جحش تَخْفُقُ أبوابُها، وهو قوله:

وكل بَيْتٍ وإن طالت سلامَتُه ... يومًا ستدركه النَّكْباءُ والحَوْب

كل امرىءٍ بلقاءِ الموت مرتهن ... كأنه غَرَضٌ للموت مَنْصُوب

والشعر لأبي دُؤادِ الإيَادِيُّ واسمه: حَنظَلَة بن شرقي، وقيل: جارية بن الحجاج ذكر دار بني جحادة، وأنها عند دار أبان بن عثمان بالرَّدْم، والرَّدْمُ حَفْرِ بالقتلى في الجاهلية، فسمي: الرِدْم، وذلك في حرب كانت بين بني جُمَح، وبين بني الحارث بن فهر، وكانت الدَّبَرةُ فيها على بني الحارث، ولذلك قَلَّ عددُهم، فهم أقل قريش عددًا.

أوْعبوا إلى المدينة مع رسولِ الله ﷺ هجرةً رجالهم ونساؤهم: عبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعُكَّاشة بنِ مخصَن، وشجاع، وعقبة، ابنا وهب وأَرْبَد بن جُمَيْرة.

قال ابن هشام: ويقال ابن حُمَيْرة.

قال ابن إسحٰق: ومُنْقِذ بن نُباتة، وسعيدُ بن رُقَيش، ومحْرِز بن نَضْلة، ويزيد بن رُقَيْش، وقيس بن جابر، وعمرو بن مِحْصَن، ومالك بن عمرو، وصَفْوان بن عمرو، وثَقْف بن عمرو، وربيعة بن أكثم، والزبير بن عبيد، وتمَّام بن عبيدة، وسَخْبرة بن عبيدة، ومحمد بن عبد الله بن جحش.

ومن نسائهم: زينب بنت جحش، وأمّ حَبيب بنت جحش، وجُذَامَة بنت جَنْدل، وأمّ قَيْس بنت مِحْصَن، وأمّ حبيب بنت ثُمَامَة، وآمنة [أو أميمة] بنت رُقَيش، وسَخْبرة بنت تميم، وحَمْنة بنت جحش.

وقال أبو أحمد بن جحش بن رئاب، وهو يذكر هجرة بني أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ، وإيعابهم في ذلك حين دُعوا إلى الهجرة:

ولو حلفتْ بين الصَّفا أمّ أحمد ... ومَرْوتها بالله برّت يمينُها

لَنَحْنُ الأُلَى كنَّا بها، ثم لم نزل ... بمكّة حتى عاد غَثًّا سَمِينها

بها خيَّمت غَنْم بن دودان وابتنتْ ... وما إنْ غَدَت غَنْمٌ وخَفّ قَطِينها

إلى الله تغدو بين مَثْنى وواحد ... ودين رسول الله بالحقّ دينُها

وقال أبو أحمد بن جَحْشٍ أيضًا:

لـمَّا رأتني أمُّ أحمد غاديًا ... بِذِمَّةَ مَن أخشى بغَيْبٍ وأَرْهَب

تقول: فإما كنتَ لا بدّ فاعلاً ... فيَمّم بنا البلدان ولتَنْأَ يَثْرِبُ

فقلت لها: بل يَثْرِبُ اليومَ وجهُنا ... وما يَشأِ الرَّحمٰن فالعبدُ يركب

إلى الله وَجهي والرسول ومن يُقم ... إلى الله يومًا وجهَه لا يُخيَّب

فكم قد تركنا من حَميم مُناصِح ... وناصحةٍ تَبْكي بدَمْع وتندب

ترى أن وِتْرًا نَأْيُنا عن بلادنا ... ونحن نَرَى أنَّ الرَّغائب نطْلُب

وذكر ابن إسحٰق شعر أبي أحمد بن جَحْش وفيه:

إلى الله وجهي والرسول ومن يُقمْ ... إلى الله يومًا وَجْهَه لا يُخَيَّبِ

دعوْت بني غَنْم لِحَقْن دمائِهِم ... وللحَق لمَّا لاحَ للنَّاس مَلْحَب

أجابوا بحَمدِ الله لمَّا دعاهُم ... إلى الحقّ داع والنجاح فأوْعبوا

وكنَّا وأصحابًا لنا فارقوا الهُدَى ... أعانوا علينا بالسِّلاح وأجْلَبوا

كفَوْجَيْن: أمَّا منهما فمُوفَّقٌ ... على الحقّ مهديّ، وفوج معذّب

طغَوْا وتمنَّوا كذبة وأزلَّهم ... عن الحقّ إبليس فخابوا وخُيِّبوا

وَرُعْنَا إلى قول النبيّ محمد ... فطاب وُلاة الحقّ منا وطُيِّبوا

نَمُتّ بأرحام إليهم قَريبةٍ ... ولا قرب بالأرحام إذ لا نُقَرَّب

فأيّ ابن أخت بعدنا يأمَنُنَّكم ... وأيَّة صِهْر بعد صهريَ تُرقب

ستعلم يومًا أيُّنا إذ تزايلوا ... وزُيِّل أمر النَّاس للحقّ أصوب

قال ابن هشام: قوله: «ولَتَنأَ يثرب»، وقوله: «إذ لا نقرب»، عن غير ابن إسحٰق.

قال ابن هشام: يريد بقوله: «إذ» إذا، كقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال أبو النجم العجليّ:

ثم جزاهُ الله عنَّا إذْ جَزَى ... جنَّات عدنٍ في العلاليِّ والعُلا

هكذا يروى بكسر الباء على الإفواء، ولو رُوي بالرفع لجاز على الضرورة ويكون تقديره: فلا يُخَيَّبُ بإضمار الفاءِ في مذهب أبي العباس، وفي مذهب سيبويه: يجوز أيضًا لا على إضمار الفاء، ولكن على نية التقديم للفعل على الشرط كما أنشدوا:

إنك إن يُصْرَعْ أخوك تُصْرَعُ

وهو مع إن أحسن، لأن التقدير إنك تُصْرَعُ إنْ يُصْرَعْ أخوك، وأنشدوا أيضًا:

مَنْ يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكُره[1]

على هذا التقدير: وفي الشعر أيضًا:

ولا قرب بالأرحام إذ لا تُقرَّب

وتأول ابن هشام إذ هنا بمعنى: إذا وهو خطأ من وجهين، أحدهما: أن الفعل المضارع لا يحسُن بعد إذا مع حرف النفي، وإنما يحسُن بعد إذ كقوله سبحانه: ﴿إذ يقول المنافقون﴾ [الأنفال: ٤٩] ولو قلت: سآتيك إذا تقول كذا، كان قبيحًا إذا أخرتها، أو قدمت

(١) انظر كتاب سيبويه (١/ ٤٣٥).

الفعل لما في إذا من معنى الشرط، وإنما يحسن هذا في حروف الشرط مع لفظ الماضي، تقول: سآتيك إن قام زيد وإذا قام زيد، ويقبح: سآتيك إن يقم زيدٌ لأن حرف الشرط إذا أخر ألغي، وإذا ألغي لم يقع الفعل المعرب بعده، غير أنه حسن في كيف نحو قوله سبحانه: ﴿يُنْفِقُ كيف يشاء﴾ [المائدة: ٦٤]، و ﴿يَبْسُطه في السماء كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨] لِسِرٍّ بديع لعلنا نذكره إن وجدنا لِشَفْرَتِنا مَحَزًّا، ويحسن الفعل المستقبل مع إذا بعد القَسَم كقوله تعالى: ﴿والليل إذا يَسْري﴾ [الفجر: ٤] لانعدام معنى الشرط فيه، فهذا وجه، والوجه الثاني: أن إذ بمعنى إذا غير مَعْروفٍ في الكلام، ولا حكاه ثَبْتٌ، وما استشهد به من قول رُؤْبَةَ ليس على مَا ظَنَّ إنما معناه: ثم جزاه الله ربي إن جزى، أي من أجل أن نفعني وجزى عني، كما قال تعالى: ﴿يومًا لا تَجْزِي نفسٌ عن نَفْسٍ شيئًا﴾ [البقرة: ٤٨] جزى: مضمر عائد على الرجل الممدوح، وإذ بمعنى أن المفتوحة كذا قال سيبويه في سواد الكتاب، ويشهد له قوله سبحانه: ﴿بعد إذ أنتم مُسْلِمون﴾ [آل عمران: ٨٠] وعليه يحمل قوله سبحانه: ﴿ولن يَنْفَعُكُم اليومَ إذْ ظَلَمْتُم﴾ [الزخرف: ٣٩] وغفل النسوي عما في الكتاب من هذا، وجعل الفعل المستقبل الذي بعد لن عاملاً في الظرف الماضي، فصار بمنزلة مَن يقول: سآتيك اليوم أمس، وهذا هراء من القول، وغفلة عما في كتاب سيبويه، ولَيْتَ شِعْرِي ما يقول في قوله سبحانه: ﴿وإذ لم يَهْتَدُوا به فَسَيَقُولون هذا إفْكٌ قديم﴾ [الأحقاف: ١١] فإن جَوَّز وقوع المستقبل في الظرف الماضي على أصله الفاسد، فكيف يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها لا سيّما مع السين، وهو قبيح أن تقول: غدًا سآتيك، [illegible] إن قلت: غدًا فسآتيك، فكيف إن زدت على هذا وقلت: أمسِ فسآتيك، وإذ على أصله بمنزلة أمسِ، فهذه فضائح لا غطاء عليها.

فإن قال قائل: فكيف الوجه في قوله سبحانه: ﴿ولو ترى إذْ وُقِفُوا﴾ [الأنعام: ٣٠] وكذلك: ﴿ولو تَرَى إذ المجرمون ناكسوا رُؤوسهم﴾ [السجدة: ١٢] أليس هذا كما قال ابن هشام بمعنى إذا التي تعطى الاستقبال؟

قيل له: وكيف تكون بمعنى إذا، وإذا لا يقع بعدها الابتداء والخبر، وقد قال سبحانه: ﴿إذ المجرمون نَاكِسُوا رُؤوسهم﴾ وإنما التقدير: ولو ترى نَدَمهم وحُزنَهم في ذلك اليوم بعد وقوفهم على النار، فإذْ ظرفٌ ماض على أصله، ولكن بالإضافة إلى حزنهم وندامتهم، فالحزن والندامة واقعان بعد المعاينة والتوقيف، فقد صار وقت التوقيف ماضيًا بالإضافة إلى ما بعده، والذي بعده هو مفعول ترى، وهذا نحو مما يتوهم في قوله سبحانه: ﴿فانْطَلقا حتى إذا رَكِبا في السفينة خَرَقَها﴾ [الكهف: ٧١] فيتوهم أن إذا

....

هاهنا بمعنى إذ، لأنه حديث قد مضى، وليس كما يتوهم، بل هي على بابها، والفعل بعدها مستقبَل بالإضافة إلى الانطلاق، لأنه بعده، والانطلاق قبله، ولولا حتى، ما جاز أن يقال إلا انطلقا إذ ركِبا، ولكن معنى الغاية في حتى دل على أن الركوب كان بعد الانطلاق وإذا كان بعده، فهو مستقبل بالإضافة إليه، وكذلك مسألتنا الحزن، وسوء الحال الذي هو مفعول لترى، وإن كان غير مذكور في اللفظ، فهو بعد وقت الوقوف، فوقف الوقوف ماضٍ بالإضافة إليه، وإذ لم يكن بد من حذف، فكذلك نقدر حذفًا في قوله تعالى: ﴿وإذْ لم يَهْتَدوا به﴾ [الأحقاف: ١١] ونحوه لأنها وإن كانت بمعنى أن، فلا بد لها من تَعَلُّقٍ، كأنه قال: جُزيتم بهذا من أجل أن ظلمتم، أو من أجل أن لم يَهْتَدُوا به ضَلُّوا.

وذكر في نساء بني جَحْش: جُذَامة بنت جَنْدلَ، وأحسبه أراد جُذَامَة بنت وَهْب بن مِحْصَن، وهي المذكورة في حديث الرضاع في المُوَطَّأ، وقال فيها خلف بن هشام البزار: جُذَامة بالذال المنقوطة هكذا ذكر عنه مُسْلِم بن الحجاج، والمعروف: جُدَامة بالدال، وقد يقال فيها جُدَّامة بالتشديد، والجُدَامة قصب الزرع، وأملى علينا أبو بكر الحافظ، وكتبت عنه بخط يدي قال المبارك بن عبد الجبار عن أبي إسحٰق البَرْمَكِيّ عن محمد بن زكريا بن حبويه عن أبي عمر الزاهد المطرز قال: الجُدَّامة: بتَشديد الدال طَرَف السَّعَفَة وبه سميت المرأة، وكانت جُدَامَةُ بنت وَهْب تحت أُنَيسٍ بن قتادة الأنصاري وأما جُدَامة بنت جَنْدَلٍ، فلا تُعرف في آل جحش الأسديين، ولا في غيرهم، ولعله وَهْمٌ وقع في الكتاب، وأنها بنت وهب بن مِحْصَن بنت أخي عُكَّاشة بن مِحْصَن، كما قدمنا والله أعلم.

وذكر في بني أسد ثُقْفَ بن عمرو، ويقال فيه: ثِقَّافٌ شهد هو وأخوه مِدْلاج [أو مدلج] بدرًا وقتل يوم أحد شهيدًا وقال موسى بن عقبة قتل يوم خَيْبر قتله أسير [بن رزام] اليهوديّ.

وذكر فيهم أم حَبيب بنت ثُمَامة، وهي مما أغفله أبو عُمَر في كتابه، وأغفل أيضًا ذكر ثُمَام بن عِبيدة، وهو ممن ذكره ابن إسحٰق في هذه الجملة المذكورين من بني أسد.

وذكر ابن إسحٰق في هذه الجملة أَرْبَدَ بن جميرة الأسدي بالجيم، وقاله ابن هشام: حُمَيْرة بالحاء، ورواه إبراهيم بن سعد عن ابن إسحٰق بخلاف ما رواه البكّائي وابن هشام، فقال فيه ابن حُمَيِّر بتشديد الياء، كأنه تصغير حمار.

وذكر فيهم محْرِز بن نَضْلَة، ولم يرفع نسَبه، وهو ابن نَضْلَة بن عبد الله بن مُرَّة بن

هجرة عمر وقصة عياش معه

قال ابن إسحٰق: ثم خرج عمر بن الخطّاب، وعيّاش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة. فحدّثني نافع مَوْلى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتّعدتُ، لما أردنا الهجرةَ إلى المدينة، أنا وعَيّاش بن أبي

غَنْم بن دُودَان بن أَسَد [بن خزيمة] قتل في غزوة ذي قَرَد[١] شهيدًا، وكان قد شهد بدرًا، وكان يعرف بالأخرم، ويلقب: فُهَيْرة، وقال فيه موسى بن عقبة مُحْرِز بن وَهْبٍ، ولم يقل ابن نَضْلَة.

وذكر ابن إسحٰق أيضًا يزيد بن رُقَيْش، وبعضهم يقول فيه: أَرْبَد ولا يصح، وهو ابن رُقَيْش بن رِئاب بن يَعْمَر بن كبَيْر بن غَنْم بن دُودَان: وذكر فيهم رَبِيعة بن أَكْثَم، ولم ينسبه وهو ابن أكثم بن سَخْبَرة بن عمرو بن نُفَيْر بن عامر بن غَنْم بن دُودَان بن أسد يكنى: أبا يزيد، وكان قصيرًا دَحْدَحًا قُتِل يوم خيبر بالنَّطَاةِ[٢] قتله الحارث اليهوديّ.

هجرة عمر وعياش[٣]

ذكر فيها تواعدهم التناضب بكسر الضاد، كأنه جمع تَنْضُبُ [واحدته تَنْضُبة] وهو ضَرْب من الشجر، تألفه الحِرْبَاءُ. قال الشاعر:

إنّـي أُتِـيـح لـه حِـرْبَـاء تَـنْـضُـبَـةٍ ... لا يُرْسِلُ الساقَ إلاَّ مُمْسِكًا ساقا

ويقال لثمره الممتع وهو فُنْعَلِل أدغمت النون في الميم وظاهر قول سيبويه: أنه فعلل وأنه مما لحقته الزيادة بالتضعيف، والقول الأول يقوّيه أن مثله الهُنْدَلِع، وهو نبت وتتخذ من هذا الشجر القِسِيُّ كما تتخذ من النَّبع والشوط والشريان والسراء والأشكل، ودخان التنضب، ذكره أبو حنيفة في النبات.

وقال الجَعْدِيُّ:

كـأنَّ الـغُـبَـارَ الـذي غـادرت ... ضـحَـيـا دَوَاخِـنُ مـن تَـنْـضُـبِ

شبه الغبار بدخان التنضب لبياضه. وقال آخر [عُقَيْل بن عُلَفة المُرّي]:

وَهـلْ أَشْـهَـدَنْ خَـيْـلاً كـأن غُـبـارَهـا ... بـأسْـفَـلِ عـلْـكَـدٌ دواخِـنُ تَـنْـضُـبِ

---

(١) موضع على بُعْد ليلتين من المدينة. وسيأتي ذكرها.

(٢) النطاة: أرض بخيبر.

(٣) انظر البداية (٣/ ١٧٠) ط. دار الكتب العلمية.

رَبيعة [واسمه: عمرو ويلقب ذا الرمحين]، وهشام بن العاصي بن وائل السهميّ التَّناضِبَ من أَضَاة بني غِفَار، فوق سَرِف، وقلنا: أيُّنا لم يُصْبِح عندها فقد حُبِس فَلْيَمْضِ صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينةَ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارِثُ بن هشام إلى عَيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابنَ عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قَدِما علينا المدينةَ، ورسولُ الله ﷺ بمكة، فكلَّماه وقالا: إنّ أُمّك قد نذرت أن لا يمس رأسَها مُشْطٌ حتى تراك، ولا تستظلّ من شمس حتى تراك، فرقّ لها، فقلت له: يا عَيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أُمَّك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت. قال: فقال: أَبَرُّ قَسَمَ أُمِّي، ولي هنالك مالٌ فآخذه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصفُ مالي ولا تذهبُ معهما. قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما؛ فلما أبى إلا ذلك؛ قال: قلت له: أمَّا إذ قد فعلتَ ما فعلت، فخُذْ ناقتي هذه، فإنه ناقةٌ نجيبة ذَلول فالْزَمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ، فانجُ عليها: فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعْقِبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخا ليتحوّل عليها، فلما استَوَوْا بالأرض عدَوَا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

وأَضَاةُ بني غِفَارٍ على عشرة أميال من مَكَّة، والأَضاةُ الغَدِيرُ، كأنها مقلوب من وَضْأة على وزن فَعْلَة، واشتقاقه من الوَضَاءَةِ بالمد وهي النظافة، لأن الماء ينظف، وجمع الأَضاة إضَاءٌ وقال النابغة [في صفة الدروع]:

عُـلِـيـن بِـكَـدْيَـوْنٍ وأُبْـطِـنَّ كُـرَّةً ... وهُـنَّ إضَـاءٌ صـافـيـات الـغـلائِـل

[وأَضَيَات، وأضواتٌ وأضًا وإضُون]. وهذا الجمع يحتمل أن يكون غير مقلوب، فتكون الهمزة بدلاً من الواو المكسورة في وِضاء، وقياس الواو المكسورة تقتضي الهمز على أصل الاشتقاق، ويكون الواحد مقلوبًا لأن الواو المفتوحة لا تهمز، مع أن لام الفعل غير همزة، وقد يجوز أن يكون الجمع محمولاً على الواحد فيكون مقلوبًا مثله، ويقال أضاءَة بالمد، وقد يجمع أضَاة على إضين، قاله أبو حنيفة وأنشد:

مَـحَـافِـرُ كَـأَسْـرِيَـة الإضِـيـنـا

الأَسْرِيَةُ: جمع سَرِيٍّ، وهو الجَدْوَل، ويقال له أيضًا: السَّعِيد.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني به بعض آل عيّاش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارًا موثقًا، ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسُفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

كتاب عمر إلى هشام بن العاصي

قال ابن إسحٰق: وحدّثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه، قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابلٍ ممن افتتن صَرْفًا ولا عَدْلاً ولا توبة، قوم عَرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكُفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم. فلما قَدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ وأَنِيبُوا إلى رَبِّكُمْ وأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُم العَذَابُ ثمَّ لا تنصَرُونَ واتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الزمر: ٥٣ ـ ٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاصي قال: فقال هشام بن العاصي: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طُوَى، صعَّد بها فيه وأصَوِّب ولا أفهمها، حتى قلت اللهمّ فَهِّمْنِيها. قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أُنزلت فينا، وفيما كنَّا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقتُ برسول الله ـ ﷺ ـ وهو بالمدينة.

قول هشام بن العاص

فصل: وذكر نزول الآية: ﴿قُلْ يا عِبَادِيَ الذين أَسْرَفُوا على أَنْفُسِهم لاَ تَقْنَطُوا من رَحْمَة الله﴾ [الزمر: ٥٣] الآية في المستضعفين بمكة، وقول هشام بن العاص: ففاجأتني وأنا بذي طُوًى. طَوًى: مقصور موضع بأسفل مكة، ذكر أن آدم لما أهبط إلى الهند، ومشى إلى مكة، وجعل الملائكةُ، تنتظره بذي طِوًى، وأنهم قالوا له: يا آدمُ ما زلنا ننتظرك هاهُنا منذ ألفي سنة[١]، وروي أن آدم كان إذا أتى البيتَ خلع نعليه بذي طُوًى، وأما ذو طُوَاء بالمد، فموضع آخر بين مكة والطائف هكذا ذكره البَكْرِي، وأما طوًى بضم الطاء والقصر المذكور في التنزيل، فهو بالشام اسم للوادِي المُقَدَّس، وقد قيل: ليس باسم له، وإنما هو من صفة التَّقْدِيس، أي: المُقَدَّس مرتين.

---

(١) لا صحة لهذا.

الوليد بن الوليد وعياش وهشام:

قال ابن هشام: فحدّثني من أثق به: أنَّ رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «مَنْ لي بعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي»؟ فقال الوليد بن الوليد بن المُغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، فقَدِمها مستخفيًا، فلقي امرأة تحمل طعامًا، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين ـ تَعْنيهما ـ فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سَقْف له؛ فلما أمسى تسوّر عليهما، ثم أخذ مَرْوة. فوضعها تحت قَيْدَيْهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما فكان يقال لسفيه: «ذو المَرْوة». لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما، فعثر فدَميت أصبعُه، فقال:

هل أنتِ إلا أصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ

ثم قدم بهما على رسول الله ـ ﷺ المدينة.

منازل المهاجرين بالمدينة:

قال ابن إسحٰق: ونزل عمر بن الخطَّاب حين قدم المدينةَ، ومَنْ لحق به من أهله وقومه، وأخوه زيد بن الخطَّاب، وعمرو وعبد الله ابنا سُرَاقة بن المعتمر وخُنَيس بن حُذافة السّهميُّ ـ وكان صهرَه على ابنته حَفْصَة بنت عمر، فخلف عليها رسول الله ﷺ بعده ـ وسعيدُ بن زيد بن عمرو بن نُفَيل، وواقد بن عبد الله التَّميمي، حليف لهم؛ وخَوْليّ بن أبي خَوْلِيّ، ومالك بن أبي خَوْلِيّ حليفان لهم.

قال ابن هشام: أبو خَوْلِيّ: من بني عجل بن لُجَيم بن صَعْب بن عليّ بن بكر بن وائل.

قال ابن إسحٰق: وبنو البُكَيْر أربعتهم: إياس بن البُكَير، وعاقل بن البُكَير، وعامر بن البُكَير، وخالد بن البُكَير، وحلفاؤهم من بني سعد بن ليث، على رفاعة بن عبد المنذر بن زَنْبَر، في بني عمرو بن عوف بقباء، وقد كان منزل عيَّاش بن أبي ربيعة معه عليه حين قدما المدينة.

ثم تتابع المهاجرون، فنزل طَلْحةُ بن عبيد الله بن عثمان، وصُهَيْب بن سِنان على خُبيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح. قال ابن هشام: ويقال: يساف فيما

نزول طلحة وصهيب على خبيب بن إساف:

فصل: وذكر نزول طلحةَ وصهيب على خُبَيْبِ بن إسَاف ويقال فيه يَسَاف بياء مفتوحة في غير رواية الكتاب، وهو إساف بن عِنَبَة، ولم يكن حين نزول المهاجرين عليه مُسلمًا في

أخبرني عنه ابن إسحٰق. ويقال: بل نزل طلحة بن عُبيد الله على أسعد بن زُرارة، أخي بني النَّجَّار.

قال ابن هشام: وذُكر لي عن أبي عثمان النَّهديِّ، أنه قال: بلغني أن صُهَيْبًا حين أراد الهجرة قال له كفَّار قريش: أتيتنا صُعْلوكًا حقيرًا، فكثُرَ مالُك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صُهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فقال: «رَبِحَ صُهيب رَبِحَ صُهيب»[1].

منزل حمزة وزيد وأبي مرثد وابنه وأنسة وأبي كبشة

قال ابن إسحٰق: ونزل حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو مَرْثد كنَّاز بن حِصن.

قال ابن هشام: ويقال: ابن حُصَين ـ وابنه مرثد الغنويان، حليفا حمزة بن عبد المطلب، وأَنَسَة، وأبو كبْشة، موليا رسول الله ﷺ، على كُلْثوم بن هِدم، أخي بني

قول الواقدي بل تأخر إسلامه، حتى خرج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بدر، قال خُبَيْبٌ: فخرجت معه أنا ورجل من قومي، وقلنا له: نكره أن يشهدَ قومُنا مشهدًا لا نشهده معهم، فقال: أسلمتما؟ فقلنا: لا، فقال: ارجعا، فإنا لا نستعين بمشرك.

وخُبَيْبٌ هو الذي خلف على بنت خارجة بعد أبي بكر الصديق، واسمها: حَبِيبَةٌ، وهي التي يقول فيها أبو بكر عند وفاته: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية، وهي: بنت خارجة بن أبي زُهير، والجارية: أم كُلْثُوم بنت أبي بكر، مات خُبَيْبٌ في خلافة عثمان، وهو جَدُّ خُبَيْبِ بن عبد الرحمٰن، الذي يروى عنه مالكٌ في مُوَطَّئِه.

أبـو كبشـــة

وذكر أَنَسَة وأبا كَبْشَة في الذين نزلوا على كُلْثُوم بن الهِدْم، فأما أَنَسَةُ مولى رسول الله ـ ﷺ، فهو من مُوَلَّدِي السَّرَاة، ويُكْنى: أبا مَسْروح، وقيل: أبا مِشْرَح شهد بدرًا، والمشاهدَ كلَّها مع رسول الله ـ ﷺ ـ ومات في خلافة أبي بكر، وأبو كَبْشة اسمه: سليم يقال إنه من فارس، ويقال: من مُوَلَّدِي أرضِ دَوْس، شهد بدرًا والمشاهد كلَّها مع رسول الله ـ ﷺ ـ ومات في خلافة عمر في اليوم الذي ولد فيه عُرْوَةُ بن الزُّبير، وأما الذي كانت

---

(١) انظر الطبقات (٣/١/١٦٢) وابن عساكر في تهذيبه (٦/٤٥٢).

عمرو بن عوف بقُبَاء: ويقال: بل نزلوا على سعد بن خَيْثمة؛ ويقال: بل نزل حمزةُ بن عبد المطلب على أسعد بن زُرارة، أخي بني النجَّار. كلّ ذلك يقال:

ونزل عُبيدة بن الحارث بن المطلب، وأخوه الطُّفيل بن الحارث، والحُصين بن الحارث؛ ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب، وسُويبط بن سعد بن حُريملة، أخو بني عبد الدار، وطُليب بن عُمير، أخو بني عبد بن قُصَيّ، وخبَّاب مولى عُتبة بن غَزْوان، على عبد الله بن سلمة، أخي بَلْعجلان بقُباء.

ونزل عبد الرحمٰن بن عوف في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع أخي بَلْحارث بن الخزرج، في دار بَلْحَارِث بن الخزرج.

كفار قريش تذكره وتنسب النبي عليه السلام إليه، وتقول: قال ابن أبي كَبْشَةَ وفعل ابن أبي كَبْشَة، فقيل فيه أقوال: قيل: إنها كُنْية أبيه لأُمه وَهْبِ بن عبد مناف، وقيل: كُنْية أبيه من من الرضاعة الحارث بن عبد العُزَّى، وقيل: إن سَلْمى أخت عبد المطلب كان يكنى أبوها أبا كَبْشَة، وهو عمرو بن لَبِيد، وأشهر من هذه الأقوال كلها عند الناس أنهم شبهوه برجل كان يعبد الشِّعْرى وحده دون العرب، فنسبوه إليه لخروجه عن دين قومه.

وذكر الدارَقُطْني اسم أبي كَبْشَة هذا في المؤتلف والمختلف، فقال: اسمه وَجْزُ بن غالب، وهو خُزَاعِيُّ، وهو من بني غُبْشَانَ.

وذكر نزولهم بقُبَاء، وهو مسكن بني عمرو بن عوف وهو على فرسخ من المدينة، وهو يُمَد ويُقْصَر ويُؤَنَّث ويذَكَّر، ويُصْرف ولا يُصْرَف، وأنشد أبو حاتم في صَرْفه:

وَلَأَبْغِيَنَّكُمْ قُبًا [و] عُوَارِضًا ... ولأُقْبِلَنَّ الخيلَ لابَةَ ضَرْغَدِ

وكذلك أنشده قاسم بن ثابت في الدلائل قُبا بضم القاف و [فتح] الباء وهو عند أهل العربية تصحيف منهما جميعًا، وإنما هو كما أنشده سيبويه: قَنًا وعُوارِضًا، لأن قَنًا جَبَلٌ عند عُوارِض يقال له، ولجبل آخر معه قَنَوَان، وبينهما وبين قباء مسافات وبلاد، فلا يصح أن يقرن قُباء الذي عند المدينة مع عُوارِض وقَنَوَيْن، وكذا قال البكري في مُعْجَم ما استعجم وأنشد: [المعقِل بن ضِرارَ بن سنان الملقب بالشَّماخ].

كأنها لما بدا عُوَارِضُ ... والليلُ بين قَنَوَيْنِ رَابِضُ

وقُبَاء: مأخوذ من القَبْو، وهو الضَّمُّ والجمعُ قاله أبو حنيفة، وقال: القوَابِي: هن اللواتي يجمعن العصفر واحدتهن: قَابِيَةٌ. قال: وأهلُ العربية يسمون الضمة من الحركات قَبْوًا، وأما قولهم: لا والذي أخرج قُوبًا من قابية يعنون: الفَرْخَ من البَيْضَة فمن قال فيه:

ونزل الزبير بن العوّام، وأبو سبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزّى، على مُنْذِر بن محمد بن عُقبة بن أُحَيْحَة بن الجُلاَح بالعُصبة، دار بني جَحْجَبَى.

ونزل مُصْعَب بن عُمَير بن هاشم، أخو بني عبد الدار على سعد بن مُعَاذ بن النّعمام، أخي بني عبد الأشهل، في دار بني عبد الأشهل.

ونزل أبو حُذَيفة بن عُتْبة بن ربيعة، وسالم مولى أبي حُذيفة.

قال ابن هشام: سالم مَوْلَى أبي حُذيفة سائبةً، لثُبَيْتة [أو نَبَيْتَة] بنت يَعَار بن زيد بن عُبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوْسِ، سَيَّبته فانقطع إلى أبي حُذَيفة بن عتبة بن ربيعة فتَبَنّاه، فقيل: سالم مَوْلَى أبي حذيفة ويقال: كانت ثُبَيتة بنت يَعار تحت أبي حُذيفة بن عُتبة فأعتقت سَالمًا سائبةً. فقيل: سالم مولى أبي حُذيفة.

قابية بتقديم الباء، فهو القَبْو الذي يقدم، ومن قال فيه: قابية، فهو من لفظ القُوبِ لأنهَا تَتَقوَّب عنه، أي تَتَقَشَّرُ قال الكميت يصف النساء:

لَـهُـنَّ ولِـلْـمَـشِـيـبِ ومَـنْ عَـلاَهُ ... مـن الأمـثـال قـابِـيـةٌ وقُـوبُ

وفي حديث عمر: فكانت قابيَةَ قُوبِ عامها، يعني: العُمْرة في أشهر الحج، وقد ذكر أن قُبَاء اسم بئرٍ عُرِفت القرية بها.

سالم مولى أبي حذيفة:

فصل: وذكر سالمًا مَوْلى أبي حُذَيْفَة الذي كان أبو حذيفة قد تَبَنَّاه كما تبنى رسولُ الله ـ ﷺ ـ زيدًا، وكان سائبةً أي: لاَ ولاءَ عليه لأحد، وذكر المرأة التي أعتقته سائِبةً، وهي ثبيتة بنتَ يعَار، وقد قيل في اسمها بُثَيْنَة ذكره أبو عمر، وذكر عن الزُّهْري أنه كان يقول فيها: بنت تَعَار، وقال ابن شيبة في المعارف: اسمها سَلْمى [وقال ابن حبان: يقال لها: ليلمة] ويقال في اسمها أيضًا: عمرة، وقد أبطل التَّسْبيبَ في العِتْق كثيرٌ من العلماء، وجعلوا الوَلاَءَ لكل مَنْ أَعْتَقَ أخذًا بحديث النبي ﷺ في ذلك وحَمْلاً له على العموم، ولما روى أيضًا عن ابن مسعود أنه قال: لا سائبة في الإسْلاَم، ورأى مالكٌ ميراثَ السائبة لجماعة المسلمين، ولم ير ولاءه لمن سَيَّبه، فكان للتسييب والعتق عنده حكمان مختلفان، وسالم هذا هو الذي أمر رسولُ الله ﷺ سَهْلة بنت سُهَيْل أن ترضعَه ليحرُم عليها، فأرضعته وهو ذو لحية.

قال ابن إسحق: ونزل عُتْبة بن غَزْوان بن جابر على عبّاد بن بشرا بن وقَشْ أخي بني عبد الأشهل في دار عبد الأشهل.

ونزل عثمان بن عفّان على أوس بن ثابت بن المُنذِر، أخي حسّان بن ثابت في دار بني النجّار، فلذلك كان حسّان يحبّ عثمان ويبكيه حين قُتل.

وكان يقال: نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خَيْثمة، وذلك أنه كان عَزَبا، فالله أعلم أيّ ذلك كان.

فإن قيل: كيف جاز له أن ينظر إلى ثديها، فقد روي في ذلك أنها حلبت له في مِسْعَط وشرب اللبن[1]، ذكر ذلك محمد بن حبيب.

(١) انظر الحديث في مسلم في الرضاع (٢٧/٢٨) وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد.

خبر الندوة وهجرة الرسول ﷺ

وأقام رسولُ الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يُؤذَن له في الهجرة، ولم يتخلَّف معه بمكة أحدٌ من المهاجرين إلا من حُبس أو فُتن، إلا عليّ بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصدّيق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسولَ الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «لا تعجل لعلَ الله يجعل لك صاحبًا»، فيطمع أبو بكر أن يكونه.

الملأ من قريش يتشاورون في أمر الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: ولمَّا رأت قريش أن رسول الله - ﷺ - قد صارت له شِيعةٌ وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم مَنَعة، فحَذِرُوا خروجَ رسول الله ﷺ إليهم، وعَرفوا أنهم قد أجمع لحَرْبهم. فاجتمعوا له في دار النَّدوة - وهي دار قصيّ بن كلاّب التي كانت قريش لا تَقْضي أمرًا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، حين خافوه.

قال ابن إسحاق: فحدّثني من لا أتّهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نَجِيح، عن مجاهد بن جَبْر أبي الحجَّاج، وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: لمَّا أجمعوا لذلك، واتَّعدوا أن يدخلوا في دار النَّدوة ليتشاوروا فيها في أمر

اجتماع قريش للتشاور في أمر النبي ﷺ[1]

ذكر فيه تمثلُ إبليس - حين أتاهم - في صورة شيخ جليل وانتسابه إلى أهل نجد.

(١) الخبر في تاريخ الطبري (٢/ ٣٧٠) البداية والنهاية (٣/ ١٧٣) الكامل (٢/ ٣) الدلائل (٢/ ٤٦٥) المنتظم (٣/ ٤٥) الاكتفاء (١/ ٤٣٨).

رسول الله ـ ﷺ ـ غَدْوا في اليوم الذي اتَّعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يومَ الزَّحْمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة، فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها، قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سَمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعْدِمكم منه رأيًا ونُصحًا، قالوا: أجل، فأدخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرافُ قُرَيش، من بني عبد شمس: عُتبة بن رَبيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب. ومن بني نَوْفل بن عبد مناف: طُعَيمة بن عديّ، وجُبير بن مُطْعِم، والحارث بن عارم بن نوفل: ومن بني عبد الدار بن قصيّ: النضرُ بن الحارث بن كَلدة. ومن بني أسد بن عبد العزّى: أبو البَخْتَرِيّ بن هشام، وزَمَعْةَ بن الأسود بن المُطَّلِب، وحكيم بن حزَام. ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام. ومن بني سَهم: نبيه ومُنَبِّه ابنا الحجَّاج، ومن بني جُمَح: أُمَيَّة بن خَلَفٍ، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يُعَدُّ من قريش.

قوله في صورة شيخ جليل يقول: جَلَّ الرجل وجلت المرأة إذا أَسَنَّت، قال الشاعر:

وما حظها أن قيل عَزَّتْ وجَلَّت

ويقال منه: جلَلْتَ يا رجل بفتح اللام، وقياسه جَلُلْتُ لأن اسم الفاعل منه: جليل، ولكن تركوا الضَّمَّ في المضاعف كلّه استثقالاً له مع التضعيف إلا في لَبُبْت، فأنتَ لبيب، حكاه سيبويه بالضَّم على الأصل.

وإنما قال لهم: إني من أهل نجد فيما ذكر بعضُ أهل السيرة، لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحدٌ من أهل تِهَامة لأن هواهم مع محمّد، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نَجْدِي، وقد ذكرنا في خبر بُنْيان الكعبة أنه تمثَّل في صورة شيخ نجدي أيضًا، حين حكَّموا رسول الله ـ ﷺ ـ في أمر الركن: من يرفعه»، فصاح الشيخ النجدي: يا مَعْشَر قريش: أقد رَضِيتم أن يليَه هذا الغلامُ دون أشرافكم وذوي أسنانكم، فإن صح هذا الخبرُ فَلِمَعْنَى آخر تمثل نَجُدِيًا، وذلك أن نجدًا منها يَطْلُع قَرْنُ الشَّيْطانِ، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ حين قيل له: وفي نَجْدِنا يا رسول الله؟ قال: «هنالك الزلازل والفِتن، ومنها يطلع قَرْنُ الشيطان»[1]، فلم يُبارِك عليها، كما بارَك على اليمن والشام وغيرها، وحديثه الآخر أنه نظر إلى المشرِق، فقال: إن الفِتْنَة هاهنا من حيث يطلُع قَرْنُ الشيطان، وفي حديث ابن عمر، أنه حين قال هذا الكلام، ووقف عند باب عائشة، ونظر إلى المشرق فقاله، وفي

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٧).

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجلَ قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمِعوا فيه رأيًا. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابًا، ثم تَرَبَّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله، زُهيرًا والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يُصيبَه ما أصابهم، فقال الشيخ النَّجْديّ: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجَنَّ أمرُه من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فَلأَوْشَكوا أن يثِبوا عليكم، فينزِعوه من أيديكم، ثم يُكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره، فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا، فننْفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنَّا فوالله ما نُبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنَّا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدِيّ: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تَرَوْا حُسْن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبِّروا فيه رأيًا غير هذا. قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كلّ قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كلَّ فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمِدوا إليه، فيضربوه بها ضربةَ رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل، فَعَقَلْناه لهم. قال: فقال الشيخ النجديّ: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرّق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

وقوفه عند باب عائشة ناظرًا إلى المشرق يحذر من الفتن، وفكَّر في خروجها إلى المشرق عند وقوع الفتنة تفهم من الإشارة واضْمُم إلى هذا قوله عليه السلام حين ذكر نزول الفتن: أيقظوا صَوَاحِبَ الحُجر، والله أعلم.

وذكَر تشاورَهم في أمر النبي ﷺ، وأن بعضَهم أشار بأن يُحبَس في بيت، وبعضهم بإخراجه عليه السلام من بين أظهرهم ونفيِه، ولم يُسمّ قائل هذا القول، وقال ابن سلام: الذي أشار بحبسه هو أبو البَخْتَرِيّ بن هشام، والذي أشار بإخراجه ونفيه هو أبو الأسْوَد رِبيعةُ بن عمرو، أحد بني عامر بن لُؤَيّ، وقول أبي جهل: نَسِيبًا وسِيطًا، هو من السِّطة في العشيرة، وقد تقدم في باب تزويجه خديجة معنى الوَسِيط، وأين يكون مدحًا.

مما يقال عن ليلة الهجرة:

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ، فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلمَّا كانت عَتْمة من الليل اجتمعوا على بابه يَرْصُدُونه متى ينام فيثِبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعليّ بن أبي طالب: «نَمْ على فراشي وتَسجَّ ببرْدي هذا الحَضْرميّ الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنه لن يَخْلُص إليك شيء تكرهه منهم»، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرْده ذلك إذا نام.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظيّ قال: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حَفْنة من تراب في يده، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدُهم»، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه، فجعل ينثر ذلك الترابَ على رؤوسهم، وهو يتلو هؤلاء الآيات من يَـس: ﴿يَـس والقُرآنِ الحَكِيم إنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ على صِراطٍ مُسْتَقِيم تَنْزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيم﴾.. إلى قوله: ﴿فأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آتٍ ممن لم

وأما قوله على بابه يتطلّعون، فيرون عَلِيًا وعليه بُرْدُ رسول الله ﷺ فيظنونه إياه، فلم يزالوا قيامًا حتى أصبحوا، فذكر بعضُ أهل التفسير السببَ المانع لهم من التَّقَحُّم عليه في الدار مع قِصَر الجِدار، وأنهم إنما جاؤوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم همُّوا بالوُلُوج عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضُهم لبعض: والله إنها للسُّبَّةُ في العَرب أن يُتحدثَ عنا أنا تَسَوَّرْنا الحيطان على بنات العم، وهَتَكْنا سِتر حُرْمتنا[1]، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طَمَسَتْ أبصارُهم عنه حين خرج، وفي قراءة الآيات الأُول من سورة: يَـس من الفقه التَّذْكِرةُ بقراءة الخائفين لها اقتداءً به عليه السلام، فقد روى الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن النبي ﷺ في ذكر فضل يَـس أنها إن قرأها خائف أمِن، أو جائع شَبِع أو عارٍ كُسِي، أو عاطش سُقِي حتى ذكر خلالاً كثيرة.

---

(١) كانت هذه هي أخلاق «أهل الجاهلية»: «إنها للسبة في العرب أن يتحدث عنّا أنّا تسوّرنا الحيطان على بنات العم وهتكنا ستر حرمتنا». أين هي اليوم بين أتباع النبي ﷺ؟!!.

يكن معهم، فقال: مَا تَنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خَيَّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلاّ وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كُلُّ رجل منهم يدَه على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلَّعون، فَيَرَوْن عليًّا على الفراش مُتَسَجِّيًا بِبُرْدِ رسولِ الله ـ ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائمًا، عليه بُرْدُه. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليّ ـ رضي الله عنه ـ عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدّثنا[1].

الآيات التي نزلت في تربص المشركين بالنبي:

قال ابن إسحٰق: وكان مما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قلْ تَرَبَّصُوا فإنّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣٠].

قال ابن هشام: المنون: الموت. وريب المنون: ما يَرِيبُ ويعرض منها.

قال أبو ذُؤَيْبٍ الهذلي:

أَمِنَ الـمَـنُـون ورَيْـبِـهـا تَـتَـوَجَّـع ... والـدهـر ليس بـمُـعْـتِـب من يـجـزعُ

وهذا البيت في قصيدة له.

وذكر ابن إسحٰق ما أنزل الله في ذلك، وشرح ابن هشام رَيْبَ المَنُون، وأنشد قول أبي ذُؤَيْب:

أمـن الـمـنـونِ ورَيْـبـه تـتـفـجـع

والمَنُون يذكَّر ويؤنَّث، فمن جعلها عبارةً عن المَنِيَّة أو حوادث الدهر أنَّث، ومن جعلها عبارةً عن الدهر ذكَّر، ورَيْبُ المنون ما يَرِيبُك من تغير الأحوال فيه، سُمِّيت المَنُون لنزعِها مُنَنَ الأشياء أي: قُواها، وقيل: بل سميت مَنُونًا لقطعها دونَ الأمال من قولهم: جَبل منين أي: مقطوع، وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿فَلَهُم أجر غير مَمْنُون﴾ [التين: ٦] أي غير مقطوع.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٢٧) من طريق الواقدي. وأخرجه عبد الرزاق (٥/ ٣٨٩) وأحمد (١/ ٣٤٨) من وجه آخر بنحوه.

قال ابن إسحٰق: وأذن الله تعالى لنبيه ﷺ عند ذلك في الهجرة.

قال ابن إسحٰق: وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تعجُل، لعل الله يجد لك صاحبًا»، قد طمع بأن يكون رسولُ الله ﷺ، إنما يعني نفسه، حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين، فاحتبسهما في داره، يعلفهما إعدادًا لذلك.

....

الهجرة إلى المدينة

قال ابن إسحٰق: فحدّثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أُمّ المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها.

إذن الله سبحانه لنبيِّه بالهجرة

ذكر فيه أن رسول الله ـ ﷺ: أتى بيتَ أبي بكر في الظَّهيرة: قالت عائشة: وفي البيت أنا وأختي أسماءُ فقال أَخْرِجْ مَن معك، فقال أبو بكر: إنما هما بنتاي يا رسول الله.

وقال في جامع البخاري: إنما هم أهلُك يا رسول الله[1]، وذلك أن عائشة قد كان أبوها أنكحها من قبل ذلك، وكذلك روي عن أُمها أُم رُومان بنت عامر بن عويمر، ويقال في اسم أبيها: رَوْمَان بفتح الراء أيضًا، فقال ابن إسحٰق في غير رواية ابن هشام في حديث طويل ثابت اختصرته: إن أبا بكر حين هاجر مع رسول الله ـ ﷺ خلف بناتِه بمكة، فلما قدموا المدينةَ أرسل رسولُ الله ـ ﷺ ـ زيدَ بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأرسل أبو بكر عبد الله بن أُرَيْقِط [الدِّيلي]، وأرسل معهم خمسمائة درهم، فاشتروا بها ظفرًا بقُدَيْد، ثم قدموا مكة فخرجوا بسَوْدَة بنت زَمْعَة، وبفاطمة وبأُم كُلْثُوم. قالت عائشة: وخرجتْ أُمي معهم ومع طَلْحة بن عُبَيْد الله مصطحبين، فلما كنا بقُدَيْدِ نفر البعيرُ الذي كنت عليه أنا وأُمي: أُم رومان في مِحَفَّة، فجعلت أُمي تنادي: وَابنَيَّتَاه واعَرُوسَاه!! وفي رواية يونس عن ابن إسحٰق، وفيه قالت عائشة: فسمعت قائلاً يقول ـ ولا أرى أحدًا ـ أَلْقى خِطامَه، فألقيته

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٨٣).

قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدَث. قالت: فلما دخل، تأَخَّرَ له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأُختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْرِج عني مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأُمي! فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر، الصحبةَ يا رسول الله؛ قال: «الصحبةَ».

من يدي، فقام البعير يستدير به، كأن إنسانًا تحته يمسكه، حتى هبط البعير من الثَّنِيَّة، فسلم الله، فقدمنا على رسول الله - ﷺ - وهو يبني المسجد وأبياتًا له، فنزلت مع أبي بكر، ونزلت سَوْدَةُ بنت زَمْعَة في بيتها، فقال أبو بكر: ألا تَبْني بأهلك يا رسول الله، فقال: «لولا الصَّدَاق»، قالت: فدفع إليه ثنتَيْ عَشْرَةَ أوقية، ونَشًّا. والنَّشُّ: عشرون دِرْهَما وذكرَت الحديثَ. ورواه ابن أبي الزِّنَاد عن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة.

لِمَ اشتريت الراحلة؟

وفي حديث ابن إسحٰق أن أبا بكر قد أعد راحلتين، فقدم لرسول الله ﷺ واحدة، وهي أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيرًا ليس لي»، فقال أبو بكر: هو لك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، فقال أبو بكر: بالثمن يا رسول الله فركبها[1]، فسُئِل بعضُ أهل العلم، لِمَ لَمْ يقبلها إلا بالثمن، وقد أنفق أبو بكر عليه من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل؟ وقد قال عليه السلام: «ليس من أحد أَمَنَّ عليّ في أهلٍ ومالٍ من أبي بكر»، وقد دفع إليه حين بنى بعائشة ثنتَيْ عَشْرَة أوقية ونَشًّا، فلم يأب من ذلك؟ فقال المسؤول: إنما ذلك لتكون هجرتُه إلى الله بنفسه وماله رغبةً منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة والجهاد على أتم أحوالهما، وهو قولُ حَسَنٌ حدّثني بهذا بعضُ أصحابنا عن الفقيه الزاهد أبي الحسن بن اللوان رحمه الله.

ذكر ابن إسحٰق في غير رواية ابن هشام:

وذكر ابن إسحٰق في غير رواية ابن هشام: أن الناقةَ التي ابتاعها رسول الله - ﷺ - من أبي بكر يومئذ هي: ناقته التي تسمى بالجَدْعَاء، وهي غير العَضْبَاء التي جاء فيها الحديث حين ذكر رسول الله - ﷺ ناقةَ صالح، وأنها تحشر معه يوم القيامة فقال له رجل: وأنت يومئذ على العَضْباء يا رسول الله، فقال: «لا. ابنتي فاطمة تُحْشَر على العَضْبَاء، وأُحْشَر أنا على البُرَاقِ، ويُحْشَر هذا على ناقةٍ من نُوق الجنة» وأشار إلى بلال.

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٧٠).

قالت: فوالله ما شَعَرْت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبيّ الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجَرَا عبدَ الله بن أَرْقط ـ رجلاً من بني الدِّيل بن بكر [وهو من بني عبد بن عدي ـ هاديًا خِرِّيتًا ـ والخريت: الماهر بالهداية قد غَمَس حلفا في آل العاصي بن وائل السَّهْمِي ـ عن البخاري]، وكانت أمه امرأة من بني سَهْم بن عمرو، وكان مشركًا ـ يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

وذكر أذانه في الموقف في حديث طويل يرويه عبدُ الحميد بن كيسان عن سُوَيْد بن عُمَيْر، وعبد الحميد مجهول عندهم.

وفي مسند البزار عن أنس قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ على العَضْباء، وليست بالجدعاء، فهذا من قول أنس: إنها غير الجدعاء، وهو الصحيح، لأنها غُنِمت، وأخذ صاحبُها العقيلي بالمدينة، فقال: بِمَ أخذتني يا محمّد، وأخذت سابقة الحاج، يعني: العَضْباء، فقال: أخذتك بجرِيرة حُلفائك[1].

بكاء الفرح من أبي بكر:

وذكر ابن إسحٰق في قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما كنتُ أرى أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي من الفرح. قالت ذلك لصغر سنها، وأنها لم تكن علمت بذلك قبل، وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى، فأخذته استحسانًا له، فقال الطائِيُّ يصف السحاب:

دُهْم إذا وَكَفَتْ في رَوْضه طَفِقَتْ ... عيونُ أزهارِها تبكي من الفرح

وقال أبو الطيب، وزاد على هذا المعنى:

فلا تُنْكِرَنَّ لها صَرْعَةً ... فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ ما يَقْتُلُ

وقال بعض المُحْدَثين:

وَرَدَ الكتابُ من الحبيب بأنه ... سيزورني فاسْتَعْبَرَتْ أجفاني
غلب السرور علَيّ حتى إنه ... من فَرطِ ما قد سَرَّني أبْكَاني
يا عينُ صار الدمعُ عندك عادةً ... تَبْكِينَ في فَرَحٍ وفي أحْزَان

---

(١) أخرجه البيهقي (٦/ ١٢٠) وأحمد (٤/ ٤٣٣) والبغوي في شرح السُّنّة (١١/ ٨٣).

الذين كانوا يعلمون بالهجرة:

قال ابن إسحٰق: ولم يَعلم فيما بلغني، بخروج رسول الله ﷺ أحد، حين خرج، إلا عليّ بن أبي طالب، وأبو بكر الصدّيق، وآل أبي بكر. أمّا عليّ فإن رسول الله ﷺ - فيما بلغني - أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلَّف بعده بمكة، حتى يؤدّيَ عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحدٌ عنده شيء يخشَى عليه إلا وضعه عنده، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ.

الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار

قال ابن إسحٰق: فلما أجمع رسولُ الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قُحافة، فخرجا من خَوْخَةٍ لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عَمَدَا إلى غارٍ بِثَوْرٍ - جبل بأسفل مكة -

---

مكة والمدينة:

فصل: ومن قوله عليه السلام حين خرج من مكة، ووقف على الحَزْوَرَةِ[١]، ونظر إلى البيت، فقال: «والله إنك لأَحبُّ أرضِ الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلَك أخرجوني منك ما خرجت»[٢]. يرويه الزُّهْرِيُّ عن أبي سلمة عن عبد الله بن عَدِيٍّ بن الحمراء يرفعه، وبعضهم يقول فيه: عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هُريرة، وهو من أصَحّ ما يُحْتج به في تفضيل مكة على المدينة، وكذلك حديث عبد الله بن الزبير مرفوعًا: «إن صلاةً في المسجد الحرام خير من مائة ألف صلاة فيما سواه»[٣] فإذا كانت الأعمال تبعًا للصلاة، فكل حسنة تعمل في الحرام، فهي بمائة ألف حسنة، وقد جاء هذا منصوصًا من طريق ابن عباس عن رسول الله - ﷺ قال: «من حَجَّ ماشيًا كُتب له بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحرم»، قيل: وما حسنات الحَرَم؟ قال: «الحسنة فيه بمائة ألف حسنة» [قال عطاء: ولا أحسب السيئةَ إلا مثلها][٤] أسنده البزار.

حديث الغار

وهو غار في جبل ثَوْرٍ، وهو الجبل الذي ذكره في تحريم المدينة، وأنها حرام ما بين

---

(١) الحزورة: سوق كانت بمكة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) والحاكم (٣/ ٧/ ٤٣١) والدارمي (٢/ ٢٣٩) وابن عساكر (٤/ ٩) وأحمد في مسنده (٤/ ٣٠٥).

(٣) انظر تلخيص الحبير (٤/ ١٧٩) بتحقيقي. وابن عساكر (٧/ ٢٢٥).

(٤) أخرجه البزار (٢/ ٢٥).

فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنَه عبدَ الله بن أبي بكر أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما نهَارَه، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامرَ بن فُهَيْرة مولاه أن يرعى غنمَه نهاره، ثم يُرِيحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى فِي الغار. وكانت أسماءُ بنت أبي بكر تأتيهما من الطعامِ إذا أمست بما يُصلحهما.

قال ابن هشام: وحدّثني بعض أهل العلم، أن الحسن بن أبيَ الحسن البصري قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ، فتلمس الغار، لينظر أفيه سبع أو حيَّة، يَقِي رسولَ الله ﷺ بنفسه.

عيْرِ إلى ثَوْر، وهو وهم في الحديث، لأن ثورًا من جبال مكة، وإنما لفظ الحديث عند أكثرهم ما بين عَيْر إلى كذا، كأن المحدث قد نسي اسمَ المكان، فكنى عنه بكذا[1].

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل فيما شرح من الحديث أن رسول الله - ﷺ - لما دخله وأبو بكر معه أنْبَتَ الله على بابه الرَّاءة: قال قاسم: وهي شجرة معروفة، فحجبت عن الغار أعينَ الكفار[2].

وقال أبو حنيفة: الرَّاءة: من أَغْلاَثِ الشجر، وتكون مثل قامة الإنسان، ولها خيطان، وزَهر أبيض تُحشى به المَخَادّ، فيكون كالريش لخفته ولينه، لأنه كالقطن أنشد:

تـرى وَدَكَ الـشـريـف عـلـى لَـحَـاهُـم　　　كـمـثـل الـراء لَـبَّـدَه الـصَّـقِـيـعُ

وفي مُسْنَد البزار: أن الله تعالى أمر العنكبوتَ فَنَسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وخشِيَّتين، فوقعتا على وجهِ الغار، وأن ذلك مما صَدَّ المشركين عنه، وأن حمَام الحرَم من نسل تَيْنِك الحمامتين، وروي أن أبا بكر - رضي الله عنه حين دخله وتقدم إلى دخوله - قبْلَ رسول الله - ﷺ - ليقيه بنفسه، رأى فيه جُحْرًا فألْقَمَه عَقِبَه، لئلا يخرجَ منه ما يؤذي رسولَ الله ﷺ[3]، وفي الصحيح عن أنس: قال: قال أبو بكر - رضي الله عنه - لرسول الله ﷺ - وهما في الغار: لو أن أحدَهم نظر إلى قدمه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) في هذا نظر، وهو يفتقر إلى الحديث «الصحيح».

(٣) «ضعيف». أخرجه ابن الجوزي في المنتظم (٣/ ٥٣) وأورده في الوفا أيضًا (٣١٩) نحوه وفي الطبقات لابن سعد (١/ ٢٢٨) نحوه. وذكره الحافظ في الفتح (٧/ ١٨٥) وحسّنه ابن كثير وابن حجر أيضًا، مع قوله في أحد رواته وهو عثمان بن عمرو بن ساج في التقريب: فيه ضعف. وقصة الحمامتين أخرجها ابن عساكر. وقال الحافظ ابن كثير في البداية (٣/ ١٨٠) وهذا حديث غريب جدًا من هذا الوجه.

الذين قاموا بشؤون الرسول في الغار

قال ابن إسحٰق: فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثًا ومعه أبو بكر، وجعلت قُريش فيه حين فقدوه مائة ناقة، لمن يرِدّه عليهم. وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهَم، يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسولِ الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخير. وكان عامر بن فُهيرة، مولى أبي بكر رضي الله عنه، يرعى في رُعْيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفّي عليه، حتى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسُفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عِصامًا فلما ارتحلا ذهبت لتعلّق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحلّ نِطاقها فتجعله عصامًا، ثم علقتها به.

«ما ظَنُّك باثنين، الله ثالثهما»[1]، وروي أيضًا أنهم لما عَمِي عليهم الأثر جاؤوا بالقَافَةِ، فجعلوا يَقْفون الأثر، حتى انتهوا إلى باب الغار، وقد أنبَت الله عليه ما ذكرنا في الحديث قبل هذا، فعند ما رأى أبو بكر رضي الله عنه القافة اشتد حزنه على رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: إن قتلتُ فإنما، أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنتَ هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: «لا تحزن إن الله معنا»، ألا ترى كيف قال: لا تحزن، ولم يقل لا تخف؟! لأن حزنه على رسول الله ـ ﷺ شَغَله عن خوفه على نفسه، ولأنه أيضًا رأى ما نزل برسول الله ﷺ من النَّصَب، وكونه في ضيقة الغار مع فرقة الأهل، ووحْشَة الغُربة، وكان أرقَّ الناسِ على رسول الله ﷺ، وأشفقهم عليه، فحزن لذلك، وقد روي أنه قال: نظرت إلى قدميْ رسول الله ـ ﷺ في الغار، وقد تَفَطّرتا دمًا، فاسْتَبْكَيْتُ، وعلمت أنه عليه السلام لم يكن تعود الحَفَاءَ والجَفْوَةَ[2]، وأما الخوف فقد كان عنده من اليقين بوعد الله بالنصر لنبيه. ما يسكن خوفه، وقول الله تعالى: ﴿فأنزل الله سكينَته عليه﴾ قال أكثر أهل التفسير: يريد على أبي بكر، وأما الرسول فقد كانت السكينة عليه، وقوله: ﴿وأيَّدَه بجُنود لم تَرَوْهَا﴾ الهاء في أيده راجعة على النبي، والجنودُ: الملائكةُ أنزله عليه في الغار، فبشروه بالنصر على أعدائه، فأيده ذلك، وقواه على الصبر [و] قيل أيده بجنود لم تروها، يعني: يومَ بدر وحنين وغيرهما من مشاهده، وقد قيل: الهاء راجعة على النبي عليه السلام في الموضعين جميعًا وأبو بكر تَبَعٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٧/٨) ومسلم في فضائل الصحابة وأحمد (١/٤) والترمذي (٣٠٩٦).

(٢) لا صحة لحديث القدمين هذا.

لِمَ سُمِّيت أسماء بذات النطاقين:

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر: ذات النطاق، لذلك.

قال ابن هشام: وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول: ذات النطاقين.

وتفسيره: أنها لما أرادت أن تعلّق السفرة شقّت نطاقها باثنين، فعلّقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر[1].

له، فدخل في حكم السكينة بالمعنى، وكان في مصحف حَفْصَةَ: فأنزل الله سكينته عليهما[2]، وقيل: إن حزن أبي بكر كان عند ما رأى بعضَ الكفار يبول عند الغار، فأشفق أن يكونوا قد رأوهما، فقال له النبي ﷺ: «لا تحزن، فإنهم لو رأونا لم يَسْتَقْبِلُونا بفروجهم عند البول، ولا تشاغلوا بشيء عن أخذنا»، والله أعلم.

الردّ على الرافضة فيما بهتوا به أبا بكر:

فصل: وزعمت الرافضة[3] أن في قوله عليه السلام لأبي بكر لا تحزن غَضًّا من أبي بكر وذمًّا له؛ فإن حزنه ذلك: إن كان طاعةً فالرسولُ عليه السلام لا ينهى عن الطاعة، فلم يبق إلا أنه معصية، فيقال لهم على جهة الجدَل: قد قال الله لمحمد عليه السلام: ﴿فلاَ يَحْزُنْك قولُهم﴾ [يس: ٧٦] وقال: ﴿ولا يَحْزُنْك الذين يُسارعون في الكفر﴾ [آل عمران: ١٧٦] وقال لموسى: ﴿خُذْها ولاَ تَخفْ﴾ [طه: ٢١] وقالت الملائكة للوط: لا تخف، ولا تحزن، فإن زعمتم أن الأنبياءَ حين قيل لهم هذا كانوا في حال معصية، فقد كفرتم، ونقضتم أصلَكم في وجوب العصمة للإمامِ المعصوم في زعمكم، فإن الأنبياءَ هم الأئمة المعصومون بإجماع، وإنما قوله: لا تحزن، وقولُ الله لمحمد: لاَ يَحْزُنْك، وقوله لأنبيائه مثلَ هذا تسكينٌ لجَأْشِهم[4] وتبشير لهم وتأنيسٌ على جهة النهي الذي زعموا، ولكن كما قال سبحانه: ﴿تَتَنَزَّل عليهم الملائكةُ ألاَّ تَخَافُوا ولاَ تحْزَنُوا﴾ [فصّلت: ٣٠] وهذا القول إنما يقال لهم عند المعاينة، وليس إذ ذاك أمر بطاعة ولا نهي عن معصية.

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/ ١٨٣) وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٢٩).

(٢) لا يصح من السهيلي رحمه الله تعالى قوله أن قول «كليهما» ثابت في مصحف حفصة، فهو دليل عل نقص ما في مصحفنا الذي بين أيدينا، ولا يقول هذا إلا رافض شيعي فانتبه.

(٣) الرافضة هم الذين رفضوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه. انظر المِلل والنِحَل للشهرستاني وغيره.

(٤) الجأش: روع القلب.

راحلة النبي ﷺ:

قال ابن إسحٰق: فلما قرّب أبو بكر، رضي الله عنه، الراحلتين إلى رسولِ الله ﷺ، قدّم له أفضلهما، ثم قال: اركب، فداك أبي وأمي؛ فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أركب بعيرًا ليس لي». قال: فهي لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: «لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به»؟ قال: كذا وكذا، قال: «قد أخذتها به»، قال: هي لك يا رسول الله. فركبا وانطلقا. وأرْدف أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه عامرَ بن فُهيرة مولاه خلفه، ليخدِمهما في الطريق.

ووجه آخر من التحقيق، وهو أن النَّهي عن الفعل لا يقضي كَونَ المنهِيِّ فيه، فقد نهى الله نبيَّه عن أشياء، ونهى عبادَه المؤمنين، فلم يقتض ذلك أنهم كانوا فاعلين لتلك الأشياء في حال النهي، لأن فعلَ النهي فعلٌ مستقبل، فكذلك قوله: لأبي بكر: لا تحزن، لو كان الحزن كما زعموا لم يكن فيه على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ما ادَّعَوْا من الغَضّ، وأما ما ذكرناه نحن من حزنه على النبي ﷺ، وإن كان طاعة، فلم ينهه عنه الرسولُ عليه السلام إلا رفقًا به وتبشيرًا له لا كراهية لعمل، وإذا نظرت المعاني بعين الإنصاف لا بعين الشهوة والتعصب للمذاهب لاحت الحقائق، واتَّضحت الطَّرائق والله الموفّق للصواب.

معية الله مع رسوله وصاحبه[1]:

وانتبه أيها العبد المأمور بتدبُّر كتابِ الله تعالى لقوله: ﴿إِذْ يقولُ لصاحبه لا تَحْزَنْ إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] كيف كان معهما بالمعنى، وباللفظ، أما المعنى فكان معهما بالنصر والإرفاد[2] والهداية والإرشاد، وأما اللفظ فإن اسمَ الله تعالى كان يذكر إذا ذُكر رسولُه، وإذا

---

(١) وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾. قالوا فيهما: «إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا». قال بعض أهل العلم في قوله ﷺ لأبي بكر: ﴿إن الله معنا﴾ وقول موسى عليه السلام لما اتبعه فرعون وجنوده، فرأوا البحر أمامهم وفرعون من خلفهم قالوا: ﴿إنّا لمدركون﴾ قال موسى عليهم السلام ردًّا عليهم: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾. فقدّم النبي ﷺ ذكر ربه فقال: ﴿إن الله معنا﴾ وقال موسى لقومه: ﴿إن معي ربي﴾. والكلام إنما في المخاطب بهذا الكلام؛ فلما كان قوم موسى أهل مادية وفكر عَفِن قال لهم موسى: ﴿إن معي ربي﴾، فكان قوله: ﴿إن معي﴾ لفت لنظر وانتباه أولئك النفر ثم قال: ﴿ربي﴾ ـ ﴿إن معي ربي سيهدني﴾، ومن الناحية الأخرى لما كان المخاطب هو الصديق أبا بكر رضي الله عنه ـ كان ﴿إن الله﴾ فإذا سمع اسم الله تعالى سكنت نفسه واطمأنت ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ثم أردف النبي ﷺ بقوله: ﴿معنا﴾ وليس ﴿معي﴾ بل معنا. فتأمل.

(٢) الإرفاد: الراء والفاء والدال [رفد] أصل واحد مطّرد منقاس، وهو المعاونة والمظاهرة بالعطاء وغيره. مقاييس اللغة (٢/ ٤٢١).

أبو جهل يضرب أسماء بنت أبي بكر:

قال ابن إسحٰق: فحُدِّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قُريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم؛ فقالوا: أين أبوك يا بنتَ أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشًا خبيثًا، فلطم خدّي لطمة طرح منها قُرطي.

خبر الجنيّ الذي تغنى بمقدم الرسول ﷺ

قالت: ثم انصرفوا. فمكثنا ثلاث ليال، وما ندري أي وجهُ رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجلٌ من الجنّ من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يَرَوْنه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزَى الله ربُّ الناسِ خيرَ جَزائه ... رفيقَيْن حلاّ خيْمَتيْ أمّ مَعْبَدِ

هُما نَزَلا بالبرِّ ثُمَّ تَروَّحا ... فأفلح من أمسى رَفِيقَ محمدِ

لِيَهْنِ بَنِي كَعْب مَكَانُ فتاتِهِمْ ... وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِين بِمَرْصَدِ(١)

نسب أُم معبد(٢)

قال ابن هشام: أُمّ معبد بنت كَعبْ، امرأة من بني كَعْب، من خُزاعة. وقوله: «حلا خيمتي» و «هما نزلا بالبرّ ثم تروّحا» عن غير ابن إسحٰق.

قال ابن إسحٰق: قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وَجْه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة: رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن أرقط دليلهما.

دُعي فقيل: يا رسول الله، أو فعل رسول الله، ثم كان لصاحبه كذلك يقال: يا خليفة رسول الله، وفعل خليفة رسول الله، فكان يُذكر معهما، بالرسالة وبالخلافة، ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأحد من الخلفاء ولا يكون.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٩) وابن سعد (١/ ٢٣٠).

(٢) سيأتي كلام السهيلي رحمه الله تعالى بعد قليل، بعد خبر سراقة رضي الله عنه.

قال ابن هشام: ويقال: عبد الله بن أُرَيْقِط.

آل أبي بكر بعد هجرته:

قالَ ابن إسحٰق: فحدّثني يحيىٰ بن عباد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبَّادًا حدَّثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر مالَه كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه. قالت: فدخل علينا جدّي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. قالت: قلت: كلا يا أبتِ! إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا. قالت: فأخذت أحجارًا فوضعتها في كوّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضَعْ يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترَكَ لكم هذا فقد أحْسَن، وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئًا ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

خبر سراقة بن مالك

قال ابن إسحٰق: وحدّثني الزهري أن عبد الرحمٰن بن مالك بن جُعْشم حدّثه عن أبيه، عن عمه سُراقة بن مالك ﵁ بن جعشم، قال: لما خرج رسولُ الله ﷺ من مكة مُهاجرًا إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن ردّه عليهم. قال: فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجلٌ منّا، حتى وقف علينا، فقال: والله لقد رأيت رَكَبة ثلاثة مرّوا عليّ آنفًا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني: أن اسكت ثم قلت: قليلاً، إنما هم بنو فلان، يبتغون ضالة لهم، قال: لعله: ثم سكت. قال: ثم مكثت ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي، فقيد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي، فأُخرج لي من دُبُر حجرتي، ثم أخذت قِداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأْمَتِي ثم

حديث سراقة بن مالك بن جعشم الكناني[1]

ثم المُدْلِجيّ أحد بني مُدْلِج بن مرّة بن تَميم بن عَبْد مناة بن كِنانة. وقد ذكر ابن إسحٰق حديثه حين بذلت قريشٌ مائةَ ناقة لمن رد عليهم محمدًا عليه السلام، وأن سرَاقة اسْتَقْسَم بالأزلام، فخرج السَهم الذي يكره، وهو الذي كان فيه مكتوبًا لا تَضُرّه إلى آخر

(١) له ترجمة في الإصابة (٢/ ١٩) تاريخ الصحابة (٦٠٥) الاستيعاب (٢/ ٩١٦) أسد الغابة (٢/ ٢٣١) الطبقات (٩/ ٧٨) شذرات الذهب (١/ ٣٥) الرياض المستطابة (١/ ١١٧) الكاشف (١/ ٣٤٩) مشاهير علماء الأمصار (١٧٠) بتحقيقي.

أخرجت قِداحي، فاستقسمت بها؛ فخرج السهم الذي أكره «لا يضرّه» قال: وكنت أرجو أن أردّه على قريش، فآخذ المائة الناقة. قال: فركبت على أثره، فبينما فَرسي يشتدّ بي عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره «لا يضرّه». قال: فأبيت إلا أن أتبعه. قال: فركبت في أثره، فبينا فرسي يشتدّ بي، عثر بي، فسقطت عنه. قال: فقلت: ما هذا؟، قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره «لا يضرّه» قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت في أثره. فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض، وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار. قال: فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر. قال: فناديت القوم: فقلت: أنا سُراقة بن جُعْشُم: انظروني أكلمكم، فوالله لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قل له: وما تبتغي منا»؟ قال: فقال ذلك أبو بكر، قال: قلت: تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك. قال: «اكْتُبْ له يا أبا بكر»[1].

فكتب لي كتابًا في عَظْم، أو في رقعة، أو في خَزَفة، ثم ألقاه إليّ، فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت، فسكتّ فلم أذكر شيئًا مما كان حتى إذا فتحُ مكةَ على رسول الله ﷺ، وفرغ من حُنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجِعرانة. قال: فدخلت في كَتِيبة من خيل الأنصار. قال: فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك، ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسولِ الله ﷺ وهو على ناقته والله لكأني أنظر إلى ساقه في غَرْزه كأنها جُمَّارة. قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا

القصة، وأن قوائم فرسه حين قَرُبَ من رسول الله ـ ﷺ ـ سَاخت في الأرض، وتبعها عُثَان، وهو: الدخان وجمعه: عَواثِن. وذكر غير ابن إسحٰق أن أبا جهل لامه حين رجع بلا شيء، فقال وكان شاعرًا:

أبا حَكم والله لو كنتَ شاهدًا ... لأمر جوادي إذ تَسُوخُ قوائمه

علمتَ ولم تَشْكُكْ بأن محمدًا ... رسول ببرْهانٍ فمن ذا يُقاومه؟!

عليك بكَفِّ القوم عنه، فإنني ... أرى أمرَه يومًا سَتبدو معالمُه

بأمرٍ يَوَدُّ الناسُ فيه بأَسْرِهم ... بأن جميعَ الناس طُرًا يُسَالمه

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣٣٨) فتح. وابن الجوزي في المنتظم (٣/ ٥٥) والحاكم (٣/ ٦) ومسلم (٢٠٠٩) بعضه. وأحمد (٣/ ٢١٢).

ِسول الله، هذا كتابك لي، أنا سُراقة بن جُعْشم؛ قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «يوم وفاء وبرّ، ادْنُهْ». قال: فدنوت منه، فأسلم. ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله ﷺ فما أذكره، إلا أني قلت: يا رسول الله، الضالة من الإبل تَغْشَى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: «نعم، في كلّ ذات كبد حرّي أجْر». قال: ثم رجعت إلى قومي، فسقت إلى رسول الله ﷺ صَدقتي. قال ابن هشام: عبدـالرحمٰن بنُ الحارث بن مالك بن جُعْشم.

وقد قدمنا في هذا الكتاب عند ذكر كسرى ما فعله عمر بن الخطاب حين أتى بتاج كسرى، وسوَارَيْه ومُنْطَقَته، وأنه دعا بسُرَاقَة، وكان أَزَبَّ الذراعين[1]، فحَلاه حِلية كسرى، وقال له: ارْفَعْ يديكَ، وقل: الحمدُ لله الذي سَلَب هذا كِسرى الملك الذي كان يزعم أنه رَبُّ الناس وكساها أعرابيًا من بني مُدْلِج. فقال ذلك سراقة، وإنما فعلها عمر لأن رسولَ الله ـ ﷺ ـ كان قد بَشَّر بها سراقة حين أسلم، وأخبره أنّ الله سيفتح عليه بلادَ فارس، ويُغَنِّمه مُلكَ كِسْرى، فاستبعد ذلك سُراقة في نفسه، وقال: أَكِسْرى ملك الملوك؟! فأخبره النبي ـ ﷺ ـ أن حِلْيَتَه ستجعل عليه تحقيقًا للوعد، وإن كان أعرابيًا بَوَّالاً على عقبيه، ولكن الله يُعز بالإسلام أهلَه، ويُسْبغ على محمد وأمته نعمته وفضلَه.

وفي السير من رواية يونس شعر لأبي بكر رضي الله عنه في قصة الغار:

قالَ النبيُّ ولم يزل يُوَقِّرَني ... ونحن في سَدَفٍ[2] من ظُلْمَة الغار

لا تَخْشَ شيئًا؛ فإن الله ثالثُنا ... وقد توكَّل لي منه بإظهار

وإنما كَيْدُ من تخشى بَوادِرَه ... كيدُ الشياطينِ كَادتْه لكفار

والله مُهْلِكُهم طُرًّا بما كَسَبوا ... وجاعلُ المُنْتَهى منهم إلى النار

وأنت مُرتَحلٌ عنهم وتاركُهم ... إما عُدُوًّا وإما مُدْلجٌ سارِي

وهاجرٌ أرضَهم حتى يكونَ لنا ... قومٌ عليهم ذَوُو عِزٍّ وأنصارِ

حتى إذا الليلُ وارَتْنا جوانبُه ... وسَدَّ مِنْ دونِ مَن تَخْشَى بأسْتَارِ

سار الأُرَيْقِطُ يَهْدِينا وأَيْنُقُه ... يَنْعَبْنِ بالقَرْم نَعْبًا تحت أكْوارِ

يَعْسِفْنَ عرض الثَّنايا بعد أطولها ... وكُلَّ سَهْب رَقَاقِ التُّرابِ مَوَّارِ

حتى إذا قُلْتُ: قد أَنْجَدْن عارضَها ... مِن مدلج فارسٌ في منصب وَار

---

(١) أي طويل الذراعين.

(٢) السدف: الظلمة من الليل.

يُرْدِي بـه مُشْرف الأقْطَارِ مُعْتَزمٌ	كالسيد ذي اللِّبْدَة المُسْتَأسِد الضَّاري
فـقـال: كُـرُّوا فـقـلـت: إن كَـرَّتـنـا	من دونـهـا لك نَصْرُ الخالقِ الباري
أَنْ يَخْسِفَ الأرضَ بالأحوى وفارسه	فـانـظـر إلـى أَرْبُـع فـي الأرض غُـوَّار
فَـهِـيـلَ لـمـا رأى أَرْسَـاغَ مُـقْـربـه	قد سُخْنَ في الأرِض لم يُحْفَر بمحفار
فقال: هل لكم أَنْ تُطْلِقوا فرسي	وتـأخـذوا مَـوْثِـقـي فـي نُـصْـح أسـرار
وأصْرِفُ الحَيَّ عنكم إنْ لقيتهم	وأن أُعَـوِّر مـنـهـم عَـيـن عُـوَّار
فاذعوا الذي هو عنكم كَفَّ عَوْرَتَنا	يُطْلِق جوادي وأنتم خير أبْرار
فـقـال قـولا رسـولُ الله مُـبْـتـهـلا	يـا ربِّ إن كـان مـنـه غـيـر إخْـفَـار
فَـنَـجِّـه سـالـمًـا مـن شَـرِّ دعـوتِـنـا	ومُـهْـرَه مُـطْـلـقًـا مـن كَـلْـم آثـار
فـأظـهـر الله إذ يـدعـو حـوافـرَه	وفـاز فـارسُـه مـن هَـوْلِ أخـطـار[1]

حديث أُم معبد[2]

وذكر عن أسماء بنت أبي بكر حين خفي عليها، وعلى من معها أمرُ رسول الله ﷺ، ولم يدروا أين توجه، حتى أتى رجل من الجن يسمعون صوته، ولا يرونه، فمر على مكة والناس يتبعونه وهو ينشد هذه الأبيات:

جزى اللهُ رَبُّ الناسِ خيرَ جَزَائِه	رَفِيقَيْنِ حَلاً خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هـمـا نَـزلاَ بـالـبِـرِّ ثـم تـرحَّـلا	فـأَفْـلَـح من أمسى رَفيقَ محمدِ
لِيَهْنِ بني كعب مَقَام فتاتِهم	ومَقْعَدُها لِلْمؤمِنِينَ بِمرْصَدِ
فـيـالَـقِـصَـيٍّ مـا زَوَى الله عـنـكُـمُ	بـه مـن فَـعَـال لا يُـجـازى وسُـودَدِ
سَلُوا أُختَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا	فَإِنَّكُمْ إنْ تَسْأَلوا الشَّاةَ تَشْهدِ
دعـاهـا بـشـاةٍ حـائـلٍ فَـتَـحَـلَّـبَـتْ	لـه بـصـريـح ضَـرَّةُ الـشـاةِ مُـزْبِـد
فـغـادَرهـا رَهْـنًـا لـدَيْـهـا بـحـالِـبٍ	يُـرَدِّدهـا فـي مَـصْـدَرٍ ثـم مَـوْرِدِ

(١) القصيدة تحتاج إلى صحة نسب.

(٢) انظر الخبر في الطبقات (١/ ٢٣٠) تاريخ الطبري (٢/ ٣٨٠) البداية والنهاية (٣/ ١٩٠) المنتظم (٣/ ٥٧) الوفا (٣٢٨) والحاكم (٣/ ٩).

ويروى أن حَسَّانَ بن ثابت لما بلغه شعرُ الجني، وما هتف به في مكة قال يجيبه:

لقد خابَ قومٌ عنهم نبيُّهم ... وقد سُرَّ مَنْ يَسْري إليهم ويَغْتدي
ترحّل عن قومٍ فضلَّت عقولُهم ... وحَلَّ على قومٍ بنورٍ مُجَدَّد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم ... وأرشدهم مَنْ يَتْبَعِ الحقَّ يَرْشُد
وهل يَسْتَوي ضُلاَّلُ قوم تَسَفَّهوا ... عما يتهم هاد بها كل مهتد
لقد نَزَلتْ منه إلى أهلِ يَثْرِبِ ... ركابُ هُدًى حلت عليهم بأسْعُدِ
نبيٌّ يرى ما لا يرَى الناسُ حولَه ... ويتلو كتاب الله في كل مَشْهدِ
وإن قال في يومٍ مقالة غائب ... فتصديقُه في اليوم أو في ضُحَى الغدِ
لِيَهْنِ أبا بكر سعادةُ جَدِّه ... بصحبته مَنْ يُسعِدِ الله يَسْعَدِ

وزاد يونس في روايته أن قريشًا لما سمعت الهاتفَ من الجن أرسلوا إلى أمِّ معبد، وهي بخيمتها، فقالوا: هل مَرَّ بك محمّد الذي من حِلْيَته كذا، فقالت: لا أدري ما تقولون، وإنما ضافني حالبُ الشاة الحائل، وكانوا أربعةً رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر، وعامرُ بن فُهَيرة مولى أبي بكر، وقد تقدم التعريف به وطرفٌ من ذكر فضائله في هجرة الحبشة، والرابعُ عبد الله بن أُرَيْقِط اللَّيْثي ولم يكن إذ ذاك مسلمًا، ولا وجدنا من طريق صحيح أنه أسلم بعد ذلك، وجاء في حديث أنهم استأجروه، وكان هاديًا خرِّيتًا، والخِرِّيتُ: الماهرُ بالطريق الذي يَهْتَدي بمثل خَرْتِ الإبرة، ويقال له: الخَوْتَعُ أيضًا قال الراجز:

يضل فيها الخَوْتَع المُشَهرَّ

نسب أُم معبد وزوجها

وأما أُم معبد التي مرّ بخيمتها، فاسمها: عاتكة بنت خالد إحدى بني كعب من خُزَاعَةَ، وهي أخت حُبَيْش بن خالد، وله صحبة ورواية، ويقال له الأشعر، وأخوها: حُبَيْش بن خالد سيأتي ذكره والخلاف في اسمه وخالد الأشعر أبوهما، هو: ابن خُنَيْف بن مُنْقِذ بن رَبيعة بن أَصْرَم بن ضبيس بن حرام بن حُبْشِيَّة بن كَعْب بن عمرو وهو أبو خُزاعة.

وزوجها أبو معبد يقال إن له رواية أيضًا عن رسول الله ﷺ ـ توفي في حياة رسول الله ﷺ، ولا يُعرف اسمُه، وكان منزلُ أُمِّ معبد بقُدَيْد، وقد روي حديثها بألفاظ مختلفة متقاربة المعاني، وقد رواه ابْن قُتَيْبَةَ في غريب الحديث، وتقَصَّى شرح ألفاظه، وفيه أن

....

رسول الله ﷺ قال لأم معبد: وكان القومُ مُرَّمِلِين[1] مُسْنِتِين[2]، فطلبوا لبَنًا أو لحمًا يشترونه، فلم يجدوا عندها شيئًا، فنظر إلى شاة في كِسْرِ الخَيْمة[3] خلفها الجَهْدُ[4] عن الغنم، فسألها: هل بها من لبن؟ فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أَحْلُبَها، فقالت: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا بالشاة، فاعتَقَلها، ومَسَح ضَرْعها، فتفاجَّت[5] ودَرَّت واجْتَرَّت، ودعا بإناء يُرْبِضُ الرَّهط[6] أي: يشبع الجماعة حتى يُرْبِضوا، فحلب فيه حتى ملأه، وسقى القوم حتى رَووا ثم شرب آخرهم، ثم حلَب فيه مرة أخرى عَلَلاً[7] بعد نَهْلٍ، ثم غادره عندها، وذهبوا، فجاء أبو معبد، وكان غائبًا فلما رأى اللبن قال: ما هـذا يـا أُم معبد أنَّى لكِ هذا والشاء عازب[8] حِيَالٌ[9]، ولا حَلُوبة بالبيت، فقالت: لا والله، إلا أنه مرَّ بنا رجلٌ مُبَارك، فقال: صِفيه يا أُم معبد، فوصفته بما ذكر القُتَبِيُّ وغيره في الحديث، ومما ذكره القتبي: فشربوا حتى أراضوا جعله القتَبي من اسْتَراض الوادي: إذا استنقع ومن الرَّوْضَة وهي بقيَّة الماء في الحوض وأنشد:

وَرَوْضَـةٍ سَـقَـيْـتُ فـيـه نِـضْـوِي

ورواه الهَرَوِيُّ حتى آرَضُوا على وزن آمنوا، أي ضَرَبوا بأنفسهم إلى الأرض من الري، وفي حديث آخر أن آل أبي مَعْبَد كانوا يؤرخون بذلك، اليوم، ويسمونه: يوم الرجل المبارك، يقولون: فعلنا كَيْتَ وكَيْت قبل أن يأتينا الرجل المبارك، أو بعد ما جاء الرجل المبارَك، ثم إنها أتت المدينة بعد ذلك بما شاء الله، ومعها ابنٌ صغير قد بلغ السَّعْي ـ فمر بالمدينة على مسجِد رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يكلم الناس على المِنبَر فانطلق إلى أمه يَشْتَدُّ، فقال لها: يا أُمَّتَاهُ إني رأيت اليوم الرجلَ المبارك، فقالت له: يا بني وَيْحَك هو رسولُ الله ـ ﷺ.

ومما يُسأل عنه في هذا الحديث أن يقال: هل استمرت تلك البركة في شاة أُم معبد بعد ذلك اليوم، أم عادت إلى حالها؟ وفي الخبر عن هشام بن حُبَيْش الكعبي، قال: أنا رأيت تلك الشاةَ وإنها لتأدُم أمَّ معبد وجميعَ صِرمِها، أي: أهلَ ذلك الماء، وفي الحديث

---

(١) مرملين: أي نفذ زادهم.
(٢) مستتين: من السنة، وهي الجدب.
(٣) كسر الخيمة: أي جانبها.
(٤) الجهد: المشقة.
(٥) تفاجت: أي فتحت ما بين رجليها للحلب.
(٦) يربض الرهط: ينقلهم حتى يربضوا.
(٧) عللاً: مرة بعد مرة.
(٨) عازب: بعيدة عن المرعى.
(٩) حيال: ليست بحامل.

طريق الهجرة

قال ابن إسحٰق: فلما خرج بهما دليلُهما عبدُ الله بن أرقط، سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل من عُسْفَان، ثم سلك بهما على أسفل أَمَج، ثم استجاز بهما، حتى عارض بهما الطريق، بعد أن أجاز قُدَيْدًا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخَرَّار، ثم سلك بهما ثَنِيَّة المَرَة، ثم سلك بهما لِقْفًا.

قال ابن هشام: ويقال: لَفْتًا. قال مَعْقِل بن خُويلد الهُذلي:

نَـزِيـعًـا مُـحْـلِبًـا مـن أهـل لَـفْـت ... لـحـيّ بـيـن أثْـلـة والـنِّـجَـام

أيضًا من الغريب في وصف الشاة: قال ما كان فيها بُصْرَة وهي النقط من اللبن تبصر بالعين.

بلاد في طريق الهجرة

وذكر أن دليلَهما سلك بهما عُسْفَان. قال المؤلف رضي الله عنه: وقد روى عن كثير أنه قال: سُمي عُسْفَان لتعسُّفِ السيول فيه، وسُئل عن الأبواء الذي فيه قبرُ آمنَة أُمّ النبي ﷺ: لم سُمِّي الأبواء؟ فقال: لأن السيول تَتَبَوَّءه أي: تحل به، وبعسفان فيما رُوِي كان مسكن الجُذَمَاء، ورأيت في بعض المسندات أن رسول الله ﷺ مرّ بعُسْفَان وبه الجُذَمَاء فأسرع المشي ولم ينظر إليهم، وقال: «إن كان شيء من العِلل يعدى فهو هذا»، وهذا الحديث هو من روايتي، لأنه في مسند الحارِث بن أبي أسامة، وقد تقدم اتصال سندي به، وكنت رأيته قبل في مسند وَكيع بن الجراح، وليس فيه إسناد.

فصل: وذكر أن دليلَهم سلك بهم أَمَجًا ثم ثنية المَرَة، كذا وجدته مخفف الراء مقيدًا، كأنه مُسَهَّل الهمزة من المرأة.

وذِكر لَقْفًا بفتح اللام مقيدًا في قول ابن إسحٰق، وفي رواية ابن هشام: لَفْتًا، واستشهد ابن هشام بقول مَعْقِل [بن خُوَيْلِد] الهُذَليّ:

نَزيعًا[١] مُحُلِبًا[٢] من أهل لَفْتِ[٣] ... لِـحـيٍّ بـيـن أَثْـلَـةَ فـالـنِّـجَـام

وألفيت في حاشية الشيخ على هذا الموضع قال: لِفْتٌ بكسر اللام ألفيته في شعر مَعْقِل هذا في أشعار هُذَيل في نسختي، وهي نسخة صحيحة جدًا، وكذلك ألفاه مَنْ وثقته وكلَّفته

---

(١) النزيع: الغريب، أو المسبية أمه. (٢) المحلب: المعين من غير قومك.

(٣) لفتِ: موضع [ثنية] بين مكة والمدينة.

قال ابنُ إسحٰق: ثم أجاز بهما مَدْلَجة لَقْف ثمَّ استبطن بهما مَدْلَجة مِجَاح ـ ويقال: مَجَاج، فيما قال ابن هشام ـ ثم سلك بهما مَرْجِح مَجَاج، ثم تبطَّن بهما مَرْجِح من ذي الغَضوين ـ قال ابن هشام: ويقال: العَضَوين ـ ثم بطن ذي كَشْر، ثم أخذ بهما على الجَدَاجِد، ثم على الأجْرد، ثم سلك بهما ذَا سَلَم، من بطن أعْداء

أن ينظر فيه لي في شعر مَعْقل هذا في أشعار هُذَيْل مكسور اللام في نسخة أبي علِي القَالي المقروءة على الزيادي، ثم على الأحول، ثم قرأتها على ابن دُرَيْد رحمه الله، وفيها صَرِيحًا مُخلِبًا، وكذلك كان الضبْطُ في هذا الكتاب قديمًا، حتى ضبطه بالفَتْح عن القاضي، وعلى ما وقع في غيرها. انتهى كلام أبي بحر. وقد ذكر أبو عُبَيْد البَكْرِي: لِفْتًا، فقيده بكسر اللام كما ذكر أبو بحر وأنشد قبله:

لَعَمْرُكَ ما خشيت، وقد بلغنا ... جبالَ الجَوْزِ من بَلَدٍ تَهَام

صريحًا مُخلِبًا البيت.

وذكر المواضع التي سلك عليها، وذكر فيها مِجَاج بكسر الميم وجيمين، وقال ابن هشام: ويقال فيها: مَجاج بالفتح، وقد ألفيت شاهدًا لرواية ابن إسحٰق في لَقْف، وفيه ذكر مَجاح بالحاء المهملة بعد الجيم، وهو قول محمّد بن عُرْوة بن الزُّبير:

لعن الله بطْنَ لَقْفٍ مَسِيلاً ... وَمَجَاحًا وما أُحِبُّ مَجَاحَا

لَقِيَتْ ناقتي به، وبِلِقْفٍ ... بلدًا مُجْدِبًا وأرضًا شَحَاحَا

هكذا ذكره الزبير بن أبي بكر، ولقف آخر غير لِفْتٍ فيما قال البكري.

وذكر مَرْجِحَ الجيم على الحاء، وذكر مَدْلِجَة تِعْهِن بكسر التاء والهاء، والتاء فيه أصلية على قياس النحو فوزنه فِعْلِل إلا أن يقومَ دليل من اشتقاق على زيادة التاء، أو تصح رواية من رواه تُعْهِن بضم التاء، فإن صحَّت فالتاء زائدة، كسرت أو ضمت وبِتِعْهِن صخرة، يقال لها: أم عِقْى عُرفت بامرأة كانت تسكن هناك، فمر بها النبي ﷺ واستسقاها فلم تسقه، فدعا عليها فمُسِخَت صخرة، فهي تلك الصخرة فيما يذكرون[1].

وذكر الجَدَاجِدَ بجيمين ودالين كأنها جمع جُدْجُد، وأحسبها آبارًا ففي الحديث: أتينا على بئر جُدْجُد، قال أبو عبيد: الصواب: بئر جُدّ أي قديمة، وقال الهَرَوِيُّ عن اليزيدي: وقد يقال: بئر جدجد قال: وهو كما يقال في الكم كمكُم وفي الرَّفِ رَفْرَف.

---

(١) قصة دعاء النبي ﷺ على المرأة فمسخت صخرة، في حاجة إلى دليل «صحيح».

مَدلَجَة تِعْهِن، ثم على العَبابيد. قال ابن هشام: ويقال: العَبابيب، ويقال: العِثْيانة. يريد العبابيب.

قال ابن إسحٰق: ثم أجاز بهما الفاجَّة، ويقال: القاحة، فيما قال ابن هشام.

قال ابن هشام: ثم هبط بهما العَرْج، وقد أبطأ عليهما بعض ظهرهم، فحمل رسولَ الله ﷺ رجلٌ من أسلم، يقال له: أوس بن حُجْر، على جمل له ـ يقال له: ابن الرّداء ـ إلى المدينة، وبعث معه غلامًا له، يقال له: مسعود بن هُنَيْدَة، ثم خرج بهما دليلهما من العَرْج، فسلك بهما ثَنِيَة العائر، عن يمين رَكُوبَة ـ ويقال: ثنية الغائر، فيما قال ابن هشام ـ

وذكر العبابيد كأنه جمع عبَاد، وقال ابن هشام: هي العبَابِيب، كأنها جمع: عُبَاب من عَبَبْتُ الماءَ عبًّا، فكأنها ـ والله أعلم ـ مياه تَعُبُ عُبَابًا أو تُعَبُّ عَبًّا.

وذكر الفاجَّة بفَاء وجيم، وقال ابن هشام: هي: القاحَة بالقاف والحاء.

قصة أوس بن حجر:

وذكر قدومَهم على أوس بن حجر، وهو أَوْسُ بن عبْد الله بن حُجْر الأسْلَميّ، وبعضهم يقول فيه: ابن حَجَر، وهو قول الدَّارَقُطْني، والمعروف، ابن حُجْر بضم الحاء، وقد تقدم في المبعث ذكر من اسمه حجر في أنساب قريش، ومن يسمى: حُجْرًا من غيرهم بسكون الجيم، ومن يسمَّى الحِجر بكسر الحاء، فانظره هنالك عند ذكر خديجة وأمها، ولا يختلف في أوس بن حَجَر أنه بفتحتين.

وذكر أن أوسًا حمل رسول الله ـ ﷺ ـ على جَمَل له، يقال له: ابن الرداء، وفي رواية يونس بن بكير بن إسحٰق يقال له: الرَّدَاح، وفي الخطابي أنه قال لغلامه مسعود، وهو مسعود بنُ هَنَيْدَة: أسلُك بهم المخارق بالقاف، قال: والصحيح المخارِم، يعني: مخارِمَ الطريق، وفي النَّسَويّ أن مسعودًا هذا قال: فكنت آخذ بهم إخفاء الطريق. وفِقْه هذا أنهم كانوا خائفين، فلذلك كان يأخذ بهم إخفاءَ الطريقِ ومخارقَه، وذكر النَسَوي في حديث مسعود هذا: أن أبا بكر قال له: ائت أبا تميم، فقل له: يحملني على بعير ويبعث إلينا بزادٍ، ودليل يدلّنا، ففي هذا أن أوْسًا كان يُكَنَّى أبا تميم، وأن مسعودًا هذا قد روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ وحفظ عنه حديثًا في الخمس وحديثًا في صلاة الإمام بالواحد والاثنين ذكره النَّسَوِي في هذا الحديث، غير أنه قال في مسعود هذا: غلام فَرْوَة الأسْلَمي. وقال أبو عُمر: قد قيل في أوس هذا إن اسمَه تميم، ويكنى أبا أوس فالله أعلم.

حتى هبط بهما بطن رِئم، ثم قدم بهما قُباء، على بني عمرو بن عوف، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل يوم الاثنين، حين اشتدَّ الضَّحَاء، وكادت الشمس تعتدل.

النزول بقباء:

قال ابن إسحٰق: فحدّثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عُروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عُويمر بن ساعدة، قال: حدّثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: لما سمعنا بمَخرج رسول الله ﷺ من مكة، وتوكَّفنا قدومَه، كنا نخرج إذا صلينا الصبح، إلى ظاهر حَرّتنا ننتظر رسولَ الله ﷺ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمسُ على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا، وذلك في أيام حارّة. حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظلّ دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أوّل من رآه رجلٌ من اليهود، وقد رأى ما كنا نصنع، وأنَّا ننتظر قدوم رسول الله ـ ﷺ ـ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قَيْلة، هذا جَدُّكم قد جاء. قال: فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظلّ نخلة، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سِنّه، وأكثرُنا لم يكن رأى رسولَ الله ـ ﷺ ـ قبل ذلك، ورَكِبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظلّ عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظلَّه بردائه، فعرفناه عند ذلك[1].

وروي أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لمسعود حين انصرف إلى سيده: مُرْ سيّدك أن يَسِم الإبلَ في أعناقها قَيْدَ الفَرَسِ، فلم تَزَلْ تلك سِمَتَهم في إبلهم، وقد ذكرنا في شرح قصيدة أبي طالب عند قوله: مُوَسَّمة الأعضاد أسماء السِّمات كالعِراض والخِبَاط والهلال، وذكرنا قَيْدَ الفرس، وأنه سِمَةٌ فيَ أعناقها، وقول الراجز:

كُومٌ على أعناقِها قَيْدُ الفَرَسِ   تَنْجُو إذا اللَّيْلُ تدانى والتَبَسْ

متى قدم الرسول ﷺ المدينة؟

كان قدومُ رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول، وفي شهر أيلول من شهور العَجَم، وقال غير ابن إسحٰق قدمها لثمانٍ خَلَوْن من ربيع الأول، وقال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الاثنين أولَ يوم من ربيعِ الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة لِثِنْتيْ عشرة سنة، وكانت بَيْعَة العَقَبة أَوْسَطَ أَيَّام التَّشْريق.

---

(١) انظر البداية (٣/ ١٩٤) والطبقات لابن سعد (١/ ٢٣٣) والحاكم (٣/ ١١) والبخاري (٧/ ١٨٩) بنحوه.

المنازل التي نزلت بقباء

قال ابن إسحٰق: فنزل رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ على كُلْثُوم بن هِدْم، أخي بني عمرو بن عَوف، ثم أحد بني عُبيد: ويقال: بل نزل على سعد بن خَيْثمة. ويقول من يذكر أنه نزل على كُلثوم بن هِدْم: إنما كان رسول الله ـ ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هدْم جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة. وذلك أنه كان عَزبا لا أهل له، وكان منزل العُزَّابِ من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين، فمن هنالك يقال: نزل على سعد بن خيثمة، وكان يقال لبيت سعد بن خَيْثَمَة: بيت العُزَّاب. فالله أعلم أيّ ذلك كان، كلاً قد سمعنا.

ونزل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه على خُبَيْب بن إساف، أحد بني الحارث بن الخزرج بالسُّنح. ويقول قائل: كان منزله على خارجة بن زيد بن أبي زُهير، أخي بني الحارث بن الخزرج.

وأقام عليّ بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ، فنزل معه على كُلثوم بن هِدْم.

سهيل بن حنيف[1] وامرأة مسلمة:

فكان علي بن أبي طالب، وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين يقول: كانت بقُباء امرأة لا زوج لها، مسلمة. قال: فرأيت إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها

كلثوم بن الهدم

فصل: وذكر ابن إسحٰق نزول رسول الله ـ ﷺ ـ على كُلْثُوم بن الهِدْم، وكُلْثُوم هذا كُنْيَتُه أبو قيس، وهو كلثوم بن الهِدْم بن امْرِىء القيس بن الحارث بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وكان شيخًا كبيرًا مات بعد قُدوم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينةَ بيسير، هو أول من مات من الأنصار بعد قدوم النبي ﷺ، ثم مات بعده أسعدُ بن زُرَارَة بأيام، وسعدُ بن خَيْثَمة، وأنه كان يقال لبيته: بيت العُزَّاب هكذا روي، وصوابُه: الأعزبُ؛ لأنه جمع عَزَبٍ، يقال: رجل عَزَبٌ، وامرأة عَزَبٌ، وقد قيل: امرأة عَزَبَة بالتاء.

---

(١) انظر ترجمته في الطبقات (٣/ ٤٧١) (٦/ ١٥) الإصابة (٢/ ٨٧) الاستيعاب (١/ ٦٦٢).

بابها، فتخرج إليه فيعطيها شيئًا معه فتأخذه. قال: فاستربتُ بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلّ ليلة، فتخرجين إليه فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حُنيف بن واهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان عليّ رضي الله عنه يَأْثِر ذلك من أمر سهل بن حُنيف، حتى هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني هذا، من حديث عليّ رضي الله عنه، هندُ بن سهل بن حنيف، رضي الله عنه.

بناء مسجد قباء

قال ابن إسحٰق: فأقام رسول الله ﷺ بقُباء، في بني عمرو بن عوف، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسّس مسجده.

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة. وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك، فالله أعلم أيّ ذلك كان. فأدركتْ رسولَ الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانُونَاء، فكانت أوّل جمعة صلاها بالمدينة.

تأسيس مسجد قباء

فصل: وذكر تأسيس مسجدِ قُبَاء، وأنَّ رسول الله ﷺ أسسه لبني عَمْرو بن عَوْف، ثم انتقل إلى المدينة، وذكر ابن أبي خَيْثَمة أن رسول الله ﷺ حين أسسه، كان هو أول من وضع حَجَرًا في قِبلته، ثم جاء أبو بكر بحجَر فوضعه، ثم جاء عُمَر بحجر فوضعه إلى حَجَرِ أبي بكر، ثم أخذ الناسُ في البنيان. في الخطابي عن الشَّمُوسِ بنت النعمان [بن عامر بن مجمع الأنصارية] قالت: كان النبي ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد صَهَرَهُ إلى بَطْنه، فيضعه فيأتي الرجل يريد أن يُقِلَّه فلا يستطيع حتى يأمرَه أن يَدَعَه ويأخذَ غيره. يقال: صَهَره وأَصْهَره إذا ألصقه بالشَّيء، ومنه اشتقاق الصِّهْر في القرابة، وهذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام، وفي أهله نزلت ﴿فيه رجالٌ يُحبُّونَ أن يَتَطهَّروا﴾ [التوبة: ١٠٨] فهو على هذا المسجد الذي أسس على التقوى، وإن كان قد روى أبو سَعِيدِ الخُدْرِيّ أن رسول الله ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فقال: «هو مسجدي هذا»[1]، وفي رواية

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٩) والنسائي (٢/٣٦) وأحمد (٣/٨/٨٩/٩١) (٥/١١٦/٣٣١) والخطيب =

....

أخرى قال: «وفي الآخر خير كثير»، وقد قال لبني عمرو عوف حين نزلت: «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوى»، «ما الطُّهُور الذي أثنى الله به عليكم»؟ فذكروا له الاستنجاء بالماء بعد الاسْتَجْمَارِ بالحجر، فقال: «هو ذاكم فَعَلَيْكُموه»[1]، وليس بين الحديثين تعارضٌ كلاهما أُسِّس على التقوى، غير أن قوله سبحانه: من أول يوم يقتضي مسجد قباء لأن تأسيسه كان في أول يوم من حُلول رسول الله ـ ﷺ ـ دار معجزته والبلد الذي هُو مُهَاجَره.

التاريخ العربي:

وفي قوله سبحانه: ﴿من أول يوم﴾ وقد عُلم أنه ليس أول الأيام كلها، ولا أضافه إلى شيء في اللفظ الظاهر [فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر] فيه من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة مع عمر حين شاورهم في التاريخ، فاتفق رأيهُم أن يكون التاريخُ من عام الهجرة لأنه الوقت الذي عزَّ فيه الإسلام، والـذي أَمَر فيه النبيُّ ـ ﷺ ـ وأسْس المساجدَ. وَعَبَد الله آمنًا كما يحب[2]، فوافق رأيهُم هذا ظاهر التنزيل، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله سبحانه من أول يوم أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يورَّخ به الآن، فإن كان أصحابُ رسول الله ﷺ أخذوا هذا من الآية، فهو الظن بأفهامهم، فهُم أعلمُ الناسِ بكتاب الله وتأويله، وأفهمُهم بما في القرآن من إشارات وإفصاح، وإن كان ذلك منهم عن رأيٍ واجتهاد، فقد علم ذلك منهم قبل أن يكونوا وأشار إلى صحته قبل أن يفعل، إذ لا يعقل قول القائل: فعلته أول يوم إلا بإضافةٍ إلى عامٍ معلوم أو شهرٍ معلوم، أو تاريخ معلوم، وليس هاهنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو قرينة حال فتدبره ففـيه معتـبرٌ لمـن اذَّكَّر وعِلْمٌ لمن رأى بعين فؤاده واسْتَبْصَر والحمد لله.

مِنْ ودخولها على الزمان:

وليس يحتاج في قوله من أول يوم إلى إضمار كما قرره بعضُ النحاة: من تأسيس أول يوم، فرارًا من دخول مِنْ على الزمان، ولو لفظ بالتأسيس لكان معناه من وقت تأسيس أول يوم، فإضماره للتأسيس لا يفيد شيئًا، ومِنْ تدخل على الزمان، وغيره، ففي التنزيل ﴿من

= (٤/ ٧٩) والحاكم (١/ ٤٨٧).

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥) والبيهقي (١/ ١٠٥) والحاكم (١/ ١٥٥) والدارقطني (١/ ٦٢) بتحقيقي.

(٢) ردَّ ابن المنير وغيره تفسير السهيلي لقوله تعالى: ﴿من أول يوم﴾ فانظر الفتح (٧/ ٢١٤) شرح المواهب (١/ ٣٥٣).

القبائل تعترضه لينزل عندها:

فأتاه عِتْبان بن مالك، وعبَّاس بن عُبادة بن نَضلة في رجال من بني سالم بن عوف، فقالوا: يا رسول الله. أقم عندنا في العدد والعدّة والمَنَعَة؛ قال: «خلُّوا سبيلَها، فإنها مأمورة»، لناقته: فخلُّوا سبيلَها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني بَياضَة، تلقَّاه زياد بن لَبيد، وفَرْوة بن عمرو، في رجال من بني بَياضَة فقالوا: يا رسول الله: هلمّ إلينا، إلى العَدد والعُدّة والمَنَعَة؛ قال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخَلُّوا سبيلها. فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة، اعترضه سعدُ بن عُبادة، والمنذر بن عمرو، في رجال من بني ساعدة، فقالوا: يا رسول الله، هلمّ إلينا إلى العدد والعدة والمنعة؛ قال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلَّوا سبيلَها، فانطلقت، حتى إذا وازنت دارَ بني الحارث بن الخزرج، اعترضه سعدُ بن الربيع، وخارجةُ بن زيد، وعبد الله بن رَوَاحة، في رجال من بَني الحارث بن الخزرج فقالوا: يا رسول الله هلمّ إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلوا سبيلها. فانطلقت، حتى إذا مرّت بدار بني عديّ بن النجار، وهم أخواله دِنْيا ـ أُم عبد المطلب، سَلْمى بنت عمرو، إحدى نسائهم ـ اعترضه سَلِيط بن قيس، وأبو سَليط أُسَيرة بن أبي خارجة، في رجال من بني

قبل ومن بعد﴾ والقَبْل والبَعْد زمان، وفي الحديث: «ما من دابة إلا وهي مُصِيخَةٌ[1] يوم الجمعة من حين تطلع الشمس إلى أن تغربَ»[2]، وفي شعر النابغة [في وصف سيوف]:

تُـورِّثْـنَ مـن أزْمَـانِ يـوم حَـلـيـمـةٍ ... إلى اليوم قد جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ

[تَقُد السَّلُوقيَّ الـمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... ويُـوقِدْنَ بـالـصُّفَّاح نـارَ الـحُبَاحِبِ]

وبين مِنْ الداخلة على الزمان، وبين منذ فرق بديع قد بيناه في شرح آية الوصية.

تحلحل وتلحلح[3]:

فصل: وذكر لقاء كل قبيلة من الأنصار له يقولون: هَلُمَّ إلينا يا رسول الله إلى العَدَد والعُدَّة، فيقول: «خَلُّوا سبيلَها فإنها مأمورة» حتى بَرَكَت بموضع مسجده، وقال:

---

(١) مصيخة: أي مصغية.

(٢) أخرجه أبو داود وابن حبان (٥٥١/١٠٢٤ موارد) وأحمد (٤٨٦/٢) والشافعي في مسنده (٧٢).

(٣) تحلحل: التحلحل: التحرّك والذهاب، وحَلْحَلتهم: حرّكتهم، وتحلحلت عن المكان كتزحزحت، ويقال: تحلحل: إذا تحرك وذهب، وتلحلح: إذا أقام ولم يتحرك. اللسان (١٧٣/١١).

عديّ بن النجّار، فقالوا: يا رسول الله، هلمّ إلى أخوالك، إلى العدد والعدّة والمنعة؛ قال: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة»، فخلوا سبيلها، فانطلقت.

مبرك الناقة بدار بني مالك بن النجار:

حتى إذا أتت دارَ بني مالك بن النجَّار، بركت على باب مسجده ﷺ، وهو يومئذ مِرْبدٌ لغلامين يتيمَيْن من بني النجَّار، ثم من بني مالك بن النجَّار، وهما في حِجْر مُعاذ ابن عَفْراء، سَهْل وسُهيل ابني عمرو. فلما بَرَكت ـ ورسولُ الله ﷺ عليها ـ لم ينزل، وثبت فسارت غيرَ بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زِمامها لا يَثْنيها به، ثم التفتت إلى خلفها فرجعتْ إلى مَبْرَكِها أوّل مرّة، فبركت فيه، ثم تَحَلْحَلَتْ وَرَزَمَتْ ووضعتْ جِرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ، فاحتمل أبو أيوب خالدُ بن زيد رَحْلَه، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسولُ الله ﷺ، وسأل عن المِرْبَد «لمن هو»؟ فقال له مُعَاذ ابن عَفْراء:

تَحَلْحَلَتْ ورَزَمَتْ وألقت بِجِرَانِها أي: بعنقها، وفسره ابن قتيبة على تَلَحْلَحَ أي: لَزِم مكانه. ولم يبرح، وأنشد:

أنـاس إذا قـيـل انـفِـروا قـد أُتِـيـتُـمُ   أقـامـوا عـلـى أَثْـقَـالِـهِـمْ وتَـلَـحْـلَـحُـوا

قال: وأما تَحلْحَلَ بتقديم الحاء على اللام فمعناه: زال عن موضعه، وهذا الذي قاله قوي من جهة الاشتقاق، فإن التَلحْلُح يشبه أن يكون من لَحِحَتْ عينُه: إذا التصقت، وهو ابن عَمِّي لَحًّا.

وأما التَّحَلْحُلُ: فاشتِقاقُه من الحَلِّ والانحلال بَيِّن، لأنه انفِكَاكُ شَيءٍ من شيء، ولكن الرواية في سيرةِ ابن إسحٰق: تَحَلْحَلَتْ بتقديم الحاء على اللام، وهو خلاف المعنى إلا أن يكون مقلوبًا من تَلَحْلَحَتْ، فيكون معناه: لصقت بموضعها، وأقامت على المعنى الذي فسره ابن قتيبة في تَلَحْلَحَتْ.

وأما قوله: ورَزَمَت فيقال: رَزَمت الناقة رُزُومًا إذا أقامت من الكَلالَ ونُوقٌ رَزْمَى، وأما أرْزَمَتْ بالألف، فمعناه: رَغَتْ، ورجَّعت في رُغَائها، ويقال منه: أَرْزَمَ الرعدُ، وأَرْزَمَت الريحُ قاله صاحب العين، وفي غير هذه السيرة: أنها لما ألقت بِجِرَانها في دار بني النجار جعلَ رجُلٌ من بني سَلَمَة، وهو جَبَّارُ بن صَخْرٍ يَنْخُسَها رجاءَ أنْ تقومَ فَتَبْرُك في دارِ بني سَلَمة، فلم تفعل.

المربد وصاحباه:

وقوله: كان المسجد مِرْبدًا. المِرْبَدُ والجَرينُ [والجُرْنُ والمِجْرَنُ] والمِسْطَحُ وهو

هو يا رسول الله لسَهْلٍ وسُهَيْل ابني عمرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذْه مسجدًا[1].

المسجد والمسكن

قال: فأمر به رسول الله ﷺ أن يُبنى مسجدًا، ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيُّوب حتى بنى مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغِّب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لـئِنْ قـعـدنـا والـنَّـبِـيُّ يَـعْـمَـلُ　　　لَـذَاكَ مـنَّـا الـعـمـلُ الـمـضـلَّـلُ

بالفارسية: مشطاح والجوخار والبَيْدَرُ والأَنْدَر لغاتٌ بمعنى واحد للموضِع الذي يُجْعَل فيه الزرع والتمرُ للتَّيْبِيسِ، وأنشد أبو حنيفة في المِسْطَح [لتميم بن مُقْبِل]:

تـرى الأَمْـعَـزَ[2] الـمَـخْـزُوَّ فـيـه كـأنـه　　　من الحَرِّ في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ مِسْطَحُ

قال: والمَخْزوُّ من: حَزَوْتُ الشيء: إذا أظهرته. والمِسْطَحُ هو بالفارسية: مشطح، وأما المِسْطَحُ الذي، هو عود الخَباء فَعَرَبِيَّة.

وذكر أن ذلك المِرْبد كان لِسَهْلٍ وسُهَيْل ابْني عَمْرِو يتيمين في حِجْرِ مُعَاذ ابن عَفْراء ولم يعرفهما بأكثر من هذا، وقال موسى بن عُقْبة: كانا يتيمين في حِجْرِ أسعد بنُ زرَارَة وهما ابنا رافع بن عَمْرو بن أبي عمرو بن عُبَيْد بنَ ثَعْلَبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار شهد سُهَيْلٌ منهما بدرًا، والمشاهِدَ كلَّها، ومات في خلافة عَمْر يشهد سَهْلٌ بدرًا، وشهد غيرَها ومات قبل أخيه سُهَيْل.

حول بنيان المسجد

فصل: وذكر بُنْيَانَ المسجد إلى آخر القصة، وفي الصحيح أنه قال: يا بني النجار ثَامِنُوني بحائطكم[3] [هذا] حين أرادَ أن يتخذَه مَسْجِدًا، [فقالوا: لا، والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، وفي رواية أخرى في الصحيح أيضًا: «ثم دعا رسول الله - ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجدًا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجدًا]، وقد ترجم البخاري على هذه المسألة لفِقْهٍ، وهو أن البائع أولى بتسمية الثمن الذي يطلبه، قال أنس:

---

(١) انظر مسلم (٣/ ١٦٢٣) البخاري (٧/ ١٩٦) الطبقات (١/ ٢٣٧).

(٢) الأمعز: الأرض الغليظة كثيرة الصخر والحصى.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١١٧) (٣/ ٢٦) ومسلم في المساجد (٩) وأحمد في مسنده (٣/ ١٢٣) والطبري في تاريخه (٢/ ٨).

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

لا عَـيْـشَ إلا عَـيْـشُ الآخـرهْ اللهمّ ارحم الأنصار والمُهَاجِرهْ

قال ابن هشام: هذا كلام وليس برجز.

قال ابن إسحٰق: فيقول رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار»[١].

عمار والفئة الباغية

قال: فدخل عمّار بن ياسر، وقد أثقلوه باللَّبِن، فقال: يا رسول الله، قتلوني،

وكان في موضع المسجد نَخْلٌ وخِرَبٌ ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنُبِشَتْ[٢] وبالخِرَبِ فَسُوِّيَتْ، وبالنَّخْلِ فَقُطِعَتْ.

ويُروى في هذا الحديث نَخْل وحَرْث مكان قوله: وخِرَبٌ، وروي عن الشّفاءِ بنت عبد الرحمٰن الأنصارية قالت: كان النبي - ﷺ - حين بنى المسجدَ يُؤمُّه جبريلُ إلى الكعبة ويقيم له القبلة.

وذكر فيه قول الرجل لعَمَّار: قد سمعتُ ما تقول يا ابن سُمَيَّة. قال ابن هشام: وقد سمى ابن إسحٰق الرجل، وكره ابن هشام أن يسميه كي لا يُذْكَر أحدٌ من أصحاب رسول الله - ﷺ - بمكروه، فلا ينبغي إذًا البحثُ على اسمه.

سمية أُم عمار[٣]

وسُمَيَّة: أُم عمار وقد تقدم التعريف بها في الهجرة الأولى ونبهنا على غلط ابن قتيبة[٤] فيها فإنه جعلها وسُمَيَّة أُمَّ زياد واحدةً وسُمَيَّة أُم زياد كانت للحارِث بن كَلَدَةَ المتَطَبِّب، والأولى: مَوْلاةٌ لبني مَخْزُوم وهي سُمَيَّة بنت خباط، كما تقدم، وكان أهدى سُمَيَّة

---

(١) انظر البخاري (٥/ ٤٢) البداية والنهاية (٣/ ٢١٦) الفتح (٧/ ١١٨).

(٢) أمره ﷺ بنبشِ القبور لبناء المسجد، دعوة إلى أصحاب المقابر والمشاهد من أصحاب الطرق الصوفية وغيرهم إلى الاقتداء برسول الله ﷺ، وقد نهى ﷺ عن الصلاة في المساجد المُقامة على القبور، بل ونهى عن فهل هذا، وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «لعن - قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم - وفي رواية - وصالِحِيهم مساجد». فهي مَن يجيب؟!.

(٣) له ترجمة في الطبقات (٨/ ٢٦٤) الإصابة (٤/ ٣٣٤) الاستيعاب (٤/ ١٨٩٣).

(٤) انظر المعارف لابن قتيبة (٧٦).

يَحْمِلون عليّ ما لا يحملون. قالت أمّ سَلَمَة زوجُ النبيّ ﷺ: فرأيت رسول الله ﷺ ينفُضُ وَفْرته بيده، كان رجلاً جَعْدًا، وهو يقول: «ويحَ ابن سُميَّة، ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئةُ الباغية»[1].

ارتجاز عليّ:

وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومئذ:

لا يستوي من يَعْمُرُ المَساجدا ... يدأب فيه قائمًا وقاعدا

ومَنْ يُرَى عن الغبار حائدًا

قال ابن هشام: سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر، عن هذا الرجز، فقالوا: بلغنا أن عليّ بن أبي طالب ارتجز به، فلا يُدْرى: أهو قائله أم غيرُه.

مشادة عمار:

قال ابن إسحٰق: فأخذها عمَّار بن ياسر، فجعل يرتجز بها.

قال ابن هشام: فلما أكثر، ظنّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه إنما يُعرّض به، فيما حدّثنا زياد بن عبد الله البَكّائِيُ، عن ابن إسحٰق، وقد سمّى ابنُ إسحٰق الرجل.

الرسول ﷺ يوصي بعمار:

قال ابن إسحٰق: فقال: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سُميَّة، والله إني

إلى الحرث رَجُلٌ من مُلوك اليَمن: يقال له أبو جَبْر، وذلك أنه عالجه من داءٍ كان به فَبَرِىء، فوهبها له، وكانت قبل أبي جبر لملِكٍ من مُلوك الفرس وفَد عليه أبو جَبْر، فأهداها إليه الملكُ ذكره ابن قُتَيْبَةَ، وفي جامع مَعْمَر بن راشد أن عمارًا كان يَنْقُل في بُنْيَان المسجِد لَبِنَتَيْن، لَبِنةً عنه، ولَبِنةً عن رسول الله ـ ﷺ ـ والناس ينقلون لَبِنةً واحدة، فقال له النبي ـ ﷺ ـ للناس أجرٌ ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شَرْبَةُ لبن، وتقتلك الفِئةُ الباغية فلما قُتِل يوم صِفِّين دخل عَمْرٌو على معاوية فَزِعا، فقال: قتِل عَمَّارٌ، فقال معاوية: فماذا؟ فقال عَمْرو: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، فقال معاوية: دَحَضْتَ[2] في بَوْلِك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من أخرجه[3]؟!

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٢٢) (٤/ ٢٥) وأحمد (٣/ ٩١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٤٦).

(٢) أي زلقت.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٧) والحاكم (٣/ ٣٨٧) وصححه على شرطهما.

لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك. قال: وفي يده عصا. قال: فغضب رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «ما لهم ولعمَّار، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، إن عمارًا جِلْدة ما بين عينيّ وأنفي، فإذا بل ذلك من الرجل فلم يُسْتبق فاجتنبوه»(١).

إضافة بناء أول مسجد إلى عمار

قال ابن هشام: وذكر سُفيان بن عُيينة عن زكريا، عن الشَّعبيّ، قال: إن أوَّل من بنى مَسجدًا عمَّارُ بن ياسر(٢).

إضافة بناء المسجد إلى عمار

وذكر ابن إسحٰق في هذا الموضع الحديث الوارد في عَمَّار، وهو: أولُ من بنى لله مسجدًا عمارُ بن ياسر، فيقال: كيف أضاف إلى عمار بنيان المسجد، وقد بناه معه الناس؟ فيقول: إنما عنى بهذا الحديث مسجد قُبَاء، لأن عمارًا هو الذي أشار على النبي - ﷺ - ببنيانه، وهو جمع الحجارة له، فلما أسّسه رسولُ الله - ﷺ استتمَّ بنيانَه عمارٌ.

أطوار بناء المسجد:

كذلك ذكر ابن إسحٰق في رواية يونس بن بكير عنه: وبُني مسجد رسول الله - ﷺ - وسقِف بالجريد وجعلت قبلتُه من اللَّبِن، ويقال: بل من حِجَارةٍ مَنْضُودةٍ بعضُها على بعض، وجُعِلَت عُمُدُه من جُذُوع النَّخل، فنَخِرَتْ في خلافة عُمَر فجرَّدها، فلما كان عثمان بناه بالحجارة المنقوشة بالقَصَّة وسَقَفَه بالسَّاج(٣)، وجعل قبلتَه من الحجارة، فلما كانت أيام بني العباس بناه محمدُ بن أبي جعفر المتسمى بالمَهْدي، ووسعه وزاد فيه، وذلك في سنةِ ستين ومائةٍ، ثم زاد فيه المأمونُ بن الرَّشيد في سنة ثنتين ومائتين، وأتقن بنيانه، ونقش فيه: هذا ما أمر به عبدُ الله المأمون في كلام كثير كَرِهْتُ الإطالة بذكره. ثم لم يبلغنا أن أحدًا غيَّر منه شيئًا، ولا أحدث فيه عملاً.

بيوت النبي ﷺ:

وأما بيوته عليه السلام فكانت تسعةً، بعضُها من جريدٍ مُطَيَّن بالطِّين وسقفها جريد،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢/ ١١٩) وتقدم نحوه عند البخاري (١/ ١٢٢).
(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٨٥) عن الحكم بن عتيبة والقاسم بن عبد الرحمٰن.
(٣) الساج: ضرب من الشجر ضخم.

الرسول ﷺ في بيت أبي أيوب

قال ابن إسحـٰق: فأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب، حتى بُني له مسجدُه

وبعضها من حِجارة مَرْضُومَة، بعضُها فوق بعض، مسقفة بالجريد أيضًا. وقال الحسن بن أبي الحسن: كنت أدخل بيوت النبي عليه السلام، وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدي، وكانت حُجَرُه ـ عليه السلام ـ أكْسِيَةً من شعر مربوطة في خشب عَرْعَر وفي تاريخ البخاري أن بابه ـ عليه السلام ـ كان يُقْرَع بالأظافر، أي لا حَلَقَ له، ولما تُوفِّي أزواجُه عليه السلام خُلطت البيوتُ والحُجَر بالمسجد، وذلك في زمن عَبْد الملك، فلما ورد كتابُه بذلك ضَجَّ أهلُ المدينة بالبكاء، كيوم وفاته عليه السلام، وكان سريرُه خَشَباتٍ مشدودةً بالليف، بيعت زمن بني أُميَّة، فاشتراها رجل بأربعة آلاف درهم قاله ابن قتيبة. وهذا يدل على أن بيوته عليه السلام إذا أُضيفت إليه، فهي إضافة مِلْكٍ، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَدْخُلوا بُيُوتَ النَّبي﴾ [الأحزاب: ٥٣] وإذا أضيفت إلى أزواجه كقوله: ﴿وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فليست بإضافةِ مِلْكٍ، وذلك أن ما كان مُلْكًا له عليه السلام، فليس بمَوْرُوثٍ عنه.

حب حباب:

فصل: وذكر حديث أم أيوب، وقولها: انكسر حُبٌّ لنا. الحُبُّ جَرَّةٌ كبيرة، جَمْعُه [أحب وحِبَاب] حِببَه مثل جُحْرٍ وجِحَرة [وأجحار وجِحَر] وكأنه أخذ لفظه من حَبَابِ الماء أو من حَبَبِة، وحَبَابُه بالألف: ترافعه. قال الشاعر:

كأن صَلاَ جَهِيزَةَ حين تمشي ... حَبَابُ الماء يَتَّبِعُ الحَبَابَا

والحَبَبُ بغير أَلِفٍ نُفَّاخَاتٌ بِيضٌ صِغار تكون على وَجْه الشراب قاله ابن ثابت.

الثـــوم:

وذكر قوله عليه السلام لأُم أيوب ـ حين رَدَّ عليها الثَّرِيدَ من أجل الثُّوم: «أنا رجل أُناجي»، وروى غيرَه حديث أُم أيوب، وقال فيه: «إن الملائكةَ تتأذَّى بما يتأذى به الإنس»[1]. وروي أن خَصِيفَ بن الحارث قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله: الحديث الذي ترويه عنك أُمُّ أيوب أن الملائكة تتأذى بما يتأذى به الإنس أصحيح هو؟ قال: «نعم».

مصير منزل أبي أيوب

ومنزل أبي أيوب الذي نزل فيه النبيّ ـ ﷺ ـ تصيَّر بعده إلى أَفْلَح مولى أبي أيوب،

---

(١) انظر مسلم في المساجد (٧٢) وابن ماجه (٣٣٦٥) وأحمد (٣/ ٣٧٤).

ومساكنه، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب، رحمة الله عليه ورضوانه.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني يزيد بن أبي حَبيب، عن مَرْثَد بن عبد الله اليَزَني، عن أبي رُهْم السّماعي، قال: حدّثني أبو أيوب، قال: لما نزل عليَّ رسولُ الله ﷺ في بيتي، نزل في السُّفْلِ، وأنا وأُمّ أيوب في العُلو، فقلت له: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك، وتكون تحتي، فاظهَرْ أنت فكن في العُلْو، وننزل نحن فنكون في السُّفْلِ، فقال: «يا أبا أيوب، إنّ أرفق بنا وبمن يَغشانا، أن نكون في سُفْل البيت».

قال: فكان رسول الله ﷺ في سُفْلِه، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حُبّ لنا فيه ماء فقُمت أنا وأُمّ أيوبَ بقَطِيفَةٍ لنا، ما لنا لحافٍ غيرها، نَنْشَف بها الماءَ، تخوفا أن يَقْطُرَ على رسولِ الله ﷺ ـ منه شيء فيؤذيه.

قال: وكنا نصنع له العَشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضلَه تيمَّمْت أنا وأُمُّ أيوب موضعَ يده، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعَشائه وقد جعلنا له بصلاً أو ثُومًا، فردّه رسولُ الله ﷺ، ولم أرَ ليده فيه أثرًا قال: فجئتُه فَزِعًا، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأُمي رددتَ عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنتُ إذا رددته علينا، تَيَمَّمْتُ أنا وأُمّ أيوب موضع يدك، نَبتغي بذلك البركة؛ قال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أُناجي، فأمَّا أنتم فكلوه». قال: فأكلناه، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد[١].

تلاحق المهاجرين

قال ابن إسحٰق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس، ولم يُوعِبْ أهلُ هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله ﷺ إلا أهلُ دور مُسمَّون: بنو مظعون من جُمح؛ وبنو جَحْش بن

فاشتراه منه بعد ما خَرِبَ، وتَثَلَّمت حيطانُه المُغيرةُ بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام بألف دينارٍ بعد حيلة احتالها عليه المغيرةُ ذكرها الزبير، ثم أصلح المغيرةُ ما وَهَى منه، وتصدق به على أهل بيتٍ من فقراء المدينة، فكان بعدَ ذلك ابنُ أَفْلَحَ يقول للمغيرة: خَدَعْتني، فيقول له المغيرة: لا أَفْلَحَ مَنْ نَدِم. هذا معنى ما ذكره الزُّبَيْرُ بن أبي بكر.

---

(١) أخرجه الطبراني (٤/ ١٤١).

رِئاب، حلفاء بني أُميَّة؛ وبنو البُكَير، من بني سعد بن ليث، حلفاء بني عديّ بن كعب، فإن دُورَهم غُلِّقت بمكة هجرةً، ليس فيها ساكن.

قصة أبي سفيان مع بني جحش

ولما خرج بنو جحش بن رِئاب من دارهم، عدا عليها أبو سفيانَ بن حرب فباعها من عمرو بن عَلْقمة، أخي بني عامر بن لؤيّ؛ فلما بلغ بني جَحش. ما صنع أبو سفيان بدارهم، ذكر ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيَك الله بها دارًا خيرًا منها في الجنة»؟ قال: بلى؛ قال: «فذلك لك». فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمه أبو أحمد في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ؛ فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا في شيء من أموالكم أُصيب منكم في الله عزّ وجلّ، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ، وقال لأبي سفيان:

أبلغ أبا سفيان عن ... أمرٍ عواقبُه ندامَهْ
دارَ ابن عمك بِعتَها ... تَقضي بها عنك الغَرامهْ
وحليفُكم بالله ربّ ... الناس مجتهد القَسامهْ
اذهب بها، اذهب بها ... طُوّقتها طوقَ الحمامه

من قصة أبي سفيان مع بني جحش

وذكر قول أبي أحمد بن جحش لأبي سُفْيَان:

دارَ ابنِ عَمِّك بَعْتَها ... تقضي بها عنك الغرامه
اذهبْ بها اذهب بها ... طُوِّقْتَها طَوْقَ الحمامهْ

أو أحمد هذا اسمه عَبْد، وقيل: ثُمَامة، والأول أصح، وكانت عنده الفارعةُ بنت أبي سفيان، وبهذا السبب تَطَرّق أبو سفيان إلى بيع دارِ بني جَحْش إذ كانت بنتُه فيهم. مات أبو أحمد بعد أختِه زينب أم المؤمنين في خلافة عمر.

وقوله لأبي سفيان طُوِّقتها طَوْق الحمامة مُنتزَعٌ من قول النبيّ - ﷺ - «مَنْ غَصَبَ شِبْرًا من أرضٍ طُوِّقَه يومَ القِيامة من سَبْع أرضين»[1] وقال طَوْق الحمامة، لأن طوقها لا يفارقها،

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٣/ ١٣٧) ومسلم (١٥٣٨).

انتشار الإسلام ومن بقي على شركه:

قال ابن إسحٰق: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قَدِمها شهرَ ربيع الأوّل، إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بُني له فيها مسجدُه ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحيّ من الأنصار، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما كان من خَطْمة، وواقف، ووائل، وأُميَّة، وتلك أوس الله، وهم حيّ من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم.

الخطبة الأولى

وكانت أوّل خُطْبة خطبها رسول الله ﷺ، فيما بلغني عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن ـ نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ـ أنه قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فقدّموا لأنفسكم تَعَلَّمُنَّ والله لَيُصْعَقَنَّ أحدكم، ثم لَيَدَعنّ غَنَمَه ليس لها راعٍ، ثم ليقولنّ له ربه، وليس له تَرجمان ولا حاجبٌ يحجبُه دونه: ألم يأتك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالاً وأفضل عليك؟ فما قدّمتَ لنفسك؟ فلَينظُرنّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لَينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن

ولا تلقيه عن نفسها أبدًا، كما يفعل مَنْ لِبسَ طَوْقًا من الآدميين، ففي هذا البيت من السَّمَانة وحَلاَوة الإشارة ومَلاَحة الاستعارة ما لا مزيدَ عليه، وفي قوله: طَوْق الحمامة رَدٌّ على من تأوَّل قولَه عليه السلام: طُوِّقه من سبع أرضين أنه من الطّاقة، لا من الطَّوْق في العنق، وقاله الخطابي في أحد قوليه، مع أن البخاري قد رواه، فقال في بعض روايته له: خُسِفَ به إلى سَبْع أرضين، وفي مسند ابن أبي شيبة: «من غَصَبَ شبرًا من أرض جاء به إسْطَامًا في عُنُقه»[1]، والإسْطَامُ كالحَلَق من الحديد، وسِطَامُ السيف حَدُّه.

الخطـبـة[2]

فصل: وذكر خُطبة رسول الله ـ ﷺ ـ وفيها يقول الله عزّ وجلّ لعبده: ألم أوتِك مالاً وأُفْضِل عليك، فماذا قدَّمت. وفي غير هذا الكتاب زيادة، وهي: ألم أوتِك مالاً، وجَعَلْتُك تَرْبَعُ وتَدْسَعُ؟ وفسره ابن الأنبارِي، فقال: هو مثل، وأصله: أن الرئيس من العرب كان يَرْبَعُ قومَه أي: يأخذ المِرْباعَ إذا غزا ويَدْسَع: أي يُعْطي ويَدفع من المالِ لمن شاء، ومنه قولهم: فلان ضَخْمُ الدَّسِيعَة.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٥١).
(٢) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٣٩٤) البداية والنهاية (٣/ ٢١٣) المنتظم (٣/ ٦٥) الدلائل (٢/ ٥٢٤).

استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بِشِقّ من تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طَيبة، فإن بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

الخطبة الثانية

قال ابن إسحاق: ثم خطب رسولُ الله ﷺ الناس مرّة أخرى، فقال: «إنّ الحمدَ لله، أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له. إنّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زَيَّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسنُ الحديث وأبلغه، أحبُّوا، ما أحبّ الله، أحبُّوا الله من كلّ قلوبكم، ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذكرَه، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم فإنه من كُلّ ما يخلق الله يختار ويصطفي، قد سماه الله خِيرته من الأعمال، ومُصطفاه من العباد، الصالح الحديث، ومن كلّ ما أوتي الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، واتقوه حقّ تقاته، واصدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابُّوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن يُنكَث عهدُه، والسلام عليكم».

الحب

وذكر خُطبة رسول الله ـ ﷺ ـ الثانية، وفيها: «أحِبُّوا الله من كل قلوبكم»، يريد أن يَسْتَغرِقَ حُبُّ الله جميعَ أجزاءِ القلب، فيكون ذكرُه وعملُه خارجًا من قلبِه خالصًا لله، وإضافةُ الحبِّ إلى الله تعالى من عبده مَجازٌ حسنٌ لأن حقيقة المحبة: إرادةٌ يقارنُها اسْتِدعاءٌ للمحبوب إمَّا بالطبع، وإمَّا بالشرع، وقد كشفنا معناها بغاية البيان في شرح قوله عليه السلام: «إن الله [تعالى] جَميلٌ يحب الجمال»[1] ونبهنا هنالك على تقصير أبي المعالي رحمه الله في شرح المحبة في كتاب الإرادة من كتاب الشامل فَلْتُنْظَرْ هنالك.

من شرح الخطبة:

وقوله عليه السلام: «لا تَمَلُّوا كلامَ الله وذكرَه، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفي». الهاء في قوله: فإنه لا يجوز أن تكون عائدةً على كلام الله سبحانه، ولكنها

---

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) وأحمد (٤/ ١٣٣) والحاكم (١/ ٢٦). والله تعالى يُحب ويُحَب فهو الودود سبحانه وتعالى وعزّ وجل. وانظر مزيد بيان «روضة المحبّين» و«مدارج السالكين» للعلاّمة ابن القيم رحمه الله تعالى.

ضمير الأمر والحديث، فكأنه قال: إن الحديثَ من كل ما يخلق الله يختار، فالأعمال إذًا كلُّها من خَلْق الله قد اختار منها ما شاء قال سبحانه: ﴿وربك يَخْلُقُ ما يشاء ويَخْتار﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله: «قد سماه خيرته من الأعمال»، يعني: الذكر، وتلاوة القرآن؛ لقوله سبحانه: «ويختار»، فقد اختاره من الأعمال.

وقوله: «والمصطَفى من عباده»، أي: وسمى المصطَفى من عباده بقوله: ﴿الله يَصْطَفِي من الملائكةِ رُسُلاً ومن الناس﴾ [الحج: ٧٥] ويجوز أن يكون معناه المصطفى من عباده أي: العمل الذي اصطفاه منهم واختاره من أعمالهم، فلا تكون من على هذا للتبعيض، إنما تكون لابتداء الغاية، لأنه عملٌ استخرجه منهم بتوفيقه إياهم. والتأويلُ الأولُ أقرب مأخذًا والله أعلم بما أراد رسوله.

وقوله في أول الخطبة: «إن الحمدُ لله أحمدُه» هكذا برفع الدال من قوله: الحمدُ لله وجدته مقيدًا مصححًا عليه، وإعرابه ليس على الحكاية[1]، ولكن على إضمار الأمر كأنه قال: إن الأمر الذي أذكره، وحذف الهاء العائدة على الأمر كي لا يقدِّم شيئًا في اللفظ من الأسماء على قوله: «الحمدُ لله»، وليس تقديم إن في اللفظ من باب تقديم الأسماء، لأنها حرف مؤكِّد لما بعده مع ما في اللفظ من التحري للفظ القرآن والتيمن به، والله أعلم.

وكانت خطبتُه في تلك الأيام على جِذْع، فلما صُنِع له المِنْبَر من طَرْفَاءِ الغابة، وصنعه له عبد لامرأة من الأنصار اسمه باقوم خار الجذع خُوارَ الناقة الخَلُوج، حتى نزل عليه السلام، فالتزمه، وقال: «لو لم ألتزمه ما زال يَخُور إلى يوم القيامة»[2]، ثم دفنه، وإنما دفنه، لأنه قد صار حكمه حكم المؤمن لحبه وحنينه إلى النبي ﷺ، وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] الآية، وإلى قوله عليه السلام في النخلة: «مثلُها كمثل المؤمن»، وحديثُ خُوارِ الجِذْع وحنينُه منقول نقل الواتر لكثرة من شاهد خُواره من الخلق وكلهم نقل ذلك، أو سمعه من غيره فلم ينكره.

---

(١) أي على النقل من الكلام السابق، كما تقول: إن الله وصف المؤمنين فقال إنهم هم: الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، ثم تقول فكل من «الآمرون والناهون»، ولا تقل: فكل من «الآمرين والناهين» بالجر رغم تقدم حرف الجر «من» على اللفظتين، ولكن تقول فكل من «الآمرون والناهون» نقلاً عن قولك الأول، ويكون إعرابها: الآمرون: اسم مجرور بمن وعلامة جرّه الكسرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحكاية.

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٥٣) وابن ماجه (١٤١٥) وأحمد (١/ ٢٤٩/ ٢٦٧/ ٣٦٣) والدارمي (١/ ١٩) والطبراني (١٢/ ١٨٧) وأبو نعيم في الدلائل (١٤٢).

كتاب الموادعة لليهود

قال ابن إسحٰق: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادعَ فيه يهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبيّ ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويَثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة

كتاب رسول الله ﷺ فيما بينه وبين اليهود(١)

شرط لهم فيه، وشرط عليهم، وأمَّنهم فيه على أنفسِهم وأهليهم وأموالهم، وكانت أرضُ يَثْرِبَ لهم قبل نزول الأنصار بها، فلما كان سَيْلُ العَرِمِ، وتَفَرَّقَتْ سَبَا نزلت الأوسُ والخَزْرَجُ بأمر طَرِيفَة الكَاهِنة، وأمرِ عِمْرَان بن عامر، فإنه كان كاهنًا أيضًا وبمَا سَجَعَتْ به لكل قَبيلة من سَبَا، فسَجَعَت لبني حارثة بن ثَعْلَبَة. وهم الأوس والخزرجُ أن يَنْزِلوا يَثْرِبَ ذاتَ النخلِ فنزلوها على يَهُودَ وحالفوهم وأقاموا معهم، فكانت الدارُ واحدةً.

متى دخل اليهود يثرب؟

والسبب في كون اليهود بالمدينة، وهي وسط أرض العرب مع أن اليهودَ أصلُهم من أرض كَنْعَانَ أن بني إسرائيلَ كانت تغير علَيهم العَمَالِيقُ من أرض الحجاز، وكانت منازلهم يَثْرِبَ والجُحْفَة إلى مكة، فشكت بنو إسْرائيلَ ذلك إلى موسى، فوجه إليهم جيشًا، وأمرهم أن يقتلوهم، ولا يُبْقوا منهم أحدًا، ففعلوا وتركوا منهم ابنَ ملك لهم كان غلامًا حسنًا، فرقُّوا له، ويقال للملك: الأرقم بن أبي الأرقم فيما ذكر الزبير ثم رجعوا إلى الشام وموسى قد مات، فقالت بنو إسرائيل لهم: قد عصيتم وخالفتم، فلا نُؤويكم، فقالوا: نرجع إلى البلاد التي غُلِبْنا عليها فنكون بها، فرجعوا إلى يثرب، فاستوطنوها وتناسلوا بها إلى أن نزلت عليهم الأوسُ والخزرجُ بعد سيل العَرِم. هذا معنى ما ذكره أبو الفرج الأصْبَهَانِيّ في كتابه الكبير المعروف: بكتاب الأغاني، وإن كان الزُّبَيْر قد ذكره أيضًا في أخبار المدينة، ولا أحسب هذا صحيحًا لبعد عُمْرِ موسى عليه السلام، والذي قال غيره إن طائفة من بني إسرائيل لحقت بأرض الحجاز حين دَوَّخ بَخْتُ نَصَّر البَابلي في بلادهم، وجاس خِلال ديارهم، فحينئذ لحق من لحق منهم بالحجاز كقُرَيْظَة والنَّضِير، وسكنوا خَيْبَر والمدينة، وهذا معنى ما ذكر الطبري والله أعلم.

---

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ٢٢٢). والحديث أخرجه البخاري (٧/ ١٩٥) ومسلم (١٥٣٨).

من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبْعتهم يتعاقلون، بينهم، وهم يَفدون عانِيَهم بالمعروف والقِسط بين المؤمنين؛ وبنو عَوْف على رِبْعتهم يتعاقلون مَعاقلهم الأولى، كلّ طائفة تَفْدي عانِيهَا بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على رِبْعَتهم يتعاقلون

اسم يثرب:

وأما يَثْرِبُ فاسم رجل نزل بها أول من العماليق فعُرفت باسمه، وهو يَثْرِبُ بن قَاين بن عَبِيل بن مِهْلايل بن عوص بن عِمْلاق بن لاَوذ بن إِرَم، وفي بعض هذه الأسماء اختلافٌ وبنو عِبِيلِ هم الذين سكنوا الجُحْفَةَ فأجْحَفَت بهم السيولُ وبذلك سُمِّيت الجُحْفَة، فلما احتلها رسول الله ـ ﷺ ـ كره لها هذا الاسم أعني: يَثْرِب لما فيه من لفظ التَّثْرِيب، وسماها طيبَة والمدينة.

فإن قلت: وكيف كره اسمًا ذكرها اللهُ في القرآن به، وهو المُقْتَدِي بكتاب الله، وأهلٌ أن لا يعْدِل عن تسمية الله؟ قلنا: إن الله ـ سبحانه ـ إنما ذكرها بهذا الاسم حاكيًا عن المنافقين؛ إذ قالت طائفة منهم: ﴿يا أهْلَ يثْرِبَ لا مُقَامَ لكم﴾ [الأحزاب: ١٣] فنبهه بما حكي عنهم أنهم قد رغبوا عن اسم سماها الله به ورسوله، وأبوا إلا ما كانوا عليه في جاهلَيتهم، والله سبحانه قد سماها: المدينة، فقال غير حاكٍ عن أحد: ﴿ما كان لأهل المدينة ومَنْ حَوْلَهُمْ من الأعراب أن يَتَخَلَّفوا عن رسول الله﴾ [التوبة: ١٢٠]، وفي الخبر عن كَعْب الأحبار قال: إنا نجد في التَّوْرَاة يقول الله للمدينة يَا طابَةُ يا طيبَةُ يا مِسْكِينة لا تقبلي الكُنوزَ أَرْفَع أَجَاجِيرَك على أَجَاجِيرَ[1] القُرى، وقد رُوي هذا الحديث عن علي بن أبي طالب يرفعه، وروي أيضًا أن لها في التوراة أَحَدَ عَشَر اسمًا: المدينة وطَابَة وطِيبة والمِسْكِينة والجابرة والمُحِبَّة والمَحْبُوبة والقَاصِمة والمَجْبُورَة والعَذْراء والمَرْحُومة، وروي في معنى قوله: ﴿وقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ [وأَخْرِجْنِي مُخْرِج صِدْقٍ]﴾ [الإسراء: ٨٠] أنها المدينة، وأن ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ مَكّة و ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ الأنصار.

تفسير على ربعاتهم:

وفي الكتاب: بنو فلان على رِبعَاتِهم. هكذا رواه أبو عُبيد عن ابن بَكير عن عُقَيْلِ بن خالد [من عقيل الأَبْلي] عن الزهري ورواه عن عبد الله بن صالح بهذا الإسناد، فقال: رِبَاعَتِهِم. الألِف بعد الباء، ثم قال أبو عبيد: يقال: فلان على رِبَاعَه قومه إذا كان نقيبَهم ووافدَهم.

---

(١) أجاجير: جمع إجار، وهو السطع الذي ليس له سور.

معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم نفدي عانِيهَا بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُون مَعَاقِلَهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانِيهَا بالمعروف والقِسْطِ بين المؤمنين، وبنو جُشَم على رِبْعَتِهِمْ يتعاقلون معاقلَهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانِيهَا بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجّار على رِبْعَتهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عَوْف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة تفدي عانِيهَا بالمعروف والقِسط بين المؤمنين، وبنو النَّبِيت على رِبعَتِهم يتعاقلون معاقلَهم الأولى، وكلُّ طائفة تفدي عانِيهَا بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلّ طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فِداء أو عَقْل».

قال ابن هشام: المُفْرَح: المُثْقل بالدين والكثير العيال. قال الشاعر:

إذا أنت لم تَبْرَحْ تُؤَدِّي أمانةً ... وتحملُ أخرى أَفْرَحَتْك الودائعُ

وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمن دونه؛ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعة ظُلْم، أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو

قال المؤلف: وكسر الراء فيه القياس على هذا المعنى، لأنها ولاية، وإن جعل الرِّبَاعة مصدرًا فالقياس فتح الراء، أي على شَأْنهم وعادتهم من أحكام الدِّيَات والدماء يتعاقَلُون مَعاقِلَهم الأولى: جمع: مَعْقَلَة ومَعْقَلَةٌ من العَقْلِ وهو الدِّيَة.

من كلمات الكتاب:

وقال في الكتاب: وألاّ يُتْرَكَ مُفْرَحٌ، وفسره ابنُ هِشَام كما فسره أبو عُبَيْد أنه الذي أثقله الدَّيْن، وأنشد البيت الذي أنشده أبو عُبَيْد:

إذا أَنْتَ لم تَبْرَحْ تُؤَدِّي أَمَانَةً ... وتَحْمِلُ أُخْرَى أَفْرَحَتْكَ الوَدَائِعُ

أي: أثقلتك يجوز أن يكون من أفعال السَّلْب، أي سَلَبَتْك الفَرَح، كما قيل: أَقْسَطَ الرجلُ إذا عَدَل، أي: أزال القِسْطَ، وهو الإعْوِجَاجُ، ويجوز أن تكون الفاءُ مُبَدَلَةً من باء، فيكون من البَرْح وهو الشدة، تقول: لقيت من فلان بَرْحًا أي: شِدَّة، وذكر أبو عُبَيْد رواية أخرى مُفْرَج بالجيم، وذكر في معناه أقوالاً، منها أنه الذي لا ديوان له، ومنها: أنه القتيل بين القريتين لا يُدْرَى من قتله، ومنها أنه في معنى المُفْرَح بالحاء أي: الذي لا شيء له، وقد أثقله الدين، أو نحو هذا فيُقْضَى عنه من بيت المال.

كان وَلَد أحدهم؛ ولا يَقْتلُ مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يُجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تَبِعنَا من يَهُودَ فإن له النصرَ والأُسْوَة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم؛ وإنَّ سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال. سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كلّ غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضًا، وإن المؤمنين يُبيء بعضُهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه؛ وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بَيِّنة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضى وليّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحلّ لهم إلا قيامٌ عليه، وإنه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحْدِثًا، ولا يُؤويه؛ وأنه مَن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْفٌ ولا عَدْل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عَوف أُمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظَلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسَه، وأهلَ بيتِه، وإن لِيَهُودِ بني النَّجَّار مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بَني ساعدة مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عَوْف، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ثَعْلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظَلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهلَ بيته، وإن جَفْنة بطن من ثعلبة كأنفسهم؛ وإن لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عَوف، وإن البِرّ دون الإثم، وإن موالي ثَعْلبة كأنفسهم؛ إن بِطَانَة يهود كأنفسهم؛ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثار جُرْح، وإنه من فَتك فبنفسه فتك، وأهلِ بيته، إلا من ظَلم، وإن الله على أبرّ هذا، وإن على اليهود نفقتَهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصرَ على من حارب أهلَ هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يَثْرب حرام جَوْفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مُضارّ ولا آثم، وإنه لا يُجار حُرْمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِن حَدَث أو اشْتِجَارِ يُخاف فسادُه، فإنَّ مردَّه

وفيه: ولا يُوتِغُ إلا نفسَه، أي: لا يُوبِقُ، ويهلك إلا نفسه، يقال وَتَغَ الرجلُ، وأوتغَه غيرُه، قاله أبو عبيد. ومعنى قوله: يُبيء هو من البَوَاء، أي: المساواة، ومنه قول مُهَلْهِل حين قَتَل ابنًا للحارث بْن عُباد: بُؤْبِشِسْعِ نَعْلِ كُلَيْب.

إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد رسولِ الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دَهم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويَلْبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا مَنْ حارب في الدين، على كلّ أناس حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم، وإن يهود الأوس، مواليَهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن هشام: ويقال: مع البرّ المُحسن من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحٰق: وإن البرّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمنٌ، ومن قعد آمِن بالمدينة، إلا من ظَلم أو أثم، وإن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحٰق: وآخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال ـ فيما بلغنا، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يَقل، تآخَوا في الله أخَوَيْن أخوين، ثمَ أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هٰذا أخي فكان رسولُ الله ـ ﷺ سيِّدَ المرسلين، وإمام

وقولَه: «إن البِرَّ دُون الإثم»، أي: إن البرَّ والوفاءَ ينبغي أن يكون حاجزًا عن الإثم.

وقوله: «وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه»، أي: إن الله وحزبه المؤمنين على الرِّضى به، وقال أبو عبيد في كتاب الأموال: إنما كتب رسول الله ـ ﷺ ـ هذا الكتابَ قبل أن تُفْرض الجِزْيَةُ، وإذ كان الإسلام ضعيفًا. قال: وكان لليهود إذ ذاك نصيب في المَغْنَم إذا قاتلوا مع المسلمين، كما شرط عليهم في هذا الكتابِ النفقةَ معهم في الحروب.

المؤاخاة بين الصحابة[1]

فصل: المؤاخاة بين الصحابة: آخى رسول الله ـ ﷺ ـ بين أصحابه حين نزلوا المدينة، ليُذْهِب عنهم وَحْشَة الغُرْبَة ويُؤنسهم من مفارقة الأهل والعَشيرة، ويُشُد أَزْرَ بعضِهم ببعضٍ،

---

(١) انظر البداية (٣/ ٢٢٢) الطبقات لابن سعد (١/ ٢٣٨) الاكتفاء (١/ ٤٦٤) المنتظم (٣/ ٧٠) زاد المعاد (٣/ ٦٣).

المتقين، ورسول ربّ العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، أَخَوَيْن، وكان حمزةُ بن عبد المطلب، أسدُ الله وأسدُ رسوله ﷺ، وعمُّ رسول الله ﷺ، وزيدُ بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، أَخَوَيْن، وإليه أوصى حمزةُ يوم أُحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت، وجعفرُ بن أبي طالب ذو الجناحين، الطيّار في الجنة، ومعاذُ بن جبل، أخو بني سلمة، أَخوين.

قال ابن هشام: وكان جعفر بن أبي طالب يومئذ غائبًا بأرض الحبشة.

قال ابن إسحٰق: وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، ابن أبي قُحافة، وخارجة بن زُهير، أخو بَلْحارث بن الخزرج، أخوين، وعمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وعِتْبان بن مالك، أخو بني سالم بن عَوف بن عمرو بن عَوف بن الخزرج أخوين؛ وأبو عُبيدة بن عبد الله بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله، وسعد بن معاذ بن النعمان، أخو بني عبد الأشهل، أخوين. وعبد الرحمن بن عَوْف، وسعد بن الربيع، أخو بَلحارث بن الخزرج، أخوين. والزبيرُ بن العوّام، وسلامة بن سلامة بن وَقْش، أخو بني عبد الأشهل، أَخَوَيْن. ويقال: بل الزبير وعبدُ الله بن مسعود، حليف، بني زهرة، أَخَوَيْن، وعثمان بن عفّان، وأوس بن ثابت بن المنذر، أخو بني النجّار، أخوين.

فلما عز الإسلام واجتمع الشَّمْلُ، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه: ﴿وأولو الأرْحَام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله﴾ [الأنفال: ٧٥] أعني في الميراث[١]، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال: ﴿إنما المُؤمِنُون إخْوَةٌ﴾ يعني في التَّوادّ وشُمُول الدعوة. وذكر مؤاخاته بين أبي ذَرٍّ والمُنْذِر بن عَمْرو، وقد ذكرنا إنكار الواقدي لذلك في آخر حديث بيعة العقبة.

نسب أبي الدرداء:

فصل: وذكر مؤاخاةَ سَلْمَان وأبي الدَّرْدَاء، وأبو الدَّرْدَاء اسمُه عوَيْمِرُ بن عامر، وقيل: عُويمِرُ بن زيد بن ثعلبة، وقيل: عُوَيْمرُ بن مالك بن ثَعْلَبة بن عمرو بن قيس بن أُميَّة من بَلْحَارِثِ بن الخَزرَج، أمه: تَحِيَّةُ بنت وَقد بن عَمْرو بن الإِطَنَابة، وامرأته: أم الدَّرْدَاءِ، اسمها: خَيْرَةُ بنت أبي حذرَدِ، وأم الدرداء الصغرى، اسمها: جُمَانَة، مات أبو الدرداء بدمشق سنة اثنين وثلاثين، وقيل: سنة أربع وثلاثين.

---

(١) لعله يعني: أن الرسول ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة، والتوارث بعد الموت فلما أعزّ الله تعالى الإسلام بعد وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿وأُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ نسخت هذه الآية ما قبلها وانقطعت المؤاخاة في التوارث. وهو الصحيح.

وطلحة بن عُبيد الله، وكعب بن مالك، أخو بني سلمة، أخَوَيْن. وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأُبيّ بن كَعْب، أخو بني النجّار: أخوين؛ ومُصعب بن عُمير بن هاشم، وأبو أيُوب خالد بن زيد، أخو بني النجّار: أخوين، وأبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة وعبّاد بن بشر بن وَقْش، أخو بني عبد الأشهل: أخوين. وعمّار بن ياسر، حليف بني مَخْزوم، وحُذيفةُ بن اليمان، أخو بني عبد عَبْس، حليف بني عبد الأشهل: أخوين ويقال: ثابت بن قيس بن الشَّمَّاسِ، أخو بَلْحارث بن الخَزْرَج، خطيب رسول الله ﷺ، وعمَّار بن ياسر: أخوين. وأبو ذرّ، وهو بُرَير بن جُنَادة الغِفارِيّ والمُنْذِر بن عمرو، المُعْنِق ليموت، أخو بني ساعدة بن كعب بن الخزرج: أخوين.

قال ابن هشام: وسمعت غير واحد من العلماء يقول: أبو ذَرّ: جُنْدَب بن جُنادة.

قال ابن إسحٰق: وكان حاطب بن أبي بَلْتعة، حليف بني أسد بن عبد العزّى وعُوَيم بن ساعدة، أخو بني عمرو بن عوف، أخوين، وسَلْمان الفارسي، وأبو الدَّرْداء، عُوَيمر بن ثعلبة، أخو بَلْحارث بن الخَزْرج، أخوين.

قال ابن هشام: عُويمر بن عامر، ويقال: عُويمر بنُ زيد.

قال ابن إسحٰق: وبلال، مولى أبي بكر رضي الله عنهما، مؤذن رسول الله ﷺ، وأبو رُوَيْحة، عبد الله بن عبد الرحمن الخَثْعمي، ثم أحدُ الفزع، أخوين. فهؤلاء من سُمي لنا، ممّن كان رسل الله ﷺ آخَى بينهم من أصحابه.

بلال يوصي بديوانه لأبي رويحة:

فلما دَوّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، وكان بلالٌ قد خرج إلى الشام، فأقام بها مُجاهدًا، فقال عمرُ لبلال: إلى من تجعل ديوانَك يا بلال؟ قال: مع أبي رُوَيْحة، لا أفارقه أبدًا، للأُخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني، فضمّ إليه، وضُمّ ديوان الحَبشة إلى خَثْعَم، لمكان بلال منهم، فهو في خَثْعم إلى هذا اليوم بالشام.

أبو أمامة:

قال ابن إسحٰق: وهَلك في تلك الأشهر أبو أمامة، أسعدُ بن زرارةُ، والمسجد يبنى، أخذته الذبحةُ أو الشهقة.

....

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عَمْرو بن حزم، عن يحيىٰ بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أسعد بن زُرارَة: أن رسول الله ﷺ، قال: «بئس الميتُ أَوْ أمامة، ليَهود ومُنافقوا العرب يقولون: لو كان نبيًا لم يمت صاحبه، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئًا»[1].

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عاصم بن عمر بن قَتَادَة الأنصاريّ: أنه لما مات أبو أُمَامَة، أسعدُ بن زُرَارَةَ، اجتمعت بنو النجَّار إلى رسول الله ﷺ، وكان أبو أمامة نَقِيبَهم، فقالوا له: يا رسول الله، إن هذا قد كان منَّا حيثُ قد علمتَ، فاجعلْ منّا رجلاً مكانه يُقيم من أمْرنا ما كان يُقيم، فقال رسول الله ﷺ لهم: «أنتم أخْوالي، وأنا بما فيكم، وأنا نَقِيبكم»[2]، وكره رسولُ الله ﷺ أن يخصّ بها بعضَهم دون بعض. فكان من فضل بني النجّار الّذي يَعُدّون على قومهم، أن كان رسولُ الله ﷺ نقيبَهم.

نسب الفزع:

فصل: وذكر مؤاخاة أبي رُوَيْحَة وبلالٍ، وسماه: عَبْدَ الله بن عبد الرحمٰن، وقال: هو أحد الفَزَعِ، لم يبينه بأكثر من هذا، والفَزَعُ عند أهل النسب، هو ابن شَهْرَان بن عِفْرِس بن خُلْف بن أَفْتَل، وأَفْتَلُ هو خَثْعَمُ. وقد تقدم في أول الكتاب: لِمَ سمي خَثْعَم وهو ابن أنمار، وقد تقدم خِلاف النسابين فيما بعد أَنْمَارِ.

والفَزَع هذا بفتح الزاي، وأما الفَزْعُ بسكونها، فهو الفَزْعُ بن عبد الله بن ربيعة [بن جندل]، وكذلك الفَزْعُ في خُزَاعة، وفي كلب هما ساكنان أيضًا قاله ابن حبيب، وقال الدَّارَقُطْنِيُّ: الفَزَعُ بفتح الزاي: رَجُلٌ يَرْوي عن ابن عُمر.

وذكر آخر في الرواة أيضًا بفتح الزاي يَرْوي حديثًا في الكذب على رسول الله ﷺ، يروي أن رسول الله ﷺ عقد لأبي رُوَيْحَة الخثعمي لواءَ عام الفتح، وأمره أن ينادي: «مَنْ دخل تحت لواء أبي رُوَيْحَة، فهو آمن»[3].

مؤاخاة حاطب بن أبي بلتعة:

فصل: وذكر مؤاخاة حَاطِب بن أبي بَلْتَعَةَ وعُوَيْم بن ساعدة، وقال في حاطب: حليف

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٩) وأحمد (٤/ ١٣٨) والحاكم (٣/ ٢١٤) والطبراني (٦/ ١٠١) وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٥١٥) وابن سعد في الطبقات (٧٣/ ١٤١).

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٩) من طريق المصنف به.

(٣) انظر جامع المسانيد (٢/ ٦٠٣).

....

بني أسد، وقال غيره: كان عَبْدًا لعُبَيْد الله بن حميد بن زُهَيْر بن أسد بن عبد العُزَّى، وقيل: كان من مِذْحِج، والأشهر: أنه من لخْم بن عَدِيّ، واسم أبي بَلْتَعَةَ عَمْرو بن أَشَدّ بن مَعَاذِ. والبَلْتَعَةُ من قولهم: تَبَلْتَع الرجلُ إذا تَظَرَّف، قاله أبو عبيد في الغريب المصنف.

خبر الأذان

قال ابن إسحـٰق: فلما اطمأنّ رسولُ الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانُه من المُهاجرين، واجتمع أمرُ الأنصار، استحكم أمرُ الإسلام، فقامت الصلاة، وفُرضت الزكاةُ والصيام، وقامت الحُدود، وفُرض الحلالُ والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظْهُرِهم، وكان هذا الحيّ من الأنصار هم الذين تبوّؤوا الدار والإيمان. وقد كان رسولُ الله ﷺ حين قَدِمها إنما يجتمع الناسُ إليه للصلاة لحين مَواقيتها، بغير دَعْوة فهمّ رسول الله ﷺ حين قَدِمها أن يجعل بُوقًا كبُوق يَهُودَ الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالنَّاقوس، فنُحِت ليُضرب به للمسلمين للصلاة.

بدء الأذان[1]

ذكر حديث عبد الله بن زيد بن ثَعْلَبة بن عبد ربه، هكذا ذكره، وأكثر النساب يقولون: زيد بن عبد ربه، وثعلبةُ أخو زيد ذكر حديثه عندما شاور رسولُ الله ﷺ أصحابه في الأذان، فقال بعضهم: ناقوس كناقوس النصارى، وقال بعضهم: بُوقٌ كبوق اليهود، وفي غير السيرة أنهم ذكروا الشَّبُّورَ، وهو البوق. قال الأصْمَعِيُّ للمُفَضَّل، وقد نازعه في معنى بيت من الشعر، فرفع المفضل صوته، فقال الأصْمَعِيُّ لو نَفَخْتَ في الشَّبُّور ما نفعك، تكلم كلام النمل وأصِب!!.

---

(١) انظر خبر الأذان في الطبقات لابن سعد (١/ ٢٤٦) البداية والنهاية (٣/ ٢٣١) المنتظم (٣/ ٧٧) الاكتفاء (١/ ٤٦٥) وانظر حديث عبد الله بن زيد بن عبد ربه. في مسلم (٣٧٩) وأبو داود (٤٩٨ ـ ٤٩٩) بتحقيقي. وابن ماجه (٧٠٦) والترمذي (١٨٩). أخرجوه بعضهم مختصرًا وبعضهم مطوّلاً.

رؤيا عبد الله بن زيد:

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبدُ الله بن زيد بن ثَعْلبة بن عبد ربه، أخو بَلْحَارِث بن الخَزْرج، النداءَ، فأتى رسولَ الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجلٌ عليه ثَوْبان أخضران، يحمل ناقوسًا في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتَبيع هذا النَّاقُوسَ؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعوا به إلى الصلاة،

وذكروا أيضًا القُنْع وهو القَرْن، وقال بعضهم: هو تصحيف إنما هو القُبْعُ والقُنْعُ أولى بالصواب، لأنه من أقْنع صَوتَه إذا رفَعه، وقال بعضهم: بل نوقد نارًا، ونرفعها، فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة، وقال بعضهم: بل نبعث رجلاً ينادي بالصلاة، فبينما هم في ذلك أُرِي عبدُ الله بن زيد الرُّؤيا التي ذكر ابن إسحٰق، فلما أخبر بها رسولَ الله ـ ﷺ ـ وأمره أن يُلْقِيهَا على بلال، قال: يا رسول الله أَنا رأيتُها، وأنا كنت أحبها لنفسي، فقال: «ليؤذِّن بلال»، ولْتُقِم أنت، ففي هذا من الفِقه جواز أن يؤذِّن الرجل، ويقيم غيره وهو معارض لحديث زِيَادِ بن عبد الله الصَّدَئِيِّ حين قال له النبي ـ ﷺ: «مَنْ أذَّن فهو أحق أن يُقيم»[1]، في حديث طويلٍ إلا أنه يدور على عبدِ الرحمٰن بن زيادِ بن أَنْعم الأفْرِيقِيّ وهو ضعيف، والأول أصح منه. قال أبو داود: وتزعم الأنصار أن عبدَ الله بن زيد حين رأى النداء كان مريضًا، ولولا ذلك لأمره رسولُ الله ـ ﷺ ـ بالأذان، وقد تكلمت العلماءُ في الحكمة التي خصت الأذان بأن رآه رجل من المسلمين في نومه، ولم يكن عَنْ وَحْيٍ من الله لنبيه كسائر العبادات والأحكام الشرعية، وفي قول النبي ـ ﷺ ـ له: «إنها لرُؤْيا حَقٌّ»، ثم بنى حكم الأذان عليها، وهل كان ذلك عن وحي من الله له، أم لا؟ وليس في الحديث دليلٌ على أن قوله ذلك كان عن وَحْيٍ، وتكلموا: لِمَ لَمْ يُؤَذِّن رسولُ الله ﷺ؟ وهل أذن قط مَرَّةً من عُمْره دهره أم لا؟.

فأما الحكمة في تخصيص الأذان برؤيا رجل من المسلمين ولم يكن عن وحي فلأن رسول الله ﷺ قد أُرِيَه ليلة الإسراء، وأُسْمِعهُ مَشَاهَدَةً فوق سَبْع سَمٰوات[2]، وهذا أقوى من الوحي، فلما تأخر فرضُ الأذان إلى المدينة، وأرادوا إعلام الناس بوقتِ الصلاة تَلَبَّثَ الوحي

---

(١) «ضعيف». أخرجه أبو داود (٥١٤) والترمذي (١٩٩) وابن ماجه (٧١٧) والبيهقي (١/ ٣٨١) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٤). وفيه عبد الرحمٰن بن زياد الإفريقي: ضعيف.

(٢) خبر سماع الأذان أخرجه البزار (٣/ ١٦٣) بسند فيه كذاب، فارم به. وكثيرًا ما يبني السهيلي رحمه الله تعالى على الحديث، وقد يكون ضعيفًا أو موضوعًا كحديث الباب، وقد مرَّ التنبيه على هذا غير مرة، فانتبه. وسيأتي الحديث مسندًا. وفيه زياد بن المنذر وكذبه غير واحد.

قال: أَفَلاَ أدلك على خيرٍ من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن لا إلـه إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إلـه إلا الله.

حتى رأى عبدَ الله الرؤيا، فوافقتْ ما رأى رسولُ الله ﷺ؛ فلذلك قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، وعلم حينئذ أن مُراد الحق بما رآه في السماء، أن يكونَ سُنَّةً في الأرض، وقوّى ذلك عنده موافقةُ رؤيا عمر للأنصاري مع أن السكينة تنطِق على لسان عُمَر واقتضت الحكمة الإلـهية أن يكون الأذانُ على لسان غير النبي ﷺ من المؤمنين، لما فيه من التَّنويه من الله لعبده، والرفع لذكره، فلأنْ يكونَ ذلك على غير لسانِه أَنْوَه به وأفْخم لشأنه، وهذا معنًى بَيِّن فإن الله سبحانه يقول: ﴿ورَفَعْنَا لك ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فَمِنْ رَفْعِ ذكره أن أشاد به على لسانِ غيرِه. فإن قيل: وَمن رَوَى أنه أُرِيَ النداءَ من فوق سبع سَمٰوات، قلنا: هو في مسند أبي بكر أحمد بن عَمْرو بن عبد الخالق البزار.

حدّثنا أبو بكر محمد بن طاهر الإشبِيليّ سماعًا وإجازةً عن أبي علي الغَسَّاني عن أبي عمر النَّمَرِيِّ بإسناده إلى البزار، قال البَزَّار: نا محمد بن عثمان بن مَخْلَد، نا أبي عن زياد بن المنذِر، عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده، عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أراد الله أن يُعْلِم رسولَه الأذانَ أتاه جبريلُ ﷺ بدابَّةٍ يقال لها البُرَاق، فذهب يركبها، فاستصعبت، فقال لها جبريل: اسْكُني فوالله ما ركبك عبدٌ أكرم على الله من محمد ـ ﷺ ـ قال: فركبها حتى انتهى إلى الحجاب الذي يلي الرحمـٰن ـ تباركَ وتعالى ـ قال: فبينما هو كذلك، إذ خرج ملَكٌ من الحِجاب، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يا جبريل مَنْ هذا»؟ فقال: والذي بعثك بالحق إني لأقرب الخلق مكانًا، وإن هذا الملَكَ ما رأيته مُنْذُ خُلِقْتُ قبل ساعَتي هذه، فقال: «الملك: الله أكبر، الله أكبر»، قال: فقيل له مِن وراء الحجاب: صدق عبْدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال الملك: أشهد أن لا إلَه إلا الله، قال: فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا الله لا إلـه إلا أنا، قال: فقال الملَك: أشهد أن محمدًا رسول الله. قال: فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أرسلت محمدًا، قال الملَك: حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح، ثم قال الملك: الله أكبر الله أكبر، قال: فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي أنا أكبر أنا أكبر، ثم قال: لا إلـه إلا الله، قال: فقيل مِن وَرَاء الحجاب: صَدَق عبدي أنا لا إلـه إلا أنا، قال: ثم أخذ الملَك بيد محمد ـ ﷺ ـ فقدمه فأَمَّ أهلَ السماء، فيهم آدمُ ونوحٌ قال أبو جعفر محمد بن علي: يومئذ أكمل الله لمحمد ـ ﷺ ـ الشرف على أهل السمٰواتِ والأرض.

فلما أَخْبَرَ بها رسولَ الله ﷺ، قال: إنها لَرُؤْيَا حَق، إن شاء الله، فقم مع بلال فأَلْقِها عليه، فَلْيُؤَذِّن بها، فإنه أَنْدَى صوتًا منك. فلما أَذَّن بها بلالٌ سَمعها عمرُ بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجرّ رداءَه، وهو يقول: يا نبيّ الله، والذي بعثك بالحقّ، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسولُ الله ﷺ: «فلِلّه الحمد على ذلك».

قال المؤلف: وأَخْلِقْ بهذا الحديث أن يكون صحيحًا لما يَعْضُدُه ويُشَاكله من أحاديث الإسراء فبمجموعها يحصل أن معاني الصلاة كلها وأكثرها، قد جمعها ذلك الحديث، أعني الإسراء، لأن الله ـ سبحانه ـ رفع الصلاة الي هي مُناجاةٌ عن أن تُفْرَضَ في الأرض، لكن بالحضرة المقدَّسة المطهَّرة[1]، وعند الكعبة العليا، وهي البيت المعْمُور، وقد ذكرنَا طَرفًا من هذا الغرض، ونبذًا من هذا المقصد في شرح حديث الإسراء وينضاف إليها في هذا الحديث ذكر الأذان الذي تضمنه حديثُ البزار مع ما روي أيضًا أنه مَرَّ وهو على البراق بملائكة قِيام، وملائكةِ ركُوعٍ، وملائكةِ سُجُودٍ وملائكةِ جلُوسٍ، والكلُّ يُصلّون لله، فجُمعت له هذه الأحوال في صَلاتِه، وحين مَثَل بالمقام الأعلى، ودنا فتدلى أُلْهِم أن يقول: التحياتُ لله إلى قوله: الصلواتُ لله، فقالت الملائكة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقالت الملائكة: أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله، وأشهد أن محمدًا رسولُ الله، فجمع ذلك له في تَشهُّده[2].

وانظر بقلبِك كيف شُرع له عليه السلاَم ولأمته أن يقولوا تسع مرات في اليوم والليلة في تسع جلسات في الصلوات الخمس بعد ذكر التحيات: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين، فيحيون ويحيون تحية من عند الله مباركة طيبة، ومن قوله: السلام علينا كما قيل لهم، فسلموا على أنفسكم تحيةً من عند الله، ومن ثم قال: الطيبات المبارَكَاتُ، كما في رواية ابن عباس في التشهد انظر إلى هذا كله كيف حيا وحُيِّي تسع مرات، حَيَّته ملائكةُ كلِّ سماء، وحَيَّاهم، ثم ملائكةُ الكرسي، ثم ملائكة العرش، فهذه تسعٌ، فجُعِل التشهدُ في الصلوات على عدد تلك المرات التي سَلَّم فيها وسُلِّم عليه، وكلها تحياتٌ لله، أي: من عند الله مباركة طيبة، هذا إلى نُكت ذكرناها في شرح سُبْحَانَ الله وبحمده، فإذا جمعت بعض ما ذكرناه إلى بعضٍ عَرَفت جملة من أسرارِ الصلاةِ وفوائِدها الجلية دون الخفية، وأما بقية أسرارِها وما تضمنته أحاديثُ الإسراء من أنوارها، وما في الأذان من

---

(١) تقدم التنبيه غير مرة على هذه اللفظة ونسبتها إلى الله تعالى.

(٢) انظر التخريج قبل السابق.

رؤيا عمر في الأذان:

قال ابن إسحٰق: حدّثني بهذا الحديث محمدُ بن إبراهيم بن الحارث، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثَعْلَبَة بن عَبْدِ ربِّه، عن أبيه.

لطائِف المعاني والحِكم، في افتتاحه بالتكبير وختمه بالتكبير مع التكرار، وقول: لا إلٰه إلا الله في آخره، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله في أوله[1]، وما تحت هذا كله من الحِكم الإلٰهية التي تملأ الصُّدورَ هيْبة وتُنَوِّر القلوب بنور المحبة، وكذلك ما تضمنته الصلاةُ في شَفْعها وَوَتْرِها والتكبير في أركانها، ورفع اليدين في افتتاحها، وتخصيص البقعة المكرَّمة بالتوجُّه إليها، مع فوائد الوضُوء من الأحداث لها، فإن في ذلك كلِّه من فوائد الحكمة، ولطائف المعرفة ما يزيد في ثَلَج الصدور، ويَكْحُل عينَ البَصِيرة بالضِّياء والنور، ونعوذ بالله أن ننزع في ذلك بمنْزَعٍ فَلْسَفِي أو مقالة بِدْعي، أو رأيٍ مجرَّد من دليل شَرْعِي، ولكن بِتَلْويحَاتٍ من الشريعة، وإشارات من الكتاب والسنة يَعْضُد بعضُها بعضًا، وينادي بعضُها بتصديق بعض: ﴿ولَوْ كَانَ من عند غيرِ الله لوَجَدوا فيه اخْتِلاَفًا كثيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. لكن أضربْنا في هذا الكتابِ عن بَثِّ هذه الأسرارِ، فإن ذلك يخرج عن الغَرض المقصود، ويَشْغَل عما صَمَدْنا[2] إليه في أول الكتاب، ووعدنا به الناظرَ فيه من شرح لغاتٍ وأنساب وآداب، والله المستعان[3].

وقد عُرفت رؤيا عبد الله بن زيد وكيفيتها برواية ابن إسحٰق وغيره، ولم تُعْرَف كيفيةُ رؤيا عمر حين أُرِيَ النداءَ، وقد قال: قد رأيت مثلَ الذي رأى، لكن في مُسْنَد الحارث بيانٌ لها. روى الحارثُ [بن أبي أَسامة] في مُسْنده أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أولُ من أَذَّن بالصلاة جبريلُ أذّن بها في سماءِ الدنيا فسمعه عُمَرُ وبلالٌ فسبق عمرُ بلالاً إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره بها، فقال عليه السلام لبلال: «سبقك بها

---

(١) قال بعضهم: الحكمة في قول المؤذِّن أولاً: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله» وفي نهايته «لا إلٰه إلا الله» دون الشهادة؛ أنه قد يكون المؤذِّن كاذبًا في شهادته الأولى وقوله: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله» قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك رسول الله﴾؛ فإنه إن كان كاذبًا في شهادته الأولى وقوله: «أشهد أن لا إلٰه إلا الله» إلا أنه صادق في قوله في نهاية الأذان: «لا إلٰه إلا الله» ولهذا كانت خاتمة الأذان هذه الكلمة وليس الشهادة. فتأمل.

(٢) صمدنا: أي توجهنا إليه. انظر للمحقق «القول الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى».

(٣) انظر لابن القيم في أسرار الصلاة وفوائدها: «الوبل الصيب» (٣٤ ـ ٤٢) تارك الصلاة، شفاء العليل (٤٥٢) إغاثة اللهفان (١٠٧/١/١٠٨/١٤٦/١٥٦) حكم سماع الغناء (١١٣) وللمحقق كل ما تقدم وزيادة في كتاب «الصلاة وأسرارها».

قال ابن هشام: وذكر ابن جُريج، قال: قال لي عطاء: سمعت عُبَيْد بن عُمَيْر اللَّيثي يقول: ائتَمر النبيُ ﷺ وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة، فبينما عمرُ بن الخطَّاب يُريد أنْ يَشْترِيَ خَشَبتين للنَّاقوس، إذ رأى عمر بن الخطاب في المنام: لا تجعلوا الناقوس، بل أذِّنوا للصلاة. فذهب عمرُ إلى النبيّ ﷺ ليُخبرَه بالذي رأى، وقد جاء النبيَّ ﷺ الوحيُ بذلك، فما راع عُمر إلا بلالٌ يؤذّن، فقال رسول الله ﷺ حين أخبره بذلك: قد سَبقك بذلك الوحي[1].

ما كان يقوله بلال في الفجر:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني محمد بن جعفر بن الزُّبير، عن عُروة بن الزُّبير، عن امرأة من بني النجار، قالت: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذّن عليه للفجر كلّ غداة، فيأتي بسَحَر، فيجلس على البيت ينتظر الفَجر، فإذا رآه تمطَّى، ثم قال: اللهمّ إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يُقيموا على دينك. قالت: والله ما علمته كان يتركها ليلةً واحدَة[2].

عمرُ»[3]، وذكر باقي الحديث. وظاهرُ هذا الحديثِ أن عمرَ سمع ذلك في اليقظة، وكذلك رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان رآها، وهو بين النائم واليَقْظانِ: قال: ولو شئت لقلت: كنت يَقْظَانًا.

فصل: وأما قولُ السائل: هل أذَّن رسُول الله ﷺ بنفسه قَطُّ، فقد روى الترمذي من طريقٍ يدور على عمر بن الرماح يرفعه إلى أبي هريرة أن رسولَ الله - ﷺ - أذَّن في سفر، وصلى بأصحابه، وهم على رَوَاحِلِهم، السماءُ من فوقهم والبِلَّة من أسفلهم[4]، فنَزَع بعضُ الناس بهذا الحديث إلى أنه أذَّن بنفسِه، وأسنده الدَّارَقُطْنِي بإسناد الترمذي إلا أنه لم يذكر عُمَر بن الرماح، ووافقه فيما بعده من إسنادٍ ومَتْنٍ، لكنه قال فيه: فقام المؤذن، فأذن، ولم يقل: أذن رسولُ الله - ﷺ - والمُتَصَّل يَقْضِي على المُجْمَلِ المُحْتمل، والله أعلم.

---

(١) انظر أيضًا مصنف عبد الرزاق (١٧٧٥) والبداية (٣/ ٢٣٣).
(٢) أخرجه أبو داود (٥١٩) بتحقيقي. وفيه مجهول. وهي المرأة من بني النجار.
(٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة بسند ضعيف. انظر الطالب (٢٢٤) الفتح (٢/ ٧٨).
(٤) أخرجه الترمذي.

أبو قيس بن أبي أنس

قال ابن إسحٰق: فلما اطمأنت برسول الله ﷺ داره، وأظْهر الله بها دينَه، وسرّه بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قَيْس صَرْمة بن أبي أَنَسٍ، أخو بني عديّ بن النجّار.

قال ابن هشام: أبو قيس، صِرْمة بن أبي أنس بن صِرْمة بن مالك بن عديّ بن عامر بن غَنْم بن عديّ بن النجّار.

قال ابن إسحٰق: وكان رجلاً قد ترهَّب في الجاهلية، ولبس المُسُوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة وتطهَّر من الحائض من النساء، وهَمَّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له، فاتخذه مسجدًا لا تدخله عليه فيه طامِثٌ ولا جُنب، وقال: أعبد رَب إبراهيم، حين فارق الأوثانَ وكرهها، حتى قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، فأسلم وحَسُن إسلامه، وهو شيخ كبير، وكان قَوَالاً لله عزّ وجلّ في جاهليته، يقول أشعارًا في ذلك

حديث صرمة بن أبي أنس[1]

واسم أبي أَنس: قَيْسُ بن صِرْمَة بن مالك بن عَدِي بن عَمْرو بن غَنْم بنِ عَدِيّ بن النَّجّار الأنصاري، وهو الذي أنزل الله فيه، وفي عُمَر رضي الله عنهما: ﴿أُحِلَّ لكم ليلَة الصِّيام الرَّفَثُ إلى نِسائكم﴾ [البقرة: ١٨٧] إلى قوله: ﴿وعفا عنكم﴾ فهذه في عمر، ثم قال: ﴿وكُلوا واشْرَبُوا﴾ إلى آخر الآية، فهذه في صَرْمَة بن أبي أنس، وذلك أن إتيان النِّساءِ ليلاً في رَمَضَانَ كان مُحَرَّمًا عليهم في أول الإسلام بعد النوم، وكذلك الأكلُ والشُّرب كان محرمًا عليهم بعد النوم فأما عمر، فأراد امرأته ذات ليلة، فقالت له: إني قد نمت، فقال: كذبت ثم وقع عليها، وأما صِرْمَة فإنه عمل في حائِطه وهو صائم، فجاء الليل وقد جَهَده الكَلاَلُ فغلبته عينُه قبل أن يفطر، فجاءته امرأتُه بطعام كانت قد صنعته له، فوجدته قد نام، فقالت له: الخَيْبَةُ لك حَرُم عليك الطعامُ والشرابُ فبات صائمًا، وأصبح إلى حائطه يعمل فيه، فمرَّ به رسول الله ﷺ، وهو طَلِيحٌ قدَ جَهده العطشُ مع ما به من الجوع والنَّصَب، فسأله رسولُ الله - ﷺ - فأخبره بقصته فرقَّ اعليه،م السلام، ودمعت عيناه، فأنزل الله تعالى الرُّخصة، وجاء بالفرج. بدأ بقصة عمر لفضله، فقال: ﴿فالآن باشِرُوهن﴾ ثم بِصِرْمة فقال: ﴿وكُلوا واشْرَبُوا﴾ قال بعض أشياخِ الصوفية: هذه العناية من الله أخطأ عمر خَطِيئة فرُحِمَت الأمة بسببها.

---

(١) انظر الاستيعاب (١/ ٧٣٧).

حِسانًا ـ وهو الذي يقول:

يقولُ أبو قَيْس وأصْبح غادِيًا: ألاَ ما استطعتم من وَصَاتيَ فافعلُوا
فأُوصيكم بالله والبِرّ والتُّقَى وأعْراضِكم والبِرُّ بالله أوّلُ
وإنّ قوْمُكم سادوا فَلا تَحْسُدُونهم وإن كنتمُ أهلَ الرياسة فاعدلوا
وإن نزلتْ إحدى الدواهي بقَومكم فأنفَسكم دونُ العَشيرة فاجعلوا
وَإن تاب غُرْم فادح فارفقُوهم وما حَمَّلوكم في المُلِمات فاحملوا
وإن أنتمُ أمعرتُم فتعفَّفوا وإن كان فضلُ الخير فيكم فأفضِلوا

من شرح شعره:

وذكر من شعر صرمة:

فأوصيكُم بالله والبِرّ والتُّقَى وأعراضِكم والبِرُّ بالله أَوَّلُ

برفع البر على الابتداء، وأولُ خَبرٌ له، وقد يحتمل في الظاهر أن يكون ظرفًا في موضع الخبر، ولكن لا يجوز ذلك في هذه الظروف المبنية على الضَّمِّ أن تكونَ خبرَ المبتدإ، لا تقول: الصلاة، قبلُ إلا أن تقولَ: قبل كذا، ولا الخروج بعدُ إلاَّ أن تقولَ: بعد كذا، وذلك لسِرٍّ دقيق قد حَوَّم عليهما ابنُ جنّي[1] فلم يُصِبِ المَفْصِل، والذي منع من ذلك أن هذه الغايات إنما تعمل فيها الأفعال الملفوظُ بها لأنها غاياتٌ لأفعالٍ متقدمةٍ، فإذا لم تأتِ بفعل يعمل فيها، لم تكن غايةً لشيء مذكورٍ، وصار العامل فيها معنويًا، وهو: الاستقرار، وهي مضافة في المعنى إلى شيء، والشيءُ المضافُ إليه معنوي، لا لفظي، فلا يدل العاملُ المعنويُ على معنوي آخر، إنما يدل عليه الظاهرُ اللفظي، فتَأمَّلْه، فالضمة في أولُ على هذا حركة إعراب، لا حركة بناء، ولو قال: ابدأ بالبر أوَّلُ لكانت حركة بناء، لكن من رواه: والبرِّ بالله أولِ بخفض الراء من البر فأول حينئذ ظرف مبني على الضم يعمل فيه: أوصيكم.

وفيه:

وإن أنتم أمْعَرْتُم فتعففوا

الإمعارُ: الفَقْر.

---

(١) انظر الخصائص لابن جنّي (٢/ ٣٦٢).

قال ابن هشام: ويروى:

وإن نـاب أمـرٌ فـادح فـازفِـدُوهُـمُ

قال ابن إسحٰق: وقال أبو قيس صِرْمة أيضًا:

سَـبـحـوا الله شَـرْقَ كـلّ صـبـاحٍ طـلـعـت شـمـسُـه وكُـلَّ هِـلالِ
عـالـم الـسِّـرِّ والـبَـيـان لَـدَيْـنـا لـيـس مـا قـال ربُّـنـا بـضَـلال
ولـه الـطَّـيـرُ تَـسْـتَـزيـد وتـأوي فـي وُكـور مـن آمِـنـات الـجـبـال
ولـه الـوحـشُ بـالـفـلاة تـراهـا فِـي حِـقـاف وفـي ظـلال الـرّمـال
ولـه هَـوّدتْ يَـهـودُ ودانـت كـلَّ ديـن إذا ذَكـرتَ عُـضـال
ولَـه شَـمـسَ الـنَّـصـارَى وقـامُـوا كـلّ عِـيـدٍ لـربـهِـم واحـتِـفـال
ولـه الـرَّاهـبُ الـحـبـيـسُ تـراهُ رهْـنَ بُـؤسٍ وكـانَ نـاعـمَ بـال

ومن شعره:

سَـبِّـحـوا الله شَـرْقَ كُـلّ صَـبَـاح طـلـعـت شَـمْـسُـه وكُـلَّ هِـلاَلِ

الشرق: طلوعُ الشمس، وهو من أسمائها أيضًا، وكذلكَ الشَّرَق بفتح الراء وكلَّ هلال بالنصب على الظرف، أي: وقْت كُلّ هلال، ولو قلت في مثل هذا: وكُلَّ قمر على الظرف، لم يجز، لأن الهلال قد أُجرِي مُجرَى المصادر في قولهم: الليلة الهلال؛ فلذلك صح أن يكون ظرفًا لأن المصادر قد تكون ظروفًا لمعانٍ وأسرارٍ ليس هذا موضعًا لذكرها، ولو خفضت وكُلِّ هلال عطفًا على صباح، لم يجز لأن الشرقَ لا يضاف إلى الهلال كما يضاف إلى الصباح.

وفيه:

ولـه شَـمَّـسَ الـنـصـارى ....

يعني دين الشَّمَامِسَة[1]، وهم الرُّهْبَانُ لأنهم يُشَمّسُون أنفسَهم، يريدون تعذيبَ النفوسِ بذلك في زعمهم.

---

(١) الشماسة: جمع شماس، خادم الكنيسة أقل رتبة من القسيس ـ ألا لعنة على الكافرين جميعًا.

يـا بَـنـيّ الأرحـامَ لا تَـقْـطَـعـوهـا	وصـلُـوهـا قَـصـيـرة مـن طِـوالِ
واتـقـوا الله فـي ضِـعـاف الـيَـتَـامـى	ربـمَـا يُـسْـتـحـلُّ غـيـرُ الـحـلال
واعـلَـمـوا أنَّ لـلـيَـتـيـم وَلِـيًّـا	عـالـمًـا يَـهْـتـدي بـغـيـر الـسـؤال
ثــم مــالَ الـيَـتـيـم لا تـأكُـلـوه	إنَّ مـالَ الـيَـتـيـم يـرعـاه والـي

وفيـه:

يـا بَـنِـيَّ الأرحـامَ لا تَـقْـطَـعُـوهـا

بنصب الأرحام، وهو أجود من الرفع في هذا الموضع للنهي.

وقولـه:

وصِـلُـوهـا قـصِـيـرةً مـن طَـوال

وقد أملينا فيها في غير هذا الكتاب ما نعيده ههُنا بحول الله، وأملينا أيضًا في معنى الرَّحِم واشتقاق الأم لإضافة الرَّحم إليها، ووضعها فيه عند خلق آدم وحوّاء، وكون الأم أعظم حَظًّا في البِرِّ من الأب، مع أنها في الميراث دونه أسرارًا بديعة، ومعاني لطيفة أودعناها كتاب الفرائض وشرح آياتِ الوصية، فلتنظر هنالك.

وأما قوله: قصيرَةً مِنْ طوال، فيحتمل تأويلين أحدهما: أن يريد: صِلُوا قِصَرَها من طولِكم، أي: كونوا أنتم طوالاً بالصِّلة والبِر إن قصرت هي، وفي الحديث: أنه قال لأزواجه: «أَسْرَعُكُنَّ لُحوقًا بي: أطولُكن يدًا فاجتمعن يتطاولن، فطالتهن سَوْدَة، فماتت زينب أولهن»[1] أراد الطَّوْل بالصدقة والبر، فكانت تلك صفةُ زينب بنت جَحْش. والتأويلُ الآخر: أنْ يريد مدحًا لقومه بأن أرحامَهم قصيرةُ النسب، ولكنها من قوم طوال كما قال:

أُحِـبُّ مـن الـنِّـسـوان كُـلَّ طَـويـلـةٍ	لـهـا نَـسَـبٌ فـي الـصـالـحـين قـصـيـرُ

وقال الطائي:

أنـتـم بَـنُـو الـنَّـسَـبِ الـقـصـيـرِ وطُـولـكـم	بــادٍ عــلــى الــكُــبــراءِ والأشْــرَافِ

والنَّسَبُ القصير: أنْ يقول: أنا ابنُ فلانٍ فيُعْرف، وتلك: صفة الأشراف، ومَنْ ليس بشريف لا يُعْرف حتى يأْتِيَ بِنسةٍ طَوِيلَةٍ يبلُغ بها رأسَ القَبِيلَة. وقد قال رُؤْبَةُ: قال لي

---

(١) «صحيح». أخرجه مسلم في الفضائل (١٠١) والحاكم (٤/ ٢٥) والطحاوي في المشكل (١/ ٨٢).

يا بَنيّ، التخوم لا تَخْزلوها ... إنَّ خَزل التُّخوم ذو عُقّال

يا بَنيّ الأيّامَ لا تأمَنوها ... واحذروا مكْرَها ومرَّ اللّيالي

واعلَموا أن مَرّها لنَفاد الخَلْـ ... ـلق ما كان من جَديد وبالي

واجمَعوا أمْرَكم على البرّ والتَّقْـ ... ـوى وترك الخَنا وأخذ الحلال

وقال أبو قَيْس صِرْمة أيضًا، يذكر ما أكرمهم الله تبارك وتعالى به من الإسلام، وما خصّهم الله به من نُزول رسوله ﷺ عليهم:

ثَوى في قُريش بضْعَ عَشْرةَ حِجَّةً ... يُذَكِّر لو يَلْقى صَديقًا مُواتِيا

ويَعْرِض في أهْل المَواسم نفسَه ... فلم يَرَ من يؤوِي ولم يَر داعيا

فلمَّا أتانا أظْهر الله دِينَه ... فأصبح مَسْرورًا بطِيبةَ راضِيا

وألْفَى صَدِيقًا واطمأنَّت به النَّوَى ... وكان له عَوْنًا منَ اللهِ باديا

يَقُصّ لنا ما قال نُوح لقَوْمه ... وما قال مُوسى إذْ أجابَ المنَادِيا

فأصبحَ لاَ يخْشَى من النَّاس واحدًا ... قريبًا ولاَ يخْشَى من النَّاس نائِيا

بَذَلْنا له الأموال من حلّ مالنا ... وأنفُسَنا عند الوَغى والتَّآسِيا

ونَعْلم أنَّ اللهَ لا شَيْءَ غَيْره ... ونَعْلم أن الله أفضلُ هاديا

نُعادي الذي عادَى من الناس كلَّهُم ... جميعًا وإن كان الحبيبَ المُصافيا

أقول إذا أدعوك في كلّ بيعة: ... تباركتَ قد أكثرتُ لاسمك داعيا

أقُولُ إذا جاوَزتُ أرْضًا مخُوفةً ... حَنانَيك لا تُظْهر عليَّ الأعاديا

النَّسَّابةُ: مَنْ أنتَ انتسِبْ، فقلت: رُؤْبَةُ بن العَجّاج، فقال: قصَّرْتَ وعُرِفْتَ. وقوله:

إن خَزْل التّخُوم ذو عُقَّال

التَّخوم: جمع: تَخُومَة، ومن قال: تُخُمٌ في الواحد، قال: في الجمع تُخُوم بضم التاء، وأراد بها الأُرَف [أو الأُرَث] وهي الحدود، وقال أبو حَنِيفَة: التَّخوم والتُّخوم: حُدود البلادِ والقرى، ولم يذكر في حدود الأخْقَال الأَرَف. والعُقَّالَ. ما يمنع الرجل من المشي، ويعْقِلها يريد أنَّ الظلمَ يُخَلِّف صاحبَه ويَعقِله عن السِّباق، ويَحْبِسه في مَضَايق الاخْتِقَاق.

فَطأْ مُعْرِضًا إن الحُتُوف كَثيرةٌ ... وإنَّك لا تُبْقِي لنَفْسِك باقيا
فوالله ما يدْرِي الفتى كيفَ يَتَّقي ... إذا هو لم يَجعَل له الله واقيا
ولا تَحفِلُ النَّخلُ المُعِيمَة ربَّها ... إذا أصبحت ربًّا وأصْبح ثاويا

قال ابن هشام: البيت الذي أوله:

فطأ مُعْرِضًا إنَّ الحُتوفَ كثيرةٌ

والبيت الذي يليه:

فوالله ما يدري الفتى كيف يتقي

وذكر قصيدتَه اليائِيَّة، وقال فيها: فَطَأْ مُعْرِضًا. البيت، قال ابن هشام: هو لأفْنُونَ التَّغْلِبيِّ، واسمه صُرَيْمُ بن مَعْشَر [ابن ذُهْل بن تيم بن عمرو بن عمرو بن مالك بن حَبيب بن عمْرِو بن غَنْم بن تغلب]. قال المؤلف وسمي أُفْنونًا في قول ابنُ دُرَيْد لبيت قاله فيه:

مَنَّيْتَنا الوُدَّ يا أَفْنون مَظْنون

أو نحو هذا اللفظ. والأفنُوْن: الغُصْنُ الناعم، والأفنون أيضًا العجوز الفانية، وأفنون هو الذي يقول:

لو أنني كنتُ من عَادٍ ومن إرَمٍ ... غَذِيَّ بَهْمٍ ولُقْمَانٍ وذِي جَدَنِ
لَمَا وَقَوا بأخيهم من مُهَوِّلَةٍ ... أخا السَّكونِ ولا جاروا عن السَّنَنِ
أنَّى جَزَوْا عامِرًا سِوءًى بفِعْلهم ... أم كيف يَجْزُونَني السُّوءى من الحَسَنِ
أم كيف يَنْفَع ما تُعْطِي العَلُوقُ به ... رِئمانُ أَنْفٍ إذا ما ضُنَّ باللَّبَنِ[١]

وقول ابن هشام في البيتين: فَطَأْ مُعْرِضًا والذي بعده أنهما لأُفْنون التَّغْلِبيِّ مذكور عند أهل الأخبار، ولها سبب ذكروا أن أُفْنونا خرج في ركبٍ، فمروا برَبْوَةٍ تعرف: بالإلٰهةِ[٢]، وكان الكاهنُ قبل ذلك قد حدّثه أنه يموت بها، فمر بها في ذلك الركب، فلما أشرفوا عليها وأُعْلِم باسمِها، كَرِه المرورَ بها، وأبوا أصحابه إلا أن يَمُرُّوا بها، وقالوا له: لا تنزل عندها، ولكن نَجُوزها سَعْيًا، فلما دنا منها بركت به ناقتُه على حيَّة، فنزل لينظر فَنَهَشَتْهُ الحيةُ، فمات، فَقَبْرُه هنالك، وقيل في حديثه: إنه مَرَّ بها ليلاً، فلم يعرف بها حتى رَبَضَ البَعِيرُ

---

(١) انظر الفضليات (٢/ ٣٠) والبيان والتبيين (٢/ ٩) وأمالي القالي (٢/ ٥١).
(٢) الإلٰهة: موضع بين ديار تغلب والشام.

لأُفنون التَّغْلِبِيِّ، وهو صُرَيم بن مَعْشر، في أبيات له.

الذي كان عليه، وعلم أنه عند الإلـٰهةِ فَجزع، فقيل له: لا بأس عليك، فقال: فَلِم رَبَضَ البعيرُ، فأرسلها مثلاً. ذكره يعقوب، وعندما أحس بالموت قال هذين البيتين اللذين ذكر ابن إسحٰق وبعدهما:

كَفَى حَزَنا أن يَرْحَلَ الرَّكبُ غُدْوَةً ... وأُتْـرَك فـي جَـنْـبِ الإلـٰهـةِ ثَـاويـا

الأعداء من يهود

قال ابن إسحٰق: ونَصَبت عند ذلك أحبارُ يَهُودَ ـ لرسول الله ﷺ العداوةَ، بَغْيًا وحَسَدًا وضَغْنًا، لما خصّ الله تعالى به العرَبَ من أخْذه رسولَه منهم، وإنضاف إليهم رجالٌ من الأوْسِ والخَزرج، ممن كان علىٰ جاهليَّته فكانوا أهل نِفاق على دين آبائهم من الشِّركَ والتكذيب بالبعث، إلاَّ أن الإسلام قَهرهم بظُهوره واجتماع قومِهم عليه، فظهروا بالإسلام، واتخذوه جُنَّة[1] من القَتْل ونافقُوا[2] فِي السِّرِّ، وكان هَواهم مع يَهُودَ لتكذيبهم النبيَّ ـ ﷺ ـ وجُحودهم الإسلام. وكانت أحبار يهودَهُم الذين يسألون ـ رسولَ الله ﷺ ـ وَيَتَعَنَّتونه، ويأتونه باللَّبْس، ليَلْبِسُوا الحقَّ بالباطل، فكان القرآنُ يَنزل فيهم فيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحَلال والحرام كان المُسْلِمون يَسألون عنها.

من يهود بني النضير:

منهم: حُيَيّ بن أَخْطب، وأخواه أبو ياسِر بن أخطب، وجُدَيّ بن أخطب،

تسمية اليهود الذين نزل فيهم القرآن

ذكر فيهم جُدَيّ بن أَخْطَب، بالجيم، وهو أخو حُيَيّ بن أَخْطَبَ، وأما حُدَيّ بالحاء،

---

(١) جُنَّة: أي ساترًا وحجابًا ووقاية من القتل.

(٢) النفاق: لفظة قرآنية، والمنافق هو الذي يُظهِر الإسلام ويُبطِن الكفر، أُخذت الكلمة من نافقاء اليربوع، وهو حيوان لداه بابان يدخل من أحدهما عند الهرب من مفترسه، ثم يخرج من الآخر دون أن يراه المفترس، والنفاق نفاقان عملي واعتقادي، والعملي هو الذي جاء الحديث بالنهي عنه «آية المنافق ثلاث ـ خمس». والاعتقادي كنفاق عبد الله بن أبي سلول، والأول لا يخرج من الملة والثاني يخرج من الملة. وكان النفاق معروفًا بمكة، إنما ظهر في المدينة. والعياذ من النفاق والشقاق.

وسلاَّم بن مِشْكم، وكنانة بن الربيع بن أَبي الحُقَيق، وسَلاَّم بن أبي الحُقيْق، أبو رافع الأعور، وهو الذي قتله أصحابُ رسول الله ﷺ بخَيْبر - والربيعُ بن الربيع بن أبي الحُقَيْقِ، وعمرو بن جَحَّاش، وكعب بن الأشرف، وهو من طيىء، ثم أحد بني نبْهان، وأمُّه من بني النضير، والحجَّاج بن عمرو، حليف كَعْب بن الأشرف، وكَرْدَم بن قيس، حليف كعب بن الأشرف، فهؤلاء من بني النَّضير.

من يهود بني ثعلبة:

ومن بني ثعلبة بن الفِطْيَوْن: عبد الله بن صوريَا الأعور، ولم يكن بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه؛ وابن صَلُوبا، ومُخَيرِيق، وكان حَبْرَهم، أسْلَم.

من يهود بني قينقاع:

ومن بني قَيْنُقاع: زيد بن اللَّصِيت - ويقال: ابن اللُّصَيت - فيما قال ابن هشام - وسَعْد بن حُنَيْفٍ، ومحمود بن سَيْحان، وعُزير بن أبي عُزير، وعبد الله بن صَيْف. قال ابن هشام: ويقال: ابن ضَيْف.

قال ابن إسحٰق: وسُويد بن الحارث، ورفاعة بن قيس، وفِنْحَاص، وأَشيع، ونُعمان بن أضَا، وبَحْريّ بن عمرو، وشَأْس بن عديّ، وشَأْس بن قيس، وزيد بن الحارث، ونُعمان بن عمرو، وسُكَين بن أبي سُكين، وعدي بن زيد، ونُعمان بن أبي أوْفى، أبو أنس، ومحمود بن دَحْية، ومالك بن صيف. قال ابن هشام: ويقال: ابن ضيف.

فذكره الدَّارَقُطْني في نسب عُتَيْبَة بنِ الحارثِ بن شِهابَ بن حُدَيٍّ التميمي فارس العرب.

وذكر عزير بن أبي عزير وأَلفيت بخط الحافظ أبي بحر في هذا الموضع يقول عُزيز بن أبي عُزَيْز، بزاييْنِ قَيَّدْنَاه في الجزء قبل.

وذكر ثعلبة بن الفِطْيَوْن والفِطْيَون كلمة عِبْرانِيَّة، وهي عبارة عن كل مَن وَلِي أمرَ اليهود، وملَكَهم، كما أن النَّجاشِيَّ عِبارةٌ عن كل من مَلَك الحبشَة، وخَاقَانَ ملك الترك، وقد تقدم من هذا الباب جُمْلَة.

وذكر فيهم عَبْدَ اللهِ بن صُوريا الأعور، وكان أعلَمهم بالتوراةِ، ذكر النَّقَّاشُ أنه أَسلم لما تحقق من صفاتِ محمد - ﷺ - في التوراة، وأنه هو وليس في سيرة ابن إسحٰق ذكر إسلامه.

قال ابن إسحٰق: وكعب بن راشد، وعازَر، ورافع بن أبي رافع، وخالد وأزار بن أبي أزار. قال ابن هشام: ويقال: آزر بن آزر.

قال ابن إسحٰق: ورافع بن حارثة، ورافع بن حُريملة، ورافع بن خارجة، ومالك بن عوف، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وعبد الله بن سَلام بن الحارث، وكان حَبْرَهم وأعلَمهم، وكانَ اسمه الحُصَين، فلما أسلم سمَّاه رسولُ الله ﷺ ـ عبدَ الله. فهؤلاء من بني قَيْنُقَاع.

من يهود بني قريظة:

ومن بني قُرَيظة: الزُّبَيْر بن بَاطا بن وَهْب، وعَزّال بن شَمْوِيل، وكعب بن أسد، وهو صاحب عَقد بني قُريظة الذي نُقِض عام الأحزاب، وشَمْوِيل بن زيد، وجَبَل بن عمرو بن سُكينة، والنَّحَّام بن زيد، وقَرْدم بن كعب، ووهب بن زيد، ونافع بن أبي نافع، وأبو نافع، وعديّ بن زَيد، والحارث بن عَوْف، وكَرْدَم بن زيد، وأسامة بن حَبِيب، ورافع بن رُمَيلَة، وجَبل بن أبي قُشَيْر، ووَهْب بن يَهُوذا، فهؤلاء من بني قُرَيْظَة.

من يهود بني زريق:

ومن يهود بني زُرَيق: لَبِيد بن أعْصم، وهو الذي أَخَذَ رسولَ الله ﷺ عن نسائه.

يهود المدينة:

فصل: وقولُه: ومن يَهُودِ بني زُرَيْقٍ، ومن يهود بني حارثة، وذكر قبائل من الأنصار، وإنما اليهودُ بنو إسرائيلَ، وجملة من كان منهم بالمدينة وخيبر إنما هم [بنو] قُرَيْظَة [وبنو] النَّضيرَ وبَنُو قَيْنُقَاعِ، غير أن في الأوسِ والخَزْرَج من قد تَهوَّد، وكان من نسائهم مَن تَنْذِرُ إذا ولدت إن عاش وَلَدُها أَنْ تُهَوِّدَه، لأن اليهودَ عندهم كانوا أهلَ علمٍ وكتابٍ، وفي هؤلاء الأبناء الذين تَهَوَّدُوا نزلت ﴿لا إكْرَاهَ في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] حينَ أراد آباؤهم إكراهَهم على الإسلام في أَحَد الأقوال.

السحر المنسوب إلى النبي ﷺ[١]:

وأما لَبِيدُ بن الأعصم، الذي ذكره من يَهُودِ بني زُرَيْقٍ، وقال: هو الذي أَخَذَ رسول الله ﷺ عن نسائِه يعني من الأُخْذَة، وهي ضَرْبٌ من السحر. في الخبر أن القاسم بن

---

(١) انظر الحديث في البخاري (١٠/١٩٩) ومسلم في السلام (٢١٨٩) وانظر مزيد بيان في علاج السحر وغيره (زاد المعاد) (٤/ ١٢٤).

محمد ابن الحَنَفِيَّة، كان مُؤَخَذًا عن مسجدِ النبي ـ ﷺ ـ لا يستطيع أن يدخلَه، وكان لبِيد هذا قد سَحَرَ رسول الله ـ ﷺ، وجعل سحرَه في مُشطٍ ومُشَاطَةٍ. وروي: مُشَاقة بالقاف، وهي مُشَاقة الكَتَّان، وجُفُّ طَلْعَةٍ[1] ذكرٍ، هي فُحَّالُ النخل، وهو ذُكَّارُه. والجُفُّ: غلاف للطَّلْعَة، ويكون لغيرِها، ويقال للجُفِّ القِيقَاءُ وتُصْنَع منه آنيةٌ يقال لها: التَلاتِل [جمع: تَلْتَلَةٍ] قاله أبو حنيفة ودفنه في بئرِ ذِي أَرْوَانَ، وأكثرُ أهْلِ الحديث يقولون: ذَرْوَانَ تحت رَاعُوفة البئر [أو أُرْعُوفَتها]، وهي صخرة في أسفله يقف عليها المائِح[2]، وهذا الحديثُ مشهورٌ عند الناس، ثابت عند أهل الحديث، غير أني لم أجد في الكتب المشهورةِ: كم لَبِث ـ رسول الله ﷺ ـ بذلك السحر، حتى شُفِي منه، ثم وقعت على البيان في جامع مَعْمَرِ بنِ راشِد. رَوَى مَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ، قال: سُحِر رسولُ الله ﷺ سنةً يُخيَّل إليه أنه يفعل الفعلَ، وهو لا يفعله، وقد طَعَنت المعتزلةُ في هذا الحديث وطوائفُ من أهلِ البِدَع، وقالوا: لا يجوز على الأنبياء أن يُسْحَروا، ولو جاز أن يُسْحَرُوا، لجاز أن يُجَنُّوا. ونَزَع بقوله عزّ وجلّ: ﴿واللَّهُ يَعْصِمُكَ من الناسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والحديثُ ثابِتٌ خَرَّجه أهلُ الصحيح، ولا مَطْعن فيه من جِهَةِ النقل، ولا من جهة العقل، لأنَّ العِصمة إنما وَجَبَتْ لهم في عقولهم وأديانِهم، وأما أبدانُهم، فإنهمُ يُبْتَلَوْنَ فيها، ويخلص إليهم بالجراحة والضرب والسموم والقتل، والأُخْذَةُ التي أُخِذَها رسولُ الله ـ ﷺ ـ من هذا الفن، إنما كانت في بعض جَوارِحِه دون بعض[3].

أما قوله سبحانه: ﴿واللَّهُ يَعْصِمُك من الناس﴾ فإنه قد روي أنه كان يُحرس في الغَزْو، حتى نزلت هذه الآيةُ، فأمر حُرَّاسَه أن ينصرفوا عنه، وقال: لا حاجة لي بكم، فقد عَصَمَنِي الله من الناسِ، أو كما قال[4].

---

(١) الطلع: قطعة من النخلة. (٢) المائح: المستقي.

(٣) وفيه أيضًا الدليل على بشرية الرسول ﷺ بمعناها المعلوم عند كل ذي لب، لا كما قال كثير من أهل الطرق الصوفية: أن له بشرية ولكنها تخالف البشرية التي عليها بنو آدم، ومن ثم أنكر بعضهم حديث البخاري ومسلم السابق ذكره آنفًا في قصة السحر، هذا وكما استخدم اليهود أمس السحر في محاولة على القضاء على النبي ﷺ وعلى أتباعه عند هجرتهم من مكة إلى المدينة، عاد أعداء الله اليوم يهودًا ونصارى ـ على معاودة الكَرّة مرة أخرى في محاولة للقضاء على الإسلام والمسلمين، فكان من آثار هذا الاستخدام الشيطاني لتسخير الجنّ وإرساله لإيذاء المسلمين والمسلمات والأطفال ما انتشر في [مصر] من إغماءٍ للفتيات، ومن مسّ الجنّ للإنس واعترافهم أنهم إنما أُرسِلوا من قِبَل الكنائس لإيذاء المسلمين، فانتبه.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦).

من يهود بني حارثة:

ومن يهود بني حارثة: كنانة بن صُورِيا.

من يهود بني عمرو:

ومن يهود بني عمرو بن عَوْف: قَرْدم بن عمرو.

من يهود بني النجار:

ومن يهود بني النجّار: سِلْسِلة بن بَرْهام.

فقه حديث السحر:

وأما ما فيه من الفقه، فإن عائشةَ قالت له: هَلاً تَنَشَّرتَ[1]، فقال: أما أنا فقد شفاني الله، وأكرَه أن أُثِيرَ على الناسِ شَرًا، وهو حديث مُشْكِل في ظاهره، وإنما جاء الإشكال فيه من قِبَلِ الرُّواة، فإنهم جعلوا جوابين لكلامين كلامًا وحدًا، وذلك أن عائشة قالت له أيضًا: هَلاً اسْتَخْرَجْتَه، أي: هلا استخرجتَ السحَر من الجُفِّ والمُشَاطة، حتى ينظر إليه، فلذلك قال: وأكره أن أثير على الناس شرًا، قال ابن بطال: كَرِه أن يخرجه. فيتعلّم منه بعضُ الناس، فذلك هو الشر الذي كَرِهه.

قال المؤلف: ويجوز أن يكون الشرُّ غيرَ هذا، وذلك أن الساحرَ كان من بني زُرَيْقٍ، فلو أظهر سَحرَه للناس، وأراهم إياه لأَوْشَك أن يُريدَ طائفةٌ من المسلمين قتلَه، ويتعصبَ له آخرون من عَشيرته فَيَثُورَ شرٌّ كما ثار في حديثِ الإفكِ من الشَّرّ ما سيأتي بيانُه.

وقول عائشة: هلا استخرجتَه هو في حديثين رواهما البُخاري جميعًا، وأما جوابه لها في حديث: هَلاً تَنَشرت: بقوله: أما أنا فقد شفاني الله، وجوابه لها حين قالت: هلا استخرجته: بأن قال: أكره أن أُثير على الناس شَرًا، فلما جمع الراوي بين الجوابين في حديث واحد اسْتَغْلَق الكلامُ، وإذا نُظِرت الأحاديثُ متفرقة تُبُيِّنتْ، وعلى هذا النحو شَرَحَ هذا الحديثَ ابنُ بطال.

وأما الفِقه الذي أشرنا إليه فهو إباحة النُّشرة من قول عائشة: هلا تَنَشَّرت، ولم ينكِر عليها قولها.

---

(١) النشرة: ضرب من الرُّقى.

فهؤلاء أحبار اليهود، أهل الشرور والعداوة لرسول الله - ﷺ - وأصحابه، وأصحاب المسألة، والنصب لأمر الإسلام الشرور ليطفئوه، إلا ما كان من عبد الله بن سَلاَم ومُخَيْرِيق.

إسلام عبد الله بن سلام

قال ابن إسحٰق: وكان من حديث عبد الله بن سَلاَم، كما حدّثني بعض أهله عنه. وعن إسلامه حين أسلم، وكان حبرًا عالمًا، قال: لما سمعتُ برسول الله ﷺ عرَفتُ صفته واسمَه وزمانَه الذي كنّا نَتوَكَّف له، فكنت مُسِرًّا لذلك، صامتًا عليه، حتى قَدِم

وذكر البخاري عن سعيد بن المُسَيَّب أنه سئل عن النُّشرة للذي يُؤْخَذ عن أهلِه، فقال: لا بَأْسَ لم ينه عن الصلاح، إنما نهِي عن الفساد، ومن استطاع أن يَنْفَعَ أخاهُ فَلْيفْعل. ومن الناس من كره النُّشرة على العموم، ونَزَع بحديث خرَّجه أبو داود مَرْفوعًا: «أن النُّشْرَةَ من عمَل الشيطان»[1]، وهذا - والله أعلم - في النُّشرة التي فيها الخواتِم والعَزائِم، وما لاَ يُفْهَم من الأسماء العَجمية، ولولا الإطالة المخرجَة لنا عن غَرَضنا لقدرنا الرُّخْصَة بالآثار، وهذا القدر كَاف، والله المستعان. وكانتْ عُقَدُ السِّحْرِ أحدَ عَشرَ عُقْدَةً، فأنزل الله تعالى المعوذتين أحَدَ عَشَر آية، فانحلت بكل آية عُقْدةٌ[2]، قال تعالى: ﴿ومِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ﴾ ولم يقل النَّفَّاثِين، وإنما كان الذي سحره رجلاً والجوابُ: أن الحديث قد رواه إسماعيل القاضي، وزاد في روايته أن زينب اليهوديةَ أعانَتْ لَبِيدَ بن الأعْصَم على ذلك السحرِ، مع أن الأخْذَةَ في الغالب من عمل النساء وكيدهنّ.

إسلام عبد الله بن سلام[3]

سَلاَم هو بتخفيف اللام، ولا يوجد من اسمه سَلاَم بالتخفيف في المسلمين لأن السَّلاَمَ من أسماء الله، فيقال عبد السَّلاَم، ويقال: سَلاَّم بالتشديد، وهو كثير، وإنما سَلاَمٌ بالتخفيف في اليهود، وهو والد عبد الله بن سَلاَم منهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٦٨) والبيهقي (٩/ ٣٥١) والبغوي في شرح السُّنة (١٢/ ١٥٩).

(٢) رُوِيَ مثل هذا من أسباب النزول وإسناده ضعيف.

(٣) له ترجمة في الطبقات (٢/ ٣٥٢) الإصابة (٢/ ٣٢٠) أسد الغابة (٣/ ٢٦٤) العبر (١/ ٥١) النجوم الزاهرة (١/ ١٢٥) الاستيعاب (٣/ ١٥٦١) تهذيب الكمال (١٥/ ٧٤) التهذيب (٥/ ٢٤٩) التقريب (١/ ٤٢٢) الثقات (٣/ ٢٢٨) مشاهير علماء الأمصار (٥٢) بتحقيقي.

رسول الله ﷺ المدينةَ، فلما نَزل بقُبَاءَ، في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقُدومه، وأنا في رأس نَخْلَة لي أعمل فيها، وعمتي خالدةُ ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبرَ بقُدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ، فقالت لي عمَّتي، حين سمعت تكبيري: خيَّبك الله، والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادمًا ما زِدْت، قال: فقلت لها: أيْ عمَّة، هو والله أخو موسى بن عِمْران، وعلى دينه، بُعِث بما بُعِث به. قال: أيِ ابنَ أخي، أهو النبيّ الذي كُنَّا نخبر أنَّه يبعث مع نَفَسِ الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذًا. قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ، فأسلمتُ، ثم رجعتُ إلى أهل بيتي، فأمرتُهم فأسلَموا.

قال: وكتمتُ إسلامي من يهود، ثم جئتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ له: يا رسول الله، إن يهودَ قومٌ بُهت وإني أحبّ أنْ تدْخلني في بعض بُيوتك، وتغيِّبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يُخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يَعْلموا بإسلامي، فإنهم إن عَلِموا به بَهتوني وعابوني. قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بُيوته، ودخلوا عليه، فكلَّموه.

ذكر فيه قول عمته خالدة أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يُبْعَث مع نَفَسِ الساعة، وهذا الكلام في معنى قوله عليه السلام: إني لأجد نَفَسَ الساعة بين كتفي، وفي معنى قوله: ﴿نَذِيرٌ لكم بينَ يَدي عذابٍ شديدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] ومن كان بين يديّ طالبه، فَنفَسُ الطالب بين كتفيه، وكأن النَّفَسَ في هذا الحديث عبارةٌ عن الفتنِ المؤذِنَةِ بقيام الساعة، وكان بَدْؤُها حين ولى أمتَه ظهرَه خارجًا من بين ظَهْرَانَيْهِمْ إلى الله تعالى، ألا تراه يقول في حديث آخر: وأنا أمانٌ لأُمَّتي، فإذا ذهبتُ أتى أمتي ما يُوعَدون، فكانت بعده الفتنةُ ثم الهَرْج المتصل بيوم القيامة، ونحو من هذا قوله عليه السلام: «بُعِثْت أنا والساعة كَهَاتَيْن»[١]، يعني السَّبَّابَة والوُسْطى، وهو حديث يَرْويه أَنسُ بنُ مالكٍ، وابنُ بُرَيْدَةَ عن أبيه، وجُبَيْرِ بن مُطْعِم، وجابر بن سَمُرَة وأبو هُرَيْرَة وسَهْل بن سعد كلُّهم عن رسول الله ـ ﷺ ـ وفي حديث سهلٍ سَبَقْتها بما سَبَقَتْ هذه هذه، يعني: الوُسْطَى والسَّبَّابَة، وفي بعض ألفاظِ الحديث: إن كادَتْ لَتَسْبِقني. ورواه أيضًا: أبو جُبَيْرَة فقال: قال رسولُ الله ﷺ: «جئتُ أنا والساعة كهاتين سبقتُها كما سبقتْ هَذه هذه في نَفَسِ من الساعة، أو في نفَسِ الساعة»[٢]، خرجها الطبري بجميع أسانيدها، وبعضها في الصحيحين، وفي بعضها زيادة على بعض.

---

(١) «صحيح». أخرجه البخاري (٧/ ٦٨) ومسلم في الفتن (١٣٢) وأحمد (٣/ ٢٢٢) والبيهقي في الصفات (١٨٨) بتحقيقي. والهرج: القتل.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ١٦).

وسألوه، ثم قال لهم: أيّ رجلٍ الحُصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيِّدنا وابن سيِّدنا، وحَبْرنا وعالمنا. قال: فلما فَرَغوا من قولهم، خرجتُ عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصِفَته، فإني أشهدُ أنه رسولُ الله ﷺ، وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي، قال: فقلت لرسول الله ﷺ ألم أُخْبِرك يا رسول الله أنهم قوم بُهْتٌ، أهل غَدْر وكَذب وفُجور! قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمَّتي خالدة بنت الحارث، فحَسُن إسلامها.

حديث مخيريق:

قال ابن إسحٰق: وكان من حديث مُخَيريق، وكان حبرًا عالمًا، وكان رجلاً غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يَعْرف رسول الله ﷺ بصِفَته، وما يجد في عِلْمه، وغلب عليه إلْفُ دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أُحُد، وكان يوم أُحد يومَ السبت، قال: يا معشر يَهُودَ، والله إنكم لَتَعلمون أن نَصْرَ محمد عليكم لَحَقٌّ. قالوا: إن اليوم يومُ السبت؛ قال: لا سبتَ لكم. ثم أخذ سِلاحه، فخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ بأُحُد، وعَهِد إلى مَن وَراءه من قومه: إنْ قُتِلتُ هذا اليومَ، فأمْوالي لمحمد - ﷺ - يصنع فيها ما أراه الله. فلما

وخالدة بنت الحارث قد ذكر إسلامَها، وهي مما أغفله أبو عُمَر في كتاب الصحابة، وقد استدركناها عليه في جملة الاستدراكات التي ألحقناها بكتابه.

وذكر حديث مُخَيْريق، وقال فيه: مُخَيْرِيقٌ خيرُ يهودَ، ومُخَيْرِيقٌ مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم: هو خير النصارى، ولا خيرُ اليهود، لأن أفعل من كذا إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه[1]. فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويَهُود اسم علم كَثَمُود، يقال: إنهم نسبوا إلى يَهُوذ بن يَعْقُوب، ثم عُرِّبت الذال دالاً، فإذا قلت: اليهود بالألف واللام، احتمل وجهين النسبَ والدينَ الذي هو اليهودية[2]، أما النسب فعلى حد قولهم التَّيْم في التَّيْميِّيْن، وأما الدين فعلى حَدِّ قولك: النصارى والمجوسُ أعني: أنها صِفَة، لا أنها نَسَبٌ إلى أب. وفي القرآن لفظٌ ثالث، لا يتصور فيه

---

(١) الذي قال هذا إنما هو النبي ﷺ!!!.

(٢) هو بالطبع ليس دينًا من عند الله تعالى إنما «الدين عند الله الإسلام» وهو الذي أُرسل به موسى وعيسى ومحمد ومَن سبقهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولعله يعني ما اتخذه اليهود شرعًا ومنهاجًا. فهو من معاني كلمة «الدين». انظر للمحقق «اللباب في تفسير فاتحة الكتاب» عند تفسير قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين﴾.

اقتتل الناسُ قاتل حتى قُتل. فكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ فيما بلغني ـ يَقول: «مخيريق خيرُ يهود»[1]. وقَبض رسولُ الله ﷺ أموالَه، فعامَّة صَدَقات رسول الله ﷺ بالمدينة منها.

شهادة عن صفية

قال ابن إسحٰق: وحدّثني عبدُ الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: حُدّثت عن صفيَّة بنت حُييّ بن أخْطب أنها قالت: كنت أحبَّ ولَدِ أبي إليه، وإلى عمِّي أبي ياسر، لم ألقهما قطّ مع ولدٍ لهُما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قَدِم رسولُ الله ﷺ المدينة، ونزل قُباء، في بني عمرو بن عوف، غَدا عليه أبي، حُيَيُّ بنُ أخطب، وعمِّي: أبو ياسر بن أخطب، مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غُروب الشمس. قالت: فأتَيا كالَّيْن كَسْلانين ساقِطين يمشيانِ الهُوَيْنى. قالت: فهشِشْتُ إليهما كما كنتُ أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحدٌ منهما، مع ما بهما من الغمّ. قالت: وسمعت عمِّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي: حُيَيِّ بن أخْطَب: أهو هو؟ قال: نعم والله؛ قال: أتعرفه: وتُثْبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقيتُ.

إلا معنى واحد، وهو الدِّين دون النسب، وهو قوله سبحانه: ﴿وقالوا كونوا هُودًا أو نَصَارى﴾ [البقرة: ١٣٥]. بحذف الياء، ولم يقل: كونوا يهودَ لأنه أراد التَّهَوّد، وهو التَّدَيُّن بدينهم، ولو قال: كونوا يَهُودًا بالتدين، لجاز أيضًا على أحد الوجهين المتقدمين، ولو قيل لقوم من العرب: كونوا يَهُودَ بغير تَنْوينٍ. لكان محالاً، لأن تبديلَ النَّسَبِ حقيقة محال، وقد قيل في هود: جمع هائد، وهو في معنى ما قلناه، فلتعرف الفرقَ بين قولك هودًا بغير ياءٍ، ويهودًا بالياء والتنوين، ويهودَ بغير تنوين، فإنها تفرقة حسنة صحيحة والله أعلم ولم يُسْلِم من أحبار يهودَ على عهدَ رسول الله ﷺ إلا اثنان. وقد جاء في الحديث: «لو اتبعني عَشَرَةٌ من اليهود لم يبق في الأرض يهودي إلا اتبعني»[2]. رواه أبو هريرة. وسمع كعبُ الأحبار أبا هريرة يحدِّث، فقال له: إنما الحديث: اثنا عَشَرَ من اليهود، ومِصْداقُ ذلك في القرآن (وبعثنا منهم اثْنَيْ عشر نقيبًا) فسكت أبو هريرة. قال ابن سيرين: أبو هُرَيْرَة أصدقُ من كعب. قال يحيىٰ بن سَلاَم كلاهما: (صدَق)؛ لأن رسول الله ﷺ إنما أراد: لو اتبعني عَشَرةٌ من اليهود بعد هذين اللذين قد أسلما[3].

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢/ ١٨٣) والبيهقي في الدلائل (١/ ١٨) وابن عساكر في تهذيبه (٣/ ٢٤٥) (١٠/ ٨٧). وانظر البداية (٣/ ٢٣٧) (٤/ ٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٩).

(٣) تأويل واستشهاد بالآية ـ بعيد ـ والله أعلى وأعلم.

مَن اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار

منافقو بني عمرو:

قال ابن إسحٰق: وكان مِمَّن انضاف إلى يهود، ممن سمّي لنا من المنافقين من الأوس والخزرج، والله أعلم. من الأوس، ثم من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس؛ ثم من بني لَوْذَان بن عمرو بن عوف: زُوَيّ بن الحارثِ.

منافقو حبيب:

ومن بني حُبيب بن عمرو بن عوف: جُلاس بن سُويد بن الصامت، وأخوه الحارث بن سويد.

من نفاق جلاس:

وجُلاس الذي قال ـ وكان ممن تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبوك ـ لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شرٌّ من الحُمُر. فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ ـ عُمير بن سعد، أحدهم، وكان في حُجْر جُلاس، خَلَف جُلاسٌ على أُمه بعد أبيه، فقال له عُمير بن سعد: والله يا جُلاَس، إنك لأحبّ الناس إليّ، وأحسنهم عندي يدًا، وأعزّهم عليّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلتَ مقالةً لئن رفعتُها عليك لأفضحنَّك، ولئن صمتُّ عليها ليهلكنّ ديني، ولَإحداهما أيسرُ عليّ من الأخرى. ثم مشى إلى رسول الله ﷺ، فذكر له ما قال جُلاس، فحلف جلاس بالله لرسول الله ﷺ: لقد كذب عليّ عُمير، وما قلتُ ما قال عُمير بن سعد. فأنزل الله عزّ وجلّ فيه: ﴿يحْلِفُونَ باللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفرِ وكَفَرُوا بَعْدَ إسْلامِهِمْ وهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا ومَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فإنْ يَتُوبُوا يَكَ خَيرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوا يُعذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ومَا لَهُمْ فِي الأرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال ابن هشام: الأليم: الموجع. قال ذو الرمة يصف إبلاً:

وتَرْفَع من صدور شَمَرْ دَلاَتَ ... يَصُكّ وجوهَها وهجٌ أليمُ

وهذا البيت في قصيدة له.

ذكر المنافقين

فصل: وذكَر تبْتَلاً من المنافقين، قال: وكان أَذلَم، والأَذلَمُ الأسودُ الطويلُ من كل شيء. وقيل لجماعة النمل: ديْلَم، لسوادهم من كتاب العين.

قال ابن إسحٰق: فزعموا أنه تاب فحسُنت توبته، حتى عُرِف منه الخير والإسلام.

ارتداد الحارث بن سويد وغدره:

وأخوه الحارث بن سُويد، الذي قتل المجذَّر بن ذِياد البَلَوِيّ، وقيسَ بن زيد، أحد بني ضُبيعة، يوم أُحد. خرج مع المسلمين، وكان منافقًا، فلما التقى الناسُ عدَا عليهما، فقتلهما ثم لحَق بقريش.

قال ابن هشام: وكان المجذّر بن ذِياد قتل سُويدَ بن صامت في بعض الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج فلما كان يوم أُحد طلب الحارث بن سويد غرّةَ المجذَّر بن ذِياد، ليقتله بأبيه، فقتله وحدَه، وسمعت غيرَ واحد منُ أهلِ العلم يقول: والدليل على أنه لم يقتل قيْس بن زيد، أنّ ابن إسحٰق لم يذكره في قَتْلي أُحُد.

قال ابن إسحٰق: قَتل سُويدَ بن صامت مُعاذُ ابن عفراء غِيلةً، في غير حرب، رماه بسَهْم فقتله قبل يوم بُعَاثٍ.

قال ابن إسحٰق: وكان رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ قد أمر عُمر بنَ الخطَّاب بقَتْله إن هو ظفر به، ففاته، فكان بمكة، ثم بَعث إلى أخيه جُلاس يطلب التَّوبة، ليرجع إلى قومه. فأنزل الله تبارك وتعالى فيه ـ فيما بلغني عن ابن عبَّاس ـ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقّ وجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] إلى آخر القصة.

وذكر الحارث بن سُوَيْد، وقتلَه للمُجَذَّر بن ذِيادِ. واسم المُجَذَّرِ: عبدُ الله، والمُجَذَّرُ: الغليظُ الخَلْق.

وذكر أن الله تعالى أنزل في الحارث بن سُوَيد وارتداده: ﴿كيف يَهْدِي اللَّهُ قومًا كَفروا بعد إيمانهم﴾ [آل عمران: ٨٦] فقيل إن هذه الآية مقصورةٌ على سببها مخصوصةٌ بمن سَبَق في علم الله أنه لا يَهديه من كُفره، ولا يتوب عليه مَنْ ظلمه، وإلا فالتوبة مفروضة، وقد تاب قوم بعد ارتدادِهم فقُبِلت توبتُهم. وقيل: ليس فيها نَفْيٌ لقبول التوبة، فإنه قال: كيف يهدي الله، ولم يقُل لا يَهدي الله، على أنه قد قال في آخرها: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1] وذلك يرجع إلى الخصوص، كما قدمنا أو إلى معنى الهداية في الظلمة التي

---

(١) فائدة: لا يهدي الله تعالى القوم الظالمين، ولكنه يهدي الذين ظلموا، وفرّق بين الذين ظلموا وهم الذين ظلموا أنفسهم أو غيرهم. قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم. . .﴾ الآيات. فهؤلاء ظلموا أنفسهم بمعصيتهم، أما مَن تلبّس بالظلم حتى صار =

منافقو بني ضبيعة:

ومن بني ضبيعة بن زيد بن مالك بن عَوْف بن عمرو بن عوف: بِجاد بن عثمان بن عامر.

منافقو بني لوذان[1]:

ومن بني لَوْذان بن عمرو بن عوف: نَبْتل بن الحارث، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ - فيما بلغني: من أحبّ أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نَبْتل بن الحارث، وكان رجلاً جَسيمًا أذلم، ثائرَ شعرِ الرأسِ أحمرَ العينين، أَسفَعَ الخدَّين، وكان يأتي رسولَ الله ﷺ يتحدّث إليه فيسمع منه، ثم ينقل حديثَه إلى المُنافقين، وهو الذي قال: إنما محمد أُذُن، مَن حدّثه شيئًا صدّقه. فأنزل الله عزّ وجلّ فيه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ باللَّه ويُؤْمِنُ للمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ للّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

قال ابن إسحٰق: وحدّثني بعض رجال[2] بَلْعجلان أنه حُدّث[2]: أن جبريل عليه السلام أتى رسولَ الله ﷺ فقال له إنه يجلس إليك رجل أدلم، ثائر شعر الرأس، أسفع الخدّين أحمر العينين، كأنهما قِدْران من صُفر، كبده أغلظُ من كبد الحمار، ينقل حديثَك إلى المنافقين، فاحذره. وكانت تلك صفة نَبْتل بن الحارث، فيما يذكرون.

منافقو بني ضبيعة:

ومن بني ضُبيعة: أبو حَبيبة بن الأزعر، وكان ممن بنى مسجد الضرار، وثعلبةُ بن حاطب، ومُعتِّب بن قُشير، وهما اللذان عاهدا الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن

عند الصراط بالنور التام يوم القيامة، فإن ذلك مُنتفٍ عمَّن مات غير تائب من كفره وظلمه. والله أعلم[3].

= صفة لازمة لهم، فهؤلاء لا يهديهم الله، فجاء وصفهم باسم الفاعل ﴿الظالمين﴾ كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، ولم يأتِ وصفهم بالفعل «ظلموا وكفروا». كما قال تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف﴾ فتأمل.

(١) انظر البداية (٣/ ٢٣٧). (٢) مجاهيل.

(٣) انظر قصة ارتداده والحديث في النسائي في الكبرى (تفسير سورة آل عمران: ٨٥). وفي المجتبى (٤٠٦٨) وأحمد (١/ ٢٤٧) والطبري في تفسيره (٣/ ٢٤١) وابن حبان (١٧٢٨ ـ موارد) والحاكم (٢/ ١٤٢) وصححه وأقره الذهبي ـ وهو كما قالا ـ والواحدي في أسباب النزول (٨٤).

من الصالحين، الخ القصة. ومعتب الذي قال يوم أُحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللَّهِ غيرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيةِ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا﴾ [آل عمران: ١٥٤] إلى آخر القصة. وهو الذي قال يوم الأحزاب: كان محمد يَعدنا أن نأكل كُنوز كسرى وقَيْصَر، وأحدُنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط. فأنزل الله عزّ وجلّ فيه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ المُنافِقُونَ وَالَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلاَّ غُرُورًا﴾[١] والحارثُ بن حاطب.

معتب وابنا حاطب بدريون وليسوا منافقين:

قال ابن هشام: مُعتِّب بن قُشير، وثعلبة والحارث ابنا حاطب، وهم من بني أمية بن زيد من أهل بدر وليسوا من المنافقين فيما ذكر لي من أثق به من أهل العلم، وقد نسب ابنُ إسحٰق ثعلبة والحارث في بني أمية بن زيد في أسماء أهل بَدْر.

قال ابن إسحٰق: وعَبَّاد بن حُنيف، أخو سهل بن حُنيف؛ ويَخْرج، وهم ممن كان بَني مسجد الضِّرار، وعمرو بن خِذام، وعبد الله بن نَبْتل.

من بني ثعلبة:

ومن بني ثعلبة بن عمرو بن عَوْف: جاريةُ بن عامر بن العَطَّاف، وابناه: زيد ومُجمِّع، ابنا جارية، وهم ممن اتخذ مسجد الضرار. وكان مجمِّع غلامًا حَدَثًا قد جمع من القرآن أكثره، وكان يصلي بهم فيه، ثم إنه لما أُخرب المسجد، وذهب رجالٌ من بني عمرو بن عوف، كانوا يصلون ببني عمرو بن عوف في مسجدهم، وكان زمانُ عمر بن الخطَّاب، كُلّهم في مجمِّع ليصلي بهم؛ فقال: لا، أوَليس بإمامِ المنافقين في مَسْجد الضِّرار؟ فقال لعمر: يا أمير المؤمنين، والله الذي لا إلٰه إلا هو، ما علمت بشيء من أمرهم، ولكني كنت غلامًا قارئًا للقرآن، وكانوا لا قرآن معهم، فقدّموني أصلي بهم، وما أرى أمرَهم، إلا على أحسن ما ذكروا. فزعموا أن عُمر تركه فصلى بقومه.

من بني أمية:

ومن بني أُميَّة بن زيْد بن مالك: وَدِيعة بن ثابت، وهو ممَّن بَنى مسجد الضِّرار،

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم (١٢). وانظر البداية (٣/ ٢٣٧).

وهو الذي قال: إنما كنَّا نخُوض ونَلْعب. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلئِنْ سأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وآياتِه وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [المائدة: ٦٥]... إلى آخر القصة.

من بني عبيد:

ومن بني عُبيد بن زيد بن مالك: خِذام بن خالد، وهو الذي أُخرج مسجد الضِّرار من داره؛ وبشر ورافع، ابنا زيد.

من بني النبيت:

ومن بني النَّبِيت ـ قال ابن هشام: النَّبِيت: عَمرو بنُ مالك بن الأوس ـ قال ابن إسحٰق: ثم من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس: مِرْبع بن قَيْظيّ، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه ورسولُ الله ﷺ عامدٌ إلى أُحُد: لا أُحِلُّ لك يا محمد إنْ كنتَ نبيًا، أن تمرّ في حائِطي، وأخذ في يده حَفْنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أُصيب بهذا التراب غَيرك لرميتُك به، فابتدره القومُ ليقتُلوه، فقال رسولُ الله ﷺ: دعوه، فهذا الأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة. فضربه سَعْد بن زيد، أخو بني عبد الأشهل بالقوس فشجَّه؛ وأخوه أوْس بن قَيْظي، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ يوم الخندق: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة، فأذَنْ لنا فلنرجع إليها. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إلاَّ فِرَارًا﴾[1].

قال ابن هشام: عورة، أي مُعْورة للعدوّ وضائعة؛ وجمعها: عورات قال النَّابغة الذبياني:

مَتى تَلْقـهـم لا تَلْق لـلبيت عَـوْرَةً ... ولا الجار مَحْرُومًا ولا الأمرَ ضائعا

وهذا البيت في أبيات له. والعورة (أيضًا): عورة الرجل، وهي حرمته. والعورة (أيضًا) السَّوءة.

(١) سورة الأحزاب آية رقم (١٣).

من بني ظفر:

قال ابن إسحٰق: ومن بني ظَفَر، واسم ظَفر: كعب بن الحارث بن الخزرج حاطبُ بن أميَّة بن رافع، وكان شيخًا جسيمًا قد عسا في جاهليته وكان له ابنٌ من خيار المُسْلمين يقال له يزيد بن حاطب أُصيب يوم أُحد حتى أثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار بني ظَفر.

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عاصم بنُ عمر بن قتادة أنه اجتمع إليه مَنْ بها من رِجال المُسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون أبشر يابن حاطب بالجنة. قال فنَجم نِفاقُه حينئذ، فجعل يقول أبوه أجل جنة والله من حَرْمل. غَررتُم والله هذا المسكين من نفسه.

قال ابن إسحٰق: وبَشِير بن أُبَيْرق، وهو أبو طُعمة، سارق الدّرعين، الذي أنزل الله تعالى فيه: ﴿وَلا تُجادلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ وقُزْمان: حليف لهم.

ذكر حديث بشير بن أُبيرق سارق الدرعين:

وذُكر أن الله أنزل فيه: ﴿ولا تُجادِلْ عن الذين يَخْتَانُونَ أنفسَهم﴾ [النساء: ١٠٧] الآية: وكان من قصة الدِّرعين، وقصة بشير أن بني أُبَيْرق، وهم ثلاثة بَشِيرٌ ومُبَشِّر وبِشْرٌ نقبوا مشْرُبَةً أو نقبها بَشِيرٌ وحده على ما قال ابن إسحٰق، وكانت المشْرَبة لرِفَاعة بن زَيْدٍ، وسَرقوا أدراعًا له، وطعامًا فعثر على ذلك، فجاء ابن أخيه قَتَادَة بن النُّعمان يشكو بهم إلى رسولِ الله - ﷺ - فجاء أسِيدُ بن عُرْوَةَ بن أُبَيْرِق إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسولَ الله، إن هؤلاءِ عَمَدُوا إلى أهل بيتٍ هم أهل صلاحٍ ودين، فأبَنُوهُم بالسرقة، ورَمَوْهم بها من غير بَيِّنة، وجعل يجادل عنهم حتى غضِب رسولُ الله - ﷺ - على قَتَادَةَ ورِفاعة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تُجادِل عن الذين يختانُونَ أنفسَهم﴾ [النساء: ١٠٧] الآية، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ومَن يَكْسِب خَطِيئةً أو إثْمًا ثم يَرْم به بَرِيئًا﴾ [النساء: ١١٢] وكان البريءُ الذي رَمَوْه بالسرقة لبِيدَ بن سَهْلٍ: قالوا: ما سرقناه، وإنما سرقه لَبيدُ بن سَهْلٍ، فبرّأه الله، فلما أنزل الله تعالى فيهم ما أنزل، هَرَب ابنُ أبيرق السارقُ إلى مكة، ونزل على سُلاَفَة بنت سعد بن شُهَيْد، فقال فيها حَسَّان بن ثابت بيتًا، يعرِّض فيه بها، فقالت: إنما أهْديت لي شعرَ حسَّان، وأخذت رَحْلَه، فطرحته خارج المنزل، وقالت: حَلَقْتُ وسَلَقْتُ وخَرَقْتُ إن بتَّ في منزلي ليلة سَوْداءَ، فهرَبَ إلى خَيْبَر، ثم إنه نَقَب بيتًا ذات ليلة، فسقط الحائطُ عليه فمات. ذكر هذا الحديثَ بكثير من ألفاظه التِّرمِذيُّ، وذكره الكَشِّي والطبري بألفاظ مختلفة، وذكر قصةَ موته يحيىٰ بن سلاَّم في تفسيره ووقع اسمه في أكثر التفاسير: طُعْمَة بن أُبَيْرِق وفي

قال ابن إسحٰق: فحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن رسول الله ﷺ كان يقول: إنه لمن أهل النار. فلما كان يوم أُحد قاتل قتالاً شديدًا حتى قَتل بضعةَ نفر من المشركين، فأثبتته الجراحات، فحُمل إلى دار بني ظَفر، فقال له رجال من المسلمين: أبشر يَا قُزمان، فقد أبليتَ اليوم، وقد أصابك ما ترى في الله: قال: بماذا أُبشر، فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي؛ فلما اشتدت به جراحاتُه وآذته أخذ سهمًا من كِنانته، فقطع به رواهشَ يده، فقَتل نفسه[1].

من بني عبد الأشهل:

قال ابن إسحٰق: ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة يعلم، إلا أن الضحاك بن ثابت، أحد بني كَعب، رهطِ سعد بن زيد، قد كان يُتَّهم بالنفاق وحُبّ يهود.

قال حسان بن ثابت:

مَن مُبلغُ الضحَّاكِ أنّ عُروقه ... أغيتْ على الإسْلامِ أن تَتَمَجَّدَا

أتحبّ يُهْدان الحجاز ودِينَهم ... كِبدَ الحمار، ولا تحبّ محمدًا

دينًا لعمري لا يوافق دِينَنا ... ما اسْتَنَّ آلٌ في الفَضاء وخَوْدَا

وكان جُلاس بنُ سويد بن صامت قَبْل توبته ـ فيما بلغني ـ ومعتِّب بن قُشير، ورافع بن زيد، وبِشر، وكانوا يُدْعون بالإسلام، فدعاهم رجال من المسلمين في خصومة كانت بينهم إلى رسول الله ﷺ، فدعوهم إلى الكُهَّان، حكَّام أهل الجاهلية، فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذِينَ يَزعمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزل إلَيْك وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ويُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].. إلى آخر القصة.

من الخزرج:

ومن الخزرج، ثم من بني النجّار: رافعُ بن وَدِيعة، وزيد بن عمرو، وعمرو بن قيس، وقيس بن عمرو بن سَهْل.

كتب الحديث: بَشِير بن أُبَيْرِق، وقال ابن إسحٰق في رواية يونس بن بكير عنه: بَشِير أبو طُعْمَة فليس طعمة إذًا اسمًا له، وإنما هو أبو طُعْمَة، كما ذكر ابن إسحٰق في هذه الرواية

[1] أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٥) وأحمد (٤/ ١٣٥) والطبراني (١٩/ ٨٣).

من بني جشم:

ومن بني جُشَم بن الخزرج، ثم من بَني سَلِمة: الجدّ بن قَيْس، وهو الذي يقول: يا محمد، ائذن لي، ولا تَفتني. فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي ألا فِي الفِتْنة سَقَطُوا وَإنَّ جَهَنم لمُحيطَةٌ بالكافِرينَ﴾ [التوبة: ٤٩]... إلى آخر القصة.

من بني عوف:

ومن بني عوف بن الخزرج: عبدُ الله بن أبيّ ابن سَلُول، وكان رأسَ المُنافقين وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ في غَزْوة بني المُصْطلق. وفي قوله ذلك، نزلت سورةُ المُنافقين بأسرها. وفيه وفي وَديعة - رجل من بني عوف - ومالك بن أبي قَوْفل، وسُويد، وداعس، وهم من رهط عبد الله بن أبيّ ابن سلول؛ وعبد الله بن أبيّ ابن سلول. فهؤلاء النفر من قومه الذين كانوا يدسُّون إلى بني النضير حين حاصرَهم رسول الله ﷺ: أن اثبتوا، فوالله لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدًا أبدًا، وإن قوتلتم لننصرنكم. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ نَافَقوا يَقُولُون لإخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطيعُ فِيكُمْ أحَدًا أبَدًا وَإنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكاذبُونَ﴾ ثم القصة من السورة حتى انتهى إلى قوله: ﴿كَمَثَل الشَّيْطانِ إذْ قَالَ للإنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إنّي بَرِيءٌ مِنْك إني أخافُ اللَّهَ رَبَّ العالمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

من أسلم من أحبار يهود نفاقًا:

قال ابن إسحٰق: وكان ممن تعوّذ بالإسلام، ودخل فيه مع المُسلمين وأظْهره وهو مُنافق، من أحبار يَهود.

والله أعلم. وفي رواية يونس أيضًا أن الحائط الذي سقط عليه كان بالطائف لا بخيبر، كما قال ابن سَلاَّم، وأن أهل الطائف قالوا حينئذ: ما فارق محمّدًا مِن أصحابه مَن فيه خير. والأبيات التي رمى بها حَسَّان المرأة، وهي من بني عمرو بن عوف، وقد تقدم اسمها:

وما سارقُ الدِّرْعَيْن إذ كنتَ ذاكرًا	بذي كَرَم من الرجال أوادِعهْ
وقد أنزلْته بنتُ سعدٍ فأصبحتْ	ينازعها جَارَاسْتِها وتُنازعُه
ظننتمُ بأن يَخْفَى الذي قد صنعتم	وفيكم نَبيٌّ عنده الوحي واضعه

من بني قينقاع:

من بني قَيْنُقاع: سعدُ بنُ حُنيف، وزَيْد بن اللُّصَيت، ونُعمان بن أوفى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، وزيد بن اللصَيْت، الذي قاتل عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بسوق بني قَيْنقاع، وهو الذي قال، حين ضلَّت ناقةُ رسول الله ﷺ: يزعم محمدٌ أنه يأتيه خبرُ السماء وهو لا يدري أين ناقتُه! فقال رسول الله ﷺ، وجاءه الخبر بما قال عدوّ الله في رَحْله، ودلّ الله تبارك وتعالى رسولَه ﷺ على ناقته: «إن قائلاً قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، ولا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلّني الله عليها، فهي في هذا الشُّعْب، قد حبَسَتْها شجرةٌ بزمامها، فذهب رجالٌ من المسلمين، فوجدوها حيث قال رسولُ الله ﷺ، وكما وصف» ورافعُ بن حُرَيملة، وهو الذي قال له الرسول ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حين مات: قد مات اليوم عظيمٌ من عظماء المنافقين؛ ورفاعة بن زيد بن التابوت، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ حين هبَّت عليه الريح، وهو قافلٌ من غزوة بني المُصْطَلق، فاشتدت عليه حتى أشفق المسلمون منها؛ فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «لا تخافوا، فإنما هبَّت لموتِ عَظيم من عُظماء الكفار»[1]. فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينةَ وجد رفاعةَ بن زَيْد بن التابوت مات ذلك اليومَ الذي هبَّت فيه الرّيحُ وسِلْسلة بن بِرْهام. وكنانة بن صُورِيا.

طرد المنافقين من مسجد الرسول ﷺ

وكان هؤلاء المنافقون يحضُرون المسجدَ فيستمعون أحاديثَ المُسْلمين، ويَسْخَرون

وقع هذا البيتُ في كتاب سِيبَوَيْه[2]. وذكر الشعر والخبر بطوله ابن إسحٰق في رواية يونس عنه.

فصل: وأنشد ابنُ هشام:

لَـدمَ الـوَلِـيـد وراء الـغَـيْـبِ بـالـحَـجَـرِ

والبيت لتميم بن أَبي بـن مُقْبل، واللَّدْمُ: الضربُ، والغيب: العائر من الأرض.

باب إخراج المنافقين

وذكر ابن إسحٰق في باب إخراج المنافقين من المسجد أبا محمد، وقال: هو رجل من

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ١١٠) والبيهقي في الدلائل (٤/ ٦١).
(٢) انظر كتاب سيبويه (١/ ٢٤٢).

ويَسْتهزئون بدينهم، فاجتمع يومًا في المَسْجد منهم ناسٌ فرآهم رسولَ الله ﷺ يتحدّثون بينهم، خافضي أصواتهم، قد لَصق بعضُهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأُخْرجوا من المسجد إخراجًا عَنيفًا، فقام أبو أيُوب، خالد بن زيد بن كُلَيب، إلى عَمْرو بن قَيْس، أحدِ بني غَنْم بن مالك بن النجار ـ كان صاحبَ آلهتهم في الجاهلية فأخذ برجْله فسَحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتُخْرِجني يا أبا أيوب من مِرْبد بني ثَعْلبة، ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلى رافع بن وَديعة، أحد بني النجّار فلبَّبه بردائه ثم نَتَره نترًا شديدًا، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد، وأبو أيوب يقول له: أُفّ لك منافقًا خبيثًا: أدراجَكِ يا منافق من مَسْجد رسول الله ﷺ.

قال ابن هشام: أي ارجع من الطريق التي جئت منها. قال الشاعر:

فــولّــى وأدْبَــر أدْرَاجَــه　　　وقـد بـاء بـالـظـلْـم مـن كـان ثَـمَّ

وقام عمارة بن حَزْم إلى زَيد بن عَمْرو، وكانَ رجلاً طويلَ اللّحْية، فأخذ بِلِحْيَته فقاده بها قَوْدًا عَنِيفًا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عَمارة يَدَيْه فَلَدَمه بهما في صدره لَدْمة خَرّ منها. قال: يقول: خدَشْتني يا عمارة؛ قال: أبعدك الله يا منافق، فما أعدّ الله لك من العذاب أشدّ من ذلك، فلا تقربنّ مسجدَ رسول الله ﷺ.

قال ابن هشام: اللدم: الضرب ببَطن الكفّ. قال تميم بن أُبيّ بن مُقبل:

ولـلـفـؤاد وَجِـيـبٌ تـحـت أبْـهـره　　　لَدْمَ الوَلـيـد وراء الغَيْـب بـالـحَـجَرِ

قال ابن هشام: الغيب: ما انخفض من الأرض. والأبهر: عِرق القلب.

قال ابن إسحٰق: وقام أبو محمد، رجل من بني النجّار، كان بدريًا، وأبو محمد مسْعود بن أوْس بن زَيْد بن أصْرم بن زَيْد بن ثَعْلبة بن غَنْم بن مالك بن النجّار إلى قَيْس بن عَمْرو بن سَهْل، وكان قَيْس غلامًا شابًا، وكان لا يعلم في المُنافقين شابّ غيره، فجعل يدفع في قَفاه حتى أخْرجه من المسجد.

بني النجار، ولم يُعَرِّفه بأكثرَ من هذا، وهو: أبو محمد مسعود بن أوْس بن زيد بن أصْرم بن زيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار، يعدُّ في الشاميين، وهو الذي زعم أن الوِتْرَ واجب، فقال عُبَادة: كذب[1] أو محمد، وهو معدود في البَدْرِيِّين عند الواقدي وطائفة، ولم يذكره ابنُ إسحٰق فيهم.

---

(١) أي أخطأ.

وقام رجل من بَلْخُدرة بن الخَزْرج، رهط أبي سعيد الخُدْري، يقال له: عبد الله بن الحارث، حين أمَر رسول الله ﷺ بإخراج المنافقين من المَسْجد إلى رجل يُقال له: الحارث بن عمرو، وكان ذا جُمَّة، فأخذ بجُمَّته فسَحبه بها سحبًا عنيفًا، على ما مرّ به من الأرض، حتى أخرجه من المَسْجد. قال: يقول المنافق: لقد أغلظْت يابن الحارث؛ فقال له: إنك أهلٌ لذلك، أي عدوّ الله لما أنزل الله فيك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ، فإنك نَجَس.

وقام رجل من بني عَمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيّ بن الحارث، فأخْرجه من المسجد إخراجًا عنيفًا، وأفَّف منه، وقال: غلب عليك الشيطانُ وأمْره.

فهؤلاء مَن حضر المسجدَ يومئذٍ من المنافقين، وأمر رسولُ الله ﷺ بإخراجهم.

ما نزل من البقرة
في المنافقين ويهود ما نزل في الأحبار

ففي هؤلاء من أحْبار يهود، والمُنافقين من الأوس والخَزْرج، نزل صَدرُ سورة البقرة إلى المائة منها ـ فيما بلغني ـ والله أعلم.

يقول الله سبحانه وبحمده: ﴿الٓمٓ ذلكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾[1]، أي لا شكّ فيه[2].

قال ابن هشام: قال ساعدة بن جُؤَية الهذليّ:

فقالوا عَهدنا القومَ قد حَصَرُوا به ... فلا رَيْبَ أنْ قد كان ثَمَّ لَحِيمُ

ذكر ما أنزل الله في المنافقين

فصل: وذكر ما أنزل اللهُ في المنافقين والأحبار ومن يَهُودَ من صَدْر سورة البقرة،

---

(١) وقيل: بدأ القرآن بهذه الحروف ﴿الٓمٓ﴾ دون غيرها من بقية الحروف التي بدأت بها بعض السور، لأنها أوسط وأسهل الحروف خروجًا من الفم، وفي قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى البعيد، والبقرة هي أول سور القرآن بعد الفاتحة فكيف يأتي اسم الإشارة «ذلك» وهو للبعيد؟ قالوا: ذلك: أي ما سبق من القرآن التي نزلت قبل سورة البقرة، فهي ليست أول سور القرآن نزولاً، وقالوا: إشارة إلى الفاتحة.

(٢) فائدة: الفرق بين الريب والشك: أن الريب يكون مصحوبًا بسوء الظن بخلاف الشك.

وهذا البيت في قصيدة له، والرّيب (أيضًا): الرّيبة. قال خالد بن زُهير الهُذليّ:

كـأنـنـي أُرِيـبُـه بـرَيْـب

قال ابن هشام: ومنهم من يرويه:

كـأنـنـي أرَبْـتُـه بـرَيْـب

وهذا البيت في أبيات له. وهو ابن أخي أبي ذُؤَيب الهُذلي.

﴿هُدًى للمُتَّقينَ﴾، أي الذين يحذرون من الله عقوبتَه في تَرْك ما يَعْرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاءهم منه: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ﴾ أي يُقيمون الصلاة بفَرْضها، ويُؤْتون الزكاة احتسابًا لها: ﴿والَّذِينَ يُؤْمنُونَ بِمَا أُنزلَ إلَيْكَ وَما أُنْزِلَ منْ قَبْلكَ﴾، أي يصدّقونك بما جئتَ به من الله عزّ وجلّ، وما جاء به مَنْ قبلك من المُرْسلين، لا يفرّقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءوهم به من رَبِّهم. ﴿وبالآخرَة هُمْ يُوقِنونَ﴾ أي بالبعث والقيامة والجَنة والنار والحساب والميزان، أي هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان من قبلك، وبما جاءك من ربك ﴿أُولَئكَ على هُدًى منْ رَبِّهِمْ﴾، أي على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم ﴿وأُولَئكَ هُمُ المُفْلحُونَ﴾ أي الذين أدركوا ما طلبوا ونَجَوْا من شرّ ما منه هربوا. ﴿إنَّ

واستشهد ابنُ هشام على الرَّيب بمعنى الرِّيبة بقول خالد بن زُهَير ابن أخت أبي ذُؤيْب، واسمُ أبي ذؤيب: خُوَيْلِدُ بنُ خالدٍ، والرجز الذي استشهد ببيت منه:

يـا قـوم مـا لـي وأبـا ذُؤَيْـب ... كـنـتُ إذا أتـيـتـه مِـنْ غَـيْـبِ

يَـشُـم عَـطْـفِـي وَيَـمـسُّ ثَـوْبِـي ... كـأنـنـي أرَبْـتُـه بِـرَيْـبِ

وكان أبو ذؤيب قد اتهمه بامرأته، فلذلك، قال هذا.

وذكر ابن إسحٰق: والذين يقيمون الصلاة، وأغفل التلاوةَ: وإنما هو: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ [البقرة: ٣]. وكذلك وجدته مُنبَّهًا عليه في حاشية الشيخ: وفي الإيمان بالغيب أقوال، منها أن الغيبَ هاهنا ما بعد الموت من أمور الآخرة، ومنها: أن الغيب، القَدر، ومنها قول من قال: إن الغيب القلبُ، أي يؤمنون بقلوبهم، وقيل: يؤمنون بالغيب، أي بالله عزّ وجلّ، وأحسن ما في هذه الأقوال قول الربيع بن أَنَس، أي: يؤمنون بظَهْر الغيب، أي: ليسوا كالمنافقين الذين يؤمنون إذا لقوا الذين آمنوا ويكفرون إذا غابوا عنهم، ويُدَلُّ على صحةِ هذا التأويلِ: بسياقَةِ الكلام، مع قوله عزّ وجلّ: ﴿يخشون ربَّهم بالغيب﴾ فلا يحتمل قولُه: يخشَوْن ربَّهم بالغيب إلا تأويلاً واحدًا، فإليه يرَدُّ ما اختلف فيه.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي بما أُنزل إليك، وإن قالوا إنا قد آمنَّا بما جاءنا قبلك ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك، وجَحدوا ما أُخذ عليهم من الميثاق لك، فقد كفروا بما جاءك وبما عندهم، ممَّا جاءهم به غيرُك، فكيف يستمعون منك إنذارًا أو تحذيرًا، وقد كفروا بما عندهم من علمك. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ وعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾[1] أي عن الهدى أن يُصيبوه أبدًا، يعني بما كذّبوك به من الحقّ الذي جاءك من ربك حتى يؤمنوا به، وإن آمنوا بكلّ ما كان قبلك، ولهم بما هم عليه من خلافك عذابٌ عظيم.

فهذا في الأحبار من يهود، فيما كذّبوا به من الحقّ بعد معرفته.

وقوله سبحانه: لا رَيْبَ فيه، وقد ارتاب فيه كثير من الناس، قيل: هو على الخصوص في المؤمنين، أي لا ريب فيه عند. قال المؤلف: رَضِي اللهُ عنه: وهذا ضعيفٌ لأن التبرئةَ تعطي العمومَ، وأصح منه. أن الكَلامَ ظاهرُه الخبَر، ومعناه: النهي، أي: لا تَرْتابوا، وهذا النهي عامٌّ لا يُخصَّص، وأدق من هذا أن يكون خبرًا مَحْضًا عن القرآن، أي: ليس فيه ما يُريب، تقول: رابَنِي منك كذا وكذا، إذا رأيتَ ما تُنكِر، وليس في القرآن ما تُنْكِره العقولُ. والرَّيبُ، وإن كان مَصْدرًا فقد يُعبَّر به عن الشيء الذي يُريب، كما يُعَبَّر بالضيف عن الضائف، وبالطَّيْف عن الخيالِ الطائف، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿لِيَوم لا رَيبَ فيه﴾ فهذا خبر، لأن النهي لا يكون في موضع الصفة.

وقوله: لا رَيْبَ فيه في موضع الصفة ليوم، والحياةُ بعد الموت ليس فيه ما يُريبك، لأن من قدر على البَدْءَة، فهو على الإعادة أقدر، وليس الريب بمعنى الشَّكِّ على الإطلاق،

---

(١) فائدة: كثيرًا ما نسمع من الخطباء والوعّاظ: أن الله ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ، وما أشبه، ولفظة «ختم» من لغة القرآن إنما تأتي في حالة الذّمّ كهذه الآية في سورة البقرة وفي الجاثية، أما إذا جاءت صفة اسم مفعول «من رحيق مختوم» «ختامه مسك» فإنها تأتي في حالة المدح. فتأمل. قال الأزهري: الختم: أصله التغطية، وختم البذر في الأرض إذا غطّاه. قال أبو إسحٰق: معنى ختم وطبع في اللغة واحد، وهو التغطية عى الشيء والاستيثاق منه فلا يدخله شيء. ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق. قلت: وفي اختصاص الختم على القلب وعلى السمع دون البصر فعليه غشاوة، ذلك أن السمع إذا خُتم عليه فلا يسمع وكذلك القلم إذا خُتم عليه ـ والعياذ بالله ـ فإنه لا ينفذ إليه شيء ويصير كما تقدم صفة لازمة له، بخلاف البصر فإنه يرى فالغشاوة أولى به من الختم، والغشاوة هي الغطاء، وهذا الغطاء أي الغشاوة إنما سَرَت إلى البصر عن طريق القلب الذي خُتم أولاً.

ما نزل في منافقي الأوس والخزرج:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللَّه وَباليَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[١] يعني المنافقين من الأوس والخزرج، ومن كان على أمرهم. ﴿يُخادِعُونَ اللَّهَ والذينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، أي شكّ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، أي شكا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أليم بِمَا كانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قيلَ لَهمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[٢] أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله تعالى: ﴿ألا إنَّهمْ هُمْ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ وَإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كمَا آمَنَ النَّاسُ قالُوا أنُؤمنُ كما آمَنَ السُّفَهاءُ ألا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِنْ لا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شَياطِينِهِمْ﴾ من يهود، الذين يأمرونهم بالتكذيب بالحقّ، وخلاف ما جاء به الرسول ﴿قالُوا إنَّا مَعكُمْ﴾، أي إنا على مثل ما أنتم عليه. ﴿إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾: أي إنما نستهزىء بالقوم، ونلعب بهم. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام يَعْمُهون: يحارون. تقول العرب: رجل عَمِهٌ وعامه: أي حيران. قال رؤبة بن العَجاج يصف بلدًا:

أعمى الهُدى بالجاهلين العُمَّه

وهذا البيت في أرجوزة له. فالعُمَّه: جمع عامه؛ وأما عَمِه، فجمعه: عَمِهون. والمرأة: عمِهة وعَمْهاء.

لأنك تقول: رابني منك رائب، ولا تقول شَكَّني، بل تقول: ارتبت كما تقول شككت، فالارتِياب: قريب من الشَّكِّ.

---

(١) قوله تعالى: ﴿ومن الناس﴾ للتبعيض. وقوله تعالى: ﴿مَن يقول﴾ إنما هو مجرد قول بلا اعتقاد قلبي يصدق هذا القول وبلا عمل يصدق هذا القول، بخلاف وصف المؤمنين في الآيات الأولى من نفس السورة ﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾... الآيات. وليس فيه أنهم قالوا: آمنّا بالغيب.

(٢) وهذا هو حال المفسدون في الأرض، فهم يرفعون دائمًا شعار الإصلاح، فنقرأ في التاريخ: أن فلان هو صاحب حركة الإصلاح الزراعي، وفلان صاحب حركة الإصلاح التعليمي، وفلان صاحب حركة الإصلاح الديني، و... و... ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾.

﴿أُولَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالهُدَى﴾[1]: أي الكفر بالإيمان ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

قال ابن إسحٰق: ثم ضرب لهم مثلاً، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمات لا يُبْصِرُونَ﴾[2] أي لا يبصرون الحقّ ويقولون به حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم به ونفاقهم فيه، فتركهم الله في ظلمات الكفر فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حق: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[3]: أي لا يرجعون إلى الهدى، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْي عن الخير، لا يرجعون إلى خير ولا يصيبون نجاةً ما كانوا على ما هم عليه ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماء فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذانهمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بالكافِرِينَ﴾.

قال ابن هشام: الصَّيِّب: المطر، وهو من صاب يصُوب، مثل قولهم: السيِّد، من ساد يسود، والميِّت: من مات يموت؛ وجمعه: صَيائب. قال عَلْقمة بن عَبَدة، أحدُ بني رَبيعة بن مالك بن زيد مَناة بن تميم:

كأنهمُ صابت عليهم سَحابةٌ صواعقُها لطيرِهنّ دَبِيبُ

وفيها:

فلا تَعْدِلي بيني وبين مُغَمَّر سقَتْكَ رَوايا المُزْن حَيْثُ تَصوب

وهذان البيتان في قصيدة له.

قال ابن إسحٰق: أيِ هم من ظلمة ما هم فيه من الكفر والحذر من القتل، مِنَ الذي هم عليه من الخلاف والتخوّف لكم، على مثل ما وُصف، من الذي هو (في) ظلمة الصيِّب، يجعل أصابعَه في أُذنيه من الصواعق حَذَر الموت. يقول: والله منزل ذلك بهم

وذكر قول الله سبحانه: ﴿في قُلوبهم مَرَض﴾ وأصلُ المرض: الضعفُ وفُتور الأعضاء، وهو هاهنا ضَعْف اليقين، وفُتور القلب عن كَدِّ النظر، وعطف: فزادهم الله، وإن

---

(١) قوله تعالى: ﴿أولئك﴾ تخصيصهم بهذا الوصف، و﴿أولئك﴾ للبعيد، أي فهم البعيدون عن رحمة الله، أو في القعر البعيد من جهنم والعياذ بالله تعالى.

(٢) انظر في تفسيرها «أعلام الموقين» لابن القيم ـ الجزء الأول، والصواعق المرسلة له أيضًا. والوابل (٧٨) وشفاء العليل (٩٦) واجتماع الجيوش (١٩).

(٣) قوله تعالى: ﴿لا يرجعون﴾ في حق المنافقين، أما الكافرين فيقول عنهم «فهم لا يعقلون» فتأمل.

من النقمة، أي هو محيط بالكافرين ﴿يَكادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ﴾: أي لشدة ضوء الحقّ ﴿كُلّما أضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا﴾؛ أي يعرفون الحقّ ويتكلّمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه في الكفر قاموا متحيرين. ﴿ولَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بسَمْعهمْ وأبْصَارِهمْ﴾ أي لما تركوا من الحقّ بعد معرفته ﴿إنَّ اللَّهَ على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ للفريقين جميعًا، من الكفار والمنافقين، أي وحّدوا ربكم ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ منْ قَبْلكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكمْ الأرْضَ فِرَاشًا والسَّماءَ بِناءً وأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجعَلوا لِلَّهِ أنْدادًا وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الأنداد: الأمثال، واحدهم ندّ. قال لعبيد بن ربيعة:

أحْـمَـدُ الله فـلا نِـدَّ لـه ... بِيَدَيْه الخيرُ ما شاء فَعَلْ

وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن إسحٰق: أي لا تُشركوا بالله غيرَه من الأنداد التي لا تنفع ولا تضرّ، وأنتم تعلمون أنه لا ربّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسولُ من توحيده هو الحقّ لا شكّ فيه. ﴿وَإنْ كُنتُمْ في رَيْب ممَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدنا﴾ أي في شكّ مما جاءكم به، ﴿فَأْتُوا بسُورة مِنْ مثْله وَادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونْ اللَّه﴾ أي من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه ﴿إنْ كُنتُمْ صادقين فإن لَمْ تَفْعلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ فقد تبين لكم

كان الفعلُ لا يُعطَف على الاسم، ولا على مثل هذه الجملة، لو قلت: في الدار زيد، فأعطيته دِرْهَمًا لم يجز، ولكن لما كان في معنى قوله: في قلوبهم مرض كَمَعْنى مَرِضَت، قلوبهُم صح عطفُ الفعل عليه.

---

(١) قاعدة: من عادة القرآن أنه يتوصل بتقرير توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية، كما في الآية السابقة، فيعدّ التقرير بأن خالق السماء والأرض وخالق الناس جميعًا ومُنزِّل المطر إنما هو الربّ، ﴿فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾. أي فلا تشركوا به شيئًا وهو الذي فعل لكم وبكم كذا وكذا وكذا. وانظر أيضًا ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم﴾. . . الآية وما وليها من آيات، وانظر سورة الناس ﴿رب الناس ملك الناس إلٰه الناس﴾، وانظر سورة طه في قوله تعالى: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ الآيات.

الحقّ ﴿فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها النَّاسُ والحجارَة أُعِدَّتْ لِلْكافرينَ﴾ أي لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر.

ثم رغَّبهم وحذّرهم نقضَ الميثاق الذي أخذ عليهم لنبيِّه ﷺ إذا جاءهم، وذكر لهم بَدْء خَلْقهم حين خلقهم، وشأنَ أبيهم آدم عليه السلام وأمْرَهُ، وكيف صُنع به حين خالف عن طاعته، ثم قال: ﴿يا بَني إسرائيلَ﴾[1] للأحبار من يهود ﴿اذْكُروا نِعْمَتِيَ التي أنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بلائي عندكم وعند آبائكم، لمَّا كان نجاها به فرعون وقومه ﴿وأوفُوا بعَهْدي﴾[2] الذي أخذتُ في أعناقكم لنبِّي أحمد إذا جاءكم ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أنجز لكم ما وعدتكم على تَصْديقه واتباعه بوَضْع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم ﴿وإيَّايَ فارْهَبُونِ﴾ أي أن أُنْزل بكم ما أنزلت بمَنْ كان قبلكم من آبائكم من النِّقمات التي قد عرفتم، من المَسخ وغيره ﴿وآمِنُوا بِمَا أنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أوَّلَ كافر به﴾ وعندكم من العلم فيه ما ليس عند غيركم ﴿وَإيَّايَ فاتَّقُون وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالباطلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به، وأنتم تَجدونه عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم ﴿أتأْمُرُونَ النَّاس بالبرّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُمْ تَتْلُونَ الكتابَ أفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أتَنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوّة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكون، أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تَصْديق رسولي وتَنْقضون ميثاقي، وتَجْحدون ما تَعلمون من كتابي.

ثم عدّد عليهم أحداثهم، فذكر لهم العجلَ وما صَنعوا فيه، وتوْبته عليهم، وإقالَته إياهم، ثم قولَهم: ﴿أرِنا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وذكر قولَه سبحانه: ﴿يا بَني إسرائيلَ﴾، ووهم في التلاوة، فقال: ﴿يا أهلَ الكتابِ﴾، كما وهم في أول السورة. وبنو إسرائيل: هم بنو يَعْقُوب، وكان يسمى: إسرائيل، أي سَرِيُّ

---

(١) قوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل﴾ يعلّمنا أدب الخطاب والدعوة إلى الله تعالى بالحسنى، فعلى الرغم من كل ما صدر عن اليهود من كفر وإلحاد و... و... إلا أنه تعالى بدأ أول خطاب يوجّه إليهم في القرآن كله بقوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل﴾. ثم بعدها بقول تعالى: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وبعد نهاية السياق الموجّه إليهم نجد القول الموجّه إلى أمة النبي محمد ﷺ. ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ فكونوا دائمًا ذاكرين لي ولِنِعَمي عليكم فلا تتشبهوا باليهود الذين نسوا نِعَم الله فاحتاجوا إلى تذكير الله تعالى لهم.

(٢) العجيب أن اليهود سمّوا كتابهم «العهد القديم»، والنصارى سمّوا كتابهم «العهد الجديد» ولم يوفِّ هؤلاء بالعهد القديم، ولا هؤلاء بالعهد الجديد!!!.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: جهرة، أي ظاهرًا لنا لا شيء يستره عنَّا. قال أبو الأخْزر الحِمَّاني، واسمُه قُتيبة:

يَـجـهـر أجـوافَ الـمِـيـاه الـسُّـدُم

وهذا البيت في أرجوزة له.

يجهر: يقول: يُظهر المَاء ويَكْشف عنه ما يستره من الرمل وغيره.

قال ابن إسحٰق: وأخذَ الصاعقة إياهم عند ذلك لغرّتهم، ثم إحياءَه إياهم بعد موتهم، وتظليلَه عليهم الغمام، وإنزالَه عليهم المنّ والسَّلوى، وقوله لهم: ﴿ادْخُلُوا البابَ سجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، أي قولوا ما آمركم به أحطّ به ذنوبكم عنكم؛ وتبديلَهم ذلك من قوله استهزاءً بأمره، وإقالَته إياهم ذلكَ بعد هُزئهم[1].

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: المنّ: شيء كان يسقط في السَّحَر على شجرهم، فَيجتنبونه حُلوًا مثل العسل، فيَشْربونه ويأكلونه. قال أعشى بني قَيْس بن ثعلبة:

لو أُطعِمُوا المنَّ والسَّلوى مكانَهمُ ما أبصر الناسُ طُعما فيهمُ نجعَا

وهذا البيت في قصيدة له. والسلوى: طير؛ واحدتها: سَلْواة؛ ويقال: إنها السُّمَاني، ويقال للعسل (أيضًا): السلوى. وقال خالد بن زهير الهُذليّ:

وقـاسـمَـهـا بـاللهِ حَـقًّـا لأنـتـمُ أَلَـذُّ من الـسَّـلْـوَى إذا ما نَـشُـورهـا

وهذا البيت في قصيدة له. وحِطَّة: أي حُطَّ عنا ذُنوبَنا.

قال ابن إسحٰق: وكان من تَبْديلهم ذلك، كما حدّثني صالح بن كَيْسان عن صالح مولي التَّوْءَمة بنت أُميَّة بن خلف، عن أبي هُريرة ومن لا أتَّهم، عن ابن عبَّاس، عن

اللهِ لكن لم يُذْكروا في القراءة إلاَّ أضِيفوا إلى إسرائيل، ولم يُسَمَّوا فيه: بنو يَعْقُوبَ، ومتى، ذُكر إبراهيمُ وإسحٰق ويعقوبُ لم يُسَمَّ إسرائيل، وذلك لحكمة فُرْقَانيَّة، وهو أن القومَ لما

---

(١) في بعض كتب التفسير أنهم قالوا بدلاً من «حطة» حنطة. وقالوا: هذا هو التبديل الذي صدر منهم. وهو بعيد، إذ إنهم ما كانوا يتحدثون العربية حتى يزيدوا حرف النون هذا، بل لغتهم هي العبرية، والأرجح ما ذكره ابن إسحٰق.

رسول الله ﷺ، قال: «دَخَلُوا الباب الذي أُمروا أن يدخلوا منه سُجَّدًا يزحفون، وهم يقولون حِنط في شعير»[1].

قال ابن هشام: ويُروَى: حنطة في شعيرة:

قال ابن إسحٰق: واستسقاءَ موسى لقومه، وأمره (إياه) أن يضرب بعصاه الحَجَرَ فانفجرت لهم منه اثنتا عشرة عينًا، لكلّ سِبْط عَيْن يَشْربون منها، فد عَلم كلُّ سِبْط عينَه التي منها يشرب؛ وقولهم لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلى طعَام وَاحِد فادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَقِثَّائِها وَفُومِها﴾.

قال ابن هشام: الفُوم: الحنطة. قال أُمية بن الصلت الثَّقفي:

فوقَ شِيزَي مثلِ الجَوابي عَليها قِطَعٌ كالوذِبل في نِقْى فُومِ

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الوذيل: قطع الفضَّة والفوم: القمح؛ واحدته: فُومة. وهذا البيت في قصيدة له.

﴿وَعَدَسِها وَبَصَلِها قالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فإِنَّ لَكُمْ ما سأَلْتُمْ﴾.

قال ابن إسحٰق: فلم يفعلوا. وَرَفْعَه الطُّور فوقهم ليأخذوا ما أُوتوا؛ والمسخ الذي كان فيهم، إذ جعلهم قِردةً بأحداثهم، والبقرةَ التي أراهم الله عزّ وجلّ بها العِبرةَ في القتيلِ الذي اختلفُوا فيه، حتى بَيَّن الله لهم أمرَه، بعد التردد على موسى عليه السَّلام في صِفة البقرة؛ وقسوةَ قلوبهم بعد ذلك حتى كانت كالحجارة أو أشدّ قسوة. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ منَ الحِجارَةَ لَمَا يَتَفَجَّرُ منْهُ الأنهارُ وَإِنَّ منها لَمَا يَشقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ منها

خُوطبوا بعبادة الله، وذُكِّروا بدين أسلافِهم مَوْعِظةً لهم، وتَنْبيهًا من غفلتهم سُمُّوا بالاسم الذي فيه تَذْكِرَةٌ بالله، فإن إسرائيلَ اسمٌ مُضاف إلى الله تعالى في التأويل. ألا تَرى: كيف نَبَّه على هذا المعنى رسولُ الله ﷺ ـ حين دعا إلى الإسلام قومًا، يقال لهم: بنو عبد الله، فقال لهم: يا بني عبدِ الله، إن الله قد حَسَّن اسم أبيكم يُحرِّضهم بذلك على ما يقتضيه اسمُهم من العُبوديَّة لله، فكذلك قولُه سبحانه: يا بني إسرائيلَ إنما ورد في مَعْرِض التَّذْكِرَةِ لهم بدين

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٤٠) والقرطبي (١/ ١٤١) والترمذي (٣٩٥٦) وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٨٦).

لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[1] أي وإن من الحجارة لألْيَنُ من قُلُوبكم عمَّا تدعون إليه من الحق ﴿وَما اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال لمحمد عليه الصلاة السلام ولمن معه من المؤمنين يُؤْيسهم منهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وليس قوله يَسْمَعُونَ التَّوْرَاةَ، أن كلَّهم قد سمعها، ولكنه فريق منهم، أي خاصة.

قال ابن إسحٰق، فيما بلغني عن بعض أهلِ العلم: قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله، فأسمعنا كلامَه حين يكلِّمك، فطلب ذلك موسى عليه السلام من ربِّه، فقال له: نعم، مُرْهُم فَلْيَطَّهَّرُوا، أو ليطهروا ثيابَهم، وليصُوموا، ففعلوا. ثم خرج بهم حتى أتى بهم الطورَ؛ فلما غشيهمُ الغمام أمرهم موسى فوقعوا سُجَّدًا، وكلَّمه ربه، فسمعوا كلامه تبارك وتعالى، يأمرهم وينْهاهم، حتى عَقلوا عنه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بني إسرائيل، فلما جاءهم حرّف فريقٌ منهم ما أمرهم به، وقالوا: حين قال موسى لبَني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذي ذكر الله عزّ وجلّ: إنما قال كذا وكذا، خلافًا لما قال الله لهم، فهم الذين عنى الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا﴾، أي بصاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وإذا خلا بعضُهم إلى بعض قالوا﴾: لا تحدّثوا العربَ بهذا، فإنكم قد كنتم تَسْتفتحون به عليهم، فكان فيهم. فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالُوا أَتُحَدِّثُونَهم بِمَا فَتَحَ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُم أَفلا تَعْقلُونَ﴾[2]، أي تُقرُون بأنه نبيّ، وقد عرفتم أنه قد أُخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يُخبركم أنه النبيّ الذي كنَّا ننتظر ونجد في كتابنا؛ اجحدُوه ولا تُقرُّوا لهم

أبيهم، وعُبوديَّتهِ لله، فكان ذكرُهُم بهذا الاسم أليقَ بمقام التذكرة والتَّحْريض مِن أن يقول لهم: يا بني يعقوبَ، ولما ذكر مَوْهِبَته لإبراهيم وتبشيره بإسحٰق، ثم يعقوبَ كان لفظُ

---

(١) يشير تعالى إلى ما رآه اليهود من تفجّر الماء من الحجر اثنتي عشرة عينًا، وإلى الجبل الذي هبط ودُكَّ من خشية الله تعالى.

(٢) غباء يهودي وفكر عَفِن، كأنهم إذا لم يتحدثوا فإن الله لا يقيم عليهم الحجة يوم القيامة!!!. ولذلك عقب تعالى بقوله: ﴿أولاَ يعلمون أن الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾. وتأمل قول بعضهم لبعض: ﴿أفلا تعقلون﴾. هذا هو العقل اليهودي!!!.

به. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ وَمِنْهُم أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتابَ إلاّ أَمانِيَّ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام، عن أبي عُبيدة: إلا أمانيّ: إلا قراءة، لأن الأميّ: الذي يقرأ ولا يكتب. يقول: لا يعلمون الكتاب إلا (أنهم) يقرؤونه.

قال ابن هشام: عن أبي عُبيدة ويونس أنهما تأوّلا ذلك عن العرب في قول الله عزّ وجلّ، حدّثني أبو عبيدة بذلك.

قال ابن هشام: وحدّثني يونس بن حَبيب النحوي وأبو عُبيدة: أنَّ العرب تقول: تمنى، في معنى قرأ. وفي كتاب الله تبارك وتعالى:

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبيّ إلاّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

قال: وأنشدني أبو عُبيدة النحويّ:

تَمَنَّى كِتابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِه ... وآخِرَهُ وافَى حِمامُ المَقادِرِ

وأنشدني أيضًا:

تَمَنَّى كتابَ الله في اللَّيلِ خالِيًا ... تَمَنِّيَ داودَ الزَّبورَ على رِسْلِ

وواحدة الأماني: أُمنيَّة. والأماني (أيضًا): أن يتمنى الرجلُ المال أو غيره[1].

قال ابن إسحٰق: ﴿وَإِنْ هُمْ إلاّ يَظُنونَ﴾: أي لا يعلمون الكتاب ولا يَدْرون ما فيه، وهم يَجحدون نُبوّتَك بالظنّ. ﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلاّ أيّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عَنْدَ اللَّهِ عِهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ على اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

دعوى اليهود قلة العذاب في الآخرة ورد الله عليهم:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني مولى لزيد بن ثابت عن عَكْرمة، أو عن سَعيد بن جُبير، عن ابن عبَّاس، قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينةَ واليهود تقول: إنما مدّةُ الدنيا سبعة

يعقوب أولى بذلك المقام، لأنها مَوْهِبة بعَقِب أخرى، ويُشْرى عقب بها بُشرى وإن كان اسمُ يعقوب عِبْرانِيًا، ولكن لفظَه موافقٌ للعربي في العِقب والتعقيب، فانظر مُشَاكَلة الاسمين

---

(١) وهذا هو حال كثير من المسلمين اليوم، لا يعلمون الكتاب إلا أماني، مجرد أوهام وخيالات وتمنّي على الله تعالى، والقلب فاسد والعقل خرب، والعمل كفر وشرك. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

آلاف سنة، وإنما يُعذّب الله الناسَ في النار بكلّ ألف سنة من أيام الدنيا يومًا واحدًا في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعةُ أيام ثم ينقطع العذاب. فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنا النَّارُ إلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتم عَنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ على اللَّه ما لا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي من عملٍ بمثل أعمالكم، وكَفر بمثل ما كفرتم به، يحيط كفره بما له عند الله من حسنة ﴿فأُولَئِكَ أَصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالدونَ﴾ أي خُلْد أبدًا. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ أَصحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدونَ﴾: أي من آمن بما كفرتم به، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها، يُخبرهم أن الثواب بالخير والشرَّ مقيمٌ على أهله أبدًا، لا انقطاع له.

قال ابن إسحٰق: ثم قال: (الله عزّ وجلّ) يؤنبهم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي ميثاقكم ﴿لا تَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ وَبالوَالِدَيْنِ إحْسانًا وَذِي القُرْبى وَاليَتامى وَالمَساكِينِ وَقُولُوا للنَّاس حُسْنًا، وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مَنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي تركتم ذلك كله ليس بالتنقُّص. ﴿وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكونَ دِماءَكُمْ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: تسفكون: تصبُّون. تقول العرب: سَفك دمَه، أي صبَّه، وسفك الزقّ، أي هَراقه. قال الشاعر:

وكنَّا إذا ما الضيفُ حلّ بأرضنا سفكنا دِماء البُدْن في تُرْبة الحالِ

قال ابن هشام: يعني «بالحال»: الطين الذي يخالطه الرمل، وهو الذي تقول له العرب: السَّهلة. وقد جاء في الحديث: أن جبريل لما قال فرعون: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلٰه إلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ أخذ من حال البحر ﴿وحَمأته﴾ فضرب به وجهَ فرعون. (والحال: مثل الحمأة).

قال ابن إسحٰق: ﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أن هذا حقّ من ميثاقي عليكم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مَنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرونَ عَلَيْهِمْ بالإِثْمِ والعُدْوَانِ﴾ أي أهلِ الشرك، حتى يسفكوا دماءهم معهم، ويخرجوهم من ديارهم معَ هم ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارَى تُفادُوهُمْ﴾ وقد عرفتم أن ذلك عليكم في دينكم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ﴾: في كتابكم ﴿إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

للمقامين، فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن وبلاغة ألفاظه وتنزيل الكلام في منازله اللائقة به.

الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1]، (أي) أتفادونهم مؤمنين بذلك، وتخرجونهم كفارًا بذلك. ﴿فَمَا جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزيٌ فِي الحَياةِ الدنيا وَيَوْمَ القِيامَة يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذاب وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الحَياةَ الدُّنْيا بالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنهُمُ العَذَابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ فأنّبهم الله عزّ وجلّ بذلك مِن فِعْلهم، وقد حرّم عليهم في التوراة سفكَ دِمَائهم، وافترضَ عليهم فيها فِدَاء أسراهم.

فكانوا فريقين، منهم بنو قَيْنُقاع ولَفُّهم، حلفاء الخزرج، والنَّضيرُ وقُريظة ولفُّهم، حلفاء الأوس. فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حربٌ خرجت بنو قَيْنُقاع مع الخزرج وخرجت النضيرُ وقُريظة مع الأوس يُظاهر كلٌّ واحِد من الفريقين حلفاءَه على إخوانه، حتى يَتسافكوا دماءهم بينهم وبأيْدِيهم التورةُ يَعْرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهلُ شِرْكَ يَعبدون الأوثان. لا يعرفون جنَّةً ولا نارًا، ولا بعثًا ولا قيامة، ولا كتابًا، ولا حلالاً ولا حرامًا، فإذا وضعت الحربُ أوزارها افتَدوا أُساراهم تصديقًا لما في التوراة، وأخذ به بعضُهم من بعض، يَفْتدي بنو قَيْنُقاع مَنْ كان من أسْراهم في أيدي الأوس وتَفْتدي النَّضِير وقُريظة ما في أيدي الخَزْرج منهم ويُطِلُّون ما أصابوا من الدماء، وقَتْلى من قُتِلوا منهم فيما بينهم، مُظاهرةً لأهل الشرك عليهم. يقول الله تعالى حين أنّبهم بذلك: ﴿أَفَتؤْمِنُون بِبَعْضِ الكِتابِ وتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، أي تُفاديه بحُكم التوراة وتقتُله، وفي حكم التوراة أن لا تفعل، تقتله وتُخْرِجه من داره وتُظاهر عليه من يُشْرك بالله، ويَعْبد الأوثان من دونه، ابتغاءَ عرض الدنيا. ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج. فيما بلغني. نزلت هذه القصة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بالرُّسُلُ وآتَيْنا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّناتِ﴾، أي الآيات التي وضعت على يديه، من إحياء الموتى، وخَلْقه من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذْنِ الله، وإبراء الأسقام، والخَبر بكثير من الغيوب مما يَدَّخرون في بيوتهم، وما ردّ عليهم من التوراة مع الإنجيل، الذي أحدث الله إليه.

....

---

(١) وهذا هو حال كثير من المسلمين اليوم، آمنوا بآية الزكاة وكفروا بآية تحريم الربا، آمنوا بآية الصوم وكفروا بآية الصلاة، آمنوا بآية الحج وكفروا بآية تحريم الخمر، آمنوا ببعض الشعائر وكفروا بآية الشرائع، تجد اللافتات وقد عُلِّقَ عليها ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم﴾... الآية ولا تجد لافتة عليها ﴿ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾. أظهروا بعض الكتاب وأخفوا البعض. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم ذكر كُفرهم بذلك كله، فقال: ﴿أفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقا تَقْتُلُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾: في أكنة[1]: يقول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكافِرِينَ﴾.

قال ابن إسحٰق: حدّثني عاصم بن عُمر بن قَتادة عن أشياخ[2] من قومه، قال: قالوا: فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة، كنّا قد عَلَوْناهم ظَهْرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب فكانوا يقولون لنا: إن نبيّا يبعث الآن نتبعه قد أظلّ زمانه، نقتلكم معه قتلَ عاد وإرم. فلما بَعث الله رسولَه ﷺ من قُرَيش فاتبعناه كفروا به. يقول الله: ﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ على الكافِرِينَ بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾، أي أنْ جَعله في غيرهم: ﴿فباؤوا بغَضَبٍ على غَضب وللكافِرِينَ عَذَابٌ مَهِينٌ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: فباؤوا بغضب: أي اعترفوا به واحتملوه. قال أعشى بني قيس بن ثعلبة:

أُصالِحكم حتى تبوؤوا بمثلها كَصرخة حُبْلَى يَسَّرتها قَبِيلُها

قال ابن هشام: يسَّرتها: أجلستها للولادة. وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن إسحٰق: فالغضب على الغضب لغَضبه عليهم فيما كانوا ضيَّعوا من التوراة، وهي معهم، وغضبٌ بكُفرهم بهذا النبي ﷺ الذي أحدث الله إليهم.

ثم أنّبهم برَفْع الطُّور عليهم، واتخاذهم العِجْل إلٰهًا دون ربهم، يقول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكْذَبُ عند الله، فأبَوْا ذلك

---

(١) غلف: أي على قلوبنا غشاوة فهي أوعية فلا تعي ولا تفقه ما تقول. انظر شفاء العليل لابن القيم (٤٣) رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه الله عنّا كل خير.

(٢) مجاهيل.

على رسول الله ﷺ. يقول الله جلّ ثناؤه لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي بعِلْمهم بما عِنْدهم من العِلْم بك، والكفر بذلك، فيقال: لو تمَنَّوه يومَ قال ذلك لهم ما بقي على وجه الأرض يهوديّ إلا مات. ثم ذكر رغبتهم في الحياة الدنيا وطول العُمْر، فقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ اليهود ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾[1]، أي ما هو بمُنَجيه من العذاب، وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت، فهو يحبّ طول الحياة، وأن اليهوديّ قد عرف ماله في الآخرة من الخِزْي بما ضيَّع ممَّا عنده من العلم. ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

سؤال اليهود الرسول، وإجابته لهم عليه الصلاة والسلام:

قال ابن إسحٰق: حدّثني عبدُ الله بن (عبد) الرحمٰن بن أبي حُسين المكيّ عن شَهْر بن حَوْشب الأشعري[2]: أن نفرًا من أحبار يهود جاؤوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ، فإن فعلتَ ذلك اتبعناك وصدّقناك وآمنّا بك. قال: فقال لهم رسولُ الله ﷺ: عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقُه لئن أنا أخبرتُكم بذلك لتصدُقنّني؟ قالوا: نعم، قال: فاسألوا عمَّا بدا لكم، قالوا: فأخْبِرْنا كيف يشبه الولد أمَّه، وإنما النُّطفة من الرجل؟ قال: فقال لهم رسولُ الله ﷺ: أُنشدكم بالله وبأيّامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نُطْفَةَ الرجل بيضاءُ غليظة، ونطفَة المرأة صفراءُ رقيقة، فأيّتهما عَلَتْ صاحبتَها كان لها الشبهُ؟ قالوا: اللهم نعم. قالوا: فأخْبرنا كيف نومك؟ فقال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لستُ به تنام عينُه وقلبُه يقظان؟ فقالوا: اللهم نعم، قال: فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان. قالوا: فأخبرنا عمَّا حرَّم إسرائيلُ على نفسه؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحبّ الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحُومها، وأنه اشتكى شكوى، فعافاه الله منها، فحرّم على نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه شكرًا لله، فحرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؟ قالوا: اللهمّ نعم. قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمونه جِبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهمّ نعم، ولكنه يا محمد لنا

....

(١) ويبدو أن الكلمة الرائدة على ألسنة كثير من الناس عند التهنئة من بعض المناسبات قولهم: «عقبال ألف سنة» أصلها هذا التمني لدى اليهود. والله أعلى وأعلم.

(٢) شهر بن حوشب: ضعيف الحديث.

عدوّ، وهو مَلَك، إنما يأتي بالشدَّة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿قُلْ مَن كانَ عَدُوًّا لجبريل فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بينَ يَدَيْه وَهُدًى وبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . . . إلى قوله تعالى: ﴿أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَه فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ولَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ﴾، أي السحر ﴿وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾.

إنكار اليهود نبوة سليمان بن داود عليه السلام ورد الله عليهم[1]:

قال ابن إسحٰق: وذلك أن رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ لما ذكر سليمان بن داود في المرسلين، قال بعضُ أحبارهم: ألا تعجبون من محمد، يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًا، والله ما كان إلا ساحرًا. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَلكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا﴾، أي باتباعهم السحر وعَملهم به. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ﴾.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني بعضُ من لا أتهم عن عِكْرمة، عن ابن عبَّاس، أنه كان يقول: الذي حرّم إسرائيل على نفسه زائدتا الكَبد والكُلْيتان والشحم، إلا ما كان على الظَّهْر، فإن ذلك كان يُقَرَّب للقُربان، فتأكله النار.

كتابه ﷺ إلى يهود خيبر:

قال ابن إسحٰق: وكتب رسول الله ﷺ إلى يهود خَيْبر، فيما حدّثني مولى لآل زيد بن ثابتٍ عن عِكرمة أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسولِ الله ﷺ، صاحبِ مُوسى وأخيه، والمصّدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وإنكم لتَجدون ذلك في كتابكم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رَحَماءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود ذلكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطأَهُ فآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى عَلَى

....

(١) بالأصل: «إنكار اليهود نبوة داود عليهم السلام. . .» وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه.

سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وإني أنشدكم بالله، وأُنشدكم بما أنزل عليكم، وأُنشدكم بالذي أطْعم مَنْ كان قبلكم من أسْباطكم المنَّ والسَّلْوَى، وأنشدكم بالذي أيْبس البحرَ لآبائكم حتى أنجاهم من فِرْعون وعَمله، إلا أخبرتموني: هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كُرْه عليكم. ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ ـ فأدعوكم إلى الله وإلى نبيِّه».

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: شطؤه: فراخه، وواحدته: شطأة. تقول العرب: قد أشطأ الزرع إذا أخرج فِراخَه. وآزره: عاونه، فصار الذي قبله مثلَ الأمهات. قال امرؤ القيس بن حُجْر الكِنديّ:

بِمَحْنِيةٍ قد آزر الضَّالَ نَبْتُها　　　مَجَرَّ جُيوش غانمين وخُيَّبِ

وهذا البيت في قصيدة له. وقال حُميد بن مالك الأرْقطُ، أحد بني رَبيعة بن مالك بن زيد مَناة:

زَرْعا وَقَضْبا مُؤْزَرَ النَّباتِ

وهذا البيت في أرجوزة له. وسوقه غير مهموز جمع ساق، لساق الشجرة.

ما نزل في أبي ياسر وأخيه

قال ابن إسحٰق: وكان ممن نزل فيه القرآن، بخاصة من الأحبار وكُفَّار يهود، الذي كانوا يسألونه ويتعنَّتُونه ليلبسوا الحقّ بالباطل ـ فيما ذُكِر لي عن عبد الله بن عبَّاس وجابر بن عبد الله بن رئاب ـ أن أبا ياسر بن أخْطب مرّ برسولِ الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة البقرة: ﴿الٓمٓ ذلكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾، فأتى أخاهُ حُيَيّ بن أخْطب في رجال من

حديث أبي ياسر بن أخطب

فصل: وذكر ابنُ إسحٰق حديثَ أبي ياسر بن أخطب وأخيه حيي بن أخطب حين سمعا «الٓمٓصٓ» ونحوها من الحروف، وأنهم أخذوا تأويلها من حروف أَبْجَد إلى قوله: لعله قد جمع لمحمد وأمته هذا كله. قال المؤلف: وهذا القول من أحبار يَهُودَ، وما تأوَّلوه من معاني هذه الحروف محتمل، حتى الآن أن يكون من بعضِ ما دلت عليه هذه الحروف

يهود، فقال: تعلَّموا والله، لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل عليه: ﴿الٓمٓ ذلك الكتاب﴾، فقالوا: أنت سمعتَه؟ فقال: نعم، فمشى حُييّ بن أَخْطب في أولئك النَّفر من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: يا محمد، ألم يُذْكر لنا أنك تتلو فيما أنزل إليك: ﴿الٓمٓ ذلكَ الكتابُ﴾؟ فقال رسولُ الله ﷺ: بلى، قالوا: أجاءك بها جبريل من عند الله؟ فقال: نعم، قالوا: لقد بَث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بيَّن لنبيّ منهم ما مدّة ملكه، وما أُكْل أمَّته غيرك، فقال حُييُّ بن أخطب، وأقبل على من معه، فقال لهم: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين إنما مُدّة مُلْكه وأُكْل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال: ﴿الٓمٓصٓ﴾. قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه إحدى وستُّون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمّد غيره؟ قال: نعم ﴿الٓر﴾ قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف

المقطَّعة، فإن رسول الله - ﷺ - لم يكذبهم فيما قالوا من ذلك، ولا صدقهم[1]. وقال في حديث آخر: «لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتاب، ولا تُكَذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وبرسوله»[2]. وإذا كان في حَدِّ الاحتمال وَجَب أن يُفْحَصَ عنه في الشريعة هل يُشير إلى صحته كتابٌ أو سُنَّة، فوجدنا في التنزيل ﴿وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تَعُدُّون﴾ ووجدنا في حديث زَمْلٍ الخُزَاعِي حين قص على رسول الله - ﷺ - رُؤْيا، وقال فيها: رأيتك يا رسول الله على منبرٍ له سبعُ درجات، وإلى جنبه ناقة عَجْفَاء، كأنك تبعثها، ففسر له النبيُّ ﷺ الناقةَ بقيام الساعة التي أنذر بها، وقال في المِنبر: ودرجاته الدنيا: سبعةُ آلاف سنةٍ بعثت في آخرِها ألفًا، والحديث وإن كان ضَعيفَ الإسناد، فقد رُوِيَ موقوفًا على ابنِ عباس من طُرِق صِحَاحٍ، أنه قال: «الدنيا سبعةُ أيام كل يوم ألف سنة، وبعث رسول الله - ﷺ - في آخر يوم منها. وقد مضت منه سنون، أو قال: مِئُون[3]، وصحح أبو جعفر الطبري هذا الأصلَ، وعضده بآثار، وذكر قول رسول الله - ﷺ - «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين، وإنما سَبَقْتُها بما سبقت هذه هذه»[4]، يعني: الوسطى والسَّبَّابة، وأورد هذا الحديث من طرق كثيرة صححها وأورد منها

---

(١) لا صحة لهذا التأويل اليهودي.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٢٣٧) والبيهقي (١٠/ ١٦٣) ومن الصفات له (٢٧٠) بتحقيقي. والحديث فيما لا يخالف عقيدة المسلمين المتلقاة عن كتاب الله تعالى وسُنّة نبيه ﷺ «الصحيحة».

(٣) «موضوع». انظر ابن الجوزي من اللآلىء (٢/ ٢٣٦) وتذكرة الموضوعات للفتن (٢٢٤) وأخرجه أبو نعيم في تاريخ جرجان (١٤٠).

(٤) تقدم تخريجه.

واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتان، هل مع هذا غيره يا محمّد؟ قال: نعم ﴿الـمَـرَ﴾. قال: هذه والله أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة، ثم قال: لقد لُبِّس علينا أمْرك يا محمّد، حتى ما نَدْري أقليلاً أُعطيت أم كثيرًا؟ ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حُيَيّ بن أخْطب ولمن معه من الأحبار: ما يُدريكم لعلَّه قد جُمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستُّون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا أمرُه. فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾[1].

قال ابن إسحٰق: وقد سمعت من لا أتهم من أهل العِلْم يذكر: أن هؤلاء الآيات إنما أُنزلن في أهل نَجْران، حين قَدِموا على رسول الله ﷺ يسألونه عن عيسى ابن مَرْيَم عليه السلام.

قوله عليه السلام: «لن يُعْجِز الله أنْ يؤخِّر هذه الأمةَ نصفَ يوم»[2]، يعني: خمسمائة عام، وقد خرَّج، هذا الحديث الأخير أبو داود أيضًا. قال الطبري: وهذا في معنى ما قبله يشهد له ويبينه فإن الوُسطى تزيد على السَّبَّابة بنصف سُبْعِ أصْبَع، كما أن نصف يوم من سبعة نِصف سبع. قال المؤلف: وقد مضت الخمسمائة من وفاته إلى اليوم بنَيِّفٍ عليها، وليس في قوله: لن يُعْجِزَ الله أن يؤخِّر هذه الأمة نصفَ يوم ما ينفي الزيادة على النصف، ولا في قوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» ما يقطع به على صحة تأويله، فقد قيل في تأويله غير هذا، وهو أن ليس بينه وبين الساعة نبي غيره، ولا شرع غير شرعه مع التقريب لحينها، كما قال سبحانه: ﴿اقْتَرَبَتِ الساعةُ وانشق القمر﴾، ﴿وأتى أمرُ الله فلا تَسْتَعجِلوه﴾ ولكن إذا قلنا: إنه ـ عليه السلام ـ بُعِث في الألف الآخر بعدما مضت منه سنون، ونظرنا بعدُ إلى الحروف المقطَّعة في أوائل السور، وجدناها أربعةَ عَشَرَ حرفًا يجمعها: قولك:

ألـم يـسـطـع نـص حـق كـره[3]

ثم نأخذ العدد على حساب أبي جادٍ، فنجد: ق مائة، و: ر مائتين، و: س ثلاثمائة، فهذه ستمائة، و: ع سبعين، و: ص ستين، فهذه سبعمائة وثلاثون، و: ن خمسين، و: ك

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٥٧) الطبري (١/ ٢٠٧).
(٢) «صحيح». أخرجه أبو داود (٤٣٤٩) بتحقيقي. والحاكم (٤/ ٤٢٤) والطبري في تاريخه (١/ ١٨).
(٣) ويجمعها قولك: «نص قاطع حكيم له سر».

قال ابن إسحٰق: وقد حدّثني محمّد بن أبي أُمامة بن سَهْل بن حُنيف، أنه قد سمع: أن هؤلاء الآيات إنما أُنزلن في نَفر من يهود، ولم يُفسِّر ذلك لي. فالله أعلم أيّ ذلك كان.

كفر اليهود به ﷺ بعد استفتاحهم به وما نزل في ذلك:

قال ابن إسحٰق: وكان فيما بلغني عن عِكْرمة مولى ابن عَبَّاس، أو عن سعيد بن جُبير، عن ابن عَبَّاس: أن يهود كانوا يَسْتفتحون على الأوس والخَزْرج برسول الله ﷺ قبل مَبْعثه، فلما بَعثه الله من العَرب كفروا به، وجَحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم مُعاذ بن جَبل، وبِشْر بن البَرّاء بن مَعْرور، أخو بني سَلمة: يا مَعْشر يَهود، اتقوا الله وأسْلموا، فقد كنتم تَستفتحون علينا بمحمد ونحن أهلُ شِرْك، وتُخْبِروننا أنه مبعوث، وتَصِفونه لنا بصفته، فقال سَلام بن مِشْكم، أحد بني النَّضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنَّا نذكره لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِن عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ على الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ على الكافِرِينَ﴾.

ما نزل في نكران مالك بن الصيف العهد إليهم بالنبي:

قال ابن إسحٰق: وقال مالك بن الصَّيف، حين بُعث رسولُ الله ﷺ، وذكر لهم ما أُخذ عليهم له من الميثاق، وما عَهِد الله إليهم فيه: والله ما عُهد إلينا في محمد عهد، وما أُخِذ له علينا من ميثاق. فأنزل الله فيه: ﴿أَوَ كُلَّما عاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مَنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمنونَ﴾[1].

عشرين، فهذه ثمانمائة، و: م أربعين، و: ل ثلاثين، فهذه ثمانمائة وسبعون، و: ي عشرة. و: ط تسعة، و: أ واحد، فهذه ثمانمائة وتسعون، و: ح ثمانية، و: هـ خمسة، فهذه تسعمائة وثلاثة، ولم يُسَمِّ الله سبحانه في أوائل السور إلا هذه الحروف، فليس يبعد أن يكون من بعض مُقْتَضَياتها وبعض فوائدها الإشارةُ إلى هذا العدد من السنين لما قدمناه في حديث الألف السابع الذي بعث فيه عليه السلام، غير أن الحسابَ محتمل أن يكون من مبعثه، أو من وفاته، أو من هجرته، وكُلٌّ قريبٌ بعضُه من بعض، فقد جاء أشراطُها، ولكن

---

(١) دعوة إلى حكام وملوك وساسة هذا الزمان أن يتعلموا من القرآن مع مَن يتعاملون، وإلى مَن يجلسون، ومع أي عقول يتحاورون، إلى الذين يعقدون مؤامرات أو مؤتمرات السلام مع اليهود: اقرؤوا هذه الآيةِ جيدًا وضعوها نصب أعينكم.

ما نزل في قول أبي صلوبا: «ما جئتنا بشيء نعرفه»:

وقال أبو صَلُوبا الفطْيوني لرسول الله ﷺ: يا محمّد، ما جئْتَنا بشيء نَعْرفه، وما أنْزل الله عليك من آية فنتَّبعك لها. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إلاَّ الفاسِقُونَ﴾.

ما نزل في قول ابن حريملة ووهب:

وقال رافع بن حُريملة، ووَهْب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمّد، ائتِنا بكتاب تُنَزِّله علينا من السماء نقرؤه، وفَجِّر لنا أنهارًا نتبعك ونصدّقك. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: سواء السبيل: وسط السبيل. قال حسّان بن ثابت:

يا وَيْحَ أنْصار النبيّ ورَهْطِه ... بعد المُغَيَّب في سَواء المُلْحَدِ

وهذا البيت في قصيدة له سأذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

ما نزل في صد حُيي وأخيه الناس عن الإسلام:

قال ابن إسحٰق: وكان حُييّ بن أخْطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب، من أشدّ يهود للعَرب حسدًا، إذ خصّهم الله تعالى برسوله ﷺ، وكانا جاهدَيْن في ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُودُّنَكُمْ مِن

لا تأتيكم إلا بَغْتَةً[1]، وقد روي أن المتوكل العباسي سأل جعفرَ بن عبدِ الواحد القاضي، وهو عباسي أيضًا: عما بقي من الدنيا، فحدّثه بحديث يرفعه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إن أحسنتْ أمتي، فبقاؤها يومٌ من أيام الآخرة، وذلك ألف سنة، وإن أساءت، فنصفُ يوم»[2]، ففي هذا الحديث تتميم للحديث المتقدم وبيان له؛ إذ قد انقضت الخمسمائة، والأمة باقية والحمد لله.

---

(١) لا صحة لهذا التأويل البعيد جدًا عن الصحة من تفسير الآيات بالحروف، وأصل هذا عند اليهود كما تقدم. فانتبه.

(٢) «ضعيف». انظر الفتح (١١/ ٣٥١).

بَعد إيمانكم كُفارًا حَسَدًا من عند أنفسهم مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فاعفُوا وَاصْفَحُوا حتى يَأْتِيَ اللَّهُ بأَمْرِهِ إنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تنازع اليهود والنصارى عند الرسول ﷺ:

قال ابن إسحٰق: ولمَّا قَدِم أهلُ نَجران من النَّصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبارُ يهود، فتَنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حُريملة: ما أنتم على شيء، وكَفَر بعيسى وبالإنجيل، فقال رجلٌ من أهل نجْران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة مُوسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿وَقالَتِ اليَهُودِ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ اليَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتابَ كَذَلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامةِ فِيما كانوا فيه يَخْتَلِفُونَ﴾، أي كلّ يتلو في كتابه تصديق ما كفر به، أي يكفر اليهودُ بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى عليه السلام بالتصديق بعيسى عليه السلام، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى عليه السلام، من تصديق موسى عليه السلام، وما جاء به من التوراة من عند الله، وكلّ يكفر بما في يد صاحبه.

ما نزل في طلب ابن حريملة أن يكلمه الله:

قال ابن إسحٰق: وقال رافعُ بن حُريملة لرسول الله ﷺ: يا محمّد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فلْيكلِّمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله تعالى في ذلك من قوله: ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كذَلكَ قال الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

معاني الحروف في أوائل السور:

فصل: ولهذه الحروف في أوائل السور معانٍ جَمَّةٌ وفوائد لطيفة، وما كان الله تعالى ليُنَزِّل في الكتابِ ما لا فائدة فيه، ولا ليخاطب نبيَّه وذوي ألبابٍ من صحبه بما لا يفهمون، وقد أنزله بيانًا للناس، وشفاءً لما في الصدور، ففي تخصيصه هذه الحروف الأربعةَ عَشَرَ بالذكر دون غيرها حكمةٌ بل حِكَمٌ، وفي إنزالها مُقطَّعة على هيئة التَّهجّي فوائدُ علمية وفقهية، وفي تخصيصه إياها بأوائل السور، وفي أن كانت في بعض السُّورِ، دون بعضٍ فوائدُ أيضًا، وفي اقتران الألف باللام، وتقدمها عليها معانٍ وفوائدُ، وفي إرداف الألف واللام بالميم تارةً، وبالراء أخرى، ولا توجد الألف، واللام في أوائل السور، إلا هكذا مع تكررها ثلاثَ عَشْرةَ مرة فوائدُ أيضًا، وفي إنزال الكاف قبل الهاء، والهاء قبل الياء ثم العين ثم الصاد من «كٓهيعٓصٓ» معانٍ أكثرُها تنبّه عليها آياتٌ من الكتاب، وتبين المرادَ بها لمن تدبَّرها.

ما نزل في سؤال ابن صوريا للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يتهود:

وقال عبد الله بن صُوريا الأعور الفِطْيوني لرسول الله ﷺ: ما الهُدَى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمّد تُهْد، وقالت النصارى مثل ذلك. فأنزل الله تعالى في ذلك من قول عبد الله بن صُوريا وما قالت النصارى: ﴿وَقالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. ثم القصة إلى قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

مقالة اليهود عند صرف القبلة إلى الكعبة

قال ابن إسحٰق: ولما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصُرفت في رجب على رأس سبعةَ عشرَ شهرًا من مَقْدم رسول الله ﷺ المدينة؛ أتى رسولَ الله ﷺ رِفَاعةُ بنُ قيس، وقَرْدَم بن عمرو، وكَعْبُ بن الأشرف، ورافعُ بن أبي رافع، والحجَّاجُ بن عمرو، حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق، فقالوا: يا محمد، ما وَلاَّك عن قبْلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبْلتك التي كنتَ عليها نَتَّبعك ونصدّقك، وإنما يريدون

والتدبُّرُ والتذكر واجبٌ على أولي الألباب، والخوضُ في إيراد هذه المعاني، والقَصدُ لإيضاح ما لاح لي عند الفكر والنظر فيها، مع إيراد الشواهد على ذلك من كتاب وأثرٍ وعربية ونظرٍ يُخرجنا عن مقصود الكتاب وينأى بنا عن موضوعِه والمراد به، ويقتضي إفرادَ جزء أشرح ما أمكن من ذلك، ولعله أن يكون، إن ساعد القدر؛ والله المستعان، وهو ولي التوفيق، لا شريك له[2].

ذكر تحويل القبلة

فصل: وذكر تحويلَ القبلة، وما قالته جماعةُ يَهُودَ حين قالوا: يا محمد ما وَلاَّك عن قبلتك، وهم السفهاء من الناس، فيهم نزلت هذه الآية. وقال: سيقول بلفظ الاستقبال لتقدم العلم القديم بأنهم سيقولون ذلك، أي: لم آمركم بتحويلها إلا وقد علمت أن سيقولون ما

---

(١) أي قالت اليهود: كونوا هودًا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. وليس المراد التخيير.

(٢) وقالوا في تفسيرها: إنها للإعجاز والتحدّي، أي: إن هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ إنما هو مكوّن من نفس هذه الحروف التي برعتم أنتم أيها العرب فيها. أي في العربية، وقالوا: معناها أن نقول: الله أعلم بما أراد بها.

بذلك فتنَته عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كانُوا عَلَيْها قُلْ لِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم وكَذَلِكَ جَعَلْناكمْ أُمَّةً وَسَطًا لتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَما جَعَلْنا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عَلَيْها إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي ابتلاء واختبارًا ﴿وَإِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي من الفتن: أي الذين ثبَّت الله ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي إيمانكم بالقبلة الأولى، وتصديقكم نبيكم، واتباعكم إياه إلى القبلة الآخرة، وطاعتكم نبيَّكم فيها: أي ليُعطينكم أجرهما جميعًا ﴿إِنَّ اللَّهَ بالنَّاس لرؤوف رَحِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيثُ ما كُنْتُمْ فَوَلّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: شطره: نحوه وقصده. قال عمرو بن أحمر الباهلي ـ وباهلة بن يَعْصر بن سعد بن قيس بن عيلان ـ يصف ناقة له.

تعدو بنا شَطْر جَمْع وهي عاقدةٌ   قد كارَبَ العَقْدُ من إيفادها الحَقَبا

وهذا البيت في قصيدة له.

قالوه، وقد ذكرنا في حديث الهجرةِ، قصة البَرَاءِ بن مَعْرور فوائدَ في معنى تحويل القبلة، فلتنظر هنالك وأنشد في تفسير الشطر بيت ابن أحمر:

تَعْدو بنا شَطْرَ جَمْعٍ وهي عاقِدَةٌ   قد قارب العَقْدُ من إيفادِها الحَقَبَا

وألفيتُ في حاشية الشيخ على هذا البيت ما هذا نصه، قال من إيفادها: من إشرافها، كذا قال محمد بن عبد الله البَرْقِيُّ، وقال: كَارَبَ موضعَ قَارَبَ، ووقع في شعر ابن أحمر:

تَعْدو بنا عُرْضَ جَمْعٍ وهي مُوفِدَةٌ   قد قارب الغَرْضُ من إيفادِها الحَقَبَا

تعدو: من العَدْو بنا وبرحلي: يعني غلامه. عُرْضَ جَمْع: يعني مكة، وعَرْضَ أحب إلي، وعُرْض: كثرة الناس، عن الأصمعي، ومُوفِدةٌ، أي: مشرفة. أوفد: إذا أشرف، وروى غيره: وهي عاقدة، يريد عنقها لاويتها والغَرْضُ: البِطَانُ وهو حزام الرَّحْل. من إيفادها، أي إشرافها، وقد اقتادت: نصبت عُنَقَها وعَصَرَت بذَنبها وتخامَصَت ببطنها فقرب كلُّ واحد من

وقال قيس بن خُويلد الهُذليّ يصف ناقته:

إن النَّعوسَ بها داءٌ مُخامِرها فشَطْرَها نَظَرُ العَيْنين مَحْسُورُ

وهذا البيت في أبيات له.

قال ابن هشام: والنَّعُوسُ: ناقته، وكان بها داء فنظر إليها نظر حسير، من قوله: وهو حسير.

﴿وإنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

قال ابن إسحٰق: إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾.

كتمانهم ما في التوراة من الحق:

وسأل معاذ بن جَبل، أخو بني سَلمة، وسعدُ بن معاذ، أخو بني عبد الأشهل وخارجةُ بن زيد، أخو بَلْحَارِث بن الخزرج، نفرًا من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة، فكتموهم إياه، وأبَوْا أن يُخبروهم عنه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدَى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّناهُ للنَّاسِ فِي الكِتابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾.

جوابهم للنبي عليه الصلاة والسلام حين دعاهم إلى الإسلام:

قال: ودعا رسولُ الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغّبهم فيه، وحَذَّرهم عذابَ الله ونقْمتَه؛ فقا له رافعُ بن خارجة، ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمّد ما وجَدْنا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلَم وخيرًا منّا. فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهما: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوْ لَوْ كَانَ آباؤهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾.

الغَرْضِ والحَقَبِ من صاحبه بذلك. هنا انتهى ما كتبه الشيخ على هذا البيت وأوردته وقبل البيت:

أنشأتُ أسأله عن حال رُفْقَتِه فقال: حَيَّ فإن الركبَ قد نصبا

جمعهم في سوق بني قينقاع

ولما أصاب الله عزّ وجلّ قُريشًا يوم بَدر جمع رسولُ الله ﷺ يهودَ في سوق بني قَيْنُقَاع، حين قدم المدينة، فقال: يا معشر يهود، أَسْلِموا قبل أن يُصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشًا، فقالوا له: يا محمد، لا يغرّنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنَّا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلَنا، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهادُ قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وأُخْرَى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رأَى العَيْنِ واللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إنَّ في ذلك لَعِبرَةً لِأُولي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

دخوله ﷺ بيت المدراس:

قال: ودخل رسولُ الله ﷺ بيتَ المِدْراس على جماعةٍ من يَهود، فدعاهم إلى الله، فقال له النُّعمان بن عمرو، والحارثُ بن زَيد: على أيّ دين أنتَ يا محمد؟ قال: على مِلَّة إبراهيم ودينِه، قالا: فإن إبراهيم كان يهوديًا؛ فقال لهما رسول الله ﷺ: فَهَلُمّ، إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم، فأبَيا عليه. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتابِ يُدْعَوْنَ إلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذلك بأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ما أنزل الله في بني قينقاع

فصل: وذكر ما أنزل الله سُبحانه في بني قَيْنقاع، وقولهم للنبي ﷺ: لو حاربتَنا، لعلمت أنا نحن الناس: ﴿قل للذين كفروا سَتُغلبُون﴾ إلى قوله: ﴿تَرَوْنَهُم مُثْلَيْهم رَأْيَ العين﴾ فمن قرأه: يَرَوْنَهم بالياء، فمعناه أن الكفارَ يرون المؤمنين مثليهم، وإن كانوا أقلَّ منهم لما كثرهم بالملائكة. فإن قيل: وكيف وهو يقول في آية أخرى: ﴿ويُقَلِّلُكُمْ في أعينهم﴾ قيل: كان هذا قبل القتال عندما حَرَزَ الكفار المؤمنين، فرأوهم قليلاً، فتجاسروا عليهم ثم أمدهم الله بالملائكة، فرأوهم، كثيرًا فانهزموا، وقيل: إن الهاء في يَرَونَهُمْ عائدة على الكفار، وإن المؤمنين رَأَوْهُم مثليهم، وكانوا ثلاثةَ أمثالِهم، فقَلَّلهُم في عيون المؤمنين، وأما من قرأها بالتاء، فيجوز أن يكونَ الخطابُ لليهود، أي تَرَوْن المشركين يوم بدر مِثْلِي المؤمنين، وذلك أنهم كانوا ألفًا، فانخذل عنهم الأَخْنَسُ بن شَرِيقٍ ببني زُهْرَة، فصاروا سبعمائة أو نحوها، ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين، أي: ترونَ أيها المشركون المؤمنين مثليهم، حين

اختلاف اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام:

وقال أحبارُ يهودَ ونَصارى نجْران، حين اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازَعوا، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيمُ إلا يهوديًا، وقالت النصارى من أهل نجران: ما كان إبراهيم إلا نَصْرانيًا. فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تُحاجُّونَ فِي إبْرَاهِيمَ وَما أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإنجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ها أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ما كانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلكِنْ كانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما كانَ مِنَ المُشْرِكِينَ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ﴾.

ما نزل فيما همَّ به بعضهم من الإيمان غدوة والكفر عشية:

وقال عبدُ الله بن صيف، وعديّ بن زيد، والحارث بن عوف، بعضُهم لبعض: تَعالَوا نؤمن بما أُنزِل على محمّد وأصحابه غُدوةً، ونكفر به عشيَّة، حتى نَلبسَ عليهم دينهم لعَلَّهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بالباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقّ وأَنْتُم تَعْلَمُونَ وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ آمِنُوا بالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وجْهَ النَّهارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ولا تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّه يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ما نزل في قول أبي رافع والنجراني «أتريد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى»؟

وقال أبو رافع القُرظيّ، حين اجتمعت الأحبارُ من يهود، والنَّصارى من أهل نجْرَان عند رسولِ الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام: أتُريد منا يا محمّد أن نَعْبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجلٌ من أهل نَجْران نَصْرانيّ، يقال له: الرِّبِّيس، (ويروى: الريس، والرئيس): أو ذاك تُريدُ منَّا يا محمد وإليه تدعونا؟ أو كما قال. فقال رسولُ الله ﷺ: معاذَ الله أن أعْبد غيرَ الله أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بَعثني الله، ولا أمرني؛ أو كما قال. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبَوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِبادًا إليّ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ

أمدهم الله بالملائكة فيعود الكلام إلى المعنى الأول الذي قدمناه في قراءة من قرأ بالياء. وفي الآية تَخْليط عن الفَرَّاء أضْرَبنا عن ذكره، وجُلُّ ما ذكرناه آنفًا مذكور في التفاسير بألفاظ مختلفة.

بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1].

قال ابن هشام: الربانيُّون: العلماء الفقهاء السادة، واحدهم: رَبانيٌّ.

قال الشاعر:

لو كنتُ مُرْتَهِنًا في القُوسِ أفْتَنَني مـنـهـا الـكَـلامُ وربَّـانـيَّ أحْـبـارِ

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: القُوسُ: صومعة الراهب. وأفتنني، لغة تميم. وفتنني، لغة قيس.

قال جرير:

لا وَصْل إذ صَرَمتْ هِندٌ ولو وقفت لاسْتَنْزَلَتْني وذا المِسْحَيْن في القُوسِ

أي صومعة الراهب. والرّباني: مشتقّ من الرب، وهو اليد. وفي كتاب الله: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾، أي سيده.

وذكر ابنُ هشام في الربانيين أنهم العلماء الفقهاء السادة وفي البخاري عن بعض أهل العلم قال: الربانيون الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره، وقيل: نسبوا إلى علم الرب والفقه فيما أنزل وزيدت فيه الألف والنون لتفخيم الاسم، وأنشد ابن هشام:

لو كنتُ مُرْتَهِنًا في القُوسِ أفْتَنَني مـنـهـا الـكـلامُ وَربَّـانِـيَّ أَحْـبـارِ

وقال: القُوسِ: الصومعة، ومن كلام العرب: أنا بالقُوسِ وأنت بالقَرقُوسِ، فكيف نجتمع؟ وقال في أفتنني: هي لغة تميم، وفرَّق سيبويه بينَ فَتَنْتُه وأَفْتَنْتُه، وجعله من قول الخليل، قال أفْتَنْته: صيَّرتُه مُفْتَتِنًا أو نحو هذا، وفَتَنْتُه، جعلت فيه فِتْنَةً، كما تقول: كَحَلْتُه جعلت في عينيه كُحْلاً، ومآلُ هذا الفَرْق إلى أن فَتَنْتُه صَرَفْتُه، فجاء على وزنه، لأن المفتونَ مَصْروفٌ عن حَقٍّ، وأفتنته بمعنى أَضْلَلْتُه وأَغْوَيْتُه، فجاء على وزن ما هو في معناه، وأما فتنت الحديدة في النار، فعلى وزن فعلت، لا غير؛ لأنها في معنى: خَبَرْتها، وبَلَوْتُها ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٣٨٤) وأورده ابن كثير في الدر (٢/ ٤٠) وابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤).

قال ابن إسحاق: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبابًا أيأْمُرُكُمْ بالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ما نزل في أخذ الميثاق عليهم:

قال ابن إسحاق: ثم ذكر ما أخذ اللهُ عليهم، وعلى أنبيائهم من الميثاق بتَصْديقه إذ هو جاءهم، وإقْرارَهم، فقال: ﴿وإذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَة ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصرُنَّهُ قالَ أأقْرَرْتُم وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قَالَ فاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إلى آخر القصة.

سعيهم في الوقيعة بين الأنصار:

قال ابن إسحاق: ومَرّ شأس بن قَيْس، وكان شيخًا قد عسا، عظيم الكُفْر شديد الضّغن على المُسْلمين، شديد الحَسد لهم، على نَفَر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخَزرج. في مجلس قد جَمَعهم، يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلْفَتهم وجماعتهم، وصَلاح ذاتَ بَيْنهم على الإسْلام، بعد الذي كان بينهم من العَداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع مَلأ بني قَيْلة بهذه البِلاد، لا والله ما لنا مَعهم إذا اجتمع مَلَؤهم بها من قَرار. فأمر فَتى شابًا من يَهُودَ كان معهم، فقال: اعمِدْ إليهم، فاجلسْ معهم، ثم اذكُر يومَ بُعاث وما كان قَبلَه وأنْشَدهم بعضَ ما كانوا تَقاولوا فيه مِن الأشْعار.

شيء عن يوم بعاث:

وكان يوم بُعاث يومًا اقتتلت فيه الأوْس والخزرجُ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس عن الخَزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَير بن سِماك الأشهلي، أبو أُسَيد بن حُضَير؛ وعلى الخَزْرج عمرو بن النُعمان البَياضِيّ، فقُتِلا جميعًا.

قال ابن هشام: قال أبو قيس بن الأسْلت:

على أن قَد فُجِعتُ بذي حِفاظٍ	فَعاوَدَني لَهُ حُزْنٌ رَصِينٌ
فإمَّا تَقْتلوه فإنَّ عَمْرًا	أعضَّ بِرأسِه عَضْبٍ سَنِينِ

وهذان البيتان في قصيدة له. وحديث يوم بُعاث أطولُ مما ذكرتُ، وإنما منعني من استقصائه ما ذكرت من القَطْع.

....

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: سنين: مسنون، من سنّه، إذا شحذه.

قال ابن إسحٰق: ففعل. فتكلّم القومُ عند ذلك وتنازعُوا وتفاخروا حتى تَواثب رجلان من الحَيَّين على الرُّكب، أوس بن قَيْظي، أحد بَنِي حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبَّار بن صخر، أحدَ بني سَلمة من الخزرج، فتَقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رَدَدْناها الآنَ جذَعة، فغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فَعَلْنا، موعدكم الظَّاهرة ـ والظاهرة: الحرّة ـ السِّلاحَ السِّلاح. فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المُهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبِدَعوى الجاهليَّة وأنا بين أظْهركم بعد أن هَداكم الله للإسلام، وأكْرمَكم به، وقَطع به عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكُفر، وألَّف به بين قلوبكم»[1]، فعرف القومُ أنها نَزْغة من الشيطان، وكَيدٌ من عدوّهم، فَبَكوا وعانَق الرجالُ من الأوس والخَزرج بعضُهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مُطيعين، قد أطفأ الله عنهم كَيْدَ عَدوّ الله شأس بن قيس. فأنزل الله تعالى في شَأس بن قَيسٍ وما صَنع: ﴿قُلْ يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرونَ بآياتِ اللّهِ واللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى ما تَعْمَلُونَ قُلْ يا أهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّه مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجًا وأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وأنزل الله في أوْسِ بن قَيْظي وجَبَّار بن صخْر ومن كان معهما من قومهما الذين صَنعوا ما صنعوا عمَّا أدخل عليهم شأسُ من أمر الجاهلية: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كافِرِين وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وأنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾... إلى قوله تعالى: ﴿وأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ما نزل في قولهم: «ما آمن إلاّ شرّارنا»:

قال ابن إسحٰق: ولما أسلم عبد الله بن سَلام، وثعلبة بن سَعْية، وأُسيد بن سَعية، وأسد بن عُبيد، ومن أسلم من يهود معهم، فآمنوا وصدّقوا ورغبوا في الإسلام، ورسخوا

---

(١) انظر البخاري (٤/٢٢٣).

فيه، قالت أحبارُ يهود، أهل الكُفر منهم: ما آمن بمحمَّد ولا اتبعه إلا شِرارنا، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتابَ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: آناء الليل: ساعات الليل، وواحدها: إنيٌ. قال المُتَنَخِّل الهُذَليّ، واسمه مالك بن عُويمر، يرثي أُثَيلة ابنه:

حُلْو ومرّ كعَطْف القِدْح شيمتُه ... في كلّ إنْيٍ قَضَاه اللَّيلُ يَنْتعلُ

وهذا البيت في قصيدة له. وقال لَبيد بن ربيعة يصف حمار وَحْش:

يُطَرِّبُ آناء النَّهار كأنّه ... غَويّ سَقاه في التِّجار نَدِيمُ

وهذا البيت في قصيدة له، ويقال: إني مقصور فيما أخبرني يونس.

﴿يُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليَوْمِ الآخِرَ ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ما نزل في نهي المسلمين عن مباطنة اليهود:

قال ابن إسحٰق: وكان رجال من المسلمين يُواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجِوار والحلْف، فأنزل الله تعالى فيهم ينهاهم عن مُباطنتهم:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَما تُخفي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنا لَكُمُ الآياتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هَأَنْتُم أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بالكِتابِ كُلِّهِ﴾، أي تؤمنون بكتابكم، وبما مضى من الكُتب قبل ذلك وهم يَكفرون بكتابكم، فأنتم كنتم أحقَّ بالبغضاء لهم منهم لكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأنامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ إلى آخر القصة.

تفسير آناء الليل:

فصل: وذكر ابنُ هشام في تفسير آناءِ الليل، قال: واحد الآناءِ إنْيٌ، واستشهد عليه بقول الهذلي، ثم أغرب بما حدّثه به يونس، فقال: ويقال إني فيما حدّثني يونس بن حبيب، وهذا الذي قاله آخرًا هو لغةُ القرآنِ، قال الله تعالى: ﴿غير ناظرين إنَاه﴾.

ما كان بين أبي بكر وفنحاص:

ودخل أبو بكر الصدّيق بيت المدراس على يَهود، فوَجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجُل منهم، يقال له فِنْحاص، وكان من عُلمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْر من أحبارهم، يقال له: أَشْيع، فقال أبو بكر لفِنْحاص: ويحك يا فنحاص! اتَّق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا لرسول الله، قد جاءكم بالحقّ من عنده تَجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بَكر: والله يا أبا بكر، ما بِنا إلى الله من فَقْر، وإنه إلينا لفَقير، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء، وما هو عنَّا بغَنيٍّ، ولو كان عنَّا غنيًا ما استَقْرضنا أموالَنا، كما يزعمُ صاحبُكم، يَنْهاكم عن الرّبا ويُعْطيناه، ولو كان عنّا غنيًا ما أعطانا الرّبا. قال: فغضب أبو بكر، فضَرب وَجْه فِنْحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نَفسي بيده، لولا العهدُ الذي بَيْننا وبينكم، لضربتُ رأسَك، أي عدوّ الله. قال: فذهب فِنْحاص إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا محمّد انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حَمَلَك على ما صَنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدوَّ الله قال قولاً عظيمًا، إنه زَعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله ممَّا قال، وضَربتُ وجهَه. فجَحد ذلك فِنْحاص، وقال: ما قلتُ ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فِنْحاص ردًّا عليه، وتَصْديقًا لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ونحنْ أَغْنِياءُ، سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بغيرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ﴾.

ونزل في أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وما بلغه في ذلك من الغَضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

ذكر جمل من الآيات المنزلة في قصص الأحبار:

فصل: وذكر ابن إسحٰق جُمَلاً من الآيات المنزلة في قَصَص الأحبار ومسائلهم كلها واضحة، والتكلم عليها يخرج عن غرض الكتاب إلى تفسير القرآن، وفي جملتها قوله تعالى: ﴿أيّان مُرْسَاها﴾ وقال الفراء في أيّان: هي كلمتان، جعلت واحدة، والأصل: أي آن، والآن والأوان بمعنى واحد، كما يقال: رَاح ورَيَاح، وأنشد:

نَشَاوَى تَسَاقَوْا بالرّيَاحِ المُفَلْفَل

وقد ذكر الهروي في أيّان وجهًا آخر، قال: يجوز أن يكون أصلُه: أيْوَان فاندغمت الياءُ في الواو مثل قُيَّام.

ثم قال فيما قال فِنحاص والأحبارُ معه من يهود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمفازَةٍ مِنَ العَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني فِنحاص، وأشيع وأشباهَهما من الأحبار، الذين يفْرحون بما يصيبون من الدنيا على ما زيَّنوا للناس من الضلالة، ويُحبُّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، أن يقول الناس: علماء، وليسُوا بأهْل عِلم، لم يَحْملوهم على هُدًى ولا حقّ، ويُحبون أن يقول الناس قد فعلوا.

أمرهم المؤمنين بالبخل:

قال ابن إسحٰق: وكان كَرْدَم بن قيس، حليفُ كَعب بن الأشرف، وأُسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبَحْريّ بن عمرو، وحُيَيّ بن أخْطب، ورفاعةَ بن زيد بن التابوت، يأتون رجالاً من الأنصار كانوا يُخالطونهم، يَنتصحون لهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقولون لهم: لا تُنفِقُوا أموالكم فإنَّا نخشَى عليكم الفقرَ في ذهابها، ولا تُسارعوا في النَّفقة فإنكم لا تدْرون علامَ يكون. فأنزل الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأْمُرُونَ النَّاسَ بالبُخْلِ ويَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي من التوراة، التي فيها تَصْديق ما جاء به محمدٌ ﷺ ﴿وأَعْتَدْنا للكافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَلا باليَوْمِ الآخِرَ﴾ . . . إلى قوله: ﴿وكانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

جحدهم الحق:

قال ابن إسحٰق: وكان رِفاعة بن زَيْد بن التابوت من عُظماء يهود، إذا كلَّم رسول الله ـ ﷺ لَوى لسانَه، وقال: أرعنا سَمْعك يا محمّد، حتى نُفْهمك، ثم طعن في الإسلام وعابَه. فأنزل الله فيه: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بأَعْدَائِكُمْ وكَفَى باللَّهِ وَلِيًّا وكَفَى باللَّهِ نَصِيرًا مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنا وَعَصَيْنا وَاسمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنا﴾، (أي راعنا سمعك) ﴿لَيًّا بأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وأَطَعْنَا وأَسمع وانْظُرْنا لَكانَ خَيْرًا لَهُمْ وأَقْوَمَ ولكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بكُفْرِهِمْ فَلا يؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً﴾.

وكلَّم رسولُ الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود، منهم: عبد الله بن صوريا الأعور، وكَعْب بن أسد، فقال لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسْلِمَوا، فوالله إنكم لتعلمونَ أنّ

....

الذي جِئْتُكم به لَحقّ، قالوا: ما تعرف ذلك يا محمد: فجَحدوا ما عرفوا، وأصَرُّوا على الكفر، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَا أيها الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّها عَلَى أدْبارِها أوْ نَلْعَنَهُمْ كمَا لَعَنَّا أَصحابَ السَّبْتِ وكانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: نَطْمس: نمسحها فنسوّيها، فلا يُرى فيها عينٌ ولا أنْف ولا فَم، ولا شيء مما يُرى في الوجه، وكذلك ﴿فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ﴾. المطموس العين: الذي ليس بين جَفْنيه شقّ. ويقال طَمَست الكِتابَ والأثر، فلا يُرى منه شيء. قال الأخطل، واسمه الغَوْث بن هُبيرة بن الصَّلت التَّغلبي، يصف إبلاً كلَّفها ما ذكر:

وتَكْلِيفُناها كلَّ طامِسة الصُّوى شَطونٍ تَرَى حِرْباءَها يتَمَلملُ

وهذا البيت في قصيدة له.

قال ابن هشام: واحدة الصُّوى: صُوّة. والصُوى: الأعلام التي يُستدلّ بها على الطرق والمياه.

قال ابن هشام: يقول: مُسِحَت فاستوت بالأرض، فليس فيها شيء ناتىء.

النفر الذين حزّبوا الأحزاب:

قال ابن إسحاق: وكان الذين حزّبوا الأحزاب من قُريش وغَطفان وبني قُريظة حُيَيّ بن أخْطب، وسلام بن أبي الحُقيق، أبو رافع، والرَّبيع بن الربيع بن أبي الحُقيق، وأبو عمّار، ووَحْوح بن عامر، وهَوْذة بن قيس. فأما وَحْوح، وأبو عمّار، وهَوذة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النَّضير. فلما قدموا على قُريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهلِ العلم بالكتاب الأوّل، فَسلوهم: دينُكم خير أم دِين محمّد؟ فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنْتُمْ أهْدَى منه وممن اتبعه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَم تَرَر إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتاب يُؤْمِنُونَ بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ﴾.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الجِبْت (عند العرب): ما عُبد من دون الله تبارك وتعالى.

والطاغوت: كل ما أضلّ عن الحقّ. وجمع الجبت: جُبوت؛ وجمع الطاغوت: طواغيت[١].

قال ابن هشام: وبلغنا عن ابن أبي نجيح أنه قال: الجِبْتُ: السحر؛ والطاغوت: الشيطان:

﴿وَيَقُولونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾.

قال ابن إسحق: إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وآتَيْناهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

إنكارهم التنزيل:

قال ابن إسحق: وقال سُكَين وعديّ بن زيد: يا محمّد، ما نعلم أنّ الله أنزل على بَشر من شيء بعد موسى. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنا إِلى نوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلى إِبْرَاهِيمَ وإِسْماعِيلَ وَإِسحاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْباطِ وَعِيسَى وأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وآتَيْنا دَاوُدَ زَبُورًا وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ورُسُلاً لَمْ نَقْصُصهُمْ عَلَيْكَ وكَلَّم اللَّهُ مُوسَى تَكلِيمًا رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ودخلتْ على رسول الله ﷺ جماعةٌ منهم، فقال لهم: أما والله إنكم لَتعْلمون أنّي رسولٌ من الله إليكم؛ قالوا: ما نعلمه، وما نَشهد عليه. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلائِكَةُ يَشهَدُونَ وكَفَى باللَّهِ شَهِيدًا﴾.

اجتماعهم على طرح الصخرة على رسول الله ﷺ:

وخرج رسولُ الله ﷺ إلى بني النضير يَستعينُهم في دِيَة العامريَّيْنَ الَّلذَين قتل عمرو بن أمية الضَّمْري. فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تَجدُوا محمّدًا أقرَب منه الآن، فَمنْ رجلٌ يَظهر على هذا البيت، فيَطْرح عليه صَخْرة فيُريحنا منه؟ فقال عَمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ، فانصرف عنهم، فأنزل الله تعالى فيه،

---

(١) وقالوا: الجبت: هو الأوهام والخيالات الفاسدة التي عشّشت في عقول أهل الكفر والشّرك. والعياذ بالله تعالى.

وفيما أراد هو وقومُه: ﴿يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطَوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أيديهم عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾.

ادعاؤهم أنهم أحبّاء الله:

وأتى رسولَ الله ﷺ نعمانُ بن أضاء، وبَحْريُّ بن عمرو، وشَأس بن عديّ، فكلّموه وكلّمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله، وحذّرهم نِقْمته؛ فقالوا: ما تُخوفنا يا محمّد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقالَتِ اليَهُودُ والنصَارَى نَحْنُ أبناءُ اللَّهِ وأَحِبَّاؤُهُ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكم بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾.

إنكارهم نزول كتاب بعد موسى عليه السلام:

قال ابن إسحٰق: ودعا رسولُ الله ﷺ يهود إلى الإسلام ورغّبهم فيه، وحذّرهم غِيرَ الله وعقوبَته، فأبَوْا عليه، وكفَروا بما جاءهم به، فقال لهم مُعاذ بن جَبل، وسعدُ بن عُبادة وعُقبة بن وَهْب: يا معشرَ يهود، اتّقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبلَ مبعثه، وتَصِفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حُريملة، ووَهْب بن يهوذا: ما قلنا لكم هذا قطّ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرًا ولا نذيرًا بعده. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿يَأَهْلَ الكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قصّ عليهم خبرَ موسى وما لقي منهم، وانتقاضَهم عليه، وما ردّوا عليه من أمر الله حتى تاهُوا في الأرض أربعين سنة عقوبة.

وذكر آية التِّيهِ وحبس بني إسرائيل فيه أربعين سنةً عقوبةً من الله تعالى لمخالفتهم أمرَه حين فزِعوا من الجبارين لعِظم أجسامهم، وقال لهم رجلان وهما يُوشَعُ بن نُون من سِبْطِ يوسفِ، وكالبُ بن يوفيا من سِبْط يامين ﴿ادْخُلوا عليهم البابَ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ فلما عَصوْهما دعا عليهم موسى، فتاهوا، أي تحيروا، وكانوا ستمائة ألف مقاتل، فتاهوا في سِتَّةِ فراسِخَ من الأرض، يمشون النهار كلَّه، ثم يُمسون حيث أصبحوا، ويُصْبحون حيثُ أَمسَوْا. وفي ذلك السنين أنزل عليهم المنُّ والسَّلْوَى، لأنهم شُغِلوا عن المعاشِ بالتِّيه في الأرضِ، وأُبقيت عليهم ثيابُهم لا تَخْلَق، ولا تَتَّسِخ، وتطول مع الصغير، إذا طال، وفيها استسقى لهم موسى، فأمِرَ أن يأخذَ حجرًا من الطُّور، فيضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا

رجوعهم إلى النبي ﷺ في حكم الرجم

قال ابن إسحـٰق: وحدّثني ابنُ شهاب الزّهريّ أنه سَمع رجلاً من مُزينة من أهل العلم، يحدّث سَعيد بن المسيب، أن أبا هُريرة حدّثهم: أن أحبارَ يهودَ اجتمعوا في بيت المِدْرَاس حين قَدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ، وقد زَنى رجلٌ منهم بعد إحصانه بامرأةٍ من يهودَ قد أحْصَنت، فقالوا: ابعثوا بهذا الرجل وهذه المرأة إلى محمد، فَسَلُوه كيف الحكم

عَشْرَة عَينًا، وفيها ظُلل عليهم الغَمامُ لأنهم كانوا في البَرِّيَّة، فظُلّلوا من الشمسِ، وذلك أن موسى كان نَدم حين دعا عليهم لما رأى من جهدهم وحيرتهم في التيه، فكان يدعو الله لهم في هذه الأمور؛ لئلا يَهلكوا في التيه جوعًا أو عُرْيًا أو عَطَشًا، فلما آسى عليهم قال له: ﴿لا تَأْسَ على القوم الفاسقين﴾ أي: الذين فَسَقُوا أي: خرجوا عن أمرِك. ومات في أيام التيه جميعُ كبارهم إلا يُوشَع وكالبَ فما دَخل الأرضَ على الجبارين إلا خُلُوفُهم وأبناؤهم، وقيل: إن موسى مات في تلك السنين أيضًا ولم يشهد الفتحَ مع يُوشَعَ، وقيل: بل كان مع يُوشَع حين افتتحها[١].

ذكر المرجومة من اليهود[٢]

فصل: وذكر المرجومة من اليهود، وأن صاحبها الذي رُجم معها حَنَا عليها بنفسه ليقيَها الحجارةَ. حَنَا بالحاء تقيد في إحدى الروايتين عن أبي الوليد، وكذلك في الموطأ من رواية يحيىٰ، فجعل يحنى عليها، وفي الروية الأخرى عن أبي الوليد: جَنَأَ بالجيم والهمز، وعلى هذه الرواية فسره أبو عبيد، والجَناء: الانحناءُ، قال الشاعر عَوْفُ بن مُحَلِّم:

وبَـدلـتـنـي بـالـشَّـطَـاطِ الـجَـنَـا وكُـنـتُ كـالـصَّـعْـدَة تـحـت الـسِّـنَـانِ

وفي حُنُوِّه عليها من الفقه: أنهما لم يكونا في حُفْرتين، كما ذهب إليه كثير من الفقهاء في سُنَّة الرَّجم، وكذلك رُوِي عن علي رحمه الله، أنه حفر لشُرَاحَةَ بنتِ مالكٍ الهَمْدَانِية حين رَجَمها. وأما الأحاديث فأكثرُها على ترك الحَفْرِ للمرجوم، واسم هذه المرجومة: بُسْرَةُ فيما ذكر بعض أهل العلم، وفي قصتهما أنزل الله: ﴿وكيف يُحَكِّمونك

---

(١) ذكر القرآن قصة التيه في سورة البقرة، وما أورده السهيلي رحمه الله تعالى هنا إنما هو متلقى عن أهل الكتاب.

(٢) انظر حكم الرجيم عند اليهود. سفر اللاويين. الصحاح (٢٠/ ٢٢). وحديث احتكام اليهود إلى النبي ﷺ في الرجم أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

فيهما، وولّوه الحكم عليهما، فإن عمل فيهما بعَملكم من التَّجْبية ـ والتجبية: الجلدُ بحبل من ليف مَطْلِيّ بقار، ثم تُسَوَّدُ وجوههما، ثم يُحمَلان على حمارين، وتُجعل وجوهُهما من قِبَلِ أدبار الحمارين ـ فاتَّبعوه، فإنما هو مَلِك، وصدّقوه، وإن هو حَكم فيهما بالرَّجْم فإنه نبيّ، فاحذَروه على ما في أيْديكم أن يَسْلَبكموه. فأتَوْه، فقالوا: يا محمّد، هذا رجل قد زَنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت، فاحكُم فيهما، فقد ولَّيناك الحكم فيهما. فمشى رسولُ الله ﷺ حتى أتى أحبارَهم في بيت المدراس فقال: يا معشر يهود أخرجوا إليَّ علماءكم فأخرج له عبد الله بن صُوريا.

قال ابن إسحٰق: وقد حدّثني بعضُ بني قُريظة: أنهم قد أخرجوا إليه يومئذ مع ابن صُوريا، أبا ياسر بن أخْطب، ووهبَ بن يهوذا، فقالوا: هؤلاء علماؤنا. فَسألهم رسولُ الله ﷺ، ثم حصّل أمرَهم، إلى أن قالٰوا لعبد الله بن صُورِيا: هذا مِن أعلم مَنْ بقي بالتوراة.

قال ابن هشام: من قوله: «وحدّثني بعض بني قريظة ـ إلى أعلم من بقي بالتوراة» من قول ابن إسحٰق، وما بعده من الحديث الذي قبله.

فخلا به رسولُ الله ﷺ، وكان غلامًا شابًا من أحْدثهم سنًّا فألَظّ به رسولُ الله ﷺ المسألة، يقول له: يا ابن صُورِيا، أَنْشُدك الله وأُذكِّرك بأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلَم أن الله حكَم فيمن زنى بعد إحصانه بالرَّجْم في التوراة؟ قال: اللهمّ نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك لَنَبيّ مُرْسل ولكنهم يحسدونك. قال: فخرج رسولُ الله ﷺ. فأَمر بهما فَرُجِما عند باب مسجده في بني غَنْم بن مالك بن النجّار. ثم كفر بعد ذلك ابن صُورِيا، وجَحد نبوّة رسول الله ﷺ.

وعِنْدَهم التَّوْرَاةُ﴾ الآية إلى قوله: ﴿يحكم بها النبيون الذين أسلموا﴾، يعني محمدًا، ومَنْ حكم بالرَّجم قبله، لأنه حكم بالرَّجم لأولئك اليهود الذين تحاكموا إليه، والرَّبَّانيُّون. يعني: عبدَ الله بن سَلاَم وابن صُورِي من الأحبار بما اسْتُحْفِظُوا من كتاب الله، لأنهم حفِظوا أن الرَّجْمَ في التَوراة، لكنهم بدَّلوا وغيروا، وكانوا عليه شُهداءَ؛ لأنهم شَهدوا بذلك على اليهود إلى قوله: ﴿ومن لم يَحْكُم بما أنزل الله﴾ فحكم بالرَّجْم رسولُ الله ﷺ، وهذا يبين لك أن الرَّجْمَ في القرآن، وعلى هذا فسره مالكُ فيما بلغني، ولذلك قال عليه السلام للرجلين: لأَحْكُمَنَّ بينكما بكتاب الله، فحكَم بالرجم، كما في الكتاب المنزَّل على موسى، وعلى مُحَمَّد صلى الله عليهما، وقد قيل في معنى الحديث أقوالٌ غير هذا، والصحيح ما ذكرنا.

قال ابن إسحٰق: فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يا أَيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الكفرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بأَفْوَاهِهِمْ ولَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: الذين بَعثوا منهم من بَعثوا وتخلَّفوا، وأمروهم بما أمروهم به من تحريف الحُكم عن مَواضعه. ثم قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِه يَقُولُونَ إنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾، أي الرجم ﴿فاحْذَرُوا﴾ إلى آخر القصة.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني محمد بن يزيد بن رُكانة عن إسماعيل بن طلحة بن إبراهيم، عن ابن عباس، قال: أمر رسول الله ﷺ برَجْمهما، فرُجما بباب مسجده، فلما وجد اليهوديّ مسَّ الحجارة قام إلى صاحبته، فَجَنأ عليها، يقيها مسّ الحجارة، حتى قُتِلا جميعًا.

قال: وكان ذلك مما صنع الله لرسوله ﷺ في تحقيق الزنا منهما.

قال ابن إسحٰق: وحدّثني صالح بن كَيْسان، عن نافع مَوْلى عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمر، لمَّا حكَّوا رسولُ الله ﷺ فيهما، دعاهم بالتّوراة، وجَلَس حَبْر مِنهم يتلوها، وقد وضع يدَه على آية الرجم، قال: فضرب عبدُ الله بن سلام يد الحبر، ثم قال: هذه يا نبيَّ الله آية الرجم، يَأبى أن يَتْلوها عليك، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ويحكم يا معشر يهود! ما دعاكم إلى ترك حُكم الله وهو بأيديكم؟ قال: فقالوا: أمّا والله إنه قد كان فينا يُعْمل به، حتى زَنى رجل منّا بعد إحْصانه، من بُيوت الملوك وأهْل الشَّرف، فمَنعه الملك من الرجْم، ثم زَنى رجلٌ بَعْدَه، فأراد أن يَرْجُمه، فقالوا: لا والله، حتى تَرْجم فلانًا، فلمَّا قالوا له ذلك اجتمعوا فأصْلحوا أمْرهم على التَّجْبية، وأماتوا ذِكْر الرَّجم والعمل به. قال: فقال رسولُ الله ﷺ: فأنا أوّل من أحْيَى أمْر الله وكتابه وعَمل به، ثم أمرَ بهما فرُجما عند باب مَسْجده. قال عبد الله بن عمر: فكنت فيمن رَجَمَهما.

ظلمهم في الدّية:

قال ابن إسحٰق: وحدّثني داودُ بن الحُصين عن عِكْرمة، عن ابن عبَّاس: أن الآياتِ من المائدة التي قال الله فيها: ﴿فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ

واستشهد ابنُ هشام في تفسير الجهرة بقول أبي الأخزر الحِمَّانِي، واسمه: قتيبة، وحِمَّانُ هو ابنُ كَعْب بن سَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةِ بنِ تَميم، فقال:

يــجــهــر أفــواه الــمــيــاه الــسُّــدُم

فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحب المُقْسِطِينَ﴾ إنما أنزلت في الديّة بين بَني النَّضير وبين بني قُرَيظة، وذلك أن قَتْلَى بني النَّضير، وكان لهم شرف، يُؤدّون الدية كاملة، وأن بني قريظة كانوا يؤدون نصف الدِّية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسولُ الله ﷺ على الحقّ في ذلك، فجعل الديةَ سَواء.

قال ابن إسحٰق: فالله أعلم أيّ ذلك كان.

قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ:

قال ابن إسحٰق: وقال كعب بن أسد، وابن صَلُوبا، وعبد الله بن صُوريا، وشَأْس بن قيس، بعضُهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمّد، لعلنا نَفْتنه عن دينه، فإنما هو بشر، فأتَوْه، فقالوا له: يا محمّد، إنك قد عرَفْت أنَّا أحبارُ يهود وأشرافُهم وسادتُهم، وأنَّا إن اتبعناك اتبعتك يهود، ولم يخالفونا، وأنّ بيننا وبين بَعْض قومنا خُصومة، أفنحاكمهم إليك فتَقْضيَ لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدّقك، فأبى ذلك رسولُ الله ﷺ عليهم. فأنزل الله فيهم:﴿وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فإِنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّة يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يوقِنونَ﴾.

جحودهم نبوّة عيسى عليه السلام:

قال ابن إسحٰق: وأتى رسولَ الله ﷺ نفرٌ منهم: أبو ياسر بن أخطب، ونافع بن أبي نافع، وعازر بن أبي عازر، وخالد، وزيد، وإزار بن أبي إزار، وأشيع، فسألوه عمَّن يؤمن به من الرسل؛ فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿نُؤمِنُ باللَّهَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وإِسْماعِيلَ وإِسحاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسَى وَعيسَى وَما أُوتيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنحن لهُ مُسْلِمُونَ﴾. فلما ذُكر عيسى ابن مريمَ جحدوا نُبوّته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ

يقال: ماء سِدَامٌ إذا غطاه الرمل، وجمعه: سُدَّم، وجمعه على سَدُم غريب، ويقال أيضًا سِدَامٌ وأسْدَام ونحو من قوله يَجْهر قولُ عائشة رضي الله عنها في أبيهًا. واجْتَهَر لهم عَيْن الرَّوَاءِ، وأنشد في تفسير القوم وأنه البُرُّ:

فَوْق شِيزَى مثل الجَوابي عليها قِطَعٌ كالوَذِيلِ في نِقْبِي فُومِ

بِأَهْلَ الكِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إلاَّ أَنْ آمَنَّا باللَّهِ وَما أُنْزِلَ إلينا وما أُنزِل مِنْ قَبْلُ وأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقونَ﴾.

ادعاؤهم أنهم على الحق:

وأتى رسولَ الله ﷺ رافعُ بن حارثة، وسَلاَّم بن مِشْكم، ومالك بن الصَّيف، ورافع بن حُرَيْملة، فقالوا: يا محمّد، ألستَ تَزْعُم أنك على ملّة إبراهيم ودينه، وتُؤمن بما عِندنا من التَّوراة، وتَشْهد أنها من الله حقّ؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وجَحدتم ما فيها ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكَتمتم منها ما أُمرتم أن تُبَيِّنوه للنَّاس، فَبرئتُ من إحداثكم؛ قالوا: فإنَّا نأخذ بما في أيدينا، فإنَّا على الهدى والحقّ، ولا نُؤمن بك، ولا نَتَّبعك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حتى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ وَما أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيانًا وكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى القَوْمِ الكافِرِينَ﴾.

إشراكهم بالله:

قال ابن إسحٰق: وأتى رسولَ الله ﷺ النَّحامُ بن زيد، وقَرْدَم بن كعب، وبَحْري بن عمرو، فقالوا له: يا محمد، أما تَعلم مع الله إلـٰهًا غيرَه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: الله لا إلـٰه إلا هو، بذلك بُعثتُ، وإلى ذلك أدْعو. فأنزل الله فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أيُّ شَيْءٍ أَكْبرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهيدٌ بَيْنِي وبينكم وأُوحِيَ إليَّ هَذَا القُرآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ أشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

نهيه تعالى للمؤمنين عن موادّتهم:

وكان رفاعة بن زيد بن التابوت، وسُويد بن الحارث قد أظْهرا الإسلامَ ونافقا فكان رجالٌ من المسلمين يوادّونهما. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الذين اتخذوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ والكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا

الشِّيزَى: خشب أسود تُصنع منه الجفاء [مفردها: جَفْنَة، وهي القصعة، والجوابي: جمع جابية: الحوض يُجبى فيه الماء للإبل]، والوَذيل: جمع وذيلة وهي السبيكة من الفضة. قال الشاعر:

وتُريكَ وَجْهًا كالوَذِيـ ... ـلَة لا رَيَّان ممتلىء ولا جَهْم

اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. . . إلى قوله: ﴿وَإِذَا جاؤُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بالكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعلَمُ بِمَا كانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

سؤالهم عن قيام الساعة:

وقال جَبَل بن أبي قُشير، وشَمْويل بن زيد، لرسول الله ﷺ يا محمّد، أخْبرنا، متى تقوم الساعة إن كنتَ نبيًّا كما تقول؟ فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَٰوَاتِ والأرضِ لا تَأْتِيكُم إِلاَّ بَغْتَةً يَسألُونَكَ كأنَّكَ حَفِيٌّ عَنها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ ولكن أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: أيَّان مُرْساها: متى مُرْساها. قال قَيْس بن الحُدَاديَّة الخُزاعيُّ:

فجئتُ ومُخْفَى السِّرّ بيني وبينها لأسألها أيَّان مَنْ سار راجعُ؟

وهذا البيت في قصيدة له. ومرساها: منتهاها، وجمعه: مَراس. قال الكُميت بن زيد الأسدي:

والمُصِيبين بابَ ما أخْطأ النَّا سُ ومُرسَى قواعد الإسلامِ

وهذا البيت في قصيدة له ومُرسَى السفينة: حتى تنتهي. وحَفِّى عنها ـ على التقديم والتأخير ـ يقول: يسألونك عنها كأنَّك حَفِيّ بهم، فتُخبرهم بما لا تخبر به غيرَهم. والحفيّ: البَرّ المتعهد. وفي كتاب الله: ﴿إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. وجمعه: أحفياء. وقال أعشى بَني قَيْس بن ثعلبة:

فإنْ تسألي عني فيا رُبّ سائلٍ حَفيّ عن الأعشى به حيثُ أصْعدا

وهذا البيت في قصيدة له. والحفيّ أيضًا: المُسْتَحْفِي عن عِلْم الشيء، المبالغ في طلبه.

ومنه قول عمرو بن العاص لمعاوية: أما والله لقد أَلْفَيْتُ أمرَك، وهو أَشَدُّ انْفِضَاحًا من حُقّ الكَهُول. كذلك رواه الهَرَوِيُّ، وقال ابن قتيبة: الكَهْدَل، فما زلتُ أَرُمُّه بوذائِله، وأصِله، بوَصَائِله، حتى تَرَكْته على مثل فَلْكَة المذر. حُقُّ الكَهُول: بيت العنكبوت، وكما قاله الهروي، قاله أبو عُمَر الزاهد في كتاب الياقوت، كما وقع في غريب الحديث للقُتَبِيّ قاله أبو عبد الله بن القزاز في الكتاب الكبير، قال: الكَهْدَلُ: العنكبوت، وقيل: في الكَهُول إنه ثَدْي

ادعاؤهم أن عزيرًا ابن الله:

قال ابن إسحٰق: وأتى رسولَ الله ﷺ سلاّم بن مِشْكم، ونعمانُ بن أوفى أبو أنس، ومحمود بن دِحية، وشأس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا له: كيف نتَّبعك وقد تركت قِبْلَتَنا، وأنت لا تَزْعم أن عُزيرًا ابنُ الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللَّه وَقالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابنُ اللَّهُ ذلكَ قَوْلُهُمْ بأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا منْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] إلى آخر القصة.

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: يضاهون: أي يشاكل قولُهم قولَ الذين كفروا، نحو أن تحدِّث بحديث، فيحدِّث آخر بمثله، فهو يضاهيك.

طلبهم كتابًا من السماء:

قال ابن إسحٰق: وأتى رسولَ الله ﷺ محمودُ بن سَيْحان، ونُعمان بن أضاء، وبَحْريّ بن عمرو، وعُزير بن أبي عُزير، وسلاّم بن مِشْكَم، فقالوا: أحقّ يا محمّد أن هذا الذي جِئْتَ به لحقّ من عند الله، فإنا لا نراه متسقًا كما تتسق التوراة؟ فقال: لهم رسولُ الله ﷺ: أما والله إنكم لتَعْرفون أنه من عند الله. تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة، ولو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثله ما جاؤوا به؛ فقالوا عند ذلك، وهم جميع: فنحاص، وعبد الله بن صُوريا، وابن صلوبا، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وأشيع، وكعب بن أسد، وَشَمْويل بن زيد، وجَبل بن عمرو بن سُكينة: يا محمّد، أما يعلّمك هذا إنس ولا وجنّ؟ قال: فقال لهم رسولُ الله ﷺ: أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإني لرسول الله، تجدون ذلك مكتوبًا عندكم في التوراة؛ فقالوا: يا محمّد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويَقْدر منه على ما أراد، فَأَنْزِل علينا كتابًا من السماء نقرؤه ونَعْرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به. فأنزل الله تعالى فيهم

العجوز، وفي العين الوذيلة: المِرآة، وقيل في الفُوم: إنه الثُّوْمُ، واختاره ابن قتيبة، واحتج بأنه في مُصْحَف عبد الله بن مَسْعود: وثومها، ولا حجة في هذا لما ذكره أبو حنيفة في النبات: أن الثُّومَ، هو البُرّ، وأنه يقال بالفاء وبالثاء، ومن الشاهد على الفُوم وأنه البرُّ قول أبي أُحَيْحَة بن الجُلاَح، وقيل هو لأبي مِحْجَنِ الثَّقَفِّي:

قد كنت أغنى الناس شخصًا واحدًا ... سكن المدينة عن زراعة فُوم

وفيما قالوا: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الظهير: العون. ومنه قول العرب: تظاهروا عليه، أي تعاونوا عليه. قال الشاعر:

يا سَميّ النبيّ أصبحتَ للدّيـ ـن قوامًا وللإمام ظَهيرًا

أي عونًا؛ وجمعه: ظهراء.

سؤالهم له ﷺ عن ذي القرنين:

قال ابن إسحٰق: وقال حُييّ بن أخطب، وكعبُ بن أسد، وأبو رافع وأشيع، وشَمْويل بن زيد، لعبدِ الله بن سلام حين أسلم: ما تكون النبوّة في العرب ولكنّ صاحبك مَلِك. ثم جاؤوا رسولَ الله ﷺ فسألوه عن ذي القرنين فقَصّ عليهم ما جاءه من الله تعالى فيه، ممّا كان قصّ على قُريش، وهم كانوا ممن أمَر قُريشًا أن يسألوا رسولَ الله ﷺ عنه، حين بَعثوا إليهم النَّضر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعَيط.

تهجمهم على ذات الله وغضب الرسول ﷺ لذلك:

قال ابن إسحٰق: وحُدِّثت عن سعيد بن جبير أنه قال: أتى رهطٌ من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّد، هذا الله خَلَق، الخلقَ، فمن خلق الله؟ قال: فغضب رسولُ الله ﷺ حتى انتُقع لونُه، ثم ساوَرَهم غَضبا لربِّه. قال: فجاءه جبريلُ عليه السلام فسكَّنه، فقال: خفِّض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجَواب ما سألوه عنه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

قال: فلما تلاها عليهم، قالوا: فصِفْ لنا يا محمد كيف خَلْقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عَضده؟ فغَضب رسولُ الله ﷺ أشدّ من غضبه الأوّل، وساورهم. فأتاه جبريلُ عليه السلام، فقال له مثلَ ما قال له أوّل مرّة، وجاءه من الله تعالى بجوَاب ما سألوه. يقول

وأنشد في بعض ما فَسّر بيت الأخطل، قال: وهو الغَوْثُ بن هُبَيْرَةَ بن الصَّلْت، يُكْنى أبا مالكٍ، والمعروف: غِيَاثُ بن الغَوْثِ بن هُبَيْرَة بن الصَّلْت، وسُمّي: الأخطل لقوله:

لَعَمْرُك إنني وابني جُعَيْل وأُمَّهُمَا لأَسْتَارٌ لَئِيمُ

الله تعالى: ﴿وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ والسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال ابن إسحـٰق: وحدّثني عُتبة بن مُسلم، مولى بني تَيْم، عن أبي سَلمة بن عبد الرحمـٰن، عن أبي هُريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُوشِك النَّاس أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلُهم: هذا الله خَلق الخلْق، فمن خَلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقُولوا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولدْ ولَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. ثم ليتفُل الرجل عن يساره ثلاثًا، ولْيَستعذ بالله من الشيطان الرجيم».

تفسير ابن هشام لبعض الغريب:

قال ابن هشام: الصمد: الذي يُصمَد إليه، ويُفْزع إليه، قالت هِنْد بنت مَعْبد بن نَضلة تَبْكي عمرو بن مَسْعود، وخالد بن نَضْلةَ، عَمَّيْها الأسديَّين، وهما اللَّذان قَتل النُّعمان بن المُنذر اللَّخميّ، وبَني الغَرِيَّيْنِ اللَّذين بالكوفة عليهما:

ألا بَكَرَ النَّاعي بخَيرَى بني أسدْ ... بعَمْرو بن مَسْعود وبالسيِّد الصَّمَد

كل أربعة إستَارٌ قيل: إن كعبَ بنَ جُعَيل قال له في خبر جرى بينهما، والأخطل يومئذ غُلامُ يقَرْزِمُ، أي: كما يَبْتَدِي[1] يقول:

قُبِّحَ ذاك الـوَجْـهُ غِـبَّ الـحُـمَّـه ... فـقـال الأخـطـلُ، ولـم يَـكُـنِ

وفَـعَـلَ كـعـبُ بـن جُـعَـيـلٍ أُمَّـه ... فـقـال جُـعَـيـلٌ: إنـك لأخْـطَـلُ[2]

(١) أي بداية قوله شعرًا.

(٢) انظر الأغاني (٨/٢٨).

فهرس محتويات الجزء الثاني
مـــــن
الـــــروض الأُنـف

الفهرس